



44
إميلي برونتي

مرتفعات ويذرنج

الجزء الأول

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
الطبع والنشر والتوزيع
1 شارع عمر بن الخطاب - القاهرة - 11514

موسم



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ:

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «بروتى» تشابهن فى كل شىء تقريباً: تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! .. وهكذا اقتصر اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « أن بروتى » من هذا الإنتاج الرواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات ودرج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهم بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل أو التدرن الرئوى - فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به « إميلي » فى سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) . ثم ماتت به « أن » فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «بروتى» لاتنف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجور القائم الذى تتسم به رواياتهن جميعاً . فقد كانت أسرة بروتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلي ، وأخيراً « أن » وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «أن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات أحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية - هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين إير) باسم «لوود» .



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلي برونتي»

الجزء الأول

الشقيقات الخالدات !

عزيزى القارىء ..

منذ قدمت لك الترجمة الكاملة لقصة « شارلوت برونتى » الخالدة (جين إير) وأنا أتوق إلى أن أقدم لك هذه القصة « الشقيقة » بدورها ، (مرتفعات وبدرنج) التى تفوق (جين إير) روعة وخلودا .. بل وتفوقها مكانة فى موازين التراث الأدبى العالمى الذى تعزى به الانسانية جمعاء ..

وحين أضع هاتين القصتين « الكلاسيكيتين » الخالدتين فى مرتبة « الشقيقتين » فإنما أعنى بذلك معناه المزوج : فهما شقيقتان فى « جوها » القصصى ، ولونهما الأدبى - كما سترى - من ناحية .. وهما من الناحية الأخرى نتاج عبقرية مؤلفتين شقيقتين هما « شارلوت برونتى » - مؤلفة (جين إير) - و « اميلى برونتى » ، مؤلفة (مرتفعات وبدرنج) .

أسرة العبقرية .. والفواجع !

وهذا يسوقنى إلى كلمة قصيرة عن أسرة « برونتى » التى أنجبت الشقيقات الثلاث ، بل العبقريات الثلاث ، والمؤلفات الثلاث : « شارلوت » ، و « اميلى » ، ثم سغراهن « آن » برونتى !

ومن عجب أن الشقيقات الثلاث تشابهن فى .. كل شيء تقريباً .. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت !

.. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وخلودهن ، فاقترن اسم كل منهن بقصة من روائع الأدب الإنسانى - وكان نصيب سغراهن « آن » من هذا الإنتاج قصة (آجنس جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه القصة من الشهرة أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وبدرنج) ..

.. وتشابهن فى هزال أبدانهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى أصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل - فماتت به شارلوت فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) .. وماتت به « اميلى » فى سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) .. ثم ماتت به « آن » فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) !

طفولة حزينة

والواقع أن فواجع أسرة « برونتى » لا تقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القائم الذى تتسم به قصصهن جميعاً ! .. فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قس « أبروشية » بجهة (هاروث) بانطرترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، اليزابيث ، شارلوت ، برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم اميلى ، وأخيراً « آن » . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو ستة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى « ماريا » فى سن السابعة ، والصغرى « آن » فى صامها الأول !

وهكذا صارت « ماريا » ، وهي بعد في سن السابعة ، بمثابة « الأم » للصفار الخمسة الآخرين !.. وبعد أربع سنوات ، الحق الأب الحزين ابتنيته الكبيرتين « ماريا » و « اليزابيث » بمدرسة داخلية - هي المدرسة الرهيبة التي وصفتها شارلوت في قصة جين إير ، باسم « لورود » .. لذلك لم يكن غريباً أن ماتت الأختان الكبيرتان في تلك المدرسة ؛ تاركتين لأبيهما الشاكل شقيقتاهما الثلاث ، وشقيقتهما الوحيد « برانويل » .

فصل البيئة ، والتربية ، على موهبتين الأدبية

وجلب القس شقيقته لترعى أطفاله الأربعة . وكان بيته في « الأبروشية » فسبحا متعدد الحجرات ، تحيط به في الخارج الأحراش والغابات ذات الجمال الأخاذ ، في كافة فصول العام . وفي داخل الدار كانت الخادمة « تابی » تروى للصفار قصص العائلات القريبة الأطوار التي تقطن القصور والضياع المتباعدة في تلك المنطقة من مناطق مقاطعة (يوركشاير) !.. كما كان الأب يعنى بتعليم صغاره ويتحدث إليهم كما لو كانوا كباراً .. وعودهم أن يطالعوا الكتب والصحف ، ويناقشوه في محتوياتها .. وهكذا شبوا وقد اتقى الاطلاع فيهم ملكة الخيال والتصور ..

ومند صباحن اتجهت ميول الشقيقات الثلاث نحو الأدب .. بينما مال شقيقهن الوحيد « برانويل » إلى الرسم . بالإضافة إلى مواهبه الأخرى في الكتابة ، والدراسة ، والحديث

البارع !.. على أنه حين جاء أوان ترجمة هذه المواهب في الحياة العملية ، منى بفشل ذريع في جميع الميادين ، فأدمن الخمر .. ثم برزت موهبته الكبرى في العثور على مبررات لهذا الفشل !.. وهكذا صار الفتى الذي كان موضع فخر شقيقاته ، وآمالهن ، محطبة للخجل والعار !.. وإذ يشن من أن يصبح مصدر دخل للأسرة ، عمدن إلى البحث عن أعمال كرميات لدى الأسر الثرية ، وهي المهنة الوحيدة الشريفة للعوائس الفقيرات في ذلك العصر .. ثم رحلت شارلوت وأميلي إلى (بروكسل) حيث اشتغلتا زمناً بالتدريس ، لكن صحة أميلي بدت في التدهور ، واشتد بسا الحنين إلى أحراش (يوركشاير) ، فعدتا إلى وطنهما .. وهناك بدأنا تمارسان مع شقيقتهما الثالثة كتابة القصة ونظم الشعر ، فنشرن ديوانهن الأول بتوقيعات مستعارة لثلاثة أشقاء وهميين - من الرجال - بأسماء : « كارر ، وإيليس ، واكتون بيل » !

وبرغم فشل الديوان من حيث الزواج ولفت انظار النقاد ، فإن مجرد رؤية الشقيقات الثلاث لإنتاجهن مطبوعاً على الورق ، كان كافياً لإشمال حماسهن من أجل تحقيق أحلامهن الأدبية الواسعة ، فلم تعد تستطيع قوة أن توقف انطلاقتهن ! .. وهكذا عكفت « شارلوت » على كتابة (جين إير) ، و « آن » على كتابة (آجنس جراي) ، و « أميلي » على كتابة (مرتفعات ويلدرنج) .. وكانت الأخيرة هي أول قصة من الثلاث ترى النور .. نور المطبعة !

وكانت « اميلى » قد « حملت » هذه القصة زمنا في عقلها وقلبها ، وهى واقدة فوق احواس نبات (الخنج) ، تحت اشعة شمس الربيع ، او وهى ترتب دوامات الجليد في ايام ديسمبر القارسة . وبرغم ان القصة نشرت تحت ذلك الاسم « الرجالى » المستعار ، فقد رجح القراء ان المؤلفة امرأة ، لكنهم تخيلوها امرأة مغامرة عركت الحياة الصاخبة ، وإلا لما استطاعت تصوير العواطف « بهذا العنف ، والجموح ، والقوة الدافقة ! » .. وما درى الواهمون ان المؤلفة لم تعيش إلا حياة الراهبات الناسكات !

وبدات اميلى تسعل .. لكنها ابت الاستكانة لعلاج ، بل رفضت زيارة الطبيب .. فسارت نحو النهاية يخطى حثيثة . وحتى في يوم وفاتها ذاته ، ارتدت ثيابها ، وهبطت من غرفتها ، وجلست تكتب كالعادة .. فماتت « واقفة » ، او « على خشبة المسرح » كما يشتهى الممثلون !

ولم يستطع احد ان يتعرف في ابطال (مرتفعات ويدرنج) على اشخاص عرفتهم « اميلى » في حياتها .. لكنهم اشخاص يستطيع ان يتعرف عليهم كل من يعرف الانسانية .. في كل زمان ومكان !.. فمن بوتقة احراش (يوركشاير) الضاربة الغامضة ، وبقايا قصص المربية « تايى » نصف المنسية ، وببصيرة المتصوفة التى تنفذ إلى حقائق الحياة والموت .. كتبت اميلى برونتى من .. حب أقوى من الموت !

هل هي قصة حب ؟

على انها ليست قصة حب ، وإن كانت هى قصة من

الحب .. فلقد عرفت اميلى بوحي من قلبها المستوحش ان الحب ليس على الدوام رقيقا ، سعيدا .. وإنما هو قد يكون قاسيا ، ضاربا ، لا ضمير له !.. وقد يمزق سكينه النفس كما تمزق العاصفة سكون الغابة .. لكنها عرفت أيضا انه قد يتسامى فيغدو اعظم ، وأجل قدرا من المحبين انفسهم ! .. وتتوالى الاجيال ، ويشب كل جيل فيجد (مرتفعات ويدرنج) تنتظر نفرا منه ليجد فيه مصداقا لحيه ؛ العنيف ، العنيف ، المتسامى .. وسيظل هناك دائما عشاق يرون فيها مرآة لعواطفهم الشخصية ، التى تهيم فى وديان بعيدة عن تلك التى تهيم فيها عواطف عامة الناس !

وقد يروق لك إذا زرت انجلترا أن ترى البيت الذى يقولون انه مسرح أحداث هذه القصة .. وإن لم تجد شخصا يؤمن حقا بأن شبح « كاترين » قد تسلق يوما نافذته !

وقد يروق لك أن تزور البيت الذى عاشت فيه أسرة « برونتى » بضاحية (هاورث) ، وكتبت فيه « اميلى » (مرتفعات ويدرنج) .. الخ .. ومن أجل هذا حرصت على ان ازود هذه الطبعة بكل ما استطعت الحصول عليه من صور نادرة لتلك الاماكن التاريخية ..

والآن ، دعنى اخطى ببنك وبين البدء فى قراءة هذه التحفة الادبية الإنسانية الرائعة ، التى ستوافيك ترجمتها الكاملة الأمانة هذه فى ثلاثة اجزاء من هذا الحجم ..

والله ولى التوفيق ،

حلمى مراد

الفصل الأول

١٨٠١

عدت للتو من زيارة مالك الدار التي استأجرتها ، وهو الجار الوحيد الذي يكثر صفو العزلة التي أنشدها . ولعمري إن هذه قطعة من الريف رائعة الجمال حقا ، وما أحسبني كنت مهتديا - في إنجلترا كلها - إلى مكان ينأى عن ضجة المجتمع وضوضائه مثلما ينأى هذا المكان .. انه الفردوس المنشود لعدو البشر ! .. وأنا ومستر « هيثكليف » خير اثنين اتفقت مشاربهما بحيث نقسم هذه الوحشة فيما بيننا .. يا له من شخص عظيم ! .. إننى لا أظنه قد أدرك كيف هفا إليه قلبى ومال ، عندما رأيت عينيه السوداوين تضيقان في حذر وريبة ، وتسنحبان تحت حاجبيه - بينما كنت أدنو منه على ظهر جوادى - ثم عندما توغلت أصابعه في عزم وإصرار داخل أفوار صدرته - وأنا أعلن اسمى له - كأنما تحتسى بها حتى لا تمتد لمصافحتى ..

قلت : « مستر هيثكليف ! »

فكان الجواب إيماءة بسيرة .. واستطردت أقول :

- اننى مستر لوكوود ، المستأجر الجديد لبيتك ياسيدى . وقد بادرت إلى الحضور للتشرف بزيارتك في أول فرصة أتيحت لى بعد مقدمى ، لأعبر لك عن رجائى فى ألا أكون قد انقلت عليك بالبحاحى فى طلب استئجار (نرشكروس جرانج) ، إذ علمت بالأمن أنك كنت تفكر فى ..

فقاطعنى وهو يرتد إلى الوراء مجفلا : « ان (نرشكروس جرانج) مملوكة لى ياسيدى ، وما كنت لاسمح لمخلوق بأن يشغل على مادام فى استطاعتى أن أحول دون ذلك . ادخل .. » .

وقد انطلقت هذه الكلمة الأخيرة من بين اسنانه العليقة وكأنما كانت تعبر عن رغبته فى ان « اذهب إلى الشيطان ! » بل ان البوابة التي كان يستند اليها لم تبد أية حركة ودية تستجيب بها لهذه الدعوة .. وأحسب أن هذا الموقف منه إنما حفزنى وشد من عزمى على تلبية دعوته ، إذ شعرت بالميل نحو رجل يبدو أشد منى غلوا فى التحفظ والتغور من الناس ..

وإذ رأى صدر جوادى يدفع الحاجز فى رفق ، مد يده فأزاح السلسلة التي كانت البوابة مغلقة بها ، ثم استدار دفعة واحدة ، ومضى يتقدمنى فى المر المرتفع .. حتى اذا ما بلغنا الغناء صاح مناديا : « جوزيف .. خذ جواد مستر لو كوود ، واحضر بعض التبنيد ! »

وقد أوحى لى هذا الأمر الازدوج بفكرة خامرتنى وحدثت بها نفسى قائلا : « لاريب أن هذا كل ما فى المؤسسة من خدم وحشم ! .. فلا عجب اذا ترعرع العشب بين البلاط وكانت الماشية هى الأداة الوحيدة لتشديد الأسوار النامية ! »

« اما جوزيف فكان رجلا مسنا ، لا بل شيخا عجوزا .. أو لعله كان مغرطا فى الشيخوخة برشم ما يبدو عليه من صحة قوية وعضلات مفتولة .. فتمتم فى هههمة مكتومة تتم عن السخط ، وهو يأخذ بعنان جوادى : « ليكن الله فى عوننا .. »

بينما أخذ في الوقت نفسه يحملق في وجهي في غلظة وتبرم ، بحيث حدثت - إمعانا مني في السماح - أنه لا بد في حاجة إلى « العون الإلهي » ليساعده على هضم غدائه ، وأن إبتهالاته النقية لا شأن لها بمقدمي المفاجيء غير المنتظر !

و « مرتفعات ويدرنج » هو اسم الدار التي يسكنها مستر هيتكليف . وكلمة « ويدرنج » اصطلاح اقليمي ذو دلالة خاصة في وصف جلبة الرياح التي يتعرض لها موقع الدار في الاجواء العاصفة . وهم ولا ريب يستمتعون بالهواء النقي المنعش طوال ايام العام في هذا المكان المرتفع ، كما أن في وسع المرء أن يحدس قوة الرياح الشمالية التي تهب على حافة المرتفعات حين يتأمل ذلك الانحناء الشديد لسيقان اشجار (الشربين) الضامرة القليلة المتناثرة خلف الدار ، وتلك السلسلة من الاغصان المدببة الخالية من الاوراق ، وقد مدت اطرافها جميعا في اتجاه واحد كأنها تستجدي الشمس حرارتها ودفاها . . ومن حسن الحظ أن المهندس الذي شيد الدار كان من بعد النظر بحيث اقامها متينة قوية ، وجعل نوافذها ضيقة غائرة في الجدران ، ووقى زوايا البناء بالحجار كبيرة بارزة .

وقبل أن أجتاز عتبة الدار تمهلت قليلا لأأمل في إعجاب عددا من النقوش الغريبة الشكل المتناثرة فوق الواجهة ، وعلى الاخص فوق الباب الرئيسي ، حيث تبينت - وسط غمرة من الرسوم تمثل سباعا ذات اجنحة ومناقير ، وغلطانا هراة بغير حياء - تاريخا محفوروا هو « ١٥٠٠ » ، واسما هو

« هيرتون ايرنشو » . . وكنت أود أن ابدي بعض التعليقات أو اطلب نبذة موجزة عن تاريخ المكان من صاحبه المتجهج الوجه ، لولا أن هيئته عند الباب كانت تبدو كأنما تريد مني التعمجيل بالدخول أو المبادرة إلى الرحيل . . ولم يكن بي ميل أو رغبة في الاستزادة من ضيق صدره وحدة خلقه قبل أن اتفحص خفايا مسكنه من الداخل .

وإن هي إلا خطوة خطوتها حتى وجدت نفسي في حجرة الجلوس العائلية التي تلي الباب مباشرة ، دون أن يتوسطها دعليز أو ردهة . . وهم يطلقون عليها في هذه الانحاء اسم « البيت » تجورا ، إعلاء لقدرها عندهم ، وتشمل مادة المطبخ وحجرة الجلوس معا . ولكني اعتقد أن المطبخ في (مرتفعات ويدرنج) يقع في مكان آخر من الدار - أو هذا على الأقل ما تبينته - إذ بلغت مسامعي من مكان سحيق غمغمة الكلام وقععة الآتية ، وفي الوقت نفسه لم أجد حول الموقد الضخم اثرا للشواء والسليق أو خبز القطائر ، ولم ألمح على الجدران بريق القدور النحاسية أو المصافي اللامعة الحديثة الطلاء . . ومع ذلك كان أحد اركان القاعة يعكس الضوء والحرارة من صحاف واسعة مصنوعة من الصفيح السميك ، تنارت بينها اباريق وثنائي من الفضة ، وقد رصت صفوفا طبقة بعد طبقة فوق (بوفيه) عريض يرتفع حتى يبلغ السقف . . وكان هذا الأخير غفلا لم تمسه يد بلاء أو دهان ، ودقائقه الداخلية ظاهرة للعيون المتفحصة ، إلا رقعة منه كان يخفيها اطار من الخشب مثقل بما يتدلى منه من نفاثر دقيق

الشوفاان المجففة وافخاذ البقر والضأن والخنازير المتددة . وكانت على الجدار فوق المدفأة بنادق متيقة مختلفة الاشكال فبيحة المنظر ، ومسدسان هائلان داخل جرابين من الجلد ، كما رصت على رف المدفأة ثلاث علب ذات رسوم زاهية ساخبة وضعت على سبيل الزينة .. وكانت ارضية القاعة من حجر ابيض مصقول ، والقاعد من طراز عتيق ذات طلاء اخضر وفلهور مرتفعة مستقيمة ، الامقعدا او اثنين من المقاعد السوداء الثقيلة كانا في ركن معتم من القاعة .. وكانت تقع في فجوة تحت (اليوفيه) كلبة رائعة الخلفة من كلاب الصيد . ذات لون احمر قاتم ، حديثة عهد بولادة فوج من سفارعا ، وقد احاط بها سرب من الجراء الصغيرة التي لا تكف عن الصراخ ، على حين كان عدد آخر من الكلاب ، رابضا في بعض مشافذ الحجر الأخرى .

ولم يكن المسكن والاثاث بلوحان على شيء من الغرابة او الشذوذ لو انهما كانا ليرقى بسيط من اهل الشمال ، من اولئك الرجال ذوي الاسارير التي تنضج بقوة الشكيمة . والسبقان القوية التي تنبض عضلاتها في السراويل المحكمة الضيقة عند الركبتين ، و « الطرايق » الطويلة اللامعة .. ولو انك تجولت في دائرة محيطها خمسة أميال أو ستة بين هذه التلال ، في الوقت الملائم بعد العشاء ، لوجدت الكثيرين من امثال هذا الانسان ، وقد جلس كل منهم في مقعده المريح ذي المسندين ، وقدح الجعة يغور امامه بالزيد والحبب فوق مائدة مستديرة .. اما مستر هيثكليف فان التباين العجيب كان

واضحاً بينه وبين مسكنه وطراز معيشته : فهو في هيئته داكن البشرة اشبه بالفجر ، بينما هو في ثيابه ومسلكه سيد مهذب لا يختلف عن سراة الريف وتبلايه . وقد يكون قليل الاحتفال بهندامه إلى حد ما ، ولكنه ، مع ذلك الاهتمام في العناية بنفسه ، لا يبدو شاذاً أو متفراً للأبصار ، إذ كان ممشوق القوام رشيقا .. وهو إلى ذلك يبدو مكتشفا ضيق الصدر دواما ، وربما خاله بعض الناس على قدر من الكبر والخيلاء السوقية التي تنم عن ضعة الأصل ، ولكن شعورا من الميل إليه اتبعث من اعماقي يحدثنى بان الأمر لم يكن كذلك البتة ، وادركت بغريزتي ان تحفظه انما ينبع من نفوره من اظهار عواطفه في ضجيج وعجيج ، ومن تبادل العواطف والمجاملات في مظاهرات علنية ! .. فهو يسدل على حبه ويقضائه مستقرا من الكتمان ، كما يرى ان ايداء الحب او البغضاء نحوه ضرب من القحة .. ولكن لا احسبني اعدو سريما نحو النتائج قبل الاوان ، وارانى اغدق عليه من صفاتي الشخصية في سخاء ، فقد تكون لدى مستر هيثكليف اسباب اخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك التي لدى ، عندما يقبض يده ويخفيها في طيات ثيابه حين يرى من يسعى إلى التعرف به .. ومالى لا اعترف بان تكويني يكاد يكون غريبا غير مالوف .. لقد اعتادت امي العزيزة ان تقول لى إننى لن يكون لى بيت مريح تسكن إليه نفسى . وقد ثبت لى في الصيف الماضي اننى لا استحق البتة ان يكون لى بيت واسرة . فبينما كنت استمتع بشهر من الطقس الجميل على شاطئ البحر ، اقلت إلى المصادفة برفعة مخلوقة من أوغر خلق الله فننته

وسحرا ، وكانت تلوح في ناظري الهة معبودة طالما انها لم تكن تعبرني انتباهها .. على انى لم اصارحها بحبي بالكلمات قط ، ومع ذلك فان كانت للنظرات لغة مفهومة فلا بد ان اشهد الناس غيباء ادركوا اننى غارق في حبيها حتى اذنى ! .. وقد شعرت الفتاة بمافظتى اخيرا ، وراحت ترد لى النظرة بالنظرة وتطلق عينها باحلى واشهى ما يتخيله إنسان .. غبا الذى فعلته انا ؟ .. اننى اعترف بذلك والخجل يملؤنى .. لقد انكشيت في نفسى في برود عجيب . اشبه بانكماش التوقعة ! .. كنت لدى كل نظرة منها ازداد انزواء وبرودا وانكبا . حتى اخفت البريئة المسكينة تشك في صدق حدسها . وتكذب ما ائبناها فراستها وحواسها ، وما لبثت ان غمرها الخجل والارتباك لخطئها المزعوم ، فافرت امها بالرجل عن المكان ! .. وهكذا وصمى هذا التحول الغريب في مسلكي بصفة الرجل المجرد عن المشاعر الذى يتعمد القسوة ليحطم قلوب العذارى ، وانا وحدى الذى اعلم كم كنت مظلوما في هذه السبعة ..

واتخذت مجلسي عند طرف المدفأة قبالة المقعد الذى كان مضيقى يتقدم نحوه ، وأردت ان اتلع فترة الصمت الذى ساد بيننا لحظة ، فحاولت ان اربت على الكلبة الام التى كانت تد غارقت مسغاراها وانت تتشمم اقدامى من الخلف في ضراوة ، وقد قوست شفتها إلى اعلى وكشفت عن انياب بيضاء يسيل منها اللعاب اشتها لشيء تشبها فيه ! .. ولكن مداعبتى لم



تحاولت ان اربت على الكلبة الام التى كانت قد غارقت

مسغاراها وانت تتشمم اقدامى من الخلف في ضراوة ..

للق منها قبولا ، وإنما أثارنا زمجرة طويلة مخيفة ما أن أتبعنا من حلقها حتى لثتها زمجرة أخرى من مستر هيثكليف الذي ركلها ركلة شديدة وهو يقول لى :

- خير لك أن تدع الكلبة وشأنها ، فإنها لم تعد أن نفسها بالندليل ، كما أننا لا نقتنئها لتكون مسلاة لنا ..

ثم مضى فى خطوات سريعة نحو باب جانبي وهو يصبح من جديد : جوزيف ! .. فمتمم جوزيف من أعماق القبو بالفاظ غير مفهومة ، ولكنه لم يبد ميلا الى الصعود ، فاندفع سيده يهبط الى القبو خلفه ، وتركنى وجهها لوجه مع الكلبة الخبيثة ، وقد انضم اليها اثنان من كلاب الرعاة الخسنة الشعر البشعة المنظر ، شاركاها فى فرض رقابة دقيقة على حركائى .. وإذ كنت لا اتوق إلى الاتصال من قرب أو من بعد بأنياب هذه الطفعة ومخالبها ، فقد جلست ساكنا بلا حراك . غير أننى وقد مللت السكوت وخيل إلى أن الكلاب لا تفهم الأهانات الضمنية ، عكفت - لسوء الحظ - على تحريك وجهى حركات ساخرة من « الثلاثى الأليم » .. وكأنما أثار « السيدة » شيء ما فى حيائى ، فإذا بها تنقض على ركبتي نجاة وقد تعلقها غضب شديد .. ودفعتها إلى الخلف دفعة قوية ، وأسرعت أضغ المائدة حائلا بينى وبينها ، غير أن هذا المسلك أثار « الخلية » بأسرها ضدى ، فإذا بسنة من الأعداء ذوات الأربع ، من جميع الأحجام والأعمار ، تتدفق إلى ميدان المعركة من أوكار خفية ، وإذا بى أحس

بأعقابى وأطراف سترتى هدفا لهجوم المعتدين .. فتناوت محرك النار من المدفأة ، ورحت أدفع به عنى كبار المحاربين بقدر ما وسعنى من جهد وحيلة ، غير أنى اضطررت فى الوقت نفسه إلى الصياح عاليا فى طلب النجدة من بعض سكان المنزل ليعمد الامن والسلام إلى الحجره !

وصعد بمستر هيثكليف وخادمه سلم القبو فى تناقل وقصد لاح عليهما الغضب والحرق - ولست اظنهما قد أسرعوا فى خطوهما ثانية واحدة عما الفاه - برغم أن منطقة المدفأة كانت مسرحا لعاصفة عاتية من الزمجرة والنباح وصيحات الغضب ! .. ولكن أحد سكان المنزل كان - لحسن حظى - أسرع منهما إلى المبادرة بنجديتى ، فقد اندفعت نحونا سيده قوية البنية ذات ساعدين عاربين وتوب مشمر عند الوسط ، ورحلات متوردة من لفحات النار ، ومضت تفرق بينى وبين أعدائى وهى تستخدم مقلاة فى يدها تلوح بها ، ولسانها بليغا كان له اثره الحاسم فى وقف العدوان ، إذ هذات الزوبعة نجاة كأنها مستها غصا ساحر بارع ! .. وكانت السيدة ما تزال تلتهت كماواج البحر حين تهب عليها عاصفة عاتية ، عندها دخل سيدها إلى المسرح ، سألنى وهو يحدجنى بنظرة سخطف لم يكن فى وسعنى أن احتملها بعد هذه المعاملة الجافية :

- ماذا حدث بحق الشيطان ؟

فاجبته ساخبا : « بحق الشيطان فعلا يا مستر هيثكليف ؟

.. فان قطعاً من الخنازير تملكته الشياطين لا يؤوى في جوفه
من الأرواح الشريرة ما تؤويه حيواناتك هذه يا سيدى ! ..
إنك حين يترك شخصاً غريباً بين فصيلة من النور .. ! »

فقال وهو يضع الزجاجه أمامى ، ويعيد المائدة إلى مكانها :
- انها لا تتحرق بالاشخاص الذين لا يمسون شيئاً ..
والكلاب اذا كانت يقظة ساهرة انما تؤدى واجبها المقروض ..
هل لك في كأس من النبيذ ؟

- كلا وشكراً ..

- انها لم تعضك ، اليس كذلك ؟

- لو انها فعلت لكنت قد تركت اثراً منى لا يزول على
الفاعل الخبيث !

فلانت اسارىر مستر هيثكليف فيما يشبه ابتسامه عابرة
وقال :

- هيا .. هيا .. لقد استبد بك الانفعال يا مستر
لوكوود ، فخذ قليلاً من النبيذ .. والمحق ان الضيوف في هذه
الدار نادرون ، وهم من القلة بحيث لا نعرف ، انا والكلاب التى
قمتها . كيف نستقبلهم .. في صحتك ياسيدى !

فانحيت امامه ارد له التحية ، ثم شربت ثخبه ، وقد
بدأت اتبين مبلغ السخف في ان اجلس متجهماً عبوساً بسبب

سوء مسلك حفنة من الكلاب الأوغاد . وفضلاً عن ذلك كرهت
ان اتبع لمشيئى المزيد من التسلية على حسابى بعد ان اتجهت
سخريته إلى هذه الوجهة .. ولعلة رأى بقلنته ان من الحمق
ان يغضب مستأجراً طيباً ، فإنه اطلق نفسه على سجيتها وانطلق
بتحدث إلى فى اسلوبه المقتضب ، عن الموضوع الذى
خاله مشوقاً لى ، وهو الحديث عن مزايى الدار التى استأجرتها
لاعتكف فيها واستحج . وعما قد يكون فيها من مساوىء ..
ولقد وجدته جم الذكاء بارع الحديث ، يجيد معالجة المواضيع
التي طرفناها ، حتى بلغت الجراة - قبيل انصرافى - حداً
جعلنى اندفع فاعده بزيارة اخرى فى اليوم التالى .. وما من
ريب فى انه لم يكن راغباً فى المزيد من تطفلى عليه ، ولكنى
سوف اذهب لزيارته برغم ذلك ، فمن المذهل حقاً ان احسن
بنفسى رجلاً اجتماعياً يجب الاختلاط ومعاشره الناس ،
بالمقارنة به !

الفصل الثاني

كان عصر الأمتى قارس البرد كثيف الضباب ، فأحسست ميلا إلى قضاء الأمسية بجوار المدفأة في مكتبي ، بدلا من خوض الحول والأحراش إلى (مرثعات ويلدنج) .. فلما فرغت من تناول غذائي (ملحوظة : اتنى اتفدى هنا بين الثانية عشرة والواحدة ، إذ أن مدبرة المنزل - وهى سيده فى منتصف العمر ، تسلمتها مع البيت كأنها بعض اناته الثابت ! - لم تستطع ، أو لم تشأ ، أن تفهم رغبتى فى تناوله فى الخامسة) .. صعدت الدرج متساقلا إلى الطابق العلوى ، فتراوحتى هذه التيبة المتكاسلة ، ثم خطوات إلى حجرتى ، ففوجئت بفتاة من الخدم تبرك أمام المدفأة وقد أحاطت بها الفرش ودلاء الفحم ، محاولة إطفاء اللهب بالكوام من الرماد أثاره حولها غبارا كثيفا مروعا .. فردنى هذا المنظر على أعقابى ، وأسرع بتناول قهوتى ، وما لبثت بعد مسيرة أربعة أميال أن بلغت بوابة حديقة « هيثكليف » فى اللحظة المناسبة بحيث نجوت من ندف التاج الذى بدأ ينهمر فيملا الجو بما يشبه الريش المتطاير ..

وكانت الأرض ، عند قمة التل الكثيية الباردة ، صلبة يغطيها جليد أسود ، بينما كان البرد يبعث القشعريرة فى كل جارحة من بدنى .. واستعصت على السلسلة ولم أستطع نزعا ، فتسلقت البوابة وانطلقت أعدو فوق المر المرسوف بالبلاط ، والذى تتاخمه من الجانبين شجيرات منب الديق المتناثرة بغير نظام أو ترتيب .. فلما بلغت الباب رحت

أطرقه ، وما من مجيب ، حتى آلمتنى مفاصل أصابعى ، وكان الجواب الوحيد الذى تلقيته من داخل المنزل هو نباح الكلاب وزمجرتها .. !

وجعلت أقول فى نفسى ساسخطا : « لعنة الله عليكم ايها الأندال المناكيد سكان هذا المنزل ! .. والله إنكم لتستحقون النفى الأبدى عن أمناكم من البشر جزاء جلافتكم وسوء لقيامكم للضيوف .. اننى ، على الأقل ، ماكنت لأدع أبى موصدا فى رابعة النهار ، ولكنى لن أبالى وسوف أدخل المنزل على كل حال ! »

وإذ استقر عزمى على ذلك ، أمسكت بسقاطة الباب ورحت أهرها فى قوة وعنق ، فاذا بجوزيف ذى السحنة الكئيبة يطل براسه من كوة مستديرة فى مخزن الغلال ، ويصيح بى :

- ماذا تريد ؟ .. ان السيد هناك فى الحقل ، عليك ان تمنعطف عند نهاية المر اذا أردت ان تحدث اليه ..
فهمت اجيبه :

- الا يوجد فى المنزل من يفتح لى الباب ؟

- لا يوجد سوى السيدة ، ولن تفتح لك ولو مكنت تطرق الباب حتى الليل !

- لماذا ؟ .. الا يمكنك ان تخبرها من اكون يا جوزيف ؟

- محال أن افعل ، فلا شأن لى بهذا ..

وما لبث رأس الوغد ان توارى داخل الكوة !

وبدا الثلج ينهمر غزيرا كثيفا ، فأسكت بمقبض السباب
 لأشرع في محاولة أخرى ، عندما أقبل من الغناء خلف شاب
 في مقتبل العمر ، لا يرتدى معطفا ، ويحمل فوق كتفه مدرّاة
 للدّراس ، فصاح بي أن أتبعه .. وبعد أن اجتزنا حجرة
 للغسيل ومررنا بساحة مرسوفة تحوى مخزن فحم ، ومضخة
 مياه ، وبرج حمام ، وصلنا أخيرا إلى القاعة الفسيحة الدافئة
 التي استقبلت فيها أول مرة . وكانت تسع بهاء وبهجة في
 وهج الفانر العظيمة المستعمرة في المدفأة ، والتي تندلع من كتل
 الفحم وشرائح الحطب وأوراق الشجر الجافة .. وشد ما
 سررت إذ لمحت بجوار المائدة - التي كانت محملة بالكثير من
 الطعام المعد للمساء - تلك السيدة التي ذكرها جوزيف ، فإذا
 بي أرى مخلوقة لم يخطر ببالي قط أنني ملائمتها في هذا المكان
 .. وأنجيت أمامها محببيا ، وانظرت أن تدعوني للجلوس ،
 إلا أنها راحت تتطلع إلى وقد استندت إلى ظهر مقعدها ،
 وظلت جامدة في مكانها لا تريم ولا تنبس ببثت شفة ! ..
 فقلت :

- يا له من جو فظيع ! .. أخشى يامسز هيثكليف أن يكون
 الباب قد حمل عواقب إهمال خدمكم وتراخيهم ، فقد لقيت
 عناء شديدا في إسماعهم صوت طرقاتي ..

ولكنها لم تفتح فمها بكلمة . كنت انظر إليها متفرسا ،
 فكانت تحدجني بأنظارها دون أن تطرف عينها ! .. ومهما
 يكن من أمر فانها ظلت تحملق في بنظرات ثابتة باردة خالية
 من أي معنى أو اكتراث ، حتى اتباني الضيق والحرج ..

وعندئذ قال الشاب في غلظة : « اجلس .. سوف يحضر عما
 دليل .. » .

فأطعته وجلست هالمتا .. ثم تنحنحت وحاولت أن أنادي
 (جونو) الشريفة التي تنازلت في هذا اللقاء الثاني وهزت
 طرف ذيلها هرات بسيرة دليلا على سابق تعارفنا .. وما
 لبثت أن قلت :

- هذه كلبة جميلة حقاً ! .. هل تنوين التخلي عن الصغار
 ياسيدي ؟

فأقلت ربة الدار الجميلة في اقتضاب : « انها ليست ملكي »
 .. ولكنها نطقت بهذه العبارة في لهجة أشد تحفظا ونفورا مما
 كان يمكن أن يجيني بها هيثكليف نفسه ! .. ومع ذلك فقد
 استطرذت أقول وقد تحولت نحو كومة تتبع في مكان معتم
 وتكتظ بما يشبه القلط :

- آه ! .. ان حيوانك الاليفة المفضلة بين هذه إذن ؟

فأجابني في ازدراء : « ما أعجبها نخبة من الحيوانات
 المدللة ! » - فقد شاء سوء طالمي أن يكون ما أشرت اليه
 كومة من الأرابب الميتة ! - وأرتبكت ، فتنحنحت ثانية
 واقتربت بمقعدي من النار ، ثم عدت أكرر تعليقاتي على سوء
 الحالة الجوية في تلك الامسية ، فقلت :

- ما كان ينبغي أن تغادر منزلك ..

ثم نهضت ومشيت إلى رف المدفأة وهي تهم بتناول اثنتين
 من العلب الملونة الموضوعة فوقه .. وكان مجلسها محجوبا عن

الضوء ، أما الآن فقد استطعت أن أرى وجهها وقوامها في جلاء . كانت نحيلة الجسم لا يكاد يبدو عليها أنها جاوزت سن المراهقة ، كان قوامها قاتنا ، أما وجهها فكان أبدع وأرق وجه أتيح لي أن أراه من قبل : دقيق الملامح ، ناصع البياض ، وكانت خصلات شعرها الشبيهة بلون سنابل القمح ، أو بالأحرى الذهبية اللون ، تسدل على عنقها البض الجميل . وكانت لها عيناں لو لانت نظراتهما قليلا لعدا لهما سحر لا يقاوم ! .. ومن حظ قلبي السريع التأثر والحساسية أن العاطفة الوحيدة التي كانت تطل منهما كانت تتذبذب بين الزرابة والاستخفاف وقلة الاكتراث ، وبين نوع من اليأس والقنوط كان وجوده فيهما أمرا بالغ الغرابة والشذوذ !

كانت العلب بعيدة نوعا عن متناول يدها ، فبدرت منى حركة لمعاونتها ، وإذا بها تستدير نحوي في وحشية كما يفعل البخيل الشحيح إذا هم أحد بمعاونته في احصاء ذهبه ، وهي تندفع قائلة :

— لست في حاجة لمعونتك ، ففى وسعى أن أخذها بنفسى ..

فأسرعت أقول لها : « أرجو المعذرة .. » .

وأخذت تربط مرولة فوق ثوبها الأسود الأنيق ، ثم أمسكت بملقعة ملأى بأوراق الشاي كانت تهم بوضعها في إبريق ، غير أنها توقفت لتسألنى : « هل دعيت لتناول الشاي ؟ » .

فأجبته : « يسرنى أن أنال قحدا منه .. » .

فعدادت تقول : « ولكن هل دعيت ؟ » .

عندئذ قلت وأنا أحاول الإبتسام : « كلا .. ولكنك صاحبة الشأن في دعوتى » . فطوحت بالشاي والملقعة معا إلى داخل المنية الثانية ، وعادت إلى مقعدها في نفور واشمئزاز ، وقد تعضن جبينها ، واختلجت شففتها السفلى القانية كطلغ يوم بالبكاء !

وفي الوقت نفسه كان الشلب قد التقى على كتفيه مشرة رثة بادبة القدم ، ثم وقف بقامته المنتصبه أمام النار المتأججة ، وهو يحدجنى من عل من ركنى مينيه بنظرة تفيض بالحقد والضعيفة ، كان بيننا نارا قاتلا لم يتقم له بعد ! .. وبدأت أتسائل إن كان من الخدم أو السادة ، فقد كان ثوبه وحديثه كلاهما سواء في الخشونة والغلظة ، كما كان خاليا تماما من مظاهر الرقى التي تبدو على مستر ومسر هيثكليف .. وكان شعره الأسمر كثيفا مجعدا خشنا غير منسق ، شعر فوديه (1) يتدلى فوق صدغية كالدبية ! .. أما يدها فكانتا سمراوين خشنتين أشبه بأيدي الفعلة والعمال .. ومع ذلك كان مسلكه يتسم بالحرية والانطلاق ، بل بالتعالى والأنفة ، لا يظهر شيئا من ذلك الاحترام والاهتمام اللذين يبديهما الخدم نحو سيدة الدار .. وإذ كنت لا املك دليلا واحدا على حقيقة مركزه ، فقد رأيت من الأفضل ان اكف عن الالتفات إلى مسلكه العجيب .. وما لبث مقدم هيثكليف ، بعد دقائق خمس ، أن خلصنى من حيرتى وأرتباكى إلى حد ما : فقلت له وأنا اصطنع الجذل لرؤيته :

(1) الفود : ما يلى الاذن من شعر الراس .

- هانت ذا ثرى يا سيدى اننى حضرت وفاء بوعدى ..
ولكنى اخشى أن يجبستى هذا الجو الصاخب فى منزلك نصف
ساعة ، اذا وسعنى رخابك هذه الفترة ..

فاجاب وهو ينفذ رقائق الثلج البيضاء عن لياحه :

- نصف ساعة ؟ .. انى لاجيب كيف تختار ذروة العاصمة
الطليحة للتجول خارج منزلك خلالها ! .. هل تعلم انك انما
تخاطر بتعريض نفسك للضياح وسط المستنقعات ؟ .. ان
الذين القوا هذه البرارى غالبا ما يضلون الطريق فى ليلته
كهده ، وفى وسعنى ان اوكد لك بأنه لا ينتظر ان تتغير حالة
الجو عن قريب ..

- ربما استطعت ان آخذ دليلا من بين غلمانك ، على ان
يبقى فى (الجراج) حتى الصباح .. فهل يمكنك ان تستغنى
عن احدهم ؟

- كلا .. لا يمكننى ذلك .

- آه .. حقا ؟ .. حسنا لا بد لى إذن من أن اعتد على
فطنتى ..

- هراء !

وفى تلك اللحظة صاح ذو السترة البالية وهو يحول نظراته
الثابتة الضاربة عنى إلى السيدة الشاببة : « ألا تريدان
إعداد الشاى ؟ »

ولكنها قالت تسأل هيثكليف عنى : « هل سبتناول «هو»
شيئا منه ؟ »

- اسرعى باعداده حالا !

وقد انالت هذه الكلمات من فمه فى وحشية متقطعة
النظير بحيث انتفضت مجفلا .. وكانت اللهجة التى قيلت
بها تنه عن خلق حاد وصدر ضيق ، حتى لم أعد ميالا إلى
وصف هيثكليف بأنه شخص عظيم كما خلته فى بادئ الأمر !

فلما تم اعداد المائدة دعانى إليها فى جفاء بقوله : « هيا
باسيدى .. قرب مقعدك إلى الامام » . وهكذا اجتمعنا
جميعا حول المائدة ، بما فى ذلك هذا الشاب الفظ الخشن ،
واخذنا نلوك طعامنا وقد ران علينا صمت كئيب ..

وظننت من واجبنى ان ابدد تلك المسحابة التى تخيم فوقنا ،
ما دمت السبب فى انعقادها فى الجو - فما أحسب من المعقول
ان يجلسوا كل يوم على هذه الحال من العيوس والعزوف عن
الكلام .. كذلك من المحال ، مهما يكن من حدة طباعهم وسوء
خلقهم ، ان يكون ذلك التجهم الشامل هو طابع أسرارهم
المألوف - وهكذا بدأت أقول فى الفترة بين ارتشاف قدح من
الشاى واستقبال قدح آخر :

- ما اغرب ما تطبعه العادة من اثر فى افواقنا وافتكارنا ! ..
ان الكثيرين لا يمكنهم ان يتصوروا امكان وجود السعادة فى
حياة تقضى على هذا النمط من النفى المطلق عن العالم ،
كالحياة التى تفضيها يامستر هيثكليف .. ومع ذلك استطيع
القول بأنك وقد احاطت بك أسرتك ، ومعك زوجتك المحبوبة
كالملاك الحارس على بيتك وقلبك ..

فقاطعنى قائلا ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية ساخرة :

- زوجتى المحبوبة ؟ .. أين هى .. زوجتى المحبوبة ؟
- اعنى مسز هيثكليف .. زوجتك !
- حسنا .. نعم .. آه ! . لعلك تقصد أن روحها قد
تولت مهام الملاك المشرف على (مرتفعات ويلدنج) ، وحامى
اقداره ومصائرهِ حتى بعد أن فنى جسدها .. هل هذا
ما تعنيه ؟

وإذ الفيتنى قد ترديت فى زلة حمقاء ، رحت أحاول أن
أصلحها .. وكان ينبغى لى أن الحظ التفاوت العظيم فى السن
بين الاثنين ، بما لا يجعلهما خليقين بأن يكونا رجلا وزوجته .
كان أحدهما فى نحو الأربعين ، وهى سن النضج العقلى التى
قلما ينتاب الرجل فيها هوس الزواج عن حب من الفتيات
الصغيرات - فانا انما نحتفظ بهذه الأحلام لتكون عزاءنا
وسلوانا فى سن الشيخوخة الأخيرة ! - أما الأخرى فلا يبدو
إنها بلغت السابعة عشرة !

وعندئذ ومضت الحقيقة أمام خاطرى فقلت لتفى : « لعل
زوجها هو هذا المهرج الذى يجلس عند موقى ، ويشرب
نصيبه من الشاي فى طست ، ويأكل خبزه دون أن يغسل
يديه ! .. أنه هيثكليف الصغير ولا ريب ، وهذه عاقبة من
تدفن نفسها حية ! .. قد ألقت بنفسها بين يدي هذا الحيوان
الشرس لمجرد أنها تجهل وجود أشخاص خيرا منه بكثير ..
يا لرحمة السماء ! .. لا بد لى من أن أكون على حذر مما

قد أسببه لها من ندم على سوء اختيارها ! » .. وربما لاح
هذا الخاطر الأخير مليئا بالغرور والخيلاء من جانبى ، ولكن
الواقع أنه لم يكن من ذلك فى شيء ، فقد روعنى من جارى أنه
ادنى إلى أن يكون منفرا حقا ، تعافه النفس .. أما أنا فكننت
اعلم ، من تجاربي الماضية ، اننى ادنى إلى أن أكون ساحرا
جدابا !!

وفى تلك اللحظة كان هيثكليف يستطرد قائلا :

- ان مسز هيثكليف هى زوجة ابنى ..

فكان فى قوله ما مطابق حدسى وتخمينى .. ولكنه إذ قال
ذلك ، تحول نحوها يرمقها بنظرة غريبة تفيض بالحقن
والكراهية ، الا أن تكون عضلات وجهه قد خلقت بالغة الشدوذ
والانحراف بحيث لا تعبر - كسائر الناس - عما يعتمل فى
نفسه ! وعندئذ تحولت إلى جارى الفتى قائلا فى خفة ونزق :

- آه ! .. طبعاً ، لقد فهمت الآن ، فانت المالك المحظوظ
لهذه الحورية الساحرة !

ولكن تلك الزلة الثانية كانت أدهى وأمر ! .. فقد رأيت
وجه الفتى يحترق بالدماء ، ورايته يستجمع قبضته وينم
مظهره عن النية المبيتة للانقضاض على .. غير أنه ما لبث أن
استعاد سيطرته على مشاعره وانفثت عاصفة غضبه فى سبيل
من اللعنة القاسية التى وجهها لشخصى ، فحرصت على
التظاهر بعدم الالتفات إليها .. بينما قال مضيئ :

- لم تكن موفقا فى فلنونك يا سيدى ، فإن أحدا منا لم

يوهب حظ امتلاك حوريتك الساحرة .. لقد مات زوجها ،
وسبق أن قلت انها زوجة ابني ..

- وهذا الشاب هو ؟

- انه ليس ابني قطعاً ..

واينسم هينكليف ثانياً ، كما لو كانت نسبة ابوة هذا الدب
إليه ضرباً من المزاح الجريء .. وفي الوقت نفسه كان الفتى
يزمجر :

- ان اسمى هيرتون إيرنشو .. وانصح لك ان تحترمه !
فأجبتة : « اتنى لم ابد نحوه شيئاً من عدم الاحترام » .

وكنت أضحك في سرى من تلك الخيلاء التى أعلن بها اسمه
.. ورأيتته يحدجنى بنظرة طويلة لم امن بمبادلتها اياها طويلاً
خشية أن يبعثنى الاغراء على صفعه ، او تنطلق منى تهقمة
السخرية عالية مدوية ..

وبدأت اشعر عن يقين بأن المكان يضيق بى في محيط هذه
العائلة البهيج ! .. فقد طغت كآبة الجو النفسى للمكان على
المباهج المادية المحيطة بى وجردتها من سحرها الدافئ الجميل ،
وعزمت على أن التزم الحذر في الإقدام على زيارة هذا البيت
مرة ثالثة ..

وإذ كانت مهمة الأكل قد انتهت امرها ، ولم ينبس واحد
منهم بكلمة في حديث مما يتبادلته الناس في مثل هذه
الاجتماعات ، فقد اقتربت من النافذة لأتبين حالة الجو ..
ويا لسوء ما رأيت ! .. كانت ظلمة الليل قد أسدلت استارها

قبل الاوان ، واختلطت معالم السماء والتلال في دوامة واحدة
رهيبة من الرياح الصاخبة والثلج الكثيف الخائق .. فام
اتمالك نفسى من الصباح :

- ما أحسبني استطيع العودة لمنزلى الان بغير دليل ،
فالثلج يوشك أن يغمر الطرق ويخفى معالمها ، وحتى لو ظلت
مكشوفة ، فان الظلام من الحلقة بحيث لا اكاد اميز خطوة
واحدة امامى !

وكان هينكليف يقول للشباب : « هيرتون .. عليك ان
تسوق هذه الشياه الاثنتا عشرة إلى رواق المخزن ، ونضع
امامها لوحاً من الخشب ليمنع تسربها منه .. فسوف يغمرها
الجليد اذا بقيت في الحظيرة طوال الليل .. »
واستطردت اتقول وقد تزايد انفعالى :

- ماذا ترانى قاعلاً الان ؟

ولم يجب احد على سؤالى ، فلما التفت خلفى لم اجد غير
جوزيف وقد اتى يحمل دلواً به عصيدة للكلاب ، بينما كانت
مسز هينكليف منحنية فوق نار المدفأة وهى تتسلى بإشغال
حزمة من عيدان الثقاب كانت قد سقطت من فوق رف الموقد
عندما اعادت علبة الشاى إلى موضعها فوقه .. فلها وضع
جوزيف حمله على الأرض اخذ يجبل في الحجرة نظرات فاحصة
ناقدة ، وما ليث ان قال بصوته الحاد الذى يشبه الصرير :

- شدة ما أعجب كيف يطيب لك الوقوف هنا في بلادة
وخمول بينما انصرف الجميع لشأنهم .. ولكنك طبعت على

السوء ولا فائدة من الكلام معك ، فلن يجدي ذلك في إصلاح مسلكك اللدِيم الذي سينتهي بك إلى الشيطان رأسا كما سبقتك إليه امك من قبل !

وخيل إلى لحظة أن هذه الدررة من درر الفصاحة كانت موجهة لشخصي ، وإذ كنت قد بلغت من الحنق والسخط حدا لا يحتمل المزيد ، فقد خطوت نحو الوغد المعجوز وفي عزمي أن أركله بقدمي ركلة تلقى به إلى خارج الحجر ، لولا أن مسز هينكليف ردتني إلى الصواب عندما سمعتها تجيبه :

- ألا تخشى أيها الشيخ المناق المفتري أن يصيبك من الشيطان كلما ذكرت اسمه على لسانك ؟ .. إنني أذكرك بأن تكف عن إنارتي وإلا رجوته أن يختطفك فيسدى إلى بذلك جميلا خاصا ! .. مهلا .. انظر يا جوزيف ..

وتناولت من فوق أحد الأرفف كتابا طويلا أسود اللون ، ثم استطرقت تقول : « سوف أريك كيف تقدمت في دراسة السحر الأسود وممارسته شأوا بعيدا ، لن البت أن أجعل منه عما قريب موطنًا سهلا لي ! .. إن البقرة الحمراء لم تمت بمحض الصدفة يا جوزيف ، وآلام الروماتيزم التي تحل بك ليست من نفعات العناية الإلهية ! »

فغمغم الشيخ لاهنا : « آه ! الشريعة ! الشريعة ! اللهم نجنا من سوء ! »

- كلا أيها الخبيث .. فانت طريد رحمته ! .. امش من هنا وإلا أصابك مني أذى جسيم .. سوف أصنع لكم جميعا

تمايل من الشمع والصلصال ، ومن يجرؤ منكم على تجاوز الحدود التي أرسمها فسوف .. لا ، لن أقول ماذا سيحل به ، ولكنكم سوف ترون .. اذهب .. امش من هنا ، فهأنذا أسلط عليك نظرائي ..

واسطنعت الساحرة الصغيرة نظرات تفيض بالحمق والكراهية ملأت بها عينيها الجميلتين ، وإذا بجوزيف يهرول خارجا ، وقد سرت في بدنه رعدة فزع حقيقي ، وهو يتمتم انشاء انصرافه بالصلوات والدعوات التي تتخللها كلمة « يا للشريعة ! .. يا للشريعة ! » .. بينما كنت أقالِب الضحك فلنا مني بأن مسلكها ليس إلا نوعا من المزاح الرهيب ..

فلما وجدت بعد ذلك أننا أصبحنا منفردين ، حاولت أن اتير اهتمامها بما أنا فيه من كرب .. فقلقت في لهفة :

- أرجو أن تغفري لي إزعاجك يامسز هينكليف ، فإني على يقين من أنك - وانت صاحبة هذا الوجه الصبوح - لا يسعك إلا أن تكوني طيبة القلب عطوفا .. فهلا أرشدتني إلى بعض علامات الطريق حتى أستهديها السبيل إلى منزلي ؟ .. إنني الآن ليست لدى أية فكرة عن طريق الوصول إليه ، أكثر مما يمكن أن يكون لديك عن طريق الوصول إلى لندن !

فأجابني وهي تتهاوى على أحد المقاعد ومعها شمعة موقدة وذلك الكتاب الطويل الأسود مفتوحا :

- خذ الطريق الذي قدمت منها ! .. هذه نصيحة موجزة ولكنها الوحيدة المجدية التي أستطيع أن أسديها إليك ..

- وإذا سمعت اننى وجدت ميتا في بركة ماء او حفرة مليئة بالجليد ، فهلا يهمس لك ضميرك بانك مسؤولة عن ذلك إلى حد ما ؟

- وكيف ذلك ؟ .. ليس في وسعي ان ارافقك بنفسى ، وهم ان يسمحوا لى بالذهاب إلى نهاية سور الحديقة .. فهتفت قائلا :

- انت ؟ .. انه ليسوونى ان اسالك اجتياز عتبة هذه الحجرة ، مرشاة لى ، في مثل هذه الليلة .. إنما وددت ان تدليني على الطريق لا ان ترينى إياها .. او تعنى مستر هيثكليف بان يرسل معى دليلا يرشدنى ..

- من تريد ؟ .. ليس هنا سواه وسوى إيرنشو وربلا وجوزيف .. فأبنا تريد ان يكون الدليل ؟

- الا يوجد غلمان في المرعة ؟

- كلا ، هذه جماعتنا كلها ..

- إننى إذن مضطر إلى البقاء هنا ..

- هذا امر يمكنك ان تتفق عليه مع مضيفك . اما انا فلا شأن لى به ..

وعندئذ انبث صوت هيثكليف الصارم من ناحية المطبخ وهو يصيح بى :

- لعل لك في ذلك درسا بملك الا تقوم بمزيد من تلك الجولات الطائشة بين هذه التلال . اما عن بقائك هنا ، فليس



وأصلحت الساحرة الصغيرة نظرات نضى بالحد والكراهية
بلات بها عينها الجميلتين ، وإذا بجوزيف يهرول خارجا ..

لدى معدات لإيواء الضيوف ، عليك ان تساطر هيرتون او جوزيف فراشه إذا قفلت ..

- يمكننى ان انام على مقعد فى هذه الحجرة ..

فاجابنى الشقى البذى اللسان :

- كلا .. كلا .. فالقريب غريب سواء اكان غنيا ام فقيرا .. وليس مما يوافقنى ان ابيع حرمت مسكنى لكائن من كان عندما اكون غافلا عنه !

وبلغ صبرى نهايته بهذه الإهانة الصارخة ، فصحت معربا عن اشمزازى ، واندفعت اتخطاه نحو الفناء ، مرتطما بأيرتسو فى عجلتى ، فقد كان الظلام من الحلكة بحيث لم اتبين مسالك الخروج .. وبينما كنت اهيرم على وجهى فى الظلام سمعت (عينة) اخرى من المجاملات الرقيقة المهذبة التى يتبادلونها فيما بينهم ! .. فقد لاح الشاب بادىء ذى بدء مظاهرا لى متطوعا نصرتى ، إذ قال :

- سوف اذهب معه حتى المتزوه ..

فصاح به سيده - او كيفما كانت الصلة التى بينهما - قائلا :

- سوف لذهب معه إلى الجحيم ! .. ومن الذى سيعثنى بالحياد ؟

فغمغمت مسز هيثكليف فى رقة كانت اكثر مما توقعت :
- إن حياة رجل لهى اكثر اهمية من افعال الحياد ليلة واحدة .. ولا بد لشخص ما ان يذهب معه ..

فتحول هيرتون نحوها قائلا فى غلظة :

- لن اذهب بأمر منك ! .. وإذا كنت تقيمين وزناله ، فخير لك ان تصمتى ..

فأجابته فى حدة :

- ارجو ان يراود شبحه احلامك إذن ! .. كما ارجو الا يجد مستر هيثكليف مستاجرا آخر للجرائح حتى يصبح ركاما وانقاسا !

وعندئذ غمغم جوزيف ، الذى كنت اتقدم ناحيته ، قائلا :

- اسمعوا ! .. اسمعوا ! .. انها تصب اللعنات عليهم ! وكان يجلس على مرمى السمع منا ، يحلب الايقار فى ضوء فانوس يضعه على الأرض بجانبه ، فبادرت إلى التقاطه دون استئذان او امتئذار ، واندفعت نحو اقرب باب جانبي فى السياج ، وانا اهتف بهم اننى سوف اميده لهم فى الغد .. ولكن الشيخ المافون انطلق يصيح وهو يطاردنى :

- يا سيد ! .. يا سيدى ! .. لقد سرق الفانوس ! .. هيا يا « جناشر » ، هيا يا وولفا اذهبوا وراءه .. امسكاه !

وهكذا ما كدت اهم بفتح الباب الصغير ، حتى كان الوحشان ذوا الشعر الكثيف قد انقضا على عتقى ، فالتقيا لى الى الأرض ، وانطلقا المصباح ، بينما انفجر هيثكليف وهيرتون معا يقهقان فى سرور وابتهاج جعل شعورى بالغضب والهوان يبلغ اللدوة .. ومن حسن الحظ ان الوحشين كانا اكثر اهتماما بالزنجرة والنجاح ، ونشر مخالبيهما ، والتلويح بدليلبيهما ،

من نلوق لحمى وهما ينهشاني حيا ! .. ولسكنهما ما كانا يطيقان منى حركة أو نهوضا ، فاضطرت برغمى أن اظل راقدًا فى مكانى حتى طاب لسادتهما الاشرار أن يخلصونى من هذا الكرب .. ووقفت انتفض حنقا وغيظا ، وقد طارت قبعتى ، فرحت اهيب باللثام أن يدعونى اتصرف على الفور - وإلا تعرضوا لخطر جسيم اذا احتجزونى دقيقة واحدة أخرى ! - كما انثالت من فمى عبارات الوعيد والتهديد ، مختلطة غير متناسقة اشبه بالهلديان ، منذرة إياهم بالانتقام الرهيب ، فكانت بما تنطق به حقد عميق غير ذى قرار ، اشبه بأقوال الملك « لير » بطل شكسبير المعروف !

واشدد بى الانفعال ، واستعر أوار الغضب ، حتى سبال الدم من أنفى غزيرا ، وما زال هيثكليف يتقهقه مسرورا : وما زلت باضيا فى التعنيف والتأنيب .. ولست أدرى كيف كان يمكن أن ينتهى هذا المشهد ، لولا تدخل شخص أكثر منى تعقلا وأكثر من مضيغى رحمة واحسانا .. تلك هى زيللا - مدبرة المنزل البديئة - التى اندفعت أخيرا من داخل الدار لتسأل عن سبب هذه الجلبة .. وكانت تظن أن بعضهم قد اعتدى على اعتداء عنيفا ، وإذ كانت لا تجرؤ على مهاجمة سيدها ، فقد مضت تطلق « مدفعية » لسانها على الوغد الضغير ، وهى تصرخ قائلة :

- الله الله يامستر إيرنشو ! .. انى لاتساءل عما أنت بسبيله بعد ذلك ! .. ترى هل بلغ بنا الأمر إلى حد ذبح

الناس على عتبة دارنا ؟ .. أرى أن هذا المنزل لم يعد يصلح لى بعد الآن ! .. انظر إلى الفئس المسكين .. انه يوشك على الاختناق .. تعال يا هذا .. تعال .. فما ينبغي أن نذهب وانت على هذه الحال .. ادخل ، وسوف اعالجك بما حل بك .. والآن - امسك نفسك !

وإذ كانت تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، اراقت فوق رأسى فحاة اناء من الماء المثلج ، انحدر فوق ظهرى ، ثم جذبتنى إلى داخل المطبخ .. وتبعنا مستر هيثكليف ، وقد تلاشى مرحه العارض سريعا ، وحل محله ذلك التجهم المألوف ..

ولما كنت فى أسوأ حالات المرض ، وقد حصل بى الدوار والاعياء ، فقد اضطرت برغم أنفى إلى قبول البقواء تحت سقف منزله .. وأما هو فقد أمر « زيللا » بأن تعطينى كأسا من البراندى ، وما لبث أن توارى فى الحجرات الداخلية .. وفيما كانت المرأة الطيبة تشاطرنى الأسى على ما أصابنى من سوء الحال ، وقد بدأت انتعش قليلا على اثر الشراب الذى قدمته لى تلبية لأمر سيدها ، راحت تساعدنى فى الوصول إلى الفراش ..



الفصل الثالث

أوستنى زيللا ، وهى تتقدمنى على الدرج ، بأن أخفى ضوء الشمعة ، وإلا أحدث صوتا يكشف امرى ، إذ أن لسيدىها رأيا عجيبا فى الحجره التى كانت تود أن تضعنى فيها ، ولا يرضى بالسماح لى إنسان بأن يدخلها .. وسألته عن السبب فأجابتنى بأنها لا تعرف لذلك سببا ، فلم تقض فى هذا المنزل إلا عاما أو عامين ، كما أن أعمالهم القريبه المحسيره كانت من الكثره بحيث لا تستطيع ملاحظتها بالفضول وحب الاستطلاع !

وإذ كان الإعياء والحذر قد نالا منى بما لا يجعلنى أهلا للفضول بدورى ، فقد أغلقت باب الحجره وتلفت حولى بإحسا عن الفراش .. كان اثاث الحجره كله مؤلفا من مقعد واحد وصوان صغير للشباب ، ثم خزانة كبيره من خشب البلوط ذات فتحات مربعه فى أعلاها أشبه بنوافذ العربات .. فاقتربت من تلك الخزانة وتطلعت بداخلها فوجدتها نوعا فريدا من المضاجع العتيقه الطراز ، أقيمت على نحو ملائم لتماشى ضروره تخصيص حجره لكل فرد من أفراد العائله .. والواقع أنها كانت مخدما صفيرا ، كما كانت قاعدة النافذه التى تقع بداخلها تصلح كمنضده .. ودفعت مصراع الباب المنزلق ، ثم دخلت تلك المقصوره ومعى الشمعه المضيئه ، ورددت الباب إلى مكانه فأغلقتنه .. وعندئذ فحسب شعرت بالطمأنينه والأمن من رقابه هيكليف الصارمه ، وكل إنسان سواه !

وكانت قاعدة النافذه ، حيث وضعت شمعتى ، تحوى فى ركن منها كومه من الكتب قليله العدد تملؤها الرطوبة والعفن ، كما كانت هى نفسها مقطعه بكتابه مختلفه تغدش طلاؤها .. ومع ذلك فلم تكن تلك الكتابه إلا اسما واحدا تكرر نقشه بمختلف أنواع الحروف ، الكبيره والصغيره ، فكننت أرى ناره « كالرين ايرنشو » ، ثم يتغير إلى « كالرين هيكليف » ، ويتغير من جديد إلى « كالرين لينتون » .. الخ .

استندت رأسى إلى النافذه فى تراخ وخمول ، ومضيت أعيده هجاه اسم كالرين ايرنشو - هيكليف - لينتون ، مره تلو الأخرى ، حتى غمضت عينائى .. ولكنى ما كدت أفتق خمس دقائق ، حتى انبثق من الظلام وميض ساطع من الحروف البيضاء التى راحت تتراقص كالأشباح الوثابه وتملا الجو باسم كالرين على مختلف صورته وأشكاله ! .. فجاهدت حتى أيقظت نفسى لأطرد ذلك الاسم الدخيل ، وعندئذ تبينت أن ذبالة الشمعه قد مالت على أحد الكتب العتيقه وعطرت المكان برائحته الجلد المحترق ! .. فسحقت طرف القليل بين أصابعى وجلست مكروبا معا أعانيه من البرد والغشيان ، ناشرا الكتاب المغلوب فوق ركبتي ، فوجدته نسخه من التوراه طبعه بحروف صغيره ، تفوح منه رائحة العطن المروعه ، ووجدت فى أوله صفحته بيضاء تحمل هذه العبارة : « هذا كتاب كالرين ايرنشو » ، ثم تاريخا يصل إلى ربع قرن مضى .. وما لبثت أن تركته ورحت أتناول باقى الكتب واحدا بعد الآخر ، حتى فحسبها جميعا ، ووضع لى أن « كالرين » هذه كانت تعشى

بانتهاء مكتبتها ، كما تبينت من رقائة الكتب ان صاحبته كانت تحسن استعمالها ، وإن كان ذلك في غير أغراض القراءة فحسب .. فقلما كان يخلو فصل من فصول هذا الكتاب أو ذاك من تعليقات - أو هذا ما يبدو ، على الأقل - كتبت بالمداد في كل فراغ تركته المطبوعة ! .. وكان البعض لا يعدو جملا غير متماسكة ، بينما اتخذ البعض الآخر شكل مذكرات يومية منتظمة ، كتبت بخط صبياني سقيم .. وشد ما ابتهجت عندما رأيت في الجزء العلوي من ورقة بيضاء خالية من الكتابة ، (لعلها اعتبرت كنزا ثمينا عندما اكتشف أمرها أول مرة) ، رسما كاريكاتوريا بديعا لصديقنا جوزيف ، كان بالغ الابتقان برغم بدائيته ! .. وكأننا أضرم ذلك نيران الاهتمام في نفسى بكالترين المجهولة ، فبدأت على الفور أفك رموز خطها الهيروغليفي الباهت ، وكان أول ما طالعنى منه :

« أنه يوم أحد مظليع ! .. ولكم يود ان يعود أبى ثانية ، فان (هندلى) ينوب عنه على نحو بغيض .. ومسلكه نحو هينكليف يزداد شناعة ... لذا عزمت أنا وهينكليف على التمرد .. وخطونا الخطوة الأولى هذا المساء . كان المطر ينهمر طوال اليوم غزيرا ، فلم نستطع الذهاب إلى الكنيسة ، ومن ثم كان لا بد لجوزيف من أن يجمعنا للصلاة في المخزن العلوى الصغير .. وبينما كان هندلى وزوجته يستمتعان بالجلوس في الطابق السفلى أمام نار المدفأة المريحة - وأقسم أنهما كانا يفعلان أى شيء إلا القراءة في الإنجيل - كنت أنا وهينكليف وصبى الحقل المسكين نلتقى الأمر بحملى كتب

الصلوات والصعود إلى المخزن العلوى حيث جلسنا صفا واحدا ، فوق زكبية ملاى بالقمح ، ونحن نئن ونتأوه ونرتجف من البرد ، ونبدو انه ان تمشى القشعريرة في بدن جوزيف ايضا لعله يوجز في العظة التى سيلقيها على مسامعنا .. ولكنه كان املا خائبا ! .. فقد دام القداس ثلاث ساعات كاملة .. ومع ذلك كان أخى من الصفاقة بحيث صاح متعجبا ، وهو يرانا نهبط الدرج : « ماذا ؟ .. هل انتهت الصلاة بهذه السرعة ؟ »

« وكان مباحا لنا عادة ، فيما مضى ، ان نقضى امسيات أيام الاحاد في اللعب ، على شرط الا نشير جلبه أو ضوضاء .. اما الان فالضحكة الخافتة تكفى لإرسال كل منا ليركع في ركن قصى .. وكان الطافية يقول : « انكما تسيان ان لكما سيذا هنا .. ولكنى سوف أسحق أول من تسول له نفسه ان يخرجنى من طورى .. اتنى مصر على الهدوء الشامل والصمت المطلق .. أه ! . هل أنت الذى فعلت هذا يا ولد ؟ .. فرانسيس يا عزيزتى ، شديده من شعره عند مرورك به فقد سمعته يقطع أصابعه ! .. » فجدبته فرانسيس من شعره عن طيب خاطر ، ثم مضت لتجلس على ركبتى زوجها ، حيث مكثا ساعة يتضحكان ويتبادلان القيل والأحاديث الفارغة كأنهما طفلان غربران ، في مداهنة سخيفة يخلق بنا أن نخجل منها ! .. اما نحن فقد فبعنا في فجوة (البوفيه) ، ودبرنا لنفسينا جلسة مريحة بقدر ما سمحت به إمكاناتنا في هذا المكان الفسق .. وكنت قد ربطت مرولتينا معا ، وعلقتهما ستارا ، عندما

قدم جوزيف من جولته في حظائر الماشية ، فاذا به يجذب الستار فينتزعه من مكانه ، ثم يلطمني ويقول في صوت كنتيق الضفادع : « إن السيد لم تجف دماؤه في قبره بعد ، ولم ينتفض يوم الأحد المقدس ، وما زال صوت تلاوة الإنجيل في أذانكما ، ومع ذلك تجبران على اللعب والضحك ؟ .. العار لكما واللعنة عليكما ! .. اجلسا في سكون ابها الطفلان الفاسدان ، فهناك كتب طيبة تكفيكما للقراءة إذا أردتما .. اجلسا خاشعين وفكرا في صلاح رويكما الشريرتين ! »

«وإذ قال ذلك أرغمتا على الجلوس في وضع يتيح لنا أن نتلقى شغافا خافتا من وهج المدفأة البعيدة يكفي لأن نتبين سنطور الكتب النسخية التي ألقى بها إلينا .. ولم أستطع احتمال هذا التكليف . فأمسكت بالكتاب القدر الذي كان من نصيبي وطرحت به إلى وجار الكلب مقسمة على اثني أمقت الكتب الطيبة ! .. أما هيثكليف فقد رمى بكتابه إلى نفس المكان ولكن بركلة من قدمه .. وعندئذ انقضت الصاعقة ، فقد صاح قميسنا الورع :

— يا سيد .. يا مستر هندلي ! .. تعال إلي هنا حالا ! .. لقد مزقت مس كائي ظهر غلاف « دوع الخلاص » .. ووضع هيثكليف قدمه على الجزء الأول من « الطريق المسيحية نحو الدمار ! » .. إنه لعار كبير أن تتركهما يعمنان في هذا المسلك الدميم .. آه ! .. أن الرجل المعجوز ما كان ليدهما دون علة سناخنة .. ولكنه ذهب ! ..

« فأسرع إلينا هندلي من فردوسه بجوار المدفأة ، وأمسك احدنا من قفاه ، والاخر من ذراعه ، ثم قذف بنا إلى المطبخ الخلفي حيث اكد لنا جوزيف تأكيدا قاطعا بأن الشيطان سوف يأتي في طلبنا .. وإذ ارتاح بالنا إلى ذلك ، مضى كل منا إلى احد الأركان وجلسنا نتنظر مقدمه ! .. اما انا فقد اخذت هذا الكتاب ومحبرة كانت فوق رف في المطبخ ، وفتحت باب المنزل قليلا ليمسح بدخول الضوء ، وظللت اكتب نحو عشرين دقيقة .. واما رفيقي فقد نفذ صبره واقترح ان نستولي على معطف المرأة التي تمخض الزيد ، ونحتمى به من المطر ثم نمضي لترفض بين البراري - وهو اقتراح لطيف حقا ، فلو حضر عندئذ المعجوز ذو السحنة الكئيبة فربما اعتقد ان نبوته قد تحققت - ولن نزداد بلا او بردا تحت المطر عما نحن عليه هنا .. »

احسب ان كاثرين قد نفذت مشروعها . لان العبارة التي تلت ذلك طرقت موضوعا آخر .. ويبدو انها كتبتها والدموع تنهمر من عينيها ، قالت :

« ما كنت احلم البتة ان هندلي سوف يجعلني ابكى بمثل هذه الحرقه يوما من الايام ! .. ان راسي يؤلمني الما شديدا حتى لا اكاد اطبق وضعه فوق الوسادة ، ومع ذلك لا استطيع ان اكف من البكاء .. بالهيثكليف المسكين ! .. ان هندلي يصقه بالمشرد ، ولا يريد ان يدعه يجلس معنا او يأكل معنا بعد الآن .. كذلك يقول إنني وهيثكليف لا ينبغي أن نلعب

معا ، وينثر بطرده من المنزل إذا عصينا أو امره .. بل لقد
 راح يوجه اللوم لوالدنا (رباه ! كيف يجرؤ على ذلك ؟)
 لانه احسن معاملة هيكليف ، ثم اقسم بأنه بلزمه حده ويضعه
 في الموضوع اللائق به ! » .

وبدا النعاس يراود اجفاني ، فهومت فوق صفحة الكتاب
 المعتمة ، وسرح بصرى من الكتابة المخطوطة إلى الحروف
 المطبوعة ، فرايت عنوانا طبع بالمداد الاحمر على سبيل
 الزخرفة ، كان نصه : « سبعون في سبعة (١) ، واول الواحد
 والسبعين الاولى .. عظة ثقية القاها المحترم جابس براندرهام
 في كنيسة جيمردون سو » . وبينما كنت اكد عقلي ، وانا
 بين النوم واليقظة ، لاستنتاج ما يمكن ان يعالجه جابس
 براندرهام في موضوعه هذا ، تهاويت على الفراش واستغرقت
 في النوم .. ولكن والسفاه ! .. لقد تأمرت على آثار الشاي
 الرديء والخلق السيئ ! والا فإى شيء آخر يمكن ان يجعلنى
 أقضى مثل هذه الليلة المروعة ؟ .. اننى لا اذكر البتة ليلة
 أخرى أستطيع مقارنتها بهذه ، منذ ان أدركت معنى الاحساس
 بالألم والفزع .. !

(١) إشارة إلى عدد المرات التي أوصى الانجيل بأن يفرغها الانسان لمن
 يخطئ اليه ، فقد ورد في انجيل متى (١٨ - ٢١) : « حينئذ تقدم بطرس
 إلى المسيح وقال : يا رب كم مرة يخطئ إلى اخي وانا افرغه . هل إلى سبع
 مرات قال له يسوع لا اتول ذلك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات » .

وقد بدأت الاحلام تطيف بى ، حتى قبل ان انتقع عن الشعور
 بالمكان الذى ارقد فيه .. فخييل إلى ان الصباح قد حل ،
 واننى خرجت منصرفا إلى منزلى ، ومعى جوزيف مرشدا لى
 .. وكان الثلج بقمر طريقنا ، عميقا كثيفا ، فكنا نتخبط في
 مسيرنا ، عند ما أخذ رفيقى بضجرنى بلومه المتكرر لى إذ لم
 احضر معى « عكاز الحاج » ، قائلا اننى لن استطيع دخول
 الدار مالم يكن معى واحد منها ، بينما كان فى الوقت نفسه
 بلوح في زهو بهراوة سخمة ذات رأس ثقيل ، فهمت انها هى
 التى يطلق عليها هذا الاسم .. وظللت لحظة اعددها سخامة
 بالغة منه ان يزهيم احتياجى لمثل هذا السلاح حتى استطيع
 دخول منزلى الخاص .. ما لبثت ان ومض في فكرى خاطر
 جديد : اننى لست ذاهبا إلى هناك ، وانما نحن نمضى إلى
 حيث نسمع السيد جابس براندرهام الشهير يلقي عظمه :
 « سبعون في سبعة » ، وان واحد منا - جوزيف ، او الواعد
 او انا - قد يكون « اول الواحد والسبعين الاولى » .. وانذا
 سوف يشهر بنا علانية ، وتوقع عيشا عقوبة الحرمان من
 الكنيسة ..

ووصلنا إلى الكنيسة .. وكنت قد مرت بها في اليقظة
 اثناء جولانى بين البرارى ، مرتين او ثلاثا .. وهى تقع فيما
 يشبه الكهف المرتفع ، على مستشرف من الأرض ، بين تلين ،
 بالقرب من مستنقع يقال ان النفايات الرطبة التى تملؤه تغى
 بجميع اغراض التخنيط للبحث القليلة التى اودعت الأرض
 هناك ! .. وقد ظل سقف الكنيسة قائما حتى الآن ، ولكن
 (م ٢ - مرفعات ويلنج - ج ١)

لما كانت مخصصات القس لا تعدو عشرين جنيها في العام ، ومنزلا من حجرتين ينذر الجدار الفاصل بينهما بتحويلهما عاجلا إلى حجرة واحدة ، فإن أحدا من رجال الدين لم يعد يقبل القيام بأعباء وظيفه القس لهذه الكنيسة ، سيما وقد ذاع أمر تلك الحقيقة الواقعة ، وهي أن قطع رعيته يفضل أن يدمه يموت جوعا على زيادة راتبه بنسا واحدا يدفعونه من جيوبهم ! .. ومهما يكن من أمر ، فقد كان الاجتماع الذي عقده جابس ، في الحلم ، حافلا بحشد من المستمعين الذين ارهفوا سمعهم له .. وبدا يلقي عظته .. يا الهى ! .. أى قداس هذا ؟ .. لقد قسمه إلى أربعمائة وتسعين فسما ، كل منها من الامتلاء بحيث يكفى خطبة منبرية عادية ، وكل يناقش خطبة مستقلة ! .. ولست أدري من أين أتى بكل هذا العذاس من الخطايا ؟ .. كذلك كانت له طريقته الخاصة في تفسير عبارته ، فكان يبدو أن « الأخ » مثلا لا بد أن يأتى عدة آثام مختلفة في آية مناسبة .. وكانت كلها ذات طابع مغرط في الغرابة ، وكلها خطايا عجيبة لم تخطر لى على بال قط ، قبل !

أواه ! .. ما أشد الكلال الذى حل به ! .. فكم تلويت ، وتناهيت ، وهومت ، ثم انتعشت ! .. وكم فرست نفسى ، ونخست جلدى ، وفركت عيني ، وكم نهضت لم جليست - وكم وكرت جوزيف يعرفنى ليخبرنى بما اذا كان القس المحترم سوف يفرغ من عظته قط ! .. ولكن كان قد قضى على بان اسمعها كلها .. واخيرا بلغ « أول الواحد والسبعين الأولى »!

.. وعند هذه المصيبة الداهمة ، هبط على الوحى فجأة وشعرت بدافع يحركنى للقيام واتهام جابس براندردهام بانتزاف الخطيئة التى لا يحتاج المؤمن معها إلى غفران .. فهتفت أقول :

- لقد احتلمت يا سيدى ، وأنا اجلس بين هذه الجدران الأربعة في وضع واحد لا يتغير ، رؤوس مواضع خطبتك الأربعمائة والتسعين ، وغفرتها لك ! .. كنت ، سبعين مرة في سبع ، اختطف قبعتى وأوشك على الانصراف .. ولكنك كنت ، سبعين مرة في سبع ، ترغمنى - على نحو لا يصدقه العقل - على استعادة مقعدى .. والأربعمائة والتسعون الأولى هى أكثر مما تطيق .. ابها الاخوة الشهداء ، اياكم به ! .. جروه من منبره ، واسحقوه سحقا حتى تحولووه إلى ذرات ، وحتى لا يعود المكان الذى طالما عرفه من قبل ، يعرفه بعد ذلك ..

وتهمل جابس لحظة وهو يحدجنى في رسالة وقد انكا على وسادته ، وما لبث أن ساح فجأة :

- أنت الرجل المنشود ! .. لقد كنت ، سبعين مرة في سبع ، تغفر فالك متثابيا ، فيتلصص وجهك .. ولكنى ظلت ، سبعين مرة في سبع ، أراجع نفسى ، وأتساور مع روحى ! .. انظروا .. هذا ضعف بشرى ! .. وهو أيضا مما يمكن غفرانه ! .. لقد أتى أول الواحد والسبعين ، ابها الاخوة ، فهاكم نغدوا فيه العقاب المكتوب .. انه شرف لا يناله إلا القديسون !

وعند هذه العبارة الختامية ، اندفع الجمع كله محيطا بي
في كتلة واحدة ، وقد رفع كل منهم « عكاز الحجاج » الذي
يحملة .. وإذا كنت لا أحمل سلاحا أرفعه دفاعا عن نفسي ،
فقد بدأت أناضل جوزيف ، الذي كان أقرب المهاجرين لي
وأشدهم ضراوة ، محاولا انتزاع عكازه .. وفي غمرة هذا
العشد الزاخر ، كانت الهراوات تتقارع معا ، وكانت اللطمات
الموجهة إلى تهوى على رؤوس وجماجم أخرى ! .. وما لبثت
الكتيبة كلها أن أصبحت تردد صدى رنين الطرقات والطرقات
المضادة ، وأصبحت يد كل رجل مرفوعة على جاره .. أما
براندرهام ، الذي لم يرد البقاء عاطلا ، فقد تدفقت حميته
في وابل من الدقات العالية على الواح منبره ، كان لها دوى
ورنين بحيث أدت في النهاية ، لفرط ارتياحي الصامت ، إلى
إيقاظي من النوم ! .. وماذا كان ذلك الشيء الذي أوحى بهذه
الضجة الهائلة ؟ .. ما الذي لعب دور جابيس في ذلك الشغب ؟
.. إنه لم يكن إلا غصنا من شجرة شربين ، كان يمس نافذتي
كلما هبت الريح ، فتقرع ثماره الجافة زجاج النفاذة ..
ورحت أصفى لحظة ، بين الشك واليقين ، حتى تحققت من
سبب النزاع ، فاستدرت في الفراش وأغفيت من جديد ..
وعندئذ بدأت أحلم ثانية ، فكان حلما أشد سوءا من سابقه !

في هذه المرة رايتني أرقد في خزانة البلوط ، وأسمع في
وضوح زفيف الرياح وهطول الثلوج ، وأسمع كذلك غصن
الشربين اللعين وهو يعود إلى معاكساته الصوتية السابقة ،
فكنت أنسبها إلى مصدرها الحقيقي .. لكنه أضجرتني كثيرا

إلى حد جعلني أصمم على إسكانه ما استطعت .. وخيل
إلى أنني نهضت من رقادي ، وحاولت رفع مزلاج النافذة ،
فوجدت الخطاف مشينا في الحلقة باللحام - وهي حالة لاحظتها
في يقظتي ونسيتها في الحلم ! - فغمضت محنتا : « لابد لي
من إسكانه مع ذلك » .. ثم دفعت قبضة يدي في النفاذة
دفعه قوية اخترقت الزجاج ، ومددت ذراعي إلى الخارج
لامسك بالفضن اللجوج ، فإذا بأصابعي تطبق - بدلا منه -
على أصابع يد صغيرة باردة كالجليد ! .. وأصابني هذا
الكابوس بفرغ هائل غزير ، وحاولت أن أجذب يدي إلى داخل
النافذة ، ولكن اليد الصغيرة تعلقت بها في قوة ! وإذا بسوت
بقيض بالحزن والألم يغمض بما يشبه الأنين ، قائلا : « دعني
ادخل .. دعني ادخل » ، فسألت وأنا لا أكف عن النفضال
لتخليص يدي : « ومن أنت ؟ فأجاب الصوت في نبرات
متهدجة : « كاترين لينتون » .. (لست أدري لماذا فكرت
في اسم « لينتون » مع أنني قرأت اسم « إيرنشو » أكثر من
لينتون عشرين مرة !) . واستطرد الصوت الحزين يقول :
« ها أنذا أعود إلى منزلي ، وكنت قد ضللت طريقي بين
البراري والأحراش » ، وبينما كان يقول ذلك تبيئت وجهه
طفلة صغيرة ، غير واضح المعالم تماما ، يطل على من خلال
النافذة .. فأمدني الفرع المروع بقسوة رهيبية ، فإنتى عندما
وجدت محاولاتي لدفع هذا المخلوق الفظيع بعيدا . غير
مجدية . جذبت معصمه نحو حافة الزجاج المحطم ورحت
أحككه ذهابا وجيئة حتى انبثق الدم منه وتدفق على الفراش
.. وكان ما يزال يسوح : « دعني ادخل » ، وهو يتشبث

بقبضته الباردة على أصابعي ، فكاد الفزع يؤدي بي إلى الجنون ، وأخيرا قلت : « وكيف استطيع ؟ .. حل عنى أولا إذا شئت أن أدعك تدخل ! » .. وعندئذ تراخت الأصابع النحيلة . فأسرعت بسحب يدي إلى الداخل خلال الثغرة ، وأخذت أكوم الكتب في صف هرمي أمامها ، ثم سدوت اذني لأحول دون بلوغ هذه التوسلات الأليمة إلى مسامعي .. وخيل إلى اننى مكنت أسنهما زهاء ربع ساعة ، ومع ذلك فعى اللحظة التي رحت أصفي فيها ثانية ، عادت صيحات الألين الأليمة تتردد من جديد ، فصحت قائلا : « أذهبى لحالك ، فلن أدعك ندخلين قط ، ولو ظلمت تتوسلين عشرين عاما ! » .. فقال الصوت الحزين : « انها عشرون عاما ! .. عشرون عاما ! .. لقد لبثت ضالة شريفة عشرين عاما ! .. » وفي الوقت نفسه بدأت أسمع صرير احتكاك خافت في الخارج ، وأخذت كومة الكتب تترنج كأن بدا تدفعها .. فحاولت أن أقفز من الفراش ، لكنني عجزت عن تحريك جارحة في جسدي ، فاطلقت صيحة مدوية ، وقد غمرنى فزع جنوني .. وسرعان ما تبينت ، في خزي وارباك ، اننى انما أرسلت صيحة حقيقية ، ليست من تصوير الخيال في الحلم ، إذ سمعت وقع أقدام مسرعة تقترب من باب الحجر ، وإذا بشخص يدفع الباب بيد قوية فيفتحه ، بينما أخذ بصيص خافت من الضوء يلوح خلال الفتحات المربعة بأعلى الخزانة . وجلست في الفراش ، والرعدة ما تزال تسرى في بدني ، أجف العرق المتصبب من جبينى .. وبدأ التردد على الداخل ، وكان يغمغم بكلمات غير مفهومة كأنما يحدث نفسه ، حتى قال

أخيرا فيما يشبه الهمس ، وفي لهجة من لا يتوقع أن يسمع جوابا : « هل من احد هنا ؟ » وقدرت أن من الخير أن اعترف بوجودي ، لأننى تبينت صوت هيثكليف ولهجته ، وخشيت أن يمضي في تفتيش الحجر لو لبثت سامتا .. وإذا استمر عزمي على ذلك ، استدرت وفتحت باب الخزانة المنزلق .. ولن انسى ما حبيت ما أحدثته هذه الحركة من أثر !

وكان هيثكليف يقف بالقرب من المدخل ، يرتدى قيممه وسراويله ، ويحمل في يده شمعة تتساقط قطراتها الدائبة على أصابعه ، وقد شحب وجهه حتى غدا في لون الجدار الأبيض القاتم خلقه ! .. وما إن انبعث صرير الخشب وأنا افتح الباب ، حتى أجفل مرتاعا كأنما أصابته صدمة كهربائية ، وطارت الشمعة من يده إلى مسافة بضعة أقدام ، فبلغ من شدة اضطرابه أنه لم يستطع التقاطها إلا بصعوبة بالغة .. ووددت أن أجنبه هوان الظهور بمظهر الجبان الرعديد بعد ذلك ، فهتفت قائلا : « أنه ليس إلا ضيفك ياسيدي ! .. ومن سوء الحظ اننى صرخت النساء نومي بسبب كابوس مخيف أصابنى .. وانى آسف اذا كنت قد أزعجتك ! »

فوضع مضيئى الشمعة على أحد المقاعد ، بعد أن تبين استحالة حملها في يده ثابتة ، وبدأ يقول : « يا الهى ! .. أخزك الله يامستر لوكوود ! .. الا لبتك كنت في .. »

وكان يفرس اظافره في راحتيه ، ويشدد الضغط على اسنانه ليخفي رعدة فكيه ، وهو يستطرد قائلا :

- ومن الذى ارشدك إلى هذه الحجرة ؟ .. من هو ؟ ..

فقد استقر عزمى على طرده من البيت فى النو واللحظة !

فغزت من الفراش إلى الأرض ، ورحت اجمع ثيابى فى عجلة واهم بارتدائها ، قائلا :

- إنها خادمتك زيللا .. ولن أبالى إذا طردتها يا مستر هيثكليف ، فإنها تستحق ذلك عن جدارة ! .. وأحسبها ازادت الحصول على دليل جديد - على حسابى - بأن المكان سكنه الأرواح الشريرة .. حسنا ! .. أنه يوج بالاشباح والمفاريت فعلا ! .. وقد احسنت صنعا باغلاقك هذه الحجرة وتمنع أحدا من دخولها ، فإن أحدا لن يحمده لك أن تأخذه سنة من النوم فى وكر الشياطين هذا !

فقال هيثكليف : « ما الذى تعنيه ؟ .. وما هذا الذى تفعله ؟ .. الا عد إلى فراشك واتم ليلىك مادمت هنا .. ولكن بحق السماء لا تكرر هذه الضجة الفظيعة ، فما من شئ يمكن أن يبررها إلا أن يكون هناك من حاول ذبحك ! »

- لو أن تلك الشيطانة الصغيرة استطاعت الدخول من النافذة لخنقنى على الأرجح ! .. ولكن ليس فى نيتى أن احتمل المزيد من قسوة أسلافك الكرام الميامين مرة أخرى . ألم يكن المحترم جابس براندرهام من أخوالك ؟ .. وتلك الشيطانة الصغيرة ، « كاترين لينتون » - أو « إيرشو » ، أو كيلما كان اسمها - لا ريب أنها كانت ذات روح خبيثة متقلبة . لقد اخبرتنى أنها ظلت تدرع الأرض طوال هذه

الأعوام العشرين ، ولعمري إنه لجزء حق على خطاياها المبيتة ، ما فى ذلك شك أو ريب !

وما كدت انطلق بهذه الكلمات حتى ذكرت اقتران اسم هيثكليف باسم كاترين فى الكتاب الذى كان قد تسرب من ذاكرتى حتى عاد إليها ثانية على هذا النحو .. واحسنت بالخبيل والخزى لقللة بصرى ، ولكنى ، دون أن اظهر شيئا من الشعور بجرمى ، اسرعت اتابع القول : « الحقيقة ياميدى هى اننى قضيت الشطر الاول من الليل فى .. »

وعند هذا الحد توقفت ثانية ، فقد كنت على وشك أن أقول : « فى تصفح هذه الكتب القديمة » ، وبذلك كنت افشى علمى بمحتوياتها من الكتابة المطبوعة والمخطوطة .. فتراجعت ومضيت أقول : « .. فى هجاء الإسم المنقوش على حافة النافذة ، مرة بعد مرة ، وهى كما ترى مهمة رتيبة قصدت منها جلب النوم إلى جفونى ، كمد الأرقام أو .. »

.. وإذا بهيثكليف يقاطعنى فى صوت كقصف الرعد ، وقد تملكته سورة غضب ضاربة : « ماذا يمكن أن يكون قصدك من مخاطبتى على هذا النحو ؟ .. كيف ؟ .. كيف تبلغ بك الجراة إلى هذا الحد ، وتحت سقف بيتى ؟ .. يا الهى ! لا بد أنه مجنون إذ يقول ذلك ! »

وراح يقرع جبهته فى غضب مروع .. اما أنا فقد حرت بين استنكار لهجته ، أو متابعة تفسيرى لما حدث .. ولكنه كان يبدو من شدة التأثر وعمقه ، بحيث اشفت عليه

واستغرقت في الحديث عن أحلامي ، مؤكدا أنني لم اسمع قط باسم « كاترين لينتون » من قبل ، ولكن إذماني قراءته مرة بعد مرة طبع في ذهني أثرا لم يلبث أن تجسد على هيئة شخص عند ما لم تعد لي أية سيطرة على خيالي ..

وكان هينكليف ، أثناء حديثي ، يتقهقر خطوة بعد أخرى إلى ما وراء الفراش ، ما لبث أخيرا أن جلس على الأرض حتى كاد الفراش يحجبه عن أنظارى .. وأدرت من أنفاسه اللاهثة المتقطعة أنه يناضل نفسا شاقا في سبيل التغلب على تأثيره العنيف المفرط ، وإذ كنت لا أحب أن أظهر له أنني قد لحظت نضاله هذا ، فقد رحت أتابع ارتداء ملابسى ، محدثا جلبة مقصودة ، لم نظرت في ساعتى ، وناجيت نفسى عن طول الليل ، قائلا :

— ماذا ؟ .. الساعة لم تبلغ الثالثة بعد ؟ .. لقد كدت أقسم أنها تجاوزت السادسة ! .. إن الوقت في ركود هنا ، ولا بد أننا أرينا إلى فراشنا حقا في الثامنة !

فأجابنى مضيقى ، وهو يكتنم آتينه ، ويكفكف عبرة ترقرت في عينيه ، كما وضع لى من حركة ذراعاه التى رأيت ظلها على الجدار : « بل دائما نأوى إلى الفراش شتاء في التاسعة ، ونستيقظ في الرابعة » .

لم أضاف بعد لحظة : « يمكنك أن تذهب إلى حجرتى يامستر لو كووود .. فنزولك الآن في هذا الوقت المبكر سوف يحدث ارتباكا في المنزل ، كما أن صرختك الصبيانية قد ذهبت بالنوم من عيني إلى الشيطان ! »

— ومن عيني أيضا .. ولكن سوف أتشى في الفناء حتى يطلع النهار ثم أنصرف لسانى .. ولا حاجة بك لأن تخشى تكرار تطفلى عليك بالزيارة ، فقد شقيت تماما الآن من ذاء نشدان المتعة بصحبة الناس ، سواء في الريف أو المدن .. فالعاقل إنما يتبى له أن يجد في نفسه صحبة كافية !

فغمغم هينكليف : « انها صحبة ميمعة ! .. والآن ، خذ الشمعة واذهب حيثما تشاء ، سوف الحق بك بعد قليل .. ولكن عليك أن تتجنب الفناء لأن الكلاب معلقة السراح فيه ، وحجرة الجلوس لأن (جونو) تقوم بالحراسة هناك .. ويمكنك أن تقصر طوافك بين السلالم والممرات .. ولكن اذهب عنى الآن ، وسوف أنزل بعد دقيقتين .. »

فأطعته ، لمجرد رغبتى في مغادرة هذه الحجرة .. ولكنى إذ وقفت حائرا لا أدرى إلى أين تقودنى تلك الممرات الضيقة ، شهدت — برغم أنفى — منظرا أشسبه بتمثيلية عن الخرافات والخزعبلات يقوم بها مضيقى ، ويناقض — على نحو عجيب — ما يبدو عليه من عقل واتزان .. فقدم مضى نحو الفراش ، وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعها ، وهو يتفجر في نوبة من النسيج والبكاء المتصل ، كأنما أفلت منه زمام سيطرته على مشاعره ، ويقول في عويل : « ادخلى ! .. ادخلى ! .. تعالى ياكالى .. آه ! .. تعالى مرة أخرى ! .. آواه ! .. يا حبيبة القلب .. أصفى إلى هذه المرة يا كاترين أخيرا ! » .

غير ان الشبح اظهر تلك النزوة المألوفة لدى الأشباح ، فلم يبد أية إشارة تنم عن وجوده .. وهكذا الأشباح إذا دعيت لم تلب ! .. ولكن الثلج والرياح كانت قد اقتحمت النافذة وراحت ترمجر في انحاء الحجرة ، وإذ بلغت مكاني اطفأت لهب شمعتي ..

وكان في ذلك الفيض من اللوعة والاسى ، الذى صاحب هذيانه ، ما يتم عما يلاقه من عذاب فظيع ، بحيث اخذتني الشفقة عليه ورثيت لحاله ، واغضيت عن جنونه ، فبادرت إلى الانسحاب وقد تملكنى الأسف إذ انصت له ، واستبد به الضيق إذ قصصت عليه ذلك الكابوس المضحك ، بعد أن شهدت ما سببه له من حزن بالغ ، وإن كان سبب ذلك مما يدق على فهمي .. وهبطت الدرج في حذر إلى الطابق الأسفل ، حتى استقر بي القام في المطبخ الخلفي ، واستطعت ان اشعل شمعتي ثانية من لهب نار خافتة كومت جدوانها في المدفأة .. ولم يكن في المكان حس او حركة إلا قطة رمادية اللون مخملطة الغراء ، نهضت في تراخ من مجسمها بجوار المدفأة ، وحينئذى بعواء يفيض بالتدمر والسخط !

وكان امام الموقد دكتان خشبيتان ، على شكل قوسين ، يكادان يحيطان به ، فاستلقيت على احدهما ، بينما ارتقت القملة (جربالكين) الدكة الأخرى .. وكنا كلانا نهم من النعاس قبل أن يعزو احد مكان خلوتنا هذه ، ثم إذا بجوزيف يهبط علينا فوق سلم خشبي كان يختم في السقف خلال باب مسحور ، احسب انه يؤدي إلى مخزنه العلوى ، فألقى



وانزع رناج النافذة من مكانه فلقنها على مصراعها ،
وهو يتفجر في نوبة من الشبح والبهكة المتصل ..

نظرة منكورة على اللهب الضئيل الذي كان يتراقص بين قضبان
الموقد بعد ان حركت جذوات الفحم ، ثم ازاح القطة عن
مرقدها المرتفع بحركة من يده ، واحتل مكانها ، وبدأ يحشو
بالطباق غليونه القصير ، الذي لا يعدو الثلاث بوصات طولاً . .
وكان من الواضح ان وجودى في خلوته المقدسة كان يعد ضرباً
من القحة المخجلة التى تجاوزت الحد بحيث لا يجدى معها
احتجاج او اعتراض . . ومن ثم فقد وضع انبوية الغليون بين
شفتيه دون ان ينطق بكلمة ، وشبك ذراعيه فوق صدره .
وراح ينفث الدخان في قوة . . فتركته ستمتم بلذته دون ان
اعكر عليه صفوه ، حتى إذا ما فرغ من امتصاص آخر حلقات
الدخان ، واطلق من صدره تنهدة عميقة ، نهض من مجلسه
وتأدار المكان في رصانة ووقار مثلما جاء . .

وما لبثت ان ولجت المطبخ خطوط اخرى اكثر خفة
ومرونة ، ففتحت فمى لاقول : « صباح الخير » ، ولكنى
اطبقته ثانية دون ان انطق بهذه التحية ، فقد كان هيرتون
أبرنشو يتمتم « بصلواته » في غممة خافتة ، وفي سلسلة من
اللعنات يوجبها لكل شيء يلسمه ، بينما كان ينقب في احد
الاركان عن معول او مجرفة ليزيح بهما الجليد او ليشق طريقاً
خلاله ، بعد ان القى على الاربكة نظرة خاطفة ، وهو يبسط
منخريه ، دون ان يفكر في تبادل التحية معى او مع القطة ! . .
وحدثت ، من هذه الاستعدادات التى يقوم بها ، ان الخروج
اصبح مباحاً ، فتركت مقعدى الصلب ، وهمت بان اتبعه
إلى الخارج . . ولكنه لحظ حركتى هذه ، فأشار بطرف

معوله نحو باب داخلى ، مبينا لى في تمتمة غير مفيومة ان ذلك
هو المكان الذى ينبغى ان اذهب إليه إن اردت تغيير موضعى .

ووجدت الباب يؤدى إلى حجرة الجلوس - او « البيت »
كما يسمونها - حيث كانت نساء الدار قد استيقظن فعلاً
وانصرفن إلى شئونهن . . كانت « زيللا » تستحث الشرر
المنطائر من لهب الموقد على دخول المدخنة ، بواسطة منفاخ
كبير الحجم ، بينما ركعت مسر هيكليف بجوار المدفاة . وعى
تقراً في كتاب على وهج النار ، وترفع يدها امام عينيها لتنتفى
حرارة الموقد . وكانت تبدو مستغرقة في القراءة ، لا تنقطع
عنها إلا لتؤنب الخادمة عند ما ينطائر الشرر ناحيتها ، او
لتدفع عنها ، بين ان وآخر ، احد الكلاب الذى كان يعد انعه
إلى الامام ليتشمم وجهها . ودهشت إذ رأيت هيكليف ايضا
هناك . كان يقف بجوار النار ، وظهر إلى ناحيتى . وهو
يختتم مشهداً عاصفاً مع « زيللا » المسكينة التى كانت بين
الحين والاخر تتوقف عن عملها لترفع طرف مرولتها وتكتم
بها أنينا مؤلماً . .

وقى اللحظة التى ولجت فيها باب القاعة كان يتحول نحو
زوجة ابنه ، ويتفجر صائحاً فيها ، مستخدماً صفة لا يمكن
إبناها كتابة :

- وانت . . انت أيتها ال . . الحقيرة . . ها انت ذى تعودين
إلى كسلك وخمولك ثانية . . إن الباقين يخدموننى نظير
لقيمتهن ، أما انت فتعشين على صدقتى وإحسانى ! . . دى
هذه النفايات التى في يدك ، وابحنى عن عمل تؤدينه . . سوف

تدفعين لي غالبا لمن ابتلائى بوباء وجودك أمام ناظرى دائما .. هل تسمعين آيتها العاجزة العينية ؟

فأطبقت السيدة الشاببة كتابها ورمت به فوق أحد المقاعد ، وقالت :

- سوف ادع النفايات التى فى يدي ، لأن فى وسعك ان ترمضى على ذلك لو رفضت .. ولكنى لن اعمل شيئا ، مهما اطلقت لسانك بالسباب والشتائم ، إلا ما يروق لى ان افعله !

فرفع هيثكليف يده ، بينما وثبت السيدة إلى مسافة تأسن فيها تلك اليد التى يبدو من الواضح انها ذاقت وطاؤها من قبل .. وإذ كنت لا أحب ان استقبل بمشهد عمراك كالدلى ينشب بين القلطل والكلاب ، فقد تقدمت إلى الامام بفتة ، كانتنى مطلق إلى مشاركتهم دفء النار ، وكاننى خالى الذهن عن اى شىء من هذا الشجار الذى قطعته عليهم . والحق ان كلا منهما كان من الكياسة بحيث أرجأ إظهار المزيد من هذه الخصومة ، ووضع هيثكليف قبضتيه فى جيوبه ، ليكون بمنجاة عن الإغراء باستخدامهما ، أما مسز هيثكليف فقد تورست شفعتها ، ومشت إلى مقعد بعيد حيث وقت بوعدها الا تفعل شيئا بأن جلست ساكنة كالتمثال خلال بقية الفترة التى مكثتها بينهم . ولم تكن فترة طويلة ، فقد رفضت مشاركتهم فى طعام الإفطار وانتهزت فرصة بزوغ اول شعاع من الفجر للفرار إلى الهواء الطلق الذى وجدته وقتئذ صافيا ، ساكنا ، شديد البرودة كالثلج ..

وهتف بى مضيقى يستوتقنى قبل ان ابلغ نهاية الحديقة ، ثم عرض على ان يرافقتى خلال البرارى والمستنقعات .. وحسنا فعل ! .. فإن سفح التل من الناحية الأخرى كان اشبه ببحر عجاج من الجليد الأبيض .. وكانت النوات والغجوات لاكتشف مما يقابلها من مرتفعات أو منخفضات فى الأرض .. أما الكثير من الحفر فقد ابتلات إلى حافتها ، على حين اختفت سلاسل باكملها من الاكمام والزواجرى - مما تلفظه المحاجر - من الصورة التى ارتسمت فى ذهنى أثناء مسيرى بالأمس . وكنت قد لاحظت على جانب من الطريق سفا من الحجارة القائمة ، تفصل بين الواحد والاخر ست ياردات او سبع ، يمتد على طول البرارى المغفرة ، وقد أقيمت تلك الحجارة وطلبت بالجبر لتكون مرشدا للبارة فى الغلام ، او عندما ينهمر الثلج كما حدث بالأمس فيطمس معالم المستنقعات العميقة على كلا الجانبين فلا تبين من الطريق الصلدة .. ولكن ، فيما عدا نوء قدر يبدو للاعين هنا وهناك ، فقد اكتفت قوائم الحجارة حتى لكأنها تلاشست من الوجود !

وكان رقيقى كثيرا ما يجد من الضروري أن يحفرنى ويطلب منى ان التحول إلى اليمين أو إلى اليسار ، بينما كان يخيل إلى أننى أتبع المنعرجات الصحيحة للطريق . ولم نتبادل إلا القليل من الحديث حتى توقف عند مدخل حديقة (تراشكروس) ، قائلا إننى لن أكون عرضة للخطأ بعد ذلك .. وكان وداعنا قاسرا على انحناءه سريعة ، ما لبثنا أن افترقنا بعدها . وتابعت مسيرى معتمدا على معلوماتى

الشخصية ، إذ كان كوخ العارص مهجورا لم يجد من يسكنه بعد . وكانت المسافة من البوابة حتى « الجرانج » لا تعدو ميلين ، ولكنى اعتقد اننى جعلتها أربعة اميال بما حدث لى من التيه بين الأشجار ومن القمص حتى رقبتي في حفائر الثلج ! - وهى حالة لا يقدرها إلا أولئك الذين خبروها فعلا ! - ومهما يكن من أمر ، وكيفما كان تجوالى في الحدائق ، فقد كانت الساعة تدق الثانية عشرة عندما كنت الج باب المنزل ، ومعنى ذلك اننى قطعت في كل ساعة ميلا واحدا من المسافة العادية بين منزلى ومرتفعات ويدرنج ..

واندفعت مدبرة منزلى وتوابعها لتحتين وهن يهتفن في ضجة عالية انهن قد قطعن الأمل نهائيا في عودتى سليما . كان كل إنسان يظننى قد هلكت في الليلة الماضية ، وكانوا في حيرة من طريقة البحث عن جسمانى ! .. فطلبت إلى الجميع أن يركتوا إلى الهدوء والسكون بعد أن راوتى أرجع سالما ، لم مضيت اجر قدمى المتناقلتين إلى الطابق العلوى ، وقد سرت البرودة في جسدى حتى شفاف قلبى ، فاصابته بالمخدر .. وبعد أن استبدلت بملابسى ثيابا جافة ، ورحت أذرع الأرض ذهابا وجيئة نحو ثلاثين أو أربعين دقيقة استجلابا للدق .. مضيت إلى حجرة المكتب خائر القوى كأننى قطيطة صغيرة .. بل لقد كنت من الضعف والخور بحيث لم اشعر بمشعة النار المتاججة في الموقد ، ولا بالقهوة الساخنة ، التى ينبعث البخار منها ، والتى اعدتها لى الخادم لاستعيد بها قواى الضائعة ..

الفصل الرابع

الا ما اعجب ثقلباتنا مع الالهواء ، كأننا ديك « دوارة الريح » المختال ! .. فانا .. انا الذى كنت عاقدا العزم على الاحتفاظ بنفسى بمنأى عن أية صلة اجتماعية ، والذى حمدت حسن طالعى إذ هددانى إلى النزول ببقعة تكاد مثل هذه الصلة فيها ان تكون مستحيلة عمليا .. انا ، ذلك التمس الضعيف الإرادة . قد اضطررت في النهاية إلى الاستسلام وإلقاء السلاح ، بعد أن ظللت حتى الفسق اصارع الوحدة والسأم ، فانتخذت من الرغبة في الاستفسار عن بعض الشؤون الخاصة باحتياجات المنزل ، ذريعة لأرغب إلى « مسز دين » - عندما احضرت لى العشاء - بأن تجلس معى ، ريشما اتناول طعامى ، راجيا في قرارة نفسى أن تكون ثرثرة عريقة ، فإيا ان ينشطنى حديثها، أو يسلمنى إلى النعاس ..

بدأت أقول لها :

- لقد عشت هنا زمنا طويلا .. ألم تقولى انك في خدمة السيد منذ ستة عشر عاما ؟

- بل ثمانية عشر ياسيدى .. فقد حضرت عندما تزوجت سيدتى ، لاقوم على خدمتها ورعاية شؤونها .. وعندما قضت نحبها ، احتفظ بى السيد لآكون مدبرة منزله .. فغمغمت قائلا « ذلك حق .. »

ولت ذلك فترة من الصمت - حتى لقد خشيت ألا تكون

لرثارة كما رجوت - فيما عدا الحديث عن شئونها الخاصة التي لا تكاد تهمنى في كثير أو قليل .. ومهما يكن من أمر غائتها بعد أن اخلدت إلى التفكير برهة ، وقد وضعت قبضتها على ركبتيها ، وخيمت على محياها المتورد مسحابة من التامل وإمعان الفكر ، أتبعثت تقول :

- آه ! .. شد ما تبدلت الأحوال منذ ذلك الحين !

- نعم .. واحسبك شهدت الكثير من التغيرات ؟

- أجل .. ومن المتاعب كذلك ..

فقلت لنفسى : « اه ! .. سوف اتحد بالحديث ناحية مالك الدار وأسرته ، فهو خير موضوع لبدا به .. ثم اننى أود أن اعرف تاريخ تلك الفتاة الأرملة الحسنة ، وهل هى من أهل الإقليم أم أنها ، كما هو الأرجح ، غريبة عنه ، حتى أن ذلك « الوطنى » العبوس لا يعترف بقرابنتها له .. »

وإذ عزمت على ذلك ، سألت مسز دين لماذا أجز هيكليف (ثراشكروس جرانج) ، مفضلا أن يعيش في مركز ومسكن يقلان عنه شانا ؟ ! .. وختمت السؤال بقولى :

- أم أنه ليس من الثراء بحيث يستطيع الاحتفاظ بالقصر في مستوى رفيع ؟

فقلت :

- الثراء ياسيدى ؟ .. أن أحدا لا يعرف كم لديه من المال الذى يزداد سنة بعد أخرى ! .. نعم .. نعم .. أنه من الثراء بما يكفيه الإقامة في دار خير من هذه بكثير ، ولكنه

شحيح بخيل ، ويده مغلولة إلى عنقه .. ولو فكر مرة في أن ينقل عشه إلى الجرانج ، فإنه ما أن يسمع عن مستاجر طيب حتى لا يطبق أن تفوته فرصة إقتناء بضع مئات أخرى .. وإنى لأعجب كيف يستبد الجشع بالناس إلى هذا الحد عندما يكونون وحيدين في هذه الدنيا !

- يبدو أنه كان له ولد ؟

- نعم ، كان له ولد ومات ..

- وهذه السيدة الشابة ، مسز هيكليف ، هى أرملة

ذلك الابن ؟

- نعم ..

- من أين تربينا قدمت أصلا ؟

- لماذا يا سيدى ؟ .. انها ابنة سيدى السابق ، رحمه

الله .. وكان اسمها وهى عذراء « كاترين لينتون » . اننى أنا التى غدوتها وربيتها ، تلك الصغيرة المسكينة .. كم أود لو ينتقل مستر هيكليف إلى هنا ، حتى يجتمع شملنا ثانية .

فنهفت في دهشة : « ماذا ؟ .. كاترين لينتون ؟ »

ولكنى ماكدت أفكر لحظة حتى أدركت أنها لا يمكن أن تكون

« كاترين ذات الشبح » التى ظهرت لى .. فأردفت قائلا :

- إذن فإن شياغل هذه الدار قبلى كان اسمه لينتون ؟

- لقد كان كذلك ..

- ومن هو إيرنشو .. هيرتون إيرنشو الذى يعيش مع

مستر هيكليف ؟ هل هما قريبان ؟

- كلا ، فهو ابن أخ مسز لينتون الراحلة ، والدة «كاثرين» ..
 - هو ابن خال السيدة الشابة إذن ؟
 - نعم .. كما كان زوجها ابن عمتها .. فقد تزوج هيثكليف شقيقة مستر لينتون ..
 - لقد رايت اسم «ايرتسو» منقوشا فوق الباب الامامى لمرتفعات ويدرنيج ، فهل هى اسرة قديمة ؟
 - وعريقة جدا ياسيدى .. وهيرتون هو آخر سلالتها كما ان عزيزتنا «مس كالى» - «كاثرين» - آخر سلالة اسرة لينتون .. ولكن هل ذهبت إلى مرتفعات ويدرنيج ياسيدى ؟
 .. إننى أسالك المغفرة لتطفلى ، ولكنى وددت ان اعرف كيف حالها !
 - مسز هيثكليف ؟ .. إنها تبدو فى خير صحة ، كما انها رائعة الحسن .. ومع ذلك فإنى احسبها غير سعيدة تماما !
 - آه ! .. لهف قلبى عليها ! .. ان ذلك لا يدهشنى .. ولكن كيف كان مبلغ ارتياحك إلى السيد ؟
 - انه شخص أدنى إلى الغلظة والخشونة يا مسز دين .. اليس هذا خلقه ؟
 - إنه خشن كحد المنشار ، وصلب كالصخر الصلد .. وكلما أقلت من التداخل معه كلما كان ذلك خيرا لك وأجدى ..
 - لا بد ان تكون الحياة قد تداولته بين سرانها وضرائها حتى غدا بهذه الغلظة والفظاظة .. هل تعرفين شيئا عن تاريخ حياته ؟

- إنها كحياة الطائر الفضولى ياسيدى ! .. وإنى اعرف كل شئ عنه ما خلا ابن ولد ، ومن كان أبواه ، وكيف حصل على المال بادية ذى بدء .. اما هيرتون فقد خرج صفر اليدين كالصغور الذى تنف ريشه ! .. ان الفتى المتكود هو الوحيد ، فى هذه المنطقة كلها ، الذى لا يعرف كيف كان ضحية العشى والخداع !
 - حسنا يا مسز دين .. انك تسدين إلى معروفا لو حدثتنى بطرف من انباء جيرانى ، فإنى اشعر بأننى لن انال الراحة التى انشدها لو أويت الآن إلى الفراش . لذلك ارجو ان تجلسى معى ساعة فنتحدث معا ..
 - آه ! .. بالتأكيد ياسيدى ! .. سوف احضر معدات الحياكة ثم اجلس معك ما طاب لك ان تستبقينى .. ولكنك أصبت ببرد ، فقد رايتك ترتعش ، ولا بد لك من عسيبة ساخنة لتخرج البرد من بدنك !
 وهرولت المرأة الطيبة خارجة من الحجرة ، فانتريت بمقعدى من النار ، وقد احسست براسى ينبض بالحرارة المرتفعة ، على حين كانت القشعريرة لا تكف عن جسدى لحظة .. فضلا عن ذلك ، كنت شديد الانفعال ، إلى درجة السخف ، وقد ازداد التوتر فى اعصابى وفكرى .. وقد سبب لى ذلك ان شعرت ، لا بالتعب والإعياء ، بل بالخوف (وما يزال ذلك شائنى حتى الآن) من العواقب الخطيرة التى سوف تنجم عن أحداث اليوم والامس .. وما لبثت مسز دين ان رجعت بعد قليل ، تحمل إناء ينبعث منه البخار ، وسببتنا

لادوات الحياكة ، فوضعت الأول على طرف المجاور للمدفأة ، ثم فريت مشعدھا ، وقد بدت عليها الشبهة بأن وجدتنى محبا للرفقة والعشرة !

وبدأت تقول ، دون أن تنتظر دعوة جديدة للحدث :

« قبل أن احضر لأقيم هنا ، كنت أقيم بصفة دائمة في مرتفعات ويلرنج ، إذ كانت أمى مربية مستر « هندلى ايرنشو » ، وهو والد « هيرتون » ، واعتدت أن امضى الوقت في اللعب مع الاطفال ، كما كنت اتوم بقضاء بعض الحاجات ايضا ، وأساعد في تدرية (التدریس) ، واحوم حول المزرعة متاهبة لاداء ما يمكن ان يكلفنى به اى شخص هناك ..

« وفي صباح يوم من ايام الصيف الجميلة - واذكر ان ذلك كان في بداية موسم الحصاد - نزل مستر ايرنشو الكبير ، جد هيرتون ، مرتديا ثياب السفر ، وبعد ان القى إلى جوزيف بأوامره عما ينبغى عمله خلال ذلك اليوم ، تحول نحو هندلى وكاتى (١) ، ونحوى - إذ كنت اجلس معها واثاركهما طعام الإفطار - وقال مخاطبا ولده : « والآن ابها الرجل الصغير ، إتنى راحل إلى ليفريبول اليوم ، فما الذى تريد أن احضره لك معى ؟ فى وسعك ان تختار ما تريد ، ولكن ليكن شيئا صغير الحجم لاننى سأذهب واعود سيرا على الاقدام ، والمسافة

(١) كاتى أو كاترين « ايرنشو شقيقة هندلى » هي غير كاتى أو كاترين « لينتون » التى سبق الحديث عنها ، وستظهر صلة القرابة بينهما فيما بعد .

ستون ميلا ذهابا ومثلها فى الإياب ، وهى كما ترى شقة طويلة ! » .. فطلب هندلى كمنجة ، وعندئذ تحول نحو مس كاتى ، ولم تكن وقتئذ قد جاوزت السادسة من العمر وإن كان فى استطاعتها ان تمنطق مسهوبة اى جواد فى الحظيرة ، فاختارت ان تكون هديتها سوفا .. ولم ينسنى ، فقد كان طبيب القلب عطوفا ولو انه كان يعمد إلى القسوية والصرامة أحيانا ، فوعدنى بأن يحضر لى ملء جيبه من التفاح والكمثرى .. وبعدئذ قبل طفليه ، وودعنا جميعا ، ثم انطلق فى رحلته ..

وقد بدت ايام غيابه الثلاثة دهرا طويلا لنا جميعا ، وكانت كاتى الصغيرة لا تفنأ تسال عن موعد عودته .. وكانت مسز ايرنشو تتوقع حضوره فى موعد العشاء من مساء اليوم الثالث، فراحات تؤجل تناول الطعام ساعة بعد اخرى ، دون ان يظهر ما يدل على مقدمه .. واخيرا ادرك الطفلين الإعياء من كثرة ما ذهبوا إلى البوابة ليطلوا على الطريق .. ثم اطبق الظلام واحتلك الليل وأرادت أمهما أن تضعهما فى الفراش ولكنهما توسلا إليها فى امسى ان تدعيبها ينتظران والدها .. وأخيرا ، فى الساعة الحادية عشرة تماما ، إذا بزلاج الباب (السقطة) يرفع فى هدوء ، وإذا بالسيد يدخل فيلقى بنفسه على أحد المقاعد ، وهو يضحك ويتأوه فى وقت معا ، ويأمر الجميع بأن يبتعدوا عنه ، لانه يكاد يقع صريعا من التعب ، ثم يقسم بأنه لن يمضى مثل هذه المسافة مرة اخرى ولو أوتى تيجان الممالك الثلاث ..

وأردف قائلا : « ولقد كنت في نهايتها أجري حتى كادت
اهلك ... »

وتعمل لحظة ثم فتح معطفه الفضفاض الذي كان يضم
لرفيه بين ذراعيه ، واستطرد يقول :

- انظري هنا يا زوجتى ! .. إننى لم أغلب على امرى من
شئ في حياتى كهذه المرة .. ولكن يجب ان ننظر إليه كهبة
من الله ، وإن كان لونه القاتم يجعله أشبه بمطية من
الشیطان ! ..

وتراحمنا جميعا حوله ، اما أنا فقد تلصصت من فوق رأس
مس كاتى لارى غلاما قدرا اسود الشعر يرتدى اسملا مهلهلة ،
وفي سن تسمح له بالثنى والكلام ، بل الواقع ان وجهه كان
يبدو أكبر سنا من مس كاتى ، ومع ذلك فعندما وقف على
قدميه ، راح يحلق بأنظاره حواليه وينطلق في رطانة لم
يستطع احدنا ان يفهم شيئا منها .. وقد تملكنى الذعر .
بينما كادت مسز ايرنشو تطوح به خارج الباب ، وهى تتور
في وجه زوجها لتسأله كيف استصاغ ان يجلب إلى المنزل هذا
الجرو الفجرى ، على حين ان لهما طفلين يقومان باطعامهما
والعناية بهما ؟ .. ثم ما الذى ينوى ان يفعله بهذا « الشئ » ؟
وهل أصابه الجنون حتى يحضره ؟ .. وقد حاول السيد ان
يشرح لها الأمر ، لكنه كان شديد الإعياء حقا ، يكاد التعب
يورده حتفه ، وكل الذى استطعت ان أبينه ، خلال صياحها
وتعنيفها له ، ما ذكره عن رؤيته لهذا « الشئ » في سوارع
ليغربول شربدا يكاد يهلك جوعا ، وهو كالأبكم لا يستطيع ان

يرشده إلى داره أو اهله ، فحمله وراح يسأل عن اهله ، ولكن
احدا في المدينة لم يعرف من أين أتى ، ومن صاحبه .. وإذ
كان وقته وتقوده محدودين ، فقد فضل ان يعود به إلى داره
بدلا من البقاء وإتساق المزيد من التقود في غير طائل هناك ،
لانه كان قد قرر الا يتركه حيث وجدته .. وحسنا ! . لقد كان
خنام هذا المشهد ان هدأت سيدتى وسكنت حدة غضبها
وتدمرها ، وان طلب إلى مستر ايرنشو ان آخذ الغلام فانسل
بذنه والبسه ثيابا نظيفة ، وادعه ينالم مع المفلين ..

وكان هندلى وكاتى قد اكتفيا بالنظر والإصغاء ، حتى عاد
السلام بين الزوجين ، وعندئذ بدأ كلاهما بفحشان جوب
أبيهما بحثا عن الهدايا التى وعدهما بها .. وكان هندلى صبيا
في الرابعة عشرة ، ولكنه عندما أخرج من المعطف العظيم ذلك
الشئ الذى كان يدعى « كمنجة » قبل ان يصبح حطاما ،
أجهش بالبكاء في صوت عال .. اما كاتى فمستدينا علمت ان
السيد قد فقد سوطها أثناء عنايته بالفلام الغريب ، فقد
عبرت عن شعورها بان ابتسمت ، ثم بصقت على الفلام
الصغير ، فاستحقت ان تنال ، جزاء ما تجشمت من عناد ،
لطعة عنيفة من والدها ، لتتعلم كيف يكون مسلكتها أكثر رقة
وادبا في المستقبل ! .. وقد أصر الطفلان على رفض السماح
للقيط بالنوم معهما في الفراش ، أو حتى في حجرتهما .. ولم
أكن أكثر منهما سماحة ، فوضعت الطفل على (بسطة)
السلم ، مؤملة ان أجده في الصباح وقد اختفى من الدار ..
وشاءت الصدفة ، أو لعل صوت مستر ايرنشو قد اجتذبه ،

فإذا به يزحف حتى باب حجرة السيد ، فوجده راقدًا أمام الباب عندما غادر حجرته في الصباح ... وقام السيد بالتحقيق في كيفية وجوده هناك ، فاضطرت إلى الاعتراف ، وكان جزءًا خستى وقسوى أن طردت من المنزل ! ..

وكانت هذه بداية العهد بدخول هيثكليف في نطاق الأسرة ..

فلما عدت ثانية بعد أيام قلل (إذ أنى لم اعتبر طردى نهائيًا) وجدت أنهم قد عمدوه باسم « هيثكليف » ، وهو إسم ابن لمستر إيرنشو مات طفلاً ، وأصبح هذا الاسم بمثابة إسم ولقب له منذ ذلك الحين ... كما وجدت أنه ومسى كاثي قد أصبحا صديقين حميمين ... أما هندلى فكان يفضيه ، وإذا شئت الحق فإننى كنت أكرهه كذلك ، وهكذا تعاونًا معًا على إيدائه والإيقاع به على نحو مزر .. لأننى لم أكن من التعقل بحيث أدرك ما اقترفه من ظلم ، كما أن السيدة لم تقف يومًا في صفه ، أو ننطق بكلمة لإتصاله ، عندما كانت تراه موضع الإساءة ...

أما هو فكان طفلاً صبورا دائم التجهم . ولعل سوء المعاملة قد جعله أشد صلابة ، فإنه كان يحتمل لطمات هندلى دون أن يظرف عينًا أو يذرف دمعًا ، كما أن فرصاتى لم تكن تحرك فيه أكثر من شهقة عميقة وهو يحلق بعينه كأنه هو الذى أصاب نفسه مصادفة دون أن يكون لأحد ذنب فيما أصابه ! وكان هذا الاحتمال سبب ثورة مستر إيرنشو الكبير عندما

اكتشف اضطهاد ابنه للفلام اليتيم المسكين ، كما كان يدعو ... وكان قد اشتد تعلقه بهيثكليف إلى حد قريب ، وأصبح يصدق كل ما يقوله (وهو من هذه الناحية لم يكن يقول إلا القليل كما كان يلتزم الصدق عادة) ويدلله أكثر مما يدل كاثي التى كانت شقية عنيدة لا تستحق التذليل ! ..

وهكذا كان هيثكليف منذ البداية ينمى المشاعر الشريرة في المنزل ، حتى إذا ما قضت مسز إيرنشو نجبها ، وكان ذلك بعد أقل من عامين من مقدمه ، كان السيد الشاب هندلى قد تعلم أن يعتبر إياه طاغية لا صديقًا ، وأن يعد هيثكليف مفتصبا لعواطف أبيه ، ولامتيازاته الخاصة .. وكان يزداد مرارة كلما أمعن التفكير في هذه الإساءات ، وكنت أمالته وأعطف على مشاعره ... فلما مرض الأطفال بالحصبة ، وكان على أن أراهم ، وأن آخذ على عاتقى للتو مسئولية العناية بهم وتمريضهم باعتبارى المرأة الوحيدة بالمنزل ، تغيرت آرائى ... وكان هيثكليف مريضًا إلى حد خطير ، وبينما كان يرقد في أسوأ حالاته كان يود دائمًا أن أظل بجوار وسادته .. وأحسبه قد شعر بأننى فعلت الكثير من أجله ، ولم يكن من الفطنة بحيث يحدس اننى ما فعلت ذلك إلا مضطرة .. ومهما يكن من أمر ، فلا بد لى من القول بأنه كان أهدأ طفل نهضت بالعناية به معرضة قط .. وكان الفرق بينه وبين الطفلين الآخرين هو الذى أرغمنى على أن أهدو أقل تحيزًا ..

فقد ضايقتنى كائى واخوها إلى حد مروع ، بينما كان هو كالحمل لا يشكو ولا يتوجع ، وإن كانت صلابته - لا رفته - هى التى جعلته أقل إثارة للمتاعب ...

ونجا هينكليف من الخطر واجتاز المحنة بسلام ، فاكد الطبيب أن الفضل فى ذلك يرجع لى إلى حد كبير ، وامتدحنى لعنايتى به .. وكنت مضورا مزهوة بهذا الثناء ، ورتت مشاعرى نحو ذلك المخلوق الذى نلت الثناء بسببه ، وهكذا فقد هندلى آخر حليف له ... ومع ذلك فإنى لم اكن مشغوفة بهينكليف ، وكنت كثيرا ما تأخذنى الدهشة مما كان سيدى يراه فى ذلك الغلام العيوس المتجهم حتى يعجب به إلى هذا الحد ، مع أنه لم يسد قط ، فيما أذكر ، إية إشارة تنم عن عرفان الجميل والحمد لقاء هذا الرفق والعطف! .. ولم يكن وقحا أو سفيها مع المحسن إليه ، بل كان فقط مجردا من الشعور والإحساس باحساناته إليه ، مع أنه كان يعرف تماما المنزلة التى يحتلها فى قلبه ، ويعلم أنه لو أراد شيئا فما عليه إلا أن يتكلم حتى ينحنى المنزل بكل من فيه أمام رغبائه ... وأذكر - على سبيل المثال - أن مستر إيرنشو اشترى مهريين من سوق الأبرشية ذات مرة ، وأعطى كلا من الغلامين واحدا فأخذ هينكليف أجمل المهريين ، إلا أنه ما لبث أن أصيب بالعرج .. وما كاد يكتشف ذلك حتى قال لهندلى :

- يجب أن تبادلنى مهرك بمهري ، فليست احبه .. ولئن لم تفعل فسوف أخبر اباك بضربات العصي الثلاث التى شربتنيها هذا الاسبوع ، واريه ذراعى التى ما تزال زرقاء داكنة حتى الكتف ...

فاخرج له هندلى لسانه ، وصغعه على اذنيه .. ففكر هينكليف إلى شرفة الحظيرة (بعد أن كانا بداخلها) ولكنه أصر على تنفيذ رغبته ، وقال لهندلى : « خير لك أن تفعل ذلك فى الحال ، قبل أن تفعله برغم أنفك ... فلو أننى تحدثت عن هذه الضربات ، لردت إليك ثانية ، مع فوائدها ! .. » فصاح به هندلى : « امش من هنا يا كلب .. » وهو يهدده بنقل حديدى يستعمل فى وزن البطاطس والدريس ، ولكن الآخر وقف فى مكانه ساكنا ، واكتفى بأن قال : « أقدفه .. » وعندئذ سوف أخبره كيف كنت تتباهى بأنك ستطردينى من الدار بمجرد وفاته ، وسترى إذا لم يطردك أنت توا ... فقدفه هندلى بالثقل الحديدى وأصابه فى صدره فسقط على الأرض ، ولكنه ما لبث أن نهض على الفور وهو يترنج ، وقد شحب وجهه وتقطعت أنفاسه .. ولولا أننى منعتة لذهب إلى السيد لتتو ، ولنال ثاره كاملا ، تاركا حالته تؤيد دعواه ، متهما هندلى بأنه السبب فيما حدث ..

وعندئذ قال إيرنشو الصغير :

- خذ مهري إذن ، أيها النورى ! ولكنى أرجو أن يدق عنقك ! .. خذها أيها الفضولى الدنىء ، وتلحل عليك اللعنة !

.. اذهب فجررد ابى من كل ما يملكه ، بملكك ومداهنتك ،
ولكن اره بعد ذلك ما انت عليه حقاً ، ياسليل الابالسة ! ..
خذ هذا المهر ، ولكنى ارجو أن يركلك فيحطلم راسك وينثر
مخك !

وكان هيثكليف قد مضى ليفك زمام الدابة ، وينقلها إلى
المربط الخاص به .. وكان يمرر خلقها عندما ختم هندلى
كلامه بركلة قوية وجهها إليه من بين سيقان المهر ، ثم انطلق
يعدو هاربا دون أن يتمهل برشما يطمنن إلى استجابة دموانه
.. ولقد استبدت بى الدهشة إذ رايت الغلام يستجمع قواه
فى هدوء ورباطة جأش منقطعة النظير ، ويمضى فى تنفيذ
غرضه ، فيستبدل السروج ويأقى معدات المهر ، حتى إذا
ما اتم كل شيء ، جلس فوق حزمة من الدريس ليتغلب على
الالم الذى سببته له تلك الركلة العنيفة ، قبل أن يدخل
المنزل ... وقد أقتعته ، دون جهد أو عناء ، بأن يدع لى
مهمة الزعم بأن إصابته كانت بسبب المهر الجديد .. فما
كان يبالي بما يقال عن هذا الموضوع ما دام قد نال بغيته ...
وكان فى الحق قلما يتذمر أو يشكو من هذه التوافه حتى لقد
ظننته - حقاً - متسامحا غير حقود ، ولكننى كنت مخدوعة
تماما - على ما سوف تسمع منى !



نظفه هندلى بالنقل الحديدى واسابه فى صدره
فسقط على الأرض ، لكنه ما لبث أن نهض على الفور ..

الفصل الخامس

أخذت صحة مستر إيرنشو تسوء وتذوى على مر الزمن .. وبعد أن كان يفيض بالصحة والنشاط ، فارقته توته فجأة ، وجاء المرض إلى ملازمة مقعده بجوار المفأة ، كما غذا سريع الهياج والإثارة .. كان يفضب للأشياء ، وتسبب له أقل شبهة من الاستهانة بسلطته وجبروته ، نوبات عنيفة من الثورة الجامحة .. وكان ذلك يشاهد بصفة خاصة عندما يحاول أحد أن يسيطر على غلامه الأثير ، أو يعامله بشيء من الفطوسة .. وكان يحرص في دقة شديدة على ألا تقال للفتى كلمة تجرح شعوره ، وقد دخل في روعه أن الجميع يبعضون هيثكليف ويتوقون إلى الإساءة إليه بسبب حبه له وحده عليه .. ولقد أضر ذلك بالفتى وأساء عاقبته ، إذ كان أكثرنا عطفًا عليه لا يود إغضاب السيد ، فعمدنا إلى مدهنته وارضاء رغباته المتحيزة له ، وكانت هذه المداهنة غذاء دسما لفرور الفتى وسوء خلقه ... ولكن مسلكتنا هذا كان ضروريا إلى حد ما .. فقد حدث مرتين أو ثلاثا أن أظهر هندلى زرايته بالفلام واستهانتته به على مرأى ومسمع من أبيه فكان ذلك يثير إثارة العجوز ، ويمسك بعصاه ليضربه ثم يرتجف حنقا وغیظا عندما كان يقلت منه ...

واخيرا نصح قسيسنا (فقد كان لنا في ذلك العهد قسيس يكسب لقمته من تعليم أبناء لينتون وأبناء إيرنشو ، ومن زراعة قطعة الأرض التي يملكها بنفسه) بإرسال إيرنشو

الشباب إلى المدرسة الثانوية ، فوافق مستر إيرنشو على ذلك في تشارل وتررد ، حيث قال : « أن هندلى لن يصلح لشيء ، ولن يفلح في شيء قط أينما ذهب .. »

ولشد ما كنت أرجو أن يسود السلام ربوعنا بعد ذلك .. فقد كان يؤلمنى أن أرى السيد مسلوب الراحة منفص العيش من جراء عمله الخرى ، ويخيل إلى أن ضيق صدره الفاجم عن السن والمرض إنما ينبعث من هذه الخلافات العائلية التي تحوطه ، وكأنما أراد ذلك فكان له ما أراد .. ولكن الحقيفة ياسيدى ، كما تعلم ، أن ذلك كان ناجما عن افسمحلالة الجسمانى المتزايد ...

وبرغم ذلك كله ، كان يمكن أن يمضى عيشنا هينا محتملا ، أولا شخصان اثنان ، هما مس كاثى ، وجوزيف الخادم ، وأحسبك قد رأيتته هناك .. فقد كان - وما يزال على الأرجح - من غلاة المتطوعين في الدين ومن أشدهم تزمنا وفرورا .. أولئك الذين يتقنون في الإنجيل (ويمشطلونه) ، ليستخلصوا لانفسهم ما به من وعود ورحمات ، ويهيلون على جبراتهم ما يحويه من وعيد ولعنات ! .. وكان ببراعته في إلقاء المواظف والخطب الدينية يسعى إلى بسط سلطانه على مستر إيرنشو ، وكلما ازداد السيد شعفا وخورا كلما ازداد هو قوة ونفوذًا عليه .. وكان يعمد ، في غير شفقة أو رحمة ، إلى بث القلق في نفسه من ناحية همومه الروحجية ، وإلى الإيحاء إليه بوجوب أخذ أبنائه بالشدة والصرامة ! .. كان يشجعه على اعتبار هندلى شخصا ساقطا لا أمل فيه .. كما

كان ، ليلة بعد ليلة ، ينسج شبكة من القمص حول هينكليف وكالترين ، ولكنه كان يعنى دائما بتعلق إيرنشو واستغلال ضعفه بالقاء اللوم كله على كاهل الأخيرة !

ومن المحقق أن الفتاة كانت غريبة الأطوار على نحو لم أر عليه طفلة قط من قبل ، وكانت تخرجنا جميعا عن طورنا ، وتمزق أهداب الصبر التى نستمسك بها أكثر من خمسين مرة كل يوم .. فمند الساعة التى تنزل فيها إلى الطابق الأسفل حتى ساعة ذهابها إلى الفراش ، لم تكن نفس لحظة بالأمن والسلامة من (شقاوتها) .. كانت خفتها ومرحها دائما في ذروة ارتفاعهما ، وكان لسانها دائما في ذروة نشاطه واندفاعه : في الغناء ، والضحك ، وإبذاء كل امرئ لا يريد أن يجاربهها في ذلك ! .. كانت نبتة وحشية غير صالحة ! .. ولكن كانت لها أجمل عيينين وأحلى إبتسامة وأرشق خفلى في الأبروشية كلها .. وبرغم كل شيء فأحسبها لم تكن تضعر لأحد شرا ، لأنها إذا حدث مرة أن دفعتك إلى البكاء عن عمد ، فهى قلما تفارقك أو تدعك وشأنك حتى ترغمك على الهدوء مرضاة لها وإراحة لبصيرها ! .. وكانت مولمة أشد الولع بهينكليف ، فكان أعظم عقاب يمكن أن توقعه بها هو أن تفرق بينها وبينه ، ومع ذلك كان ما تلقاه من التعرّيع والتنازيب بسببه أكثر مما يلقاه أى منا .. وكانت إذا ما لعبت معنا ، تدوب حبا في القيام بدور السيدة الصغيرة ، فتستخدم يديها في حرية وتصدر الأوامر إلى زملائها في اللعب .. وكانت تفعل

ذلك معى ، ولكنى ما كنت لاحتمل الإبذاء وتلقى الأوامر ، فافهمتها ذلك صراحة ..

وكان مستر إيرنشو وقتئذ لا يطبق المزاج من أطفاله ، فقد كان دائما صارما رصينا معهم ، وكانت كالترين من جانبها لا تدرى لماذا غدا والدها أشد مشاكسة وأقل صبورا في مرضه عما كان وهو في عنفوان صحته ... وكانت تأنيباته اللاذعة القارصة توقف فيها رغبة خبيثة في انارته .. ولم تكن تبلغ من السعادة غايتها إلا عندما نشترك جميعا في تقربهما ، فنتحدثانا كلنا بنظرانها الجريئة ، وكلماتها السليطة المتدفقة من بديهة حاضرة ، فتحيل لعنات جوزيف الدينية إلى مهزلة مضحكة ، وتغيظنى وتعاندنى ، وتفعل أشد ما كان أبوها يعقته ويبغضه ، وهو إظهار كيف تحدثت تحتها المغتلة - التى كان يظهرها أصيلة حقيقية - من الأثر القوي على هينكليف أكثر مما تحدثه رفته هو معه وحده عليه ، وكيف ينفذ الغلام أوامرها أيا كانت ، بينما لا ينفذ من أوامره هو إلا ما يروقه ويلائمه ميوله ... وكانت بعد أن تسلك أثناء النهار أسوأ بسلك تستطيعه ، تأتى أحيانا إلى أبيها في المساء تلاطفه وتلامسه ، لتصلح ما أفسدته ، وعندئذ يقول لها الشيخ : « كلا يا كاتى .. إننى لا أستطيع أن أحبك ، فأنت أسوأ من أخيك ... إذهبى ياطفتى فائى صلواتك وادعى الله أن يغفر لك ... واحسب أنتى وأمك يجب أن نحسر ونأسف على أن أنجناك وربيناك » ... فكان ذلك يجعلها تبكى وتنتحب في بادية الأمر ، وما لبثت أن زادها الصد المستمر صلابة وقسوة ،

فكانت تضحك ساخرة عندما اطلب إليها أن تقول إنها آسفة على ما تأتبه من أخطاء وإنها ترجو الصقح عنها ومسامحتها ..

وأخيرا حانت الساعة التي انتهت مشاعب مستر أيرنشو على الأرض ، فلفظ انغامه الأخيرة في هدوء وسكينة ، مساء يوم من أيام شهر اكتوبر ، بينما كان يجلس في مقعده بجوار المدفأة .. وكان الجو عاصفا وحشيا ، وإن لم يكن باردا ، والرياح تزعج حول المنزل فيدوى زئيرها في المدخنة ، بينما كنا مجتمعين جميعا ... كنت منهمة في حبك الصوف (التريكو) وقد انتحيت ناحية بعيدا عن الموقد ، وكان جوزيف يطالع في الإنجيل بالقرب من المائدة (فقد كان الخدم وقتئذ يجلسون عادة في البيت (حجرة الجلوس) بعد انتهاء عملهم) وكانت مس كاثي مريضة في ذلك اليوم ، مما جعلها ساكنة هادئة وهي تجلس مستندة إلى ركنة أبيها ، بينما استلقى هيثكليف على الأرض واضعا رأسه في حجرها .. وما زلت اذكر كيف راح السيد - قبل أن تأخذه سنة من النعاس - يربت على شعرها الجميل ، إذ كان يسره كثيرا أن يراها عاقلة لطيفة - وقلما كانت كذلك ! - ويقول : « لماذا لا تكونين دائما فتاة طيبة يا كاثي ! .. » وكيف رفعت وجهها نحوه وانطلقت تضحك وهي تجيبه : « ولماذا لا تكون دائما رجلا طيبا يا ابتاه ؟! .. » ولكنها ما كادت تراه وقد

انتابه الضيق ثانية ، حتى قبلت يده وظلت ممسكة بها وهي تقول إنها سوف تغني له حتى ينام ... وقد بدأت تغني في صوت شديد الخفوت ، حتى تراخت أصابعه وأفلتت من يدها ، وانحنى رأسه فوق صدره ... فأشرت إليها أن تصمت ، وأن تكف عن الحركة خشية أن توقظه ، كما ليشنا جميعا ساكتين صامتتين كالجرذان ، حتى انقضى نصف ساعة ، كان يمكن أن يريده ، لولا أن جوزيف نهض من مجلسه بعد ان اتم قراءة الفصل الذي كان يطلعه في الإنجيل ، وقال انه سوف يوقظ السيد ليتلو صلواته وباوى إلى فراشه .. وتقدم جوزيف إلى الامام وناداه باسمه ، ثم لمس كتفه في رفق ، ولكنه لم يتحرك ، فتناول شمعة وقربها إليه وأخذ يتأمله ، فأدركت للتو عندما نحى الضوء بعيدا ، ان هناك شيئا غير عادي قد حدث ، وامسكت بالطفلين من ذراعيهما وهمست لهما بأن : « يذهبا معا إلى الطابق العلوى ، ولا يحدنا جلبة كبيرة - وأن في رصعهما تلاوة الصلوات وحدهما ذلك المساء - فان جوزيف لديه عمل آخر سوف يقوم به .. » ولكن كاترين قالت :

- سوف اتى على ابى تحية المساء اولا ..

واسرعت تطلق عنقه بذراعيها قبل أن تتمكن من الحيلولة بينها وبينه .. ولكن الصغيرة الميكنة تبينت للتو خسارتها الفادحة ، فصرخت : « آه ! .. انه ميت ! .. لقد مات

يا هيثكليف . . . وراح الاثنان يكيان في نحيب يقطع نياط
القلوب . .

وشاركتهما الولولة والبكاء في عويل مرير ، غير أن جوزيف
سألنا عما تقصده من الزئير على هذا النحو فوق قديس رفع
إلى السماء ! . . تم طلب منى أن ارتدى معطفى وأسرع إلى
الجيمرتون (لأخصر الطبيب والقس . فلم أستطع أن أجدس
الفائدة من حضور أى منهما وقتئذ . . ومهما يكن من
أمر فقد مضيت وسط الرياح والأمطار ، فلما رجعت كان منى
أحدهما ، وهو الطبيب . . أما الآخر فقد قال إنه سوف
يخضر في الصباح . . وتركت لجوزيف مهمة إيفساح الأمر
للطبيب وأسرت أمدو نحو حجرة الطفلين ، فوجدت بابها
مواربا ، والفيتيها مستيقظين لم يأويا إلى الفراش بعد ، برغم
أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل ، ولكنهما كانا أشد
سكينة ، وفي غير حاجة إلى أن أسرى عنهما . . كان الصغيران
البريشان بروح كل منهما عن الآخر بكلام وأفكار أفضل كثيرا
مما كان يمكن أن أقوله لهما ، وما من قس في العالم كان يمكنه
البتة أن يصور السماء والجنة بأجمل مما كانا يصورانهما به
في حديثهما البريء . . وبينما كنت أصفى اليهما بأكية ، لم
أمك إلا أن أنمى لو أننا كنا جميعا هناك سالمين معا . .

الفصل السادس

عاد مستر هندلى ليحضر الجنائز ، ولكن الشيء الذى أثار
عجبنا ودهشتنا ، وجعل الجيران يلغون بالأحاديث بعثة
وسيرة ، وهو أنه لم يحضر وحده ، وإنما أتى معه زوجته . . .
أما من تكون ، وأين ولدت ، فإنه لم يخبرنا بذلك قط . . .
ولعلها كانت عاطلا عن مال أو اسم رفيع يشفعان لها . . وإلا
لما كنتم عن أبيه أمر زواجه منها . .

ولم تكن هى بالتي تحدث في المنزل اضطرابا كبيرا بسبب
وجودها فيه . . وكان كل شيء تقع عليه أنظارها منذ اجازت
عتبة الدار ، يبدو كأنها يثير اعجابها وسرورها ، وكذلك
الشان في كل حدث يجرى حولها ، فيما عدا معدات الجنائز
والدفن ووجود المعزين المردين ثياب الحزن . . وقد حسبنا
شبه بلهاه بسبب مسلكها الذى اتخذته بينما كانت هذه
الاستعدادات تضى في طريقها ، إذ هرعت إلى حجرها
وجعلتني أمضى إليها معها - بينما كان ينبغي أن أتولى
إلباس الطفلين ثيابها - ثم جلست ترتعد فرقا وهى تبصر
أصابعها المتشابكة ، وتتابع سؤالي مرة بعد مرة : « ألم تذهبوا
بعد ؟ » . . وبدأت تصف لى ، في أفعال وعصبية ، الأثر الذى
يحدثه في نفسها مرأى السواد ، وما لبثت أن انتفضت
وارتجفت ثم انخرطت في بكاء اليم . . فلما سألتها عما
أصابها ، أجابت بأنها لا تدري ، غير أنها تحس بخوف مروع
من أن تموت . . وختلتها لا تزيد تعرضا للموت عنى ، فمع أنها

نحيلة نوعا ، إلا أنها كانت في مقتبل الشباب ، نضرة المحيا ، تتألق عينها كأنهما قطعتان من الماس . . . بيد أنني لا حظت ، حقا ، أن ارتفاعها الدرج قد جعل انفاسها تتتابع في سرعة لاهثة ، وأن أقل جلبة مفاجئة تبعث الرعدة في بدنها كله ، وأنها كانت تسعل أحيانا سعالا اليمعا . . . ولكني لم أكن أدري شيئا عما تندر به هذه الأعراض ، ولم أشعر بدافع إلى الرثاء لحالها ، فاننا عادة لا نألف الغرباء هنا يا مستر لو كورد ، ما لم يأنسوا إلينا أولا . . .

وكان إيرنشو الشاب قد تغير كثيرا في السنوات الثلاث التي استغرقتها غيبته . . . كان قد ازداد نحولا ، كما ازداد لونه شحوبا ، فدا يتكلم ويرتدى ثيابه على نحو يختلف عما كان عليه من قبل . . . بل إنه في يوم عودته بالذات ، أمرني وجوزيف بأن نجعل إقامتنا - من الآن فصاعدا - في المطبخ الخلفي ونترك (البيت) . . . والواقع أنه كان يود اتخاذ حجرة صغيرة خالية كحجرة جلوس له ولزوجته . فيغرض أرضها بالسجاد ، ويكسو جدرانها بالورق ، ولكن زوجته أعربت عن سرورها البالغ بالبلاط الناصع البياض ، والوقد الضخم المتهوج ، وصحاف التصدير الواسعة ، وخزانة الخزف ، ووجار الكلب ، وسعة المكان الذي اعتادا أن يجلسا فيه بما يسمح لها بالتجوال في أنحاءه ، بحيث وجد هندلي من غير الضروري لراحتها أن يتخذ تلك الحجرة ، وهكذا عدل عن فكرته . . .

كذلك أعربت الزوجة عن سخطها إذ وجدت لزوجها اختا بين معارفها الجدد ، فراحت - في بادئ الأمر - تثور مع

كأثرين . وتقبلها ، وتطوف معها هنا وهناك ، وتمنحها الكثير من الهدايا ، ولكن هذا الود ما لبث أن خارت قواه وشيكا . . . وعندما فطت كثيرة التقطيب سريعة الغضب ، فدا هندلي طاغية جبارا . . . وكانت بضع كلمات قليلة منها - توحى بكرهيتها لهيثكليف - كافية لأن توقظ في هندلي حقدته القديم نحو الصبي ، فنحاه عن رفقتهم إلى رفقة الخدم ، وحرمة من الدروس التي كان يلقاها على القس ، وأصر على أن يعمل ، بدلا من ذلك ، في خارج الدار ، مرقما إياه على أداء أشق الأعمال في الحقل ، شأنه في ذلك شأن غيره من عمال الزراعة . . .

واحتمل هيثكليف هذا الهوان في صبر وجلد في بادئ الأمر ، لأن كاثي كانت تلقنه ما تعلمه من دروس ، وتشاركه في اللعب أو العمل في الحقول . . . وكانا كلاهما يندران بأنهما سيصبحان طليقين ضاربين كالموحدشين . . . فإن السيد الشاب ما كان يبالي البتة أي مسلك يسلكان ، أو شيء يفعلان ، طالما كانا بعدين عن طريقه وعن ناظره . . . بل إنه ما كان ليعني بالتحقيق من ذهابهما إلى الكنيسة في أيام الإحاد ، لولا أن جوزيف والقس كانا ينفغانه على تراخيه كلما غيب الفتى والغفأة عن القديس ، فكان ذلك يذكره بأن يأمر بجلد هيثكليف بالسياط ، وحرمان كاثي من الغذاء أو العشاء . . . وكانت متعتهما الكبرى أن يخرجا إلى الأحراش منذ الصباح فيمرحا ويرتعا طوال اليوم ، وأصبح ما يحل بهما من عقاب بعد ذلك ، مجرد شيء يضحكان منه ويسخران . . . كان بوسع

القس أن يفرض على كائي قدر ما يشاء من الفصول ليعملها عن ظهر قلب ، وكان يوسع جوزيف أن يظل يضرب هيثكليف حتى تدمى ذراعه ، ولكنهما سرعان ما ينسيان كل شيء في اللحظة التي يجتمعان فيها معا ، او على الأقل في اللحظة التي يدبران فيها خطة خبيثة للانتقام ! .. وكم من مرة يكرت فيها اشفاقا على مصيرهما ، وأنا ارقبهما وهما يردادان طيشا يوما بعد يوم ، دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة او مقطع من كلمة ، خشية أن افقد ذلك التزر اليسير من السلطة الذي كنت ما ازال احتفظ به على الصغيرين اللذين حرما الاصداق ...

وقد حدثت في مساء يوم من ايام الاحاد أن أقصى الصغيران من حجرة الجلوس ، لفضجة احدناها او ما اشبه ذلك من التوافه ، فلها ذهبت لادموهما لتناول العشاء . بحثت عنهما في كل مكان فلم اجدهما .. ورحنا نفتش المنزل من عاليه إلى اسفله ، وكذلك الغناء والحظائر . ولكنهما كانا مختفيين تماما .. فسار هندلي اخيرا ، وامرنا بأن نوصد الابواب ونحكم راجها واقسم الا يفتح لهما احد او يدعهما يدخلان الدار في تلك الليلة ..

وذهب اهل الدار جميعا إلى مضاجعهم . إلا أنا فقد كنت من القلق واللهفة بحيث استحال على الرقاد . ومن ثم فتحت نافذتي ومددت رأسي خارجها ارفع السمع لكل حركة ، على الرغم من المطر المنهمر ، وقد عذمت على ادخالهما إذا عادا ، غير مكرثة لامر السيد بتحريم المنزل عليهما في تلك الليلة ..

وما مضت هنيهة حتى ميزت بين إيقاع المطر ، وقع خطوات قادمة من أول الطريق ، ولحمت بصيص ضوء يلتصع عند البوابة .. فبادرت بالقاء وشاح فوق رأسي ، وسارعت لافتح لهما الباب قبل أن يوقفا مستر ايرنشو إن هما طرقاه .. ولكنني وجدت هيثكليف وحده . فارتعت إذ رأته بمفرده ، وهتفت به قائلة في عجلة ا

— اين مس كائرين ؟ .. ارجو الا يكون قد اصابها شيء ؟ .. فاجابني : « إنها في ثرشكروس جرانج .. وكان يمكن ان اكون هناك بالمثل لولا انهم لم تكن لديهم فضلة من الدوق والادب بحيث يدعونني للبقاء ! » .. فقلت له : « حسنا ، سوف تلقى جزاءك .. ولعمري لن تقنع قط حتى تطرد من هنا ، ويرمي بك لتدبر شئونك بنفسك .. ثم ما الذي دفعكما إلى التجوال حتى ثرشكروس جرانج بحق السماء ؟ » .. فاجابني : « ذهيني ريشما انزع ثيابي المبللة يا تल्ली ، وسوف أخبرك بكل شيء عن ذلك » .. وطلبت إليه ان يحلر من إيقاظ السيد ، وغيا كان يخلع ثيابه ، بيننا وقفت أنظر حتى اطفئ الشمعة ، استلرد بقول :

— لقد فرنا ، كائي وأنا ، من حجرة الغسيل لنقوم بجولة في الخلاء نستمتع فيها بحريرتنا ، فلما لمحتنا اضاءة « الجرانج » من بعد ، خطر لنا أن نذهب للتو فنرى ان كان لينتون الصغير وشقيقته يقضيان امسيات ايام الاحاد واقفين في الأركان يرتعدان من البرد ، بينما يجلس والدهما والذتهما يتعمنان بالطعام والشراب والغناء والضحك والدفاء المنبعث من نار

الوقد المتأججة .. هل تظننهما يفعلان ذلك يا نللي ؟ .. أم
ترينهما يقرآن العظائم ويدرسان اللاهوت على يد خادم عجوز
يرغمهما على حفظ أعمدة برمتها من الأسماء المقددة التي ذكرت
بالتوراة إذا هما لم يحصفا الإجابة على أسئلته ؟ ..

فأجبتنه : « إنهما لا يفعلان ذلك على الأرجح ، فلا ريب أنهما
طفلان طيبان لا يستحقان المعاملة التي تلقياها جزاء سلوككما
السيئ » ! .. « لمبتدئتي مديونا : » دعني منك هذا النفاق يا نللي
.. فانت تهدين .. حسنا .. لقد انطلقنا نعدو من قمة
المرتفات حتى الحديقة ، دون توقف ، وقد غلبت كائرين تماما
في هذا السباق لأنها كانت حافية القدمين - وعليك أن تبحنى
غدا عن حدائها وسط مستنقعات الأوحال ! - ثم تسلنا خلال
ثغرة في السياج ، وتلمسنا طريقنا في الممر المرتفع حتى وقفنا
أخيرا فوق أصيص زهر تحت نافذة حجرة الجلوس ، وهي
التي كان يتسرب خلالها الضوء الذي رأيناه ، إذ كانت
مصاريعها الخشبية غير موصدة وستائرنا منفرجة .. وكان
في وسع كل منا أن ينظر إلى داخل الحجرة إذا وقفنا فوق
الأصيص وتعلقنا بأقرب النافذة .. وما الذي رأيناه ؟ ..
لقد صافحت عيوننا منظرا خلابا ! .. كان المكان رائع الجمال
تغلى أرضه طناقس قرمزية اللون ، وتكنو مقاعده وموانده
مفارش من اللون نفسه ، والسقف ناصع البياض مموه
الحواشي بالذهب ، تتدلى منه ثريا من قطع البلور الشبيهة
بقطرات الدموع ، وقد علقت إلى السقف بسلاسل من الفضة
وتألقت بأضواء شموع دقيقة رقيقة .. ولم يكن مستر ومسر

لينتون الكبيران هناك ، وإنما اختص بالحجرة كلها ادجار
وشقيقته .. أفلا يخلق بهما أن يكونا سعيدين هائنين ؟ ..
أنا لو كنا في مكانهما لحسبنا نفسيينا في الفردوس ! .. والآن ،
هل يمكنك أن تحدسي ما كان « طفلنا الطيبان » يفعلان ؟ ..
كانت ايزابيل - واحسبها في الحادية عشرة وتصغر كائى بعام
واحد - مستلقية على الأرض في الطرف القصى من الحجرة
وهي تصيح وتصرخ كأنها اجتمعت عليها الساحرات يفرسن
في لحمها ابرا محماة في النار ! .. اما ادجار فكان يقف بجوار
الوقد ، وهو ينتحب في سكون ، بينما قبع في وسط المائدة
جرو صغير بهز ذراعه وينبش نباحا خافتا ، وفهمنا من
الالتهامات التي كانا يتبادلانها أنهما كادا يشطرانه بينهما
وهما يتجادبان .. يالهما من أحرقين ! .. ابهذه الوسيلة
يلهوان ويلعبان ؟ .. أن يتشاجرا متنازعين على أيهما يمك
هذه الكومة من الشعر الدافئ ، ثم يأخذ كل منهما في البكاء
لان كلا منهما ، بعد أن ناضل رقيقه على اقتنائها ، أبى أن
يأخذها ! .. لقد أمعنا في الضحك ساخرين من هذين الأبلهين
الذين أنسدهما التذليل ، وامتلأت نفسانا ازدياء لهما
واحتقارا لصغارهما .. بريك يا نللي هل ضبعتنى يوما راغبا
في شيء تريده كائى ؟ .. أو هل وجدتنا منفردين يوما نشد
اللهو والمرح في الصراخ والوعويل ، والتدحرج على الأرض ،
تفصلنا الحجرة بأسرها ؟ .. إننى لا أرضى قط - ولو عشت
الف حياة - بأن استبدل بحالتي هنا ، حياة ادجار لتتوّن في
نرشكروس جرانج ، حتى ولو اختصصت بعيزة القدرة على

إلقاء جوزيف من أعلى قمة فيه ، أو طلاء واجهة البيت بدم
هندلى !.. !..

فقاطعته قائلة : « صه !.. صه !.. ثم انك لم تخبرنى
بعد يا هيشكليف كيف خلقت كائى وراهك آه .. »

فاستطرد يقول :

— قلت لك إنا ضحكنا ساخرين ، وعندئذ أسمعتنا الطفلان
فاندفعوا نحو الباب في وقت معا كأنهما فذيقتان من السهام ..
وخيم الضمت لحظة ، ثم أبعثت صيحة تهتف : « آه ..
ماما .. ماما .. آه .. بابا .. تعاليا هنا .. » والواقع أن
كليهما كانا يعويان بكلمات من هذا النوع ، فأخذنا نحدث
ضوضاء مخيفة لتزيد من رعبهما ، ولكننا ما لبثنا أن تركنا
إفريز النافذة ، وهوينا إلى الأرض ، إذ كان أحد سكان الدار
يرفع المزاليج من خلف الباب ، فشنعرونا بأن من الخير لنا أن
نعمد إلى الفرار .. وكنت أمسك بيد كائى ، وأستحظها على
الإسراع ، عندما وجدتها تسقط فجأة على الأرض دفعة
واحدة ، ثم همس لى قائلة : « اجر يا هيشكليف .. أسرع ..
لقد اطلقوا البولودج في الرنا وها هو يمسك بى !.. » وكان
الشیطان يمسك بعقبها باللى ، فكنت أسمع زمجره المروعة
... أما هى فلم تصرخ قط .. كلا .. وإنها لخليقة بأن
تأفف من الصراخ لو حملتها بقرة نائرة وسلكتها في قرنيها !..
ومع ذلك كنت أنا الذى صحت وعولت .. وتدفتت من فمى
اللعنات التى تكفى لتدمير أى شیطان خبيث !.. وتناوت
حجرا ودفعته بين فكى الكلب ، ثم حاولت بكل قواى أن



وكنت أمسك بيد كائى ، وأستحظها على الإسراع ، عندما
وجدتها تسقط فجأة على الأرض دفعة واحدة ..

أحشره في حلقه .. وأخيرا أقبل بهم من الخدم بحمل مصباحا ، وهو يهتف بالوحش : « شدد القبض يا سكلكر .. شدد قبضتك ! .. » ولكنه ما أن رأى فريسة سكلكر حتى بدل من لهجته ، ثم أمسك بعنق الكلب حتى خلصها من بين فكيه ، فتدلى لسانه الضخم القاني زهاء نصف قدم خارج فمه وقد فاضت شفتاه باللعاب الدامي .. ورفع الرجل كاتى عن الأرض ، وكانت قد أغمى عليها ، لا من الخوف - يقينا - وإنما من الألم .. وحملها إلى الداخل ، فتبعته دون أن أكف عن إطلاق الفاظ السباب واللعنات والوعيد بالانتقام .. وهتف لنتون من الداخل : « ما نوع الفريسة يا روبرت ؟ » فأجابه : « لقد أمسك سكلكر بفتاة صغيرة يا سيدى » ثم أردف وهو يتشيت بكفى : « وهنا أيضا غلام يلوح في وجهه الشر ، ويبدو أن اللصوص كانوا يريدون إدخالهما من النافذة ليفتحا الأبواب للعصابة بعد أن ينام أهل الدار جميعا ، حتى يتاح لهم بذلك أن يفتكوا بنا في أسر بغير عشاء .. أمسك لسانك أيها اللص ذو الفم الدنس ، واعلم أنك سوف تشتق جزاء فعلتك هذه .. وأنت يا سيدى مستر لنتون ، لا تدع مسدسك يغيب عنك قط ! .. » فقال العجوز المافون : « كلا .. كلا يا روبرت .. لقد علم الأوغاد أن الأمس كان يوم تحصيل الإيجارات ، وحسبوا أنهم سوف ينالوننى في براءة .. ادخل ، فسوف أهيبهم لهم استقبالا رائعا .. وأنت يا جون ، ثبت السلاسل في مكانها .. ضعى للكلب بعض الماء يا جينى ! .. آه ! ..

ابجترئون على قاض في عرينه المتبع ، وفي يوم أحد أيضا ؟ .. إلى أى حد سيمضون في قحتهم وفجورهم ؟ .. آه ! .. انظرى هنا يا عزيزتى ماري .. لا تخشى شيئا فإنه ليس إلا غلاما صغيرا .. وإن كان الشر مرتسما على وجهه في جلاء ! .. اليس من الرحمة بالمجتمع أن يشنق للتو والحظة ، قبل أن تظهر طبيعته في أعماله الشريرة ، كما تظهر في محياه ؟ .. » ثم جذبنى تحت الشموع ليتفرس في وجهى ، على حين وضعت مسز لنتون عيوناتها فوق أنفها وما لبثت أن رفعت ذراعها في هلع شديد .. أما الصغيران فقد ازدادا التصاقا بأبهما في جبن واضح ، وتمتمت إزاييل بلثفتها القبيحة : « ياله من (شيء) رهيب ! .. اسجنه في القبو يا أباه ، فإنه يشبه تماما ابن قارئة البخت الذى سرق دجاجتى البرية الأليفة .. اليس كذلك يا ادجار ؟ »

وبينما كانوا يتفحصوننى ويتفرسونى في وجهى ، أفاقنت كاتى من غشيتها .. وسمعت العبارة الأخيرة ، فانبعثت تضحك بملء فيها ، وعندئذ حملق ادجار لنتون فيها بنظرات متسائلة ، استجمع على اثرها من وشائج فطنته ما يكفى لأن يعرفها .. فهم يرونا في الكنيسة ، كما تعلمين ، وإن كنا قلما نقابلهم في أى مكان آخر .. وما لبث أن همس لوالده قائلا : « هذه مس إيرنشو .. انظرى كيف عقرها سكلكر ، وكيف تدمى قدمها ! »

فصاحت السيدة : « مس إيرنشو ؟ .. هراء ! .. مس

أيرنشو ترتاد الريف في رفقة ولد من الفجر ؟ .. ومع ذلك .. يا إلهي ! .. إن الغلام يرتدى ثياب الحداد - انه كذلك حقا - ولقد كان من المحتمل أن تفقد قدمها إلى الأبد ! »

فهمت مستر لنتون متعجبا وهو ينقل نظاره منى إلى كاترين :

- ياله من استهتار إجرامى من جانب شقيقها ! .. لقد فهمت من حديث شيدلر (كان هذا اسم القس يا سيدي) انه يدعها تنشأ وتمتو في الوئبة المطلقة .. ولكن من هذا ؟ .. ومن أين التقطت هذا الرفيق ؟ .. اوه ! .. اوه ! .. ارى انه ليس سوى ذلك الغلام الغريب الذى اقتناه المرحوم جارى الراحل أثناء رحلته إلى ليفربول ، ولا ريب انه شريبر صغير أقت به البحار من الهند أو أمريكا أو اسبانيا ..

فقلت السيدة الكهولة : « مهما يكن من أمر فإنه غلام شريبر ، ولا يليق البتة ببيت محترم .. هل لاحظت المسافله ولهجته بالنتون ؟ .. شد ما يشابقتنى أن يضطر طفلاى إلى سماعها .. »

فعاودت السباب واللعنات من جديد - وبالله لا تفتضى بانلقى ! - وهكذا صدر الأمر إلى روبرت بأن يخرجنى من البيت .. ورفضت الذهاب ما لم تصحبنى كاتى ، ولكنه جرنى جزا إلى الحديقة ، ودفع المصباح فى يدى ، قائلا إن مستر أيرنشو سوف يحاط علما بملكى ، ثم أمرنى بأن

امضى فى طريقى قديما ، وسرعان ما أوسد الباب فى وجهى .. وكانت الستائر ما تزال منفرجة عند احد أركان النافذة ، فعدت إلى موقفى مستترقا النظر من جديد ، وفى نيتى ، إذا رايت كاترين راغبة فى العودة معى ، أن أحطم الواح الزجاج الكبيرة إلى ملايين الشظايا ، أو يسمحوا لها بالخروج .. ولكنها كانت تجلس فوق الأريكة فى هدوء وطمانينة ، بينما كانت مسر لينتون تنزع عنها معطف الفسالة الأغر الذى كتنا قد استعمرناه لرحلتنا هذه ، وهى تهز رأسها وتبدو كأنما تعالها على مسلكها .. لقد كانت سيدة صغيرة ، وكانوا ، من ثم ، يفرقون فى المعاملة بينها وبينى .. واحضرت الخادم وعاه به ماء دافىء ، وراحت تغسل قدميها ، على حين وقف مستر لينتون يعد لها شرابا ساخنا ، هو مزيج من الليمونادة والنبيلد ، واتت ايرابيللا يطبق ملء بالكعك أفرغته فى حجرها ، بينما وقف أديجار على مبعدة يحدق النظر إليها فاغر الفم مبهوتا ! .. وما لبثوا أن راحوا يجففون شسعرها الجديل وبمشطونه ، وأتوها بخف كبير الحجم ، ثم قادوها إلى المدفأة .. فخلعتها وهى أوفسر ما تكون مسرحة وغبطة ، فقمتم طعامها مع الكلب الصغير ومع (سكلكر) الذى كانت تفرس انفه وهو يمزج الطعام ، ونشمل ويمضاض من الحبوية فى عيون آل لينتون الزرقاء الجوفاء ، وميضاضا ينعكس من جمالها الساحر ووجهها الصبيح .. ورايتهم جميعا وقد ملامهم الإعجاب والدعول ، إذ كانت أعظم منهم سموا فلا يتطاولون

إلى منزلتها ، بل أنها لأرفع من أى إنسان آخر على وجه الأرض .. ليست كذلك يا نللى 19 » .

فأجبت وأنا أدثره بالأغطية واطفئ الشمعة : « لسوف تجلب هذه المسألة من العواقب أكثر مما تقدره وتحسبه .. فانك شخص لا يرجى صلاحك باهينكليف ، وسوف يذهب مشر هندلى فى عقابك إلى اقصى الحدود .. وسوف ترى إذا كان لا يفعل ! .. » ولقد تحققت نبوءتى إلى أبعد مما قدرت وارتدت .. فان تلك المغامرة التعمية انارت نازرة إيرنشو ، وزاد الطين بلة مقدم مشر لينتون فى الفداء لاصلاح الامر ، فإذا به يلتقى على السيد الشاب محاضرة طويلة عن الطريق التى يسلكها فى قيادة أسرته ورعاية شئونها ، بحيث جن جنون هندلى وراح يتلفت حوالبه فى ايفة .. ولكن هيثكليف - هذه المرة - لم يجلد او يعاقب ، وإنما قيل له انه إذا وجه إلى مس كاترين كلمة واحدة فسوف يطرد من المنزل فوراً ! .. كما اخذت مسز إيرنشو على عاتقها ان تحول دون اتصال هيثكليف بشقيقة زوجها بعد عودتها ، على أن تستخدم الحيلة والدهاء فى ذلك ، لا العنف والقسر اللذين كانا خليقين بأن يجعلها مهمتها شاقة بل مستحيلة ..

الفصل السابع

مكثت كاتنى فى « ثرشكروس جرانج » خمسة اسابيع ، حتى حل عيد الميلاد .. وفى خلال تلك المدة كان عقبها قد شفى تماماً ، وتحسنت اخلاقها وسلوكها كثيراً ... وقد قامت السيدة مرارا بزيارتها فى هذه الاثناء ، حيث بدأت خطتها فى اصلاح الفتاة ، بمحاولة رفع روحها المعنوية ، وزيادة شعورها باعتبارها ، وذلك باهدائها الثياب الفاخرة ، وتملقها ، الامر الذى تقبلته الفتاة عن طيب خاطر ... وهكذا فإننا بدلا من ان نرى فتاة وحشية نافرة عارية الراس تقفز إلى داخل المنزل وتندفع إلى كل منا لتحصره بين ذراعيها حتى تتقطع منا الانفاس ، إذا بنا نرى التى تهبط ، من فوق ظهر مهر اسود جميل ، آتسة رفيعة القدر تتدلى غدائرها الكستنائية من تحت قبعة من الغراء المزين بالريش ، وتتردى معطفا طويلا من القماش الفاخر راحت تجمع اطرافه بكلتا يديها حتى تستطيع السير فى سر .. ورفعها هندلى من فوق ظهر الجواد بين ذراعيه ، وهو يهتف جدلا : « ما هذا يا كاتنى ؟ .. انك رائعة الجمال ... لقد كدت لا اعرفك ، فانك تبدين الآن مثال السيدة الرفيعة .. ان ايزابيلا لينتون لا تقاس بها شيئا ، اليس كذلك يا فرانسيس ؟ .. » فاجابت زوجته : « ان ايزابيلا ليست على شيء من جمالها ومزاياها .. ولكنها يجب ان تمقل فلا تعود إلى وحشيتها هنا ... سساعدى مس كاترين فى خلع ثيابها با ابلين ! .. آه ! .. انتظرى يا عزيزتى حتى لا تفسد غدائك ، ودعبنى اخلع قبعتك بنفسى ... »

ونزعت المعطف ، فتألق تحته ثوب نفيس من الحرير اللامع المتعدد الألوان ، وسراويل بيضاء ، وحذاء يخطف بريقه الأيصار ! .. وبينما نالقت عينها سرورا عنجما تدافعت الكلاب حولها مرحبة بها ، فانها لم تجرؤ على مداعبتها حتى لا تلحقها فتفسد ثوبها وزينتها .. بل انها قبلتني في رفق ، وعن بعد ، إذ كان ثوبي ملونا بدقيق كعكة عيد الميلاد التي كنت أقوم بصنعها ، فلم تر من الملائم ان تضمني إلى صدرها ! .. وما لبثت ان تلفتت باحثة عن هيثكليف ، وهي اللحظة التي كان مستر ايرنشو وزوجته يرقبانها في لهفة وقلق ، إذ يريان ان لقاءهما سوف يمكنهما من الحكم ، إلى حد ما ، على احتمالات الأمل في نجاح خطبتهما في التفريق بين الصديقين !

وظل هيثكليف مختفيا عن الأنظار في بادئ الأمر .. وإذا كان ، قبل غيبة كاترين الطويلة ، قليل الاهتمام بمنظفاته ، ولا يجد من يعنى به ، فقد غدا ، منذ الحين ، أموا من ذلك عشر مرات ... ولم يجد احد ممن في الدار في نفسه نازعة من نوازع الشفقة به حتى ينهيه إلى تذارته ، سوى .. فكانت أمره بغسل وجهه ولو مرة كل اسبوع ، إذ ان الصبيان في سنه قلما يجدون بهجة في لقاء الماء والصابون ... لذلك فانه ، بغض النظر عن ثيابه التي صحبته في الخدمة في الوحل والتراب ثلاثة شهور دون ان يستبدلها ، وعن شعره اللبد الذي لم يمشطه طوال تلك المدة ، فقد كان وجهه ويداؤه تخفيا الأقدار إلى حد مروع .. ولعله توارى خلف أحد الحواجز ، عندما رأى آنسة وضاءة الطلعة ، بهيئة المظهر ،

تدخل المنزل بدلا من تلك الفتاة المشعثة الشبيهة به ، كما كان يتوقع .. واخيرا قالت وهي تشرع فغازيها وتكشف عن انامل ابيض لونها ورقت بشرتها من قلة استعمالها ومن مكثها داخل الدار طويلا : « اليس هيثكليف هنا ؟ »

وعندئذ صاح مستر هنذلي ، منتشيا بما اصاب الفتى من سوء الحال وخيبة الأمل ، مستمتعا بأن يراه مضطرا إلى الظهور بهذا المظهر المزرى الخسيس : « يمكنك ان تقدم يا هيثكليف .. يمكنك ان تأتي لترحب بهس كاتى كباقي الخدم ! .. »

وما ان لمحت كاتى صديقها في مخبئه ، حتى اندفعت نحوه بسرعة ، كأنها خفقة من جناح طائر ، لتحتضنه وتمانقه ، وامطرت وجهه بسبع قبلات أو ثمان في أقل من ثانية واحدة ، ولكنها ما لبثت ان توقفت بغتة ، وتراجعت إلى الوراء ، ثم انفجرت ضاحكة وهي تقول : « عجبا ! .. ما اشد سواد ظلمتك وتقطيب أساريرك ! .. ثم .. لماذا تبدو متجهما مضحكا ؟ .. ولكن لعل ذلك بسبب تعودى على رؤية اذجار وايزابيلا لينتون .. حسنا يا هيثكليف ، هل نسيتنى ؟ »

وكان لها العذر في إلقاء هذا السؤال عليه ، لأن الخزي والكبرياء القيا على محياه جهامة وعبوسا فوق جهامته وعبوسه المألوفين ، وسمره في مكانه بلا حراك .. وعندئذ قال مستر ايرنشو في تنازل :

— صافحها يا هيثكليف ! .. إننا نسمح بذلك هذه المرة !

فأجاب الغلام وقد استطاع النطق أخيراً : « لن أفعل .. ولن أقف لأكون أضحوكة لها .. فهذا أمر لا أستطيع احتماله ! » .

وهم بالفرار من وسط الحلقة ، لولا أن مس كائى أمسكت به ثانية وقالت : « لم أكن أقصد أن أضحك منك ، وإن كنت لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك .. الا صافحني يا هيثكليف على الأقل ! .. ما الذى يشرك هكذا ؟ .. إن الأمر لا يعدو أنى استغربت منظرلك العجيب . ولو أنك تفسل وجهك وتمشط شعرك لأصبح كل شيء على ما برام ، فالحق أنك شديد القذارة ! » .

وراحت تحديق النظر في إيمان إلى أصابعه القذرة الكليية التى كانت تمسك بها بين يديها ، وتقلب البصر بينها وبين ثوبها الفظيف - كأنها تخشى أن يناله شيء من القذارة من ملامسته لثياب هيثكليف - وكان يتبع نظراتها في فهم وإدراك ، فإذا به ينتزع يده من يدها في عنف وقوة ، ويقول :

- لم تكن بك حاجة لأن تلمسينى .. سوف أكون قذرا بالقدر الذى يروق لى .. فانا أحب القذارة وسأظل قذرا !

ثم اندفع خارجا من الحجرة في أنفعال شديد ، وسقط قهقهة السيدة والسيد ، وقلق كاترين وانزعاجها البالغ ، فلم يكن فى استطاعتها أن تفهم كيف تثير ملاحظتها البسيطة هذا المظهر الواضح من سوء الخلق !

وبعد أن قمت بدور الوصيغة للقادمة الجديدة ، ووضعت

الكعك فى الفرن ، واوقدت مدفأتى المطبخ وحجرة الجالوس نيرانا حامية تشيع فيهما الدفء والبهجة ، بما يليق وعشية عيد الميلاد ، اتخذت لنفسى مجلسا ورحت أسلى نفسي بالترنم بأنثى سيد العيد ، وحدى ، ضاربة صفحا عن تأكيد جوزيف بأنه يعتبر الإنعام المرححة التى آتت الترنم بها أقرب إلى الأغاني الخليعة !! وكان قد اعتكف فى حجرته ليؤدى صلواته الخاصة ، بينما كان مستر ومسرز إيرنشو يشيران اهتمام الأنسة بتلك التوافه الخلابة المختلفة التى احضراها كى تقدمها هدية للشقيقين الصغيرين ادجار وإيرابيل لينتون ، عرفانا منها بحسن صنيعهما معها .. فقد وجهت إليهما الدعوة لقضاء اليوم التالى فى (مرتفعات ويدرنج) ، وقبلت الدعوة من جانبهما بشرط واحد ، إذ رجحت مسز لينتون أن يظل طفلاها الحبيبان بمعناى تماما عن ذلك « الولد الشريف البديء اللسان ! » .

وإزاء هذه الظروف ، مكثت جالسة وحدى ، أتم تلك الراحة الدسمة المنبعثة من الفطائر الناضجة فى الفرن ، وأتأمل فى إعجاب أوانى المطبخ اللامعة ، وساعة الحائط المجلوة وقد احاطت بها أوراق شجرة عيد الميلاد ، والانداح الفضية المصقوفة فوق صفحة كبيرة ، انتظارا لملثها بالجمعة الساخنة وقت العشاء ، ثم فوق كل شيء ، ذلك البلاط اللامع المصقول الذى يعزى صفائه ونقاؤه إلى عنائتى بصقله ومسحه ! .. وكنت فى قرارتى أصفق استحصانا لكل شيء يقع عليه بصرى ، فذكرت كيف اعتاد إيرنشو العجوز أن يأتى بعد أن يتم إعداد

كل شيء وترتيبه ، فيدعوني بـ « البنت المهيصة » ! .. ثم يدس في يدي « شلنا » ، كمنحة عيد الميلاد .. واستطردني التفكير من ذلك إلى واعي الشديد بهيثكليف ، وفزعه مما قد يلقاه من إهمال بعد أن بطوبه الموت .. وقادني هذا التفكير ، بطبيعة الحال ، إلى التأمل فيما بلغته حال الغنى المسكين من سوء الآن ، وعندئذ غيرت رأي فتحوّلت من الترتيم بلغناه إلى البكاء والنواح ! .. ولكن سرعان ما خطر لي أن الأجدى والأصوب هو محاولة إصلاح بعض ما أصابه من مظالم بدلا من قرف الدموع عليها ، وهكذا نهضت ومضيت إلى الغشاء في طلبه ، ولم يكن بعيدا ، إذ وجدته في الأسطبل يطعم الدواب ويمسح على جلد المهر الجديد اللامع المصقول ، فقلت له :

— أسرع يا هيثكليف ، فإن المطبخ شديد الإغراء ، وجوزيف في الطابق العلوى .. أسرع ودعنى البسك وأهتدك قبل أن تأتى مس كاتى ، حتى تستطيعا الجلوس معا برهة منفردين بجوار المدفأة : وتحدثا حديثا طويلا إلى أن يحين موعد النوم ..

فاستمر يقوم بعمله دون أن يحول رأسه نحوى البتة .. فاستطردت اتابع القول :

— هيا .. البتة قداما معى .. إن لدى كعكة صغيرة لكل منكما تكفى لإشباعكما .. هيا ، فإن لبسك وتبهيتك تحتاج إلى نصف ساعة على الأقل ..

وانتظرت خمس دقائق ، فلمس لم اطلق منه ردا ، سواء بكلمة أو إيماءة ، تركته ومضيت لشأنى .. وتناولت كاترين

عشاءها مع أخيها وزوجته ، على حين اقتسمت وجوزيف عشاء كاترينا كانت مشبهاته التعنيف والنبيكيت من جانب ، والمكر والنخابت من الجانب الآخر ! .. بينما بقيت غطيرة هيثكليف وفتحة الجبن المعدة له موضوعتين على المائدة طوال الليل كأنما أعدتا لعشاء العفاريث ! .. فقد تعمد أن يمضى في العمل حتى الساعة التاسعة ، حيث انصرف إلى حجرته قديما ، دون أن تنفرج شفتاه بكلمة أو همسة ، مصرا على الاعتكاف والعزلة .. أما كاتى فقد سهرت طويلا تلك الليلة إذ كانت لديها دنيا بأسرها من الأشياء التى تود أن تأمر بإعادها لاستقبال أصدقائها الجدد في الغد .. وقد حضرت إلى المطبخ مرة لتتحدث إلى صاحبها القديم ، فمكثت برهة ريثما سألتنى عما دهاه ، ثم انصرفت لشأنها ..

واستيقظ هيثكليف مبكرا في الصباح ، وإذا كان اليوم عطلة العيد ، فقد حمل همومه وعبوسه إلى البرارى ، ولم يظهر لانية إلا بعد أن كانت الأسرة قد ذهبت إلى الكنيسة .. ويبدو أن الصوم وإمعان الفكر قد خفقا من غلواله ورداه إلى حالة معنوية أفضل ، إذ ظل يحوم حولى برهة ، وما لبث أن استجمع شجاعته فقال لى بفتة :

— اجعلنى منى شخصا حسن المظهر با نللى ، فقد عزمت على أن أكون غلاما طيبا !

فقلت : « لبت ذلك كان زمن يا هيثكليف ! .. لقد آلمت كاترين واحزنتها حتى لاجرؤ على القول بأنها أسفت لعودتها إلى المنزل ! .. ويبدو أنك تغار منها لأنها للقى من الرعاية والاهتمام أكثر مما تلقاه أنت » .

وكانت فكرة « غيرته » من كالتربين غير ذات معنى لديه ، فلم يفهمها .. أما فكرة « إلامه » لها فقد فهمها واضحة جلية ، إذ سألتني وقد لاح عليه الاهتمام البالغ : « هل قالت إنها حزنت وتألمت ؟ » .

— لقد بكت هذا الصباح عندما أخبرتها أنك خرجت ثانية ..

— حسنا ، لقد بكيت أنا ليلة أمس ، وكان لدى من أسباب البكاء وبواعثه أكثر مما لديها ..

— نعم .. وكنت من التعمقل بحيث ذهبت إلى الفراش تغلب مليء بالكبرياء ، ومعدة خاوية من الطعام .. إن ذوى الكبرياء يخلقون لأنفسهم الاحزان والهموم دائما .. ولكن إذا كنت حقا نادما على حمقك وتسرعك ، فيجب أن تسألها الضيفح عندما تعود من الخارج .. يجب أن تصعد إليها وتعرض عليها أن تقبلها ، وتقول لها .. حسنا .. أنك تعرف خيرا متى ما ينبغي أن تقوله .. ولكن عليك أن تفعل ذلك من كل قلبك ، لا كما لو كنت تعتقد أنها قد تحولت إلى إنسانة غريبة عنك لمجرد أنها تردى ثوبا فآخر .. ومع اننى الآن مشغولة بإعداد الطعام ، إلا اننى سوف اختلس بعض الوقت لأعنى بزيتك بحيث يبدو ادجار لينتون إلى جانبك أشبه بدمية صغيرة ، وأنه لكذلك حقا ! .. إنك أصغر منه سنًا ، ومع ذلك تؤكد لك أنك أطول منه قامة وتفوقه مرتين في عرض منكبيك .. إن في وسعك أن تصرعه في لحظة كومضة البرق .. الا تشعر أنك قادر على ذلك ؟

مأشرق وجهه هيثكليف لحظة ، ثم ما لبث أن غاضت إشرافته وتهدد قائلا :

— ولكن يا تلى ، لو أننى صرعته عشرين مرة ، لما قلل ذلك من وسامته أو زادنى جمالا ! .. وشد ما أتمنى أن يكون لى شعر أشقر وبشرة ناعسة البياض وثياب شبيهة بثيابه ، وعيشة تماثل عيشته ، وغرصة لأن أكون ثريا مثلما سيكون . فأضفت لأكمل له الصورة :

— وان تظل تصيح : « ماما .. ماما .. » كلما روعك شيء ، وترتعد فزعا إذا لوح صبى ريفى بقبضة يده في وجهك ، وتظل قعيد الداركلما سقط رذاذ من المطر ! .. او اه يا هيثكليف ! .. إنك ببدى روحا خالرة وهمة فائرة ! .. تعال معى إلى المرأة وسوف اجعلك ترى ما ينبغي أن تمناه .. هل تلاحظ هذين الخطين العميقين بين عينيك ، وهذين الحاجبين الكثيفين اللذين يفوصان في الوسط بدلا من أن يرتقعا مقوسين ؟ .. ثم هذين الشيطانين الخبيثين الغائرين في محجرهما عميقا ، واللذين لا يفتحان نوافذهما قط في صراحة وشجاعة ، وإثنا يكتمان تحتها ويشعمان بريقا خاطفا كأنهما من جواسيس الشيطان ؟ .. عليك أن ترغب حقا وتعرف كيف تلين هذه الغضون والتجاعيد التى تنم عن الشراسة والمشاكسة ، وكيف ترفع أجبانك في صراحة ، وتحيل الشيطانين الخبيثين إلى ملاكين بريئين ممثلين ثقة ، لا يرتابان ولا يشكان في شيء ، ولا يريان إلا أصدقاء ، حيثما لا يكونان وأتقين من أنهم أعداء ! .. ولا تحمل أساربرك ذلك الطابع الغريب الذى يعلو أساربر

كلب زنيم يعرف أنه يستحق الركلات التي ينالها . ومع ذلك يبعض العالم كله مع الشخص الذي يركله ، من أجل ما يلحق به من أذى والم ..

فأجابني :

- أى إننى - فى كلمات أخرى - يجب ان أرغب حقا فى ان تكون لى عينا اذجار لينتون الزرقاوان الواسعتان ، وجبهته المستوية للمساء ؟ .. حسنا .. إننى أرغب فى ذلك حقا . ولكن ذلك وحده لا يساعدى على ان أنال رغبتى ..

فتابعت حديثى قائلة :

- ان القلب العليب سوف يجعل لك وجها جميلا يا بنى ولو كنت زنجيا صميما .. اما القلب الشرير فانه يحيل الوجوه الجميلة إلى ما هو أسوأ من القبح والدمامة .. والآن وقد قررنا من الاعتسال ، وتمشيط الشعر ، ومن العبوس والتجهم أيضا ، فانظر وقل لى الست ترى نفسك أقرب إلى الوسامة وصباحة الوجه ؟ .. اما انا فأراك كذلك حقا ..

فأنت الآن البقي بأن تكون اميرا منتكرا ! .. ومن يدرى ، لعل أبك كان امبراطور الصين ، وأمك كانت ملكة عندية ، وكلاهما قادر على ان يشتري ، بدخل أسبوع واحد ، مرتفات ويدرنيج وثرشكروس جرانج معا ؟ .. ولعل بعض البحارة الشريرين قد اختطفوك وأحضروك إلى انجلترا ؟ .. ولو أنتى كنت فى مكانك لظهرت فكرة عالية عن طيب مبنى وردعة أصلى . ولنحنى التفكير فيما كنت عليه ، الشجاعة والكرامة لاحتمال مغالمة فلاح صغير لا يطاولنى !

ولبتت اتحدث إلى هيكليف على هذا النحو حتى لانت اساريره وتلاشى عبوسه وتجمهه ، وبدأ يلوح بهى الظلمة مشرق الحيا ، عندما قطع حديثنا فجأة صوت قعقة تنبعث من الطريق وتدخل إلى الفناء .. وأسرعنا معا ، هو إلى النافذة ، وأنا إلى الباب ، فى الوقت المناسب كى نرى اذجار لينتون وشقيقته يسطان من عربة الأسرة ، وقد أخفت المعاطف والفراء معالهما . بينما كان آل اينرثسو يترجلون عن جسادهم التى كانوا يمتطونها غالبا عندما يذهبون إلى الكنيسة فى الشتاء .. وأمست كاترين بيدى الصغيرين وقادتهما إلى المنزل . ثم اجلستهما امام نار المدفأة ، التى سرعان ما اشاعت الحرارة فى وجهيهما الشاحبين ..

وحثت رفيقى على ان يسرع الآن ويكشف لهم عن دمانه خلقه وروحه الودية ، إلا ان سوء الحظ أراد انه فى اللحظة التى كان فيها هيكليف يفتح الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس من ناحية ، كان هندلى يفتحه من الناحية الأخرى ، فتقابلا وجهها لوجه .. وكأنما حنق السيد إذ رآه نظيفا مرخا ، أو أراد ان يبقى بوعده لمسز لينتون ، فإذا به يدفعه إلى الوراء دفعة عنيفة مفاجئة ، ويصيح جوزيف فى سخط : « ابعده هذا الشخص عن الحجرة .. احسبه فى المخزن العلوى حتى تفرغ من القلاء ، فسوف يعيب بأصابعه القدرة فى الغطائر والحلوى ، ويسرق الفاكهة ، لو ترك وحده معها لحظة واحدة »

فلم أتمالك نفسى من القول فى انفعال :

- لا يا سيدى .. انه لن يمس شيئا .. فما هو بالذى
يفعل ذلك .. ثم إننى احسبه خليقا بأن ينال نصيبه من
مطائر العيد وحلواه ، شاكنا جبيعا ..
فصاح هندلى :

- بل سوف ينال نصيبه من يدى لو امسكت به فى هذا
الطابق حتى المساء .. امش ابيها المتشرد .. اغرب عن وجهى
.. ماذا ؟ .. ما شاء الله .. ما هذه الغندرة التى تحاول ان
تظهر بها ؟ .. اصبر حتى امسك بهذه القذائر الاثيمة ، لترى
كيف اجذبك منها حتى ازبدها طولا ..

فقال السيد لينتون وهو يسترق النظر من فتحة الباب ؛
- إنها طويلة بما فيه الكفاية ، وإنى لاعجب كيف لا تصيبه
بوحز فى رأسه .. إنها تتدلى فوق عينيه اشبه بناصية
(قصة) الجحش ..

ولقد اجترأ على إيداء هذه الملاحظة دون أى قصد للإهانة
أو السباب ، ولكن طبيعة هيشكيليف الحادة لم تكن مستعدة
لاحتمال مظاهر القحة من شخص يبدو انه كان يبغضه - حتى
فى ذلك الحين - كمنافس له ، فأمسك بآتية مليئة بصلصة
التفاح الساخنة (وهى اول شئ صادفته يده) وقذف بها
ادجار فسالت على وجهه وعنقه ، وسرعان ما بدأ يعول ويتنحب
على نحو جعل كاترين وايزابيلا تخفان سريعا إلى المكان لتريا
ماذا دهاه .. وفى الوقت نفسه جذب مستر إيرنشو المعتدى
فى عنف وحمله إلى حجرته .. ولا ريب انه قد قدم له علاجا

عنيقا ليهدىء من سورة الإنفعال التى اصابته ، لانه عندما
ظهر ثائية كان متورد الوجه لاهت الانفاس .. أما أنا فغسد
احضرت منشفة الصحن ورحت افرك بها انف ادجار لينتون
وفمه ، فى غل وغيظ ، مؤكدة ان ذلك سوف يشفيه تماما من
التدخل فيما لا يعنيه .. واخذت شقيقته نوح طالبة العودة
إلى منزلها ، بينما وقفت كاترين واجبة وقد تورد وجهها
خجلا وحنقا .. وما لبثت ان راحت تؤنب السيد لينتون
قائلة :

- ما كان ينبغي ان تكلمه .. لقد كان فى حالة معنوية سيئة ،
وهالنت ذا قد افسدت زيارتك .. وسوف يجلد .. وأنا اكره
ان اراه يجلد .. ولن استطيع ان اتناول غذائى .. لماذا
تحرشت به يا ادجار ؟

فغمغم الفتى وهو يجيش بالبكاء ، ويفر من يدى ليمت
ما بقى من تغليف وجهه وثيابه بتبديله الرقيق :

- إننى لم اخاطبه .. فقد وعدت ماما بالا اوجه إليه كلمة
واحدة ، ولم افعل ..

فاجابت كاترين فى ازدرء :

- حسنا .. كف عن البكاء إذن فإن احدا لم يفتك بك ! ..
ولا تثر المزيد من الشرف فان اخى قادم .. صه يا ايزابيلا ! ..
هل تلك احد بالاذى انت الأخرى ؟

واتدفع هندلى إلى داخل الحجره صائحا :

- هيا باطغالى .. هيا إلى مقاعدكم حول المائدة .. لقد اثار
هذا الغلام الوحشى الدماء فى عروقتى .. اما انت يا سيد ادجار

فعلبك في المرة القادمة أن تأخذ حقلك بيدك ، فإن ذلك يشير شهيتك للطعام !

وإستعدادات الجماعة الصغيرة هدوءها وسكينتها لدى مرأى الوليمة الفاخرة التي أعدت لهم ، والتي كان عبر الطعام يقوح منها فيسيل من شدهاء لعابهم ، وقد استبد بهم الجوع بعد ركوبهم في الهواء الطلق ، ونسوا أحرانهم في سرعة ويسر ، خصوصاً وأن أحدا منهم لم يحل به أذى حقيقى .. وكان مستر إيرنشو يقطع اللحم ويبلأ به الأطباق في سحاء ، بينما كانت السيدة تشيع فيهم البهجة والمرح بأحاديثها الطليبة المسلية .. وكنت أفق خلف مقعدهما لأبى أوامرهما ، ولم تألم إذ رأيت كاترين تبدأ في تقطيع صدر أوزة أمامها ، وقد لاح عليها عدم الاكتراث وخلت عينها من أى اثر للدموع . فقلت لنفسى : « يا لها من صببة مجردة عن الشعور ، تطرد من فكرها متاعب رفيق صباحا في خفة ونزق .. إننى ما حسبتها قط على هذه الأثرة والأناثية .. ولكنى رأيتها تم برفع اللقمة إلى شفيتها ، ثم تعيدها إلى الطبق ثانية ، وقد اندفعت الدماء إلى وجنتيها اللتين سرعان ما بللتها الدموع .. وتركت الشوكة تسقط من يدها إلى الأرض ، ثم أسرعت تنحنى لانتقاطها ، وهي ترمى إلى إخفاء أفعالها تحت مفرش المائدة .. ولم يطل تلقبى لها « بالفاتاة المجردة عن الشعور » ، إذ أدركت أنها تقاسى العذاب طوال اليوم ، وتجهد في خلق الفرصة للاختلاء بنفسها أو زيارة هيثكليف الذى كان السيد قد سجنه ، كما اكتشفت عندما حاولت أن ادخل إليه شيئا من الزاد خلصة ..

واقامت لنا حفلة راقصة في المساء ، فرجت كاترين أن يحلئ سبيل هيثكليف ، إذ كانت ايزابيلا ليستون في حاجة إلى زميل يراقصها ، ولكن توسلاتها كانت عبثا ، وصدر لى الأمر بأن اسد النقص واشغل هذا الفراغ .. ونسينا كابتنا وحزننا في غمرة المرح والانبساط اللذين أحاطا بحفلة الرقص ، وزاد من سرورنا مقدم فرقة « جيمرتون » الموسيقية التي تضم خمسة وعشرين من أساطين الموسيقى يعزفون على الآلات النحاسية والوترية المختلفة ما بين بوق ومزمار ونأى وكمان كبيرة ذات انغام عميقة حزينة فضلا عن الفلين والمنشدن .. وقد اعتادت هذه الفرقة أن تجوب أنحاء المقاطعة وتخل بجميع البيوت العريقة المحترمة ، ونقال منها الهبات السخية في عيد الميلاد من كل عام . فكنا نعتبر حفلاتها من المباحج الفاتحة التي تملق بالذاكرة طويلا .. وبعد أن فرغت الفرقة من انشاد عيد الميلاد المعتادة ، طلبت إليها أن تشف أسماعنا بالأغاني الخفيفة والقطع الموسيقية المرحة التي يشترك في غنائها الكثيرون كل بدوره .. وقد كانت مسز إيرنشو مشغوفة بالموسيقى ، وهكذا قدمت لنا الفرقة منها الكثير ..

وكانت كاترين تجبها كذلك ، ولكنها قالت إن وقعها في الأذن إنما يحلو ويطرب إذا ما استمعت إليها من بعد ، من فوق قمة الدرج مثلا ! .. وما لبثت أن تسللت في الظلام وارتقت السلم مسرعة ، فبتعتها خلصة .. وأغلق القوم باب حجرة الجلوس دون أن ينتبهوا لغيابنا ، لكثرة الحاضرين .. ولم تقف كاترين عند قمة الدرج وإنما مضت تتسلق السلم

الخشبي الملق ، إلى العلية التي كان هيثكليف سجيناً فيها ، حيث راحت تناديه بصوت خافت .. وظل برهة لا يجيب النداء في عناد واصرار ، ولكن عزيمتها لم تهين ، وثابرت على ندائه حتى اعترته أخيراً بأن يجاذبها الحديث من خلال الجدار الخشبي .. أما أنا فقد انقطر قلبي ، واثرت أن ادع الصغيرين المسكينين وحدهما يتبادلان اشجانهما دون أن امكر صغور خلوتهما ، حتى إذا ما قدرت أن الغناء أوشك على الانتفاء ، وان العازفين سيستريحون ريشاً يتناولون المرطبات ، تسلفت السلم بدوري لاحذرهما .. وبدلاً من أن اجد كالتين خارج العلية ، سمعت صوتها من داخلها ! .. لقد دخلت إحدى العليات الأخرى ، وتسلفت الكوة الصغيرة بأصلاها كالفردة الصغيرة ، ثم زحفت فوق السطح حتى كوة محبس هيثكليف حيث انضمت إليه .. وذقت الأمرين حتى استلمتها ورضيت بالخروج ثانية من الطريق التي سلكتها في ذهابها ، ولكن هيثكليف كان معها هذه المرة ، حيث اصرت على أن تجعلني آخذة إلى المطبخ ، خصوصاً وأن جوزيف كان قد انصرف إلى دار بعض الجيرة فراراً من اصوات « مزامير الشيطان » كما كان يحلو له أن يسمى موسيقانا .. وقلت لهيثكليف إنني لا أرضى بحال من الأحوال عن الاعييبها هذه وليس في نيتي أن اشجع مسلكهما ، غير أنه طالما أن المسجين لم يذق شيئاً البتة منذ غذاء الأمس ، فأنني سوف اغضى هذه المرة عن خداعه لستر هندلي وخرقه لأوامره .. ونزل معي إلى المطبخ حيث وضعت له مقعداً صغيراً امام الموقد ، واحضرت له كمية وفيرة من اطياب الطعام والحلوى .. ولكنه كان خالراً النفس سقيماً ،

فلم يدق إلا القليل ، وذهبت محاولاً لتروغيه في الطعام ادراج الرياح .. كان يجلس متكناً بمرقبه فوق ركبتيه ، محتضناً وجهه بين راحتيه ، ممعناً في التفكير ، فلما سألته عن موضوع افكاره العميقة قال في رصانة :

— إنني احاول ان ادبر الطريقة التي اسدد بها لهندلي دينا .. ولست ابالى إلى متى يطول انتظاري حتى ابلغ هذه الغاية: بقدر ما يهمني ان اصل إليها في النهاية .. وكل ما ارجوه الا يسبقني الموت إليه قبل أن اناله ..

فهمت واحة :

— يا للعار يا هيثكليف ! .. إن الله وحده هو الذي يتولى عقاب الأشرار ، أما نحن فعلياً ان نعرف كيف نصفح ونستماح ..

— كلا .. إن الله لن يطيب نفساً بهذا الانتقام مثلما تطيب نفسي انا عندما احققه ! .. وليتني اعرف فقط السبيل إلى ذلك .. دعيني وحدي وسوف ادبر الأمر حتماً ، فأنني كلما فكرت فيه كلما تلاشى شعوري بالآلم ..

ولكنني نسيت يا مستر لوكوود ان هذه القصص لا يمكن ان تسليك ، وكم يؤسفني أنني انسقت في الثرثرة إلى هذا الحد ، وها هو ذا حساؤك قد برد ، وهانت ذا تهوم من النعاس وتندش الفراش .. كان يمكنني ان اروي لك قصة هيثكليف — أو ما يهيك سماعه منها — في ست كلمات فحسب ..

ونهبست مخدرة المنزل وهي تتطلع حديثها على عذا النحو ،
وهبت بان تنحى معدات الحياكة التي كانت تتسلى بها ،
ولكنني الفيت نفسي غير قادر على الحراك من مكاني بجوار
المدفأة ، كما كنت بعيدا كل البعد عن التهويم والنعاس ،
فصحت بها قائلا :

- مكانك يا مسز دين ! .. اجلسي مكانك نصف ساعة
اخرى فقد احسنت واصبت برواية القصة بهذه الانفاضة ،
فهي الطريقة التي احبها ، وينبغي ان تتميزها بالاسلوب نفسه ،
لاني اجد اهتماما بكل شخصية ذكرتها في روايتك ..

- ولكن الساعة نوشك ان تدق الحادية عشرة ياسيدي ..
- لا بأس ، فلست معتادا النوم في الساعات الأولى من
الليل .. والواحدة او الثانية ساعة مبكرة بالتسبة لشخص
بظل نائما حتى العاشرة من الصباح ..

- ما ينبغي لك ان تنام حتى العاشرة ، فان بهجة الصباح
وروعته تكون قد ولت قبل هذه الساعة بزمن طويل ..
والشخص الذي لا يكون قد اتم نصف عمل يومه في الساعة
العاشرة ، يكون عرضة لان يترك النصف الاخر ناقصا
بغير اداء ..

- فليكن يا مسز دين ، ولكن عودي إلى مقعدك ! .. لاني
انوى ان امليل الليل حتى بعد ظهير الغد ! .. نانا احس بان
البرد الذي اصابني سوف يقعدني مدة طويلة على الاقل ..



ودعت مخالواتي لتزقيته في الطمام ادراج الريح ..
كان يجلس مكانا مرفقته فوق ركبتيه ، محتسبا وجهه بين راحتيه ..

.. فحسبها تالما تشبهه ! - هذه العاشرة تدقها لي

- أرجو الا يكون الأمر كذلك يا سيدى .. حسنا .. أسمح لى إذن بأن أمر مر الكرام على ثلاث سنوات أو نحوها ، ففى خلال تلك الفترة كانت مسز إيرنشو ..

- كلا .. كلا .. لن أسمح لك بشيء من هذا .. ألم تعهدى تلك الحالة العقلية التى تكونين فيها إذا ما جلست وحدك ، وكانت الهرة تلعق صفارها على البساط أمامك ، فتستغرقين فى مراقبة هذه العملية استغراقا كاملا بحيث يثيرك ويفضبك أن تغفل الهرة لعق أذن واحدة من أذان الصغار ؟

- لعمري إنها لحالة عقلية شديدة البلادة والكسل !

- بل هى على العكس حالة نشيطة مرهقة .. إنها حائتى الآن ، ولذلك أود أن تستمرى فى سرد القصة بكل تفاصيلها الدقيقة .. وارى أن الناس فى هذه المناطق يمتازون على ساكنى المدن بذك الأهمية التى يمتاز بها العنكبوت فى زخاتة سجين على العنكبوت فى كوخ ماهول ، فى نظر ساكنى المكائين المختلفين .. ومع ذلك فهذه الأهمية ، وذلك الاهتمام العميق لا يرجعان برمتها إلى مركز المشاهد أو حالته فحسب .. فالواقع أنهم هنا يعيشون أكثر جدية وصرامة وأكثر انطواء على أنفسهم ، وأقل اهتماما بالأمور السطحية ، أو التبديل والتغيير ، أو الأشياء الخارجية المرححة التافهة .. إننى أتصور الآن أن حبا يدوم مدى الحياة أمر يمكن وقوعه هنا ، أنا الذى كنت دائما أكفر ، عن يقين ، بأن أى حب يمكن أن يطول مداه

عاما واحدا ! .. وأن إحدى الحالتين تشبه وضع رجل جامع أمام مائدة عليها طبق واحد فريد ، فيركز فيه شهيته ولا يتركه حتى يلعقه ، والحالة الأخرى أن تضغى الرجل أمام مائدة جلست بأطبائى الطعام من أيدي الطهاة الفرنسيين ، فيجدد في جملتها مئمة بالغة ولكن كل طبق منها لا يعدو أن يكون مجرد ذرة فى تقديره وذآكرته ..

فقال مسز دين وهى تبدو محيرة من حديثى :

- اوه ! .. إنا هنا كسائر الناس فى أى مكان آخر ، إذا ما عرفتنا على حقيقتنا !

فاجبتها :

- معذرة .. فأنت نفسك يا صديقتى الطيبة شاهد صارخ ضد تأكيدك هذا .. إنك - فيما عدا بعض المظاهر الريفية القليلة الأهمية - لست على شيء من مظاهر الخلق والسلوك التى اعتدت أن أعدها خاصة بطبقتك .. وإننى موثق أنك فكرت كثيرا وتعمقت فى التفكير أكثر مما يفكر عامة الخدم .. وأحسب أنك إنما تعهدت ملكة التفكير بالعناية والرعاية ، لانعدام الظروف التى تهيب لك أنفاق حياتك فى التوافه السخيفة !

فضحكت مسز دين وقالت :

- لاشك اننى أمد نفسي إنسانة من الطراز المستقيم العاقل ،

ولكن ذلك لا يرجع تماما إلى حيائي بين السلال والتغار ،
ورؤيتي مجموعة واحدة من الوجوه أو أدائي مجموعة رتيبة
من الأعمال ، من عام إلى عام .. كلا .. وإنما نشأت تحت
وطأة نظام صارم حاد علمني الحكمة والتحمل . كما أنني قرأت
أكثر مما يمكن أن تتصور يا مستر لوكوود .. وما من كتاب
يمكن أن تفتحه في هذه المكتبة إلا قرأته واستوعبته وخرجت
منه بفائدة ما ، إلا أن يكون هذا الصف من الكتب اليونانية
واللاتينية أو ذلك الصف من الكتب الفرنسية ، وهذه تلك
استطيع التمييز بينها .. إن ذلك هو كل ما يمكن أن تتوقعه
من ابنة رجل فقير !

وتنهدت مسردين ، ثم استعردت تقول :

— ومهما يكن من أمر ، فيجدر بي أن أتابع رواية القصة ،
إذا لم يكن ثمة بد من روايتها بهذه الإنفاضة التي تريدها ..
وبدلا من أن أتب فوق ثلاثة أعوام ، فسوف أفتح بالمرور حتى
الصيف التالي ، صيف عام ١٧٧٨ أي ما يقرب من ثلاثة
وعشرين عاما خلت ..

الفصل الثامن

في صباح يوم جميل من شهر يونيو من ذلك العام ، ولد
أول طفل تعهدته بالتربية ، وآخر سلالة أسرة إيرنشو القديمة
العريقة ..

كنا يومئذ مشغولين بجمع الدريس في حقل بعيد عندما
جاءت الفتاة التي تحمل إلينا طعام الإبطار بيكرة عن موعدها
بساعة ، وهي تجرى خلال الحقول وتهتف باسمي منادية ،
حتى إذا ما اقتربت منا صاحت لاهثة :

— ياله من غلام عظيم ! .. إنه أجمل طفل تنسم الحياة
على الإطلاق .. ولكن الطبيب يقول إن السيدة سوف تموت ،
فقد نكس السل صدرها هذه الشهور الأخيرة .. سمعته يقول
ذلك لمستر هندلي ، وأنه ما من شيء يمكن أن يحفظ عايتها
حياتها الآن ، وسوف تقضي نحبها قبل الشتاء .. لابد من
حضورك الآن إلى البيت يانلي ، فانت التي ستولين إرضاعه
وتربيته ، وتفذيته باللبن والسكر والعناية بشأنه ليلا ونهارا !
.. ليتنى كنت مكانك ، فسوف يكون أمره إليك وحدك عندما
تذهب السيدة إلى خالقها !

فقلت وأنا أرمي جرافة الدريس من يدي وأضع قبعتي
فوق رأسي :

— ولكن هل هي مريضة إلى هذا الحد ؟
— أحسبها كذلك ، برغم ما يبدو عليها من شجاعة .. فهي

تتكلم كأنما تظن انها ستمعيش حتى تراه رجلا .. بل لقد فقدت صوابها من الفرح ونشوة الإبتهاج .. ولها الحق ، فما رايت طفلا بهذا الجمال ! . ولو انى كنت مكانها ، فانى وافقة بانى ماكنت لاموت ! .. سوف تحسن صحنى لمجرد رؤيتى له ، برغم أنف الدكتور كينيث ! .. لقد جئنت به عند ما رايته .. وقد حملت السيدة ارشر إلى السيد فى حجرة الجلوس ذلك الملاك الصغير فأشرق وجهه ، ولكن ذلك الطبيب المعجوز تقدم إليه وقال فى صوت اشفه بنصيب الغراب : « من رحمة الله يا ابرنشو ان زوجتك قد عاشت حتى تترك لك مثل هذا الغلام .. فعندما قدمت إلى هنا احسست عن يقين باننا لن نحفظ بها طويلا .. ومن واجبنى ان اخبرك الآن بأن الشتاء القادم قد يجهز عليها ، ولكن لاترع ولا تدع القلق يستبد بك ، فلا حيلة لنا فى دفع المقدور .. وفضلا عن ذلك فقد كان يجب عليك ان تحسن الاختيار وتزوج من فتاة غير هذه الفتاة المنبوكة ! »

فسالها : وبماذا اجاب السيد ؟

— احسبه اخذ يسب ويطعن ، فلم اكن القى إليه بالا .. كنت اجاهد فى سبيل رؤية الغلام ..

ثم انطلقت من جديد تهدى بأوصافه ومحاسنه .. وإذ كنت لا اقل عنها حماسا وشوقا فقد اسرعت إلى البيت فى لهفة ، لامتع ناظرى بمرآه بدورى ، ولو انى كنت حزينة من اجل هندلى .. فقد كان المسكين يقسم قلبه بين سنمين اثنين ولا مكان فيه لغيرهما : زوجته ، ثم شخصه ! .. كان

مشغوقا بالانسين ، يقدر احدهما ويعبد الآخر ، ولم اكن لاتصور كيف يمكن ان يحتمل هذه الخسارة ..

فلما بلغنا « مرتفعات ويدرئج » ، وجدته واقفا عند الباب الخارجى ، نساغته بينها كنت اهم باجتياز البواب : « كيف حال الغلام ؟ »

فقال وقد علت وجهه ابتسامة وضاءة : « كانمايم بالجرى فى المنزل يانلى ! » .. فتجاسرت وسالته : « والسيدة ؟ .. علمت ان الطبيب يقول إنها .. »

فقاطعتنى وقد تورد وجهه :

— لعنة الله على الطبيب ! .. إن فرانسيس فى خير حال ، وسوف تكون فى اوج صحتها فى الاسبوع القادم .. هل تصعدين إليها ؟ .. حسنا .. ارجو ان تخبريها باننى سوف اذهب إليها إذا ما وعدت بعدم الكلام .. لقد تركتها لانها لا تريد ان تمسك لسانها ، فى حين انها يجب ان تكف عن الكلام كلية .. قولى لها إن مستر كينيث يصر على وجوب التزامها بالسكون .. وقد ابلغت هذه الرسالة إلى مسز ابرنشو ، وكانت تبدو فى حالة معنوية طيبة ، فاجابتنى فى مرح :

— إننى ما كدت انطلق بكلمة واحدة حتى انطلق إلى الخارج وهو يصيح .. وقد فعل ذلك مرتين يانلى .. حسنا .. قولى له إننى اعد بعدم الكلام ، ولكن هذا الوعد لا يقيدنى بالا اشحك منه ساخرة !

بالشابة المسكينة ! .. لقد ظلت إلى ما قبل موتها بأسبوع

وهذا القلب المرح لا يخونها ولا يتخلى عنها .. وكان زوجها
يصر في عناد ، لا بل في شراسة ، على التأكيد بأن صحتها تطرد
في التحسن يوما بعد آخر .. وعند ما أئذره كينيث بان
عقايرها لن تجدى نفعا في هذه المرحلة من المرض ، وأنه لا
حاجة به لأن يكبده المزيد من النفقات للعناية بها وعلاجها ،
أجابها غاضبا :

- اعلم أنه لا حاجة بك إلى ذلك حقا ، فهي بخير ولا تحتاج
لشيء من علاجك .. إنها لم تعرض بالسبل البتة .. لقد كان
ما بها حمى عادية ، وقد زالت الآن .. فنبضها بطيء كنبضى ،
ووجنتها باردة كوجنتى !

ولقد قال لزوجته هذه القصة نفسها ، وكان يبدو عليها
أنها تصدقه .. ولكن حدث أن كانت تستند إلى كتفه ذات
ليلة ، تقول إنها تجد نفسها قادرة على معاداة الفراش في
الغد . عند ما الت بها فجأة نوبة من السعال - نوبة بسيطة
في الواقع - فزعمتها بين ذراعيه ، وعندئذ وضعت يديها حول
عنقه ، وتبدلت أساذيرها ، ثم لفظت انفاسها الأخيرة ..

وهكذا صار امر الطفل «هيتون» بين يدي كما قدرت الحادم
الصغيرة يوم ولادته .. وكان مستر إيرنشو لا ينفك راضيا
مادام يراه في صحة جيدة ، ولا يسمع له بكاء أو صراخا .
وهذا كل ما كان يهمه من أمره .. أما هو فقد تملكه اليأس
والقنوط ، وكان حزنه من ذلك النوع الدفين الذى لا يعرف
المظاهر الصاخبة .. فما سمعه أحد قط ينشج بكاء أو يشتم
بصلاة ، وإنما كان دائم السخبط والسباب ، ويصب اللعنات

على السماء والناس على السواء ، ويستسلم إلى الحمر والتبدل
على نحو مدمر .. ولم يستطع الخدم احتمال طغيانه وسوء
خلقه طويلا ، فلم يبق في خدمته سوى جوزيف وسواى ..
فلم يطاوعنى قلبى على التخلى عن مهمتى ، كما اتنى - كما
تعلم - كنت اخته في الرضاع ، وقى وسعى أن أفقر له مسلكه
أكثر مما يفعل شخص شريف آخر .. وأما جوزيف فقد بقى
ليسط نفوذه وغطرسته على المستاجرين والعمال ، ولأن
رسالته في الحياة ، كما يعتقد ، هى أن يوجد حيث تكثر
الشورر والمنكرات فيقومها بلسانه اللاذع ..

وكان المسك السئ السيد ورفقاء السوء الذين يصاحبهم ،
أسوا مثال لكائرين وهينكليف .. كما أن معاملته للأخير كانت
خليفة بأن تجعل من القديس شيطانا .. وفي الواقع أن الصبي
كان يبدو في تلك الحقبة كأنها تملكته روح شيطانية شريرة ..
وكان شديد القبطه بأن يشهد انحدار هندلى إلى أحط الدرك ،
ولكنه كان بدوره يزداد يوما بعد يوم في الشراسة والوحشية
.. ولن استطيع أن أصف لك نصف ما كان عليه ذلك البيت
الجهنمى الذى كنا نعيش فيه وقتئذ .. حتى لقد عرف القس
عن زيارتنا أخيرا وقاطعنا كل شخص محترم من جيرانتسا ،
اللهم إلا إذا كانت زيارات ادجار لينتون لمس كاتى هى الاستثناء
الوحيد من ذلك .. وكانت وهى فى الخامسة عشرة ملكة
المقاطعة بلا منازع أو منافس .. ولكنها انقلبت إلى مخلوقة
متعجرفة عنيدة مسلبة الراى .. ولست أعدو الحقيقة إذا
قلت إننى لم أعد احبها بعد أن مرت بمرحلة الطفولة ، فكننت

لا افنا اغيظها بمحاولة الغض من شساتها وتحطيم غرورها ..
ومع ذلك لم تحقد على او تكرهني ، إذ كانت على ثبات عجيب
في ودعها القديم .. وحتى هيكليف ظل محتفظا بمكانته المرموقة
في عاطفتها دون أن يطرا عليها تبديل او تغيير ، بحيث وجد
لينتون الشاب من العسير - رغم سمو مركزه - أن يكون له
أثر عميق في نفسها مثلما كان لهيكليف . لقد كان مستر
لينتون مخدوم السليق ، وها هي ذى صورته معلقة بسوق
المدفأة .. وكانت عادة معلقة على أحد جانبيها ، بينما كانت
سورة زوجته على الجانب الآخر .. ولكن صورتها رفعت من
مكانها ، ولولا ذلك لرايت شيئا مما كانت عليه .. فهل يوسمك
أن تستشف شيئا من صورة مستر لينتون ؟

ودفعت مسز دين الشمعة إلى أعلى ، فتبينت وجهها لين
الأساير يشبه إلى حد قريب تلك السيدة الشابه التي رايتها
في (المرتفعات) ، ولكنه أكثر منها استغرافا في التفكير ، ورقة
في التعبير .. كانت صورة جميلة حقا .. وكانت الفدائر
الشعراء الطويلة تتموج فوق الصدقين ، كما كانت العيشان
واسعتين تبدو فيهما الرزانة والجد .. أما الجسم فكان في
مجمله رشيقا جميلا .. ولم أعجب كيف استطاعت كاترين
أيرنشو أن تنسى صديقها القديم في سبيل مثل هذا الشخص ،
ولكني عجبت أكثر كيف استطاع أن يحب كاترين أيرنشو كما
انصورها ، إذا كانت عقليته تتفق مع ما يبدو من صورته ..

وقلت لمديرة المنزل : « انها صورة جميلة حقا .. اكان
هو في الحقيقة يشبه صورته هذه ؟ » .. فأجابت :

- نعم .. ولكنه كان يبدو خيرا منها إذا ما كان مسرورا ..
إنها تحمل طابعه المألوف العادي ، وقد كان بصفة عامة لنقصه
الحيوية ..

واستأنفت مسز دين حديثها فقالت :

- وقد احتفظت كاترين بصداقتها لال لينتون منذ أن أقامت
بينهم تلك الأسابيع الخمسة .. وقد كانت لا تميل إلى إظهار
ذلك الجانب من سوء خلقها وهي في صحبتهم ، وكانت من
اللباقة بحيث تخجل من إظهار خشونتها في ذلك الوسط الذي
تلمس فيه البشاشة والخلق المهذب دوما ، فقد استطاعت -
دون قصد أو عمد - أن تخدع السيد والسيدة العجوزين ،
بلفظها المتكلف في براءة ، وأن تنال إعجاب ايزابيلا ، وتأسر
قلب شقيقها وروحه .. وكان بلوغها ذلك كله قد تملق بغرورها
منذ البداية ، لأنها كانت مليئة بالطماع ، وقادها إلى سلوك
مسلك مزدوج دون أن تقصد تماما خداع أحد .. كانت
حيث تسمع هيكليف ينعت بمثل هذه الأوصاف « ذلك
الخبث المنحط الصغير » ، أو « إنه أسوأ من الحيوان
المتوحش » ، تعنى بالأفعال مثله أو تظهر بمظهره ! .. أما في
البيت فقد كانت قليلة الميل إلى الأدب والتهديب ، لعلها أنها
لن يجلبا لها سوى السخرية والضحك ، ومن العيب أن تفيد
نفسها بطبيعة متكلفة غير حقيقية لن تنال عليها مدحا أو
ثناء ..

وكان مستر ادجار قلما يستجمع شجاعته ليزور «مرتفعات
ويدرئج» علنا .. فقد كان يفرغ من سمعة هندلي السيئة ،

ويتفر من الالتقاء به .. ومع ذلك فقد كان يلقي منا جميعا
أقصى ما نستطيع إظهاره من شروب الحفاوة وحسن المقابلة ،
بل إن السيد نفسه كان يتجنب الإساءة إليه ، لعلمه بالباث
على زيارته تلك ، وكان إذا شعر بأن حالته لا تساعده على
الظهور بمظهر الرقة واللين ، امتزل الشابين واختفى عن
انظارهما .. بل أحسب أن كاترين نفسها كانت لا ترتاح كثيرا
إلى ظهور ادجار ليتتون في (المرتفات) ، بحكم أنها لم
تكن على شيء من الدهاء أو المكر ، أو تصنع الدلال الذي
كان أبعث شيء عن طبيعتها ، ومن ثم كانت تتحاشى التقاء
صديقيها معا بكل الوسائل .. لأنه إذا أبدى هيكليف
احتقاره لليتتون في مواجهته ، فإنها لا تستطيع أن توافقه
تماما ، كما كانت تفعل في غيبته . وعندما يظهر لنتون
اشمزازة ونفوره من هيكليف فإنها لا تجرؤ على تجاهل
مشاعرة ، كأنما أزدراء رفيق صباها امر قليل الأهمية في
نظرها . وهكذا اتبحت لى الفرصة مرارا لأضحك من حيرتها
ومن متاعبها الدفينية ، التي كانت تجهد في إخفائها عنى حتى
لا اسخر منها .. وقد يبدو من ذلك أن لى طبيعة شريرة ،
ولكنها كانت من الكبرياء والمعرفة بحيث غدا من المحال أن
يشفق المرء على الآمها ومتاعبها ، ما لم يضطرها الإذلال إلى
أن تظامن من غلوائها ، ويدفعها إلى التواضع .. وقد اضطرت
أخيرا إلى أن تلجأ لى لتصارحنى بمتاعبها وتطلعنى على سرها ،
إذ لم يكن ثمة إنسان آخر سوى تجد فيه التواضع والمعين ..
حدث ذات يوم أن بارح مستر هندلى المنزل بعد الظهر ،

فإذا به يتكليف يجد من الجراة ما يزعم معه أنه منح نفسه
إجازة من العمل لهذه المناسبة .. وكان في ذلك الحين - فيما
أحسب - قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، ودون أن يكون
ديم الخلق أو ناقص العقلية كان ، بتجههه الدائم ، يشيع
حواله شعورا بالنفور منه ، وبوحى بنفوره من الناس ، الأمر
الذى خلا منه مظهره الحالى .. ولعل أهم ما كان يحذوه إلى
ذلك هو أنه كان في تلك الفترة من حياته قد اضاع ثمرة تعليمه
المكر ، إذ ان العمل الشاق التواصل ، الذى يبدأ من البكور
ولا ينتهى إلا في وقت متأخر ، قد قضى على اية رغبة كانت
تتملكه نحو مواصلة تعليمه ، وقتل فيه أى ولع بالكتب أو
الدراسة .. وكان الشعور الذى لازمته في طفولته ، بسوءه
ورفعة شأنه ، والذى اشربه قطرة قطرة من تدليل مستر
ايرنشو التكبير له ، قد ذاب وتلاشى أمام الواقع الأليم ..
وكان قد ظل يناضل طويلا في سبيل الاستمرار في الدرس مع
كاترين سواء بسواء ، ولكنه ما لبث أن استسلم لعجزه في
حزن موجع ، وإن كان حزنا صامتا مكبوتا .. على أن
استسلامه كان كاملا ، فلم يعد ثمة سبيل لإقناعه بأن يخطو
خطوة نحو الارتقاء - بينما كان يرى نفسه مسوقا - رغم
أنفه - إلى الانحدار دون مستواه السابق .. عندئذ اتخذ
مظهره الشخصى من نصوبه العقلى رقيقا يرامله ويأس إليه ،
فأصبحت مشيته بطيئة خاملة ، وغدا مظهره بشعا مقبئا .
وازداد إغراقا في تحفظه وتجههه الطبيعيين حتى صارا غلوا
سخيفا في النفور من الناس وتكذب طريقهم ..! بل لقد كان

يجد متعة شيطانية في إثارة اسمئوز معارفه القلائل اكثر من استجلاب تقديرهم واحترامهم !

وكان هو وكثيرين لا يزالان رقيقين متلازمين في ساعات راحته وأوقات عمله على السواء .. ولكنه كف عن إظهار ولعه بها بالكلمات ، بل غدا ينفر في ربة وغضب من ملاطفتها البريئة الصبيانية ، كأنها كان يحس بأن إغداق مثل هذه المظاهر العاطفية عليه لا يمكن أن يكون له جزاء يرجى أو ثمرة تؤتى أكلها ..

وعندما أتى إلى حجرة الجلوس في ذلك اليوم ليعلم عزمه على الراحة والانقطاع عن العمل ، كنت أعاون مس كائي في استكمال زينتها وتنظيم ثوبها .. فاتها لم تقدر قط أن تقوم في رأسه فكرة الاخلاص إلى الكسل والبلادة ، وإذ خالت أن الدار سوف تخلو لها فقد عمدت إلى إبلاغ مستر ادجار - بوسيلة ما - بغياب أخيها ، وكانت وقتئذ تنأهب لاستقباله .. فسألها هينكليف :

- أترك مشغولة هذا المساء يا كائي ؟ .. أو هل توبين الخروج ؟

- كلا .. فالطر ينهمر كما ترى ..

- ولماذا ترتدين هذا الثوب الحريري إذن ؟ .. لعلك لا تنتظرين أحدا ؟

فضعفت الأنسة متلعثمة :

- لست أدري شيئا عن مقدم أحد .. ولكن كان ينبغي أن

تكون في الحقل الآن يا هينكليف ، فلم تمض إلا ساعة واحدة منذ الغداء ، وقد حسبتك خرجت لعملك ..

- إن هندلي قلما يريحنا من محضره اللعين ، ولذلك لن اعمل شيئا اليوم ، وسوف أبقى معك ..

فازداد ارتباكها ، وقالت :

- أوه ! .. ولكن جوزيف سوف يخبره ! .. فمن الخير إذن أن تذهب لعملك ! ..

- جوزيف مشغول في تسليم اشجار الخشب المقطوعة في الناحية الأخرى من هضبة (بيستو) إلى المشتري ، وسوف يستغرق منه هذا العمل حتى هبوط الليل ، وبذلك لن يعرف قط ..

وإذ قال ذلك ، مضى في تكاسل نحو المدفأة ، واتخذ مجلسه بجانبها .. ففكرت كاترين لحظة وقد قطبت حاجبيها ، ووجدت من الضروري أن تمهد الطريق للزيارة المرتقبة ، فقالت بعد برهة من الصمت :

- لقد ذكرت إيزابيلا لينتون وشقيقها انهما قد يحضران بعد ظهر اليوم ، وإن كنت لا أتوقع حضورهما مع هذا المطر المنهمر .. ومع ذلك فقد يحضران ، وإذا حدث ذلك فانك تعرض نفسك للتأنيب بغير داع ..

فمضى في إصراره ، قائلا :

- مري «نيللي» أن تقول إنك مشغولة يا كائي ، ولا تطردني من المنزل من أجل هذين الصديقين السخيفين .. إنني أجد

نفسى احيانا على وشك ان اشكو من انهما .. ولكنى لن افعل ..

فصاحت كائرين وهى تحدد النظر إليه وقد بدا الانفعال فى محيائها :

- انهما ماذا ؟

ثم استدارت نحوى فى حدة وسخط ، وقد طوحت براسها بعيدا عن يدي :

- اواد يا نللى ! .. لقد افسدت توج غدائرى ! .. كفى ذلك الآن ، ودعيني وشائى .. ما الذى كنت على وشك ان تشكو منه يا هيثكليف ؟

- لا شيء .. ولكن انظرى إلى هذا التقويم المعلق على الجدار ..

وأشار بإصبعه إلى تقويم معلق بالقرب من النافذة ، واستطرد يقول :

- انظرى .. لقد وضعت علامات على الأسميات التى قضيتها مع آل لينتون ، وعلامات أخرى على تلك التى قضيتها معى .. هل ترين ؟ .. اننى لم اترك يوما واحدا دون علامة ! فقالت كائى فى تيرات مغيظة :

- نعم .. وذلك فى غاية الحمق ! .. كاننى اتى بالى مثل هذه التوافه .. وما معنى ذلك بالله عليك ؟

- معناه اننى « أنا » التى بالى إليها ..

فقالت وقد اخذت تزداد غضبا وانفعالا : « وهل ينبغي

ان اجلس معك دائما ؟ .. أى خير أجده فى ذلك ؟ .. وما هى تلك الأحاديث الطيبة التى تطرقها ؟ .. انك أشبه بالشخص الاىكم أو الطفل الغريب فى كل ما نقوله لتسليتى ، وفى كل ما تفعله ، على السواء .. »

فقال هيثكليف وقد ازداد انفعالا : « ولكنك لم تخبرينى قط من قبل اننى قليل الكلام ، أو ان صحبتى لك لا تروك يا كائى ! »

فصغمت قائلة : « إنها لا تعد صحبة على الإطلاق تلك التى لا يقول الناس فيها شيئا ويجهلون كل شيء .. »

فاستوى رفيقها على قدميه ، ولكن الوقت لم يتسع له للتعبير عما يخالجه من مشاعر ، إذ سمعنا وقع حوافر الجواد فوق المدخل المرصوف ، وما ليك « لينتون » الشاب أن ولج الحجرة بعد ان طرق الباب فى رفق ، وقد أضاء وجهه بالسرور والغبطة لهذه الدعوة غير المرتقبة التى تلقاها .. وما من ريب فى أن كائرين قد تبينت الفرق بين صاحبها ، عندما كان أحدهما يلج الحجرة ، والآخر يفارها ! .. كان التناقض والتناقض بينهما أشبه بذلك الذى تحسه عندما تخلف أرضا كئيبة ، جبلية ، من أراضي مناجم الفحم السوداء ، إلى واد خصيب جميل .. كما ان صوته ، والطريقة التى يلقى بها التحية ، كانا لا يقلان تناقضا أحدهما مع الآخر . من مظهره .. كانت له طريقة رفيقة ناعمة خاقنة فى الكلام . وكان ينطق بكلماته كما تفعل أنت ، أى بطريقة اقل فظاظة وأكثر ليونا ورقة مما نتكلم نحن هنا !

وقال وهو يرمقني من طرف خفي ، وقد جثوت على ركبتي
وبدأت أمسح الأطباق وانظف ادراج « البونية » : « ارجو الا
اكون قد حضرت في وقت مبكر اكثر مما ينبغي .. » .
فاجابت كاثرين : « كلا البتة .. ما هذا الذي تفعلينه
هناك يا نللي ؟ » .

- إنني أقوم بعملى يا آنستى ..

(والواقع أن مستر هندلي كان قد امرنى بأن اكون طرفا
ثالثا في أية زيارة يقوم بها مستر لينتون على غير انتظار ..)
فتقدمت حتى وقفت خلفى وهمست تقول لى في غضب
وحق : « الذهبى .. خدى خرقك ومماسحك وامضى إلى
الخارج ، فعندما يكون في البيت زوار يجب أن يكف الخدم
عن المسح والتنظيف في الحجرة التى يجلسون فيها .. » .
فاجبتها بصوت عال : « إنها فرصة طيبة الآن وقد غاب
السيد عن البيت ، أن أقوم بعملى ، فإنه يكره أن يرانى أعبث
بهذه الأشياء في حضوره .. ولا ريب أن مستر ادجار سوف
يفغر لى ذلك .. » .

فصاحت الآنسة الشابة في غطرسة وخيلاء ، دون أن تترك
لضيفها فرصة للكلام .. وكانت قد تخلت عنها رصانتها
واثرانها منذ ذلك الشجار الصغير مع هينكليف : « ولكنى
كذلك اكراه ان تعيش بهذه الأشياء في حضورى .. » .
فكان جوابى المتعصب : « اننى آسفة لذلك يا مس كاثرين ! »
ثم مضيت أواسل عملى في اصرار ومشاورة .. وإذ خالت

ان ادجار لا يستطيع رؤيتها ، جذبت الممسحة من بدى في
عنف ، ثم قرصتنى في ذراعى قرصة طويلة وهى تلوى
اصابعها لتزيد من وجيعتى وتروى غليلها من الانتقام منى ..
وقد قلت اننى لم أكن احبها ، ومن ثم كنت اجد متعة بالغة
في قهر كبريائها وغرورها بين الحين والحين ، وكانت قرصتها
قد اوجعتنى كثيرا ، وهكذا نهضت من حيث كنت اجثم فوق
ركبتي ، وصرخت قائلة :

- ما هذا يا آنسة !.. لقد آبت فعلة بالغة السوء ..
فليس من حقك ان تقرصينى ، كما اننى لن احتل منك
هذا ..

فصاحت في وجهى : « إننى لم المسك أيتها المخلوقة
الكاذبة ! » .

.. بينما كانت اصابعها تحرق شوقا إلى إعادة الكرة
من جديد ، وقد غدت اذناها قرمزيتين من فرط الغضب ..
فما كانت قط تجد في نفسها القوة على إخفاء انفعالها ، وكانت
في مثل هذه الحالات تبدو متوردة الوجه والعنق كأن موقدا
يستعل تحت جلدها ..

وكشفت عن ساعدى لشهد البقعة الزرقاء على كذبها
وصدقنى .. فضربت الأرض بقدميها وترنحت لحظة ، وما آبت
ان تغلث روحها الشريرة على تردها فرفعت يدها وهوت
على وجهى بلطمة شديدة مؤلمة ملات عيني بالدموع ..

فتدخل ادجار ، وقد عظمت دهشته وفجيعته بهذه

السقطة المزدوجة التي تردت فيها معبودته : الكذب واستعمال
العنف ، وصاح بها :

- كاترين !.. حبيبتى كاترين !

ولكنها كانت في شغل عنه .. فإن هيرتون الصغير - الذي
كان يتبعني أينما ذهبت ، والذي كان يجلس على الأرض
بالقرب مني - ما كاد يرى الدموع في عيني حتى أخذ يبكي
وينشج بالشكوى من « العمة كاثي الشريرة » ، التي تحوات
إليه لتصب جام غضبها على رأسه ، فأمسكت بكتفيه وراحت
تهزه في عنف بالغ حتى غاشت الدماء من وجه الطفل المتكود
وغدا باعنا كالشمع !.. وعندئذ اندفع أذجار دون تفكير ،
وأمسك بكلتا يديها ليخلص الصبي منهما ، فإذا بها تحرر
أحدهما في سرعة خاطفة ، وإذا بالفتى المشدود يحس بهذه
اليد فوق صدغه بطريقة لا يمكن أن تحدث عفوا .. فتراجع
إلى الوراء في فزع وذعر .. وكنت قد حملت هيرتون بين
ذراعي ، ومضيت به نحو المطبخ ، تاركة الباب مفتوحا ، إذ
استبد بي الفضول لمعرفة الطريقة التي سيسوي بها هذا
الخلاف بينهما ، فرأيت الشيف المهان يمضي إلى حيث كان
يضع قبعته ، وكان وجهه شديد الشحوب وشفته ترتجف
غضبا وتأنرا .. فقلت لنفسي وكأني أتحدث إليه : « حسنا
تفعل .. وما عليك إلا أن تتعن بهذا التذير وتهرب بجلدك !..
فمن رحمة الله أن أطلعك على حقيقة خلقها وطباعها ! » .

ولكن كاترين سبقتني إلى الباب قائلة : « إلى أين تذهب ؟ »
فتحول ناحية ، وهو يحاول المرور ، ولكنها عادت تصيح
في عزم قوي :



فأمسكت بكتفيه وراحت تهزه في عنف بالغ حتى غاشت الدماء من وجهه
الطفل المتكود ..

لا يجب أن ترحل الآن ..

فأجاب في صوت خفيض :

بل يجب أن أرحل ، وسأفعل !

فمضت في إصرارها ، وهى تمسك بمقبض الباب : « كلا .. ليس الآن يا ادجار لينتون ! .. اجلس ، فما ينبغي لك أن تتركنى في هذه الحالة .. سوف أشقى بها طول ليلتى ، ولست أريد أن أشقى بسبيك ! » .

فقال لينتون : « وهل يوسعى أن أبقي بعد ان صغمتنى ؟ » فلم تبس كائرين بكلمة ، بينما استطرد الفتى يقول : « لقد جعلتنى أخافك وأجمل منك .. ولن أحضر إلى هنا بعد الآن ! » .

فبدت عينها تنديان ، وأجفانها تضطرب .. على حين تابع ادجار كلامه : « .. ثم أنك كذبت عن عمد ! » .

ففتحت تقول : « كلا .. لم أكذب عن عمد ، بل ولم أفعل شيئا عن عمد .. حسنا .. إذهب إذا كان يروقك أن تفعل ! .. اذهب ودعنى أبكى حتى يستمنى البكاء .. » .

وهوت على ركبتيها بجانب المقعد ، ومضت تبكى بكاء حاراً متواصلًا . وأصر ادجار على عزمه ، ولكن لم يطل إصراره إلا ربما بلغ الغشاء ، حيث بدا يتلأأ متردداً ، فعزمت على أن أشجعه وصحت به من الداخل :

— إن الأنسة شديدة العناد يا سيدى ، وهى أسوأ من طفل مشاكس أفسده التذليل .. فمن الخير أن تمضى إلى دارك ، وإلا فإنها سوف تمرض حقاً لتجلب لنا الهم والتكد ..

ولكن الفتى الرقيق اللين كان يسترق النظر من خلال النافذة ، وقد بدا عليه التردد والإحجام ، وبدت عزيمته على الرجيل أشبه بعزيمة هرة على أن تترك جرذاً يحتضر ، أو عصفوراً أكلت نصفه ! .. فادركت في قرارة نفسى أنه مقضى عليه بالهلاك ، وأن لا سبيل إلى إنقاذه من القدر الذى يلقي بنفسه بين فكيه .. وهكذا كان .. فما لبث أن تحول بفتة وأسرع إلى حجرة الجلوس ثانية وهو يفلق الباب خلفه ..

فلما ذهبت بعد برهة لآخرهما بأن ابرنشو في طريق العودة إلى الدار وقد اطارت الخمر ليه ، وإنه على استعداد لهدم البيت فوق رؤوسنا ، وهو يعدو دائماً في هذه الحالة العقلية إذا أفرط في الشراب) إذا بنى أحد أن الشجار لم يزد هما إلا وفاقاً وقرباً ، وأنه قد حطم أسوار الحياء والخجل التى تحوط الشباب الهيايين ، ومكنتهما من خلع قناع الصداقة المجردة ، والكشف عما تحته من الحب الذى نشب في قلوبهما ..

ودفعت أنباء وصول مستر هندلى إلى الدار ، ادجار إلى الإسراع نحو جواده ، ومس كائرين إلى حجرتها .. لما أنا فقد ذهبت لأخفى هيرتون الصغير ، ولأنزع الطلقات من بندقيته السيد ، التى كان مولعاً بالعبث بها في هياجه الجنونى ، مهدداً حياة كل من يشيره ، أو يشير انتباهه إليه أكثر مما ينبغي .. وكنت قد دبرت نزع هذه القذائف حتى يقل خطره إذا ما بلغ به الحال إلى حد إطلاق البندقية !

الفصل التاسع

اندفع هندلى إلى الداخل وهو يصيح بسباب يندى له الجبين ، فلمحنى بينما كنت أقوم باخفاء ولده فى دولاى المطبخ .. وكان هيرتون يحس بفزع مروع من لقاء ابيه والتعرض لولعه الوحشى او هياجه الجنونى على السواء ! .. فهو فى الاولى عرصة لان يظل يقبله ويحتضنه حتى يشرف على الموت ، وفى الثانية عرصة لان يلقى به إلى النار او يحطم رأسه على الجدار .. وهكذا كان الطفل المسكين يظل ساكنا بلا حراك حيثما اردت أن اخفيه عن الأنظار ..

وضاح هندلى وهو يجذبنى من جلد قفائى كما يفعل بالكلاب .

هالدا قد وجدته اخيرا ! .. واقسم بالسماء والجحيم انكم اتفقتم فيما بينكم على قتل هذا الغلام ، وها قد عرفت الآن لمماذا تخفونه عن انظارى دائما .. ولكنى يعون الشيطان سوف اجعلك تبتلعين سكين اللحم الكبيرة يا نلى ! .. ولا حاجة بك إلى الضحك ، فقد زرعت الآن « كينيث » ورأسه إلى أسفل ، فى مستنقع « الحصان الأسود » .. وقتل اثنين قتل واحد سواء بسواء .. كما ان بى رغبة ملحة فى أن اقتل بعضا منكم ، ولن يهدأ لى قرار حتى افعل !

فاجبتة فى هدوء : « ولكنى لا احب مذاق هذه السكين يا مستر هندلى ، إذ كنا تقطع بها الرنجة المجففة .. والافضل - إذا شئت - أن تطلق على النار .. »

- الافضل أن تنصب عليك اللعنتات ! .. ولكنك سوف تبتلعين السكين ، فما من قانون فى انجلترا يحول بين الرجل وبين المحافظة على بيته نظيفا محترما .. ولكن منزلى اصبح كريها ممقوتا .. هيا افحنى فمك !

وكان يمشك بالسكين فى يده ، فدفعت طرفها بين أسنانتى .. ولكنى لم اكن قط اخشى هذيانه هذا ، فبصقت جانبيا ورحت أزكد له أن مذاقها فظيع وذلك لن استطيع ابتلاعها !

عندئذ حلنى عنى ، وهو يقول : « ارى ان هذا المسخ الصغير الشرير ليس هيرتون ! .. وارجو المدبرة يا نلى ، فلو انه كان هيرتون لاستحق أن يسلخ جلده حيا جزاء عدم إسماعه إلى الترحيب بى ، وصياحه كلما رأتى كائنى عفريت من الجان ! .. تعال هنا أيها الجرو الممسوخ ! .. سوف اعلمك كيف

تخدع ابا طيب القلب سليم النية ! .. والان يا نلى .. الا ترى ان الغلام سوف يفسدو اجمل والطف إذا ضلعت اذناه ! .. إن ذلك يجعل الكلاب أشد ضراوة ، وأنا احب أن اراه شيئا ضاريا .. آتىنى بمقص ! .. شيئا ضاريا ، وانيقا مشدبا ! .. ثم إنها لعاطفة جهنمية وخيلاء شيطانية ، ان ندلل آذاننا ونكرمها ! .. فنحن حمير بما فيه الكفاية بدونها ! .. صه يا غلام .. صه ! .. حسنا إذن .. إنه طفلى الحبيب ! .. صه ! .. جفف عينيك من هذه الدموع اللعينة ، واضحك لى .. قبلتى ! .. ماذا ! .. إنه لا يريد أن يقبلنى ؟ .. قبلنى يا هيرتون ! .. لعنة الله عليك .. قبلتى إذن ! ..

يا إلهي .. هل يمكن أن انجب مثل هذا الوحش ! .. والله لأحطم عنق هذا الجرو ما دمت حيا ! » .

وكان هيرتون المسكين يصرخ ويرفس بقدميه ، وهو بين ذراع والوالد ، بكل ما في بدنه الصغير من قوة ، ثم ازدادت صيحاته وتضاعفت عندما حمله وصعد به الدرج وقد رفعه فوق (الدرازين) .. فصحت به أنه سيخيف الغلام حتى لقد بصيبه الصرع ، وأسرعت خلفه لاتقذفه من يديه ، وما كادت أبلغ مكانه حتى مال هتدلى إلى الأمام فوق قضبان السياج ليصفي إلى خطوات أتبعثت من الطابق الأسفل مقترية من الدرج ، وقد نسي ما كان بحمله بين يديه ، وهو يسأل هادرا : « من هنالك ؟ » .. وانحنيت إلى الأمام بدوري لأشير إلى هيتكليف ، الذي عرفت وقع قدميه ، الا يتقدم أكثر من ذلك .. وفي اللحظة التي فارقت عيناى فيها هيرتون ، ففر الغلام بغتة ، وتخلص من القبضة الرخوة التي كانت تمسك به في غير عناية ، ثم سقط إلى أسفل ..

ولم يتسع لى الوقت لأحس هزة الهلع التي اعترتني ، قبل أن أرى المتكود الصغير سليما معافى ، فقد وصل هيتكليف إلى أسفل الدرج في اللحظة الفاصلة ، وبدافع طبيعي ، لأشعوري ، تلقى الغلام بين يديه ، ووضعته على الأرض ، ثم رفع عينيه إلى أعلى ليرى من كان السبب في الحادث .. ولو أن شخصا شحيحا تخلى عن ورقة نصيب محظوظة في سبيل خمسة شلنات ، ثم علم في اليوم التالي أنه خسر في هذه الصفقة خمسة آلاف جنيه ، لما بدا وجهه أشد امتقاما

وشحوبا مما بدا عليه وجه هيتكليف عندما رأى مستر ايرتسو بأعلى الدرج .. كان وجهه يعبر ، في وضوح تقصر عنه الالتقاط ، عن الهه البالغ إذ جعل من نفسه أداة إحياط انتقامه .. وبوسعى أن أقول إنه لو كان المكان أشد ظلمة ، لأصلاح ما أفسدته يده ، ولحطم جمجمة هيرتون على الدرج ! .. ولكننا كنا شهود خلاصه ونجاته ، وكنت قد نزلت وأخذت ذخيرتى الثمينة بين أحضاني ، ورحت اضمها إلى قلبي .. اما هتدلى فقد كان أكثر ثودة في هبوطه ، وقد أفاق من تعله ، وبدا عليه الخجل والندم وهو يقول :

— إنها غلطتك يا نللي ! .. كان يجب أن تبقى بعيدا عن الانظار .. كان يجب أن تأخذه منى .. هل أصابه أذى من سقوطه ؟

فصحت به غاضبة : « أذى ؟ .. إذا كان لم يقتل ، فلأنه غيى ابله ! .. آه ! .. شد ما أعجب كيف لا تقوم امه من قبرها لترى كيف تعامله ! .. إنك أسوأ من أى كافر ملحد ، إذ تعامل لحكم ودمك بهذه الطريقة ! » .

فحاول أن يقرب يده من الغلام الذى اطمأن إلى وجودى معه فنفت فزعه المكبوت .. ولكن ما كاد أبوه يسهه بأصبعه ، حتى أتبعث يصبح صياحا عاليا ، ويتكلم جسمه كأنها يوشك أن يصاب بنوبة حادة .. عندئذ استطرقت أقول لهتدلى :

— خير لك أن تدعه وشأنه ، فإنه يكرهك .. بل إنهم جميعا يكرهونك .. وهذه هى الحقيقة المجردة .. إن لديك أسرة سعيدة ، ولكنك بلغت حالة باغلة السوء .

فضحك الرجل المنحرف وعاودته ضراوته ، وهو يقول :
 - ولسوف تزداد سوءا يا نللى .. أما الآن فعليك ان تغري
 عن وجهي به .. وانت يا هينكليف ، امش من هنا حالا ،
 وابتعد عن سمعي ومتناول يدي .. إني لن أقتل أحدا منكم
 الليلة ، إلا إذا راق لي ان أشعل النار في المنزل كله ..
 وبينما كان يقول ذلك ، تناول زجاجة من الخمر القوية
 وبدأ يصب منها في قدحه ، وعندئذ رحب أتوسل إليه
 قائلة :

- كلا يا مستر هتدلي .. بالله لا تفعل ، وخذ مما وقع
 تدبراً بسوء العاقبة .. الا اشفق على هذا الغلام التمس ، إذا
 كنت لا تأخذك الشفقة بنفسك ..

فاجابني : « إن أي شخص سواي قد يكون خيراً له مني . »
 فقلت وأنا احاول ان اخطف الزجاجة من يده :

- هلا اشفقت على روحك من عذاب الآخرة إذن ؟

- لا تنتظري ذلك مني .. فإني - على العكس - شد
 ما يسرنى ان ابعث بها إلى الهلاك ، عقاباً لخالفها على ما
 اقترفت يدها !

وقهقه الكافر المجدف ضاحكاً ، ثم رفع قدحه قائلاً :

- وهذا نخب لعنتها القلبية !

ثم جرغ الكاس دفعة واحدة ، وصاح بنا بأمرنا بالانصراف
 وهو يشفع أمره بوابل من الفاظ السباب القبيحة المروعة التي
 لا يمكن للمرء ان يرددها او يدكرها ! .. فلما اطلق الباب
 انطلق هينكليف يردد السباب واللعنات ، ثم قال :

- معا يؤسف له ان الشراب لن يقتله ! .. وهو يبذل غاية
 جهده في سبيل هذه الغاية ، ولكن قوة بنياته تتحداه وتخذله
 .. لقد قال مستر كينيث إنه براهن على فرسه بأن هتدلي
 سوف يعيش أكثر من أي رجل آخر في هذه الناحية من
 (جيمرتون) ، وسوف يذهب إلى قبره شيخاً تثقله الأوزار
 والغطايا .. هذا ما لم يحل به أحد تلك الأحداث السعيدة
 الخارجة عن المألوف !

ومضيت إلى المطبخ حيث جلست اهددهد حملي الصغير
 حتى ينام .. أما هينكليف فقد خلت أنه مضى إلى مخزن
 الحبوب في الخارج ، ولكني تبينت بعد ذلك أنه لم يمش
 إلى ابعد من الناحية الأخرى للأريكة ذات الظهر المرتفع ، حيث
 لقى بنفسه فوق مقعد طويل بجوار الجدار ، بعيداً عن
 النار ، حيث لبث ساكناً بغير حراك .. وكنت أهز هيرتون
 فوق ركبتي وأترنم بأغنية : اهددهد بها ، عنديا أنت بس كائى
 - التي كانت تصفى إلى الضجيج من حجرتها - فأطلت
 براسها من الباب وهمست قائلة :

- هل أنت وحدك يا نللى ؟

- نعم يا ألسنى ..

فدخلت واقتربت من المدفاة وعندئذ رفعت نظري إليها
 وقد خلت أنها على وشك ان تقول شيئاً ، فإذا بي أجدها وقد
 انمقدت في محياها سحابة من الهم والقلق .. وكانت
 شفتاها متفرجتين ، كأنما كانت تمهم بالكلام ، ولكنها تنفست
 في قوة فأقلت تنفسها أشبه بشهيد عميق بدلا من العبارة التي

كانت تنوى قولها .. وعدت إلى الزنم بأغفيتي ، دون أن
أبالى بها ، فلم أكن نسيت بعد فعلتها الأخيرة ..
فقاطعتنى قائلة :

- أين هيكليف ؟

- إنه يقوم بعمله في الحظيرة ..

فلم يعارضنى .. ولعله كان قد أخذته سنة من النوم ..
وتلت ذلك فترة طويلة من الصمت لمحت في خلالها قطرات
من الدمع تنساب فوق وجنتى كالى وتسقط على البلاط ..
فتساءلت في قرارة نفسى : أراها آسفة نادمة على مسلكها
الشائن ؟ .. إن ذلك يعد تطورا جديدا في طباعها ! .. ولكن عليها
أن تتحدث من تلقاء نفسها ، فلن أمد لها يد العونة ! .. ولكن
لا .. فهى لا تعنى أقل عناية بأى شيء عدا ما يخصها وبهيمها ،
لفرط أنانيتها ! .. وأخيرا صاحت قائلة :

- أواد يا عزيزتى ! .. إننى تعسة شقية !

فقلت في غير اكتراث :

- والاسفاه ! .. إن من الصعب مرشائك يا فتاتى ! ..
أفلا تستطيعين الشعور بالرضى والسعادة ، على كثرة
أصدقائك وقلة همومك ؟

فركمت إلى جانبى ورفعت نحوى عينيها الساحرتين وفيهما
تلك النظرة التى تذهب بغضب المرء حتى لو كان لديه كل
الحق في التمسك به ، ثم غمغمت تقول :

- نللى .. هل تكتفين لى سرا ؟

فقلت وقد لانت أساريرى : « أترينه يستحق الكتمان ؟ »
- نعم .. وهو يضابقنى كثيرا ، ولا بد لى من أن أفرج
عن صدرى بإفشائه لك .. لقد طلب إلى أديجار لينتون اليوم
أن أتزوج منه .. وقد أعطيته جوابى .. ولكنى قبل أن أقول
لك إن كان قبولا أم رفضا ، أود أن تخبرينى بما كان ينبغي
أن يكون عليه ..

- وكيف يمكنى حقا أن أعرف يا مس كاترين ؟ .. ولكننا
إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المشهد الذى قيمت بتمثيله في
حضوره بعد الظهر ، فمن الحكمة أن ترفضى طلبه .. لأنه
ما دام قد طلب يدك بعد ذلك المشهد ، فهو إما أن يكون شخصا
أخرق لا أمل في شفائه ، أو غيبا ابلا لا يقدر عواقب الأمور !
فاستوت واقفة وهى تقول في حلق :

- إذا مضيت في الكلام بهذه النغمة ، فلن أخبرك بشيء بعد
ذلك .. والآن ، لقد قبلته يا نللى ! .. فأسرعى وأخبرينى
هل كنت مخطئة في ذلك !

- إذا كنت قد قبلته ، فما جدوى مناقشة الأمر من
جديد ؟ .. لقد أعطيتك كلمتك ، وليس في وسعك أن
تسحبها ..

فصاحت في ضيق وهى تفرك يديها وتقلب جبينها :

- نعم .. ولكن قولى هل كان يجب أن أفعل ذلك ..
تكلمى !

فقلت متمهلة وأنا أزن كلماتى :

- هناك أشياء ينبغي بحشها والتفكير فيها قبل الإجابة على

— كلا البتة .. اجيبي على سؤالي !

— احب الأرض التي تحت قدميه ، والهواء الذي يحسوط رأسه ، وكل شيء يللمسه ، وكل كلمة يقولها .. احب كل نظرانه ، ولجساته ، وكل ما يقوله ويفعله .. احبه بكل ما فيه ، كل الحب .. لماذا تريدان بعد ذلك ؟

— ولكن لماذا ؟

— لا .. لقد انقلب الامر لديك إلى مهزلة ! .. وهذا إنراط في حب المشاكسة يا نللي ! .. الا اعلمى إذن اننى لا اتخذ هذا الأمر هزلا أو مزاحا ..

قالت السيدة الشاببة ذلك وقد علا وجهها العبوس وادارت ظهرها ناحيتى مستقبلة المدفأة .. فبادرت أقول :

— إننى بعيدة عن الهزل كل البعد يا مس كاترين .. فانت تحبين مستر ادجار لانه وسيم الطلعة ، ولانه شاب ، ولانه مرح ، ولانه غنى ، ولانه يحبك .. ومهما يكن من امر فان السبب الأخير لا قيمة له البتة .. فقد تحبينه دون أن يحبك .. وقد لا تشعرين نحوه بالحب برغم حبه لك ، ما لم تكن له الميزات الأربع الأولى !

— كلا .. لا شيء من ذلك البتة .. بل إننى كنت لاشفق عليه ، واكرهه ، لو كان قبيح الصورة ، أو أشبه بمهرجى الملاعب !

— ولكن هناك فى هذا العالم الكثير من الشبان الأثرياء الذين لا يقلون عنه وسامة وبهاء ، ان لم يزيدوا ، فما الذى يمنعك من أن تحبيهم ؟

هذا السؤال إجابة صائبة .. فأولا ، وقبل كل شيء ، هل تحبين مستر ادجار ؟

— ومنذا الذى يستطيع الا يحبه ؟ .. نعم ، احبه ، طبعاً !

عندئذ مضيت استجوبها فى إلحاح شديد — فمن الحكمة ان افعل ذلك مع فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها ! — قلت :

— ولماذا تحبينه يا مس كاتى ؟

— هراء ! .. إننى احبه ، وهذا يكفى !

— كلا البتة .. بل يجب ان تقولى لماذا تحبينه ؟

— حسناً .. لانه وسيم الطلعة ، رقيق المعشر ..

— سبب سخيف !

— ولانه شاب فى مقتبل العمر ، مرح لطيف ..

— وهذا سبب سخيف أيضاً ..

— ولانه يحبني ..

— ذلك لا يغير من الأمر شيئاً !

— وسوف يغدو غنياً .. وشده ما احب ان اكون اعظم سيدة فى هذه الأنحاء كلها ، ومن بواعث زهوى ومخارى ان يكون لى مثل هذا الزوج ..

— وهذا اسوا الأسباب التى ذكرتها . والان خبرينى كيف تحبينه ؟

— كما يجب كل إنسان .. ما هذا السخف يا نللي ؟

- إذا وجد أمثال هؤلاء ، فإنهم بعيدون عن طريقى .. ولم
القى في حياتى احدا يعامل ادجار ..

- قد تلقين بعضا منهم .. ثم انه لن يظل طول حياتاه
وسيم الطلعة شابا ، وقد لا يكون ثريا على الدوام ..

- ولكنه كذلك الآن ، وليس يهمنى سوى حاضرى ..
لينتك تتكلمين في تعقل يا نللى ..

- حسنا .. هذا يحسم الامر ، وما دمت لا تهتمين إلا
بحاضرك ، فتزوجى بمستر لينتون !

- إننى لا اطلب اذنك كى اتزوجه ، فسوف افعل ذلك ..
ومع ذلك فانك لم تخبرينى هل أصبت في ذلك ؟

- بل أصبت تماما ، إذا كان الناس يصيبون عندما
يتزوجون من أجل حاضريهم ، دون مستقبلهم ! .. ولنستمع

الآن إلى هومك واسباب شقاك . إن اخاك سوف يطرب
لهذا الامر ، ولست اعتقد أن السيد لينتون والسيدة زوجته

سوف يشيران أى اعتراض . وسوف تغرين من دار مليئة
بالقوضى ، لا راحة فيها ولا استقرار ، إلى دار محترمة ذات

سعة وثراء ووقار .. ثم انك تحبين ادجار ، وهو يحبك ..
كل شيء إذن مدلل ميسور .. فأين المتاعب والشقاء إذن ؟

نصاحت لكثيرين وهى تضرب بلحدى يديها على صدرها
وبالآخرى على جبينها :

- هنا .. ثم هنا ! .. أو حيثما تسكن الروح والنفس
في جوارح الجسد .. فاننى في قرارة نفسى ، وفي اعماق
قلبى ، أشعر بأننى قد اخطأت !

- هذه غاية العجب يا آنستى ، وصدقينى اننى لا انهم
من الامر شيئا !

- إنه سرى .. ولكن إذا وعدتنى بالآ تسخرى منى فسوف
أفسر لك الامر . وقد لا أستطيع بيانه في وضوح وجلاء ،

ولكنى سأجعلك تحسين بما يخالفنى من مشاعر ..

واتخذت مجلسها بجوارى فوق الأريكة ، واكتست
اساربرها لحة من الحزن والاكتئاب ، وسرت الرعدة في يديها

المتشابكتين .. وبعد ان اخذت إلى التفكير العميق
لحظة ، قالت فجأة :

- ألم ترى في نومك احلاما غريبة قط يا نللى ؟

- نعم .. يحدث لى ذلك من حين إلى حين ..

- كذلك انا .. لقد رايت في حياتى احلاما لازمتنى بعد
ذلك دائما ، وغيرت الكثير من آرائى .. بل لقد تمنتج

بى ، وتغفلت في كياتى ، كما يمتزج النبيذ بالماء ، فيتغير لون
تفكيرى .. وهاك واحدا منها .. سوف اقصه عليك ، ولكن

حاذرى من أن تضحكى من أى جزء منه !

فصحت اناطعها : « لا ، لا تفعلى يامس كاثرين .. فلدينا
من اسباب الفزع والكتابة ما يكفيننا دون حاجة إلى استحضار

الاشباح والأرواح لتزيد من كربنا وخبلنا .. هيا عودى إلى
طبيعتك المرححة كعهدى بك دائما .. انظرى إلى هيرتون
الصغير .. انه لا يحلم بشيء مفزع ، وما احلاه وهو يتسم
في نومه ! » .

- نعم .. وما أحلى أباه وهو يسبب ويلمن في وحدته ! ..
أظنك بازلت تذكريه يا نللى عندما كان صورة أخرى من هذا
الصغير السمين ، وفي مثل سنه وبراعته .. ولكن مهما يكن
من أمر يا نللى فسوف أرغبك على الاستماع إلى حلمي .. أنه
ليس طويلا ، كما أنتى الليلة بعيدة كل البعد عن الرغبة في
المرح والانبساط ..

فرحت أردد في عجلة : « كلا .. لن اسمعه ! .. لن
اسمعه ! » .

والواقع أنتى كنت شديدة التعلق بالخرافات والأوهام ،
وما زلت كذلك حتى الآن .. ولقد كانت كاترين في تلك
الليلة في حالة غريبة غير مألوفة من الكتابة والانتقاص جعلتني
أفزع مما قد تقوله فأرى فيه نبوءة مشؤمة ، أو تكن بكارثة
مروعة ! .. وقد تضايقت هن من رفضي الإصغاء إليها ، ولم
تمض في روايتها ، بل تظاهرت بأنها سوف تطرق موضوعا
آخر ، فقالت بعد قليل :

- لو أنتى كنت في السماء يا نللى لكنت شقية نعمة !

- لأنك لست أهلا للذهاب إلى السماء .. فالخاطئون جميعا
يجدون الشقاء والتعاسة في السماء ..

- ليس هذا هو السبب .. لقد حلمت مرة أنتى كنت
هناك !

فقاطعتها ثانية ، صالحة : « قلت لك إننى لا أنوى الإصغاء
إلى أحلامك يا مس كاترين .. سوف أذهب إلى غراشى ! » .

وإذ رأنتى أهم بالنفوس ، تضاحكت وامسكت بي في مكائى
فألتة : « زويدك ، فلن اصابك كثيرا .. كنت فقط أهم بأن
أقول لك إن السماء لا تبدو أنها تصلح لى مقرا وسكنا ..
فقد تمزق قلبي من البكاء كى اعود إلى الأرض حتى غضبت
الملائكة منى غضبا شديدا ، فأخذنى وطوحن بي من السماء
فسقطت في وسط الأحرارح نوق « مرتفعات ويدرنج » ،
وصحوت وأنا أبكى من الفرح .. وهذا وحده يكفى لتفهمى
سرى يا نللى .. فما خلقت للزواج من ادجار لينتون ، كما لم
أخلق لاجد في السماء مقرا لى وسكنا .. ولو أن ذلك المنكود
الشريه - الذى هو أختى - لم يهبط بهينكليف إلى الدرك
الأسفل ، لما فكرت في هذا الزواج .. اما الآن فإن زواجى
من هينكليف يحط من قلدى ويسقط من شأنى ومكانتى ..
لذلك فإنه لن يعرف أبدا كم احبه . وليس حبى له لأنه بهى
العالمة يا نللى ، ولكن لأنه أشبه بى منى ، وأقرب إلى قلبى من
نفسى ! .. ومهما كانت طبيعة الشيء الذى تصنع منه الأرواح ،
فإن روحى وروحه صنعتا من عنصر واحد .. اما لينتون فعلى
خلافنا ، كالفرق بين شعاع القمر والبرق ، أو بين الجليد
والنار ! » .

وقبل أن تفرغ من عبارتها ، احسست بوجود هينكليف
معنا .. فقد لاحظت حركة يسيرة ، فأدرت رأسى ورأيتنه
ينهض من فوق القعد ويتسلل خارجا بغير حس أو صوت .
كان قد ظل يصفى حتى سمع كاترين تقول إن زواجها منه
يحط من قدرها ، فلم يشأ أن يبقى ليستمع المزيد مما تقول ..

وكانت رفيقتي تجلس على الأرض ، وقد حال ظهر الأريكة دون أن تحس بوجوده أو رحيله ، ولكنني اجفقت وصحت اطلب إليها الصمت ..

فسالنتي وهي تتفرس حواليتها في قلق : « لماذا ؟ »

فأجبته ، وقد اسمعتني اصوات عجلات مركبة في الخارج :

- لقد جاء جوزيف ، وسوف يأتي هينكليف إلى هنا معه .. بل إنني لست واثقة من أنه لا يقف عند الباب في هذه اللحظة !

- اوه ! .. إنه لا يستطيع أن يسمعي من وراء الباب .. اعطيني هيرتون ، ريشما تعدين لنا العشاء ، وعندما تفرغين من إعداده فاطلبني إلى أن اتناول عشاءي معك ، لاني أريد أن أخادع ضميري القلق ، واقنع نفسي بأن هينكليف لا يدرك معنى لهذه الأشياء .. إنه لا يدركها يا نللي .. وهو لا يعرف معنى الوقوع في الحب .. اليس كذلك ؟

فقلت في دهشة : « لست أرى سببا يحول دون معرفته له ، كما تعرفينه .. ولو أن قلبه قد وقع اختياره عليك أنت فإنه سوف يفتدو أشقى مخلوق ولدته أنتى على الإطلاق .. وما أن يصبح اسمك « مسز لنتون » حتى يكون قد فقد الصديق ، والحب ، وكل شيء ! .. هل فكرت كيف يمكنك احتمال هذا الفراق ، وكيف يمكن أن يطبق هو احتمالاه ، عندما يجد نفسه منبوذا مهجورا في هذا العالم ؟ »

فقاطعتني وهي تهتف في استنكار : « منبوذا مهجورا ؟ ..

فراق وهجران ؟ .. منذ الذي يستطيع أن يفرق بيننا بالله عليك ؟ إن يحدث ذلك ما دمت حية يا إيلين (١) ! ولن أقدم عليه من أجل مخلوق من البشر ! .. فليمن كل لينتون على وجه الأرض ، وليتلاش ويصبح عدما في عدم ، قبل أن أفكر في حجر هينكليف أو التخلي عنه .. اوه ، كلا .. ليس ذلك ما أنويه ، ولا ما أعنيه .. وما كنت لأصبح مسز لينتون قط لو كان ذلك هو الثمن المنشود .. سوف يظل عندي مثلما كان طول حياته ، ويجب على ادجار أن ينفض عنه كراهيته له ، وبحتم لقاءه ورؤيته على الأقل .. ولسوف يفعل عندما يعلم حقيقة شعوري نحوه .. وها قد رأيت الآن يا نللي أنك كنت تظنينني أنانية لعة .. ولكن ألم يخطر لك قط أنني لو تزوجت من هينكليف فسندغد فقيرين شحاذين ، على حين أنني لو تزوجت من لينتون فسيكون في وسعي أن أعين هينكليف على النهوض ، وأضعه حيث يكون بمنجاة من سطوة أخى وسيطرته ؟ »

- انفعلين ذلك بنقود زوجك يا مس كاترين ؟ .. إنك لن تجديه لين العريكة إلى الحد الذي تعتبين عليه ! .. ثم إنني أعتقد - دون أن يكون من شأنى الحكم على ما تفعلين - أن ذلك أسوأ ما ذكرته من يواعث تدفعك للزواج من لينتون !

فأجابت قائلة : « كلا .. إنه خيرها واقواها . إن الأخرى

(١) « إيلين » ، أو « نيللي » ، أو « مسز دين » ، كلها أسماء لامرأة

كانت لإرضاء اهوائى وإشباع نزوائى ، ومن أجل ادجار ليتتون
ايضا ، لإرضاء رغبته .. واما هذا الباعث فإنه من أجل من
يشتمل ق شخصه على كل مشاعرى نحو ادجار . وعلى انا
نفسى ! .. إننى لا استطيع التعبير عما يدور بخلدى ، ولكن
من المحقق انك ، وكل إنسان آخر ، تعلمين أنه يوجد - او
يسبب ان يكون هناك - كيان آخر لك خارج هيكلك ! .. وإلا
فأية غاشدة كانت من خلقتى إذا كنت بكليتى مسجينة هذا
الجسد ! .. إن اعظم ما لقيت من شقاء وهموم فى هذه الدنيا
إنما هما شقاء هيكليف وهمومه التى كنت أرقب كلا منها
وأحسه وأعيش فيه منذ البداية .. وغاية حياتى ومنتهائها
إنما هى هيكليف نفسه . فلو هلك كل من عداه ، وبقي هو ،
لبقيت انا الأخرى متصلة الكيان والوجود . ولو بقى كل شيء
آخر ، وفنى هو ، لغدا الوجود كله غريبا عنى ، لا أحس بانى
جزء منه ! .. إن حبنى لليتتون أشبه بأوراق الشجر فى الغاية ،
يغيرها الزمن ويغير عليها - وهذا ما أحسه من الآن - كما
يغير الشتاء على أوراق الأشجار .. واما حبنى لهيكليف
فأشبه بتلك الصخور الخالدة تحت الأرض ، قد لا تكون
مصدر بهجة ظاهرة ، ولكنها ضرورية كالأزل ! .. نللى ! ..
إننى هيكليف ! .. وهو أبدا فى عقلى وفى فكورى ، لا كمتعة
او ملهية ، إلا بقدر ما يمكن أن اكون أنا متعة وملهية لنفسى ..
ولكنه كيانى ووجودى نفسه .. فلا نتحدثى عن فراقنا مرة
ثانية لأن ذلك أمر مستحيل الوقوع عمليا .. و .. » .

وكفت عن الحديث بفتة ، وهى تضحى وجهها بين طيات

توبى .. لكنى دفعتها عنى فى غير رفق أو لين ، إذ كان صبرى
قد نفذ من حماقاتها ، وقلت :

- إذا كفت أجد أى معنى فى هرائك هذا يا آنسة ، فإنه
يكفى لإقتناعى بأنك تجهلين كل شيء عن المسئوليات والواجبات
التي يجب ان تضطلمى بها فى الزواج .. او أنك غشاة شريرة
لا خلق لها ولا مبادئ ! .. فأرجو الا تشغلينى بالمزيد من
اسرارك هذه ، لانى لا اعدك بكتمتائها !

فقلت فى لهفة : « وهل تكتمين هذا ؟ »

فعدت أقول : « كلا .. لست اعدك بذلك ايضا ! »

وكانت تهم بالإلحاح على فى الرجاء ، لولا أن دخل جوزيف
فى تلك اللحظة فوضع حدا لحديثنا .. وانتحت كائى ناحية ،
وأخذت هيرتون فى حجرها ، بينما انصرفت انا لإعداد العشاء ،
حتى إذا ما فرغت منه بدأت وجوزيف نتشاحن ابنا بحمل
العشاء إلى مستر هندلى .. فلم ينته شجارنا إلا بعد أن برد
الطعام وعندئذ انفقتنا على أن ننتظر حتى يطلب عشاءه ، إذا
شعر بحاجة إلى الطعام ، إذ كنا جيبعا نرتعد فرقا من لقائه
عندما يكون قد ظل متفردا بنفسه طويلا !

وتلفت جوزيف يبحث عن هيكليف ، ثم قال : « وكيف
لم يعد ذلك الشقى من الحقل بعد ، فى هذه الساعة ؟ ..
ما الذى يفعله ؟ .. لا ريب أنه يتسكع كعادته ! »

فاجبت : « لا ريب انه فى مخزن الفللال ، وسأذهب
لانادبه .. » .

ومضيت أبحث عنه ، وأناديه في كل مكان بالمنزل ،
ولا مجيب .. فلما عدت ، انتحيت بكأثرين وهمست أقول
لها انى والثقة من أنه سمع شطرا كبيرا مما قالته ، ثم ذكرت
لها كيف لمحتنه وهو يفادر المطبخ في اللحظة التي كانت فيها
تشكو سوء معاملة أخيها له ومسلكه القاسي حياله .. فمراعتي
إلا أنها قفزت من مجلسها في فرع شديد ، وألقت بهيرون فوق
الأريكة ، واندفعت إلى الخارج لتبحث عن صديقها بنفسها ،
دون أن تتمهل ريثما تتفكر في سبب هذا الفرع الذي دهمها ،
أو ما عساه يكون قد ساءه من حديثها .. ولقد طال غيابها
حتى أن جوزيف اقترح الا تنتظرهما أكثر من ذلك ، وأشار
في خبت إلى أنهما قد مكثا معا بعيدا حتى لا يسمعا صلواته
الطويلة المسهبة .. وراح يؤكد لى أنهما من سوء الخلق
والنزوع إلى الشر بحيث لا تتوقع منهما مسلكا طيبا ! .. ومن
اجل صلاح نفسيهما ، تطوع في تلك الليلة بصلاة خاصة
أضافها إلى ريع الساعة المعهود من التضرع والابتهال ، الذي
تقضيه عادة أمام الطعام قبل أن تمد إليه يدا .. ولعله كان
خليقا بأن يلضم) فيها صلاة أخرى ، لولا أن اندفعت السيدة
الصغيرة إلى الداخل ، وانقضت عليه تأمره في حزم بان يسرع
بالخروج إلى الطريق ليبحث عن هيثكليف ، أينما كان ، حتى
يجده ويحضره إلى المنزل في الحال .. وأضافت فيما يتتبعه
العويل :

- إننى أريد أن اتحدث إليه حتما قبل أن اصعد إلى
حجرى .. ثم ان البوابة مفتوحة على مصراعها ، ولا بد أنه

في مكان ما بعيد عن مدى السمع ، لأنه لم يجب ندائى برغم
اننى سعدت فوق سطح الحظيرة وجعلت اصيح منادية باسمه
بالعلى ما استطعت من صوت ..

واعترض جوزيف في بادئ الأمر ، ولكنها كانت في حالة
من اللهفة لا تسمح باعتراض مشيئتها .. فما لبث أن وضع
قبعته فوق رأسه ، وسار وهو يغمغم بعبارات السخط
والحنق ، بينما راحت تدرع الأرض ذهابا وحيثا وهي تهتف :

- إننى لأعجب أين هو الآن ؟ .. بل أين يمكن أن يكون ؟!
ما الذى قلته يا تلى ؟ لقد نسيت ! اترينه غضب من سوء
خلقى بعد الظهر ؟ يا إلهى ! .. خبرينى يا عزيزتى ، ما الذى
قلته قاحزته ؟ .. شد ما أود أن يعود ! .. شد ما أود حقاً أن
يعود ثانية !

فصحت بها ، وإن كان القلق قد بدا يتسلل إلى قلبى :

- ما هذه الضجة التي تقيمينها للأشياء ؟ .. أمن أتقه سبب
تفرعين وترتاعين ؟ .. لست أرى مما يثير القلق أن يخرج
هيثكليف لنزهة في الأحراش في ضوء القمر ، أو يدفعه
تجهه المالكوف إلى الاستلقاء بين الدريس دون أن يعنى بالرد
على ندائنا .. أؤكد لك أنه هناك ، وسأريك كيف أخرجه
بنفسى ..

ويادرت بالخروج لأميد الكرة في البحث عنه في كل مكان
خطر ببالي ، ولكن بحثى لم يسفر عن أية ثمرة ، كما أن بحث
جوزيف انتهى إلى النتيجة ذاتها ، إذ عاد وهو يهدر قاللا :

- ان هذا الفتى لن ينصلح حاله قط .. ولقد ترك البوابة مفتوحة فخرج مهر الأنسة وحطم سفين من عيدان القمع ، وانطلق عبر الحقل إلى الأحراش .. والله إن السيد سوف يشير الشياطين في الصباح ، وحسنا يفعل .. فقد طال صبره حتى غدا ضعفا وخورا .. ولكن للصبر نهاية ، وسوف ترون عاقبة أفعالكم هذه ؟

فقاطعه كالترين :

- هل وجدت هينكليف يا حصار ! وهل بحثت عنه كما أمرتك ؟

- كان الأولي أن أبحث عن المهر ، فذاك خير واجدى ! .. ولكنني لا أستطيع البحث عن حصان أو إنسان في هذه الليلة المظلمة التي تشبه سواد المدخنة ! .. ثم إن هينكليف إن يجيب ندائي ، وكان الأولي أن يلبي نداءك انت !

والحق أنها كانت ليلة حالكة السواد بالنسبة لليالى الصيف ، وكانت السحب تتجمع وتندثر بقصف الرعد وهطول المطر ، فقلت انه يجدر بنا أن نجلس جميعا فان العاصفة القترية خليفة بأن تعيده إلى المنزل ، دون مزيد من العناء أو القلق .. غير اننى لم أستطع إقناع كالترين بالهدوء ، فقلت قلقة ، تروح وتغدو بين باب المطبخ والبوابة الخارجية في حالة من الاضطراب والهباج لا تدع مجالا لأية راحة أو هدوء .. وما لبثت ان اتخذت لها مكانا ثابتا عند طرف السور بالقرب من الطريق ، حيث اقامت هناك غير عابئة باعتراضى المتوالى ، ولا بالرعد القاصف ، بل ولا بقطرات المطر الكبيرة التي مدت نهطل

حولها ، وهى تنادى على هينكليف بين الفيئة والفيئة ، وتنصت لعله يجيب النداء ، ثم تنفجر باكية صائحة من جديد .. وكانت عندما تعثر بها نوبات البكاء والصياح ، تفوق هيرتون أو أى طفل آخر ، في هذا المضمار ..

وقبيل منتصف الليل ، وفيما نحن نجلس على هذه الحال ، انطلقت شياطين العاصفة من عقابها ، واثت تهدر فوق « المرتفعات » في عنفوان قوتها وشدها . وكانت الرياح تزمجر كالذئاب الجائعة ، والرعد يقصف كأن السماء توشك أن تنقض على الأرض ، واطارت العاصفة شجرة عند ركن الدار ، فسقط غصن غليظ منها فوق السطح ، وحطم جزءا من المدخنة الشرقية ، فتهافت الأحجار والانقاض في هدير مروع داخل موقد المطبخ حتى خلفنا أن ساعة قد انقضت بيننا ، وأسرع جوزيف يجتو على ركبتيه ويبتهل إلى الله ان يذكر عبديه الصالحين « نوحا » و « لوطا » ، وأن يقى عباده الأبرار من الهلاك ، ويقصر الدمار والفتاء على الكفرة والأشرار .. وأحسست بهاتف خفى يهجس في نفسى بأن اللمنة ستخيق بنا جميعا ، وان « يونان »^(١) المنحوس ليس إلا مستر ايرنشو نفسه ! .. وعندئذ مضيت أحرك مقبض باب الوكر الذى يأوى إليه ، لانهحقق مما إذا كان لا يزال على قيد الحياة ، فاجابنا في صوت عال ، وفي الفاظ جعلت جوزيف بصيح ويصخب بأكثر مما كان يفعل من قبل ، ويبتهل إلى الله ان

(١) « يونان » في الإنجيل يقابل « يونس » في القرآن .

يفرق بين القديسين أمثاله ، والخاطئين أمثال سيده ! . ولكن العاصفة انقضت بعد زهاء عشرين دقيقة وخلفتنا جميعا بغير سوء ، فيها عدا كاثي التي ابتلت ثيابها جميعا من جراء عنادها ورفضها الاتجاه إلى الداخل ، ووقوفها عارية الرأس بغير دنار فوق ثيابها حتى قاض شعرها وثيابها بأكبر قدر من الماء .. وأخيرا أتت إلى المطبخ ، فألقت بنفسها فوق الأريكة بثيابها المبتلة وأدارت رأسها إلى المسند وهي تخفى وجهها بين يديها ..

فتبقت أقول وأنا المس كتفتها بيدي :

- حسنا يا آنسة ! .. أترك موكلة بأن تجلبى لنفسك الموت ؟ .. وهل تعرفين كم الساعة الآن ؟ .. إنها النصف بعد منتصف الليل . تعالي ، تعالي إلى فراشك ، فليس ثمة جدوى من بقائك بعد ذلك في انتظار ذلك الفتى الطائش المعتوه ، فلعله قد ذهب إلى (جيمرتون) وبقي بها إلى الآن .. ولعله حدس أننا لن نبقي في انتظاره حتى هذا الوقت المتأخر ، وحدس أن مستر هندلي هو وحده الذي قد يكون ساهرا ، فأراد أن يتحاشى لقاءه إذا فتح له الباب ..

فقال جوزيف : « كلا .. كلا ، إنه لم يذهب إلى (جيمرتون) . ولست أعجب إذا كان الآن في قاع حفرة مليئة بالوحل ! .. فثلك المحنة التي أبتلانا بها الله لا تذهب عينا .. ولو أنك ذهبت وراءه ياآنسة لكتت الفريسة التالية ! .. هل تعرفين ما تقول التوراة ؟ » .

ثم بدا يتلو علينا الآيات وبرشدنا إلى مواضعها بين النصوص



فيما عدا كاثي التي ابتلت ثيابها جميعا من جراء عنادها ورفضها الاتجاه إلى الداخل ، ووقوفها عارية الرأس بغير دنار فوق ثيابها ..

حيث يمكن ان نجدها .. وإذ ذهبت توسلاتي لنلك البنت العنيدة بان تمهض وتستبدل ثيابها المبللة - عشا ، تركت احدهما يتلو عظامه وصلواته ، والأخرى ترتعد من فرط البرد ، ومضيت إلى فراشي حاملة هيرتون الصغير الذى سرعان ما استغرق فى النوم .. ولبتت برهة اسمع صوت جوزيف وهو يتابع ابتهالاه ، ثم سمعت وقع اقدامه فى الدرج ، قبل ان يغلبنى النعاس وأروح فى نوم عميق ..

فلما نزلت إلى المطبخ فى الصباح ، متأخرة عن موعدى المعتاد قليلا ، رايت - على ضوء أشعة الشمس التى كانت تخترق فتحات النافذة - مس كاثرين لاتزال جالسة بجوار المدفأة التى خبت نيرانها . وكان الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس منفرجا والضوء يغمرها من النافذة المفتوحة .. وكان هندلى قد خرج من الحجرة ووقف بجوار مدفأة المطبخ ، شاحب الوجه مثل العيينين بالنعاس .. وكان يقول لها عندما دخلت :

- ماذا بك يا كاثي ؟ .. إنك تبدين فى حالة برئى لها ، كجبرو غريق .. لماذا اراك شاحبة الوجه مبللة الثياب يا صغيرتى ؟

فأجابته فى إحجام وتخاذل :

- لقد أبطلت ثيابي ، وشعرت بالبرد .. هذا كل شيء .. فلم أتمالك نفسى من القول ، إذ رايت السيد وقد اتفق من سكره : « آه ! انها فتاة شريفة .. لقد تركت وابل المطر ليلة أمس يفرقها ثم جلست الليل بطوله هنا ولم أستطع التأثير عليها كى تذهب إلى فراشها او تتحرك من مكانها .. »

فراح مستر أبرنشو يحدق البصر إلينا جميعا فى دهشة ، وما لبث ان قال : « الليل بطوله ؟ .. وما الذى ابقاها مستيقظة حتى الآن ؟ .. إنه ليس الخوف من الرعد طبعاً ، فقد اتقضى ذلك منذ ساعات طويلة ؟ »

فلم يشأ احد منا ان يذكر شيئا عن غياب هيثكليف ، طالما كان فى وسعنا ان نخفيه .. وهكذا قلت إتنى لا أدري ما الذى تبث فى رأسها كى تظل جالسة ساهرة ، كما انها لم تقل شيئا البتة . وكان الجو جميلا والصبح مشرقا ، فدفعت مصاريع النافذة وسرعان ما امتلا المكان بشذى الزهور المنبعث من الحديقة ، غير ان كاثرين صاحت بى فى حقن :

- اغلقى النافذة باليلين ، فاني أموت من البرد !

واخذت اسنانها تصطك وبدنها يرتعد ، وهى تقترب من رماد الثيران الخابية ، فامسك أخوها برسفها ، وصاح : « انها مريضة ! .. واحسب ان ذلك هو السبب فى عدم ذهابها إلى الفراش . يا للشيطان ! إتنى لا أريد ان تنغصوا حياتي بالمزيد من المرض هنا ! .. ما الذى جعلك تخرجين فى المطر بحق السماء ؟ »

فانبرى جوزيف ، وقد سنحت له الفرصة - بعد ان رأى ترددنا - لينفث سموم لسانه ، قال :

- الجرى وراء الثيان كالعادة ! .. ولو كنت فى مكان ايها السيد لنزلت على وجوههم واقفيتهم صغعا ، السادة منهم والصعاليك ! .. فما من يوم تخرج فيه من المنزل حتى يحضر لينتون الشاب ليشكك هنا . اما مس نلى فهى فتاة

رقيقة الشعور ! .. إنها تجلس في المطبخ تنرقب حضورك من النافذة ، لتندرها بعد ذلك ، فما ان تدخل من باب حتى يتسلل لينتون من الباب الآخر ، وبعد ذلك تمشي سيدتنا العظيمة في الغزل من جديد على طريقتهما ! .. هل ترى من آداب السلوك ان تذهب لتجوب في الحقول بعد منتصف الليل مع ذلك الوغد لسيل الشياطين والفجر ، هيكليف ؟ .. إنهم يظنونني أعمى لا أرى شيئا ، ولكني لست كذلك ! .. لقد رأيت لينتون الشاب وهو يأتي ويذهب . ورأيتك أنت ، (وهنا تفضل بتوجيه الكلام لى :) أنت أيتها الفتاة الضالة التي لا تصلح لشيء ، تنهضين فجأة وتسرعين إلى حجرة الجلوس في اللحظة التي تسمعين فيها وقع حوافر جواد السيد في اول الطريق !

فسأحت كاثرين : « أصمت أيها النمام الدساس ! .. ولا تزد من قحتك وسلطنة لسانك أمامي .. لقد حضر اذجار لينتون أمس يا هيندلي مصادفة ، وكنت انا التي طلبت إليه الانصراف لأنني أعلم أنك ما كنت تود ان تلقاه في الحالة التي كنت فيها .. »

فاجاب أخوها : « بل أنت تكذابين يا كاثي ، لا شك في ذلك . ثم إنك بلهاء لعينة ! .. ولكن دعيتنا من لينتون الآن ، وأخبريني ألم تكوني مع هيكليف ليلة أمس ؟ .. قولي الحقيقة الآن ، ولا حاجة بك إلى الخوف من إيدائه . فعلى الرغم من أنني أكرهه الآن أكثر من أي وقت مضى ، إلا أنه أسدى إلى صنيعا لا أستطيع تجاهله ، منذ وقت قصير ، بحيث لا يطاوعني ضميري على أن ادق عنقه .. ولكي أحول دون ذلك فسوف

أطرده اليوم ، بل هذا الصباح بالذات . وعندما يذهب فإني انصحكم جميعا بأن تفتحوا أعينكم جيدا وإلا كان لكم عندي الجزاء الأوفى ! » .

قيدات كاثرين تنشج في مرارة وتقول :

— ما رأيت هيكليف ليلة أمس قط .. وإذا طرده من هنا فسوف أذهب معه ، ولكن مهلا ، لملك لن تستمتع بهذه الفرصة قط . لعله ذهب من تلقاء نفسه !

ثم انفجرت في نوبة من البكاء المرير والحزن الدافق حتى غدت كلماتها الأخيرة غير واضحة أو مفهومة .. وعندئذ راح أخوها يصب عليها وابلا من الالفاظ القارصة والعبارات القاسية ، وأمرها بأن تذهب إلى حجرتها في الحال ، وإلا أذاقها ما يجعل ليكاتها سببا . وأرغمعتها على الطساعة ، ولن أنسى ما حيينت الحالة المروعة التي كانت فيها عندما أوتينا إلى حجرتها ، حتى تملكني الرعب والفرع ، وحسبتها قد أصيبت بالجنون ، فأسرعت أرجو جوزيف أن يبادر إلى طلب الطبيب ، لأنني وجدتها تهذي بكلام غير مفهوم كهذيان المحموم .. وما كاد مستر كينيث يراها حتى قرر أنها مصابة بحمى ، وأن حالتها بالغة السوء إلى حد خطير ، ثم فصدها وأمرني بأن يقتصر غذاؤها على اللبن المخضوض وثرديد المساء ، وأن نرقبها بأعين مفتوحة حتى لا تلقى بنفسها من النافذة أو من الدرج ، وما لبث ان بارحنا لكثرة عمله في تلك الانحاء التي لا تقل المسافة فيها بين كوخ وآخر عن ميلين أو ثلاثة ..

ولست أزعم أنني كنت لها ممرضة رقيقة حانية ، كذلك

لم يكن جوزيف والسيد بخير مئى في هذا المضمار .. وعلى الرغم من ذلك ، ومن ان مريضتنا كانت متعبة عنيدة صلبة الرأي . فاتها اجتازت مرحلة الخطر بسلام . وقد زارتنا مسز لينتون العجوز مرارا عدة ، وكانت لا تفتأ توجهنا وترشدنا ، بل وتوجه إلينا اليوم والتعريع إذا لمحت علينا تراخيا أو تقصيرا ، حتى إذا ما بدأت كاثرتين مرحلة الفقاها أمرت على أن تأخذها إلى منزلها في (لرشكروس جراتج) لنستكمل هناك أسباب الشفاء والصحة .. ومك شكرنا للسيدة الكريمة أن خلصتنا من متاعب كاثي ومضايقاتها ، غير أن المسكينة دفعت ثمن شفقتها وحنانها غاليا ، فقد انتقلت عدوى الحمى إليها وإلى زوجها ، وما لبثا أن قضيا نحبهما وبين أحدهما والآخر أيام قلائل !

وعادت إلينا سيدتنا الصغيرة أشد قحة واحد طبعها واغظم تعالبا وفطرسة معا كانت عليه قط من قبل .. ولم تكن قد سمعنا شيئا البتة عن هيكليف منذ اختفائه ليلة العاصفة ، فكان من سوء طالعى ذات يوم ، وقد انارنى بفعالها حتى لم أعد املك زمام نفسى ، ان القيت عليها وحدها تبعة اختفائه . وكانت تعرف هذه الحقيقة تماما ، ولكنها اتفت أن يواجهها احد بها . ومنذ ذلك اليوم ، ولعدة شهور بعد ذلك ، تباعدت عنى ولم تعد تتصل بى على اى وجه إلا لتصدر لى امرأ ، شأنى في ذلك شأن ابة خادمه عادية .. ووقع جوزيف كذلك تحت طائلة غضبها ، وكان يود أن يقول لها كل ما يحصل بخامله ، وان يلتقى على مسامعها عظامه كأنها لا تزال بنتا صغيرة ، ولكنها كانت تعتبر نفسها امرأة ، وترى نفسها

سيدتنا ، وتخال من حقها بعد مرضها الأخير ان تلقى منا كل احترام وإجلال . وكان الطبيب قد قرر ان حالتها لا تحتمل المعارضة أو الإنارة ، وأنها يجب أن تنفذ مشيئتها ورغباتها بغير تردد ، فإن اجترأ احد على الوقوف امامها واعتراضه لها كان في عينها لا يقل عن القتل ! .. وكانت تتحاشى أخاها ورفاقه ، بينما كان هو ، مدفوعا بما سمعه من الدكتور كينيث ، وبخشيتيه من العواقب الخطيرة التى قد تصيبها إذا ما استبد بها الغضب ، قد ترك لها الحبل على الغارب ، وأخذ يلبي كل رغباتها ، أبا كانت ، ويشأى عن كل ما يثير مزاجها التارى الجبوح . بل لقد كان مقرطا في التسامح معها ، معمنا في إرضاء نزواتها واهوائها ، لا عن حب حقيقى أو عاطفة اخوية صادقة ، بل عن زهو وكبرياء ، إذ كان يدوب لهفة على أن تتشرف العائلة بمصاهرة آل لينتون .. وما دامت تدعه وشأنه فلها ان تدوس على أعناقنا كالعبيد ، فما يعنيه من ذلك شيء ! .. وكان ادجار لينتون ، كالكثيرين ممن سبقوه ومنم سيأتون بعده ، مفتونا ذاهب اللب بمعبودته ، وحسب نفسه أسعد رجل حملته الأرض ، في اليوم الذى قادها فيه إلى هيكل كنيسة جيمرتون ، بعد وفاة والده بثلاثة أعوام .

زارفت - على غير ما كنت أهوى وأحب - على مفادرة (مرغعات ويدرنج) ومصاحبة كاثرتين إلى هنا ، منذ كان هيرثون الصغير قد بلغ الخامسة من عمره ، وبدأت أعلمه مبادئ الهجاء . وكان فراقنا اليما ، ولكن دموع كاثرتين كانت

اقوى من دموعنا . وعندما رفضت الذهاب معها ، ووجدت أن توسلاتها لم تجد نفعا معي ، ذهبت تشكو لزوجها وأخيها ، فأمراني الأول بالمزيد من الأجر ، على حين أمرني الثاني بأن أحزم متاعى وأتأهباً لمغادرة البيت ، لانه لا يريد نساء في منزله بعد أن خلا من سيده . وقال عن هيرتون إنه سيكفل أمر رعايته وتهديبه إلى القس . وهكذا لم يعد أمامي غير سبيل واحد للاختيار ، وهو أن أتفد ما أمرت به ، وأرافتها . ولقد قلت للسيد قبل انصرافي إنه إنما أراد الخلاص من كل ذى حياء أو خلق قويم في المنزل ، حتى يطلق لنزواته العنان ، ويمضى نحو الدمار من أسرع طريق .. ثم قلت هيرتون وودعته ، ومنذ ذلك اليوم أضحي بالنسبة لى غريباً بكل معنى الكلمة . وقد يبدو ذلك أمراً عجيباً ، ولكنى لا أشك البتة في أنه قد نسي كل شيء عن « ايلين دين » ، تلك التي كان لها - كما كانت له - كل شيء في هذا العالم ! .

وعند هذا القدر من الحديث حانت من مدبرة المنزل نفلة نحو الساعة الموضوعه فوق رف المدفأة ، فذهلت إذ وجدتها قد بلغت الواحدة والنصف ، ونهضت من مجلسها دون أن ترضى بالبقاء ثانية واحدة بعد ذلك . والحق انى كنت انا نفسى ميالا إلى تأجيل متابعة القصة إلى وقت آخر .. ولبتت بعد أن تركت الحجرة جالسا أفكر فيما سمعت ، ساعة أو اثنتين ، استجعت بعدها شجاعتى للذهاب إلى الفراش ، برغم ذلك الخدر الموجه الذى كان يسرى في رأسى وأطراقى ..

الفصل العاشر

لعمري كانت الأيام التالية خير تمهيد لمن ينشد حياة النكس والوحدة والعزلة .. أربعة اسابيع فضيتها بين الآلام ، والسعال ، والمرض . وبين هذه الرياح الباردة القارسة ، وهذه السماء المقيضة الموحشة ، وتلك الطرقات التي لا يمكن لأحد عبورها ، ثم أطباء الريف الكسالى .. حتى سئمت هذا الحرمان المطلق من رؤية وجوه البشر ، ولكن الاسوا من كل هذا وذاك إنما كان ذلك الإنذار المروع الذى وجهه لى كينيث بالا أتوقع مغادرة الدار قبل حلول الربيع !

وكان مستر هيشكليف قد شرفنى بزيارته ، بعد أن كان قد ارسل لى منذ سبعة أيام زوجا من بط المستنقعات ، وكنا فى آخر موسم سيده . ياله من وفد ! .. الا يعلم انه ليس بريثا من مرضى هذا آ .. لكم كنت اود أن أجابهه بذلك سراحة ، ولكن والسقاء ! .. كيف كان يسعنى أن أسىء إلى رجل كان من الكرم بحيث جلس بجوار فراشى ساعة كاملة تحدث فيها عن كل شيء إلا عن الحبوب والجرعات والنفطات ودود العلق ! .. ولكنى الآن أحسن حالا ، وأجتاز فترة تحسنت فيها كثيرا عن ذى قبل . وإذا كان الضعف قد بلغ منى حدا يحول بينى وبين القراءة ، إلا اننى أجد نفسى قادرا على الاستمتاع بشيء يسيل يذهب عنى هذه الوحشة التي أعانيها .. فلماذا لا ادعو مسز دين لتتم حكايتها ؟ .. إننى مازلت اذكر حوادنها الهامة إلى القدر الذى قصته على منها .

نعم ، اذكر ان البطل قد اختفى عن العيان ، فلم يسمع عنه احد طيلة اعوام ثلاثة .. وان البطلة قد تزوجت .. سوف ادق الجرس لادعوها ، وستمر إذ ترانى قادرا على الاستمتاع بحديث طلى .

واتت مسز دين ، فبدات تقول :

- ما زال باقيا على موعد الدواء عشرون دقيقة يا سيدى ..
- بعدا للدواء وسحقا ! .. إنما أحب ان ..

- ولكن الطبيب يقول إنه يجب عليك ان تتناول هذه المساحيق ..

- من كل قلبى يا مسز دين .. ولكن لا تقاطعنى ! ..
تعالى واجلسى هنا . وابدئى اصابعك عن هذه الشرذمة من القناني والزجاجات ، واخرجى من جيبك معدات الحياكة . احسنت ! .. والان امضى قدما فى رواية قصة مستر هيثكليف من حيث وقعت ، إلى يومنا هذا . اترينه قد اتم دراسته فى أوروبا وعاد سيدا مهذبا ؟ .. ام نال درجة من الجامعة ؟ .. ام فر إلى امريكا واكتسب ثروته من سفك الدماء فى يده الاصلى ؟ .. ام لعله نالها من قطع الطريق بجبال إنجلترا ؟

- ربما كان قد مارس شيئا من ذلك كله يا مستر لو كود ، ولكنى لا استطيع الجزم بابها كان مصدر ثرائه .. وقد قلت قبل ذلك إننى لا ادرى كيف جمع ثروته ، كذلك لست ادرى شيئا عن الوسائل التى ساعدت بها نقوده فى ترقية مداركه من ذلك الجهل الوحشى الذى كان متردبا فيه . ومهما يكن

من امر فىنى أرجو ان تاذن لى بمتابعة القصة على طريقتى ، إذا رايت انها سوف تسليك ولا تثقل عليك .. وبهذه المناسبة ، هل تشعر اليوم بانك احسن حالا ؟

- كثيرا ..

- هذه انباء سارة ..

وانخذت مسز دين مجلسها امامى ، ثم مضت تتابع قصتها :

« صحبت مسز كاترين إلى (ترشكروس جرانج) ، وتم شعرت بارتياح ورضى لما اصبحت به من خيبة امل ، إذ رايتها تسلك مسلكا رائعا ، خيرا بكثير مما كنت اتوقع .. كانت تبدو موالمة اشد الولوج بمستر لينتون ، كما كانت تحوط شقيقته بكل ضروب الود والانعطاف . وكانا كلاهما يعيان اشد العناية بتوفير اسباب الراحة لها ورعايتها ، والبعد عن كل ما يعكر صفوها . لم تكن الشوكة هى التى تنحنى لتفسح الطريق امام زهور اللبلاب المتسلقة ، وإنما كانت الزهور هى التى تحتضن الشوكة وتعانقها وتدور من حولها ! .. ولم تكن تنشأ بينها وبينها مواقف فيها شد وإرخاء ، او تسلط وإذعان . وإنما كانت تقف مكانها منتصبة القائمة ، وكانا هما اللذان يخضعان ويلينان .. ومن ذا الذى يمكن ان يكون حاد الطبع سيء الخلق متى كان لا يلقى معارضة او استخفافا ؟ .. ولقد لاحظت ان مستر لينتون كان ينطوى على خوف عميق من تكدير صفوها او تعكير مزاجها .. وكان يخفى عنها شعوره هذا ، ولكنه ما ان يراى اود عليها فى حدة ، او يرى احدا

من الخدم الآخرين يظهر امتعاضا من صرامة أوامرهما ، حتى يعلو وجهه تعقيب الاستياء ، وهو شيء ما كان يحدث له لو أن الأمر كان خاصا به . وكثيرا ما خاطبني ، عابسا متجهما ، عن حدة لساني وسلطتي معها ، قائلا إن طعنات السكين ما كانت لتسبب له المأساة مما يقاسيه عندما يرى زوجته متكدرة أو مغيظة .. وإذ كنت لا أريد أن أسوء إلى سيد كريم مثله ، فقد رضت نفسي على أن أكون أكثر تسامحا .. وهكذا ظللنا أكثر من ستة شهور والبارود ملقى مكانه كأنه رمل لا خطر فيه ولا ضرر منه ، إذ لم تكن نعمة نار تقترب منه لتشمعه وتفجسه . وكانت تعترى كاثرين ، بين آن وآخر ، فترات من الكتابة والصمت ، فكان زوجها يحترمها في عطف سامت ، ويعزو ذلك إلى التغيير الذي أحدثته في كيانها ذلك المرض الخطير الذي أصابها ، إذ لم تكن قط قبله عرصة لمثل هذا الانتباض والكتابة .. وكان انبثاق الفجر وإشراق الشمس من جديد يقابلهما إشراق واستجابة من ناحيته .. وأحسب أن بوسعي أن أؤكد أنهما كانا يتقاسمان سعادة عميقة متزايدة ..

ثم انتهى كل شيء .. حسنا ! .. لابد لنا من أن نظهر حقيقتنا في النهاية .. كما أن البسطاء الكرام لا يفلون أمانة واثرة عن المسيطرين التسلطين . وقد انتهى كل شيء عندما سببت الأحداث لكل منهما أن يشعر بأن مصلحة أحدهما ليست صاحبة المقام الأول في تفكير الآخر وخوابره ! .. ففى مساء يوم غليل الهواء من شهر سبتمبر ، كنت قادمة

من البستان أحمل سلة ثقيلة ملأى بشمار التفاح التي جنيتها . وكان الليل قد أرخى سدوله ، والقمر يطل من فوق سور الفناء فيرسل أشباحا غامضة تتراقص في جنبات المبنى المنعددة . ووضعت حملي على درجات السلم بجانب داب المطبخ الخلفي ، ثم تمهلت لانتقظ انفاسي اللاهثة ، واستنشقت الهواء العليل الرقيق ، وقد استقبلت القمر بوجهي وادرت ظهري ناحية المطبخ ، وإذا بي أسمع صوتا يقول من خلفي :
— أهذه أنت يا نللي ؟

كان صوتا عميقا ، في نبراته لكثة غريبة ، ومع ذلك كان في الطريقة التي نطق بها باسمي شيء جعله يبدو مألوفا لي .. فاستدرت مجفلة لأرى المتكلم ، وقد غمرني الخوف ، إذ كانت الأبواب مغلقة ، ولم أكن قد لمحت أحدا عند اخترابي من الدار .. وإذا بشيء يتحرك في الظلام عند ركن الباب ، فاستطعت أن أتبين رجلا طويل القامة يرتدى ثيابا قاتمة . أسمر الوجه أسود الشعر . واقترب المجهول فاستند إلى الجدار بجوار الباب ومد يده يتحسس الرقاع بأصابعه كأنها بهم يفتح الباب بنفسه ، فقلت في نفسي : « ترى من يكون ؟ مستر إيرنشو ؟ ولكن لا .. فهذا الصوت لا يشبه صوته » . واستطرد الغريب يقول ، بينما كنت لا أزال أحملق فيه مدهوشة :

— لقد انتظرت هنا ساعة كاملة ، كان السكون يرين فوق المكان خلالها ، أشبه بصمت القبور ، فلم أجرؤ على الدخول . ولكن ألم تعرفيني ؟ .. انظري . إنني لست غريبا عنك !

ومال إلى الامام فسقط شعاع فوق وجهه ، ورايت وجنتين
غائرتين تغطى معظمهما سوائف من الشعر الحالك السواد ،
كما رايت حاجبين كثيفين ، وعينين عميقتين يسع منهما بريق
عجيب . وعندئذ ذكرت العينين ، فلم ادر هل صاحبها شبح
من الاشباح يتراءى لي ، ام إنسان من اهل الدنيا ، ورفعت
يدي في دهشة ، هاتفة :

— ماذا ؟ .. هل عدت ثانية ؟ .. اهذا انت حقا ؟

فاجابني وهو يرفع بصره مني إلى النوافذ التي كانت
تعكس آلاف من اشعة القمر المتكسرة دون ان يبدو ضوء
بداخلها :

— نعم .. هيثكليف ! .. ولكن اما من احد منهم هنا ؟ ..
اين هي ؟ .. انك لا تبدين مسرورة لرؤيتي يا نللي ! .. ولكن
لا حاجة بك لهذا الاضطراب .. اهي هنا ؟ تكلمي .. فاني
اريد ان اتول كلمة واحدة لها .. لسيدتك .. اذهبي
واخبريها ان شخصا من (جيمرتون) يرغب في ان يراها !

فتفتت قائلة : « وكيف تتلقى النبا ؟ .. وماذا تراها فاعلة ؟
.. إن هذه المفاجأة تحيرني وتشل حواسي ، فسوف يطير
صوابها . وانت هيثكليف بعينك ، ولكنك تغيرت كثيرا .
كلا ، لست افهم ما حل بك ، فهل كنت في الجندية ؟ »

فقاطعتني في صبر نافذ ، قائلة :

— اذهبي وبلغي رسالتي ، فاني على احر من الجمر حتى
تفعلي !



فاستظمت ان اتبين رجلا طويل القامة برؤدى ثيابا قاتمة ،
اسر الوجه اسود الشعر .

ثم مد يده ورفع المزلاج ، فدخلت إلى المنزل .. ولكني ما كدت أشرف على حجرة الجلوس ، حيث كان يجلس مستر ومسز لينتون ، حتى لم أجد في نفسي ميلا إلى التقدم خطوة أخرى . وأخيرا عزم على أن اتعلم بسؤالهما عما إذا كانا يرغبان في إضاءة الشموع ، وعندئذ فتحت الباب ..

كانا وقتئذ يجلسان معا إلى جوار نافذة عريضة مفتوحة على مصراعها ، وقد اكتشف امامهما - وراء اشجار الحديقة الباسقة وخضرة البستان المترامي الاطراف - وادي جيمرتون وقد جلله خط طويل من الضباب يتلوى معه حتى يوشك ان يصل إلى قمته (ولعلك لاحظت انك لا تكاد تجتاز الكتيبة الصغيرة حتى يكون الماء الذي ينشع من المستنقعات قد اتصل بنهيرات صغيرة تجرى مع انحناءات الاخاديد المتعددة) .. وكانت (مرتفعات ويلدرنج) تعلو فوق ذلك الضباب الغضى ، ولكن منزلنا القديم لم يكن ظاهرا للعيان ، إذ انه ينحدر نحو الجانب الآخر من الجبل . وكانت الحجرة ، والجالسان فيها ، والمنظر الساحر الذي يتأملانه ، تسبح جميعا في سلام عجيب ، حتى لقد احجمت - فائرة - عن اداء مهمتي ، واوشكت ان اغادر المكان دون ان ابغ رسالتى ، مكتفية بسؤالى عن إضاءة الشموع ، عندما دفعنى التزق إلى ان اعود ، قائلة :

- هنا شخص من جيمرتون يريد ان يتحدث إليك
يا سيدتى ..

فقلت مسز لينتون : « ما الذى يريده ؟ »

فاجبت : « إننى لم أسأله .. » .

- حسنا . اسدلى الستائر يا نللى ، واحضرى لنا الشاي .. وسوف اعود في الحال .

وغادرت الحجرة ، فسألنى مستر ادجار في غير اكرات عن كون يكون هذا الشخص ، فقلت : « إنه شخص لا تتوقع سيدتى رؤيته .. فهو ذلك المدعو هيثكليف .. ولعلك تذكره يا سيدى فقد كان يعيش في منزل مستر ايرنشو .. » .

فصاح في حدة : « ماذا ؟ .. ذلك الغلام العجربى الذى كان يعمل في الحقل ؟ .. ولماذا لم تقولى ذلك لكاثرين ؟ » .

- مهلا يا سيدى ، فما يجدر بك ان تمنعه بهذه الصفات ، وإلا اضناها الأسى لسماحك .. فقد كاد قلبها يتحطم عندما رحل فجأة ، واحسب ان عودته ستكون عيدا بالنسبة لها ..

فسار مستر لينتون إلى نافذة في الناحية الأخرى من الحجرة تشرف على القناء ، ففتحها وانحنى يطل منها .. واعتقد انه رآهبا تحته ، إذ أسرع بهتف قائلا : « لا تقفى هنا يا حبيبتى ، بل ادخلى الشخص إذا كنت تعرفينه ! » .

وما هى إلا لحظة حتى سمعت صرير المزلاج ، ورايت كاثرين ترقى الدرج في عجلة شديدة ، مبهورة الأنفاس ، وقد استبد بها الانفعال بحيث كاد يخفى فرحتها .. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إنك لو رايت وجهها وقتئذ لحسبت ان كارثة رهيبه قد حلت بها !

واسرعت تطوق عنق زوجها وهى تقول لأهشة : « أوه

يا اذجار . يا حبيبي اذجار .. لقد عاد هيثكليف ! .. لقد عاد حقا ! »

وراحت في غمرة انفعالها تشدد الضغط حول عنق زوجها الذى صاح عابسا : « حسنا ، حسنا . ولكن لا تخفني لهذا السبب ! .. إنه لم يبد لي قط كئزا شينا إلى هذا القدر ، ولا حاجة بك إلى كل هذا الفرح الجنونى ! »

خففت قلبلا من غزارة فرحتها وقالت : « أعلم أنك ما احببته قط ، ولكن يجب الآن أن تكونا صديقين ، من أجل خاطرى . هل ادعوه إلى الصعود ؟ »

- هنا ؟ .. فى حجرة الجلوس ؟

- وأين إذن ؟

فلاح عليه الضيق والحرص ، وغمغم قائلا إن المطبخ هو البق مكان به .. ولكن مسز لينتون رمتته بنظرة غريبة ، تحمل من الغضب مثلما تحمل من السخرية بزمته ، وما لبثت أن استطردت تقول :

- كلا .. فلست استطيع الجلوس فى المطبخ ، ولكن اعدى مائنتين هنا يا نللى ، إحداها لسيدك ومس ايزابلا ، إذ هما من طبقة السراة والخاصة ، والأخرى لى ولهيثكليف ، فنحن من الطبقة الدنيا ! .. ابرضيك هذا باعزى ؟ .. أم تفضل أن نوقد مدفأة اخرى لنا ؟ إذا شئت ذلك فأرجو أن تصتر امرك لتنفيذة ! .. أما أنا فسوف اهرع لاحتنفى بضيئى .. آه ! .. كم أخشى أن يكون سرورى من الغزارة بحيث لا يكون حقيقة واقعة !

وهبت بأن تندفع خارجة من الحجرة ، ولكن اذجار أمسك بها ، وقال لى : « اذهبى انت فاطلبى إليه ان يصعد . وانت يا كاترين ، حاولى أن تكونى مسرورة دون أن يبلغ بك الامر إلى حد السخف .. ولا حاجة بك لأن تشهد خدم الدار مناظر حقاوتك بخادم هارب كأنه شقيق لك ! »

فنزلت ووجدت هيثكليف ينتظر عند الباب ، متوقعا دعوته إلى الدخول .. وتبعنى دون أن يضع وقته فى المزيد من الكلام ، حتى قدته إلى حضرة السيد والسيدة ، التى كان تورد وجنتها يتم عما سمعته من قوارص الكلم .. ولكن وجنتى السيدة توهجتا تحت تأثير شعور آخر عندما ظهر صديقها عند الباب ، وولبت من مكانها متقدمة نحوه ، فتناولت كلتا يديه ، وقادته إلى حيث كان يقف زوجها ، ثم أمسكت بأصابع مستر لينتون المترددة الناكسة ، ودفعتها إلى يد هيثكليف . وقد ذهلت عندما سقط ضوء الشموع ووهج النار على وجه هيثكليف وقوامه فكشف عن مدى التغير الذى حل به . كان قد أصبح رجلا فارع الطول رياضيا ممشوق القوام ، بحيث كان سيدى بيدوبجانبه هزيلا أشبه بالغلبلان ! .. وكان اعتدال قامته يوحي بأنه كان فى الجيش . أما اساريره فقد اكتست طابعا من الصرامة والجد جعله يبدو اكبر سنا من مستر لينتون ، ولكن محياه كان يتم عن ذكاء وقطنة ، وقد خلا من سمة المهانة التى كانت بادية عليه فيما مضى .. وكانت تكمن فى حاجبيه الكثيفين المنقبضين ، وفى عينيه المليئتين بنيران مقددة ، ضراوة نصف متحضرة ، كان

يجهد في قمعها وكبح جماحها . وكان يسلكه مهذبا في وقار ، خلوا من أبة خشونة أو جلالة ، وإن كان من الصرامة بحيث لا يعد لطيف الشماثل رقيق العاشية ..

وكانت دهشة سيدي تضارع دهشتي إن لم تزد عليها ، فلبث برهة حائرا لا يدري كيف يوجه الخطاب إلى « عامل الحقل الأجير » كما كان يدعو له ! .. أما هينكليف فقد أرضى ذراعه ، ووقف ينظر إليه في برود ، حتى نطق السيد أخيرا فقال :

— اجلس ياسيدي ، فان مسز لينتون — وقد ذكرت الأيام الماضية — قد رغبت إلى أن استقبلك استقبالا وديا .. ولاشك أن من بواعث سروري أن أقوم بكل ما يجلب إليها السرور والبهجة ..

— كذلك أنا ، خصوصا إذا كان لي نصيب من أسباب هذا السرور ، ولهذا سوف أبقى معكما ساعة أو اثنتين من طيب خاطر ..

واتخذ له مجلسا في مواجهة كاترين التي ظلت نظراتها معلقة به كأنما تخشى أن يتلاشى من أمامها إن هي حولتها عنه ! .. أما هو فلم يكن يرفع انتظاره إليها إلا للمبا ، قائما بالنظرة العجلى يصوبها نحوها بين آن وآخر ، فتردد في كل مرة في جراءة متزايدة ، وهي تومض بذلك السرور المسافر الذي ينهله من عينها .. وكانا من الاستغراق في فرحتهما المتبادلة بحيث لم يحسبا حرجا أو ارتباكا . ولكن ذلك لم يكن شأن مستر ادجار ، فقد إزداد وجهه امتقاعا من فرط غضبه حتى

بلغ هذا الشعور ذروته عندما نهضت زوجته ومشيت إلى حيث كان هينكليف جالسا عند الطرف الآخر للسجادة ، فلمسكت بيديه من جديد وراحت تضحك بغير وعى كشخص ذهب السرور بلبه ! .. وأخيرا هتفت تقول :

— سوف يبدو لي ذلك حلما من الاحلام في الغد ! .. لن يكون في استطاعتي أن اسدق اني رايتك ، ولمستك بيدي ، وخاطبتك مرة اخرى .. ومع ذلك فما أقساك باهينكليف ! .. إنك لا تستحق هذا الترحيب ، بعد أن ظللت غائبا ثلاث سنوات أرزمت فيها الصمت ولم تفكر في قتل !

فغمغم يقول :

— لقد فكرت فيك أكثر قليلا مما فكرت أنت في باكاثي .. وقد سمعت بزواجك بمذ تريب ، وبينها كنت واقفا أنتظر في الفناء ، دبرت في رأسي هذه الخطة : أن أتزود من وجهك بنظرة واحدة ، قد تكون نظرة دهشة ، وقد تكون نظرة سرور مصطنع ، وأمضي بعد ذلك لأسوي حسابي مع هنذلي ، ثم أقضى على نفسي فأوفر على الحكومة مشقة إعدامي ! .. بيد أن ترحيبك بي قد طرد هذه الأفكار من رأسي ، ولكن حذار من أن تلاقيني على صورة اخرى في المرة القادمة ! .. كلا ، إنك لن تدفعيني إلى الفرار ثانية . أحقا كنت حزينة من اجلي باكاثي ؟ .. لقد كنت على حق فيها فعلت ، بل اضطرت إليه اضطرابا . ولقد عانيت الكثير من قسوة الحياة ومرارتها منذ ان سمعت صوتك آخر مرة . ولكن يجب أن تصفحني عنى ، فما ناضلت وكافحت إلا من اجلك !

فقاطعهما لينتون وهو يجاهد في الاحتفاظ بشبرائه العادبة ،
وبقدر من الأدب ، قائلا :

— تعالى إلى المائدة يا كاثرين ، إلا إذا كنت تنوين تناول
الشاي باردا . تعالى من فضلك ، فان أمام مستر هيثكليف
شقة طويلة يمشيها أينما كان يرمع المبيت الليلة .. ثم إننى
أحس بالظلمة ..

فأخذت مجلسها أمام آنية الشاي ، بينما أقبلت مس
إزابيلا تلبية للجرس الذى يدعو إلى الطعام أو الشاي . وإذا
انتهت مهمتى بتقريب مقاعدهم إلى المائدة ، غادرت الحجرة
وانصرفت لشأنى . ولكن تناول الشاي لم يستغرق عشر
دقائق ، فإن كاثرين لم تبالا تندحها قط ، إذ كانت في حالة
لاستطيع معها أن تبتلع طعاما أو شرابا .. أما مستر ادجار
فقد انسكب منه الشاي في الطبق ، ولم يأخذ من قدحه أكثر
من جرعة أو اثنتين !

ولم يظل الضيف مقامه في تلك الامسية أكثر من ساعة ،
وفىما كنت أودعه سألته إن كان ذاهبا إلى (جيبوتون) ، فقال :

— كلا .. بل إلى (مرتفعات ويلدريج) ، فقد دعانى مستر
ايرنشو للبيت عندما زرته هذا الصباح !

وكان لهذه العبارة طنين في راسى ، ورحت أفكر فيها بعد
ذهابه ، بين مصدقة ومكذبة .. أهو يزور مستر ايرنشو ؟ ..
ومستر ايرنشو يدعو للبيت ؟ .. أتراه قد تعلم النفاق
وأثى إلى هذه المنطقة ليرتكب شروره مستترا بمسوح

الرهبان ؟ .. أخذت أمن التفكير في الأمر ، فأحسست في
أعناق قلبى بهاجس يحدثنى انه كان من الخير أن يظل بعيدا
عنا ، ولا يعود إلينا ..

وزهاء بنصف الليل ، أفقت مذعورة من نوم البذاءة
العميق ، فإذا مسز لينتون تجلس بجانب فراشى وهى
تجدبنى من شعرى لتوقظنى .. فما أن فتحت عيني حتى
قالت فنيا يشبه الاعتذار :

— لم أفق للنوم أو الراحة طعاما يا نللى .. وشد ما أحس
بالحاجة إلى كائن حى يسهر معى ويشاركنى سعادتى ! ..
ولكن ادجار شديد التجهم والعبوس لأننى فرحة بشىء لا يبهه
ولا يبالى به .. فهو يرفض أن يفتح فمه إلا ليبدى تبرمه ،
وليستمعنى كلاما سخيفا .. وقد أكد لى اننى قاسية أنانية
إذ أزعجه بالحديث في وقت يحس فيه بالتوعك والنعاس ..
فهو دائما يدعى التوعك عند أقل معارضة .. وقد تفوهت
ببضع عبارات في مدح هيثكليف ، فأخذ في الصباح ، إما
من الصداع ، كما يزعم ، أو من ألم الغيرة ، وما لبث أن بدا
في الكياء ، فنهضت من الفراش وتركته ..

— وأية جدوى من امتداحك هيثكليف أماله ؟ .. لقد كنا
ينبادلان الكراهية وهما فتیان يافعان .. ولعل هيثكليف كان
خليقا بان يثور مثله لو سمعك تطرينه أمامه .. إنها طبيعة
البشر يا سيدتى ، قدعى مستر لينتون وشأنه ، ولا تشركيه
في أحاسيسك ، إلا إذا رغبت في أن ينشب بينهما عراك
سافر ونزاع قتال ..

فعمضت تتابع القول :

— ولكن الا ترى ذلك دليلا على ضعف شديد ؟ .. إننى لا اضمر لاحد غيره او حسدا .. فما تأذيت قط من شعر ايزابيل الذهبى الوضاء ، ولا من بشرتها الناصعة البياض ، ولا من انافتها الدقيقة المترفة ، ولا من ذلك الحب الذى تظهره العائلة كلها نحوها .. حتى انت يا نللى ، فانك ما أن ينشب نزاع بيننا حتى تقفى فى صفها ضدى ، فاستسلم كاية أم بلهاء .. إننى ادعوها حبيبتي ، واتلقها حتى ترضى وبصفو مزاجها .. وكم يسر اخوها عندما يرانا متصافيتين يجمع الود بيننا .. وذلك يسرنى بالمثل .. ولكنهما صنوان يا نللى ! .. فقد ربيا على التذليل ، وبخالان ان العالم إنما خلق لمرضاتهما وراحتهما .. وعلى الرغم من اننى اعمل دائما على ملاطفتهم ، إلا اننى اعتقد ان بعض العقاب قد يصلح من امرهما !

— إنك مخلطنة فى ذلك يا ميسز لينتون ! .. فهما اللذان بلاطفانك وبدلانك ، ولست اجهل ماذا كان خليقا بأن يحدث إذا لم يفعل ذلك .. إن فى وسعك ان تتساهل فى شأن احوالهما العابرة ، طالما كان شغلها الشاغل أن يبادرا إلى تلبية كل رغبانك وطلبانك ! .. ومع ذلك فقد ينشب بينكما الشجار أخيرا ، يصدد امر ذى أهمية متساوية لكما ، وعندئذ سوف ترى ان هذين اللذين نظمتينها ضعيفين قد يغردوان أشد منك عنادا واصلب عودا ومراسا ..

فتضحكت وهى تجيب : « وعندئذ سوف يحارب بعضنا

بعضا حتى الموت يا نللى ، اليس كذلك ؟ .. كلا .. صدقينى إننى شديدة الإيمان بحب لينتون لى ، بحيث أنتى لو هممت بقطه لما فكر فى الثأر او الانتقام .. » .

فنصحتها بأن تزداد له تقديرا من أجل حبه لها ، فأجابت :

— هذا ما افعله يا نللى .. ولكنه من جانبى ليس فى حاجة إلى أن يعمد إلى الأئين والنواح من أقل شيء وانفذه .. اليس ذلك صغارا منه ؟ . لقد كان الأخلق به ، بدلا من إراقة دموعه لاننى قلت ان هيثكليف اصبح الآن جديرا بالتقدير والاحترام ، وان اى سيد فى الاقليم سوف يشرفه أن يتخذ منه صديقا ، كان الأخلق به أن يبادرنى هو بهذا القول ، وأن يبدى سروره وانعطافه نحوه .. ويجب أن يعتاد رؤيته ، بل خليق به أن يعيل إليه ! .. فلو قدرنا الأسباب التى تدفع هيثكليف إلى كراهيته لرايتاه قد سلك مسلكا ممتازا معه ..

فسالنها : « ما الذى ترىنه فى ذهابه إلى « مرئعات وبلرنج » ؟ .. الظاهر انه قد تغير تماما من شتى النواحي ، واصبح تقيا يمد يد الصداقة إلى اعدائه فى كل مكان ! »

— لقد شرح لى الأمر ، إذ عجبت لمسلكه مثلما عجبت .. قال إنه ذهب إلى هناك ليستعلم منك عن اخبارى ، فلما منه انك مازلت تقيمين هناك .. وقد أخبر جوزيف هندلى بمقدمه ، فخرج أخى وراح يسأله عما كان يفعله كل هذا الوقت ، وكيف كان يعيش ، ثم دعاه أخيرا إلى الدخول .. وكان بعض الأشخاص جالسين حول احدى الموائد يلعبون الورق ، فانضم إليهم هيثكليف ، وربح بعض النقود التى خسرها أخى .. فما

كاد يراه عامر الجيب بالمال حتى رجاه في ان يعود في المساء لانية ، فلم يملك إلا ان يلبي هذه الدعوة !.. إن هتدلى من الغفلة بحيث لا يعنى باختيار اصدقائه في حكمة وتعقل .. كما انه لا يشغل فكره بالتفكير في الاسباب التي قد تدفعه إلى التوجس من شخص سبق ان جرعه كأس البهوان مترعة .. ولكن هيكليف يؤكد أن السبب الرئيسي لرغبته في إعادة العلاقات مع غريمه السابق إنما هو رغبته في أن يقيم على قيد خطوات من « الجرانج » ، فضلا عن تعلقه بالدار التي نشأنا فيها معا ، وأمله في أن يتاح لى المزيد من الفرص لرؤيته أكثر مما لو اتخذ من « جيمرتون » مقاما .. وفي نيته ان يعرض على أخى اجرا عاليا نظير السماح له بالإقامة في « مرتفعات » ، ولا ريب ان جشع أخى وجبه للعمال سوف يدفعانه إلى قبول هذا العرض .. لقد كان شرها دائما ، ولو أنه يطرح بأحدى يديه ما يجنبه باليد الأخرى .

فقلت : « ما أحلاه مكانا يختره شاب لإقامته !.. ولكن الا يخالجك الخوف من العواقب يا مسز لينتون ؟ » .

— لست أخاف على صديقى شيئا ، فان له من حصافة الراى ما يقيه الأخطار .. كما أن خوفى على هتدلى قليل ، فإن انحطاطه الأدبى لم يبق موضعا لزيادة المستزيد ، ولن يتهدده خطر بدنى لأننى سأقف حائلة دونه .. آه يا نللى !.. إن ما حدث الليلة قد قرب ما بينى وبين الله والإنسانية جميعا .. فقد كنت في ثورة عارمة ضد العنابة الإلهية .. وكم عانيت من شروب الشقاء واليؤس المرير ما لو عرف هذا المخلوق مبلغ

مرارته لما فكر في تكبير صفوى بعد ذلك بنزقه ومشاكساته الفارفة .. وقد احتملت كل هذا الشقاء وحدى بدافع من الشفقة عليه ، فلو اننى افسحت عن الوان العذاب التي هدت كيانى لعرف كيف يتوق إلى تلطيفها بنفس الحرارة واللاهفة التي كنت اتوق بها إليه .. ومهما يكن من امر فقد اغضى ذلك الآن ، وإن اعهد إلى الانتقام من حماقته .. وفي وسعى ان احتمل كل شيء بعد ذلك ، فلو صفعنى اقل مخلوق على قيد الحياة على خدى ، لما اكتفيت بأن أدير الخد الآخر ، بل لسألته الصفع عن إثارتى إياه واستفزازى له حتى مسفعنى!! .. وبرهانا على ذلك سوف اذهب إلى اذجار من فورى فاصالحة واسترضيه .. طابت ليلتك يا نللى .. لقد انقلبت ملاكا رحيمًا !

وفارقتنى منشحة الصدر لهذا الإيمان الجديد الذى سكن نفسها ، فظهرت لمرّة نجاحها في تنفيذ ما اعترمته على محيا مستر لينتون في الصباح !.. فلم تفارقه جهامته وعبوسه فحسب ، (ولو أن حالته النفسية المرحية كانت تبدو كأنها مازالت متأثرة بفرحة كاثارين الغزيرة) ، بل لقد ذهب إلى حد عدم الاعتراض على اسطحابها ايزابيلا معها إلى « مرتفعات ويذرنج » بعد الظهر .. ولقد جازته على ذلك بديش من الرقة والحب ، جعل المنزل كله يبدو كجنة الفردوس عدة أيام متتالية ، وقد نعم السيد والضدم بهذا الإشراق الدائم الجميل ..

اما هيكليف — او مستر هيكليف كما ينبغي ان أقول في

المستقبل - فقد اخذ يستخدم حريته في زيارة « ثرشكروس جرانج » ، في حذر وحرص بادى الامر .. كان يبدو انه بقدر إلى اى مدى يحتمل سيد الدار تطفله .. كما رات كاترين من الحكمة ان تخفف من مظاهر سرورها بلقائه .. وهكذا أنشأ لنفسه حقا في ان تكون زيارته متوقعة دائما .. وكان ما يزال على جانب كبير من ذلك التحفظ الذى كان يتميز به وهو بعد غلام يافع ، وقد امانه ذلك في كبح جماح مشاعره واحاسيسه حتى لا تندفع في مظاهرة قد تثير المتاصب .. وهكذا جمع قلق السيد وتوجسه حتى بدأت الأحداث التالية توجه هذا القلق إلى وجهة أخرى بعض الوقت ..

كان مصدر متاعبه الجديدة ينبثق من الكارثة الداعمة غير المتوقعة التى حافت بايزابيلا لينتون إذ انتابها ميل جارف مفاجيء نحو ذلك الضيف الثقيل .. وكانت في ذلك الحين شابه جميلة ساحرة في الثامنة عشرة من عمرها ، يتميز ظلتها ببساطة الطفولة ، وإن كانت مع ذلك حادة الذكاء ، مرهفة الحس ، سريعة الغضب إذا استثيرت .. ولقد ارتاع اخوها - الذى كان شديد الحب لها - وفزع لهذا الولع الجنونى الخيالى .. فبغض النظر عن المهانة التى تحيق بهم من مصاهرة رجل لا اسم له ولا عائلة ، وعن احتمال انتقال املاك الأسرة - إذا لم يتجنب وريثا ذكرا - إلى يد مثل هذا الرجل ، فقد كان من الحصافة بحيث يدرك حقيقة هيثكليف ، ويعلم انه برغم التغيير الذى حل بمظهره ، فان عقليته لم تتغير ولن تكون قابلة للتغيير .. وكان يخاف هذه العقلية ويتوجس

منها شرا ويثور لها .. وهكذا فزع وتشامم من فكرة زواجه من ايزابيلا ، ولعل فزعه ونفوره كانا يزدادان شدة لو انه ادرك ان غرام ايزابيلا كان من ناحيتها وحدها ، دون استشارة او إغراء ، وإنما وهبته لمن لا يبادلها عاطفتها او يستجيب لاحاسيسها .. فانه منذ ان اكتشف هذا السر الرهيب ، تلقى باللوم كله على عاتق هيثكليف واعتقد انه رسم هذه الخطة ودبرها تدبيرا ..

وكنا جميعا قد لاحظنا وقتا ما ان ممس لينتون قد غدت ضيقة الصدر ، يهشها القلق والاضطراب ، لسبب لا نعرفه ، وانها اصبحت كثيرة التبرم والعبوس ، لانتفا تصيد الفرس للاحتكاك بكاترين وإثارتها كأنها تريد ان تستفزها حتى تخرجها عن طورها وعن سيرها المحدود .. وقد تلمسنا لها العذر - إلى حد ما - وتعلمنا بسوء صحتها ، إذ كانت تزداد نحولا ويخبو ضياؤها امام أعيننا ، إلى ان حدث ذات يوم ، كانت فيه شديدة المشاكسة إلى حد غريب ، ان رفضت تناول إنطارها ، وأخذت تشكو من ان الخدم لا يطيعون أوامرها ، وأن السيدة لا تريد ان تجعل منها شيئا مذكورا في المنزل ، وأن ادجار يهمل شأنها ، وانها أصيبت ببرد من ترك الابواب مفتوحة ، واننا ندع نيران المدفأة في حجرة الجلوس نخبو بتعمدين إغماظتها ، إلى غير ذلك من مناسات التهم الواهية النافهة .. فاصرت مسرر لينتون على ان تجعلها تأوى إلى فراشها ، وراحت تعنفها في رفق ولين ، ثم هددتها بان ترسل في طلب الطبيب .. فما كادت تسمع اسم كينيث حتى ثارت ،

وصرحت بأن صحتها على خير حال ، وأن سبب شقائها هو ما تلقاه من خشونة كاثرين وفظاقتها ..

فصاحت السيدة وقد أذهلها هذا الاتهام غير المعقول :

— كيف تزعمين أنى خشنة معك ابنتا الخبيثة المدللة ؟ ..
لارب أنك قد جننت .. الا خيرينى متى كنت خشنة معك ؟ ..
فتأوهت ايزابيلا وقالت : « بالامس .. والآن ! »
— بالامس ؟ .. فى اية مناسبة ؟

— عندما كنا نسير فى البرارى ، فقد طلبت منى أن اتجول حيثما أشاء ، بينما كنت تسيرين الهوينى مع مستر هيثكليف ..

فضحكت كاثرين ، وقالت : « هل هذا ما تعنيه بخشونتى وفظاقتى ؟ .. لم يكن ذلك تلميحا إلى أن وجودك غير مرغوب فيه ، فنجح لا يهمننا البتة بقيت معنا أم فارقتنا .. وإنما ظننت أن حديث هيثكليف لن يكون جميل الوقع فى اذنيك .. »

فبكت الأنسة الشابة ، وغغمفت تقول : آه .. كلا .. كلا ..
.. إنما قصدت إيمادى لعليك اننى احب ان اكون معكما .. »

فقال مسز لينتون وهى تنظر إلى مستنجدة : « أهى فى تمام عقلها ؟ .. سوف اعيد عليك ما تبادلنا من حديث ، كلمة فكلمة ، وعليك يا ايزابيلا أن ترينى أى شىء فيه يثير اهتمامك أو يبهجك .. »

— إن الحديث لا يبهنى ، وإنما أردت أن اكون مع ..
وترددت قليلا ، فقالت كاثرين تستحثها : « حسنا ..
مع من ؟ »

— معه .. ثم إننى لا احب أن أنحى عن الطريق دائها .
واستطردت تقول بعد لحظة وهى تزيد النار اضطراما :
— إنك اثانية يا كائى ، تريدين أن تستائرى بكل شىء فلا تدعى لاحد منه نصيبا ، ولا تؤدين أن ترى احدا محبوبا سواك !
فصاحت مسز لينتون ، وقد غلبت دهشتها على غضبها :

— يالك من قردة صغيرة سليطة اللسان ! .. ولكنى لا اصدق أنك على هذا القدر من البلاهة .. فمن المحال أن تشدنى إعجاب هيثكليف وتلتهمسيه ، وأن تحصيه شخصا لطيفا مرموقا .. لعلى أسأت فهم ما تعنين يا ايزابيلا ؟

فقالت الفتاة المغتونة : « كلا .. انك لم تسيئ الفهم ..
فانى احبه أكثر مما احببت أنت اذ جاز يوما من الأيام ..
وعساه كان خليقا بأن يحبنى لو انك تركته وشأنه .. »
فقالت كاثرين وهى تؤكد كل كلمة تنطق بها ، وقد تبدت فى لهجتها الحرارة والاخلاص :

— إننى لا اغبطك على موقفك هذا ، ولا أرضى أن اكون مكانك ولو قدم لى عرش مملكة بأسرها .. الا ساعدينى يا نللى فى إقتاعها بجنون ما تذهب إليه .. قولى لها ما هو هيثكليف ..
إنه كالأرض البور التى لم تستصلح ، ومخلوق لا تهذيب لديه ولا علم ولا ثقافة .. والأولى لى أن أضع هذا العصفور الصغير فى العراء يوما من أيام الشتاء القارسة ، من ان أنصح لك بأن تهيبه قلبك .. وان جهلك المحزن بأخلاقه وطباعه يا طفلى —

لا أى شيء آخر - هو الذى يجعل هذا الحلم يملأ رأسك .. ولكن مهلا !.. لا تخالى أنه يخفى فى أعماقه قبضا من الحنان والعاطفة خلف هذا المظهر الصارم العبوس !.. لا تحسب أنه قطعة من الماس الخام ، أو لؤلؤة لمينة تكمن بين شقى محارة خشنة المظهر .. لا .. إنما هو ذئب صار خلو من الرحمة والشفقة ، فى ثياب رجل من البشر .. ولست أقول له : « دع هذا العدو أو ذاك فى سلام لأنه ليس من الشهامة أن تقسو عليه أو تؤذيه » .. وإنما أقول له أمرة : « دعه فى سلام لأننى أكره أن يناله منك سوء » .. وإنه لحرى بأن يهشمك يا ايرابيليا كبيضة العصفور إذا ما وجدك حملا متعبا يبهظ كاهله .. إننى أعلم حق العلم أنه لا يمكن أن يحب أحدا من آل لينتون ، ومع ذلك فهو خليق بأن يتزوج من ثروتك الحاضرة والمستقبلية !.. فان شرهه للمال ينمو معه حتى أصبح خطبته الكبرى .. هذه صورته كما أراها وأرسمها لك .. وأنا مع ذلك صديقه ، وربما كنت حرية ، لو أنه فكر جدبا فى الإيقاع بك ، بأن أمسك لسانى وأدعك تسقطين فى شركه ..

فنظرت مس لينتون إلى زوجة شقيقها فى سخط وازدراء ، وقالت :

- يا للعار !.. يا للعار !.. إنك لاسوا من عشرين عدوا ، أيتها الصديقة الأعمى !..

- آه .. إنك لاتريدن أن تصدقينى إذن ؟ .. انظنين اننى أقول ذلك بوحى من الأناية الشريرة ؟ ..

- إننى واثقة من ذلك .. وإننى لارتجف فرعا منك !.. فصاحت الأخرى : « حسنا .. فلتجربى بنفسك إذن !.. لقد قمت بواجبى ، وسأضع حدا لهذا الجدل أمام فحتك وسوء أدبك .. »

وبينما كانت مسز لينتون تغادر الحجرة ، أخذت الفتاة تشجج بالبكاء ، وتقول :

- كاننى يجب أن اتالم واقاسى من أجل انانيتها واثرتها !.. لقد أصبح كل شيء ضدى .. كل شيء .. فقد قضت على عزائى الوحيد ، ودمرته تدميرا .. ولكنها كانت تنطق بالأكاذيب ، اليس كذلك ؟ .. إن مستر هينكليف ليس شيطانا كما تصوره .. إن له روحا طاهرة شريفة ، وإلا فكيف ذكرها وعاد ليراه ؟

فقلت :

- أبعديه عن فكرك يا آستى .. انه طير مشنوم الطالع ، لا يصلح قربنا لك .. لقد كانت مسز لينتون عنيفة فى كلامها ، ومع ذلك لمينى لا استطيع مخالفتها لميما قالته .. فهى أدرى بقلبه منى ومن أى امرئ غيرى ، وما كانت لتصوره بأسوأ مما هو عليه حقا !.. فان الاشراف الامناء لا يخفون فعالهم .. وإلا مخبرينى بريك كيف كان يعيش هذه السنين ؟ .. وكيف أصبح ذا مال وثراء ؟ .. ولماذا يقيم فى « مرتعات ويدرنج » ، فى منزل رجل يبغضه وينفر منه ؟ .. إنهم يقولون إن مستر ايرنشو يسير من سيء إلى أسوأ منذ مقدمه .. وهما يقطعان الليل كله جالسين معا دائما ، وأخذ هندلى يقترض منه

بضمان أرضه وأملاكه ، وأصبح لا يفعل شيئا سوى أن يشرب ويقامر .. لقد سمعت ذلك منذ أسبوع فحسب ، وجوزيف هو الذى أخبرنى عند ما قابلته فى جيمرون .. قال : « لا تهشى يائلى إذا سمعت أن بيتنا قد غدا مسرحا لتحقيقات النيابة ، لأن بعضهم سوف تقطع أصابعه إذا حاول أن يمنع الآخرين من سلخه كالمجل الذبيح ..! وذلك هو السيد كما تعلمين ..! أما فتاك الطبيب هيثكليف ، نباله من شخص نادر المثال .. انه يطلق الضحكة المدوية لدى أول إشارة من الشيطان ، وما أكثر إشاراته ! .. ألم يقل لكم شيئا عن حياته الناعمة بيننا عند ما يذهب لزيارتكم فى « الجرانج » ؟ .. هذا برنامجنا عندنا .. يستيقظ عند الفروب .. ثم الترد والخمر ، والنوافذ الموصدة ، والشموع المضاءة ، حتى ظهر اليوم التالى .. ثم يحمل السيد إلى حجرته وهو بسب وباعن بالفاظ تجعل الناس المهذبين - مثلى - يضعون أصابعهم فى آذانهم من العار والخجل ! .. وأما الخبيث فانه يميل جيوبه ، ويأكل وينام ، ثم يعضى إلى منزل جاره ليثرثر مع زوجته .. ولا ريب انه قال للسيدة كاترين كيف يجرى ذهب أبيها إلى جيوبه ، وكيف يجرى إبن أبيها فى طريق الدمار الواسعة ، بينما يسبقه هو ليفتح له أبواب الجحيم .. « واعلمى يا مس لينتون أن جوزيف وإن كان وغدا عريقا إلا أنه ليس كاذبا ! .. فإذا كان مابرويه من افعال هيثكليف صحيحا ، فما احسبك تودين مثل هذا الزوج لنفسك ، اليس كذلك ؟ ..

— إنك ضالعة فى التآمر ضدى مع الآخرين يا ايلين ! ..

ولن اصفى إلى ترهاتكم ومفترياتكم قط .. اى حقد وأية ضغينة تلك التى تدفمك إلى محاولة إقناعى بأنه لا توجد أية سعادة فى هذا العالم ؟! ..

وليس فى وسمى أن أقرر هل كانت القساة ستتقلب على تلك النزوة لو انها تركت وشأنها ، أم انها كانت ستتعهدها وتقريبها إلى الأبد ، فان الوقت لم يملها ريشما نعمن التفكير فى الأمر .. ففى اليوم التالى عقدت جلسة المحكمة فى المدينة المجاورة ، واضطر سيدى إلى حضورها .. فما أن علم مستر هيثكليف بقيابه ، حتى حضر للزيارة مبكرا عن موعدة المعتاد .. وكانت كاترين وايزابيلا جالستين فى المكتبة ، صامتتين ، وقد حل بينهما الجفاء محل الصفاء .. كانت الاخيرة شديدة الاضطراب لما يدر منها من إفشاء سرها والكثف عن احاسيسها الدفينة فى نوبة عارضة من الاندفاع العاطفى .. وأما الاولى فاتها ، بعد إيمان التفكير فى الأمر ، ازدادت شعورا بعمق الإساءة التى نالتها من رفيقتها .. وإذا كانت ما تزال تضحك من قحتها وسلطنة لسانها ، فإنها ازدادت ميلا إلى أن تجعل الأمر بالنسبة لايزابيلا أبعد ما يكون عن الضحك ! .. وقد ضحكت فعلا عندما رأت هيثكليف يسر اسم النافذة ، فقد كنت وقتئذ انظف المدفأة ، فلمحت على شفتيها ابتسامة خبيثة .. وكانت ايزابيلا مستغرقة فى تأملاتها ، متظاهرة بالقراءة ، فلم تنتبه لمقدمه ، وظلت فى مكانها حتى فتح الباب .. وكانت الفرصة قد ضاعت لمحاولة الفرار من الحجره ، وهو الأمر الذى كانت توده وتتمناه لولا أن أصبح متعذرا ..

وهتفت السيدة فى جدل وهى تقرب مقعدا من النار :

- ادخل .. لقد اتيت في وقتك ! .. فهاهنا شخصان في حاجة اليمة إلى ثالث يذيب الثلج الذي انعقد بينهما .. وانت ذات الشخص الذي نختاره كلانا ونرضاه .. إننى يا هينكليف لاتبه فخرا بأن أقدم لك ، أخيرا ، شخصا شعف بك حيا أكثر منى .. وفي يقينى أنك سوف تزهو وتختال مجبا .. كلا .. أنها ليست نللى ، فلا تنظر إليها ! .. ولكن شقيقة زوجى المسكينة هى التى يتقطع قلبها لمجرد تأمل جمالك الجسدى والروحى ! .. وقد صار فى يدك الآن أن تصبح سهرا لادجار .. كلا .. كلا يا ايزابيلا .. إنك لن تلوى من هنا الآن ..

وكانت الفتاة المحيرة قد هبت واقفة فى ارتباك وحنق ، فاستطردت كاترين ، وهى تمسك بذراعها فى قوة ، وتظاهر بالمرح والدعابة :

- لقد تشاجرنا كالقطط بسببك يا هينكليف ! .. وقد غلبتنى عن جدارة فى مضمار الدفاع عنك ، يباعث من الوفاء لك والاعجاب بك .. بل لقد قالت لى إننى لو كنت من كرم الخلق بحيث أنتهى عن الطريق ، فإن غريمى - كما تود أن تجعل من نفسها - سوف ترمى قلبك بسهم يصيبه دواما ، ويسدل على صورتى أستار النسيان إلى الأبد ..

فاستجمعت ايزابيلا اهداب كرامتها المهيضة ، وانفت من النضال فى سبيل الخلاص من القبضة القوية التى تمسك بها ، وصاحت قائلة :

- كاترين ! .. سوف أكون شاكرة لك إذا لزمتم جدادة



فاستطردت كاترين ، وهى تمسك بذراعها فى قوة وتظاهر بالمرح والدعابة :

- لقد تشاجرنا كالقطط بسببك يا هينكليف ! ..

الصدق ورجعت عن افتراكك على ، حتى ولو كان على سبيل المزاح ! .. وارجوك يامستر هيثكليف أن تأمر صديقتك هذه بأن تخطى عني ، فهي تنسى أنك وأنا لم نوثق معرفتنا ببعضنا بعد ، وإن ما برها ويسليها قد يكون مؤلماً لي غابة الألم ..

ولكن الضيف لم يجر جواباً ، بل اتخذ مجلسه بينهما ، وبدأ عليه عدم الاكتراث للعاطفة التي أنشبت مخالبتها في قلبها من نحوه .. فاستدارت الفتاة وعادت تهمس ، في لهفة ، متوسلة لمعدبتها أن تخطى سبيلها ، ولكن مسز لينتون صاحت قائلة :

— محال .. عبتا ما تطلبين !.. فلن يقال عني أنني استائر بالشيء فلا ادع لاحد منه نصيباً .. سوف تبقى ما طاب لي أن تبقى !.. وانت يا هيثكليف ، مالك لا تظهر الغبطة والرضى بهذه الأنباء السارة التي أحملها إليك ؟.. إن إيزابيلا تقسم أن حب إدجار لي لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب الحب الذي تكنه لك وتطوى عليه جوانحها .. إنني واثقة من أنها قالت شيئاً من هذا القبيل ، اليس كذلك يا ايلين ؟ .. ثم أنها صامتت عن الطعام والشراب منذ نزهتنا في اليراري أول أمس ، من فرط الأسى والغضب لأنني نحيبتها عن صحبتك فلنا منى أنها صعبة لا تناسبها ! ..

فقال هيثكليف وهو يدبر مقعده ليواجهها معا :

— أظنك تكذبين عليها .. فهي تريد الخلاص من صحبتي الآن على أية حال ..

ثم راح يحملق بانظاره في حدة إلى الفتاة موضوع الحديث ، كما يحملق المرء إلى حيوان غريب كزبه المنظر — أو الحشرة

« ذات المائة ساق » التي تعيش في جزر الهند — يدفعه الفضول وحب الاستطلاع إلى تأمله برغم ما يشيره في النفس من نفور واشمئزاز .. فلم تحتمل الفتاة المتكودة ذلك كله ، وتداول وجهها الشحوب والتورد لحظة بعد أخرى ، وجلت قطرات الدمع اطراف أهدابها ، فاخلت تحاول بكل ما في اصابعها الدقيقة من قوة ، أن تنتزع قبضة كاثرين القوية على ساعدها .. ولكنها إذ رأت أنها كلما رفعت اصبعاً عن ذراعها اطبق غيره عليها ، وقد تعذر عليها أن ترفعها جميعاً ، بدأت تستخدم اطرافها الحادة ، وسرعان ما تبدت آثارها على يد كاثرين في اهلة حمراء دامية ..

فصاحت مسز لينتون وهي تخطى سبيلها ، وتنفض يدها من فرط الألم :

— أينها الثمرة المفترسة !.. اغربى عن وجهي بحق السماء ، وأخفى عن الناس وجهك البشع المبيت ! .. الا ما أحبتك إذ تبدين له مخالبتك هذه !.. أتقدرين عواقب ما تحدثه من الأثر في نفسه ؟.. وانت يا هيثكليف .. انظر .. إن لها اظفار كأدوات التعذيب !.. وعليك أن تحضر منها على عيتك ..

فاجاب في وحشية ، عندما اغلق الباب خلف الفتاة :

— لو هددتني بها لعرفت كيف أنتزعها من اصابعها .. ولكن ما الذي قصدته من إغاطة تلك المخلوقة على هذا النحو تياكالي ؟.. انك لم تقولي الحقيقة ، اليس كذلك ؟..

— أوكد لك أنني قلت الحقيقة بخذائيرها .. فقد كانت مدلهة في هواك طيلة الأسابيع الماضية ، وراحت تهذى بك

هذا الصباح ، وما لبثت أن أطلقت على سيلا من السباب ،
إنتى كشفت النقاب عن مثالبك ومساوئك لأخف من غلواء
إمجابها بك .. ولكن لا تتم للأمر وزنا بعد ذلك .. فكل
ما قصدته هو أن أعاقبها على سوء أدبها .. إنتى احبها من كل
قلبي ، يا عزيزى هيثكليف ، بحيث لا أسمح لك بأن تنقض
عليها فتلتهمها ! ..

— وأنا أكرهها بحيث لا أفكر في هذه المحاولة ، إلا على
طريقة الغيلان ! .. ولعمري سوف تسمعين أمورا غريبة لو
قدر لى أن أعيش وحدى مع هذا الوجه الشمعى الشاحب
المقبت .. إن أقل ما أفعله هو أن أرسم على صفحته البيضاء
الوان الطيف ! .. وإن أحييل زرقة عينيها إلى سواد يوما بعد
يوم .. فهاتان العينان تشبهان عيني ليتهاون إلى حد بغيض ..
فقلت كاترين في هدوء :

— بل إلى حد جميل .. فهما أشبه بعيون الحمام ، أو
عيون الملائكة ! ..

وعاد يسأل بعد لحظة صمت قصيرة :

— إنها وريثة أخيها ، اليس كذلك ؟ ..

— شد ما يؤسفنى أن أفكر في ذلك ! .. فلسوف يحجبها
— يراد الله ومشيئته — ستة من أبناء أخيها ! .. ولكن أطرده
هذا الخاطر عن فكري الآن .. إن لعابك يسيل لهفة على أملاك
جارك ، فأذكر جيدا أن أملاك هذا الجار إنما هي أملاكى أنا ..
— لو أنها كانت ملكى لما تغير الأمر بالنسبة إليك .. وقد
تكون إزايلا ليتهاون فتناة بلهاء ، ولكنها ليست مجنونة البتة ..
حسنا .. سوف ندع الحديث في هذا الأمر ، كما تريدن ..

ولقد نحيا الحديث حقاً ، ولكن عن لسانيهما فحسب ..
ولعل كاترين قد نحته عن فكرها كذلك ، ولكنى لمى يقين من
أن الآخر كان لايفتا يذكره فيما بقى من تلك الامسية ، فقد
رايته يبتسم لنفسه — أو بالأحرى يكشر عن أنيابه المتلطفة —
ويغوص في لجة من التفكير العميق كلما دعا الأمر إلى غياب
مسز ليتهاون عن الحجرة ..

وقوى بى العزم على مراقبة حركاته .. فان فلبى كان
دائما أميل إلى جانب السيد ، منه إلى جانب كاترين ..
وأحسبني كنت على حق في ذلك لانه كان رفيقا عطوفا ،
سليم الطوية ، وافر الثقة بالناس ، شريفا طاهر الدليل ..
أما هي ، وإن كانت لا يمكن أن يقال عنها إنها على تقيض ذلك ،
إلا أنها كانت — فيما يبدو — تبيع لنفسها حرية واسعة بحيث
كنت قليلة الإيمان بتمسكها بالمبادئ القويمة وبالتالي قليلة
المبالاة بمشاعرها وأنفعالاتها .. وكنت أتمنى أن يحدث شيء
يخلص « مرتفعات ويدرنج » و « الجرانج » معا من
مستر هيثكليف ، ويردنا إلى الهدوء الذى كان يشغلنا قبل
مقدمه .. فقد كانت زيارته كابوسا متصلا لى ، بل والسيد
ايضا ، فيها أظن .. وكانت إقائته في « المرتفعات » جورا
وظلما يجعل عنه الوصف ، فكنت أحس كأن الله قد تخلى عن
الشاة الضالة هناك لتلقى جزاء ضلالها التعمس المنحوس ، وأن
وحشا شريرا يكمن لها ويترصص بها ويحول بينها وبين حظيرة
الامان ، ينتظرا الفرصة السانحة ليشب عليها وبوردها حتفها .

الفصل الحادى عشر

كنت في بعض الأحيان ، كلما فكرت في هذه الأشياء وتدبرتها في وحدتى ، احس ذعرا بناجئا يدعمنى إلى ان اتوم غاضب قلتسوى فوق راسى ، واذهب لارى كيف تسير الامور في « المرتفعات » . كنت افنع ضميرى بان من واجبى ان اندر هندلى بما يتقوله الناس عن مسلكه الشائن ، ولكنى كنت لا البت ان اذكر طباعه الشريرة التى يصر عليها ، فانقد الأمل في ان يكون لمسعاى آية ثمرة مرجوة ، وعندئذ احجم عن العودة إلى ذلك البيت المنحوس ، وإن كان الشك يخامرنى في قدرتى على احتمال التمسك بما قطعته على نفسى من عهد ..

وذات مرة ، كنت ذاهبة إلى « جيمرتون » ، فمضيت من طريق غير الطريق المألوفة ، حتى اجتزت البوابة القديمة .. وكان ذلك في الوقت الذى بلغته من حكايتى .. وكان عصر يوم مشمس شديد البرودة ، وقد تعمرت الأرض من العشب ، وجفت الطريق وصلب اديهما .. وبلغت كتلة من الحجر يتفرع الطريق عندها يسارا إلى البرارى والأحراش ، تقوم فوق عمود من الصخر الرملى غير المشذب ، وقد نقش عليه ، عند طرفه الشمالى ، حرفا « م . و » ، وعند الطرف الشرقى حرف « ج » ، وعند الطرف الجنوبى الغربى « ث . ج . » فقد كان هذا الحجر يتخذ دليلا ومرشدا إلى مرتفعات وبلدنج وبلدة جيمرتون وثرشكروس جرانج .. وكانت الشمس تتألق فوق قمته السعراء ، فتذكرنى بأيام الصيف .. ولست ادرى

ما الذى حل بى ، ولا سببه ، إذ أحسست ، دفعة واحدة ، فيضا من احساسيس الطفولة يتدفق إلى قلبى .. فقد كنت وهندلى منذ عشرين عاما نتخذ هذه البقعة مرتعا مفضلا للعبنا .. ورحت اناهل الكتلة الحجرية طويلا ، وقد نهشتها عوامل الجو المختلفة ، ثم اتحيت فوق حجر صغير عند قاعدتها .. ووجدته مازال مليئا بأصداف القواقع والحصباء الملوثة التى كنا بولعين بإخفائها هناك مع غيرها من الأشياء الأخرى السريعة العطب .. فخيل لى اننى ارى رفيق صباى القديم ، واضحا جليا كأنه هو يلحمة ودمه ، وقد جلس على العشب اليابس ، واحتى راسه الأسمر المربع إلى الامام ، وراح يحفر الأرض بقطعة من الوردواز .. عندئذ هتفت في غير وعى : « هندلى ايها المسكين ! .. وسرعان ما اجقلت وانتفضت ، إذ لعب بعينى خداع البصر فاعتقدت لحظة ان الفلام قد رفع راسه وراح يحمق في عينى ! .. ولقد تلاشت هذه الرؤيا في مثل وميض البرق ، ولكنى ما لبثت ان شعرت بحنين لا يقاوم نحو اللهاب إلى المرتفعات .. وقد استحسننى الاوهام والخراصات إلى الاستجابة لهذا الهاتف .. فمن يدرى لعله الآن قد مات ، او لعله - فيما خيل لى - مشرف على الموت ؟! .. وكنت كلما ازددت قربا من البيت ، ازداد انفعالى واضطرابى . حتى إذا ما لمحت من بعد سرت القشعريرة في كل خلية من بدنى .. وكانت « الرؤيا » التى تراءت لى عند علامة الطريق ، قد سبقتنى إلى هناك ، ووقفت تتطلع إلى من خلال البوابة ! .. او على الأمل كانت هذه هى الفكرة التى

بدرت إلى ذهني عندما رأيت غلاما مشعث الشعر أسود العينين ، يطل بوجه المتورد من خلال القضبان .. ولكني ما لبثت أن أدركت أن ذلك لابد أن يكون هيرتون ، ولدى هيرتون ، الذي لم يتغير كثيرا منذ فارقه من عشرة شهور ..

نسيت مخاوف السخيفة في الحال ، وهنفت به قائلة :

- ليباركك الله يا حبيبي ! .. هيرتون .. إنني نللي .. نللي ، مريبتك ! ..

فترجع إلى الخلف فعد ذراع ، ثم التقط من الأرض حجرا كبيرا ، فحدثت من هذا الفعل أنه إذا كانت نللي مازالت تعيش في ذاكرته ، فانه لم يتبينها في شخصي البتة .. واستطردت أقول :

- لقد أتيت لأرى أباك يا هيرتون !

فرجع يده بالتديفة لير شقني بها ، وعندئذ انطلقت في حديث رقيق لأهدىء من سورته ، ولكني لم أستطع منع يده . فأصابني الحجر في رأسي .. وسرعان ما تدفق من شفتي الغلام الملتئم سيل من الشوائم والفاظ السباب التي كان لا سواء فهمها أم لم يفهم معناها - ينطق بها في خيرة مؤكدة ، وأسايريه الصغيرة تتخلص في حقد وكراهية شيران الألم .. ولك أن تثق ، يامستر لوكوود ، أن ذلك قد أحرزني أكثر مما أغضبني .. ، وكنت على وشك البكاء ، عندما أخرجت برتقالة من جيبي وقدمتها إليه لاستميله وأترشاه ، فتردد لحظة وما لبث أن اختطفها من يدي ، كأنما خيل إليه أنني

تصدت إغراءه ثم العبث به .. وأخرجت برتقالة أخرى أربتها له ، وقد أبعدها عن متناول يده ، ثم سألته :

- من الذي عليك هذه الألفاظ الجبيلة يا ولدي ؟ أهو القس ؟

فأجابني : « لعنة الله على القس ، عليك ! .. اعطيني هذه ! »

- أخبرني أولا أين لقت دروسك ، وسأعطيها لك .. من هو مدرسك ؟

- الشيطان أبي !

- وما الذي تعلمته من أبيك ؟

فقفز ليخطف البرتقالة من يدي ، ولكني رفعتها إلى أعلى ، واستطردت أسأله : « ما الذي يعلمه لك أبوك ؟ »

- لا شيء سوى أن أظل بعيدا عن طريقه .. وأبي لا يستطيع أن يضربني ، لأنني أستمه ..

- آه ! .. وهل الشيطان هو الذي يعلمك أن تنسب أباك وتشتمه ؟

فأجاب وهو يتشدد بكلامه : « آه ! .. لا .. لا .. »

- من إذن ؟

- هيثكليف ..

فسألته فما إذا كان يحب مستر هيثكليف ، فأجاب : « آه ! .. نعم .. »

ومضيت أجاذبه أهداب الحديث لأعرف منه سبب حبه إياه ، فلم أخرج منه إلا بهذه العبارات :

- لا أدري .. ولكنه يكيل لابي الصاع صاعين مما يفعله
بى .. وهو يسب ابنى كلما شتمنى ، ويقول إننى يجب ان
افعل ما يتراى لى !

- ولكن الا تعلمك القس القراءة والكتابة إذن ؟

- كلا .. فقد قيل لى إن القس سوف يجد اسنانه مقدوفة
إلى حلقه ، إذا وضع قدمه على عتبة الدار .. وهيثكليف هو
الذى وعدنى بذلك !

فوضعت البرتقالة فى يده ، ثم سألته ان يخبر أباه بأن
سيدة تدعى « نللى دين » تنتظر عند بوابة الحديقة وترغب
فى ان تتحدث إليه .. فمضى فى المسر حتى اختفى داخل
الدار . ولكنى رايت هيثكليف - لا هندلى - هو الذى يظهر
فى الباب ، فدرت على أعقابى ، وانطلقت اعدو فى الطريق بكل
ما وسعنى من جهد وسرعة ، دون ان اتوقف لحظة ، حتى
بلغت علامة الطريق الحجرية ، وقد تملكى لزع مروع كأننى
اطلقت الشياطين من عقابها !

وليس لهذا الحادث صلة مباشرة بقصة مس ايزابيلا ، اكثر
من أنه شدد من عزمى على فرض حراسة شديدة حولها ،
وان ابذل غاية جهدى فى وقف تغلغل مثل هذا التأثير الشرير
فى (الجرانج) ، ولو اضطرت إلى إثارة عاصفة فى الدار ،
بإفساد سرور مسز لينتون وابتهاجها .

فلما حضر هيثكليف فى زيارته التالية ، صادف ان كانت
الانسة الشابة تعلم الحمام فى الفناء ، وكانت قد لبثت ثلاثة

ايام لا تخاطب كاثرين بكلمة ، وإن كانت قد تخلت عن عبوسها
وتدمرها ، مما وجدنا له راحة فى نفوسنا .. وكنت أعلم أنه
ليس من عادة هيثكليف ان يوجه اية مجاملة غير لازمة لى
لينتون ، ولكنه ما كاد يلحها فى ذلك اليوم ، حتى اتقى على
واجهة الدار نظرة حذرة فاحصة ، ثم سار نحوها .. وكنت
أقف بجوار نافذة المطبخ ، ولكنى أسرعت فتواريت عن أنظاره ،
فرايته يجتاز الفناء إليها ويقول لها شيئاً .. فبدأ عليها
الضيق والحرج ، والرغبة فى الفرار منه ، ولكنه وضع يده
على ذراعها ليمنعها من المسير ، فحولت وجهها عنه . وكان
من الواضح انه اتقى عليها سؤالا ، وأنها لم تشأ الإجابة عليه ،
وعندئذ اتقى على المنزل نظرة أخرى سريعة ، وإذ حسب نفسه
بمنجاة من الأنظار ، كان الوغد من الندالة بحيث احتضنتها
وقبلها !

عندئذ هفت دون وعى :

- أيها الخائن يهوذا ! يا لك من منافق عريق ، ومخادع
اصيل !

فانبعث صوت عند مرفعى ، يقول : « من هو ذلك يا نللى ! »

كان ذلك صوت كاثرين وقد دخلت الحجرة دون ان
أشعر بها ، لاستغراقى فى مراقبة الاثنتين الواقفتين فى الخارج ،
فأجبتها فى حرارة :

- إنه صديقك الحقير ! .. ذلك الوغد المتسلل هناك ! ..
آه ! لقد لمحتنا ، وها هو ذا قادم إلى الدار . شد ما أعجب

هل يجد لديه من الصفاقة ما يتيح له أن يبرر مغالته لس
إزاييلا ، على حين أنه أخبرك بأنه يكرها ؟

وكانت مسز لينتون قد لمحت إزاييلا وهي تتخلص من
يديه ، ثم تمدو هاربة إلى الحديقة . وفي اللحظة التالية كان
هيتكليف يفتح الباب ، فهمت بأن أطلق العنان لسخطي
وأطلعته على رأيي فيه لولا أن كاترين أصرت على أن نسكنني ،
وهي غاضبة ، وهددتني بطردى من المطبخ إذا تجاسرت على
الإعمان في القحة بإطلاق لساني السليط ، وصاحت بي :

- إن من يسمعك يظنك سيده هذه الدار ! .. وإني لفي
حاجة لمن يلزمك حذرك ، ويعرفك قدرك . وإني يا هيتكليف ،
ما الذي تسمى وراه من إثارة هذه الضجة ؟ .. لقد قلت لك
إنك يجب أن تدع إزاييلا وشأنها ، وإني لأرجو أن تفعل . إلا
إذا كنت قد سئمت التردد على هذه الدار ، وتريد ، أن يوسد
لينتون أبوابها في وجهك !

فقال الشيطان الأسود ، الذي لم أمته في حياتي قدر مقني
له وقتئذ :

- سألت الله أن يجنبه هذه المحاولة ، وأن يبقى عليه نعمة
الحلم والصبر .. فإنتى أزداد كل يوم لهفة على إرساله إلى
السماء !

فتفتت كاترين وهي تفلق الباب الداخلى : « سه ! ..
وحسبك لا تردني غضبا . ولكن لماذا تجاهلت رجائي وتغاضيت
عنه ؟ .. هل اعترضت طريقك عن عمد ؟ » .

مزمجر قائلا : « وماذا يهمك من ذلك ؟ .. من حقى أن
أقبلها ، إذا رضيت ذلك ، وليس من حقك أن تعترضى ، فإنتى
لست زوجك ، ولا حاجة بك إلى أن تغارى منى ! »

فأجابت السيدة : « لست أغار منك ، وإنما تأخذنى الغيرة
من أجلك ! .. والآن دع عنك هذا التقطيب ، فانك لن تعبس
في وجهي أو تتجهم لى . وإذا كنت تحب إزاييلا فسوف
تنزوجهما ، ولكن هل تحبها ؟ .. أخبرنى بالحقيقة يا هيتكليف
.. آه ! .. إنك لا تريد أن تجاوبنى .. وإنى واثقة من أنك
لا تحبها ! »

فتدخلت في الحديث متسائلة :

- وهل يوافق مستر لينتون على زواج شقيقته من هذا
الرجل ؟

فأجابت سيدنى ساخرة : « لا بد لمستر لينتون من
الموافقة .. »

فقال هيتكليف : « بل ليوفر على نفسه هذا العناء ، لأننى
أستطيع أن أفعل ما أشاء دون حاجة إلى رضائه . وإما أنت
يا كاترين ، ففى نيتى أن أقول لك كلمتين الآن بهذه المناسبة :
أود أن تعرفى بأننى أعلم أنك عاملتى معاملة جهنمية ، هل
تسمعين ؟ .. معاملة جهنمية خبيثة . فإذا كنت تهئين
نفسك بأننى لم أعرف ذلك ، فأنت بلهاء . وإذا كنت تحسبين
أن الكلمات المسولة تخدعننى وتخفف عنى ، فأنت حمقاء ..
أما إذا كنت تصورين أننى سأحتمل ذلك دون أن أنتقم
لنفسى ، فسوف أفتنك عما تريد بعكس ما تصورين ! .. وفى

الوقت نفسه فإني أشكر لك اطلاعي على سر شقيقة زوجك .
واقسم بأن أفيد من هذا السر إلى أبعد حد . وما عليك إلا
أن تتحنى جانبا ! »

فهمت مسز ليستون ، في دهشة وذهول :

— ما هذا التطور الجديد في أخلاقك ؟ .. أقول إنني
عاملتك معاملة جهنمية ، وأنت ستأخذ بشارك ؟ .. ولكن كيف
تنوي أن تفعل أيها الوحش الجحود ؟ .. وكيف بالله عاملتك
معاملة جهنمية ؟

فأجاب هيكليف وقد غمرت حرارته قليلا :

— إنني لا أسعى للانتقام منك أنت ، فإن ذلك ليس من
خطئي . إن العافية يسحق عبده ، ولكنهم لا ينقلبون ضده .
وإنما يسحقون من بلونهم في المرتبة ! .. ومرحبا بالعذاب
أجرمه من يدك حتى الموت ، إذا كان في ذلك مسلاة لك .
ولكن دعيني فقط اتسلى قليلا بالطريقة نفسها .. ودعك من
إهانتى بقدر ما يسعك . لقد هدمت القصر الذي بنيته حجرا
فوق حجر ، حتى سويته بالأرض ، فلا تقيمي لي كوخا تم
تتبيى فخرا بفصلك وإحصائك عنديا تقدمينه لي منزلا ! ..
ولو خطر ببالي أنك تودين حقا أن أتزوج إيزابلا ، فإني
أكون غرا لا يستحق الحياة !

فصاحت كالترين :

— آه ! .. لقد أغاظك أنني لا أحس بالفيرة ، اليس كذلك ؟
حسنا ، لن أعيد ما عرضته من زواجك بإيزابلا ، فذلك أشبه

بتقديم روح ضالة إلى الشيطان . ولعمري إن هناك وسعادتك
إنها ينبعان من إشاعة الشقاء بين الناس ! .. وهذا ما أثبتته
لي . لقد هدات حدة غضب أديار واستيائه من عودتك ،
وبدات أشعر بالأمن والدعة والهدوء ، ولكنك إذ يهولك أن
ترانا نعيش في سلام ، تصمم على أن تثير المتاعب والشجار .
أذهب يا هيكليف فتشاجر مع أديار ، إذا طاب لك أن
تفعل ، وأخدع شقيقته وغرر بها ، فإني بذلك تقع تماما على
خير وسيلة تنتقم بها لنفسك مني !

واقطع الحديث عند هذا الحد ، فجلست مسز ليستون
بجوار المدفأة ، متوردة الوجه ، يرسم على محياها الحزن
والكآبة ، فإن المارد الذي أخرجته من القمقم ليخدمها قد تمرد
عليها ، فلا هي قادرة على إعادته ، ولا هي مستطيعه السيطرة
عليه ! .. أما هو فقد وقف أمام المدفأة معقود الفراعين فوق
صدره ، مستغرقا في التفكير في خواطره الشريرة .. وعلى
هذا الوضع تركتهما وذهبت إبحث عن السيد الذي كان
يعجب مما أبقى كالترين أسفل الدار كل هذه المدة ! .. وما
كدت أدخل عليه حتى سألني :

— هل رأيت سيدتك يا إيلين ؟

— نعم ، إنها في المطبخ يا سيدي ، وقد أغضبها مسلك
مستر هيكليف إلى حد يثير الشجن . والحق يا سيدي أنني
أرى الوقت قد حان لتنظيم زيارته على أساس آخر . فمن
الضرر البالغ أن يعامل بالرفق واللين بعد أن وصل الأمر
الآن إلى هذا الحد !

لم مضيت أقص عليه ما حدث في الغناء ، وما تلا ذلك من نقاش حاد ، بعد أن أغضيت عن ذكر ما لم أجرؤ على قوله . وقد خطر لي أن ذلك لن يسوء كثيراً إلى مسز لينتون ، ما لم تسوء هي إلى نفسها فيما بعد إذا ما اتخذت موقف الدفاع عن ضيفها . أما مستر لينتون فقد نفذ صبره قبل أن أتم حديثي ، وكانت كلماته الأولى تنم على أنه لا يخلو كاترين من اللوم ، فقد صاح :

- هذه حالة لا تطاق ، ومن العار أن تتخذ كاترين منه صديقا وتفرض صحبته على فرضا ! .. استدعي يا نللي خادمين إلى البهو ، فلن ادع كاترين تمهل طويلا في النقاش مع الوغد المنحط . لقد جاملتها بما فيه الكفاية !

ونزل إلى الطابق الأرضي ، وأمر الخادمتين بالانتظار في العمر ، ثم مضى إلى المطبخ ، فتبعته ، وراينا الصديقين قد عاودا مناقشتها الثائرة .. أو بالأحرى كانت مسز لينتون ممعنة في تقريره من جديد بقوة وصرامة . أما هيكليف فكان يقف عند النافذة ، مطاطيء الرأس ، وقد بدا مرتاعا - إلى حد ما - من ثورتها العنيفة حياله . وكان هو أول من رأى السيد ، فأومأ إليها بإشارة سريعة أن تخلد إلى الصمت ، وما لبثت أن كفت عن الكلام بفتة وقد اكتشفت سبب إشارته .. ويذا لينتون يقول :

- ما معنى هذا ؟ .. وعلى أي وجه تفهمين الحنسيمة واللباظة إذا كنت تبقين هنا وتصفين إلى الألفاظ التي يصيها في مسامحك هذا السفية البذيء اللسان ؟ ! .. ولكن احسبك

لا ترين فيها شيئا ، إذ هي لغته المعتادة ! .. لقد ألفت ضمعة وانحطاطه ، ومن يدري لمعلك تتخيلين أن يومسعي أن ألفها كذلك !

- هل كنت تسترق السمع من وراء الباب يا أديجار ؟

ولقد نطقت السيدة بهذه الكلمات في لهجة عثرت باستخدامها كي تشير زوجها وتستغزه ، إذ كانت تنطوى على الاستخفاف وازدراء ثورته ، معا ..

أما هيكليف ، فقد رفع رأسه عند سماعه حديث سيدي ، وما لبث أن اطلق ضحكة ساخرة مستهزئة إذ سمع ما قاله السيدة .. ولعله قصد أن يشير انتباه مسز لينتون إليه ، وقد نجح في ذلك حقا .. ولكن أديجار لم يكن في نيته أن يعامله في غضب جامع ، فقال في هدوء :

- لقد ترفقت بك طويلا يا سيدي ، لا لأنني أجهل سوء خلقك التعس ، ولكن لأنني كنت أشعر أنك غير مسئول عن ذلك تماما .. قلما أرادت كاترين أن تبقى على معرفتك ، وافقتها في حق ويلاهة .. بيد أن وجودك قد عدا سما أدبيا يدنس أكثر الناس فضيلة وتقاء . ولهذا السبب ، ولكن ننقي سوء العاقبة ، فإنني امتنعت من الحضور إلى هذا المنزل بعد الآن ، وأطلب إليك الانصراف في الحال .. فان تأخرت ثلاث دقائق ، فسوف يكون خروجك قسرا وبطريقة مخزية !

فنظر إليه هيكليف وهو يتدبس طوله وعرضه بعين ملأى بالزراية والاستهزاء ، ثم قال : « كالي .. إن حملك هذا

يهدد ويتوعد بلغة الفحول !.. وانه لفي خطر من تهديم
جيجته على مفاصل تبضتي . يا إلهي ! .. شد ما يؤسفني
يا مستر لينتون أنك لست أهلا لأن أصررك ! »

فنظر سيدي ناحية العمر ثم أشار إلى أن ادعو الرجلين ،
إذ لم يكن في نيته أن يخاطر بعراك مباشر مع هيثكليف ،
فأطاعت إشارته ، ولكن مسز لينتون ارتابت في أن هنك
شيئا ما ، وتبعنتي .. فلما حاولت نداء الرجلين ، فظننت
للأمر فيجذبنتي إلى الداخل ثانية . ودفعت الباب فأغلقتة ،
ثم أوصدته بالمفتاح !

ونظر إليها زوجها في دهشة وغضب ، فقالت ردا على
تساؤله :

- يا لها من وسائل شريفة تتعبها !.. إذا كانت الشجاعة
تعوزك لمهاجمته ، فاعتذر إليه ، أو دعه يهزمك !.. وسوف
يشفيك ذلك من غرورك وتظاهره بأكتر مما أنت عليه من قوة
وبأس . كلا ، سوف ابتلع المفتاح قبل أن تأخذه مني ..
يا إلهي !.. لقد لقيت منكما أطيب جزاء على ما أسديتة
لكليكما من فضل وعطف .. وبعد طول تسامحي واحتمالي
المستمر لضعف احدكما وسوء خلق الثاني ، ألقى الشكر
منكما ممثلا في نموذجين من الجحود الأعمى ، والحقق
السخيف .. لقد كنت أذافع عنك وعن ذوك يا ادجار ،
ولكني أتمنى الآن أن يجلدك هيثكليف بالسياط حتى تخور
تواك ، جزاء تجاسرك على سوء ظنك بي !

ولم يكن السيد في حاجة لهذه التجربة حتى يحل به ذلك
الخور ، فقد حاول أن يفتزع المفتاح من قبضة كاترين ، ولكنها
رات الأسلم أن تلقى به وسط شعلة النار المتأججة في الموقد .
وعندئذ أخذت مستر ادجار رعدة عصبية شديدة ، وشحب
وجهه حتى أصبح كوجوه الموتى - إذ لم يكن في وسعه أن
يقهر ذلك الفيض من الانفعال والتأثر ، إيقاء على حياته -
وهكذا قهره ذلك المزيج من الألم والهوان ، فاستند إلى ظهر
أحد المقاعد ، وأخنى وجهه بين يديه .. فاستطردت مسز
لينتون هائفة :

- آه !.. يا للسما !.. أو كنا في الأيام الخوالي لأحرزت
رتبة الفروسية لمسلحك هذا !.. لقد قهرنا ، وغلبنا على
امرنا !.. ولن يرفع هيثكليف إصبعاً عليك ، إلا كما يجرد
الملك حملة من جيشه لتأديب عصبة من الجرذان !.. ولكن
ابشر وتر عينا ، فلن يصيبك سوء البتة . إن من كان على
شاكلتك لا يعد حملا ، وإنما هو أرتب رضيع !

فقال صاحبها : « شد ما أود أن تنتهي فرحا بهذا الجبان
الذي يجري في عروقه اللبن بدلا من الدماء !.. وإني أهنتك
بذوقك وحسن اختيارك ، فهذا هو الرعدي الذي يسبل
ريقه على ذقنه ، والذي فضلته على .. إنني لا أرضى بأن
أضربه بقبضة يدي ، وإنما تكفي ركلة من قدمي لترضيني
كل الرضاء .. أترينه يبكي ، أم هو مشرف على الإغماء خوفا
وفرقا ؟ »

وذنا هيثكليف فركل يقدمه المقعد الذي يستند إليه

لينتون . ولقد كان خيرا له الا يقترب إلى هذا الحد ، فإن سيدي رفع قامته في وثبة سريعة ، ولطمه بجمع يده على رقبته لطمة كانت كفيفة بأن تصرع شخصا أضعف بنية من هينكليف ، الذي انقطعتم انفساه لحظة . . وفيما كان لا يزال يحشرج بأنفاسه ، خرج مستر لينتون من الباب الخلفي إلى الفناء ، ومته إلى المدخل الأمامي . . عندئذ صاحت كاثرتين :

- أرايت ؟ . . هانت قد قطعت على نفسك سبيل الحضور إلى هنا . . فانصرف الآن ، لأنه سوف يعود وفي يديه زوج من المسدسات ، ومعه ثلة من الأعوان . . وإذا كان قد سمع ما قلناه ، فلن يصمغ عنك بطبيعة الحال ، فإنك يا هينكليف قد أسأت إليه إسائة بالغة . . ولكن اذهب . . أسرع . . فرائي افضل أن أرى ادجار في ورطة عن أن أراك أنت . .

فيدر هينكليف بصوت كالرعد :

- انظنين أنني أذهب وهذه اللطمة ما زالت تحرق حلقى ؟ . . يا للشيطان ! . . كلا ، بل سوف احطم ضلوعه كبندقية معطوبة قبل أن اخطو خطوة خارج الدار . . وإذا كنت لا اطرحه أرضا الآن ، فتقى أنني سوف اقتله يوما من الأيام . وما دمت تقيمين وزنا لحياته ، فدعيني أثار لنفسى منه وأنا له الآن !

فتدخلت أنا قائلة ، وقد استبحت لنفسى شيئا من الكلاب :

- إنه لن يأتي إلى هنا ، بل سيرسل الحوذى والنين من البستانيين . . ومن المؤكد أنك لن تنتظر حتى يلقوا بك في

عرض الطريق . . ثم أن كلا منهم يحمل هراوة غليظة ، وسوف يرقبهم السيد من نافذة البهو ليرى أنهم قد نفذوا أوامره . .

وكان الحوذى والبستانيان موجودين حقا ، ولكن لينتون كان معهم . . وكانوا قد اجتازوا الفناء بالفعل ، ففكر هينكليف في الأمر ، وقرر أن يتحاشى المراك مع الخدم الثلاثة ، وتناول محرك النار فهشم به قفل الباب الداخلي ، واتخذ سبيله إلى الفرار ، في الوقت الذي كانوا يدخلون فيه من الباب الآخر . .

وكانت ممسز لينتون شديدة الانفعال ، فأمرتنى بأن أرافقتها إلى الطابق العلوى . . ولم تكن تعرف شيئا عن الدور الذي لعبته في إثارة هذه المشكلة ، كما أنني كنت متلهفة على أن تظلم في جهلها هذا . .

والقت بنفسها فوق الأريكة في حجرة الجلوس ، وهى تصبح :

- إننى اكاد افقد عقلى يا نللى . . واحس بالف من مطارق الحدادين تهوى على راسى . . قولى لايزايبلا أن تتجنب لغائى ، فإن هذه الضجة الكبرى إنما نشبت بسببها . . وإذا طاب لها ، أو لاي شخص آخر أن يزيد من غضبى في هذه اللحظة ، فسوف اغدو ضاربة متوحشة . ثم قولى لادجار يا نللى ، إذا رايته ثائية الليلة ، إننى في خطر الإصابة بمرض خطير . . وليت ذلك يحدث فعلا . لقد افزعنى وأحزنتنى وأصابنى بهم خائق ، ولذلك أريد أن افزعه بدورى . . ثم إنه

قد يأتي ليبدأ حلقة جديدة من الإهانات أو التدمير والشكوى .
 وإني واثقة من أنني سوف أقابل الإهانة بمثلها ، وعندئذ
 لا يعلم إلا الله إلى أين ينتهي بنا الأمر .. هل فعلين ذلك من
 اجلى ، يا عزيزتى نللى الطيبة ؟ .. انك تعلمين اننى لا يمكن
 ان الام ، بحال من الاحوال ، فيما حدث .. فما الذى اصابه
 حتى جعل منه متسهما على الأبواب ؟ .. لقد كان حديث
 هيثكليف مشينا بعد ان تركتنا ، ولكننى كنت كغيلة بان اصرفه
 سريعا عن ايزابيلا ، وما بقى بعد ذلك لا يعد شيئا مذكورا ..
 ولكن كل شيء اندفع في الطريق الخاطيء الآن ، بسبب لهفة
 ذلك الاحمق على سماع كلمات السوء التى تقال عنه ، وهى
 نزوة تمتلك بعض الناس كشيطان يسكن ابدانهم ! .. ولو ان
 ادجار لم يسمع على حديثنا قط ، لما اصابه من السوء اكثر
 مما اصابه . والواقع انه عندما اقتحم على الباب ، وخاطبني
 بتلك اللهجة الحمقاء ، وذلك الحنق السخيف ، بعد ان كنت
 انهار على هيثكليف لوما وتقريرا - حتى بح صوتى - من
 اجله ، احسنت باننى لم اعد ابالى ما يفعله كل منهما بالآخر
 .. خصوصا وقد شعرت بانه على اى وجه ينتهى ذلك
 المشهد ، فإنا سوف يتمزق شملنا لدة لا يعرف احد مداها .
 حسنا ، إننى إذا عجزت عن الاحتفاظ بصداقة هيثكليف ،
 وإذا اقلب إدجار حقودا غيورا ، فسوف احاول تحطيم
 قلبهما بان احطم قلبى بنفسى .. فملك اسرع الوسائل لإنهاء
 كل شيء ، إذا ما وجدت نفسى مسوقة إلى ابعاد الحدود ..
 ولكنه عمل ينهض إرجاؤه حتى يخيب الأمل وينقطع الرجاء ،
 ولن أفاجئه لينتون به . لقد ظل حتى الآن حريصا على

الخوف من إثارتى ، فعليك ان تطلبى له خطورة تخليه عن
 هذه السياسة ، وان تذكره بحدة طبعى وسرعة تأثرى ، بحيث
 اتعدو على حافة الجنون إذا اضطرت نيران غضبى . وكم أود
 يا نللى ان تصرفى عن اساريرك هذا الجمود والتبلد ، وان تلوحى
 اكثر لهفة وقلقا على !

ولا ريب ان الفتور الذى كنت اطلقى به هذه التعليمات
 كان مما يثير الحنق والسخط ، فقد كانت تعليمها على بلهجة
 مليئة بالحرارة والاخلاص ، ولكننى كنت اعتقد ان الشخص
 الذى يستطيع تدبير نتائج نوبات غضبه مقدما ، يستطيع بالمثل
 ان يدبر كيف يسيطر على نفسه حتى ولو عانى آثارها . ثم
 إننى لم اكن أريد ان « افزع » السيد ، كما قالت ، واضاعت
 من احزانه ، خدمة لاثانيتها .. لذلك لم اقل للسيد شيئا
 عندما التقيت به قادما إلى حجرة الجلوس ، ولكن ابحت
 لنفسى ان اعود ادراجى لانتصت إلى حديثها ، واعلم ان كانا
 سيعودان إلى الشجار ثانية . وكان هو البادئ فى الحديث ،
 إذ قال فى هدوء ، دون ان تشوب صوته شائبة من غضب او
 حنق ، بل كانت نبراته تتسم بالقنوط والأسى ، قال :

— ابقى حيث انت يا كاترين ، فلن ابقى طويلا . وما اثبت
 لاجادلك او لتصالحينى . كلا ، وإنما اريد فقط ان اعرف
 إذا كنت - بعد احداث هذا المساء - تنوين الاستمرار فى
 سلتك الوثيقة مع ..

فقاطعتها السيدة وهى تدق الأرض بقدمها :

- رحماك ! .. رحماك ! .. بحق السماء لا ندعنا نسمع
المزيد عن هذا الأمر الآن ! .. إن دماغك الباردة لا يمكن أن
تجعلك تصاب بالحمى ، كما أن عروقك مليئة بماء مثلج ، على
حين بلغت عروقتى درجة الغليان . ومجرد رؤيتى لمثل هذه
البرودة القارسة تجعلها تتراقص من حرارة الحمى ! .

علم تلقن فناة مستر لينتون ، بل مضى يقول فى إصرار :

- عليك أن تجيبى على سؤالى إذا أردت الخلاص منى ،
بل لا بد لك من الإجابة عليه . وهذا العنف الذى يتملكك
لا يقلقنى ولا يهمنى ، فقد تبينت أن بوسعك أن تكونى رابطة
الجأش قليلة الاكتراث ، كائى انسان آخر إذا أردت . فهل
تنوين التخلّى عن هيثكليف بعد الآن ، أم تريدن التخلّى عنى ؟
.. من المحال عليك أن تكونى صديقتى وصديقتة فى نفس
الوقت ، وإنى أصر تماما على معرفة اينما تختارين ..

فصاحت كاترين نائرة : « وإنى أصر على أن اترك وحدى
الآن . إننى أطلبك بذلك .. الا ترانى لا أكاد أستطيع الوقوف !
.. ادجار .. دعنى .. اتركنى ! »

وراحت تشد حبل الجرس حتى انقطع وهو يدوى برنين
متصل .. فدخلت الحجرة متمهلة ، فإن مثل هذه الثورات
الشريفة الحمقاء خليفة بان ثير حنق القديسين ! .. ووجدتها

مستلقية تضرب رأسها بلراع الأريكة ، وتصرف يأسانها
حتى ليخيل إليك انها منحطهما حتى تتناثر شظاياها . وكان
مستر لينتون واقفا ينظر إليها وقد تملكه الخوف ، بل ووخز
الضمير . فجأة ! .. وأمرنى بان احضر بعض الماء ، على
حين كانت منقطعة الانفاس ، لا تستطيع التلق . واحضرت
كوبا مليئة بالماء ، ولما رفضت أن تشربها ، سكبتها فوق
وجهها . وبعد ثوان معدودة كانت قد مدت جسمها المتصلب ،
وقلبت عينها . بينما ابيضت وجنتاها ثم ازرقتا ، واتخذت
سمة الموتى .. فبدا لينتون فزعا مرناها ، ولكنى همست
أقول له :

- لا شئ البتة .. لا شئ بها !

فقد كرهت ان يلين ويستسلم ، ولو اننى كنت احس
بالخوف فى اعماق قلبى .. فقال وقد اخذته قشعريرة
شديدة :

- إن الدماء تسيل من شفيتها !

- لا بأس .. فما بها من شئ !

ثم رويت له كيف صممت ، قبل مجيئه ، على تمثيل نوبة
من الصرع امامه . ولكنى لم احاذر ، وتكلمت بصوت مرتفع ،
فسمعتنى .. إذ انتفضت واقفة ، وقد انسدل شعرها فوق
كتفها ، ومضت عينها ببريق مردع ، وتوترت عضلات

رقيتها وذراعيها على نحو غير طبيعي .. فوطنت نفسي على انها ستشتم عظامي ، على اقل تقدير . ولكنها اكتفت بالتحديق فيما حولها بنظرات نارية ، ثم اندفعت بفتة خارجة من الحجرة ، وامرني السيد بان اتبعها ، فلتبعتها حتى باب حجرتها ، حيث دخلت واغلقتة في وجهي ..

ولما لم تنزل لتناول الإفطار في الصباح التالي ، مضيت إليها لاسألها هل تود ان نحمله إليها ، ولكنها اجابت في لهجة قاطعة : « كلا ! » .. ثم كررت عليها السؤال ساعة الغداء ، ثم في موعد تناول الشاي بعد الظهر ، وفي صباح اليوم التالي .. فكننت اطلقى نفس الإجابة الحاسمة . اما مسرر لينتون فقد قضى طيلة الوقت في المكتبة ، ولم يسأل قط عما تفعله زوجته .. وكان قد قضى ساعة مع ايزابيلا على انفراد ، حاول خلالها ان يستخلص منها ما يشم على ارتياحها وفرحها من تقرب هيثكليف إليها ، ولكنه لم يفر بطائل من إجاباتها المبهمة التي لم تقصد منها إلا المراءوفة والتهرب ، حتى اضطر اخيرا إلى إنهاء استجوابه ، دون ان يقنع بنتيجته .. غير انه ختم حديثه معها بتحدير صارم ، وهو انه إذا كانت هي من الجنون بحيث تشجع ذلك الدعي الحقيير ، فإن ذلك سوف يقطع كل اواصر القرابة التي تربط بينها وبينه !

الفصل الثاني عشر

بينما كانت مس لينتون تفضى الوقت في حزن واكتئاب ، متنقلة بين البستان والحديقة ، في صمت دائم وهم مقيم ، وعبراتها لا تكاد تكف عن الانهيار ، وبينما كان اخوها يحبس نفسه في المكتبة ، ويعيش بين كتب لم يفتحها قط ، وفي صحبته السام والكلال ، كنت من ناحيتي احس ، في توقع غامض مستمر ، بان كاترين لن تلبث ان تندم على مسلكها ، وتأتي طبيعة ، فتطلب الصفع من زوجها ، وتسعى إلى مصالحته واسترضائه .. وقد ظلت مضربة عن الطعام في إصرار وعناد ، ولعلها كانت تعتقد ان زوجها كان يفس بالطعام ، في كل وجبة ، حزنا على غيابها ، وان الكبرياء وحدها هي التي تمنعه من ان يهرع إليها ويلقى بنفسه تحت قدميها .. ومضيت في اداء واجباتي المنزلية كالمعتاد ، وقد اقتنعت بان (الجرائح) لا يؤدي إلا نفسا واحدة معقولة ، هي التي تسكن بدني ! .. وما حاولت قط ان اسرى عن الآتية ، او ازرع السيدة واؤنبا ، إذ كان ذلك عبثا لا طائل ورائه .. كما لم الق بالا إلى تاوهات سيدي الذي كان يحن لسماح اسم زوجته ، ما دام لا يستطيع ان يسمع صوتها ! .. وسمعت على ان ادعهم وشأتهم حتى يلجأوا لي بمحض اختيارهم . وعلى الرغم من ان الطريق إلى ذلك كان يبدو طويلا مضنيا ، إلا إنني انتهجت أخيرا إذ لمحت بصيصا من القشياء يبنى ببزوغ فجر التقدم ، كما قدرت من بادئ الأمر .

ففى اليوم الثالث فتحت مسز لينتون باب حجرتها ؛ وكان الماء قد نفذ من الاباريق التى كانت عندها ، فطلبت مزيدا منه ، كما طلبت بعض الثريد ، لانها كانت ، فيما تعتقد ، مشرفة على الموت . وقد اعتبرت هذا الكلام مهيئا لمسامع ادجار ، ولم اصدق ان حالتها بلغت هذا الحد من السوء ، ولذلك احتفظت به لنفسى ولم انقله لسيدى . واحضرت لها قليلا من الشاي ، وبعض الكعك الجاف ، فآكلت وشربت بنهم شديد ، ثم استلقت على وسادتها ثانية ، وراحت تشدد الضغط على راحتيها ، وتناوه قائلة :

- آه ! ..! إننى موشكة على الموت ، طالما ان احدا لا يبالي بشئ مما يحدث لى .. ليتنى لم آكل شيئا !

ومضت برهة طويلة ، قبل ان اسمعها تغمغم ثانية :

- كلام . لن أموت ، فسوف يسره موتى .. إنه لا يجبنى قتل ، ولن يقتدنى البتة !

وظللت محتفظة بجمودى الظاهر ، على الرغم من الصفرة الشديدة التى كانت تكسو محياها ، وتلك الحالة الغريبة التى اغترتها .. ولكنى سالتها :

- هل طلبت سيدتى شيئا ؟

فقاتت وهى ترفع خصلات شعرها المشعثة الكثيفة من فوق وجهها المنهوك : « ما الذى يفعله ذلك المخلوق الجامد الحس ؟ .. هل استغرق فى غيبوبة ، أم أنه قد مات ؟ » .

- إذا كنت تقصدين مسز لينتون ، فلم يصبه هذا ولا ذاك ! .. إنه ، فيما اظن ، فى حالة لا بأس بها ، ولو أن

دراساته تستغرق معظم وقته وتشغله أكثر مما ينبغي . إنه دائما بين كتبه ، واحسب ان ذلك يرجع إلى أنه لا يجد صحبة اخرى يسكن إليها !

وما كان ينبغي ان اتول لها ذلك لو اتنى عرفت حقيقة حالها ، ولكنى لم استطع التخلص من الفكرة التى كانت تتسلط على وقتل ، وهى ان شطرا كبيرا من سوء حالتها إنما كان تمثيلا فى تمثيل ! .. ولم أكد افرغ من عبارتى حتى صاحت فى دهشة واضطراب :

- بين كتبه ؟ .. بينما أموت هنا ؟ .. بينما انا على حافة القبر ! .. يا إلهى ! .. هل يعلم كيف تغيرت ؟

ثم استطردت وهى تحلق فى صورتها المنعكسة فى المرآة على الجدار المقابل : « أهذه كالرئس لينتون ؟ لعله يحسبى اندل ، أو امثل عليه دورا ! .. الا يمكنك ان تخبريه ان الأمر جد فى جد ، وأنه بلغ درجة خطيرة مروعة ؟ .. نللى ، إذا لم يكن الأوان قد فات ، فىلنى بمجرد ان اعرف حقيقة شعوره سوف اختار بين هذين الأمرين : إما ان اضرب عن الطعام والشراب فى الحال - ولن يكون ذلك عقابا له إلا إذا كان له قلب يحس ويتألم - وإما أن استجمع قواى ، واغادر البلاد نهائيا .. ولكن هل قلت الصدق فيما أخبرتنى عنه ؟ .. حذار يا نللى ! .. هل هو الآن قليل الاكتراث لحيائى إلى هذا الحد ؟ »

فاجبتها : « لماذا يا سيدتى ؟ .. إن السيد ليست لديه أية فكرة عما اصابك من اضطراب ، ولذلك فإنه بطبيعة الحال

لم يخامرهُ أى خوف من أنك ستتركين نفسك تموتين من الجوع ..»

- أظنن اننى لن أفعل ..؟ الا يمكنك ان تخبريه اننى سأفعل حتماً ..؟ اوحى إليه بذلك . تكلمى كأنك تفعلين من تلقاء نفسك . غولى له إنك واثقة من اننى سأقضى على نفسى جوعاً ..

فاعترضت قائلة : « كلا ، لعلك نسيت يا مستر لينتون أنك أكلت بعض الطعام الليلية في شهية ولذذ ..! وسوف تبدو عليك آثاره الطيبة فدا .. »

فقاطعتنى قائلة :

- لو اننى فقط كنت واثقة من ان ذلك سوف يقضى عليه ، لتقلت نفسى بغير تردد .. لقد قضيت هذه الليالى الثلاث دون ان يغمض لى جفن و .. أواه ! .. لقد لقيت أشد العذاب ، وأقضت مضجعى الأشباح يا نللى .. ولكنى بدأت اشعر بأنك لا تحبيننى . الا ما أعجب ذلك ! لقد حسبت انهم وإن كرهوا بعضهم بعضاً ، إلا انهم جميعاً لا يملكون إلا ان يحبونى .. فإذا بهم جميعاً يتغلبون اعداء لى في خلال ساعات قلل . إن الجميع هنا قد أصبحوا اعداء لى ، لى واثقة بذلك تماماً .. وما أفظع ان يلقى المرء الموت بينما تحيط به وجوه جامدة غير مكتربة : فيبزابيلا ، يملؤها الغزع والنفور وتخشى ان تدخل الغرفة حتى لا تروع لرؤية كاترين وهى تلفظ اتفاسها الاخيرة .. بينما يقف ادجار بجانبى في رسالة ليرتقب انتهاء كل شىء ، وبعد ذلك يقيم الصلوات شكراً لله

على إعادة السلام إلى هذا المنزل ، ثم يعود ثانية إلى كتبه ! .. ولكن بحق كل ذى شعور وإحساس ، ما شأنه بالكتب بينما أنا مشرقة على الموت ؟

والواقع انها لم تستطع احتمال الفكرة التى بثتها في رأسها من استسلام مستر لينتون للأمر الواقع في فلسفة غريبة .. قرأحت تدور في الفراش ، وتزيد من حركاتها المحمومة حتى قدت أشبه بحركات المجانين ، ثم أخذت تمزق الوسادة بأسنانها ، وأخيراً رفعت كتفها ، وهى تحس بحرارة شديدة تسرى في بدنها ، فطلبت إلى ان أفتح النافذة .. وكنا في وسط الشتاء ، كما كانت الرياح تهب من الشمال الشرقى قوية قارسة البرد ، فاعترضت على فتح النافذة ، وقد تملكنى القلق والدمع من التعبيرات الغريبة التى تتلاعب بأساريرها ، والتبدل العجيب الذى يصاحب حركاتها ، وذكرت مرضها السابق وتعذير الطبيب من عدم معارضتها أو الوقوف في وجه رغباتها .. وكانت فائرة عنيقة منذ لحظة ، اما الآن فقد استندت إلى إحدى ذراعها ، دون ان تنتبه إلى رفض فتح النافذة ، وبدت كأنما تجد تسلية سببانية في جذب الريش من الثعوب التى أحدثتها بالوسادة ، ثم تنسيفه فوق الملاءة إلى اسنانه وانواعه المختلفة .. كان عقلها قد شرد إلى أماكن أخرى ، وبدات تفهم محدثة نفسها :

- هذا ريش ديكة رومية ! .. وهذا ريش بط برى ! .. وهذا ريش الحمام .. آه ، إنهم يضعون ريش الحمام في الوسائد .. لا عجب إذن إذا كنت لم أجد سيلاً إلى الموت !

.. سوف اعنى بإلقائه على الأرض عندما أستلقى على الفراش . وهذا ريش أوز الأحرش ، أما هذا - ولابد من أن اعرفه وسط آلاف الريش - فهو ريش « القمري » ، ذلك الطائر الطيب الجميل الذي كان يرفرف فوق رؤوسنا في وسط الأحرش .. لقد كان يريد الوصول إلى عشه ، لأن السحب كانت قد بلغت رؤوس التلال ، فأحس بإقتراب المطر .. ولكن هذا الريش جمع من وسط المروج ، فإن أحدا لم يصيد القمارى قط ، وقد رأينا عشه في الشتاء مليئا بالهياكل الصغيرة ، لأن هتكليف ، كان قد نصب لفاخا حول العش ، فلم تجرؤ الطيور الكبيرة على القدوم إلى العش وتركت أفراسها حتى نفقت .. وقد جعلته بعد أنه ان يصيد القمارى بعد ذلك قط ، وقد وفى بوعده ! .. نعم . ها هنا الكثير منها .. هل حصاد قمارى يا تلى ؟ .. وهل كان بينها قمارى حمراء ؟ .. دعيني ار !

فقاطعتها قائلة : « دعى هذا العشب الشبيه بلعب الأطفال .. »

.. ثم جذبت الوسادة من يدها ، وقلبتها فجعلت الثقوب ناحية الحشية ، لأنها كانت تخرج الريش منها حفنة بعد حفنة ، واستطردت : « أرقدى وأغمضى عينيك ، فإتك تهدين ! .. لقد ملأت الغرفة بالريش الذى يتطاير فيها كأنه الثلج المنعوف ! »

ومضيت لتقط الريش من هنا وهناك ، وإذا بها تتابع كلامها قائلة :

- إننى أرى فيك يا تلى امرأة كهلة ، مجللة الرأس بالشعر الأشيب ، محتية الكتفين ! .. وكان فراشى هذا قبو الجنيات تحت صخرة (بنستون) ، بينما تنهكين في جمع السهام ذات الرؤوس الصخرية المدببة ، لتقتلى بها ابقارنا وماشيتنا ! .. ثم تزعمين عندما ترينى قريبة منك أنها ليست إلا خصلات من الصوف ! .. هذا ما سوف يصير إليه امرك بعد خمسين عاما ، أما الآن ، فأعرف أنك لست كذلك .. آه ، إننى لا اهذى كما تزعمين . انت مخطئة ، وإلا فلابد لى من الاعتقاد أنك كنت حقا تلك الشمطاء العجفاء ، وإننى كنت تحت صخرة (بنستون) ، ثم إننى اشعر بان الليل ارضى سدوله ، وأرى شمعتين على المسائدة تنعكس أضواؤهما على المكواة السوداء فتتألق صفحتها كالكرمان الأسود !

قصحت قائلة : « المكواة السوداء ؟ .. أين هى ؟ .. هل تحلمين ، أم تتكلمين في نومك ؟ »

- إنها هناك ، مستندة إلى الجدار ، كما كانت دائما ! .. ولكنها تبدو عجبية الآن ، فإنى أرى في صفحتها وجها !

فعدت إلى مقعدى ، وتحت فرجة في ستار الفراش حتى استطيع مراقبتها ، ثم قلت : « لا توجد مكواة في الحجرة ، ولم توجد بها في يوم من الأيام .. »

ولكنها مضت تحملق بصرها في المرأة في قلق ، قائلة :

- الا ترين ذلك الوجه ؟

وعبنا حاولت إفهامها أن ذلك كان وجهها هي ، فنهضت وغطيت المرأة بشال كبير ، غير أنها استطرقت في إلحاح ولهفة : « إنه لا يزال هناك ، خلف الشال .. ثم إنه يتحرك من هذا ؟ .. أرجو الا يخرج من مكانه عندما تفادون الحجر .. اوه يا نللي !.. إن الحجر مسكونة بالأشباح ، وإني خائفة من البقاء فيها بمفردي ! »

فتناولت يدها بين يدي وطلبت إليها أن تهدأ وتستريح ، إذ كان بدننا كله قد أخذته رعشات متوالية كانت تهزه هزا ، ولكنها ظلت تحدق ببصرها في المرأة ، لا ترخي عينيها عنها .. فألححت عليها قائلة : « لا يوجد أحد هنا البتة . لقد كانت صورتك أنت يا مسز ليتهاون ، وقد عرفتها بنفسك منذ لحظات ! »

فقلت لاهثة : « صورتى أنا ؟ .. وها هي الساعة تدق الثانية عشرة ؟ .. هذا صحيح إذن .. آه ..! ما أظن ذلك ! »

وتشبثت أصابعها بثوبها فرفعته حتى غطت به عينيها .. وعندئذ حاولت أن أسترق الخطى إلى الباب وفي نيتي أن أدعو زوجها ، ولكني أسرعرت بالعودة إليها إذ أطلقت صرخة ناقبة ، وكان الشال قد سقط من فوق إطار المرأة ، فصحت بها قائلة :

— ماذا جرى ؟ .. وما هذا الجبن الآن ؟ أستيقظي ، فإنها المرأة .. المرأة يا مسز ليتهاون ، وانت تترين نفسك فيها ، وهأنذا أظهر فيها كذلك ، إلى جوارك .

وامسكت بي في قوة وهي ترتعد في وجل وذهول ، وما لبث الفرع أن انتشع عن أساريرها لتدرجيا ، وتحول شحوبها إلى تورد الخجل وهي تنتهد ، قائلة :

— اواه يا عزيزتي ! .. لقد حسبتي في منزلي . خيل إلى أنني راقدة في حجرتي « بمرتفعات ويدرنج » ، وقد اختلط عقلي بسبب ما أعانيه من ضعف ، فصرخت بغير وعي أو شعور .. لا تقولي شيئا ، ولكن امكثي معي ، غابت أخشى النوم ، لأن أحلامي ترعبني وتزعزعي !

— بل إن النوم العميق سوف يقيدك يا سيدتي ، وأرجو أن تكون الآمك هذه مانعة لك من الصيام مرة أخرى ..

فعدادت تقول في مرارة ، وهي تعصر يديها وتفركهما :

— آه ، ليتني الآن في فراشي الصغير بالمنزل القديم ! .. وهذه الرياح تزفرف بين أغصان الشربين بجوار نافذتي . الا أذعيني أحسها واستنشقتها يا نللي ، فإنها تنحدر من البراري رأسا . دعيني أوشف منها مرة واحدة !

وفي سبيل مرضاتها وإراحتها ، أمسكت بمصراع النافذة وواربته بضع ثوان ، فاندفع منه هواء مثلج ، جعلني أبادر إلى غلقه والعودة إلى مكاني .. وكأنت عندئذ ترتعد في يسكون ، لا تتحرك ولا تتكلم ، وقد سبج وجهها في بحر من الدموع . كان الارهاق البدني قد طغى على هياجها النفسي ، ولم تهدأ كالتربن الغضوب الثائرة أكثر من طفل بالك ذليل ..

ودبت فيها الحياة لتسألني بغتة :

- كم مضى من الوقت منذ حبست نفسي هنا ؟
- كان ذلك مساء الاثنين ، ونحن الآن في ليلة الخميس ، أو بالأحرى صباح الجمعة !
- ماذا ؟ .. الاثنين والجمعة من الأسبوع نفسه ؟ ..
- هذه المدة القصيرة فقط ؟
- إنها طويلة بما فيه الكفاية لمن لا يعيش إلا على الماء القراح وحدة الطبع !

فغمغمت قائلة في ارتياب : « حسنا ، إنها تدو ساعات كليلة متقاتلة ، ولا بد أن تكون أكثر من ذلك .. فأتى أذكر ما حدث لى في البهو بعد أن تشاجرا ، حين راح ادجار يستفزنى في نسوة فانتقلت أمدو هاربة إلى هذه الحجرية وقد تملكنى اليأس . وما كدت أروىد الباب ، حتى اكتفتنى ظلمة حالكة السواد ، وتعمرت فستطت على الأرض .. وما استطعت أن أبين لادجار كيف كنت مقبلة حتما على ثوبة شديدة حادة ، وكيف أن الغضب سوف يفضى بى إلى الجنون ، لو أصر على التهادى في مضايقتى ومعاندتى ! .. فلم تعد لى أية سيطرة على لسانى ، أو عقلى ، ولعل من جانبه لم يستشف الآسى وعذابى ، التى لم تدع لى من حاسة التفكير إلا القدر الذى يدعنى إلى محاولة الفرار منه ومن صوته ! .. وقبل أن استعيد حواسى بالقدر الذى يسمح لى بأن أرى وأسمع ، كان الفجر قد أثبتق .. وسوف أخبرك بأ تلقى بما كنت أفكر فيه ، وما كان يلف ويدور فى رأسى ،

حتى خشيت على عقلى أن يذهب بددا . كان يخيل لى - وأنا ملقاه على الأرض ، ورأسى مستند إلى رجل المائدة ، وعينائى لا تكادان تستشفان ذلك المربع الرمادى الذى يتوسط النافذة - أتتى كنت فى فراشى الذى تعرفينه هناك ، تلك الخزانة ذات الفتحات المربعة ، المصنوعة من الخشب البلوط ، وأن قلبى كان يتقطع من حزن عظيم لم أذكر سببه عندما استيقظت وقتئذ ، وإنما رحمت أكد فكرى ونفسى لاكتشف سره وكنهه .. ولكن أعجب ما فى الأمر أن السنوات السبع الأخيرة من حياتى نعدت كلها كأنها صفحة بيضاء ، حتى خيل لى أنها لم تكن البتة ! .. لم يكن لها يوما وجود !

ترقب الجزء الثانى من (مرتفات ويدرنج)

فى غمرة هذا الهديان المحموم الذى اندفعت فيه بظلة القصة المدللة الثعسبة « كاثرين إيرنشو » - أو « ممز لينتون » - ينتهى الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة لهـذه الترجمة الكاملة للصراع الأدبى الخالد (مرتفات ويدرنج) .

وفى الجزء التالى ، نتابع مطالعة هذه القصة الإنسانية الرائعة ، فنرى ما يكون من أمر التصدع الخطير الذى أحدثه هيثكليف فى العلاقة بين الزوجين « كاثرين » و « ادجار » ! .. ثم نتابع المطاردة العنيفة التى يشنها هيثكليف على العذراء الغريبة « ايزابيلا » ، والعداء القاتل الذى يكنه الأول لغريمه القديم « هندلى » ! .. الخ .

45

كتابي



إميلي برونتي

مرتفعات ويدرنج

الجزء الثاني



www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
طبع والنشر والتوزيع
الرياض - جدة - مكة المكرمة - القاهرة - الإسكندرية

ماهي مراد



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزیزی القاری:

من عجب أن الشقیقات الثلاث من أسرة «برونتی» تشابهن فی كل شیء تقریباً: تشابهن فی نبوغهن الأدبی ، وهزالهن البدنی ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فی خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقتسرن اسم كل منهن بروایة من روائع الأدب الإنسانی: وكان نصیب صغراهن «آن برونٹی» من هذا الإنتاج روایة (أجنسی جرای) ، التي تروی قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصیب هذه الروایة أقل من نصیب (جین ایر) و (مرتفعات وذرنج) . أقول إنهن تشابهن فی ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفي إصابتهن بنفس المرض الذي قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل أو التدرن الرئوی - فماتت به «شارلوت» فی سن التاسعة والثلاثین (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به «إمیلی» فی سن الثلاثین (١٨١٨ - ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فی سن التاسعة والعشرین (١٨٢٠ - ١٨٤٩)! والواقع أن فواجع أسرة «برونتی» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هي المسئولة عن الجو القائم الذي تتسم به رواياتهن جميعاً . فقد كانت أسرة برونٹی تتألف فی الأصل من ثمانية أفراد: الأب ، وهو فسیس كنيسة بجهة (هاروث) بالملترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب: «ماريا» ، و«إليزابيث» ، و«شارلوت» ، و«برانویل» (وهو الابن الذكر) ، ثم «إمیلی» ، وأخيراً «آن» . وكانت تفصل بین كل من الأطفال الستة والذي يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فی سن السابعة ، والصغرى «آن» فی عامها الأول! وهكذا صارت «ماريا» وهي بعد فی سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين! وبعد أربع سنوات ألقى الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية - هي المدرسة الرهيبة التي وصفتها «شارلوت» فی روایة (جین ایر) باسم «لوود» . .

هلمی مراد



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلي بروننتي»

الجزء الثاني

وصل ما انقطع ..

في نهاية الجزء الأول من هذه الترجمة الكاملة لقصة (مرتفعات ويذرنج) ، تركنا « كاثرين إيرنشو » - زوجة « ادجار لينتون » - راقدة في فراش المرض ، نفسي لخادمتها « نللى » بذات نفسها ، بعد ان اعتصمت بمخدعها واضربت عن تناول الطعام ثلاثة ايام ، على اثر المشادة العنيفة التي نشبت بينها وبين زوجها بسبب .. هينكليف ! .. وكانت مقدمات هذه الأزمة بين الزوجين قد بدأت حين اكتشفت كاثرين ان شقيقة زوجها - ايزابيلا - قد وقعت في هوى هينكليف ، فلما حاولت ان تنفرها منه بإظهار عيوبه ومساوئه لها بصراحة ، اهانتها العذراء الغريبة واتهمتها بالفسرة والافتانية .. مما كان من كاثرين إلا ان انتقبت لكرامتها بأن افشت لهينكليف السر الذي كان يجهله ، سر ندله ايزابيلا في هواه .. وانتهر الوضيع الفرصة فندبر الخطة لاستغلال هذا الهوى الصيباني وتثيقته ، بغية مصاهرة غريمه الارستقراطي « ادجار لينتون » وإذلاله ! .. وذات يوم ناجبا ايزابيلا في الحديقة فقبلها .. ولحته « نللى » فابلغت كاثرين بالأمر ! .. فثارت كاثرين في وجهه وأمعنت في تانيبه . وانتهر ادجار الفرصة - دون ان يتف على سبب المشادة - فأمر هينكليف بالخروج وعدم العودة إلى الدار مرة أخرى ! .. وعلى اثر انصرافه ثارت كاثرين على زوجها واتهمته بالانتمسات إلى حديثها مع هينكليف من وراء

الباب ، ثم تظاهرت بالإصابة بنوبة صرع ! .. لكن « نللى » فضحت « تمثيلها » ، فانطلقت غاضبة إلى مخدعها حيث اعتصمت به واضربت عن تناول الطعام ثلاثة ايام .. لكنها في اليوم الثالث اضطرت إلى ان تطلب بعض الطعام . وحين علمت ان زوجها يقضى وقته في غرفة المكتبة ، غر مبال بتطيعتها ، صدمها إهماله إياها ، واصابها بشبه نوبة من الهذيان وهو اجس الخوف من الموت والأشباح .. ثم راحت تذكر « نللى » بيده أحداث الأسبوع المشؤم حين اعتصمت بمخدعها ، وكيف داهمها قبيل الفجر كابوس مروع خشيت منه على عقلها .. كابوس رأت نفسها فيه وقد عادت ستوات إلى الورا ، إلى يوم مات أبوها وهي بعد صبية في الثانية عشرة ، فقام أخوها « هندي » ستارا بينها وبين لقاء رفيق صباها هينكليف - الذي كان بالنسبة لها كل حياتها وكيانها ! - الأمر الذي تأسست منه الشعور باليأس والعذاب .. وصور لها الكابوس كأنها تنام في فراشها القديم بمنزل « مرتفعات ويذرنج » ، الفراش الشبيه بخزانة ذات فتحات مربعة ، من خشب البلوط - وهو الفراش الذي نام فيه مستر لوكوود ، مستأجر الدار ، في بداية القصة - فلما اهانمت من الكابوس وجدت نفسها في مخدعها بقصر « ثرشكروس جرانج » حيث أغفت وهي جالسة على الأرض مستندة إلى رجل المائدة !

والآن تستطيع ان تتابع القراءة من حيث تركنا « كاثرين » تحدث « نللى » عن ذلك الكابوس :

« .. رأيتني قد عدت صبية ، وكان أبى قد وورى التراب
 للنو ، وبدا عذابي وبؤسى من ذلك الفراق الذى فرضه هنتلى
 بينى وبين هيتكليف .. كتكت قد تركت وحدى ، للمرة الأولى
 فى حياتى ، فلما أفقت من نعاس مزعج بعد ليلة حافلة بالبكاء
 والنشيج ، رفعت يدى لأزيع بها باب الخزانة المنزلى ..
 فإذا بها تصطدم بسطح المائدة ! .. وأفقت من رؤياى نجاة
 لأجدنى متكئة على بساط أرض مخدعى ! .. وإذا بالأمى
 الماضية تضيق فى لجة بعيدة الغور من الياس . وليس فى
 وسعى أن أسرك لماذا شمعت بالشقاء والتعاسة بحيطان
 بى من كل جانب ، فلا بد أن ذلك كان شعورا وقتيا ، لأننى
 لا أكاد أجد له سببا أو مبررا .. ولكن خيل إلى كان يقطنى قد
 انتزعتنى ، وأنا بعد فى الثالثة عشرة ، من (المرتفعات) ، ومن
 كل حياتى ورفقتى المبكرة ، ومن كياتى كله ، كما كان لى هيتكليف
 فى ذلك الوقت .. وصيرتنى نجاة ، ويعنف ، إلى مسز لينتون ،
 سيدة « ترشكروس جرانج » ، وزوجة رجل غريب .. أنه
 الننى والتشريد من كل ما كان دنياى وعالى .. ألا ليتك
 تصورين لحظة من الهاوية التى تردت فيها . وبوسعك أن
 تهزى رأسك كما تشائين يا نللى ، ولكنك حقا قد ساعدت على
 عدم استقرارى ! .. كان ينبغى أن تحدثنى إلى ادجار . كان
 هذا واجبك حقا .. وأن ترغميه على أن يدعنى فى سلام وهدوء
 .. آه ! .. اننى اشتعل بالنيران ! .. لينتى أكون فى الخلا
 الآن . لينتى أهود فناة صغيرة من جديد ، جريئة ، نصف
 متوحشة ، حرة مطلقا السراج ، أسخر مما يوجه لى من

إهانات ، ولا اجنى منها غشبا ككشائى الآن ! .. لماذا تغيرت
 كل هذا التغير ! .. لماذا تندفع الدماء فى عسروتى مائرة ثائرة
 لاجرد سماع كلمات تلائل ! .. اننى والقة من اننى سوف أعود
 تحالنى الاصلة إذا وجدت نفسى بين الأعراس فوق هذه
 التلال . امتحنى النافذة ثانياً يا نللى ، ودعيتها مفتوحة على
 مصراعها . اسرعى .. لماذا لا تتحركين ؟

قلت : « لأننى لا أريد أن تصابى ببرد يقتلك .. »

— بل تعنين أنك لا تريدين أن تهبئى لى فرصة للحياة ! ..
 ومع ذلك لمانى لم أصبح عاجزة عن الحراك بعد .. سوف
 المتحها بنفسى ..

وهبطت من الفراش بسرعة — قبل أن استطيع منعها —
 فاجتازت الحجرة وهى تترنح فى مشيتها ، ففتحت النافذة
 وأطلت منها وقد أحنث جسمها إلى الامام غير مبالية بالسواء
 المطح الذى كان يهزق كتفها العاريتين كسكين حادة ..
 ورحت اتوسل إليها ، ثم حاولت أن أستخدم القوة فى إرغامها
 على الرجوع عن النافذة ، ولكنى سرعان ما تبينت أن الحى
 قد زادت قوة ، حتى جاوزت كل ما لدى من قوة ! (وقد كانت
 فى الواقع تحت تأثير الحى ، إذ اقتنعت بذلك من أفعالها
 اللاحقة وهذيانها الغريب) .. وكان القمر غائبا عن صفحة
 السماء ، وكل شيء تحتنا يسبح فى لجة من الظلمة الحالكة .
 ولم يكن ثمة أى ضوء ينبعث من أى منزل قريب أو بعيد ، فقد
 أظلمت أضواء المنازل كلها منذ زمن طويلا .. أما أضواء

(مرتفعات ويدرنج) فلم يكن يبين منها شيء البتة، وبرغم ذلك لاثنا كانت تؤكد أنها ترى بريتتها، إذ صاحت في لهفة:

— انظري!.. هذه حجرتي والشمعة مضادة فيها،
والأشجار تتأرجح أمليها!.. أما الشمعة الأخرى فهي في
حجرة جوزيف العلوية. أن جوزيف ما زال ساعرا، اليس
كذلك؟.. إنه ينتظر حتى أعود إلى المنزل ليوصلد البوابة.
حسنا، سوف ينتظر طويلا!.. فهي رحلة شاقة، والقلب
الكسير لا يستطيع قطعها في يسر!.. ولا بد لنا من المرور
بكنيسة (جيبوتون) لكي نقوم بهذه الرحلة.. لقد طالما
تحدينا أشباحها معا، وراهن كل منا الآخر على الوقوف بين
القبور، ودعوة الأشباح للظهور!.. ولكن هبني راهنتك
الآن يا هيتكليف، فهل تجرؤ على الوقوف هناك؟.. لو
أنتك فعلت فسوف أستبقيك معي، فما كنت لأرقد هناك
وحدى. فليدثوني على عمق اثني عشر قدما، وليهبوا أحجار
الكنيسة كلها فوق قبري، فلن استريح حتى القاك معي..
لن يترلى قرار قط حتى أفعل!

وتهللت قليلا، ثم استطردت وعلى محياها ابتسامة غريبة:
— إنه يفكر في الأمر، ويفضل لو ذهب إليه، بدلا من أن
يأتني إلى.. أبحث عن طريقة لذلك إذن!.. ولكن بعيدا
عن غناء الكنيسة!.. يا لك من بطيء مثائل! ولكن هدي،
روعا، فقد كنت دائما تتبعني!

وإذ تبينت عبث مجادلتها ومعارضة أقوالها الجنونية،
فقد رحت أفكر في وسيلة أستطيع الوصول بها إلى شيء
أغطيها به أو الفه حولها، دون أن تتخلى قبضتي عن الإمساك
بها (لما كنت لأن لها وأدعها وحدها بجوار النافذة الماغرة
فأها). وفي تلك اللحظة أجهلت إذ سمعت صرير أكسرة
الباب وهي تدور، ثم إذا بمستر لينتون يدخل الحجرة..
فقد كان في المكتبة فلم يبارحها إلا في تلك الساعة، وبينما
كان يجتاز الردهة سمع حديثنا فأثار فضوله، أو خوفه،
وأراد أن يعرف ما يحدث في تلك الساعة المتأخرة.. فما
كدت المح صيحة الدهشة التي تجبعت على شفقيه، إذ
شهد المنظر الذي طالعه، وجو الحجرة الفارس، حتى هتفت
قائلة، لأحول دون انطلاقك تلك الصيحة:

— أواه يا سيدي!.. أن سيدتي المسكينة مريضة، وقد
تغلبت على، فلم أعد أستطيع تهدئتها البتة.. أرجو أن
تأتي وتقمعها بالذهاب إلى الفراش. أنس غضبك يا سيدي،
لأنها من الصلابة بحيث لا يمكن تحويلها عما صببت عليه!

فصاح وهو يسرع إليها: «كأثرين مريضة؟!.. أغلقت
النافذة يا أيلين.. كأثرين.. لماذا؟»

وكف عن الكلام بفتنة، إذ كان منظر مسز لينتون المشعث،
وتحويها الشديد، قد أجم لسانه وشله عن النطق، ولم
يعد قادرا إلا على نقل نظراته بينها وبينني في دهشة وارتياح
.. فتأملت الحديث قائلة:

— لقد لبثت هنا كل هذه المدة ، تجتر أحزائها ، لا تذوق طعما ، ولا تنفس عن صدرها لمخلوق ، فلم تسمح لأحدنا بالدخول عليها إلا الليلة ، ولذلك لم يكن في وسعنا أن نخبرك عن حالتها — إذ كنا أنفسنا نجهلها — ولكن أرجو أن يكون الأمر بسيطا ..

وقد شعرت بأننى كنت ائلق بهذه العبارات فى ارتباك وتلعثم ، فنظر السيد إلى عابسا ، ثم قال فى صرامة : « أترين الأمر بسيطا ، يا ايلين دين ؟ .. سوف يكون عليك أن تفسرى مسلكتك إذ كتبت ذلك عنى ، فيما بعد .. »

ثم أخذ زوجته بين ذراعيه ، وراح ينظر إليها فى ألم وأسى .. فلم يبد فى نظراتها ، فى بادئ الأمر ، ما ينبئ على أنها قد مرغته ! .. كانت نظراتها الشاردة لا تراه ولا تتبينه . ومع ذلك كانت النوبة الشائرة قد بدأت فى الهدوء ، فما أن تحولت عينها عن الظلمة الخارجية الحالكة ، وبدأت تركز انتباهها فيه رويدا رويدا ، حتى عرفت من الذى كان يحولها بذراعيه ، فقالت فى انتعاضة غاضبة :

— آه ! .. هل أتيت يا ادجار لينتون ؟ .. أنك أحد تلك الأشياء التى يجدها المرء دائما كلما كان فى غير حاجة إليها ، وعندما يحتاج إليها لا يجدها قط ! .. وأحسب أننا سوف يكون لدينا الكثير من الأحزان الآن — بل أنا واثقة من ذلك — ولكنها لا يمكن أن تحول ببنى وبين مسكنى الشيق هناك ! .. مسكنى ومستقرى وموئل راحتى ، حيث تسدر على أن

ارتد فيه قبل انقضاء الربيع . ولكنه لن يكون بين قبور آل ليتون ، تحت سقف الكنيسة ، وإنا فى الهواء الطلق ، فوق الروابى ، لا يملوه سوى قائم من الحجر ! .. أما أنت فلك أن تذهب حيث يسرك الذهاب ، ماها أن تحشى إليهم أو تاتى إلى !

فغص السيد بريقه وهو يقول : « ماذا فعلت بنفسك يا كاترين ؟ .. ألم أعد شيئا بالنسبة إليك ؟ وهل تحبين ذلك المنكود هيث .. ؟ »

فصاحت ممز لينتون : « صه ! .. اسكت . لو ذكرت هذا الاسم لسوف أنهى المشكلة فى الحال ، بوثة من النافذة ! .. أن ما تلبسه الآن قد يكون لك ، ولكن روحى سوف تكون فوق قمة ذلك القل قبل أن تضع يدك على ثابتة .. اننى لا أريدك يا ادجار .. بل لم يعد فى وسعى أن أريدك ! .. أرجع إلى كتبك ، فكم يسرنى أن لديك ما يسليك ويسرى عنك . أما أنا ، فكل ما كان لك منى ، قد ذهب وولى ! »

فدخلت قائلة : « أن عقلها يهيم فى أعماق مجهولة يا سيدى ، لقد قضت الليلة بأسرها تهذى بكلام لا معنى له .. ولكن دعها تثل نصيبا وأفرا من الراحة ، وتسطا كافيها من العناية ، وسوف تستعيد قواها ومرحها .. يجب أن تحذر ، من الآن فصاعدا ، من إغصابها .. »

فأجاب مستر لينتون : « لست أريد منك المزيد من النصائح . أنك تعرفين طبيعة سيدتك ، ومع ذلك شجعنتى

على مضايقتها ! .. ثم لم تلمح لى مرة واحدة عن حالتها طيلة هذه الأيام الثلاثة .. الا ما اتسى قلبك ! إن شهورا من المرض ما كانت لتحدث بها مثل هذا التغيير ! »

فبدأت أذافع عن نفسى ، شاعرة بان من الظلم أن الام بسبب المشاكسات الخبيثة التى يأتها شخص آخر غيرى ! .. فصحت قائلة : « لقد كنت أعرف ما فى طبيعة مسز لينتون من صلابة الراى وحب السيطرة والتسلط ، ولكنى لم أكن أعرف رغبتك فى تغذية طباعها الحادة الضارية والإستزادة منها ! .. لم أكن أعرف اننى فى سبيل مرضاتها وتدليلها يجب أن أتفاضى عما يفعله مستر هينكليف ! .. لقد أدبت واجبى كخادم امينة عندها أخبرتك ، وهانذا أتقاضى الأجر اللائق بخادم امينة ! .. حسنا ، إن ذلك يعلمنى أن أكون أشد حذرا ، وعليك فى المرة القادمة أن تجمع معلوماتك بنفسك ! ! »

— فى المرة القادمة التى تأتئين لى فيها بقصة جديدة ، سوف تتركين خدمتى يا ايلين دين !

— احسبك لا تريد أن تسمع شيئا عن هذا الأمر بعد الآن يا مستر لينتون ؟ .. إذن فقد نال هينكليف اذنك لمغازلة الاتسة ، وانتهاز كل فرصة يتيحها له غيابك لىأتى ويسمم أفكار السيدة ضدك ؟

وعلى الرغم من حالة الذهول التى كانت فيها كاثرين ، فإن ذهنها كان مرهقا وعلى وعى بحديثنا ، إذ هتفت فى حرارة : « آه ! لقد لعبت ايلين دور الجاسوس الخائن ! .. ان ايلين

هى عدوى الخفى فى هذا المنزل .. أنت ايتها الساحرة الشيطانية ، إذن فقد كنت تجمعين السهام لترميننا نحن بها ؟ دعنى .. دعنى ، سوف اجعلها تتحسر على ما فعلته .. سوف اجعلها تلقى جزاء جحودها ! »

وكانت عيناها تومضان ، وتتوهجان فى ثورة جنونية ، وراحت تناضل فى سبيل الخلاص من بين ذراعى لينتون .. فلم احس ميلا إلى البقاء حتى تنفذ وعيدها ، وعزمت على أن اتشد معونة الطبيب ، من تلقاء نفسى وتحت مسئوليتى ، فأسرعت ببغادرة الحجرة ، ثم المنزل كله .. وفيما كنت اجتاز الحديقة إلى الطريق ، فى موضع كان سور الحديقة عنده يحمل خطانا مما تعلق فيه أعنة الجياد ، لمحت جسما أبيض اللون يتحرك حركة غير منتظمة ، لا شان للرياح فى احدائها .. وعلى الرغم من اننى كنت فى عجلة ، الا اننى تلبثت ريثما افحص ذلك الشيء ، حتى لا تخامرنى الهواجس فيها بعد فتش فى خيالى الاقتناع بان ما رأيته كان عريفا من الجبان ! .. وكما كانت دهشتنى وحررتى عندها اكتشفت ، بطريق اللبس أكثر من الرؤية ، أنه كان كلب مس ايزابيلا الصغير « فانى » ، معلقا فى الخطف من رقبتة بمنسدل ، وفى الرمق الآخر من حياته ! .. وأسرعت بتخليص الحيوان المسكين ، وانزلته إلى الحديقة ، وكانت قد رأيته يتبع سيدته إلى حجرتها بالمطابق العلوى عندما أوت إلى فراشها ، فأخذنى العجب مما أتى به إلى الحديقة ، ومن ذلك الشرير الذى كاد أن يقتله .. وبينما كنت أحل عقدة المندبل من حول الخطف ،

بلغ مسامعى وقع حوافر جواد ينطلق بسرعة كبيرة عن بعدة . . ولكن كان لدى من الشواغل التي تبلا تفكرى ، ما جعلنى لا أصر صوت الجواد اهتباها ، ولو أنه كان صوتا غريبا في هذا المكان في الساعة الثانية من الصباح !

ومن حسن الحظ أن مسرر كينيث كان يفادر منزله لزيارة مريض في الريفا ، عندما بلغت الشارع الذى يقيم فيه ، فما أن سمع روايتى عن مرض كاثرين لينتون حتى عدل عن طريقه وعاد معى في الحال . وكان رجلا بسيطا صريحا لا يعرف المداورة ، فلم يخف شكه في نجاتها من هذه المسدبة الثانية ، ما لم تكن أكثر خضوعا لتعليماته وأوامره مما بدأ منها في المرة الأولى ، ثم استطرد يقول :

— اسمعى يا نللى دين . . اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الاعتقاد بأن هناك سببا خارجيا لما أصابها ، فما هذه الأحداث التي تهر « بالجرانج » هذه الأيام ؟ . . لقد بلغتنا انباء عجيبة هنا ، وفتاة قوية البنية بمثل كاثرين لا يمكن أن تقع صريعة المرض بسبب شيء تافه ، كما أن هذا الطراز من الناس لا يمرضون بسهولة ، ومن العسير أن تصيبهم الحمى أو غيرها . . فكيف كانت البداية ؟

— سوف يخبرك السيد . . ولكنك تعرف آل ايرنشو تماما وتعرف حدة طباعهم ، التي بلغت مسرر لينتون فيها أعلى مرتبة وبزتهم جيها . وكل ما يمكننى قوله أن الأمر بدأ بشجار حاد ، وقد أصيبت بنوبة شديدة بينما كانت تمر بعاصفة من الغضب والانفعال الشديد ، أو هذه تعسها على

الأقل ، لأنها فرت من الميدان عند احتدام العاصفة وحبست نفسها في حجرتها ، ثم رفضت أن تتناول شيئا من الطعام ، وغدت الآن تتناوبها ساعات من الهذيان تارة ، ومن الاستغراق فيما يشبه الحلم تارة أخرى . وهى تعرف المحيطين بها ولكن عقلها يمتلىء بقدر معظم من الأملكار والأوهام .

مقال كينيث متسائلا :

— احسب أن مسرر لينتون سوف يأسف كثيرا ؟

— يأسف ؟ . . إن قلبه سوف يتحطم لو أصابها سوء ! . . وأرجو الا تثير في نفسه القلق بأكثر من القدر الضرورى !

مقال ريفقى : « حسنا ، لقد حذرته . . وعليه أن يتروى عواقب إبهاله لتحذيرى ، ألم تتعقد أواصر الود والالفة بينه وبين مسرر هيثكليف أخيرا ؟ »

— إن مسرر هيثكليف يكثر من التردد على (الجرانج) ، وإن كان ذلك يرجع إلى معرفة السيدة له منذ أن كان غلاما صغيرا ، أكثر من حب السيد لصحبته . . ولكنه في الوقت الحاضر قد اعفى من مشقة الزيارة ، بعد أن بدر منه ما يتم على طموح مزعوم إلى يد مس لينتون . . ولست اعتقد أن احدا سوف يسمح له بزيارة البيت بعد ذلك ثانية . .

والقى الطبيب بسؤاله الثانى ، فقال :

— وهل قابلته مس لينتون بالاستخفاف وعدم الاكتراث ؟ فاجبته في إحجام من متابعة الحديث في هذا الموضوع :

— إنها لا تطلعننى على أسرارها . .

— كلا ، فهي فتاة مأكرة لا تطلع احدا على سرها ، ولكنها بلهاء حقا .. فقد سمعت من مصدر يوثق بكلامه انها كانت في الليلة الماضية — ويا لها من ليلة ! — تنمشى مع هينكليف في الحقول المبتددة خلف منزلكم اكثر من ساعتين .. وكان يستحقها ويلج عليها الا تعود إلى المنزل ثانية ، بل ترافقه على ظهر جواده وتفر معه ! .. وقد اخبرنى محدثى انها لم تستطع استمهاله إلا بعد ان عاهدته بكلمة الشرط ، على ان تستعد لذلك في اول لقاء لها بعد ذلك . اما متى يكون ذلك ، فان محدثى لم يسمعها يحددان موعده .. ولكن عليك ان تنذرى بمستر لينتون حتى يفتح عينيه جيدا !

وبلأنتى هذه الاتباء بمخاوف جديدة ، فسبقت كينيث ، وأسرعتم اعدو عائدة إلى الدار . وكان الكلب الصغير ما زال ينبع في الحديقة ، فتخلفت لحظة ريثما افتح له البوابة ، ولكنه بدلا من الاتجاه نحو باب المنزل انطلق يمدو هنا وهناك ويتشمم العشب ، وكان على وشك ان يهرب إلى الطريق لو لم أمسك به واحمله معى إلى الداخل .. وقد تحققت شكوكى عندما صعدت إلى حجرة ايزابيلا ، إذ وجدتها خالية ! .. ولو اننى ذهبت إليها منذ ساعات قليلة ، فربما كان برش مسرر لينتون قد منعها من الإقدام على هذه الخطوة الطائشة ، ولكن ما الذى يمكن عمله الآن ؟ .. كان هناك احتمال ملفف في إدراكها إذا اقتنى أثرهما في الحال ، ولكنى لم اكن استطيع تتبعهما بنفسى ، أو أجرؤ على إيقاظ العائلة جميعا ، وإشاعة الفوضى والاضطراب في المنزل كله .. وكذلك لم يكن

في وسعى ان ابوح بالامر للسيد الذى كانت نكته الحالية تشغل كل افكاره ، ولم يبق في قلبه متسع لحزن جديد .. فلم أجد خيرا من ان أمسك لسانى وأدع الأمور تجسرى في مجراها . وإذا كان كينيث قد وصل ، رافقته إلى حجرة السيدة — وقد انقلبت سحنتى — لاعلن بتدبه . وكانت كاثرين وتنتذ تنام نوما مضطربا ، إذ كان زوجها قد املح في نهدنتها ، وتخفيف ثائرة توبتها ، ووقف عند طرف الوسادة يرقب كل تبدل يطرأ على اساريرها التى تعبر عن ألم شديد ..

ويعد ان نحس الطبيب الحالة بنفسه ، اعرب عن امله في الوصول إلى نتيجة طيبة إذا استطمنا ان تحيطها دواما بجو من الهدوء والسكينة . وقد افضى إلى بان الخطر الداهم لم يكن في موتها ، بقدر ما كان في إصابتها بخلل دائم في قواها العقلية !

ولم يغض لى جفن في تلك الليلة ، وكذلك بمستر لينتون .. بل لم نذهب إلى فرشنا أو نحاول النوم قط . حتى الخدم استيقظوا قبل موعدهم المألوف بكثير ، وراحوا يتحركون في المنزل بخطى خفيفة مسترقة ، ويتبادلون الكلام همسا كما مر بعضهم ببعض خلال قيامهم بهماتهم . كان كل من في الدار مستيقظا يقوم بعمله ، إلا مس ايزابيلا ، فراحوا يتهايسون عن نومها العميق ويعجبون منه ! .. بل لقد سال أخوها عما إذا كانت قد استيقظت من النوم ، وبدا يتلها على وجودها ، وقد ساءه انها لم تبد شيئا من القلق على زوجة أخبها .. وكنت ارتعد خشية أن يبعث بى لاستدعائها ، ولكن حدث ما كفىنى

مشقة أن أكون أول من يعلن خبر غرارها : فان إحدى الخاديات
— وهي فتاة طائشة كانت قد ذهبت إلى (جيبرتون) في الصباح
الباكر لتحضر شيئا من البلدة — أسرعت ترتقى الدرج ، مبهورة
الأنفاس ، فاغرة الفم ، واندفعت إلى داخل الحجرة ، صائحة :
— آه ! .. رحماك يا رب ! .. ماذا سيحل بنا بعد ذلك ؟ ..

سیدی .. سیدی .. إن سيدتنا الصغيرة ..

فبادرتها زاجرة ، وقد اشتد بى الغضب من ضجيجها :

— صه ! .. كفى عن هذه الجلبة !

وقال مستر لينتون : « اخفضى صوتك يا ماري .. ماذا
هناك ؟ .. وما الذى ألم بسيدتك الصغيرة ؟ »

— لقد ذهبت ! .. ذهبت ! .. وصديقك هيتكليف هو الذى

غربها !

فصاح اندجار ذاهلا ، وهو ينهض من مقعده في الانفعال
شديد :

— هذا ليس صحيحا ! .. بل لا يمكن أن يحدث قط ! ..

ما الذى اثبت هذه الفكرة فى رأسك ؟ .. وأنت يا ايلين دين ،
اذهبي وأبحثي عنها . هذا أمر لا يمكن تصديقه .. بل لا
يمكن أن يحدث !

وكان وهو يتول ذلك ، قد سار بالخادم العجول نحو
الباب ، وعاد يسألها أن تبين له الأسباب التى تجعلها تؤكد
هذا الفرار .. فغمضت تقول متلعثمة : « لماذا ؟ .. لقد

التقيت فى الطريق بالعلم الذى يحضر لنا اللبن ، فسألنى عما
إذا كانت المتاعب قد ثارت فى (الجرانج) ، وحسبته يقصد
مرض السيدة ، فأجبت بالإيجاب ، وعندئذ قال : « أظنكم
أرسلتم من يقتل أثرها ! » ، فحصلت فيه فى دهشة أدرك
منها أنني لا أعرف شيئا عن الحقيقة ، وذكر لى كيف أن
سيدا وسيدة توقفنا عند حائوت الحداد ، على بعد بيلين من
(جيبرتون) ، ليصلحا حدود جوادها ، بعد منتصف الليل
بقليل .. وكيف نهضت ابنة الحداد لتستطلع أمرها خفية ،
معرغتها على الفور .. ولاحظت أن الرجل — وكان هيتكليف
بلا ريب ، فان أحدا لا يخطئه معرفته — قد دس فى يد أبيها
جنيها ذهبيا اجرا له على عمله . وكانت السيدة تلف ياقة
المعطف حول وجهها ، ولكنها طلبت جرعة من الماء ، وبينما
كانت ترشفها ، سقطت ياقة المعطف فرات الفتاة وجهها جليا
وعرغتها . وكان هيتكليف يسك عنان الجواد بكلتا يديه
وقد انطلقا به فى سرعة عظيمة ، بالقدر الذى تسمح به وموزة
الطريق ، وهما يتنكبان القرية فى سرهما . ولم تقل الفتاة
شيئا لأبيها ، ولكنها نشرت الخبر فى (جيبرتون) كلها هذا
الصباح !

وأسرعت اتقصى الأمر فى حجرة ايزابيلا ، من الناحية
الشكلية ، ثم عدت لأويد رواية الخادم . وكان مستر لينتون
قد رجع إلى مقعده بجوار الفراش ، فلما أحس بعودتى ،
رفع نظريه نحوى ، ثم خفضها ثانية ، بعد أن قرأ فى وجهى

معنى ما علاه من وجوم ، واخذ إلى الصمت ، فلم يمدد
أمرأ أو يتيس بكلمة واحدة . فسألته قائلة :

— الا نحاول اتخاذ اية تدابير للحاق بها وإعادةها إلى
المنزل ؟ . . وكيف ترى ان تفعل ذلك ؟

فاجابني السيد : « لقد ذهبت ببلء رغبتها وارادتها ، ومن
حقها ان تفعل ذلك ما دام يسرها . . فلا تشغليني بأمرها
بعد ذلك قط ، لأنها من الآن تعد شقيقتي أسما فحسب . .
لا لأنتى أتبرا منها ، بل لأنها هي التي تسكرت لى وبرئت
منى . . »

وكان ذلك كل ما قاله في هذا الموضوع ، فلم يتخذ سببلا
واحدا للبحث عنها والتقصي مما تم من أمرها ؛ ولم يذكرها
على لسانه في أى وقت ، إلا عندما أمرنى بأن أرسل إليها في
منزلها الجديد ، أينما كان مقره — عندما يبلغنى خبر عنه — كل
ما لها في الدار من مناع . .

الفصل الثالث عشر

ظل الهاريان غائبين زهاء شهرين دون ان نسمع عنهما
شيئا . وفي خلال هذين الشهرين كانت مسز لينتون مرسية
لاسوأ صدمة — مما يسمى بالحس المخية — حتى قهرتها
وتغلبت عليها . وما من أم رؤوم كان يمكن ان ترعى طفلها
الوحيد وتعرضه بتفان وإخلاص أكثر مما كان ادجار يرعاها
ويمرضها . . كان يسهر عليها الليل والنهار ، ويحتفل في
سبر لا ينضب معينه جميع المضايقات والمناعب التي يمكن
ان تنشأ عن اعصاب سريعة التهيج وعقل مرتج . . وكانت
مرحته وشكراته ، عندما أعلن الطبيب زوال الخطر عنها ،
لا يعرفان حدودا لانطلاقهما ، برغم ما لا حظ له كينيث من أن
التي انقذاها ادجار من القبر سوف تجزى رعايته وعنايته
بان تكون مصدر قلق دائم له في المستقبل . . والواقع انه
كان يضحى بصحته وقوته في سبيل المحافظة على حطام
بشرى ، لا أكثر ولا أقل . كان يقضى الساعة ثلث الساعة
جالسا إلى جانبها يرتب صحتها البدنية وهي ترتد إليها
تدريجيا ، ويعمل النفس بالأماني الجياشة — الخيالية — في
ان عقلها سوف يعود إلى توازنه الصحيح أيضا ، وأنها لن
تظن حتى ترجع إلى حالتها الطبيعية التي كانت عليها من
قبل . .

وكانت أول مرة غادرت فيها حجرتها ، بعد ذلك المرض
الطويل ، في بداية شهر مارس التالي . وكان مستر لينتون

قد وضع فوق وسادتها ، قبل أن تستيقظ في الصباح ، حفنة من زهور الأتخوان الذهبية ، فلما أفاق من نومها لمحتها عينها - اللتان ظلتا طويلا لا تعرفان بريق السرور - فبالقنا في فرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :

- هذه بواكير الزهور في (المرتفعات) .. وهي تفكرني بالنسمة العذبة ، والشمس المساطعة الدافئة ، والطلوع الذاتية .. قل لي يا اديار ، الا تب نسائم الجنوب الآن ؟ .. وهل اخففت الثلوج أم كادت ؟

- لقد اخففت الثلوج تماما من هنا يا عزيزتي ، ولست أرى على طول تلال البراري إلا بقعتين بيضاوين .. كما ان السماء زرقاء صافية ، والقنابر تصدح بانغامها الشجية ، والجداول والنهيرات ملأى بالماء حتى حافتها .. لقد كنت في مثل هذا الوقت من ربيع العام الماضي ، يا كاترين ، أتوق إلى وجودك تحت سقف هذا البيت ، ولكني الآن أود لو انك كنت فوق هذه التلال ، فان الهواء يهب عليها جميلا عذبا ، حتى لأحس بأنه خليق بأن يشفيك تماما ..

فقالت المريضة : « لن اذهب إلى هناك قط إلا مرة واحدة أخرى .. وفي تلك المرة سوف تتركني هناك ، وسوف أبقى بها أبدا . وفي الربيع القادم سوف تتوق ثانية لأن تجدني تحت سقف هذا البيت ، وسوف تفطر إلى الزواء وترى أنك كنت ستعيدا اليوم ! »



فبالقنا في فرح وابتهاج ، وراحت تضم الزهور معا ، هاتفة :

- هذه بواكير الزهور في (المرتفعات) ..

فغمرها لينتون بغيض من الملامفات الرقيقة ، وحاول ان يبهجها بكلمات الحب والحنان ، ولكنها راحت تنظر إلى الزهور ساهبة ، وما لبثت ان تركت قطرات الدمع تتجمع على اهدابها ثم تنساب فوق وجنتيها ، لا تكف ولا تفيض .. وادركنا جميعا انها قد تحسنت حقا ، وان اعتكائها الطويل في مكان واحد هو السبب في ذلك القنوط الذى يستبد بها ، والذى قد يفارقها لو بدلت المنظر الذى يحبط بها .. وأمرنى السيد بان اشعل نارا في حجرة الجلوس التى ظلت مهجورة اسابيع عدة ، وان اضع مقعدا مريحا في ائسمة الشمس بجوار النافذة ، ثم احضرها من الطابع العلوى .. فجلست طويلا تستمتع بالدفء الجميل ، وقد انعمشت كثيرا - كما توقعنا - من منظر الاشياء المحيطة بها ، فهى وإن كانت بالوفة لديها ، إلا انها لا تقترن في ذهنها بتلك الذكريات المروعة لحجرة مرضها البغيضة .. فلما حصل المساء ، كانت تبدو منهوكة القوى إلى حد كبير ، ومع ذلك لم تفلح التوسلات أو وسائل الاقتناع في إغرائها على العودة إلى حجرتها ، فاضطرت إلى اعداد اريكة حجرة الجلوس لتتخذ منها مرائسا لرقادها ريثما يمكن إمداد حجرة أخرى لها .. وقد اعدنا لها هذه الحجرة - التى ترقد أنت فيها الآن يا مستر لوكوود - حتى تجنيها بشقة الصعود والهبوط إلى العساق العلوى ، فهى - كما تعلم - في نفس الطابق الذى تقع فيه حجرة الجلوس .. وسرعان ما استعادت بعض قوتها بحيث امكثها الانتقال من إحداها للأخرى مستندة إلى ذراع ادجار .

٢٥ ، لقد ظننت وقتئذ أنها سوف تشفى حقا ، ما دامت تلقى

كل هذه الرعاية والعناية . وكان ثمة سببان لان نرجو ذلك وقتئذ ، فان على حياتها تتوقف حياة أخرى ، كما اننا كنا نداعب الأمل في أنه لن تمضى فترة وجيزة حتى نقر عينا مستر لينتون ويبتهج قلبه ببولد وريث له يقى املاكه من أن تقسح في قبضة شخص غريب ..

ولا بد لى من القول بان ايزابيلا ارسلت إلى اخيها ، بعد نحو ستة اسابيع من رحيلها ، خطابا موجزا تعلنه فيه بزواجها من هينكليف .. وكان خطابا جانبا باردا ، ولكنها ذيلته ، وبالعلم الرصاص ، باعتذار غامض ، ورجاء رقيق بان يذكرها ، وأن يصفح عنها ، إذ كان تصرفها قد اغضبها ، مؤكدة انها لم تستطع دفع الأمر وقتئذ ، وانها الآن بعد ان تم كل شيء ، لا تملك القوة على نقض ما أبرمته . واعتقد ان لينتون لم يرد على هذا الخطاب ، فلم يكذب يبر عليه اسبوعان حتى تلقيت خطابا طويلا رايت من العجيب صدوره من قلم عروس فرغت لنوها من شهر العسل .. وسوف اطلو عليك هذا الخطاب ، لاننى ما زلت محتفظه به ، إذ ان آثار الموتى عزيزة غالية ، إذا كانوا في حياتهم اعزاء محبوبين :

« عزيزتى ايلين ..

« وصلت في الليلة الماضية إلى (مرتفعات ويدرنج) ، فسمعت - للمرة الأولى - ان كاترين كانت ، وما زالت ، تعاني مرضا خطيرا . واحسب أنه ما ينبغي لى ان اكتب إليها ، كما ان احدى لها ان يكون شديد الغضب منى ، أو شديد الأسى

على ، بحيث لم يرد على خطابي إليه . . ومع ذلك فلا بد لي من أن أكتب إلى شخص ما ، وليس أمامي من أكتب إليه سواك . . أخبري أجدار أنني أهب الدنيا بأسرها في سبيل أن أرى وجهه ثانية ، وأن قلبى عاد إلى (شرشكروس جرانج) بعد أن قادرتها بأربع وعشرين ساعة ، بل إنه هناك الآن ، مليئا بالمساعر الحارة نحوه ونحو كاثرين ! . . ومع ذلك فليس في مقدورى أن الحق به (وقد وضعت خطأ تحت هذه العبارة لتؤكداه) ، فلا حاجة بها لأن يتوقعا عودتى ، وليستتجبا من ذلك ما يشاءان ، ولكن حذار أن يعزوا ذلك إلى خور في ارادتى أو لغتور في عاطفتى . .

« هذا ما أود أن تقولييه لأخى ، أما باقى الخطاب فلك وحدك . وأود أن ألقى عليك سؤالين ، أولهما هو : كيف احتلت على الاجتفاظ بالعواطف العادية للطبيعة البشرية عندما كنت تقيمين هنا ؟ . . فإني لا أتبين أية مشاعر يمكن أن يشاطرنى فيها أولئك الذين يحيطون بى !

« أما السؤال الثانى ، فإني أهتم به اهتماما عظيما . وهماك هو : هو مستر هينكليف إنسان من البشر ؟ . . وإن كان إنسانا فهل هو مجنون ؟ . . وإذا لم يكن ، فهل هو شيطان ؟ . . اننى لن أخبرك بالأسباب التى تجعلنى أوجه إليك هذا السؤال ، ولكنى أتوسل إليك أن تشرحى لى - إذا استطعت - حقيقة ذلك المخلوق الذى تزوجته . أعنى عندما تحضرين لرؤيتى ، ويجب أن تحضرى سريعا يا أيلين ، لا تكتبى لى ، ولكن تعالى ، وليتك تحضرين لى شيئا من أجدار . .

« واسمى الآن كيف استقبلت في منزلى الجديد ، الذى أدخل في روعى أن (المرتفعات) سوف تكونه . وليست أذكر هذه الأمور التى من قبيل نقص وسائل الراحة الخارجية ، إلا لتسلية نفسى ! . . فإني لا تشغل أفكارى البتة إلا في اللحظة التى أشعر فيها بالحاجة إليها . واننى لخلطقة بأن أرقص طربيا وأضحك ملء قلبى لو أتتني وجدت هذا النقص هو كل ما أعانيه من شقاء ، وأن ما عدا ذلك ليس إلا حلما شبطنانيا رهيبا !

« كانت الشمس تغرب وراء (الجرانج) عندما استدرنا نحو البرارى ، وكانت الساعة وقتئذ ، فيها أعتقد ، قد بلغت السادسة . . فتوقف رغبى ما يقرب من نصف الساعة ليقتش البستان ، والحدائق ، بل والمنزل نفسه ، بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهكذا كان الظلام قد أرخى سدوله عندما ترجلنا عن جوادينا في الفناء المرصوف « للمرتفعات » فلم يلبث أن خرج زميلك السابق الشيخ ، جوزيف ، ليستقبلنا على ضوء الشمعة الخافتة . ولقد فعل ذلك في بشاشة ولطف يضاقان إلى سمعته الطيبة المعروفة ! . . فقد كان أول ما فعله هو أن رفع مشعله أمام وجهى مباشرة ، وراح يحلق فيه بعينين تضيقان وتقيضان خبئا ولؤما ، ثم قلب شفته السفلى ، وأشاح بوجهه عنى . وبعد ذلك قاد الجوادين إلى الحظيرة ، وعاد ليواصل البوابة الخارجية بالسلاسل والأمتال ، كأننا نعيش في إحدى القلاع القديمة !

« وبقي هينكليف ليتحدث إليه ، أما أنا فقد دخلت إلى المطبخ ، ووجدته قدرا مشوشا لا نظام فيه ولا ترتيب .

واحسب أنك لو رأيتَه الآن لما عرفته ، فقد تغير كثيرا عما كان عليه عندما كان معهودا به إليك . وكان يقف إلى جوار الموقد غلام زرى الهيئة ، قوى البنية ، تذر الثياب ، يشبه كاثرين في عينيها ونمها ، غفلت في نفسى : انه ابن اخ زوجة ادجار ، ومن ثم فهو ابن اخيه حكما ، وبالتالي فانه بعد ابن اخى على نحو او آخر ، وينبغى لى ان اصافحه ، بل ينبغى لى - نعم - ان اقبله . . . فمن الصواب ان انشىء معه تداوبا طيبا منذ البداية . .

« اقتربت منه وحاولت ان اتناول يده المكتنزة قائلة :

— كيف حالك يا عزيزى ؟

« فأجاب فى متعة لم أهم منها شيئا ، وعندئذ كانت محاولتى الثانية للحديث معه :

— هل ستكون اصدقاء يا هيرتون ؟

« فكان جزائى على هذا الاصرار فى الحديث معه ، ان اطلق من فمه سبابا قبيحا ، ونوعدىنى بأن يطلق (ثرونر) فى اثرى إذا لم « اره عرض اكتافى » : بل لقد ايقظ كلبا ضخما ضاريا من وكره فى احد الأركان ، وراح يهسى إليه قائلا : « هيا يا ثرونر . . عليها يا ولد ! » . . ثم تحول نحوى يسألنى فى غطرسة . « والان . . هل تذهبين لحال سبيلك ؟ »

« فدفعنى حب الحياة إلى الامتثال لأمره ، وخطوت فوق العتبة إلى الخارج لانتظر عودة الآخرين فادخل معهم . ولكن مستر هيثكليف لم يظهر فى أى مكان ، أما جوزيف ،

الذى ذهبت إليه فى الحظيرة ورجوته ان يصحبنى إلى الداخل ، فقد راح يحلق فى وجهى ويغمغم بكلام لا اسمعه ، ثم شبخ يأنفه وقال : « مهلا ، مهلا . هل سمع إنسان تلى قطبشىء كهذا ؟ .. ما هذا الكلام الذى تفضغينه وتتشدقين به ؟ .. وكيف يمكننى ان أهمم ما تقولين ؟ » . . فظننته مصابيا بالعمى ، وإن كانت خشونته ومظالمته قد اثارَت اشمزازى البالغ ، وصحت قائلة : « لقد كنت ارجوك ان تحضر معى إلى داخل المنزل . . »

— لا تطلبى منى شيئا كهذا . . فلدى عمل آخر أقوم به !

« وعاد يستأنف عمله ، وهو يحرك فى الوقت نفسه مسفحتى مصباحه ، متأملا فى ازدياء شديد ثوبى ووجهى . أما الأول فكان بالغ الأناقة والجمال ، وأما الثانى فثانى واثقة من انه كان يحبل من الحزن ما كان يوده ويشتهيهِ ! . . فسرت فى الفناء حول المنزل ، وولجت كوة صغيرة ، وجدت نفسى بعدها أمام باب مغلق أبحت لنفسى ان اطرقه راجية ان أجد املى خادما آخر أكثر ادبا . وما لبث الباب ان فتح بعد فترة وجيزة ، ووقف فيه رجل طويل القامة شديد النحول ، بغير رباط للعنق ، فضلا عن رثالة الثياب التى يرتديها ، وكانت اساريره مختفية تحت كتل من الشعر المشعث الذى يملأ وجهه ويندلى حتى يصل إلى كتفيه . وكانت عيافه - هو الآخر - تشبه عيني كاثرين ، على نحو مخيف ، وإن تجردتا من جمال عينيها . . فابتدرنى فى عبوس وصرامة :

— ما شأنك هنا؟ .. ومن أنت؟

— لقد رأيتني من قبل يا سيدي ، وكان اسمي وقتئذ
إيزابيلا لينتون . غير أنني تزوجت من مستر هيثكليف أخيراً ،
فأحضرتني إلى هنا ، بلانك طبعاً !

« فسألني ، وعيناه تقدرحان شرراً كذئب جائع : « هل عاد
إذن ؟ »

— نعم .. لقد عدنا للتو ، ولكنه تركني بجوار باب المطبخ ،
وعندما أردت الدخول ، كان ابنك الصغير يقف حارساً
للمكان ، واستطاع بمعونة كلب من نوع البولودوج ان يخيفني
حتى وليت هاربة ..

« لمزجر مضيق الجديد ، قائلاً : « لقد أحسن الوغد
الجهنمي صنعا بالمحافظة على كلمته ! » .. ثم راح يهملق في
الظلام خلفي ، مؤملاً أن يبتين هيثكليف ، وما لبث ان انطلق
يغغم طويلاً بأقذع الفاظ السباب ، والوعيد بما كان سيفعله
لو ان « الثيبلمان » خدعه ، وأخلف وعده ، فلم يعد !

« وتدمت على محاولتي الدخول من هذا المدخل الثاني ،
وكنت اكاد أميل إلى الفرار قبل أن يفرغ من سبيله ، ولكن
قبل أن أستطيع تنفيذ تلك النية ، أمرني بالدخول ، ثم أوصد
الباب خلفي بعد أن أغلقه . وكانت بالحجرة نار عظيمة
مشبوبة ، وكان ذلك كل ما يشئ تلك الحجرة اللسيحة ،
التي اكتسى بلاطها الأبيض لوناً رمادياً موحداً ! .. أما الأطباق
للإمعة البراقة التي كانت تجتذب انظارى عندما كنت أحضر

للزيارة وأنا بعد فتاة صغيرة ، فقد انقلب بريقها إلى قسامة
كئيبة بسبب ما علاها من قذارة وتراب ، شأنها في ذلك شأن
الملاط !

« وسألت هندلي إيرنشو عما إذا كان يجدر بي أن أدمو
الوصيفة لترشدني إلى إحدى حجرات النوم . ولكنه لم
يتعمك على بجواب ! .. كان بذرع الحجرة ذهناً وجبنة ،
رأسعا يديه في جيوبه ، وقد بدا عليه انه نسي وجودي تماماً .
كان من الجلي أن شرود ذهنه قد بلغ من العمق والاستفراق ،
كما كان مظهره يتم على عداء للبشر جميعاً ، ما جعلني أحجم
عن محاولة إزعاجه مرة أخرى .

« ولا أخالك تدهشين يا ايلين مما اعترأني من شعور
بالكآبة والاسى ، وأنا جالسة فيها هو أسوأ من الوحدة ، في
تلك الحجرة غير المضيافة ، افكر في انه على بعد أربعة أميال
مخسب يقع منزلي المحبوب البهيج ، الذي يضم كل من أحبب
على وجه الأرض ، وان المحيط الأطلسي قد يكون همو الذي
يفرق بيننا ، بدلا من هذه الأميال الأربعة ، التي يستحيل على
اجتيازها . ورحت أسائل نفسي أين اذهب لأنال قسما
من الراحة ؟ .. وكان حزني ، الذي غلب كل حزن بجانبه
— وأرجو الا تخبري بذلك ادجار او كاترين — ينشأ من بأسى
من العثور على شخص واحد يستطيع ، او يود ، ان يكون
خليفي ضد هيثكليف ! .. لقد كنت أنشد اللجأ والمأوى في
(مرتفعات ويدلرج) ، في شيء من السرور والارتياح ، لأن ذلك
الترتيب كان خليقا بان يؤمنني من العيش معه على انفراد .

ولكنه - وا أسفاه! - كان يعرف الناس الذين سوف نعيش
بينهم حق المعرفة ، فكان لا يخشى فضولهم وندخلهم ..

« وتضيت وقتنا طويلا اليها جالسة أفكر .. ودقت الساعة
الثامنة ، ثم التاسعة ، ومع ذلك كان رفيقي لا يزال يروح
ويغدو من أقصى الحجره إلى أقصاها ، وقد أحنى رأسه
فوق صدره ، واستغرق في صمت موحش ، لا تقطعه إلا هممة
خافتة ، أو تنهد مرير يفلت من بين شفتيه بين وقت وآخر .
وكنت أرهف سمعي عسى أن أتبين صوت امرأة في الدار ،
وأبلا هذا الوقت الطويل بالأحزان الضارية ، والتكهنات
المروعة عما ينتظرني من مستقبل مشؤوم ، وما لبثت أن
عجزت عن كتمانها ، فانطلقت من بين شفتي في أنين وتواح
لم أستطع تمعنها .. ولم أشعر بارتفاع صوتي إلا عندما
تمهل إيرنشو في مشيته الرصينة أمامي ، وزاح يحلق في
وجهي في دهشة من يراني لأول مرة ، فالتفت برصاة استعادته
شعوره وانتباهه ، وصحت :

- إنني متعبة من سفرى الطويل وأريد الذهاب إلى الفراش
.. فأين الوصيعة ، أو أية خادم أخرى ؟ .. أرشدنى إليها
يا سيدى ما دامت لا تريد أن تحضر إلى !

« فأجابنى : « لا توجد هنا وصيفات أو خادمات .. وعلبك
أن تعنى بنفسك ! » .. وعندئذ رحلت أنتحب في اسى ، وقد
أخرجنى التعب والبؤس عن وقارى ، وقلت : « ولكن أين
ينبغى أن أنام إذن ؟ »

- سوف يريك جوزيف حجره هينكليف .. افتحى هذا
الباب ، فتجديه هناك .

« فلما هميت بأن أطيعه ، أمسك بى فجأة ، واستطرد
يقول فى أغرب صوت سمعته : « كوئى فتاة طيبة ، وأوصدى
باب الحجره بالمفتاح ثم ضعى المزاليج وراءه . إياك أن تغفل
ذلك ! »

« ولم استصغ فكرة حبس نفسى مع هينكليف فى حجره
واحدة بحض رغبتي ، فقلت : « حسفا .. ولكن لماذا
يا مستر إيرنشو ؟ » .. فأخرج من جيب صدرينه بمسدسا
عجيب التكوين ، إذ كانت تتصل بماسورته سكين ذات حدين
مرهين ، يحركها لولب خفى ، ثم قال :

- انظرى .. إن هذه شديدة الإغراء لرجل يائس ! ..
اليس كذلك ؟ .. اننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الصعود
إلى الطابق العلوى كل ليلة ، وهذه فى يدي ، فأحاول فتح باب
حجرته .. فلو وجدت الباب مفتوحا مرة ، فقد انتهى أمره !
.. انتى افعل ذلك دواما ، حتى ولو كنت فى اللحظة السابقة
مباشرة أفكر فى مئات الأسباب الكثيلة بأن أحجم عن هذه
المحاولة ! .. وما من ريب فى أن شيطاننا خبيثا لا يفتأ
يستحثنى على إحباط خططى ومشاريعى ، بتحريض على
قتله ! .. وانك لتناضلين هذا الشيطان عبثا معها طال بك
المدى ، فعندما يحين الوقت ، فان كل ملائكة السماء لن
تستطيع إنقاذه !

« ورحت أرمق السلاح في فضول وإهمان ، وقد طمرات على ذهني فكرة بشمة نظيفة : فكم أكون توبة حسيئة لو استطعت أن أحزم مثل هذه الأداة ! .. وأخذتها من يده ، ورحت ابر بأصابعي على التصل المرهف ، فبذت عليه الدهشة من ذلك التعبير الذي ارتسم على وجهي لحظة خاطفة . لم يكن لزعما ، وإنما كان جشعا وتلهفا ! .. فأسرع باختطاف المسدس من يدي ، في حرص الشحيح ، وأرجع السكين إلى مكانها ، ثم أعاده إلى مخبئة ، قائلا : « انني لا أبالي أن تخبريه ، فدعني يأخذ حفره ، وأسهرى على حمايته ! .. وأرى أنك تعرفين سوء ما بيننا من صلات ، فان الخطر الذي يتهدده لم يفاجئك ولم يرمك ! »

« فسألته : « ما الذي فعله هيتكيف معك ، وبماذا أساء إليك ، حتى تنطوي له على هذا الحد المروع ؟ .. ألا يكون أكثر حكمة وتعملا أن تأمره بمغادرة الدار ؟ »

« فهدر أيرنشو بصوت كالرعد القاصف : « كلا .. وإذا اقترح أن يفارقني ، فسوف يسدو جثة هامدة . ولو أنك أغريته على هذه المحاولة ، فسوف تصبحين قاتلة ! .. هل قضى على أن أفقد كل شيء ، دون أن تكون لدى الفرصة لاستعادته ؟ .. وهل قضى على هيرتون أن يعيش شحاذا ؟ .. يا للعتة ! .. أقسم انني سوف استعيد كل شيء ، وسوف آخذ ماله وذهبه أيضا . ثم بعد ذلك دعه ! .. أيا روجه تستكون من نصيب الجحيم ! .. وسوف يزداد لظاها سعيرا ، عشرة أضعاف ، عندما يحل بها هذا الضيف ! »

« .. ولقد سبق لك أن اطلمتني ، يا ايلين ، على طباع سيدك السابق . ومن الجلى انه على حافة الجنون ، او انه كان كذلك ليلة الأيس على الأقل . وقد اقتشعر بدنى من البقاء قريبة منه ، ورايت أن شراسة الخادم الوقح تمد سارة لى نمسبا . وكان قد عاود سيره المهوم ، فبذيت نحو الباب ، ورفعت المزلاج ، ثم فزرت إلى المطبخ .. فرأيت جوزيف منحنيا فوق الموقد ، يمين النظر في قدر كبيرة كانت تتأرجح فوقه ، بينما كان على المقعد بجواره قصعة خشبية بلاى بدقيق الشوفان . وكانت محتويات القدر قد بدأت تغلى ، فتحول إلى القصة وهو يهم بدس يده فيها . وحدثت انه ربما كان يعد لنا العشاء ، وإذا كنت شديدة الجوع ، فقد عزمتم على أن يكون ذلك الطعام مما استسيخ تناوله .. وهكذا سحنت به ، وأنا أبعد القصعة عن تناول يده :

— سوف أعد ، أنا ، هذا الثريد ..

« ومضيت أنتزع قبعتي وثوب الركوب الذى كنت ارتديه ، واستطردت قائلة : « لقد أشار على مستر أيرنشو أن اعنى بنفسى ، وسوف افعل .. فلن اقوم بدور السيدة بينكم ، حتى لا أموت جوعا ! »

« فجلس جوزيف على مقعد بعيد ، وراح يربت على جواربه المضلعة من ركبته حتى عقبه ، وهو يغتم قائلا : « لعل هناك أوامر جديدة بعد ذلك ! .. وإذا قدر لى أن أجد سيدة فوق رأسى ، بعد أن اعتدت أخيرا خدمة سيدين ، فعلى الراحنة

والهدوء السلام! .. اننى ما فكرت قط في أن أرى يوما اضطر فيه إلى ترك المنزل القديم ، ولكنى أخشى أن يكون الوقت قد حان لذلك !

« .. فلم أعر هذه المناحة أى التفات ، ومضيت مندفعة في عملى ، وقد تنهدت إذ ذكرت زمنا كان ما أقوم به الآن خليقا بأن يبدو اضحوكة لطيفة .. ولكن سرعان ما اضطررت لطرده هذه الذكرى ، فان استعادة سعادتى الماضية أمام ناظرى كانت تسبب لى عذابا وشقاء لا يقبل لى باحتياله . وكنت كلما اشتد خطر استحضار هذا الشبح من أعماق الماضى ، أسرع في تقليب الثريد ، ومتابعة قذف قبضات الدقيق في القدر . وكان جوزيف يرتقب طريقي في النهى بسخط متزايد ، وما لبث أن صاح قائلا : « هيرتون ، انك لن تتناول عشاءك من الثريد الليلة يا بنى ! .. فلن يكون إلا كتلا كبيرة جافة كتبسة يدى . ما هذا ! .. لو كنت في مكانك لالقيت القصعة كلها بما فيها في القدر ! .. ما شاء الله ! .. وما هذا الدق بالمغرفة ! .. من حسن الحظ أن قاع القدر لم يسقط في النار ! »

« واعترف أن الثريد عندهما سكب في الأطباق كان غليظا خشنا . كانت أربعة أطباق هي التي أعدت للعشاء ، كما احضروا ابريقا كبيرا مملوءا باللبن الطازج ، أمسك به هيرتون وراح يشرب من فوهته ، واللبن يسيل من بين شفتيه المدودتين .. فاعترضت ، ورجبت إليه في أن يأخذ نصيبه

في قده ، مؤكدة اننى لا أستطيع أن أدوق طعاما أو شرابا تتبدله الأمواه بهذه القذارة . ولكن المهرج العجوز رأى أن يبدى شعوره بالاهاانة البالغة التي لحقت به وبالأسرة من ملاحظتى الدقيقة ، فراح يردد القول في تأكيد بان « الصبى لا يقل طيبة » عنى ، و « لا يقل تهديبا ونظاما » ، ويعجب كيف استطعت أن أظهر بهذه الخيلاء وهذا الغرور ! .. وفي الوقت نفسه كان الوغد الصغير مستهرا في لعق اللبن ، وهو يحدجنى بنظرات نارية ملؤها التحدى ، وقد ترك لعابه يختلط باللبن في الابريق !

« عندئذ قلت : « سوف اتناول عشائى في حجرة أخرى .. أ يوجد لديكم ما تسمونه حجرة الجلوس ؟ » .. فأصابنى ساخرا متهكما : « حجرة الجلوس ! .. حجرة الجلوس ! .. كلا ، لا توجد لدينا حجرات للجلوس ! .. إذا كانت مسجبتنا لا تروقك ، فهناك السيد أدهبى إليه . وإذا لم يروقك السيد فما نحن تحت أمرك ! » .

« فأجيبته قائلة : « سوف أصعد إلى الطابق العلوى .. أرنى حجرة أجلس فيها . » .. وكنت قد وشعت طبقتى فوق صفحة ، كما ذهبت بنفسى فأحضرت بعض اللبن النظيف ، فنهض جوزيف بعد تأفف وتؤمر عظيمين ، وتقدمنى فوق الدرج ، حتى بلغنا الحجرات العلوية . وكان بين الحين والآخر يفتح بابا وينظر بداخل الحجرات التي كنا نجتازها ، وأخيرا رفع لوحا متداعيا من الخشب ، تصر مفصلاته صريحا تبيحا ، وقال :

— هاك حجرة تصلح لتناول عشائك فيها ! .. وسوف تجدين كيسا من القمح في الركن ، وهو كيس نظيف تماما .. ولكن إذا كنت تخشين اطلاق ثوبك الحريري العظيم فائشري مندليك موته واجلسي عليه !

« وكانت تلك (الحجرة) أشبه بحجر مصنوع من الخشب ، تفوح منه رائحة الحنطة والشعير القوية ، وقد كدست حول جدرانها زكائب هذه الللال تاركة فراغا فسيحا في وسطه .. فالتفت إليه ، وواجهته غاضبة ، وأنا أصيح به : « يا هذا يا رجل ؟ ليس هذا بالمكان الذي يصلح للنوم .. اننى أريد ان ارى حجرة نومى ! »

« فعاد يقول في لهجته الساخرة : « حجرة النوم ؟ .. لقد رأيت كل ما لدينا من حجرات النوم .. إلا حجرتى » .. ثم أشار إلى « الوكر » المجاور الذى لم يكن يختلف عن الاول إلا في ظلو جدرانها من الزكائب نوعا ما ، وفي اثوائه على قرائى عريض منخفض ، خال من الستائر ، على احد طرفيه لحاف مصبوغ بالنبيلة !

فقلت أجيبه : « وما حاجتى إلى غرفتك ؟ .. احسب ان مستر هينكليف لا يقيم فوق سطح المنزل ، اليس كذلك ؟ » .. فصاح كأنها وقع على كتف جديد : « آه ! .. أهى حجرة مستر هينكليف التى تريدين ؟ .. أما كان بوسعك ان تقولى ذلك من اول وهلة ، حتى كنت أخبرك — بدلا من كل هذا الوقت الضائع — إنها الحجرة التى لن تستلعيى رؤيتها

بالذات ، لانه يوصدها دائما ولا يسمح لمخلوق بان يدخلها ، غيره ! »

« فلم أتمالك نفسى من القول : « ان لكم منزلا جميلا يا جوزيف ، يضم عشرة لطيفة سارة ! .. وما اظن إلا ان الخلاصة المركزة لشر انواع الجنون فى العالم قد اتخذت لها مستقرا فى عقلى يوم أن ربعت مصرى بمصائرهم وقدرى بأقدارهم ! .. ولكن مهيا يكن من امر فان ذلك ليس موضع البحث الآن .. ان هناك حجرات اخرى ، فاناشدك الله واستحلفك بحق السماء ان تسمع فترشدنى إلى مكان أقر فيه قليلا ، أينما يكن هذا المكان ! » .

« ولم يجبنى بكلمة على هذا التوسل ، بل أخذ يهبط الدرجات الخشبية للسلم فى ضيق وتبرم حتى وقف أمام حجرة أدركت من وقفته ، ومن أرائها الممتاز ، انها خير حجرات المنزل . كانت بها سجادة .. سجادة جيدة ، غير ان نقوشها ورسومها كانت مملوسة تحت اكدايس الغبار الملبدة . وكانت بها مدفأة لصق على الجدار فوقها ورق ملون ممزق يتدلى قطعما وشرائع غير منتظمة .. وفراش عريض فاخر من خشب البلوط تحوطه ستائر فضفاضة قرمزية اللون من قماش ثمين ومطراز حديث ، وإن كان من الواضح أنها عانت الكثير من سوء الاستعمال ، إذ كانت أطرافها العليا غير مشدودة ، بل تتدلى فى دوائر وقد نزعمت من حلقاتها ، على حين كان القضييب الحديدى الذى يحملها ينحنى كالقوس على أحد

جانبي الفراش وقد تدلت الستائر منه تخرج أذيالها على الأرض .. حتى المقاعد كانت تالفة ، وأكثرها مهشم تماما ! .. وكانت ثمة فجوات غائرة عميقة تشوه الواح الخشب النهن التي تكسو الجدران ، وتدلل على ارتطام اجسام صلبة حادة بها ..

« وكنت أحاول أن أستجمع عزيمتي للدخول إلى هذه الحجرة والاستيلاء عليها ، عندما أعلن مرشدي الأحق أن « ها هنا حجرة السيد » .. وكنت وقتئذ قد برد طعاسي ، وغمرت شهيتي ونفد صبري ، فأخذت الح عليه في أن يدلني على مكان الجأ إليه واجد فيه وسائل الراحة .. فبدأ الشيخ المتدين يقول : « وأين بحق الشيطان !.. ليرحمنا الله !.. ليغفر لنا الله !.. أين تريد أن تتسكمني بحق الجحيم !؟ انت أيتها العروس المنعبية !.. لقد رأيت كل شيء إلا حجرة هيرتون الصغيرة .. ولا يوجد في المنزل بعد ذلك حجر صغير آخر تاوين إليه ! »

« وكان الغضب والضيق قد نالا مني ، فطوحت بالصحفة ومحتوياتها من يدي إلى الأرض ، وجلست فوق قمة الدرج ، وأخفيت وجهي بين يدي ، وانخرطت في البكاء .. بينما كان جوزيف يصيح :

— أخ .. أخ .. مرحى .. مرحى !.. انك قد احسنت صنعا !.. سوف يتعثر السيد الآن في هذه الأوعية المحطبة ، وسوف نسمع منه الكثير . سوف نسمع منه ما ينبئ

وما لا ينبغي .. أنت أيتها الحماء الطائشة !.. انك تستحقين أن ينحل جسمك ويهزل من الآن حتى عيد الميلاد لإلغائك نعم الله الثمينة تحت الأقدام في غضبك الأحمق . ولكني لا أكون أعرف شيئا إن استطعت أنت إظهار هذا الخلق السيء طويلا ! .. فهل تظنين أن هينكليف سيستك على هذه النعمال العظيمة !؟ .. الا ليته يضبطك الآن متلبسة !.. ليه ياتي ليري ما فعلت !

« وهكذا ظل منطلقا في تأنيبه لي ، بينما كان يببط الدرج إلى وكره في الطابق الأسفل ، حاملا الشبعة معه ، وتاركها إياي في الظلام !.. وقد اضطررتني فترة التفكير التي تلت هذه الفعلة الطائشة إلى الانتناع بأنني يجب أن أطامن من كبريائي وأن اكبح جماح غضبي ، وأن أسارع إلى إزالة آثار ما فعلت .. وما كنت أهم بالعمل ، حتى بعث لي التندر بمساعد غير متوقع ، في شكل « ثروتلر » الذي عرفت فيه عندئذ ابن كليفا القديم « سكالكر » ، وكان قد قضى فترة (الحضانه !..) في « الجرانج » قبل أن يهديه أبي إلى مستر هندلي . وأغلب الظن انه عرفني ، فقد مسح أذنه بانني على سبيل التحية ، ثم أسرع إلى التهام الثريد مساعدة لي على تنظيف المكان من آثار تصرعي وطيشي .. بينما كنت أنتقل من درجة إلى أخرى لاجمع قطع الفخار المحطمة ، وامسح بمنديلي رشاش اللبن المتطاير فوق السياج .. وما كدنا نفرغ من مهمتنا ، حتى سمعت وقع خطوات إيرنشو في الممر ، فأرخت مساعدتي ذفيه وحشره بين لمخذي ، ثم التصق بالجدار خائفا ، على حين

أسرعت أسترق الخملى إلى أقرب باب إلى فأخفتيت بداخله .. وقد فشلت محاولة الكلب تجنبه ، كما أدركت ذلك من اللجبية الفاشئة عن عدوه السريع ، ومن عوانه الطويل الاليم .. ولكنى كنت أسعد حظا ، فقد مر بالحجرة التى اخفتيت فيها مر الكرام ، ومضى إلى حجرته ثم أومد بابها وراءه .. وفى اللحظة التالية كان جوزيف يسعد مع هيرتون ليضعه فى فراشه .. وكانت الحجرة التى انخذتها ملجأ لى هى حجرة هيرتون ، فلما رأنى الشيخ الفانى قال :

— ها قد وجدت حجرة لك ولكبرياتك فى المنزل ، كما أرى . انها خالية ، ويمكن أن تتسع لكما معا ، وحاشا لله أن يكون ذلككما فى مثل هذه المسحة الشريرة !

« وتلفتت هذا الإيعاز بسرور بالغ ، وما كنت التى بنفسى فوق أحد المقاعد بجوار النار ، حتى هويت ، ثم استغرقت فى النوم .. وكان نومى هادئا عميقا ، وإن لم استمتع به طويلا ، فقد أيقظنى مسر هيثكليف — وكان قد رجع لذوه من الخارج — ليسألنى ، بلهجة الرقيقة الحبيبة ، عما افعله فى هذا المكان . فأخبرته بسبب بقائى إلى هذه الساعة المتأخرة ، وهو انه كان يحتفظ بفتح حجرتنا فى جيبه ! وكان لاستعمالى لضمر الجمع اثر رهيب ، كأننى ارتكبت إثما مبيتا .. فقد راح يسب ويقسم أن الحجرة ليست حجرتى ، ولن تكون حجرتى يوما ما ، وأنه سوف .. ولكنى لن أعيد على مسامحك الغائنه ، ولن أصف لك بسلكه المعتاد معى .. فهو شديد البراعة والدهاء ، ولا يقر له قرار فى استشارة حقدى وكراهيتى



« وهكذا ظل منطلقا فى تائبه لى ، بينما كان يهبط الدرج إلى وكزه فى الطابق الأسفل ، حاملا الشمعة معه .. »

.. واني لتأخذني الدهشة ويستولي على الذهول كلما فكرت في أمره ، فتكون دهشتي من العمق بحيث تطفى على خسوف منه .. ولكني أؤكد لك أن نمرا مفترسا أو أفعوانا ساما لا يمكن أن يثر في نفسي ما يثيره هو من الرعب والفسزع . وقد أنبأتني بمرض كائرين ، واتهم أخى بأنه السبب فيه ، وأنذرنى بأنني سوف أنوب عن ادجار في مقاساة الألم والعذاب .. حتى يستطيع أن يضع يده عليه !

« اننى أكرهه ، أكرهه .. يالى من تمسة شقية ! .. وكم كنت حمتاء طائشة ، ولكن حذار ان تلفظى بكلمة من ذلك لأحد في (الجرانج) .. وسوف اتوقع حضورك يوما بعد يوم .. وكل ما أرجوه الا تتخلى عنى وتخيبى أملى ..

« ايزابيللا »

الفصل الرابع عشر

ما إن فرغت من تلاوة تلك الرسالة ، حتى ذهبت إلى السيد فأخبرته بأن اخته قد وصلت إلى (المرتفعات) وأنها أرسلت لى خطابا تعرب فيه عن أساها لما أصاب بمسز لينتون ، وعن رقيبتها الحارة في رؤيته ، ورجائها في أن يرسل إليها معى ، في اقرب وقت مستطاع ، ما يدل على صفحة عنها !

فقال لينتون : « صفحى عنها ؟ .. ليس لى ما أصفح عنها من أجله يا ايلين .. ويمكنك أن تذهبى إلى (المرتفعات ويذرنج) بعد ظهر اليوم ، إذا شئت ، وأن تقولى لها اننى لست غاضبا منها ، إنها أنا أسف من أجلها ، حزبن لانى مقدمتها .. سيما وأننى لا أستطيع أن أعتمد البتة بأنها سوف تكون سعيدة . ومهما يكن من أمر ، فان ذهبى لرؤيتها لا يمكن أن يكون موضع تنكير ، فان فراقنا أبدى .. أما إذا رغبت حقا في أن تسدى إلى جمبلا ، فدعيها تقنع الوغد الذى تزوجت منه بأن يترك البلاد ! »

فسألته متوسلة : « وهلا بعثت إليها برقعة صغيرة يا سيدى ؟ »

— كلا ، فلا حاجة بنا إلى ذلك .. وإن اتصالى بمائلة هيتكليف أمر لا يمكن تحقيقه ، كاتصاله بعائلتى ، ولن يكون له وجود قط ..

وقد أحزننى برود مستر ادجار كثيرا ، ورحت أكد ذهمنى ، على طول الطريق من (الجرانج) ، بحثا عن الوسيلة التى

أخف بها من وقع كلماته ، عندها أرددها على مسامعها ! ..
 وكيف أهون من رفضه كتابة بضع كلمات يسرى بها عن
 ايزابيلا . واحسب أنها كانت تترقب حضوري منذ الصباح ،
 إذ رايتها تنظر من خلال سجاف النافذة ، بينما كنت أجتاز
 الطريق المؤدية إلى الحديقة ، فلما أومأت إليها برأسي محيية ،
 رايتها تتراجع عن النافذة ، كأنها تخشى أن يراها أحد !
 ودخلت البيت دون أن اطرق الباب ، فما رأيت في حياشي
 منظرًا أبشع ولا أفزع من المنظر الذي يبدو فيه منزلنا القديم
 المرح ! .. ولكن لا بد لي من الاعتراف بأنني لو كنت في مكان
 السيدة الشابة لقتت ، على الأقل ، بكنس الأرض حول
 الموقد ، ولمسحت الموائد بقطعة من القماش .. ولكنها كانت
 قد تشبعت بروح الإهمال التي تسود كل من يحيط بها .
 وكان مجيهاها الجميل شاحبًا مصفرًا ، يبدو عليه الضعف
 وقلة الاكتراث ، وشعرها مشعثًا غير مرجل ، وقد تدلت
 بعض غدائره في غير نظام ، بينما عمس باقبيها حول رأسها
 في إهمال . أما هندامها فيكنى أنني رجحت أنها لم تلمس
 ثوبها منذ مساء اليوم السابق ! .. ولم يكن هندي هناك ،
 أما مستر هينكليف فكان جالسًا إلى منضدة ، يقلب بعض
 الأوراق في مفكرته ، ولكنه بادر إلى النهوض عند ظهوري ،
 وسألني عن حالي ، في كثير من الود ، ثم قدم لي مقعدًا . وكان
 هينكليف الشيء الوحيد الذي يبدو في هذا المكان نظيفًا
 محترمًا ، حتى لقد خطر لي أن مظهره لم يكن يومًا خيرًا مما
 هو الآن ! .. ولقد بلغ من عظم ما فعلته الأحداث من تبديل

مركزيهما ، أنه كان يبدو في نظر الغريب الذي لا يعرف
 منشأه ، كأنها ولد وربي في وسط النبلاء والأشراف ، على
 حين أن زوجته كانت تبدو كأنها امرأة صغيرة نشأت وسط
 الأقدار والإهمال وسوء التربية !

وتقدمت ايزابيلا لتحييني في لهفة وقلق ، ومدت إلى إحدى
 يديها لتتلقى الخطاب المنتظر ، نهزت رأسي .. ولكنها لم تفهم
 ظمحي ، وتبعثني إلى خزانة ثياب كنت أهم بأن أضع فيها
 قمبعتي ، وهي تتوسل إلي في عيس بأن أعطيها للتو بما أحضرته
 معي .. وقد حدس هينكليف معنى مناوراتها ، فقال :

— إذا كان معك شيء لايزابيلا ، ولا بد أن يكون معك شيء
 لها يا نللي ، فأعطيه لها ، ولا حاجة بك إلى اعتباره سرا ،
 فلا أسرار بيننا ..

ورأيت من الأفضل أن أذكر الحقيقة من غوري ، فأجبت :
 « آه ! .. ليس معي شيء البتة . وقد طلب إلى سيدي أن
 أخبر شقيقته بأنها لا ينبغي أن تتوقع منه زيارة أو خطابًا في
 الوقت الحاضر .. وهو يبعث إليك ، يا سيديتي ، بحبسه
 وتبنياته لك بالسعادة ، وصفحه عما سببت من أحزان ،
 ولكنه يرى أنه ينبغي بعد الآن قطع كل صلة بين أهل منزله
 وأهل هذه الدار ، تلك الصلة التي لا يرجى من قيامها
 أمل قط !

فارتجفت شفتا مسز هينكليف رجفة طفيفة ، وعادت إلى
 مقعدها بجوار النافذة ، أما زوجها فقد وقف بجوار الموقد ،

قريبا منى ، وبدأ يلقي على الأسئلة عن حالة كاثرين ، فأخبرته بما وجدت من الأليق أن أسأله عن أسباب مرضها ، ولكنه أمرنى بوابل من الأسئلة المتلاحقة حتى انتزع منى الحقائق المتعلقة بمنشأ هذا المرض . وقد وجهت إليها اللوم الذى تستحقه ، لأنها هى التى جلبت ذلك كله إلى نفسها ، ثم ختبت حديثى بالأمل فى أن يحذو حذو مستر لينتون ، ويتجنب أى تدخل فى شؤون عائلته فى المستقبل ، سواء أكان للخير أم للشر .. قلت له :

— لقد بدأت مسز لينتون الآن تتماثل للشفاء ، ولكنها لن تعود إلى حالتها الأولى قط ، بعد أن نجت من الموت بمعجزة . وإذا كنت حقا تحترمها وترجو لها الخير ، فعليك أن تتجنب اعتراض طريقها مرة أخرى . بل إنه ليجدر بك أن ترحل عن البلاد نهائيا ، وهو أمر لن تأسف عليه قط ، فإن كاثرين لينتون الآن تختلف عن صديقتك القديمة كاثرين إيرنشو ، اختلافى عن هذه السيدة الشابة .. لقد تغير مظهرها تغيرا كبيرا ، وكذلك خلقها وطباعها . والرجل الذى يجد نفسه مضطرا إلى عسرتها ، يحكم الضرورة ، لا يقيم أود عاطفته ، من الآن فصاعدا ، إلا على ذكرى ما كانت عليه يوما من الأيام ، ويدافع عن الإنسانية والشعور بالواجب !

فاصطع هيتكليف الهدوء ، وعقب على كلامى قائلا :

— من الجائز أن يكون الأمر كذلك . من الجائز حقا ألا يجد سيدك شيئا يعمل به سوى إنسانيته وشعوره

بالواجب ، ولكن تتصورين أننى أدع كاثرين لإنسانيتها وواجبه ؟ .. انك قبل أن تفادى هذا المنزل يجب أن تعدينى بنهية لقاء بينى وبينها . واعلمى أنه سواء رضيت أنت لم أبته ، فأنتى سوف أراها حتما .. لماذا تقولين ؟

— أقول يا مستر هيتكليف إنه لا ينبغى لك أن تطلب إلى ذلك ، ولن نعال شيئا منه عن طريقى قط ، فإن لقاء آخر بينك وبين السيد سوف يقتلها حتما !

فاستطرد بقول دون أن يبالي باعتراضى :

— ربما أمكن تجنب ذلك بمساعدتك . أما إذا نشأ أى خطر من وراء مثل هذا اللقاء ، أى إذا كان سيدك سببا فى تفكير صفوها مرة أخرى ، فأجسبنى أكون على حق لو غضبت معه إلى أبعد الحدود . وأننى ، يا نللى ، أرجو أن تكونى صادقة معى فتخبرينى هل تتألم كاثرين كثيرا إذا بقدته ؟ .. فإن الخوف من إيلاهما هو الذى يغل يدي عن المساس به .. وهكذا ترين الفرق بين شعورى وشعوره : بلو كان فى مكانى ، وكنت فى مكانه — برغم أننى أمقتة مقتا أهل حينئذ إلى مرارة متصلة ! — لما رفعت عليه يدا . ربما كنت لا تصدقين ما أقول ، كما هو ظاهر فى محياك ، ولكن انى أننى ما كنت لأحرمه من صحبتها طالما كانت راغبة فيها ! .. أما فى اللحظة التى تكف فيها عن التعلق به ، فأنى أمزق قلبه تمزيقا ، وأنهل من دمه حتى أرتوى ! .. ولكن إلى أن يحدث ذلك — وإذا لم تصدقنى فأنك لا تعرفيننى حقا) — إلى أن

يحدث ذلك فأتى أفضل أن أموت موتا بطيئا قيل أن أبس شعرة واحدة من رأسه !

فمخالفته قائلة : « ومع ذلك هناك لا تتورع عن تحطيم كل أمل في شفائها التام ، بإتحام نفسك على ذاكرتها الآن ، بعد أن أوشتك على أن تنسك ، وإتحامها هى في دواء جديدة من المتاعب والمنازعات ! »

— وهل تزعمين أنها أوشتك على نسيانى ؟ .. أو أه يا نللى ! .. انك تعلمين أن ذلك غير صحيح ، وأنها لم تنسنى قط . و أنت تعلمين — كما أعلم — أنها إذا فكرت في ليننون مرة ، تفكر في الف مرة ! .. ولقد ظننت شيئا من هذا القبيل في فترة من اشقى أيام حياتى ، وكان هذا الظن لا يفتأ يراودنى عندما عدت إلى هذه الأنحاء في الصيف الماضى . ولكن ما من شيء يجعلنى اتقبل هذه الفكرة الفظيعة مرة أخرى ، إلا أن أسمعها تؤكدها لى بنفسها . وعندئذ لن يكون ليننون شيئا في ناظرى ، ولا همدلى ، ولا أى حلم من تلك الأحلام التى طالما اشتيتها .. عندئذ سوف ينطوى مستقبلى كله تحت كلمتين : الموت ، والجحيم .. وسوف يصبح وجودى كله جعبها إذا فقدتها ! .. ومع ذلك فقد كنت غرا الله عندما تصورت لحظة أنها تقدر تعلق اءجار بها أكثر مما تقدر تعلقى أنا بها .. وإذا كان يحبها بكل ما في كيانه الضئيل من قوة ، فلن يحبها في مدى ثمانين عاما كحبنى لها يوما واحدا ! وأن لكائرين قلبا عميقا كقلبنى ، والابسر أن نجسعى بياها البحر في معلم الجواد هذا ، من أن يستائر اءجار يعاملتها كلها !

هراء ! .. إنه لا يكاد يسمو درجة في الاعزاز لديها عن كليها أو جوادها ! .. إنه لا ينطوى على شيء يجعله محبوبا ، مئلى ، فكيف تستطيع أن تحب فيه شيئا ليس من خصائصه ؟

غصاحت ايزابيللا في اندفاع مفاجيء :

— إن كائرين واءجار يقبلاان الحب كائى اثنين من الناس . وليس من حق أحد أن يتحدث عنها على هذا النحو . كما اننى لا استطيع السكوت على سماع اءى يبخر قدره إلى هذا الحد !

فاجابها هينكليف في ازءراء :

إن أءك مولع بك أشء الولع أيضا ، البس كذلك ؟ .. ومع ذلك فإنه يئنكر لك ويتركك تبينين على وجهك في الدفبا تحت رحمة الأءدار ، في سهولة عجيبه !

— إنه لا يءرى شيئا عما آاسيه من آام ، لأننى لم اءبره بذلك ..

— إذن فقد اءبرته بشيء آءر .. لقد كتبت إليه ، البس كذلك ؟

— لقد كتبت إليه لأءبره بزواجى ، وقد رايت خطابى بنفسك ..

— ولم تكتبى شيئا آءر منذ ذلك الحين ؟

— كلا ..

فءدخلت قائلة : « ان سيدتى الشابة تبدو حزينة وفي حالة سينة بسبب تغير حالتها . والظاهر أن حب « بعض

الناس « قد تضائل كثيرا بالنسبة إليها - وربما كان في وسعي أن أهدس من هم هؤلاء الناس ، ولكنني لن أسبهم ! »

فقال هينكليف : « أحسب ان الذي تضائل هو حبها هي ، فقد فقد خلقها حتى غدت مجرد امرأة مهلهة مشاكسة . بل لقد تميت سريعا من محاولة إدخال السرور على ، على نحو غير مألوف . وقد يصعب عليك تصديق ما أتول ، ولكنها في صبيحة يوم عرسنا نفسه كانت تبكي وتريد العودة الى منزلها ! .. ولكنني سوف أريها كيف توطن نفسها على العيش في هذا المنزل ، والرضى بما قسم لها فيه ، وسوف أعمل بوسائل الخاصة على منعها من إلحاق العار بي بتجوالها خارجة ! »

فأجبت قائلة : « حسنا يا سيدي . أرجو ان تدخل في اعتبارك ان مسز هينكليف اعتادت ان تجد من يعنى بها ويقوم بخدمتها ، وانها نشأت وربيت كابنة وحيدة مدلة يسارع الجميع الى خدمتها . لذلك ينبغي ان تحضر لها وصيقة ترعاها وتعمل على تنظيف المنزل وترتيبه . كما ينبغي ان تحسن معاملتها وان تكون بها رفيقا ، فبها كان رايك في مسر اندجار ، فإني لا تستطيع ان تشك في قدرتها على العواطف القوية ، وإلا لما تركت الراحة والرفاهية والاصدقاء في منزلها القديم واتت راضية لتعيش معك في برية موحشة كهذا المنزل ! »

— لقد هجرت ذلك كله تحت تأثير الأوهام التي مسورتني في عينها كبطل من أبطال القصص والروايات الغرامية ،

متوقعة ان تجد من إخلاصي ووفائي وشهامتي ما يشبع رغباتها إلى درجة غير محدودة . وإن إصرارها الأحمق على اعتناق فكرة خيالية عن خلقي ، وتصرفها الأخرق على أساس تلك الاحاسيس التي كانت تنهيا وتغذيا في نفسها ، ليجعلني أنظر إليها ك مخلوق ليست به ذرة من العتل . ولكنني أحسبها قد بدأت تعرفني على حقيقتي أخيرا ! .. فلم أعد أرى منها تلك البسمات البلهاء ، ولا تلك الحركات السخيفة التي تشكل بها وجهها ، والتي كانت تثيرني بها في بادئ الامر . كما لم أعد المح عليها ذلك العجز الأخرق عن تمييز ما إذا كنت جادا أم هائلا عندما كنت أبدو لها رأبي فيها وفي اغتائتها بي ! .. ولقد كان جهدا باهرا من الفطنة وبعد النظر أن تكتشف أنني ما أحببتها قط ! .. فقد كنت اعتقد ، يوما من الأيام ، ان أية دروس تلقاها على يدي لا يسكن ان تكني لكي تعني ذلك وتفهمه . ومع ذلك فيبدو أنها قد وعته إلى حد ما ، إذ أعلنت لي هذا الصباح — كما لو كانت قد وفنت على اكتشاف مروع — أنني قد نجحت فعلا في إثارة كراهيتها لي ! .. وهذا لعمرى عمل جبار يحتاج إلى قوة خارقة كقوة هرقل ! .. ولو أمكن انباهه لاستحقق مني الشكر والحمد ! .. فهل بوسعي ان اتق في بذكبك هذا يا ايزابيلا ؟ انت واثقة حقا من انك تكريهيني ؟ وهل لو تركتك وحدك يوما او بعض يوم ، لا تعودين إلى ضارعة باكية ؟ .. وأحسب أنها كانت تود لو نظاهرت بالعثان والرقرة أمامك يا نللي ، فإن كشف الحقيقة عارية مجردة لما يجرح كبرياءها وغرورها ، ولكنني لا أبالي لو عرف الناس جميعا ان

الحب كان من جانبها وحدها ، واننى ما كذبت عليها او تظاهرت بحبها قط . وليس في وسعها ان تنبئني باننى انظرت لها رفقا ولينا كاذبين خداعين ، فإن اول شيء رآته منى عندما قادرت (الجرائح) هو اننى شنقت كليها الصغير ، ولما توسلت إلى ان أبى عليه ، كانت اولى كلماتى التى نطقت بها اننى اعربت عن رغبتى في شق كل من يمت إليها بصلة ، إلا شخصا واحدا ! .. ولعلها اعتبرت هذا الاستثناء منسبا عليها هى ! .. ولكن قسوتى ووحشتى لم تثر الاشمزاز في نفسها ، واحسب ان في اعماقتها إعجابا نظريا بها طالما ظل شخصها الغالى بنىائى عن الأذى ! .. والان ، الا ترين ان هذه الكلبة الذليلة الحقاء قد بلغت أعلى ذرى السخف ، وأروع آيات الغباء عندما راودها ذلك الحلم الأخرق باننى يمكن ان احبها ؟ .. أخبرى سيدك ، يا نللى ، باننى لم الق قط في حياتى بأسرها ، شيئا حقيرا خسيسا مثلها .. بل إنها لتتشن اسم لينون . لقد كنت أخلف من قسوتى أحيانا - لأن التفتن كان يعوزنى في إستيلاء وسائل تعذيبها - فكنت أتراخى في اختبار أقمى ما يبلغه احتمالها ، ومع ذلك كانت تزحف على ركبتيها في خضوع وتقلل . ولكن أخبرته أيضا ان يريح قلبه الأخرى وسلطته القضائية ، فاننى التزم حدود القانون بدقة بالغة ، متجنبيا حتى هذه اللحظة كل ما يعطيها الحق في طلب التفرقة بيننا . والاكثر من ذلك انها لن تشكر احدا على إيمادها عنى ، ولكنها إذا رغبت في الذهاب ، فعلى رسلها ! .. فإن المضايقات التى بشرها محضرها النكد ، تطفى على المتعة المشتقة من تعذيبها ..

فقلت له : « هذا يا مستر هينكليف كلام رجسلى مجنون ، وأغلب الظن ان زوجتك قد اقمتمت بجنتوك ، ولهذا السبب احتملت عشرتك حتى الآن ! اما وقد قلت الآن إن لها الخبار في الذهاب ، فلا شك في أنها سوف تفيد من هذا التصريح .. واحسب يا سيدتى انك لست مفتونة بسلوبة اللب بحيث تبقين معه بلاء اختيارك ، اليس كذلك ؟ » .

فانبعثت ايزابيلا تقول ، وقد تطاير من عينيها شرر الحقد والغيط ، حتى لم يعد لدى أى شك ، عند رؤيتها وفهم التعبير الذى ارتسم فيها ، في النجاح التام الذى كللت به محاولات زوجها ليجعلها تمقته :

— حذار يا ايلين ! لا تصدقى كلمة واحدة مما يقول .. إنه شيطان كذوب ، بل وحش تجرد من صفات البشر ! .. لقد أخبرنى مرة قبل الآن ان بوسعى ان اتركه ، فاقدمت على المحاولة ، ولكنى لا اجرؤ الآن على إعادتها مرة أخرى ! .. فقط عدىنى يا ايلين الا تذكرى كلمة من حديثه الشائن لآخى او لكثيرين .. فمهما ادعى امالك ، فإنه إنسا يسمى لإنارة اليأس والعنوط في نفس ادجار ، ويقول إنه تزوج منى حتى تكون له السيطرة عليه .. ولكنه لن ينال هذه السيطرة ، فسوف أموت قبل ان يحقق أمنيته هذه ! .. وشد ما أرجو ، وأدعو الله ، ان ينسى حفره الشيطانى مرة ، فمقتلنى .. فإن المتعة الوحيدة التى اتصورها ، هى ان أموت ، او اراه ميتا !

فقال هينكليف : « مه ! .. كنى هذا الهراء الآن . وعليك يا نللى ان تذكرى كلماتها هذه إذا ما دعيت للشهادة في المحكمة

.. ثم تأملى هذه السحنة المقلوبة ! لقد قاربت الدرجة التى تعجبني وتواقتنى ! .. كلا يا ايزابيل ، انك لا تصلحين الآن لحماية نفسك ، ولا تؤمنين عليها . ولما كنت حابيك الشرعى ، فلإبد لى من حجزك تحت حراستى ، بهيا كان هذا الالتزام بغيشا منترا . والآن ، اصعدى إلى الطابق العلوى ، فإن لى شينا أريد أن أقوله لآيلين دين سرا . كلا ، ليس هذا هو الطريق ، إنما قلت لك اصعدى ! .. لماذا ؟ تعالى أريك طريق الصمود يا طفلى العزيزة ! » .

ثم أمسك بها ، وراح يجرها حتى طوح بها خارج الحجرة ، وعاد ليغمغم قائلا : « إننى خلوت من الشفقة ، مجرد من الرحمة ! .. وكلما ازدادت الديدان تلويها وتوجعها ، ازداد حنينى إلى سحقها وإخراج أحشائها ! .. أرايت الطفل عندما تنبت أسنانه ، وكيف يظلف على العض والمضغ ؟ .. أن بى لهفة معنوية مبالغة ! .. ولكن طحنى وتحريق أسناني يزدادان قوة وحياة ، بنسبة ازدياد الامم بالفريسة ! » .

فقلت وقد أخذت تبعنى من المشجب : « وهل تفهم لكلمة الشفقة معنى ؟ .. بل هل شعرت قط في حياتك بلمسة منها في قلبك ؟ » .

فقاطعتنى قائلا ، وهو يبرى عزمى على الرحيل : « ضعى هذه جانباً ، فلم يحن وقت انصرافك بعد . والآن اسمعى يا ايلين : إننى لا بدلى من أن اتفمك ، أو أرغبك ، على مساعدتى في تحقيق ما عقدت عليه العزم من مقابلة كاثرين ، بغير إهمال أو توان . واتسم لك إننى لا اضمر شراً أو ضراً ،

وليس بى من رغبة في إثارة المشاكل ، أو إغضاب مستر لينتون أو إهانتته .. فكل ما أريده هو أن أسمع من ثم كاثرين كيف تجد نفسها الآن ، ولماذا تعرضت لهذا المرض الشديد ، وأن أسألها إن كان بوسعى أن أؤدى لها خدمة أو أكون ذا نفع لها على أية صورة . لقد قضيت في حديقة (الجرانج) ليلة الامس ست ساعات متوالية ، وسوف اعود إليها الليلة أيضاً . بل إننى لن أكف عن ارتياد المكان كل ليلة ، وكل يوم ، حتى أجد فرصة لدخوله . ولو التقى بى أديجار ليفتون ، فلن أتردد في أن أصرعه ، واكيسل له من الضربات ما يكفى ليقائه بلا حراك مدة يقاتى معها ! .. أما إذا تعرض لى خدمه ، فسوف أرغمهم على مغادرة المنزل مهددا إياهم بهذا المسدس . ولكن الا تترين من الأفضل أن تمنع أسباب احتكاكى بهم أو يسيدهم ؟ .. أن فى وسعك أن تفعل ذلك فى يسر . سوف أتذكر بحضورى ، وعقدنذ يمكن لك أن تهينى لى سبيل الدخول ، دون أن يحس بى أحد ، بمجرد أن تجدتها بمفردها ، ثم ترقبين المكان حتى أبرحه . وثقى أن ضميرك سيرتاح إلى ذلك تماماً ، لأنك فى الواقع إنما تحولين دون وقوع أضرار كثيرة ! » .

فاعرضت على أدائى دور الخائنة فى منزل مخدومى ، فضلا عن أننى بذلك إنما استحثت قسوته وأنتابته على تدمير هدوء مسز لينتون وراحتها ، مرضاة له وإشباعاً لرغباته .. ثم أردفت قائلة :

— إن أى حادث عادى يحدث لديها اضطراباً اليها ، فقد

أصبحت أعصابها كلها شديدة التوتر ، ولا يمكنها أن تحتل المفاجأة . إننى واثقة من ذلك ، فلا تؤدد إلحاحا وإصرارا يا سيدى ، وإلا اضطرت لإخبار سيدى بمذيرائك ، وسوف يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية منزله وساكفيه من مثل هذا النطفل غير المرغوب فيه !

نصاح عيتكليف : « في هذه الحالة سوف اتخذ انا الإجراءات الكفيلة بسجنك هنا يا امرأة ! .. فلن نغادري (مرتفعات ويلرنج) حتى صباح الغد . وإنما لخراطة سخيفة أن تزعمى أن كاثرين لا يمكن أن تحتل رؤيتى . أما مفاجأتى لها ، فهذا امر لا اوده ، وعليك أن تعديها للقائى ، وتسألها الإذن لى بالدخول .. ثم انك تقولين إنها لا تذكر اسمى قط ، وان احدا لا يذكره اسمها .. فلنم تريدين ان تذكر اسمى ما دام الحديث عنى بعد محرماتى في منزلها ؟ .. إنها تظنكم جميعا جواسيس زوجها عليها . اجل ، لست أشك أنك حولها كزبانية الجحيم ! .. وأنى أحس في سبتها ، كائى شيء آخر من أحوالها الآن ، مبلغ ما تعانیه هناك وتشعر به . وأنت تقولين إنها غالبا ما تبدو قلقة لا تسفر على حال من الالهة والنوجس ، فهل يعد ذلك دليلا على الهدوء الذى لا تريدين منى أن أعكر صفوه ؟ .. وقد تكلمت عن عقلها المضطرب ، فكيف يمكن أن تكون غير ذلك ، بحق الشيطان ، وهى تقابى هذه العزلة المروعة ؟ .. ثم ذلك المخلوق النافه الحقير الذى يرعساها بدافع من الواجب والإنسانية .. من الشفقة والإحسان ! .. ان بوسعه أن يغرس شجرة بلوط في اصيص

زرع صغير ، ويتوقع منها ان تنمو وتترعرع ، إذا تصور انه يستطيع أن يرد إليها قواها وصحتها في تربة رعايته الناعمة الضحلة . والآن ، دعينا نقتفى من الامر حالا ، فهل تفضلين البقاء هنا ، وتتركينى اشق طريقي إلى كاثرين فوق جثث لينتون وخدمه ؟ .. أم تكونين صديقتى ، كما كنت دائما حتى الآن ، فتفعلين مارجوثك ان تؤديه لى ؟ .. ولكن عليك ان تخفارى احد الطريقين على الفور ، لأننى لا ارى سببا يدعمنى إلى التردد والتباطؤ دقيقة اخرى إذا كنت تصرين على التشبث بعنادك وسوء خلقك ! » .

حسنا .. لقد ظلمت اجادله واتوسل إليه طويلا ، يا مستر لوكوود ، ورفضت رفضا قاطعا كل ما طلبه منى اكثر من خمسين مرة ! .. ولكنه أرغمنى أخيرا ، بعد جدال طويل ، على اتفاق بيننا ، فتعهدت له بأن أحمل خطايا منه إلى سيدتى ، ووعدته - في حالة موافقتها - بأن ابلغه بغياب سيدى عن المنزل ، في اول مرة يغيب عنه فيها ، والموعد الذى يستطيع فيه الحضور ودخول البيت كيما شاء .. ولكنى لن أكون هناك ، كما ان زملائى الخدم سيخلون الطريق بالمثل . فهل كان ما فعلته خطأ أم صوابا ؟ .. أغلب الظن انه كان تصرفا خاطئا ، وإن كان من ناحية اخرى نافعا مئورا ، فقد ظننت اننى بامتنالى لرعايته انما أحول دون انفجار الموقف من جديد ، كما ظننت ان ذلك اللقاء قد يحدث رد فعل طيب في مرض كاثرين العطفى . ولكنى عدت فتذكرت انهيار مستر ادجار الصارم لى وتحذيره إيماى من تقل التمسص والاحاديث .

ورحت أحاول التهوين من شأن المخاوف التي تنازعنتى من جراء هذا الأمر ، بأن أخذت أؤكد لِنَفْسِي ، مرة بعد مرة ، أن هذه الخيانة لثقة سيدى - إذا كان بمسلكى يستحق هذه التسمية القاسية - يَبْنَى حَتْمًا أن تكون الأخيرة . وكانت رحلة العودة إلى الدار أشد كآبة وحزنًا من رحلة الذهاب ، وأتأبنتى الهواجس من كل ناحية قبل أن أتنع نقسى ، أو أرغبها ، على وضع الرسالة بين يدى مسز لينتون .

« ولكن ها هو ذا كينيث قد حضر ، وسأُنزِل إليه لأخبره بتقدمك الحثيث فى طريق الشفاء . أما تسمى « المهلة » ، فلنرجئها الآن ، وسوف نصلح لقطع الوقت فى صباح يوم آخر »

وبينما كانت المرأة العلية تنزل لاستقبال الطبيب ، كنت أقول لِنَفْسِي : أجل ، إنها قصة مملة ، وكئيبة موحشة فى الوقت نفسه ، وليست من النوع الذى كنت خليقًا باختياره لتسليتى . ولكن لا بأس ، فسوف أستخرج أطيب العتائير من أعشاب « مسز دين » المريرة ! .. ولكن على - قبل كل شيء - أن أحذر ذلك السحر الذى يكمن فى عيني كاترين هيثكليف البراقنتين .. فسوف أجد نفسى فى ورطة عجيبه لو سلطت قلبى لهذه الشابة الحسنة ، ثم تبين أن الإبهة ليست إلا مسورة طبق الأصل من أمها !

* * *

الفصل الخامس عشر

بمضى أسبوع آخر .. وازدادت بى الأيام اقترابًا من الصحة الكاملة ، والربيع اليسام . وقد فرغت من سماع قصة جارى كابل ، فى جلسات مخطفة كانت مذبذبة المنزل تخلصها بين مشاغلها العديدة الأخرى . وسوف أمضى فى سردها ، باستخدام كلماتها ذاتها ، مع قليل من التركيز ، فإنها فى الواقع تصامة بارعة ، ولا أحسبني قادرًا على تحسين أسلوبها .. قالت :

« فى ذلك المساء ، مساء زيارتى « للمرثعات » ، كنت أحس بوجود مسز هيثكليف قريبًا من المنزل ، كما لو كنت أراه بعينى ، فتجنبت الخروج من الدار ، لأننى كنت ما تزال أحمل خطابه فى جيبى ، وكنت راغبة عن سماع المزيد من الوعيد أو التائبين . كنت قد قررت ألا اسمم الخطاب حتى يغادر السيد المنزل إلى أى مكان ، لأنه لم يكن فى وسعى أن أحسس كيف يكون أثره على كاترين . وكانت النتيجة أنه لم يصل إليها إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام كاملة . وكان الرابع يوم الأحد ، فاحضرت الخطاب إلى حجرتها بعد أن ذهبت العائلة كلها إلى الكنيسة ، ولم يبق فى الدار - عداى - إلا رجل من الخدم ترك لىساعدنى فى الأعمال المنزلية . وكنا عادة نعد إلى إغلاق الأبواب خلال ساعات القداس ، ولكنى يومئذ انتهزت فرصة دهب الجو وروعته ، فشركتها مفتوحة جميعًا ، كما أننى - وناء بوعدى ، إذ كنت أعرف تاملًا من الذى سوف يقدم إلينا -

قلت لرغيفتي إن السيدة تشتهي البرتقال ، وأن عليه أن يسرع إلى القرية عدوا ليحضر بعضا منه ، على أن نُدفع ثمنه في اليوم التالي . وما أن غادر البيت حتى سعدت إلى الطابق العلوي .

« كانت مسز لينتون تجلس في نجوة النافذة كالمعتاد ، وترتدى ثوبا مفضاضا ابيض اللون ، وتغطي كتفها بشيلة خفيفة . وكان شعرها العزير الطويل قد عمق مرفوعا فوق رأسها في بداية مرضها ، أما الآن فكان مهشطا في بساطة ، وتسدل خصلاته في توجع الطبيعي فوق صدغها وعمتها . وكان مظهرها قد تبدل تماما — كما أنبات هينكليف — ولكنها عندما تكون هادئة فإن هذا التبدل يبدو فيه مسحة من جمال ملانكي لا عهد لدينا البشر بمثله ! .. وكان البريق المتساقط في عينها قد خبا ، وبدت مكانه عذوبة حالة حزينه . ولكن هاتين العينين لا توحيان بأنهما تنظران إلى الأشياء المحيطة بها ، وإنما تهودان دائما وكأنهما تتطلعان إلى ما وراءها ، تتطلعان إلى بعيد وراء كل شيء ، حتى ليحق لك أن تقول أنها تتطلعان إلى ما وراء هذا العالم كله ! .. أما شحوب وجهها — الذي اختفى هزاله ومنظره الهشيم منذ أن اكتسى بشيء من اللحم — والتعبير الغريب المرتسم في محياها من اثر حالتها العقلية — فأنهما وإن كانتا بنهان ، على نحو اليم ، عن الأسباب التي أدت إليهما ، فقد كانا يزيدان من الشعور بالأسى الذي يشهه مرآهنا في النفوس . أما أنا فكانت أجد فيها — واحسب أن أي شخص ينظر إليها كان يجد ذلك بظني — ما ينقض أية أدلة ظاهرية أخرى على نقاهتها وقرب شفاؤها ، وإنما يسمها بطابع الشخص الذي قضى عليه بالفناء !

« وكان على النافذة بجوارها كتاب مفتوح تحسرك النسفات الهادئة أوراقه بين آن وآخر . وفي يقيني أن لينتون هو الذي وضعه هناك ، إذ أنها لم تكن تحاول قط أن تسلي نفسها بالقراءة ، أو تشغل نفسها بأي عمل آخر . وكمن ساعة كان يقضها محاولا أن يثير انتباهها إلى شيء مما كان موضع تليلتها في الماضي . وكانت تعي ما يرعى إليه ، فإذا كانت في حالة طيبة ، فأنها تحتمل محاولاته في هدوء واستكانة ، مكتفية بإظهار عدم جدواها بها ينبعث منها بين وقت وآخر من تهديد الشجر والسام ، حتى تنتهي أخيرا إلى إيقاف مساعيه بإشابة حزينه ، أو قبلة خاطرة . أما في الحالات الأخرى ، فأنها تتحول عنه في نفور وعناد ، وتخفي وجهها بين راحتها ، أو تدفعه عنها في حق وعضب . .. فكان عندئذ يحرص على أن يتركها وحدها ، مدركا عن يقين أنه قد أخطأه الصواب في مساعاه .

« وكانت اجراس كنيسة (جيمرتون) لا تزال تدق من بعيد ، كما كان الخريز الهادي لقنوات الوادي يصافع الآن وديما رقيقا ، فكان بديلا جميلا لذلك الحفيف الذي لم يكن موعده بعد ، حفيف أوراق الشجر في المسيف ، والذي كان يطن على موسيقى القنوات عند ما تورق الأشجار حول (الجرانج) .. وكان خريز الماء يسمع دائما في (مرتفعات ويلرنج) كلما سكن الهواء إثر انهيار المطر طويلا ، أو جريان الثلوج الذائبة فوق التلال . وكانت كاثارين تفكر في (مرتفعات ويلرنج) وهي تصفئ إلى ذلك الخريز الموسيقي — إن كانت تفكر في شيء أو تصفئ إلى شيء على الاطلاق ! — ولكن كانت في عينها

نلك النظرة الجوفاء الغامضة التي وصفتها من قبل ، والتي لم تكن تعبر عن إدراك لشيء من الأشياء المادية سواء ، عن طريق السمع أم البصر ..

« ووضعت الخطاب في رفق في يدها المستقرة على ركبتيها ، وقلت :

— هذا خطاب لك يا مسز لينتون .. ويبنى أن تقرنيه على الفور ، لأنه يتطلب ردا .. هل أفضي أختله ؟

« غلم تفر اتجاه نظراتها ، وقالت في اقتضاب : « نعم .. » .
« وفتحت الخطاب ، وكان موجز العبارة ، ثم استطردت قائلة : « اقربيه الآن ! » .

« غير أنها جذبت يدها بعيدا ، فسقط الخطاب على الأرض .. فالتقطته ثانية ووضعت في حجرها ، ووقفت أنتظر حتى يروق لها أن تنظر إليه ، لكن ترقبي لهذه الحركة طال على غير جدوى ، حتى اضطررت إلى متابعة كلامي تسائلة : « هل تريدن أن أقراه عليك يا سيدتي ؟ .. إنه من مستر هيثكليف ! » .

« فأجملت ، ولاحظت في عينيها بارقة من عودة الذاكرة ، وتراءت في محياها دلائل النضال في سبيل تنظيم أفكارها . ثم رفعت الخطاب ، وبدا عليها أنها تتصفح في إيمان ، حتى إذا ما بلغت الإمضاء ، تأوهت في مرارة . ومع ذلك فقد وجدت أنها لم تدرك دلالاته تماما ، لأنني عندما رغبت إليها في أن تسمعن جوابي ، اكتفت بأن أشارت إلى الاسم ، وراحت تتفرس في وجهي في لهفة حزينة متسائلة .. فحدثت حاجتها

إلى من يشرح لها الأمر ، وقلت : « حسنا .. إنه يود أن يراك .. وهو الآن في الحديقة ، يتلهف على معرفة الإجابة التي أحملها إليه .. » .

« وكنت قد لاحظت أثناء كلامي أن كلبا ضحبا — كان يقبع تحتنا في الحديقة مستظليا في استرخاء في أشعة الشمس الساطعة فوق العشب الأخضر — قد نصب أذنيه فجأة ، وبدأ يهم بالنباح ، ولكنه ما لبث أن أرخاها وهو يعلن ، بهزات تليها ، عن مقدم شخص لا يعده غريبا عن المكان .. ومالت مسز لينتون إلى الأمام ، وهي ترهف السمع ، وقد حبست أنفاسها . وفي اللحظة التالية سمعت وقع اقدام تعبر الردهة . كان المنزل المفتوح من قوة الاغراء لهيثكليف بدخوله ، بحيث لم يستطع مقاومته .. وأغلب الظن أنه حسبنى قد نكثت بعهدي له ، فمصم على الاعتماد على جراته ! .. وكانت كاثارين متعلقة الانظار بباب حجرتها ، في لهفة واشتياق شديدين . غير أن القادم لم يصب الحجره الصحيحه في بادئ الامر ، فأشارت إلى أن استقبله ، ولكنه اهدى إليها قبيل أن أبلغ الباب . وفي خطوات وثابة ، كان يقف إلى جانبها ، ويشيها إلى صدره في قوة !

« ولقد لبث أكثر من خمس دقائق لا ينطق بكلمة ، ولا يرضى ذراعيه عن احتضانها ، وقد راح في خلالها يطرها بعدد من القبلات أحسب أنه لم يمنح أحدا أكثر منه في حياته قط من قبل ! .. ولكني أشهد أن سيدتي هي التي قبلته أولا . ورايت في جلاء أنه لم يستطع احتمال النظر إليها ، ففرط ألمه

الصراخ . كان قد ادرك — كما أدركت أنا — منذ أن وقعت
انظاره عليها ، انه لم يكن ثمة أمل في شفائها ، وانه قد قضى
عليها بالموت ، لا شك في ذلك ولا ريب !

« وكان أول ما نطق به ، هو أن راح يهتف في لوعة دون أن
يحاول إخفاء يأسه وأساه : « اواه يا كاشي ! .. اواه يا حبيبي !
.. كيف استطيع احتمال ذلك ؟ » .. وكان عندئذ يحسق
النظر إليها في إيمان شديد ، بحيث ظننت أن تركيز نظرانه
سوف يجلب البكاء إلى عينيه .. ولكنها كانتا تتقدان بالمعذب
والآلم ، وقد تحجرتا فلا تتديان بالدموع .. فأسندت كاترين
كتفها إلى ظهر المقعد ، وراحت تبادلته نظراته وقد تطبت
حاجبها . كان مزاجها أشبه بدوارة الريح ، لاهوائها الدائمة
التقلب والتغير .. وما لبثت أن قالت :

— وماذا الآن ؟ .. لقد حملتها قلبي ، أنت وادجار ،
يا هينكليف ! .. ثم تأتبان كلاكما تتباكيان وتنعيمان على
ما فعلناه بهي ، كأنكما أنتما اللذان تستحقان الإشفاق والرثاء
.. ولكني لن أشفق عليك أو أرثى لك ! لست أنا التي تفعل
ذلك . لقد تظنتي ، وأحسبك انلحت في ذلك . يا لله !
ما أتواك ! .. ترى كم من السفين تنوى أن تعيشها بعد أن
أرحل ؟

« وكان هينكليف يركع على إحدى ركبتيه بجوارها
ليستطيع احتضانها ، فحاول التهوض ، ولكنها أمسكت بشعره
وتشبثت به لتقبضه في مكانه ، ثم استطرقت نقول في مرارة :
« شد ما أود أن اظل ممسكة بك حتى تموت معاً ! .. ولن



وفي خطوات وثابة ، كان يقف الى جانبها ،
ويغسبها الى صدره في قوة ! ..

أبالي بما تعانیه من ألم .. بل لست أبالي شيئا بالألم جميعا .
ولماذا بريك لا تتعذب ولا تتكلم ؟ .. لقد تعذبت أنا وذقت ألوان
الألم .. ثم هل تراك تنساني ؟ .. هل ستكون سعيدا عندما
أكون تحت أطباق الثرى ؟ هل تراك تقول بعد عشرين عاما :
« هذا قبر كاثرين إيرنشو . لقد أحببتها منذ عهد بعيد ،
وشقيت بلفتها ، ولكن ذلك قد مضى وانقضى .. فقد أحببت
الكثيرات منذ ذلك الحين ، وأطفالي الآن أحب إلى نفسي مما
كانت هي في يوم من الأيام . وعندما تحين ساعتى ، فلن يسرنى
أنى ذاهب إليها ، بل سوف يسوؤنى أن أضطر إلى تركهم ! »
.. هل هذا ما ستقوله يا هيثكليف ؟ .

« لماتزغ رأسه من قبضتها في عنف ، وكانت أسنانه
تصطك وهو يصيح : « بريك لا تعذبى حتى يصيبنى الجنون
كما أصابك ! » .

« كان الاثنان ، في نظر المشاهد العادى ، يملآن صورة غريبة
مخيفة .. وكان يخلق بكاثرين أن تتدن أن السماء سوف تكون
منفى رهيبا لها ، ما لم تطرح عنها - مع جسدها الفانى -
نفسيتها المنوية أيضا .. فقد كانت أساريرها الآن تحل
طابعا من الحقد والضغينة في وجنتها الشاحبتين ، وشقيتها
الباهتتين ، وعينها اللتين تتقدان بشرر الانتقام ! .. وكانت
تطبق أصابعها على خصلة من غذاره التى كانت تمسك بها .
أما رفيفها فقد اتكا ، عند نهوضه ، على إحدى يديه ، وأمسك
بذراعها الأخرى ، فلما رفع يده عنها أدركت أن حصيلته من
الرقعة التى تستلزمها حالها كانت من القلعة بحيث كان على

بشرتها الشاحبة أربعة خطوط زرقاء عميقة ! .. واستطرد
يقول في وحشية :

— هل تملكك شيطان حتى تخاطبى على هذا النحو وانت
مشرقة على الموت ؟ .. وهل قدرت أن كلمتك جيبعا سوف
تظل مطبوعة في ذاكرتى ، ولا نفتأ تحفر فيها وتزداد عمقا بعد
أن تكونى قد تركتى ؟ .. إنك لتعلمين سدى كذبك عندما
تقولين إننى قتلتك . وإنك لتعلمين ، يا كاثرين ، أنتى أستطيع
أن أتسك إذا ما استطعت أن أنسى كيانى ووجودى .. أفلا
يكفى انانيتك الجهنمية أنك بيننا ناعمين بالراحة والسكينة ،
سوف تطوى أنا في عذاب الجحيم ؟

« فاجابت كاثرين في آنين البم : « ولكنى لن أنعم بالراحة
أو السكينة » .. وعادت إلى الشعور بضعفها البدنى عندما
أخذ قلبها يخفق في عنف ، وفي ضربات غير منتظمة كانت ترى
وتسمع من بعد ، من جراء الانفعال الشديد الذى استبد بها
.. فكنت عن الكلام وبشما انقضت تلك الأزمة ، ثم استطردت
تقول في رقعة :

— إننى لا أتمنى لك عذابا أشد مما أقاسيه يا هيثكليف .
كل ما أتمناه هو ألا نفترق قط . ولو ضايقتك وأكربتك كلمة
من كلمتى فبما بعد ، فاعلم أنتى أحس هذا الكرب نفسه في
قبرى .. فاصفح عنى ، من أجل خاطرى ! .. تعال هنا
واركع بجانبى ثانية . إنك لم تنسئ إلى فى حياتك قط . وإذا
امعنت فى غضبك على ، فإن ذلك سوف يكون أسوأ ذكرى لك ،
بما يفوق ذكرى كلمتى العنيفة . هلا أتيت إلى جانبى ؟ ..
تعال .. تعال !

« فعناد هينكليف ثانياً ، ولكنه وقف خلف مقعدها ، وانحنى فوق ظهر المقعد قليلاً ، إلى الحد الذي لا يمكنه معه أن ترى وجهه المتع من التائر والانفعال .. وأدارت رأسها إلى الوراء لتتأمل إليه ، ولكنه لم يكن ليسبح لها بذلك .. فقد تحول بفتة ، وسار نحو المدفأة ، حيث وقف صامتا وقد أدار ظهره نحونا .. وتبعته نظرات مسز لينتون في ترقب وارتياب .. وكانت كل لحظة تمر نوقظ فيها أحاسيس جديدة .. فلما طال الصمت ، واستطالت نظراتها ، استطرقت تخاطبتي في نبرات مليئة برارة الخيبة :

— آه ! .. أرايت يا نللي كيف انه لا يريد أن يرق لي لحظة ليحول بيني وبين القبر ! .. هذا هو مبلغ حبه لي ! .. حسنا .. لا بأس .. إن هذا ليس هينكليف الذي اعرفه ! .. ولكني سوف أنظر أحب هينكليف الذي اعرفه ، وسوف أخذه معي فإنه قطعة من روحي !

« ثم أضافت كأنها تفكر بصوت يسوع :

— ثم إن أشد ما بضايقتي الآن هو هذا السجن المحطم — جسدي — الذي أعيش فيه . لقد تعبت من طول احتياسي هنا .. وأود بصبر نافذ أن أفر إلى ذلك العالم الجديد ، وأن أنظر هناك أبداً ، فلا اقتصر على النظر إليه من وراء غلالة من الدموع ، والحزن إليه من خلال جدران قلب مضني ، وإنما أتقي فيه وأعيش معه حقاً ! .. ولعلك يا نللي تخالين أنك أفضل مني وأسعد حظاً ، لأنك في عنفوان قوتك وكامل صحتك ! ولعلك تأسفين من أجلى وترئين لحالي ! .. ولكن كل شيء

سوف يتبدل عما قريب .. وسوف أكون أنا التي أرى لحالك .. سوف أكون بعيدة عنكم أشرف عليكم جميعاً من عل .. واستطرقت تحدثت نفسها :

— كم أعجب من تيعاده ، وإحجابه عن الاقتراب مني ! .. أنا التي حسبته يرتقب في ذلك ويتنأه ! .. هينكليف ، يا عزيزي .. ما ينبغي لك أن تكون غاضباً عيوساً الآن .. تعال إلي يا هينكليف !

وفي غمرة لهفتها وشوقها نهضت واقفة ، وهي تستند إلى ذراع مقعدها .. وإزاء هذه الدعوة الحارة ، استدار نحوها وقد لاحت في أساريره إشارات اليأس المرير . وكانت عيناه الواسعتان تفتديان بالدموع ، وتحذجانها بنظرات وحشية ، وصدره يملو ويهبط في رجفات متتابعة .. وليثاً لحظة وقد جهد كل منهما في مكانه .. ولم أر كيف التقيا بعد ذلك ، ولكن كثرتين وثبت إلى الأمام ، فطلقاها بين ذراعيه ، والتقيا في عنق طويل طننت أن سيدتي لن تخلص مني علي قيد الحياة قط .. والواقع أنها بدت في عيني كأنها فقدت الشعور .. والتي هو بنفسه على أقرب مقعد إليه ، وهو يجلسها بين يديه ، فلما اقتربت في عجلة لأبين إن كانت مغشياً عليها ، كثر عن أنيسابه في وجهي ، وأنتق الزيت من فمه كالكلب المسعور ، وراح يضهما إلى صدره في غيرة بشعة .. ولم أعد أشعر بأنني في رفقة مخلوق من البشر مثلي ، وكان من الواضح أنه لن يفهمني مهما خاطبته وقلت له .. وهكذا انتحيت جانباً وأمسكت لساني ولذت بالصمت في حيرة شديدة ..

وما لبثت أن سكن جاشي قليلا عندما رأيت كاثرين تبدر
منها حركة صغيرة .. فقد رفعت يدها لتجذب إليها عنقه ،
وتلمسق خدها بخده وهو يحسنسها .. بينما راح يدوره
يسطرها بقبيلات جنوبية ، وهو يقول في ضراوة :

— لقد علمتني الآن كيف كنت قاسية باكائي .. قاسية
ومنافقة ! .. فلماذا احتقرتني ؟ لماذا خدعت قلبك وغدرت
به ؟ .. إنك لن تسمعي مني كلمة واحدة تسرى عنك ، فإنك
تستحقين ذلك .. أنت التي قتلت نفسك .. أجل .. لك
أن تقبليني ، وأن تذرفي ما شئت من الدموع .. ولك أن
تنزعني مني القبيلات والعبرات .. فإنها سوف تطفحك بنارها
.. وسوف تلعنك بكل قطرة فيها ! .. لقد كنت تحبينني ..
فباي حق ، إذن ، هجررتني ؟ .. باي حق تخلط عني من
أجل وهم تائه شعرت به نحو لينتون ؟ .. فلا الشكاه
أو البوائق أو الموت ، ولا أي شيء مما يمكن أن يصيبنا به الله
أو الشيطان ، كانت لتستطيع أن تفرق بيننا .. ولكنك فعلت
ما تعجز عنه كل هذه القوى ، وعملت بهلء إرادتك .. إنني لم
أحطم قلبك . أنت التي حطمته بيدك .. وعندما حطمته ،
حطمت قلبى معه ! .. إنك تريننى قويا متين الأمر ، ولكن
ذلك لتمس حظى .. فهل تظنننى أتني الحياة طويلا ؟ ..
وأي نوع من العيش ذلك الذى يمكن أن أحياء ، بينما أنت ..
آه ! يا الهى ! .. أترك أنت تتهنين العيش بيننا روحك في
تبر من القبور ؟

عشرقت كاثرين بدموعها ، وبأثنيها ، وقالت :

— دعنى وحدى .. دعنى وحدى .. إذا كنت قد أخطأت ،
فهاأنذا أفكر عن خطئى بالموت . وهذا فوق ما يكفيك ! ..
لقد هجررتنى ، أنت أيضا .. ولكنى لن أعانبك أو أعنف
عليك .. إننى أصفح عنك .. فاصح عني !

— يا اصعب الصفح وأنا انظر إلى هاتين العينين ، وانحسس
هاتين اليدين الناطلتين ! .. قبلينى ثانية ، ولكن لا تدعيني
أرى عينيك ! .. لقد غفرت لك كل ما فعلته بي .. فأننى
أحب قائلنى ! .. ولكن قائلك أنت ! .. كيف يمكنى أن أحبه ؟
وساد الصمت بينهما ، واختفى وجه كل منهما في وجه
الأخر ، وغسلت دموع كل منهما وجه صاحبه .. وأغلب
الظن أن البكاء كان متبادلا بينهما .. فإن هيتكليف كان خليقا
يان بيكى في مناسبة عظيمة كهذه ..

ويدا التلق يتسرب إلى نفسى ، كلما مضى الوقت .. فقد
كان النهار يمر سراعا ، كما عاد الرجل الذى كنت قد بعثت
به إلى القرية ، من مهمته ، وبدأت أميز من بعد ، في أشعة
الشمس ناحية الغرب فوق الوادى ، جماعات من الناس
تتكاثر وتتكاثر عند باب كنيسة (جيمرتون) ، فقلت :

— لقد انتهى القداس ، وسوف يكون سيدى هنا بعد
نصف ساعة ..

فزجر هيتكليف باللعنات والسباب ، وشدد من عناقته
لكاثرين ، ولكنها لم تتحرك قط .. ولم تمشى هنيئة ، حتى
رأيت جمعا من الخدم يجتازون الطريق نحو الدناح الذى
يقع فيه المطبخ .. ولم يكن مستر لينتون يبعد عنصم كثيرا

وهو يسير خلفهم .. وتمتخ بنفسه البوابة الكبيرة ، وأخذ يسير في بطنه واسترخاه قائما نحو المنزل .. ولعله كان يستمتع بهواء العصر الجميل الذي كان يترشق كنسبات السيف ..

عندئذ هفت قائلا :

— ها هو ذا قد حضر .. فأسرع بالاتصراف بحق السماء .. إنك لن تجد أحدا على الدرج الأمامي .. فأسرع بالخروج ، واختلف برهة بين الأشجار وربما يدخل المنزل ، حتى لا يراك .. فقال هينكليف وهو يحاول الخلاص من بين ذراعى رفيقته :

— لا بد لي من الذهاب الآن يا كاثي .. ولكن إذا قدر لي أن أعيش فسوف أراك ثانية قبل أن يحين موعد نومك .. لن أذهب إلى أبعد من خمس ياردات عن نافذة حجرتك .. فتشبثت به بقدر ما سمحت لها قواها الخائرة ، وهي تجيبه :

— كلا .. لا ينبغي أن تذهب .. ولن تذهب ..

فتوسل إليها في تلقى :

— ساعة واحدة فقط !

— ولا دقيقة واحدة !

فازداد الدخيل القلق إلحاحا ، وقال :

— بل لا بد لي من الذهاب .. سوف يأتي لينتون إلى هنا حالا ..

ولقد كان بوسعه أن ينهض ، وبذلك يتخلص من قبضة أصابعها ، ولكنها ازدادت به تعلقا وازدادت أصابعها به تشبها ، وقد لاح في أساريرها عزم رهيب جنوني ، ثم صرخت قائلة :

— كلا .. لا تذهب .. لا تذهب ! .. إنها المرة الأخيرة .. ولن يقتلنا أجدجار .. هينكليف .. إنني سوف أموت .. سوف أموت ..

فصاح هينكليف ، وهو يقفص في مقدمته :

— يا لك من حمقاء ! .. ها هوذا .. صه يا حبيبتي ،

اسكني ياكثيرين ! .. سوف أبقي .. وإذا أطلق على الرصاص وأنا جالس في مكاني ، للفظت أنفاسي الأخيرة ، وشكفتي تباركانه !

وعادا إلى عناقها من جديد .. وسمعت وقع خطوات سيدي فوق الدرج ، فتسبب العرق البارد من جبينى ، واستبد به الغزع ، وثلث لهينكليف ضارعة :

— هل تنوى أن تصغى إلى هذباتها ؟ .. إنها لا تعرف ما تقول .. فهل تدبرها وتفضي عليها ، لأنها لم يعد لديها من العقل ما تحبى به نفسها ؟ .. أنهض .. فما زالت في الوقت فسحة لخلاصك .. إن هذا شر عمل شيطاني ارتكبته في حياتك قط .. لقد قضى علينا جيبعا .. السيد ، والسيدة ، والخادمة !

وكنت أعصر يدي ، وانشج بالبكاء .. وسمع مستر لينتون تلك الضجة ، فأسرع الخلمي .. وفي غمرة اضطرابي وانفعالي ، سررت إذ رأيت ذراعى كاثرين تتهاويان مسترخيتين بجانبها ، ورأسها يميل إلى الأمام .. فقلت لنفسى :

— لقد أغمى عليها ، أو ماتت ! .. وذلك أفضل كثيرا .. ولكن الأفضل منه أن تكون قد ماتت ، حتى لا تبقى طويلا عبئا على من يحيطون بها ، مجلبة للشقاء إليهم !

وانقض اذجار على ضيقه المتطفل ، وقد انقح وجهه دهشة وغضباً .. ولست أدري ما الذى كان يترى ان يفعله .. فقد وضع الآخر حدا لكل ما كان يمكن حدوده ، بان وضع بين يديه ذلك الجسد الساجى الذى يسدو خلوا من الحياة ، مثالا :

— انظر إليها .. وإذا لم تكن شيطاننا او عدوا لدودا ، فاسمعها أولا ، ثم قل لى بعد ذلك كل ما تشاء .. واسرع بفاندر المكان ، وبجلس فى حجرة الجلوس .. ودعائى مستر لينتون ، فرحنا نبذل الجهود المشتية ، ونلجأ إلى شتى الوسائل ، لنعيدها إلى الصواب ، حتى نجحنا فى إقامتها أخيرا .. ولكنها كانت ذاهلة اللب .. كانت تئن وتتلوه ، ولكنها لم تعرف أحدا .. ونسى اذجار ، فى غمرة ملقه عليها ، صديقها البغيض .. أما أنا فلم أنس .. فانتهزت أول فرصة سمحت لى ، وبشيت إليه فرجونه ان ينصرف ، مؤكدة له ان كاترين احسن حالا ، وأنه سوف يسمع منى فى الصباح كيف قضت ليلتها .. فقال :

— إبنى لن امنتع عن مغادرة الدار .. ولكنى سوف ابقى فى الحديقة .. وأرجوك يا نللى ان تبرى بوعدك غدا .. وسوف تجديننى تحت اشجار الحور .. فإذا لم تفعلنى فسوف أقوم بزيارة أخرى سواء اكان لينتون هنا أم لم يكن !

والقى نظرة سريعة نحو باب الحجرة المنفرد ، وإذا استوتق من ان ما ذكرته له كان يبدو صحيحا ، فغادر المنزل فى خطوات سريعة ، وأخلاه من محضره المتكود ..

الفصل السادس عشر

حوالى منتصف نك الليلة ولدت كاترين التى رايتها فى (مرتفعات ويفرنج) .. ولدت هزيلة ضامرة فى الشهر السابع من حملها .. وبعد مولدها بساعتين ، لفظت الأم انفسها الأخيرة ! .. ماتت دون ان تسترد من الوعى ما يكفى لان تفقد هينكليف ، او تشعر بوجود اذجار .. وكان حزن هذا الآخر لما اصابه من الكمل ، أمرا يجل عن الوصف ، ونالم النفس للحديث عنه .. كما اظهرت آثاره بعد ذلك مدى عمقه فى نفسه . وفى رأى ان ما زاد من فداحة المصائب لديه ، أنه ترك بغير عتب من الذكور . وكان قلبى يمتصر حسرة والمسا لذلك ، وأنا أتأمل البيّمة الضعيفة ، فرحت انى باللانبة — فى نفسى — على لينتون العجوز الذى أوصى بأن تنتقل املاكه ، إذا عرضت مثل هذه الحالة ، إلى ابنته بدلا من حفيدته .. وهكذا جاءت الطفلة المسكينة ، فلم تلق من احد ترحيبا ، ولم يهش لمولدها إنسان .. فلو أنها ماتت فى تلك الساعات الأولى لها فى الوجود ، لما اكرتت لذلك احد قط . وقد عوضنا هذا الإهمال فيما بعد ، ولكن المتكودة استهلكت وجودها بغير صديق ، مثلما يخشى ان تحتتمه !

وتسلل ضوء الصباح — الذى كان مشرقا بهيجا خارج الدار — من ثنابا مصاريع نوافذ الحجرة الصامتة ، فأضفى على الفراش وشافلته وهجا رقيقا ليينا . وكان اذجار لينتون

يضع رأسه على الوسادة ، مطبق العينين ، ومحاذ الناصع البياض يبدو - في شحوب الموت الذي يعلوه - أشبه بالوجه الساجي إلى جواره ، وقد تماثلا سكونا وجودا .. ولكن أساريره كانت تنطق في جهودها بالآلم المهنى ، على حين كان وجه الراحلة يفيض سلاسا ودعة . كان جبينها ناعيا وضاء ، واجفانها مطبقة ، وشفتاها تنفرجان في ابتسامة عادية .. وما أحسب أن أيا من ملائكة السماء كان يمكن أن يبدو أوفسر منها جمالا .. وثالثي قيس من ذلك السكون المطلق الذي يحيط بها في رقادها ، فما أحسست قط بأن عظمى عاش في إطار أشد قداسة مما كان عليه عندما رحلت. أتأهل تلك الصورة الصافية من الراحة الإلهية ! .. ورحمت أرجع في نفسي ، عن غير قصد ، صدى الكلمات التي نطقت بها منذ ساعات قلائل ، قلت : « إنها بعيدة عنا تشرف علينا جميعا من عل .. وسواء أكانت لا تزال على الأرض ، أم لثها الآن في السماء ، فإن روحها قد رجعت إلى مستقرها ومثواها عند خالقها » .

ولست أعرف إن كانت تلك صفة أختصت بها ، ولكن الواقع أنني قلما أحس شيئا غير السعادة عندما أقوم وحدى بالحراسة في حجرة يرغرف عليها الموت ، ما لم يقاسمني هذا الواجب شخص خرج به الحزن عن صوابه أو ملئ قلبه بأسا .. فإني أرى راحة وطمانينة لا تستطيع الأرض ولا الجحيم أن تحطمها ، وأحس باليقين في عالم يأتي بعد ذلك ، لا نهاية له ولا ظلمات فيه .. تلك الأبدية التي يلجون أبوابها ، حيث لا تنقيد الحياة بحدود في مدتها ومداهها ، ولا الحب في حسانه

وروعته ، ولا السرور في عنفوانه ووفورته .. وقد تبينت في تلك المناسبة مبلغ الأثرة والاثمانية في حب مثل حب مستر لينتون ، عندما يحزن على خلاص كاثرين السعيد !! .. ومن المحقق أن المرء قد يشك أحيانا ، بعد تلك الحياة الملبنة بالعناد والمساكسة والتهور التي كانت تحياها ، فيها إذا كانت نستحق أن نقاد أخيرا إلى مرغا السلام والطمانينة .. إن المرء قد يشك في ذلك في سويغات التفكير الهاديء المجرى عن العاطفة ، لا في ذلك الوقت ، أمام جهاتها .. فان السكينة التي كانت ترين على ذلك الجثمان المسيحي ، بدت كأنها تشتم سكبنة مماثلة للروح التي كانت تسكنه !

« ترى هل تعتقد يا سيدي أن مثل هؤلاء الناس يلتصون السعادة في العالم الآخر ؟ .. إنني أبذل الكثير في سبيل معرفة ذلك .. »

ولكني تنكبت الإجابة على سؤال مسز دين ، الذي أدهشني وقتئذ كشيء أدنى إلى الضلالة .. فاستطردت تقول :

« إننا لو اقتنينا سبيل كاثرين لينتون ، لما حق لنا أن نظننا سعيدة .. ولكننا سوف ندعها لخالقها .. كان السيد يبدو نائما ، نجازفت بمغادرة الحجرة بعد شروق الشمس مباشرة ، وتسللت إلى حيث الهواء النقي المنتعش خارج الدار .. وحسبني الخدم قد خرجت لأنفسي عنى النعاس بعد حراستي الطويلة ، ولكنني في الحقيقة إنما خرجت لأرى مستر هينكليف .. فلو أنه مكث بين أشجار الحور الليل بطوله ، لما سمع شيئا من الجلبة التي قامت في (الجرانج) .. اللهم إلا إذا كان قد

سبح وقع حوافر جواد الرسول الذي بعنا به إلى (جيمرتون) .. ولو أنه اقترب من الدار ، لأدرك من الأضواء المنقطة هنا وهناك ، والأبواب الخارجية وهي تفتح وتغلق ، أن الأمر لم يكن على ما يرام في الداخل . وكنت أود أن أجد ، ومع ذلك كنت أخشى هذا اللقاء .. كنت أحس بشناعة الأبناء التي يجب أن انظها إليه ، وتبينت أن ينتهي ذلك الموقف سريعا ، ولكني لم أكن أعرف كيف أتولها له ! .. ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا إلى شجرة عتيقة ، عارى الرأس ، ملبد الشعر بالندى الذي تجمع على الغصون المورقة حديثا ، والذي كانت قطراته تتساقط حوله .. وكان قد قضى فترة طويلة في وقته هذه ، لأنني رايت طائرين يذهبان ويعودان ، وليس بينهما وبينه إلا زهاء ثلاثة أقدام ، وقد انهكما في بناء عشها ، ولا يريان في قريه منهما إلا ما يريان في كتلة من الخشب ، على حين انقلنا هاربين عند اقترابى ..

ورفع عينيه نحوى ، وقال :

— لقد ماتت ! .. ولم أكن بحاجة إلى انتظارك لأعرف ذلك .. ضعى منديك هذا جسانيا ، ولا تدعى دموعك وبخاطك يسيلان أمامى ! .. لعنة الله عليكم جميعا .. إنها ليست في حاجة إلى شيء من دموعكم !

كنت أبكى رثاء لحاله بمنزل ما كنت أبكى عليها .. فاننا أحيانا نشفق على مخلوقات تجردت من مثل هذا الشعور سواء بالنسبة للناس أو للأنسبا .. وعندما وقعت انظاري على وجهه للمرة الأولى أدركت أنه علم بالكارثة .. وطرات لي فكرة



ووجدته هناك ، على قيد خطوات من البستان ، مستندا إلى شجرة عتيقة عارى الرأس ، ملبد الشعر بالندى ..

سخيفة ، هي أن قلبه قد غشبهته السكينة فراح يصلى ، إذ كانت شفتاه تتحركان في تمتمة صامتة ، وقد أحنى رأسه كأنها ركعت أنظاره على الأرض .. نقلت وقد كتبت شغفتي وجفت عبراتي :

— أجل .. لقد ماتت .. وأرجو أن تكون قد ذهبت إلى السماء ، حيث يمكن أن نلحق بها ، كل واحد منا ، لو أصفينا إلى صوت النذير ، وتركنا سبل الشر لنسلك سبل الخير ..

فسألني هيثكليف فيما يشبه السخرية :

— وهل أصغت هي إذن إلى صوت النذير ؟ .. هل ماتت أشبه بقديسه ؟ .. هيا .. قمى على كل ما حدث ، في صدق ودقة .. كيف لقيت ..

كان يهيم بأن ينطق باسمها ، ولكنه لم يستطع التلفظ به ، وكان وهو يضغط على شفتيه كأنها بصارع ، في صمت ، حزنه المكتون ، متحديا — في الوقت نفسه — إشفائى عليه وراثى له بنظرات نارية ضاربة ، وعينين لا تطرفان .. وأخيرا اضطر ، برغم صلابته ، إلى البحث عن متكأ خلفه ، إذ انتهى ذلك الصراع بهزيمته وأخذت الرعدة تسرى في بدنه حتى أخصص قدمه ، على الرغم منه .. ثم تابع القول :

— كيف لقيت نهايتها ؟

نقلت في نفسي : « أيها التعس المسكين ! .. إن لك قلبا وأعصابا مثل ما لاخوانك من بنى البشر .. فلماذا تلتف على إخفاها ؟ .. إن كبريائك لن تخفى على الله ! .. وانت إنما

تدفعها إلى أن تظل تصهر تلبك وأعصابك ، حتى تنتزع منك عبرات الهوان والمذلة ! » .

ثم أجبته بصوت عال :

— في هدوء الحبل الوديع .. تنهدت ثم بسطت جـسـمها ، أشبه بطفل يصحو من نومه ، ثم يعود إلى الاستغراق بـسـمـه ثانية .. وبعد خمس دقائق أحسست بقلبها يخفق خفقتة واحدة ، ثم يسكن إلى الأبد !

فسألني مترددا ، كأنها يخشى أن تتضمن إجابتي أشياء لا يطيق سماعها :

— هل .. هل لم تذكر اسمى قط ؟

— إنها لم تستعد حواسها ، ولم تعرف أحدا ، منذ أن فارقتها .. وهي ترقد الآن وعلى وجهها ابتسامة حلوة ، كأنها كانت خواطرها الأخيرة تسرح في أيامها البهيجة الأولى .. لقد ختمت حياتها في حلم رقيق ، وأدعو الله أن تقوم من الموت ببثل هذه الدعة في العالم الآخر ..

فصاح في انفعال مروع ، وهو يضرب الأرض بقدمه ، ويزمجر في نوبة مفاجئة من العاطلة الجامحة :

— بل فلنقم في عذاب الجحيم ! .. لماذا ؟ .. لقد كانت كاذبة حتى النهاية .. أين هي ؟ .. إنها ليست هناك في المنزل .. وليست في السماء .. ولم يشعلها الفناء .. فأين هي ؟ آواه يا كاثرين ، لقد قلت إنك لا تباليين بالأمى جميعا . وأنا أدعو

الله دعاء واحداً - ساظل أردده حتى يجف لساني - فلا عهدت
الراحة والسلام ، يا كثيرين ايرنشو ، ما نمت حيا .. وقد
قلت إننى قتلتك .. فلنلازمى روحك إذن لنقتض مضجعى ! ..
ان روح المقتول لا تفنا تحوم حول قاتله ، كما اعتقد ..
والاشباح قد رؤيت تجوب الأرض ، فيما أعلم .. فكونى معى
دائما ، على أية صورة تتراين فيها .. وادفعى بى إلى
الجنون ! .. ولكن لا تتركينى فى هذه الهاوية ، حيث لا أستطيع
ان أجذك معى .. آه ! .. يا الهى ! .. هذا شيء يقصر عنه
النطق ! .. إننى لا أستطيع العيش بغير حياتى .. ولا أستطيع
الحياة بغير روحى ..

ثم أخذ يضرب رأسه بجذع الشجرة الخشن ، ثم يرنع
عينيه ويطلق عواء لا يشبه أصوات البشر فى شيء ، إنها هو
أشبه بعواء وحش كاسر يتهدى إليه الموت تحت طعنات المدى
والحرايب .. ولاحظت رشاشا من الدماء على لحاء الشجرة ،
كذلك كان جبينه وبداه ملوثة بالدم .. والأرجح ان المنظر
الذى شهدته لم يكن إلا تكرارا لما كان يجرى خلال الليل ..
ولكنه لم يثر فى نفسى رحمة أو شفقة ، وإنما كان يخيننى
ويبرعنى .. وبرغم ذلك فقد أنفت ان أتركه على هذه الحال ..
ولكنه فى اللحظة التى أسفرد فيها من الوعى ما يكفى لأن يدرك
أننى أراقبه ، صراح بى فى صوت ككصف الرعد ، يأمرنى
بالانصراف .. ولقد أطمعته على الفور ، إذ كان مما تعجز عنه
قدرتى ان أهدي روعه أو أسرى عنه ..

وحدد موعد جنازة مسز لينتون فى يوم الجمعة التالى لوفاتها

.. وظل نعيشها ، حتى ذلك الموعد ، مكشوفنا وقد ثثرت نوحه
الزهور وأوراق الأشجار العطرية ، فى حجرة الاستقبال
الكبرى .. وكان لينتون يقضى الأيام والليالى بجواره ، حارسا
لا يفغل ولا ينام .. أما الشيء الذى خفى عن الجميع ، ما عداى ،
فهو ان هيثكليف كان يقضى الليالى ، على الأتل ، فى الحديقة
وقد حرم من الراحة كادجار .. ولم أكن على أى اتصال به ،
ومع ذلك كنت أدرك رغبته وعزمه على الدخول ، إذا تهيأت
له الفرصة المواتية .. فما أن حل مساء الثلاثاء ، وأسدل
الظلام ستوره ، واضطر سيدي لفرط تعبته ان يأوى إلى
فراشه نحو ساعتين ، حتى مضيت ففتحت إحدى النوافذ ،
وقد تآثرت من مثابرتة على البقاء فى الحديقة ، لاهبء له فرصة
يلقى فيها على وجهه معبودته الشاحب نظرة وداع أخيرة ..
ولم يفغل انتهاز هذه الفرصة ، فى حذر ولفترة قصيرة .. بل
لقد كان من الحذر فى دخوله ، دون أى صوت أو جلبة ،
بحيث ما كنت لأكتشف حضوره ، لولا ان وجدت الغطاء قد
أختل نظامه حول وجه الجثة ، وان لاحظت على الأرض بجوار
الفراش خصلة من الشعر الذهبى قد حزمت بذيخ من الفضة ،
ما كدت افحصها حتى أدركت انه أخذها من نوط كان معلقا
حول رقبة كاثرين .. كان هيثكليف قد فتح القلادة التى
بمحتوياتها على الأرض ، ووضع بدلها خصلة من شعره الأسود
.. ولكنى حزمت الاثنتين معا ووضعتهما فى القلادة سويا !

وقد دعى مستر هندلى ايرنشو لتشييع جثمان شقيقته
إلى مقرها الأخير ، ولكنه لم يحضر ولم يرسل اعتذارا ! .

وهكذا كانت الجنازة قاصرة ، فيما عدا زوجها ، على المستأجرين والخدم فحسب .. أما ايزابيلا فلم يدعها أحد ..

ولقد دهش القرويون إذ رأوا أن كاثرين لم تدفن في صحن الكنيسة تحت النصب المنقوش الخاص بآل ليتون ، ولا في مقابر أهلها خارجه .. وإنما دفن جثمانها في قبر منفرد ، على سفح تل منحدر يغطيه العشب الأخضر ، في ركن قصي من غناء الكنيسة ، بجوار السور الذي كان منخفضا في ذلك الموضع بحيث زحفت على القبر الأعشاب المتسلقة ونبات التوت البري المبتدأ من منطقة الأحرار والبراري ، حتى كادت تغطيه تماما ..

وفي البقعة نفسها يرقد زوجها الآن ، وعلى قبر كل منهما شاهد بسيط ، وقد أقيمت عند اقدامها كتلة صماء من الحجر الأسمر لتمييز موضع القبرين .

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعية المشنوم - يوم وسدنا كاثرين الثرى - آخر عهدنا بالطقس الجليل ، طيلة شهر كامل .. ففي مساء ذلك اليوم انقلب الجو بفتة ، وهبت الرياح من الجنوب نحو الشمال الشرقي ، فأخذت ترخي حملها من المطر الغزير باديء ذي بدء ، ثم قطع البرد الصلبة ، وأخيرا رقائق الثلج الهشة الناصعة البياض .. حتى إذا أصبحنا في الغداة ، كان من العسير أن يتصور إنسان أننا قضينا ثلاثة أسابيع في جو شبيهه بأيام الصيف .. فقد اختفت الأماحي والزهور البرية تحت ركام الثلوج المتدفقة ، وسكنت القنابر عن سدوها الصداح ، وذبلت أوراق الشجر الوليدة وأسود لونها .. وهكذا طلع علينا ذلك الصباح باردا ، وموحشا ، كثيبا ..

كان سيدي معتكفا في حجرته ، أما أنا فقد احتللت حجرة الجلوس الوحيدة ، وحولتها إلى دار للحضائنة ! .. وكنت جالسة فيها ، وفوق ركبتي تلك الطفلة الشبيهة بدمية صغيرة لا تكف عن الأئين ، وقد أخذت أهدهدها وأهزها بينة ويسرة ، وأرقب بين الفينة والفينة رقائق الثلج التي كانت لما تزل تنهمر فوق امريز النافذة المجردة من الستائر ، وترتفع فوقه طبقة بعد طبقة ، عندما فتح الباب ، ودخل شخص مبهور الأنفاس ، يضحك بصوت عال ! .. وقد طغى سخلى وغضبي على دهشتي لحظة تمسرة ، إذ حسبت القادم واحدة من الخدم ، وصحت بها منتهرة :

بمركزها .. ثوبا طويلا ذا اكمام تصبيرة .. كما لم تكن تغطى
راسها او تضع وشاحا حول عنقها .. وكان ثوبها حريريا رقيقا
الصقته اللبل بجسبها ، على حين كانت تسدماها لا يحييها
سوى نمل خفيف مفتوح .. وإلى جانب ذلك ، كان يمتد
تحت اذنها جرح غائر لم يحل دون نزف الدم منه بفزارة
سوى البرد القارس ، كما كان وجهها الناصع البياض مليئا
بالكدمات والخدوش ، وجسدها الناحل لا يكاد يقوى على
التماسك من الإعياء والهزال معا .. ولك ان تتصور مبلغ
مزعى الذى لم يخفف من حدته الوقت الذى انقضى منذ ان
وقعت انظارى عليها حتى استطعت ان افحصها في إيمان ،
نصحت بها قائلة :

— اينها السيدة العزيزة ، اننى لن انحرك من مكاتى ، ولن
اسمع منك كلمة واحدة اخرى ، حتى تنزعى كل قطعة من
ثيابك ، وتستبدلى بها ثيابا جافة داغلة .. ولا ريب انك لن
تذهبي الليلة إلى جيمرتون وانت في هذه الحالة ، فلا داعى
لذن لإعداد المركبة ..

— بل سوف اذهب حتما ، سواء ركبت أم مشيت ! ..
ولكن لا اعتراض لذى على تبديل ملابسى والظهور بالظهور
اللائق .. و .. آه ! .. انظرى كيف يجرى الدم فوق عنقى
الآن ! .. إن حرارة النار تجعله لا ذما ليا !

واصرت على ان انفذ أوامرها قبل ان تسمح لى بان
المسها بيدى .. ولبثت حتى سمعتنى أمر الحوذى بإعداد

— حسبك وكفى ! .. كيف تجرؤين على إظهار طيشك
ومجونك هنا ؟ .. ماذا يقول مستر لينتون إذا سمعك ؟ ..
فاجابنى صوت مالوف :

— أرجو المعذرة ! .. ولكنى اعلم ان اذجار فى فراشه
الآن ، كما غلبنى الضحك ولم أستطع إيقانه ..
وإذ نطقت المتحدثه بهذه العبارة ، تقدمت نحو المدفأة ،
وهى تلهث بانفاسها وقد وضعت يدها على جنبها ..
وما لبثت ان استعردت بعد صمت تصغر :

— لقد ظلمت أجرى طول الطريق من « مرتفعات ويذرنج » ،
إلى حيث كانت السيول تدفمنى وتغمرنى .. فليس فى
وسعى ان احصى عدد المرات التى وقعت فيها .. آواه ! ..
ان كل ما فى بدنى يخزنى ويؤلمنى .. ولكن لانزعجى ! ..
سوف اشرح لك كل شىء بمجرد ان اجد فى نفسى القدرة
على الكلام .. وكل ما ارجوه الآن هو ان تأمرى بإعداد العربة
لتقتلى إلى جيمرتون ، وأن تطلبى من إحدى الخدم إحضار
بعض الثياب لى من خزانة ملابسى ..

كانت القادمة ، كما احسبك قد أدركت ، هى سىز هينكليف
(ايزابيلا) .. ومن المحقق انها لم تكن تبدو فى حالة تورر
الضحك .. كان شعرها متهدلا على كتفيها تتخلله ندف
الثلج ، ويقطر منه الماء .. وكانت ترتدى ثوبا من ثياب
الفتيات التى اعتادت لبسها ، يلائم سنفا أكثر مما يليق

المركبة ، وإحدى الوصيفات بإحضار ربطة بن الثياب واللوازم الأخرى ، وعندئذ فقط رضيت بأن أتوم بتضميد جرحها ، وبمساعدتها في استبدال ملابسها ..

وعندما فرغت من مهمتي ، اتخذت مجلسها على مقعد مريح بجانب الموقد ، وأمامها قدح من الشاي الساخن ، ثم بدأت تقول :

— تعالى الآن يا ايلين ، واجلسي أمامي .. لكن أبعدي أولا بنت كاثارين المسكينة ، فلمست أحب أن أراها .. ولا ينبغي أن تحسبيني قليلة الاكتراث لموت كاثارين بسبب مسلكي الأحق عند دخولي .. فقد بكيت ، أنا الأخرى ، بهرارة شديدة ، وكان لدى من أسبب البكاء أكثر مما لدى أي إنسان غيري ، إذ افترقنا متخاصمتين ، كما تذكرين ، ولن أغفر لنفسى ذلك قط .. ولكني ورغم ذلك ما كتبت بالتي نشاطه احزانه ، ذلك الوحش المفترس .. آه ! .. ناوليتي محرك النار ! .. هذا آخر شيء اقتنيت ، مما يبت إليه بصلة ..

ثم نزعمت خاتم الزواج الذهبي من أصبعها الثالث والقت به على الأرض ، وراحت تدق عليه بالمحرك الحديدي ، متابعة الحديث :

— سوف أحطمه ، ثم أرمي به إلى النار ..

وشغعت القول بالفعل ، إذ تناولت الطيبة المشووعة ووضعتها بين قطع الفحم المتوهجة ، واستطردت تقول :

— والآن .. عليه ان يشترى خاتما آخر ، إذا استطاع ان يدركني ويعيدني إليه ثانية ! .. وهو خليق بأن يحضر ليأخذني من هنا ، لا لشيء سوى إغماظة ادجار والنيل منه .. لذلك لا أجرؤ على البقاء ، حتى لا تتملك هذه الفكرة رأسه الشرير ! .. ثم ان ادجار لم يكن بي شغوفا رحيما ، ليس كذلك ! .. ولست بالتي تنهات على طلب معونته ، ولا بالتي تجلب عليه المزيد من المتاعب .. وقد ألجأتني الضرورة إلى ان أنشد المأوى هنا ، ولكني لو لم أعلم أنه يعبد عن طريقي ، للبت في المطبخ ريثما اغسل وجهي ، واستدفئ قليلا ، وأدعوك لتحضري لي ما احتاج إليه ، ثم لرحلت ثانية إلى اية بقعة في الأرض بعيدا عن متناول ذلك اللعين .. ذلك الشيطان المتجسد في بدن إنسان ! .. آه ! .. لقد كان في ثورة غضب جنوني ! .. ولو أنه أدركني وأمسك بي ! .. من المؤسف ان هندلي ليس قرينا له في القوة والبأس ! .. ولولا ذلك لمسا رحلت قبل ان أراه يمحي من الوجود ، لو أن هندلي كان قادرا على ذلك ..

فتاطمتها قائلة :

— حسنا .. مهلا يا آنسة ، ولا تنطلق في الكلام بهذه السرعة .. فسوف تفسدين وضع المنديل الذي ربطته حول وجهك ، وتجعلين الجرح يدمى من جديد .. هيا اشربي الشاي ، والتقتلي أنفاسك المتلاحقة ، وخلي عنك هذا الضحك .. فالضحك الآن لا يليق بهذا المنزل المنكوب ، ولا بحالك المؤسفة !

— هذه حقيقة غير منكورة يا ايلين ! .. ولكن اصغى إلى هذه اللطفة .. إنها لا تكف عن النواح منذ قدومي .. فأبعديها عن مسامعي ساعة أو بعض الساعة ، فلن أمكث هنا طويلا ..

فقرعت الجرس ، وعهدت بالوليدة إلى عناية إحدى الخاديات .. ثم مضيت أسألها عما دفعها إلى التمجيل بالفرار من « مرتفعات وبلدنج » ، في مثل هذه الحالة الغريبة ، وإلى اين تزمع الذهاب ، ما دامت تأبى البقاء معنا .. فأجابني :

— كان ينبغي ، بل لقد كنت اود ، ان ابني لأسرى عن ادجار وأقوم على رعاية الطفلة المنكودة .. لهذين السبيين ولان « الجرانج » هو بيتي الطبيعي الحق .. ولكني أوكد لك انه لن يدعني وشأني .. انظننيه يطبق رؤيتي هنا ناعمة البال ، تكتسى عظامي الناحلة باللحم ، او يطبق مجرد التفكير في اننا نعيش هنا في هدوء وهناء ، ثم لا يصمم على ان ينفث سمه فيقضى به على راحتنا وسلاطنا ؟ .. إنني الآن راضية مطمئنة إذ تحققت من كراهيته لى إلى الحد الذي يسوؤه فيه حقا أن يجدني على مدى السمع أو مرمى البصر ..

كنت لاحظ عندما أمثل في حضرته كيف تتقلص عضلات وجهه ، في حركات لا إرادية ، معبرة عما يضره لى من حقد ، وما يكته لى من بغضاء ، ينبعث بعضها من علمه بالاسباب القوية التي تدفعني إلى الإحساس بسئل هذه البغضاء نحوه ، وينشأ باقبيها من نفوره الاصيل متى .. وهذه البغضاء قد أضحت من القوة بحيث تجعلني اشعر عن يقين بأنه لن يسعى ورائي او يطاردني في أرجاء إنجلترا كلها ، إذا ما دبرت قرارا نهائيا ، ولذلك

يجب ان اذهب إلى مكان بعيد .. ولقد شفيت تماما من تعلقى السابق به ، ورغبتى المأفونة في أن التقي مصرعى على يديه ! .. بل شد ما أود الآن أن يقتل نفسه بيده ! .. لقد قضى ملي حبس له ، واطفا شعلته المتقدة ، بحيث هدا بالى واسترحت ! .. ومع ذلك فما زلت اذكر كيف أحببته ، وما زلت انصور كيف كان يمكن ان اقيم على حبه لو .. لا .. لا .. لا .. فحتى لو كان يهيم بى حبا ، فإن طبيعته الشيطانية كانت خليقة بان تكشف عن وجودها على صورة ما .. ولا بد ان كاثرين كانت ذات ذوق منحرف إلى حد شنيع حتى تنطوى له على كل هذا القدر من التقدير والإعزاز ، برغم علمها حق العلم بطبيعته .. يا للوحش ! .. أرجو ان يحو الله ذكراه من الوجود ، ومن ذاكرتى !

فعلقت :

— صه ! .. صه ! .. إنه إنسان على اية حال .. الاكونى اكثر انصافا وإحسانا ، فهناك رجال أسوأ منه بكثير برغم كل شيء ..

فردت على قائلة :

— ولكنه ليس إنسانا على الاطلاق ، ولا حق له في شفقتى وإحسانى .. لقد وهبته قلبى ، فأخذه وظل يصره ويخنته حتى قضى عليه ، ثم القاه إلى ثمانية جثة هابدة ! .. ان الناس يحسون بقلوبهم يا ايلين ، وما دام قد دبر قلبى ، فكيف يمكن ان اشعر نحوه بشيء ؟ .. وما كنت لاشفق عليه او

أرثى لحاله ، ولو ظل يئن ويتأوه من اليوم حتى يوم مماته ،
ويذرف الدموع دما على كاثرين .. كلا .. كلا .. لن أفعل
حقا ..

وعندئذ أخذت إيزابيل في التحيب ، ولكنها ما أن ذرفت
بعض الدموع حتى كنتكفت عبراتها واستطردت تقول :

— إنك سألني عما دفعني إلى الفرار أخيرا ؟ .. لقد
اضطرت إلى هذه المحاولة ، لأنني افلحت في إثارة غضبه بها
يفوق خبئه ولؤمه .. فإن انتزاع الأعصاب من جثورها ،
بملاقط حماية في النار ، بحتاج إلى مزيد من البرود والهدوء
أكثر من الضرب واللطم فوق الرأس .. وقد ثارت ثائرته حتى
نسى حذره الذي كان يفاخر به ، ولجا إلى العنف القتال ..
وملأني السرور إذ استطعت أن أخرجه عن طوره ، فابقظ هذا
السرور في نفسي غريزة المحافظة على الحياة ، وهكذا انطلقت
هاربة على الفور .. فلو عدت إليه يوما من الأيام ، وألقبت
بنفسي بين يديه ثانية ، غابني استحق أن ينتقم مني شر
انتقام ..

وأنت تعلمين أن مستر إيرنشو كان يجب أن يحضر الجنازة
أمس .. وقد ظل محتفظا بوعبه وصحوته ، ولم يقرب الخمر ،
لهذا الغرض .. فلم يذهب إلى الفرائش ، كعادته ، في السادسة
صباحا نافذ الوعي ، ليقوم عند الظهر فيستأنف الشراب ..
وهكذا استيقظ مكتئبا يكاد الانقباض يقطه ، لا يصلح للذهاب
إلى الكنيسة إلا كما يصلح للذهاب إلى مرقص .. وبدلا من

هذا أو ذاك ، جلس بجوار المدفأة وراح يجرع كؤوسا مفرمة
من الجن أو البراندى ..

أما هيثكليف — وإن بدنى ليقشعر عندما أنطق باسمه —
فقد ظل غريبا عن المنزل منذ يوم الأحد الماضى حتى اليوم ..
ولست أدري إن كانت الملائكة هى التى كانت تطعمه ، أم أخوه
من الجنان في العالم السفلى ! .. ولكنه لم يتناول ذرة من
الطعام معناه زهاء أسبوع .. كان يعود إلى المنزل في الفجر ،
فيصعد إلى حجرته ويوصد بابها عليه ، كأنها كان هناك من
يفكر في اشتهاه رفقته ! .. وهناك يظل يصلى ويستهل كأنه
من غلاة المندينيين .. ولكن المعبود الذى كان يتنهل إليه كان
من التراب والرماد ! .. وكان « الله » ، إذا دعاه مختلطا على
نحو غريب بأبيه الشيطان الأسود ! .. وبعد أن يتم هذه
الصلوات الثمينة ، التى كانت تطول عادة حتى يبح صوته
ويخفق في حلقة ، فإنه يبرح الدار لا يلوى على شيء ، فيمضى
قدما إلى الجرانج .. وشدا ما أعجب كيف أن ادجار لم يرسل في
طلب شرطى يقوده إلى السجن ! .. أما أنا ، فعلى ما كنت فيه
من حزن وأسى على كاثرين ، فقد كان من المستحيل أن اتحاشى
اعتبار هذه الفترة التى نجوت فيها من طغيانه المهين ،
كإجازة سعيدة !

وأستعدت مرعى بما يكفى لسماح خطب جوزيف الطويلة
الأبدية دون بكاء ، وللهمضى في الدار ذهابا وجيئة في خطى
غير خطى اللس المذعور التى كنت أمشى بها من قبل ..
ولا أحسبك تظننينى خليقة بأن أبكى من أى شيء يقوله جوزيف ،

ولكنه وهيتون شر رفقة يمكن أن يبطل بها إنسان .. ولخير لي أن اجلس مع هندلى ، واستمع إلى حديثه البشيع المروع ، من أن اجلس مع « السيد الصغير » ، وحاميه الامين ، ذلك الشيخ المافون المرذول .. وعندما يكون هيثكليف في المنزل ، فاننى اضطر غالبا إلى الانجساء إلى المطبخ في رفقتها ، أو أرافق الجوع في إحدى الحجرات الرطبة غير الماعولة .. أما إذا كان خارج الدار ، كما كان شأنه طوال هذا الأسبوع ، فانى أقيم لنفسى منسدة ومتمعدا عند ركن المدفاة بحجرة الجلوس ، ولا أبالي بها يفعلها مستر ايرنشو ليشغل به نفسه ، كما أنه من جانبيه لم يكن ليزج بنفسه فيما أتخذة أنا من ترتيبات . وهو الآن أكثر هدوءا مما اعتاد أن يكون ، ما لم يستغزه أحد أو يستثيره ، وأشد عبوسا واكتئابا ، وأقل غضبا وهياجا .. ويؤكد جوزيف يقينه في أنه أصبح رجلا آخر ، وأن الله قد مس قلبه ، وهكذا نال الخلاص كما أنها « طهرته النار » .. وقد حيرنى أن استشف علامة واحدة من علامات هذا التبدل المزعوم ، ولكن ذلك ليس من شأنى في شيء !

وكنت ليلة أمس اجلس في ركنى المعبود ، أطلع في بعض الكتب القديمة ، حتى ساعة متأخرة إذ أوشك الليل أن ينتصف .. وكان الصعود إلى الطابق العلوى يبدو بشعا مروعا ، مع تلك العاصفة الثلجية الضارية التى تهب في الخارج ، ومع انطلاق افكارى باستمرار نحو غذاء الكنيسة وذلك القبر الحديث البناء ! .. ولم أكن أجرؤ على رفع أنظارى عن الصفحات المفتوحة أمامى ، لأن ذلك المنظر الحزين كان

يسارع إلى احفلال مكانها أمام عيني .. وكان هندلى يجلس في الناحية الأخرى ، وقد أحنى رأسه وأسندته إلى راحته ، ولعله كان يفكر في ذلك الأمر نفسه ! .. وكان إذ كف عن الشراب عند مرحلة لم تصل به إلى فقدان الصواب ، وجلس ساكنا لا يتحرك أو ينطق بكلمة نحو ساعتين أو ثلاث .. ولم يكن يسمع في المنزل كله صوت ، غير ولولة الرياح التى كانت ترحج التوافذ بين آن وآخر ، وغير طقطقة الفحم في المدفاة ، أو طقت المراض كلما أزلت به ذبالة الشموع المحترقة .. أما جوزيف وهيتون فلأرجح أنها كانا ينعمان بسبات عميق في غراشهما .. كان مجلسنا حزينا غاية الحزن ، وكنت خلال قراءتى ، أزرغر زمرات حارة ، إذ كان يبدو لى أن كل ما في العالم من بهجة وسرور قد نضب معينه وتلاشى من الوجود ، ولن يعود إليه قط ثانية ..

وأخيرا مرق هذا الصمت الحزين صوت سقاطة باب المطبخ وهى تتحرك في مكانها ، إذ بكر هيثكليف في عودته من جولته الليلية عن المعتاد ، وأحسب أن العاصفة التى هبت نجاة كانت السبب في ذلك .. ولكن باب المطبخ كان موصدا من الداخل بالزاليج ، فسمعناه يدور حول الدار ليدخل من الباب الآخر .. عندئذ انبعثت واقفة ، وعلى شفتى صيحة لم أستطع كتابتها ، كانت تعبر عما يخلج في نفسى ، وحدثت برغبتى الذى كان يحلق بانظاره في الباب إلى أن يستدير وينظر إلى ، قائلا :

— سوف أدعه واقفا في الخارج خمس دقائق أخرى ، فهل لديك مانع ؟

— كلا .. لك أن تدعه خارجا الليل بطوله من أجلى ..
أسرع .. ضع المفتاح في القفل وادفع المزلاج وراء الباب ..
وفعل ايرنشو ذلك قبل أن يصل القادم إلى واجهة الدار ،
ثم عاد وجذب مقعده نحو الجانب المقابل من المائدة أمامي ،
حيث استند إليه ، ومال نحوي ، وأخذ يتفرس في عيني
متفحصا ، ليري إن كنت أشاطره ذلك الحقد الناري الذي كان
يتوهج في عينيه .. ولكنه كان يبدو ويحس كأنه قاتل يتأهب
للفنك بفريسته ، فلم يستطع أن يترك مشاعري تهاجمها ، وإن
كان قد تبين منها ما يكفي لتشجيعه على الكلام .. فقال :

— أن لكينا دينا عظيما لابد من اقتضائه من ذلك الرجل
الذي يقف خارجا .. فإذا لم يكن احدنا جبانا رعبيدا ، فإن
في وسعنا أن نوحده جهدنا لاستخلاص هذا الدين .. فهل
ترأى رخوة خائفة العزيمة كاخيك ؟ .. وهل تودين احتمال
ما تعانينه حتى النهاية ولا تصاولين مرة واحدة أن نتأري
لنفسك ؟ ..

فاجبته :

— لقد أضناني الاحتمال الآن ، ولسوف يسرنى أن أثار
لنفسى على نحو لا يرتد على وبالا .. ولكن الصدر والعنف
حرام ذات نصال مرهفة في كلا طرفيها ، وهي تجرح أولئك
الذين يلجأون إليها بأشد مما تفعل بأعدائهم ..

فصرخ هندلى في وجهى قائلا :

— أن الغدر والعنف هما الجزاء الحق للغدر والعنف ! ..
وإننى يا مسز هينكليف لا أسالك أن تفعلنى شيئا ، بل اجلسى
ساكنة في مكانك وانسى أن لك لسانا يستطيع التطق ! ..
والآن ، هل في وسعك أن تفعلنى ذلك ؟ .. إننى على يقين من
أنك لن تفعلنى عنى سرورا واستمناعا بشهادة نهاية الشيطان
الأخيرة ! .. إنه سوف يكون هلاكك ، إذا لم تسبقنى إلى
إهلاكه ، وسوف يكون دمارى .. الا لعنة الله على الوغد
الجهنمى ! .. إنه يقرع الباب كأنها أصبح سيد هذه الدار ! ..
عدينى بأن تمسكى لسانك ، وسترين أنك قبل أن تدق
الساعة ، وقد بقيت ثلاث دقائق على الساعة الواحدة ، قد
غدوت امرأة حرة !

وأخرج من صدرته ذلك السلاح الذى وصفته لك في
خطابى ، وأراد أن يعطى الشبهة لولا اننى بادرت إلى اختطابها
منه ، وامسكت بفراعه قائلة :

— لن أمسك لسانى .. كما أنك لا يجب أن تمسه .. دع
الباب موصدا ، وأركن إلى الهدوء قلبا ..

فصاح الإنسان اليائس قائلا :

— كلا .. لقد انتهيت إلى قرار حاسم ، واقسم بالله أن
أنفذه .. سوف أسدى إليك جيلا برغم انفك ، وأرد إلى
هيرتون حقوقه .. ولا أراك في حاجة لأن تشغلى رأسك
بحمائتى ! .. لقد ذهبت كاثرين ، ولم يمسد في الوجود من

يحزن على ، أو يلحقه العار بسببى لو اننى قطعت عنقى هذه اللحظة .. وقد حان الوقت لوضع نهاية لهذا الأمر ..

ولو اننى ناضلته وقتئذ مكانتى كنت اصارع دبا هانجا ، ولو ناقشته مكانتى كنت اجادل مجنونا فاقد الصواب .. فلم تعد امامى من حيلة الجأ إليها سوى ان اعدو إلى إحدى النوافذ لاحذر ضحبتة بما ينتظره من قضاء .. فصحت في نبرات يخالجها الانتصار :

— خير لك ان تبحث عن مأوى لك في مكان آخر الليلة ، فإن مستر ايرنشو يفكر في ان يطلق عليك النار إذا امررت على محاولة الدخول ..

— بل خير لك ان تفتحي الباب أيتها الـ ..

قال ذلك وهو يخاطبني بلفظ رشيق لا أرى ما يدعو لترديده ! .. ولكنى عدت أقول له :

— لن أخرج بنفسى في هذا الأمر ، فما عليك إلا ان تدخل وتصاب بالرصاص إذا كان ذلك يسرك ! .. أما انا فقد أدبت واجبى ..

وما أنتهيت من كلامى حتى اغلقت النافذة ثانية ، وعدت إلى مكانى بجوار الموقد .. وإذ كانت نخرتى من النفاق قد فرغت ، فلم يعد في وسعنى ان اظواهر بالقلق نحو الخطر الذى يتهدده ! .. أما ايرنشو فقد راح يسبىنى في حرارة ويؤكد اننى ما زلت احب الوغد بعد ، ويطلق على صنوعا من النعوت والصفات لما اظهرته من نفسية وضيفة ! .. أما انا فكنكت في

قرارة قلبى (ولم يؤنبنى ضميرى على ذلك قط) أرى كم تكون نعمة لهندلى ورحمة لو استطاع هينكليف ان يضع نهاية لبؤسه ، وكم تكون نعمة لى وبركة لو استطاع هو ان يرسل هينكليف إلى مأواه العادل ! .. وفيما كنت جالسة اهدد هذه الخواطر ، إذا بصراع إحدى النوافذ الضيقة خلف مقعدى يهوى إلى الأرض فجأة بعد ان أهوى عليه هينكليف بشربات عنيفة ، ثم بدا من خلال النافذة وجهه الأسود الهضيم .. ولم تكن القضبان الحديدية من السعة بحيث تسمح بمرور كفتيه ، فابتسمت ابتهاجا لما احسست به من أمن مزعوم .. وكان الثلج الأبيض يغطى شعره وثيابه ، بينما كانت انبياه الحادة المفترسة تتالق في الظلام ، وقد جعله البرد والغضب يكشر عنها ..

وما لبث ان راح « بزوم » كما يقول جوزيف ، قائلا :
— دعبنى ادخل يا ابرابيللا ، وإلا جعلتك تندبىن طويلا ..

فأجبتة :

— ليس في وسعنى ان ارتكب جريمة قتل .. فإن مستر هندلى يقف مترقباً وفي يده سكين ومسدس محشو بالرصاص ..

— اغتصى لى باب المخبئ ..

— سوف يسبقك هندلى إليه .. ثم ما أتفه هذا الحب الذى تطوى عليه جوارحك فلا يجعلك تطيق رذاذاً من الثلوج ! .. لقد كنا نتردد في فرشنا هاتئين ناعمين طالما كان قصر

الصيف مشرقا زاهيا ، ولكنك في اللحظة التي تعود ليهيا عصفة من عواصف الشتاء تسارع بالفرار والبحث عن ملجأ وماوى ! .. لو اننى كنت في مكانك يا هينكليف ، لذهبت ورقدت فوق قبرها حتى اموت اشيبه بكلب امين ذى وفاء ! .. فان الدنيا لا تستحق العيش فيها الآن حقا ، اليس كذلك ؟ .. وقد اوحيت لى ، بما لا يقبل الشك ، بأن كاترين كانت وحدها كل ما في حياتك من بهجة وسعادة ، ولست استطيع ان اتصور كيف تفكر في ان تعيش بعد فقدها !

وعندئذ هتف رقيقى وهو يندفع نحو فجوة النافذة :

— إنه هناك .. اليس كذلك ؟. إذا استطعت ان اخرج ذراعى فسوف اصيبه حتيا !

واخشى يا ايلين ان تعدينى شريرة مناسلة الشر ، ولكنك لا تعرفين كل شيء ، فلا تحكى على .. فانتى ما كنت لاشترك او احرص على اية محاولة للاعتداء على حياته ، مهما يكن من امر .. ولكن ما من شك في اننى كنت انتهى موته ! .. ولذلك فقد خاب املى إلى حد مخيف ، وانخلع قلبي من الرعب مما سوف يكون لحديثى العنيف من عواقب مروعة ، عندما التى بنفسه على سلاح ايرنشو وانزعه من قبضته ..

وانطلقت الرصاصة مدوية .. أما السكين فإلتها عندها ارتدت إلى مخبئها ، اطبقت على رسغ صاحبها .. وانزعتها هينكليف في قوة خارقة ، حتى مزقت اللحم وهى تجرى فوقه ، ثم التى بها في جيبه وهى تنظر بالدماء .. وعندئذ

تناول حجرا ضخما وراح يحطم به الفاصل بين النافذتين ، ثم وثب إلى داخل الحجرة .. وكان غويبه قد وقع على الأرض فاقد الوعى ، من غرط الألم ، ومن فيض الدماء التى تدفقت من شريان كبير مقطوع .. فأخذ الوغد يركله ويعلؤه بقدميه ويدق البلاط براسه المرة مرة ، وهو يمسك بى بيده الأخرى ليحول دون استنجادى بجوزيف .. وكان يبذل جهدا فوق طاقة البشر في نكران الذات ودفع عوامل الإغراء ، حتى لا يجهر عليه نهائيا .. ولكنه إذ بدأ يلهث من التعب أخيرا ، كفا عن متابعة عمله الشيطانى ، وراح يجر الجسم المسجى حتى الأريكة ، ثم مزق كم سترة ايرنشو واخذ يربط الجرح فى خشونة وحشية وهو يبصق ويلعن فى حمية لا تقبل عن التى كان يركله بها .. وإذ التيت نفسى قد تحررت من قبضته ، لم أضيع شيئا من الوقت فى البحث عن الخادم الشيخ ، الذى ما كاد يستوعب فى بطنه وتلد نحوى قصتى العاجلة ، حتى أسرع يهبط الدرج كل اثنين معا ، وهو يغتم لاهثا :

— ماذا يجب عمله الآن ؟ .. ماذا يجب عمله الآن ؟ ..

فصاح به هينكليف فى صوت كهزيم الرعد :

— هاك ما يجب عمله .. ان سيدك مجنون ، ولو ظل على هذه الحال شهرا آخر ، فسوف أبعث به إلى مستشفى الأمراض العقلية .. ثم كيف اجترأت ، بحق الشيطان على إيساد الأبواب دونى ، أيها الكلب الأهم ؟ .. لا تقف هكذا تغتم وتهمهم فى مكانك .. تعال ، فانتى لن اقوم على تريضه

.. اغسل هذه الاذنان ونظف الجرح .. ولكن حذار من شرر
شبعتك ، فان اكثر من نصف هذه الدماء من الكحول !

نهفت جوزيف وهو يرمع ذراعيه ، وعينييه ، إلى السماء
قزعا ورعبا :

— واين فقدت تعمل على الفك به ؟ .. إن عيني لم تقما
على مثل هذا المنظر قط من قبل ! .. فليكن الله ..

وعندئذ دفعه هيثيف دلعة قوية القوت به على ركبتيه
وسط الدماء ، ثم طرح إليه بمنشفة .. وبدلا من أن يأخذ
جوزيف في مسح الدماء ، شم يديه معا ، وانطلق في صلاة
انتزعت الفانلها المجيبة الضحك مني برغم إرادتي .. فقد
كنت في حالة عقلية تجعلني أتأثر من أتفه شيء .. بل الواقع
اننى كنت غافدة الشهور مبتلدة الحس كبا يبدو بعض المجرمين
وهم عند اعتاب المشنقة !

فقال الطاغية وقد نهفته ضحكى :

— آه ! .. لقد نسيتك .. أنت التى يجب ان تقوم بهذا
العمل .. اركعى على الأرض .. هل كنت تتأمرين معه ضدى
ابتها الأسمى ؟ .. هيا .. هذا هو العمل الذى يليق بك ..

وراح يهزنى حتى اصططكت أسفانى في قوة ، ثم طوح بهن إلى
جوار جوزيف .. وكان هذا الأخير ماضيا في دعوانه وابتهالاته
حتى انتهى في ثبات ، وعندئذ نهض ناظرا ان يذهب على الفور
إلى « الجرانج » ، فقد كان مستر لينتون قاضيا ، ولو ماتت
له خمسون زوجة فلن يتأخر عن التحقيق في هذا الأمر ..



وكان غريمه قد وقع على الأرض غائدا الوعى ، من فرط الألم ،
ومن فرط الدماء التى لدفت من شربان كبير مقطوع ..

وكان من العناد والاصرار على تنفيذ عزمه بحيث رأى هينكليف من الأوفق أن ينتزع من شغتي ملخصا لما حدث .. كان يقف فوق راسي ، لاحقا بالشر والضعفينة ، بينما كنت أنطق بشهادتي في نور ، ردا على أسئلته المتتابعة .. وقد احتاج الأمر إلى جهد عظيم لإقناع العجوز بأن هينكليف لم يكن المعتدى ، خصوصا وأن اجاباتي كانت تنتزع مني في عناء .. ومهما يكن من أمر ، فسرعان ما اقتعه مستر إيرنشو نفسه بأنه ما زال على قيد الحياة ، فقد أسرع جوزيف باحضار جرعة من الشراب كان لها اثرها في إسماعف سيده ، فما لبث أن استرد الوعي والحراك .. وإذ كان هينكليف يدرك أن خصمه يجهل كل شيء عن المعاملة التي لقيها منه بينما كان فاعد الرشد ، فقد دعاه بالسكير المخرف ، وقال إنه سوف يغضى عن مسلكه الأثيم ، ثم نصحه بأن يذهب إلى امرأته ! .. وكم كان سرورى إذ فارقنا بعد أن التى بهذه النصيحة القيمة .. فاستلقى هندلى على الأرض بجوار الموقد ، أما أنا فانصرفت إلى حجرتى ، متعجبة من أننى أفلتت منه بهذه السهولة ..

وعندما نزلت صباح اليوم ، قبل الظهر بنصف ساعة ، كان مستر هندلى جالسا بجانب النار ، شاحب الوجه كالإموات ، بينما وقف شيطانه الزنيم مستندا إلى المدفأة ، وهو لا يقل عنه شحوبا واصفرارا .. ولم يكن يبدو على أحدهما ميل إلى تناول الطعام ، حتى إذا ما طال أنتظاري ، وبرد الطعام وفتت فوق المائدة ، بدأت الأكل وحدى .. وكنت أستشعر نوعا من الرضى والسمو ، كلما التقيت بين الحين والآخر نظرة على رغبتي

الصامتين ، واحس في أمعائى براحة ضميرى الذى لا يثلثه وزر أو سوء .. فلما فرغت من طعامى ، تفرغت بالجرأة لممارسة حريتى المعتادة في الاقتراب من الموقد ، فدرت حول مقعد أيرنشو ، وجثوت في الركن إلى جانبه ..

ولم يلق هينكليف نظرة واحدة نحوى ، أما أنا فقد رحمت أحقد النظر إليه وانفرس في أساريه ، بقلب قوى غير هيب ، وكأنها قد تحولت إلى حجر منحوت .. كان جبينه ، الذى حسبته ذات مرة معبرا عن الرجولة الحققة ، والذى أحسبه الآن كجبين الشيطان ، تظلمه سحابة كثيفة من الهم والأسى .. وكانت عيناه الثمانيئتان ، قد اطمأ بريقهما السهد ، وربما البكاء إذ كانت اهدابهما وتنتذ رطبة ندية .. أما شفناه اللتان تجردنا من سحريتهما الضارية ، فقد اطمبقتا في قوّة وكانما ختم عليهما حزن دفين مكتوم .. ولو انه كان شخصا آخر ، لأخفيت وجهى بين يدى أمام مثل هذا الحزن العظيم .. أما في حالته هو ، فقد وجدت فيها ما يرضينى ويطلج قلبى .. ومهما يكن يبدو من الخسة والنذالة أن يسب المرء عدوا مهزوما ، إلا أننى ما كنت لأدع هذه الفرصة تمر دون أن أرميه بسهم من يدى .. فساعة ضعفه هى اللحظة الوحيدة التى أذوق فيها لذة مقابلة الإساءة بالإساءة ..

مقاطعتها قائلا :

— بس ما فعلت يا آنسة ! .. ان المرء ليظن أنك ما فتحت كتابا مقدسا في حياتك .. وإذا كان الله قد ابطنى اعداك ،

فإن ذلك خليق بأن يكفيك .. فمن الفذالة والكفران معاً أن
تضيق عذابك إلى عذابه جل شأنه !

فاستطردت تقول :

— أنني أوافقك على ما تقولين يا ايلين بصفة عامة .. ولكن
أي عذاب ذلك الذي يصيب هينكليف ويرضيني ، إذا لم تكن
لي يد فيه ؟ .. أنني كنت أرجو أن تقل آلامه ، لو أنني كنت
التي سببتها ، وكان هو يعرف أنني سببها .. آه ! .. أنني
مدينة له بالكثير ! .. وأنني لخليقة بأن آمل أن أصلح عنه ،
بشرط واحد فقط .. ذلك أن أجزيه عينا يعين وسنا بسن ،
وكل عصرة من الآلم عصرة مثلها ، حتى أهبط به إلى مستواي !
.. وإذا كان هو البادئ بالعدوان والإساءة ، فعدمه يكن
البادئ باستجداء الصبح ، وعندئذ .. عندئذ فقط يا ايلين
يمكن أن أظهر لك شيئاً من الكرم .. ولكن من المحال قطعا
أن أستطيع الانتقام لنفسي ، ولذلك غائتي لن أستطيع الصبح
عنه ..

ثم أردفت تتابع الحديث :

طلب هندلي بعض الماء ، غناولته الكوب ، ثم سألته عن
حالته ، فقال :

— لست مريضا بالقدر الذي كنت أوده .. وبغض النظر
عن آلام ذراعي ، فإن كل تمارط من بدني يخزني ويؤلمني كأنها
كنت احارب فرقة من العفاريت ..

فكانت ملاحظتي التالية أن قلت :

— نعم .. ولا عجب ! .. لقد اعتادت كاثرين أن تزهو بأنها
تقف بينك وبين أي أذى جسماني .. وكانت تعني أن أحد
الناس لن يجزؤ على إيذاك ، حتى لا يسيء إليهما .. والإن
تأكدت أن الناس لا يقومون حقيقة من قهورهم ، وإلا كان من
الممكن أن تشهد كاثرين ليلة الأمس منظرًا كريها متفرا ..
الست تحسن بالكدمات والقطوع في صدرك وكفليك ؟ ..

— لست أدري تماما .. ولكن ماذا تعنين ؟ .. هل اجترأ
على ضربى بينما كنت طريحا على الأرض ؟ ..

فهمست قائلة :

— كان يركلك ويدوسك بقدميه ويضرب رأسك بالبلاط ،
وكان اللعاب يسيل من فمه شوقا إلى تمزيق بآتيابه .. لأنه
ليس إلا نصف إنسان ، وأما باقيه فشيطان رجيم ..

فتطلع مستر ايرنشو بانظره إلى أعلى محملا ، مثلى ، في
وجه عدونا المشترك الذي كان مستغرقا في همومه وآلامه
بحيث كان يبدو غافلا عن كل ما يدور حوله .. وكان كلما طال
وقومه ، كلما ازداد انطباع افكاره السوداء على أساريره
وضوحا ..

فتأوه هندلي ، وتلوى في مقعده وهو يهيم بالنهوض ، وكأنه
لا يستطيع صبرا ، وقال :

— آه ! .. لو أن الله يهبني من القوة القدر الذي يكنى لان

أخفته بيدي وأنا في الفزع الأخير ، لدخلت الجحيم راضيا
بسرورا !

ولكنه غاص في مقعده ثانية ، وقد تملكه اليأس ، بعد ما
تبين تصوره عن النضال .. بينما كنت أتول بصوت مرتفع :

— لا .. لا .. فيكفي أنه قتل واحدا منكم .. أن كل
إنسان في « الجرائح » يعرف أن شقيقتك كانت خليقة بالبقاء
على قيد الحياة الآن ، لولا مسر هيتكليف .. وهكذا فإن
الأفضل للمرء أن يكون محل بغضه وكراهيته من أن يكون
موضع حبه وهيبه .. وأنتي كلما ذكرت كيف كانت السعادة
تحلق فوقنا جميعا ، وكيف كانت كاترين سعيدة هائلة قبل
مقدمه ، أرائى العن ذلك اليوم من كل قلبى ..

وأغلب الظن أن هيتكليف أدرك ما في هذا القول من الصدق ،
أكثر من إدراكه ما كان يعتدل في قلب الشخص الذى نطق به
.. فقد ثار انبياؤه لكلماتى ، كما رأيت ، إذ أخذت عيناه
تطران الدموع بين أهدابها ، وراح يلتقط أنفاسه في أنات
مختلفة .. فرحت أحلق النظر إليه مواجهة ، ثم ضحكت
ساخرة .. فإتطلقت نحوى من نالذتى جهنم الغائبين نظرات
نارية لم تدم أكثر من لحظة .. ولكن الشيطان الذى كان
يطل منها عادة كان كاهدا ، غريبا ، بحيث لم يخالجنى الخوف
لحظة من المجازفة بضحكة ساخرة أخرى ..

نقال الثاكل المحزون :

— قوسى ، واغربى عن ناظرى ..

وقد نهبت كلماته من قبيل الحس والتخمين ، إذ كان
صوته مختنقا لا يكاد يبين منه لفظ أو حرف .. فاجبته :

— أرجو المعذرة ! .. ولكنى كنت أحب كاترين أيضا ..
وها هو ذا شقيقتها يحتاج إلى العناية التى سوف أقدمها له ،
إكراما لذكرها .. ابا وقد ماتت الآن ، مانى أراها فى هندلى
.. ان عينيه تشبهان عينها تماما ، لولا محاولتك فى جعلها
بارزتين مجلنتين بالسواد والعمرة ! .. كما أنها ..

نصاح قائلا :

— انهضى ايتها التعمسة الحمقاء ، قبل ان أسحقك حتى
أقضى عليك ..

ثم هم بحركة جعلتلى أنتحرك فى مكائى بدورى ، ولكنى
أردمت ، قائلة ، وقد أعددت نفسى للفرار :

— ولكن لو ان كاترين المسكينة كانت قد وثقت بك ورضيت
ان تتخذ لنفسها ذلك اللقب المضحك الحطير المزرى ، لقب
« مسز هيتكليف » ، لغدت وشيكا فى مثل هذه الصورة
الاليمية .. انها — هى — ما كانت لتحتفل بمسلك الفطليح فى
سكون وهدوء ، ولوجد بغضها واشتمزازها بنفسها ..

وكان ظهر المقعد المرتفع ، وشخص ايرتسو ، يحولان بينه
وبينى .. وهكذا فانه بدلا من أن يحاول الانتقراض على ،
أختطف سكيناً من فوق المائدة ، وتذف بها رأسى ، فاصابتنى
تحت اذنى ، واوقفت العبارة التى كنت على وشك ان انطق
بها .. ولكنى أنتزعتها ، ووثبت نحو الباب ، ثم القيت إليه

بعبارة أخرى أحسبها كانت أشد عمقا في نفسه من تذييلته التي رمائي بها ! .. وكانت آخر لمحة رأيتها منه ، أنه اندفع نحوى في وحشية ، ولكن حال بينه وبين ملاحظتى أن مضيغه قام فاحتضنه ثم سقط الاثنان منهاسكين بجوار المدفأة .. وفى أثناء فرارى من المطبخ ، طلبت إلى جوزيف أن يدرك سيده ، وتعثرت في هيرتون الذى كان بدلى جروا رضيعا من فوق ظهر المتعد فى مداخل المطبخ .. وفى سعادة الروح التى انثلت من يوم الحساب ، انطلقت اقتفز واثب وأطير طيرانا فى الطريق المنحدرة ، ثم ما لبثت أن تركت منحنياتها ومضيت أخترق البرارى راسا ، فاندحرج فوق الشيطان ، وأخوض خلال المستنقعات ، وأستحث خطاى نحو « الجرانج » الذى اتخذت منه منارا يهدينى سواء السبيل .. واننى لأفضل ألف مرة أن يحكم على بالسكنى الأبدية فى تلك المناطق الجهنمية ، من أن أقضى لسو ليلة واحدة تحت سقف « مرتفعات ويلدريج » ثانية ..

وكنت أيزابيلا عن الكلام ، وأخذت رشفة من الشاي ، ثم نهضت وطلبت إلى أن أعاونها فى ارتداء ثعبتها والتدثر بشال كبير أحضرته لها ، وقد أعارت توسلاتى لها بالبقاء سامعة أخرى أذنا صماء ، ثم ارتقت متعمدا فقبلت صورة كاثرين وصورة ادجار ، ومنحتنى قبلة أخرى ، وأسرعت إلى العربة وفى صحبتها كلبها « فانى » الذى كان ينبع فى مـرح شديد لاستعادة سيده .. وانطلقت بها العربة ، فلم تضع قدمها فى تلك الانحاء بعد ذلك قط .. ولكن نشأ بينها وبين سيدي

تراسل منتظم بعد ان ازدادت الأمور استقرارا .. واعتقد أنها أخذت مقرها الجديد فى الجنوب ، بالقرب من لندن .. وهناك وضعت غلاما ، بعد بضعة شهور من فرارها ، أسمته « لينتون » ، وقالت إنه كان منذ مولده غلاما هزيلا شكسا ..

وقابلنى مسر هينكليف فى القرية ذات يوم ، وسألنى عن المكان الذى نقيم فيه ، فرغضت أن أخبره به .. فقال ان الامر ليس بذى أهمية لديه ، ولكن عليها ان تحذر الحضور للإقامة مع أخيها .. وليقم بالاتفاق عليها إذا شاء ، ولكن على الا تسأكنه او نقيم معه .. ومع اننى أبيت الادلاء إليه بأية معلومات ، فقد اكتشف ، عن طريق بعض الخدم الآخرين ، المكان الذى نقيم فيه ، ومولد الطفل أيضا .. ولكنه مع ذلك لم يقدم على إزعاجها او ملاحظتها .. وهو إجحام أحسبها تحدد له بواعته وهى نفوره منها وكراهيته لها .. وكان غالبا ما يسألنى عن الغلام ، كلما رأنى .. ولما سمع اسمه ابتسم فى عبوس وقال معقيا :

- انهم يريدون أن أكرهه أيضا .. اليس كذلك ؟ ..
- بل لا أحسبهم يريدون أن تعرف عنه شيئا البتة ..
- ولكن سوف أخذه ، عندما أريد .. وليكونوا من ذلك على يقين ..

ومن حسن الحظ ان أمه قضت نحبها قبل أن يحين ذلك الوقت .. وكان ذلك بعد وفاة كاثرين بثلاثة عشر عاما ، عندما كان لينتون الصغير فى الثانية عشرة من عمره ، او أكثر قليلا ..



لم تتح لى أية فرصة للتحدث إلى سيدي غداة زيارة ايزابيلا غير المتوقعة .. فقد كان عزوفا عن الحديث لا تسمح له حالته بهناقشة أى موضوع .. فلما استطعت أن أحمله على الإصغاء رأيت أن عراق شقيقته لزوجها قد سره كثيرا ، إذ كان يمقت هينكليف مقنا شديدا بلغ من الغزارة ما لم أكن أحسب أن اعتدال طبيعته يسمح به .. كان نسوره واشتمزازه من العمق والحساسية بحيث كان يتجنب الذهاب إلى أى مكان يحتفل أن يراه فيه أو يسمع عنه .. ولهذا السبب ، فضلا عن حزنه العميق ، تحول أذجار إلى ناسك يعتزل الناس والعالم .. فتخلى عن وظيفته القضائية ، وامتنع حتى عن الذهاب إلى الكنيسة ، وتجنب زيارة القرية في جميع المناسبات ، وراح يمضى حياته في عزلة تامة داخل حدود بستانه وضياعه ، لا يتجاوزها إلا في جولة يقوم بها وحيدا بين البرارى ، أو زيارة يؤديها لقبير زوجته ، معظمها في المساء أو الصباح الباكر قبل أن يخرج غيره من المارة من ديارهم ..

ولكنه كان من الطيبة والتدين بحيث لم يتم على الاستسلام للشقاء طويلا .. لم يكن - كما فعل الآخر - يدعو روح كاثرين إلى ملازمته وارتياحه ! وساهم الزمن في جعله يذعن للقضاء ، وكساه طابعا من الكتابة احلى من المرح المألوف .. وكان يستعيد ذكراها في حب وحنان عميقين ، وفى الدعاء لها بالنعيم بعالم أفضل ، لم يكن يشك البتة في ذهابها إليه ! .. ولكن كان له عزاءه وعواطفه الدنيوية أيضا .. فقد مكث

اياما حسبته خلالها لا يهتم على الاطلاق بالنبته الصغيرة التى خلفتها الراحلة .. ولكن جموده ما لبث أن ذاب بأسرع مما تذوب الثلوج في شهر أبريل ، حتى أنه قبل ان تستطيع الصغيرة أن تنطق بكلمة أو تحبو خطوة ، كانت تحتل في قلبه عرشا مكيئا .. وسماها كاثرين ، ولكنه لم يكن يدعوها بهذا الاسم كاملا قط ، كما لم يكن يدعو كاثرين الاولى باسمها المصغر قط .. ربما لأن هينكليف اعتاد ان يدعوها به .. كانت الصغيرة تسمى « كاثى » دائما .. وكان له في ذلك ما يميزها عن أمها ، وما يربطها بها في الوقت نفسه .. وكان تعلقه بها يبتثق من صلتها بأمها أكثر مما ينبعث من أبوته لها ..

وقد اعتدت أن أقارن بينه وبين هندى ايرنشو ، وأكذخ فكرى ، في حيرة ودهشة ، للوصول إلى تفسر يقنعنى لما بدأ من تناقض مسلكها إلى هذا الحد ، في ظروف متماثلة تماما .. كان كلاهما زوجا شديد الولوج بزوجته ، عزيز العاطفة نحو طفله ، ومن ثم لم يكن يوسعى ان انفهم كيف لا يسلك كلاهما طريقا واحدة ، سواء أكانت نحو الخير أم نحو الشر .. ولكن هندى - كما قلت لنعفى - وقد كان أخواها مراسا وأكبرها عقلا ، قد أثبت أنه أسوأ الاثنين واضعفيهما . فعند ما ارتطمت سفينته ، هجر الريان مركزه ، فاندفع البحارة نحو التمرد والفوضى ، بدلا من أن يحاولوا إنقاذ سفينتهم المنكودة ، ولم يدعو لها ذرة من الأمل في النجاة .. وعلى العكس من ذلك ، أظهر لينتون تلك الشجاعة الحقبة التى تتميز بها النفس المؤمنة المخلصة .. كان يؤمن بالله ويثق به ،

نوهبه الله الراحة والسكينة .. غدا أحدهما بمغسلا للأمل ،
والآخر مريسة للياس .. أختار كل منهما نصيبه ، ففسد
عليه أن يحتله بحق .. ولكنك لا تريد أن تسمع منى هذا
التقد الاخلاقي يا مستر لو كوود .. وتود أن تحكم بنفسك -
مثلا استطعت أن افعل - على كل هذه الاشياء .. أو هذا
على الأقل ما سوف نظن أنك فاعله .. والأمر بعد ذلك سواء .

وجاءت نهاية ايرنشو ومثلا كان يمكن للبرء أن يتوقعا ..
وقد اعتبت وفاة شقيقته سريعا ، لا يكاد يفصل بينهما أكثر من
سنة شهور .. ولم تكن في « الجرائح » تعرف أقل شيء عن
حالته قبل موته ، فكل ما استطعت أن اعرفه إنما سمعت به
عند ما ذهبت للمساعدة في معدات الجنازة .. فقد حضر مستر
كينيث ليبلغ النيا إلى سيدي ، في صباح أحد الأيام ، وكان
الوقت مبكرا ، فلم يشأ أن يصدمني بذكر الأنباء السيئة
مباشرة ، وإنما قال لي وهو يدخل راكبا جواده في الفناء :

- حسنا يا نللي .. إنه الآن دورك ودوري في ارتداء ثياب
الحداد .. فمن تظنينه قد غاب عنا اليوم ؟ ..
فسألته في لهفة شديدة : من ؟ ..

فقال وهو يترجل ويعلق عنان الجواد في الخطاف بجوار
الباب :

- لماذا ؟ .. عليك أن تحمدي بنفسك .. ثم عليك أن
ترمعي طرف مرولك ، فاني واثق من أنك ستحتاجين إليها ..
فصحت قائلة :

- إنه - يقينا - ليس مستر هيثكليف ؟ ..

فقال الطبيب :

- ماذا ؟ .. وهل كنت تجدين دموعا تدرغينها عليه ؟ ..
كلا .. هيثكليف شاب متين الجسم قوى البنية .. وهو يبدو
بشرقا ناضرا اليوم ، فقد رأيت له للتو .. وقد بدأ جسمه يمتليء
بالحم سريعا منذ أن ضاع نصفه الحلو ..

معدت اهتف في صبر نافذ :

- من إذن يا مستر كينيث ؟ ..

- هندلي ايرنشو .. صديقك القديم هندلي ، وصاحبي
النمس المنكود ، ولو أنه كان شديد الضراوة معي في هذه
الآونة الطويلة الاخيرة .. آه ! .. لقد قلت أننا سوف نجر
الماء من العيون .. ولكن لا .. دعني عنك اليكاه .. فقد مات
مخلصا لخلقه ومبادئه ! .. مات ثملا كأحد اللوردات ! .. آه !
.. يا للفنى المسكين ! .. اننى حزين من اجله كذلك .. فالمرء
لا يملك إلا أن يحزن للمقد رقيق قديم ، ولو أنه كان ينطوى
على أسوأ الصفات التي لا يتخلها إنسان ، وفعل معي الكثير
من أنواع الخداع الدنيئة ! .. ويبدو أنه لم يتجاوز السابعة
والعشرين من عمره ، أى في مثل سنك تماما .. فهذا الذى
كان يظن أنكما ولدتما في سنة واحدة ؟ ..

واعترف أن تلك اللطمة كانت اشد وقعها على نفسي من
صدمة وفاة مسز لينتون .. وبدأت ذكريات ابلما القديمة
تطوف بقلبي ، فجلست في الشرفة ، وبضيت ابكى بحرقة
كأنما ابكى قريبا تربطني به صلة الدم ، راغبة إلى مستر كينيث
أن يدعو خادما اخرى لتسوده إلى السيد .. ولم يكن في

وسمى ان ائمن نلسى من إيمان الفكر في هذا السؤال : « أتراه لنى معاملة كريمة لائفة ؟ .. » فائنى مبها نعلت ، فان هذه الفكرة سوف تظل تلاحتنى وتنقص عيشى .. وقد كانت من الإلحاح المئنى بحيث عزمت على ان التمس الإذن لى بالذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » ، لاساهم فى أداء الواجب الأخر نحو الفقيد .. وكان مستر لينتون ، فى بىءى الأمر ، يابى كل الإباء ان يسمح لى بذلك ، ولكنى رحت ادافع فى حرارة وذلاقة لسان عن الحال التى يرقد فيها هندلى مجردا عن الامدقاء والاحبة ، وقلت ان لسيدى القديم وأخى فى الرضاعة ، من الحقوق فى خدمتى ما لا يقل عن حقوق مستر لينتون نفسه .. ومضلا عن ذلك فقد ذكرته بأن هيرتون الطفل هو ابن شقيق زوجته ، وأن من واجبه ، وهو اقرب الناس إليه الآن ، ان يكون حاميه وحارسه .. وقلت إنه ينبغى له ، بل يجب عليه ، ان يتحرى عن الحالة التى تركت بها أملاك شقيق زوجته ، وأن ينظر فى رعاية مصالحه .. ولكنه كان وقتئذ فى حالة لا تسمح له ببباشرة مثل هذه الشؤون ، فأمرنى بأن اتكلم فى ذلك مع محاميه ، ثم سمح لى بالذهاب .. وكان محاميه هو محامى مستر ايرنشو فى الوقت نفسه ، فذهبت إلى زيارته فى القرية ، وسألته ان يصحبنى .. ولكنه هز راسه سلبا ، ونصح لى بأن ندع مستر هيتكليف وشأنه ، مؤكدا أنه لو عرفت الحقيقة ، فسيتبين ان هيرتون قد ترك أدنى إلى المعدمين والشحاذين .. ثم أردف قائلا :

— لقد مات أبوه غارقا فى الدين ، بعد ان رهن كل ما يملكه .. والامل الوحيد أمام الوريث الطبيعى الآن ، هو ان نتبع له

الفرصة لنى يخلق فى قلب الدائن شيئا من الاهتمام به بحيث يعيل إلى معاملته بنوع من الرفق والتسامح .

فلما بلغت « مرتفعات ويذرنج » ، اوضحت ائنى جئت كى اشارك فى عمل الترتيبات اللائفة بالفقيد .. وقد أعرب جوزيف عن ارتياحه لحضورى ، وكان يبدو فى حزن عميق .. اما هيتكليف فقد قال إنه لا يرى ثمة ما يحتاج لوجودى ، ولكن فى وسمى ان ابقى ، وأن أمر بما أراه نحو معدات الجنائز ، إذا رغبت فى ذلك .. ثم عقب قائلا :

— إن الأصوب ان يدفن جثمان هذا المعتود فى مفترق الطرق دون احتفال من أى نوع .. فقد حدث ان تركته عشر دقائق بعد ظهر الأمس ، فما كان منه فى هذه الفترة الوجيزة إلا ان أوصد ابواب المنزل فى وجهى ، ثم أمضى الليل بطوله بشرب الخمر حتى قتل نفسه عن عمد .. وحططنا الساب فى الصباح ، إذ سمعناه يرسل نخبرا عاليا كالحمسان فوجدناه بلقى فوق الأريكة ، غائبا عن العوالب ، لا بندق ولو سلخنا جلده او شققنا راسه ! .. وأرسلت فى طلب كينيث ، فلم يحضر إلا وقد تحول هذا البهيم إلى رمة ! .. كان ممنا ، باردا ، متيبسا .. وهكذا ترين أنه كان من العبث ان نحدث مزيدا من الضجة بسببه ..

وأيد الخادم الشيخ هذه الرواية ، ولكنه غمغم بقول :

— كنت أفضل ان يذهب فى طلب الطبيب بنفسه ، فائنى كنت خليقا بأن أعنى بالمسيد خيرا منه .. ثم أنه لم يكن قد مات عند ذهابى .. لا شيء من ذلك البتة !

واصررت على أن تشيع جنازته بما يليق به من احترام ، فقال مستر هينكليف إنه يدع لى التصرف فى هذا الأمر كما اشاء ايضا ، ولكنه يود ان يتكرنى بان المال الذى سينفق على الجنازة إنما سيخرج من جيبه هو ! .. وكان يبدو جامدا ، فى غير مبالاة ، لا يتم مظهره عن حزن او غمح .. وإن دل على شيء البتة ، فإنها يدل على رضى صارم ، كما يرضى المرء عندها ينتهى بنجاح من مهمة شاقة .. بل لقد لاحظت مرة فى الواقع شيئا يشبه الابتهاج فى مظهره ، وكان ذلك على وجه الحديد عندها حمل النعش إلى خارج المنزل .. ومع ذلك فقد كان من التناقض بحيث ارتدى ثياب الحداد عند تشييع الجنازة .. وقيل أن يغادر المنزل مع هيرتون ، حمل الغلام المنكود ووضع فوق إحدى الموائد ، ثم غمغم يقول له فى تلمذ غريب : « والآن يا صغيرى العزيز ، لقد أصبحت لى وحدى ، وسوف ترى إن كانت الشجرة لن تشب معوجة كالشجرة الأخرى ، ما دامت الريح التى تهب عليها وتثنيها واحدة ! » .. وسر الطفل البرى لهذا الحديث الذى لم يفقه منه شيئا ، وراح يعبث بسوالف هينكليف ويربت على خده .. ولكنى تكلمت بالمعنى الذى يرمى إليه ، فقلت فى مرارة :

— إن هذا الصبى يجب أن يعود معى إلى « ترشكروس جرانج » يا سيدى ، فهو آخر شيء فى العالم يمكن أن يصبح لك ! نسألنى فى اهتمام : وهل قال لىنتون ذلك ؟
— بلا شك .. لقد أمرنى أن أعود به معى ..
فقال الوفد :

— حسنا .. إننا لن نناقش هذا الأمر الآن .. ولكن بى

ميلا إلى أن أرى غلاما صغيرا ، فبلغنى سيدك أنه إذا حاول أخذ هذا الصبى ، فلا بد لى من أن أحل ابنى محله .. ولست أتعهد بترك هيرتون يذهب دون أن أنازع حق سيدك فى أخذه ، أما الآخر فأتى واثق من إحضاره حتما .. فلا ننسى ان تبلغيه ذلك ..

وكان هذا التلميح كائما لغل يدى .. غلما عدت أخبرت سيدى بما قال ، ولما كان ادجار لىنتون قليل الاكتراث للأمر منذ البداية ، فإنه لم يتكلم عن التدخل فى الأمر بعد ذلك قط .. ولست اعتقد أنه كان قادرا على عمل شيء ، حتى ولو كان راغبا فى ذلك ..

وهكذا أصبح الضيف سيد « مرثعات ويزنج » الآن ، حيث استولى عليها بيد من حديد ، واثبت للمهامى — الذى اثبت ذلك لمستر لىنتون بدوره — أن يرثشوا قد رهن كل شبر من الأراضى التى كان يملكها ليحصل على المال الذى يشبع به جنونه بالمقامرة .. وكان هينكليف نفسه هو المرتين ..

وعلى هذا النحو أصبح هيرتون — الذى كان ينبغي أن يكون الآن السيد الأول فى المنطقة — خالى الوفاى لا يملك شيئا ، ويعتمد اعتمادا كليا على عدو ابيه اللدود ، ويعيش فى منزل أسرته كأحد الخدم — وإن كان محروما من ميزة الأجر الذى يتقاضاه الخدم ! — وهو عاجز عن استعادة حقوقه ، لأنه محروم من الأصدقاء والأنصار ، ولأنه يجعل كيف كان ضحية القدر والخيانة ..

الفصل الثامن عشر

وتابعتم مسز دين قصتها فقالت :

كانت الأعوام الاثنا عشر التى نلت تلك الفترة المشنومة ، أسعد أيام حياتى ، لمكان أعظم ما لقيته فيها من متاعب ناشئا من تلك الأبراش الطفيفة التى كانت تنذاب أحيانا سيدتنا الصغيرة ، مثلها تصيب جميع الأطفال يستوى فى ذلك الغنى منهم والفقير .. وفيها عدا ذلك فإنها بعد أن اجتازت الشهور الستة الأولى ، نشأت كالشجرة الباسقة ، واستطاعت أن تمشى وأن تتكلم على طريقتها الخاصة ، قبل أن يزهر العشب مرة أخرى حول قبر لينتون ، أى قبل أن يمر عام على وفاتها .. كانت أكثر « الأشياء » استمالة للقلب وأقدر من استطاع ، فى يوم من الأيام ، أن يجلب شعاعا من الشمس إلى المنزل الموحش !

كان محيها آية من آيات الجبال ، فقد ورثت عميون آل ايرنشو السوداء الساحرة ، وورثت من آل لينتون بشرتهم الفاصحة البياض ، وملامحهم الدقيقة ، وشعرهم الأشقر المجدد .. وكانت روحها عالية ، فى غير خشونة .. وتميزت بطلب شديد الحساسية والحيوية إلى حد الإفراط فى عواطفه .. وكنت كلما رايت فيها ذلك الاستعداد للتعلق الشديد بما تبواه ، أذكر أمها .. ومع ذلك فلم تكن تشبهها ، لأنها كانت قادرة على أن تكون ودبعة رقيقة كالحمامة ، كما كان لها صوت عذب

جميل ، ومحيها ترسم فيه علائم التفكير والانشغال .. لم يكن غضبها ثائرا جوحا ، ولم يكن حيفا ضاريا عنيفا ، وإنما كان عميقا حنوناً .. ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأنه كانت لها أخطاء تشين مزايها .. من ذلك ميلها إلى الشقاوة ! .. بل وكانت لها إرادة عنيدة كذلك التى يكتسبها الأطفال المدلون سواء اكانوا مسالين بطبيعتهم أم مشاكسين .. فلو صادف أن غاظها أحد الخدم فإنها لا تزيد على القول دائما : « سوف أخبر بابا ! .. » أما إذا لامها والدها ، ولو بنظرة واحدة ، فإنك تخاله أصابها بما يحطم القلوب ! .. ولست اعتقد أنه خاملها يوما من الأيام بكلمة خشنة أو عبارة قاسية ..

وقد أخذ على عاتقه أمر تعليمها وتثقيفها بنفسه ، وجعل من ذلك مسلاة له .. ومن حسن الحظ أن سرعة قريحتها وميلها إلى العلم ، فى شغف وفضول ، قد جعلها منها تلميذة مجدة ناجحة .. وكانت تدرس فى سرعة وثم ، وتلهم الدروس النهابا تلح قلب والدها وجزى ثعبه فى تعليمها خير الجزاء ..

ولم تكن حتى الثالثة عشرة من عمرها قد خرجت إلى ما وراء حدود البستان وحدها .. كان مستر لينتون ربما صحبها إلى خارج البستان ميلا أو ميلين ، فى مرات نادرة .. ولكنه لم يكن يأمن أن يعهد بها إلى أحد سواه .. كان اسم القرية « جيبرتون » لفظا لا قيمة له ولا معنى فى ذاتها .. وكانت الكنيسة هى المبنى الوحيد الذى اجتازت عتبة ، فيها عدا منزلها .. أما « مرتفعات ويلدنج » و « مستر هيكليف »

فلم يكن لهما وجود بالنسبة إليها .: كانت تعيش في عزلة تامة ، وكانت غيبا يبدو قناعة بذلك راضية تماما .. واقول « غيبا يبدو » لأنها كانت أحيانا كلما سرحت بانظارها ، من نافذة حجرة العابها ، في المناظر البعيدة نقول في تردد :

— كم ينبغي ان ينقضى من الوقت يا ايلين قبل ان أستطيع السير إلى قمم هذه التلال ؟ .. شد ما اعجب ما الذى يقع في الناحية الأخرى منها .. هل هو البحر ؟ .

فكنت أقول :

— كلا يا مس كاثي .. بل تلال أخرى شبيهة بهذه تماما ..
وسألتنى مرة :

— ترى كيف يكون منظر هذه الصخور الذهبية إذا وقتت تحتها ؟ .

وكان السطح الشديد الانحدار لصخرة « بنستون كراجز » يلفت نظرها بصفة خاصة ، ولا سيما عندما تتالق نوحه أشعة الشمس الغاربة ، بينما تلف الظلال سائر قمم التلال والأراضي المجاورة لها .. فقلت لها إنها مجرد كتل من الحجر والصخور الصلدة التي لا تحوى شيئا من التربة يصلح لإنبات شجرة واحدة ..

فناجبت أسئلتها في إلحاح :

— ولماذا تظل مضينة وقتنا طويلا بينما يخيم الظلام هنا ؟ .
— لأنها مرتفعة ارتفاعا عظيما عن مكاننا هذا .. كما أنه ليس في استطاعتك ان تتسلقها ، فهى شديدة الانساع

شديدة الانحدار ، والتلوج تملوها في الشتاء قبل ان تصل إلينا .. بل لقد وجدت الثلوج مرة ، في أواسط الصيف ، تحت ذلك التجويف الأسود الذى تربته في الجانب الشمالى الشرقى !

عندئذ صاحت في جذل :

— آه ! .. هل ذهبت إلى هناك إذن ؟ .. سوف أستطيع الذهاب بدورى إذن عندما أبلغ مبلغ النساء ! .. وهل ذهب أبى إلى هناك يا ايلين ؟ ..

فسارعت إلى الإجابة قائلة :

— سوف يخبرك أبوك يا آنسى ، انها لا تستحق عشاء الزيارة .. إن البرارى التي تتجولين معه فيها ، أعظم منها جمالا وروعة ، كما أن « بستان ثرشكروس » هو أجمل مكان في العالم ..

فغمغمت كأنها تحدثت نفسها :

— ولكنى اعرف البستان ولا اعرف هذه التلال ! .. ولسوف يبهجنى أن أقف فوق تلك القمة العالية وأجيب انظارى فيها يحيط بى ! .. سوف يأخذنى مهري الصغير « مينى » إلى هناك يوما من الأيام !

وذكرت إحدى الوصيفات أمامها مرة اسم « كهف الحوريات » فادار ذكره رأسها بالرغبة في تنفيذ هذا المشروع ، وكانت لا تفتأ تذكر صفو والدها بالحديث عنه ، فكان بعدها بأن تقوم بهذه الرحلة عندما تتقدم في العمر .. ولكن مس كاثرين

كانت تقيس عمرها بالشهور ، فكان السؤال الذى لا ييارح شفتيها : « والآن ، هل كبرت بما يكفى لذهابى إلى بنستون كراجز ؟ .. » ولكن الطريق إلى هناك كان يدور ملامسقا « لمرتفعات ويدرنج » ، ولم يكن ادجار يميل إلى المرور بها ، وهكذا كانت تنقلنى دائما هذه الإجابة : « كلا يا حبيبتى ! .. لم يحن الوقت بعد ! » .

قلت ان مسز هينكليف عاشت أكثر من اثنى عشر عاما بعد ان هجرت زوجها ، واضيف ان أفراد أسرتهما كانوا جميعا ضعاف البنية ، فكانت تنقصها ، كما تنقص ادجار ، تلك الصحة الياثمة التى تلقاها عادة في اهل هذه المنطقة .. ولست أدري عن يقين ماذا كان مرضها الآخر ، ولكنى أحسب أنها وأخاها قد ماتا بمرض واحد ، هو نوع من الحمى بطيئة الظهور في بدايتها ، ولكنها غير قابلة للشفاء ، وتلتهم الحياة سريعا في النهاية .. وقد كتبت إلى أخيها لتخبره بقرب نهايتها بعد مرض ألزمها الفراش أربعة شهور متوالية ، ورجته ان يذهب إليها ، إذا استطاع ، لأن لديها الكثير من الأمور التى تريد تسويتها ، ولأنها تريد ان تودعه الوداع الآخر ، وتمهد إليه بلينتون الصغير آمنة مطمئنة .. وكانت ترجو ان يترك هينكليف لينتون مع خاله ، كما كان معها ، وتجد سرورا في إقناع نفسها بان أباه كان عزوفا عن الاضطلاع بإعائلته أو تعليمه .. فلم يتردد سيدى لحظة واحدة في الاستجابة لرجائها .. وعلى الرغم من نفوره من مغادرة منزله في الزيارات العادية ، كما كان عهد في الأونة الأخيرة فإنه سارع إلى تلبية تلك الدعوة ،

وعهد بكأثرين إلى عنائتى الساهرة أثناء غيابه ، وأصدر لى أوامره المشددة بالا ادعها تجوب خارج البستان ، ولو في صحبتي .. أما خروجها وحدها فأمر لم يخطر له على بال .

وطالت غيبته ثلاثة أسابيع .. ففى اليومين الأولين كانت الصغيرة المعهود بها لعنايتى تجلس في ركن المكتبة وقد منعها الحزن من القراءة أو اللعب ، وهكذا لم تسبب لى إلا القليل من المتاعب وهى في هذه الحالة من الهدوء والسكينة .. ثم تلت ذلك فترة من الملل المصحوب بضيق الصدر والمشاكسة .. وإذا كنت كثيرة المشاغل ، وقد تقدم بى العمر ، وليس في وسعى ان أجريها في القفز والجرى والصعود والهبوط لتسليتها ، فقد استنبطت طريقة تستطيع بها ان تسلى نفسها بنفسها .. وذلك بأن أبعث بها لتقوم بالتجوال وحدها داخل حدود المزرعة ، سيرا على الأقدام تارة وراكبة مهرها الصغير تارة أخرى ، ثم أتلقها بالإصغاء في مسير وأناة إلى قصص مغامراتها الحبقبية والخيالية ، عندما تعود من جولاتها ..

كان الصيف مشرقا بكل روعته وبهجته ، فكانت تجد متعة كبيرة في هذه النزعات الانفرادية ، بحيث كانت كثيرا ما تبقى خارج الدار من وقت الإفطار حتى موعد الشاى بعد الظهر ، ثم تنضى أمسياتها في رواية قصصها الخيالية المثيرة .. ولم أكن أخشى أن تخترق الحدود المرسومة لها ، لأن البوابات كانت عادة محكمة الغلق ، ولأنى حسبتها لا تجرؤ على اجتيازها والتوغل خارجها وحدها لو أنها كانت مفتوحة على صراعيبا ..

ولكنى سرعان ما تبينت - لسوء الحظ - ان ثقتى لم تكن في موضعها .. فقد حضرت لى كاثرين ذات صباح ، فى الساعة الثامنة ، وقالت إنها سوف تكون اليوم تاجرا عربيا يعمر الصحراء بقائلته ، وأن على أن أوفر لها المزيد من المؤن لنفسها ولسائر أعضاء القافلة من الدواب ، وهى حصانها وثلاثة « جبال » مائلة فى كلب سلوتى كبير واثنين من كلاب الصيد .. فأعددت لها كمية وفيرة من الفطائر والحلوى وجعلتها فى سلة علقنها على أحد جانبي سرج الحصان ، وعندئذ اعتلت ظهره فى خفة ومرح ، وقد ارتدت تبعتها ذات الحافة العريضة والتقلب الحريرى الخفيف ليحميا رأسها ووجهها من شمس يولوى القاسية ، ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحي وتحذيراتى بتجنب الإسراع فى السير ، والتبكير فى الحضور .. ولكن الخبيثة لم تظهر حتى موعد تناول الشئى ، ولم يعد من أفراد قائلتها سوى الكلب السلوتى إذ كان متقدما فى العمر مغرما بالراحة والاسترخاء .. أما كاتى والمهر وكنبسا الصيد فلم يظهر لأى منهم اثر فى أى مكان .. وبعثت بالرسول يجوسون خلال الممرات فى البستان والمزارع ، وأخيرا مضيت للبحث عنها بنفسى .. والتقيت بعامل يشغل فى إصلاح السياج حول أحد الحقول ، عند حدود مزرعتنا ، وسألته إن كان قد رأى سيدتنا الصغيرة ، فقال :

— لقد رأيتها فى الصباح حيث طلبت منى أن أقطع لها غصنا من شجرة البندق ، ثم وثبت بجوادها فوق السور عند



ثم انطلقت تعدو بالجواد وهى تطلق ضحكة مرحة ، وتسخر من نصائحي وتحذيراتى بتجنب الإسراع فى السير ..

لك البقعة التي ينخفض فيها أكثر من غيرها ، وأسرعت تعدو حتى اخفنت عن الأنظار !

ولك أن تتصور مبلغ ما اعترانى من جزع لدى سماعى هذه الأنباء ، وخطر لى على الفور أنها لا بد قد ذهبت إلى « صخور بنستون » التي كانت تتوق لرؤيتها عن كثب .. فهتفت أقول لنفسى : « ويلاه ! .. ماذا يكون مصيرها ؟ .. » ثم اندفعت خلال الشفرة التي كان العايل يصلحها في السياج ، ومضيت قدما نحو الطريق ، أغذ السير كأننى في سياتى ، واقطع القفار ميلا بعد ميل ، حتى بلغت منحنى أرى عنده « مرتفعات وبلرنج » ، ولكنى لم أتبين أثرا لكائرين من قرب أو من بعد .. وكانت « صخور بنستون » تقع على بعد ميل ونصف من مسكن مستر هيثكليف ، كما كان ذلك يبعد عن « الجرانج » بأربعة أميال ، وهكذا بدأت أخشى أن يهبط الظلام قبل أن أستطيع بلوغها ، ورحت أغمغم قائلة لنفسى : « وماذا يكون الحال لو كانت قد رلت قدمها في أثناء تسليق الصخور ، فسقطت قتيلًا ، أو كسرت بعض عظامها ؟ .. » والواقع أن جزعى كان اليما أشد الألم ، ولذلك غمرنى سرور الارتياح - بادية ذى بدء - عندما كنت أسرع السير بجوار (المرتفعات) فإذا بى أرى « شارلى » أحد كلابى السيد ، يل أشرسها ، ملقى تحت إحدى النوافذ ، وقد ورم رأسه واخذ الدم ينزف من أذنه .. ففتحت باب السور وأسرعت إلى المنزل ورحت اطرق بابه بقوة ولهفة ، وما لبث أن فتح عن امرأة كنت أعرفها ، كانت تعيش من قبل في جيبرتون

والتحقت بالخدمة هنا على اثر وفاة مستر ايرنثسو ، فما كادت ترانى حتى صاحت :

— آه ! .. هل أتيت للبحث عن سيدتك الصغيرة ؟ .. لا تخشى شيئا .. إنها هنا بخير وسلامة .. ولكنى مسرورة لانه لم يكن السيد هو الذى يطرق الباب ..

فغمضت بمبورة الأنفاس من المشى السريع واللهفة والقلق :
— إنه ليس في المنزل إذن ؟

— كلا .. كلا .. لقد خرج هو وجوزيف ولا أحسبهما يعودان قبل ساعة أو تزيد .. ادخلى وارتاحى قليلا ..

فدخلت ، وإذا بى أرى حبلى الشارد جالسة بجوار المدفأة ، تتأرجح في مقعد صغير كان لآبها وهى صغيرة .. وكانت تبتمنها معلقة في مشجب على الجدار ، بينما كانت تبدو في راحة واطمئنان كأنها في بيتها ، وقد راحت ترح وتحدث في طلاقة إلى هيرتون - الذى أصبح الآن شابا ثوبا في الثامنة عشرة - وهى في أحسن حالاتها النفسية .. وكان هيرتون يحلق بانظاره إليها في دهشة ومضول بالغين ، ولا يفقه إلا أقل القليل من ذلك الفيض المتتابع من الملاحظات والأسئلة التي كان لساتها الذلق لا يكف عن صبها في أذنيه ..

واخفيت فرحنى برؤيتها سالمة وراء قناع من الغضب والاستياء ، وصحت :

— مرحى .. مرحى .. يا آنسة ! .. سوف تكون هذه آخر مرة تركيبى لميها جوادك ، حتى يعود أبوك من سفره ..

وما عدت أثق بك أو أطمئن إلى اجتيازك عتبة الدار أينها
الفداء الشقية !

نهفت في مرج وهي تثب من مجلسها وتسرع إلى جاتبي :
— آه يا ايلين ! .. سوف تكون لدى قصة رائعة لأرويبها
لك الليلة ! .. ولكن أراك عثرت على ، فهل أتيت إلى هذا
المنزل في حياتك قبل الآن ؟

فتجاهلت سؤالها ، وقلت في صرامة :

— ضعى قبعتك وهيا إلى المنزل على الفور .. وإني
شديدة الاستياء منك ، يا مس كائى ، فقد أتيت خطأ جسيما
.. ولا فائدة من العبوس أو البكاء ، فإن ذلك لن يجزى
با سببته لى من تلق وجزع بينما كنت أذرع المنطفة طولاً وعرضاً
في البحث عنك ! .. وكلها فكرت كيف عهد لى مستر لينتون
بالمحافظة عليك ومنعك من الخروج من المزرعة ، وإذا بك
تسطلين إلى الخارج على هذا النحو ، ازددت استياء من
مسلكك .. وهذا يدل على أنك ثعلب صغير مأكور ، ولن يضع
أحد ثقته بك بعد ذلك قط !

وكانت قد بدأت في النحيب ، فإذا بها تكف دفعة واحدة ،
وتقول :

— ما الذى فعلته ؟ .. أن أبى لم يأمرنى بشيء .. كما أنه
لن يؤثمنى يا ايلين ، فإنه لم يكن قط صارماً قاسياً مثلك !
نعدت أقول :

— هيا .. هيا .. سوف أربط لك شريط القبعة .. والآن

دعينا من المشاكسة .. آه ! .. يا للعار ! .. اتكوتين في
الثالثة عشرة ، وتصرفين كطفلة صغيرة !

وقد نهت بهذه الملاحظة الأخيرة عندما دفعت القبعة عن
راسها وأسرعت تنف بجوار المدفأة بعيداً عن متناول يدى ..
وتدخلت الخادمة قاتلة :

— رويدك ، ولا تكونى قاسية على الصبية الطيبة يا مسز
دين ! .. إننا نحن الذين جعلناها تتوقف هنا ، إذ كانت تتوق
إلى المضى في طريقها ، خشية أن تعلقى عليها .. وقد عرض
عليها هيرتون أن يذهب معها ، وأحسب أنه كان ينبغى أن
يرافقها ، لأن الطريق فوق التلال شديد الوعورة ..

وكان هيرتون في أثناء هذا النقاش يقف واضعاً يديه في
جيبى سراويله ، وقد استبد به الارتباك فلم يستطع النطق
بكلمة واحدة ، وإن كان يبدو غير مرتاح إلى تطفلى !
واستطردت أقول غير مكترثة بتدخل المرأة :

— كم من الوقت يجب أن انتظرها ؟ .. سوف يحل
الظلام بعد عشر دقائق .. فأين مهرك يا مس كائى ؟ ..
وأين « فينكس » ؟ .. سوف أتراك وأمضى لسانى ، ما لم
تسرعى .. فأفعل ما يحلو لك !

— إن المهر في الفناء .. أما فينكس فمحبوس هناك ، لأنه
معضوض ، وكذلك شارلى .. وقد كنت على وشك أن أخبرك
بكل شيء في هذا الأمر ، ولكنك سيئة الخلق ، ولا تستحقين
الاستماع إلى روايتى !

والتعلقت القبة من الأرض ، واقتربت منها لأضعها فوق رأسها ثانية ، ولكتها إذ رأت الشاب والخادمة ينحازان لسنها ، بدأت تقفز حول الحجرة بعيدا عنى .. وشرعت في بطاردتها فإذا بها تجرى هنا وهناك كالجرذ فوق قطع الأثاث وتحته وخلفها ، مما جعل استمرارى في المأسادة مشرا للسخرية ، فضحك هيرتون والخادمة ، وشاركتها هي في الضحك ، وأمعنت في الفحة حتى صحت أخيرا في انفعال شديد :

— حسنا يا مس كائى .. لو أنك عرفت منزل من هذا لكان يسرك أن تغادريه على الفور ..

فمنظرت هي إلى هيرتون قائلة :

— إنه منزل أبيك ، اليس كذلك ؟

فلم ينطق إلا بكلمة « كلا » ، وقد اغضى بنظرانه إلى الأرض واحبر وجهه احمرارا شديدا من الخجل .. فلم يكن يقوى على الصمود امام نظراتها الثابتة ولو أن عينيها كانتا تشبهان عينيها تماما ..

فعمادت تسأله :

— منزل من إذن ؟ .. سيدك ؟

فمازداد تورد وجهه عمقا حتى غدا أرجوانى اللون ، ولكن عن شعور يختلف عن شعوره الأول ، وغمغم بكلمة سباب ، ثم أشاح بوجهه بعيدا ..

فاستطردت الفتاة المتعبة وهي توجه لى الخليلاب :

— من هو سيده ؟ .. لقد كان يتكلم فيقول « بيتنا » ، و « قومنا » .. ولذلك حسيته ابن صاحب المنزل .. ثم إنه لم يقل أبدا « يا سيدتى » وهو يخاطبني ، وكان يجب أن يقولها إذا كان خادما ، اليس كذلك ؟

فغدا وجه هيرتون رماديا داكنا كسحابة كثيفة مشحونة بالرعد ، بينما جذبت محدثتى في صمت ، وانلحت أخيرا في إعدادها للرحيل .. وما لبثت أن خاطبت ابن خالها المجهول بمثل ما تخاطب واحدا من سياس « الجرائح » قائلة :

— اذهب الآن واحضر جوادى .. ويمكنك أن تأتى معى ، فأتى أريد أن أرى أين ينهض صائد العفاريث من وسط المستنقعات ، وأسمع الحديث عن الجنيات كما تسميهن .. ولكن أسرع ! .. ماذا دهك ؟ .. لقد أمرتك بأن تحضر لى الجواد ..

فمزجر الشاب قائلا : « سوف أراك هالكة في الجحيم قبل أن أكون خادما لك ! » .

فقالت كاثرين في دهشة : سوف ترانى ماذا ؟

— هالكة في الجحيم أيتها الساحرة السليطة اللسان !

فندخلت قائلة :

— كفى يا مس كائى ! .. لقد رأيت أنك زججت بنفسك في رفقة غير لائقة بك .. أمثل هذه الألفاظ توجه إلى سيدة شابة ؟ .. ولكنى أرجوك ألا تبدئى النقاش والشجار معى ، وتعالى نبحث عن « المهر ميني » بنفسنا وترحل من هنا ..

فهمتت تقول ، وقد شلت الدهشة البالغة حواسها :

— ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة يا ايلين ؟
.. اليس المفروض أن يطيع ما أمره به ؟ .. سوف أخبر
أبى بما قلته أيها المخلوق الشرير .. والأنا !

فلم يبد على هيرتون ما يتم على أكراته بهذا الوعيد ، وهكذا
انثقت الدبوع من عينيها لشعورها بالمهانة ، وتحولت إلى
المرأة ، صالحة :

— اذهبي أنت فأحضري المهر وأطلقى سراح الكلب في التو
واللحظة !

فأجابتها الخادم :

— حنالك يا آنسة .. إنك لن تخسري شيئاً بالبرقة وحسن
المعاملة .. ومع أن مستر هيرتون هذا ليس ابن صاحب الدار ،
إلا أنه ابن خالك .. أما أنا فلم يؤجرني أحد لخدمتك !
فصاحت كاثارين في ضحكة ساخرة : هو ؟ .. هو ابن
خالى أنا ؟ ..

— نعم .. هذه هي الحقيقة ..

فنظرت إلى في تلق بالغ وتابعت الحديث :

— آواه يا ايلين ! .. لا تدعيهم يقولون مثل هذه الأشياء
الفظيعة .. لقد ذهب أبى ليحضر ابن عمى من لندن ، وهو
ابن أحد السادة ! .. أما هذا ..

وكنت عن الكلام وانفجرت باكياً ، إذ قلب كيانهما مجرد
التفكير في وجود صلة من القرابة بينها وبين هذا المهرج ..

فهمست أقول لها :

— صه .. صه ! .. إن الناس يمكن أن يكون لهم أبناء
عمومة وأبناء خؤولة عديدون ومن كل نوع ، يامس كائى ،
دون أن يسوؤهم ذلك .. وكل ما في الأمر أنه لا ينبغي لهم أن
يختلطوا بهم أو يلزموا صحبتهم إذا كانوا شريرين بقضاء ..
— ولكنه ليس .. إنه لا يمكن أن يكون ابن خالى يا ايلين !

وكانت كلما امعنت التفكير في الأمر ازدادت حزناً وهماً ،
حتى ألقت بنفسها بين ذراعى كائى تحتسى بى من هذه الفكرة ..

أما أنا فقد اشتد بى الضيق والكدر منها ومن الخادمة معا
لتصريحاتها المتبادلة ! .. فلم اشك لحظة أن قرب وصول
لينتون ، الذى ذكرته كائى ، سوف يبلغ لمستر هيثكليف ..
وكنت مؤقتة أشد اليقين من أن أول ما ستفعله كاثارين عند
عودة والدها هو أن تطلب منه إيصالها لما ذكرته الخادمة عن
ترابها لهذا الفتى الجلف السيء الأدب !

وكان هيرتون قد أفاق من نفوره واشهرأزاه من اعتباره
أحد الخدم ، وبدا عليه التأثر لحزنها وأسأها .. فمضى
وأحضر المهر أمام الباب ، ثم أراد استرضاءها فأخذ من الوجار
جرواً صغيراً معوج السيقان ووضع في يدها وهو يطلب إليها
أن تبتدىء من روعها لأنه لم يكن يقصد شيئاً .. فتمهلته في
البكاء ريثما رمقته بنظرة فاحصة ملؤها الخوف والفرع ، ثم
انفجرت باكياً من جديد !

ولم أستطع مغالبة الابتسام لهذا النفور من الفتى المسكين
الذى رأته الآن شاباً رياضياً يتين البنيان وسيم الطلعة ممتلئاً

صحة وعافية ، إلا أنه يرتدى ثيابا خشنا رثة تلائم أعماله اليومية في الحقل ، وجولانه الدائمة في البراري سسعياء وراء الأرائب الجبلية وغيرها من أنواع الصيد والقتص . . ومع ذلك خيل إلى أنني أستطيع أن استشف وراء محياه عقلا يحوى من الصفات والمزايا ما لم يتح لأبيه قط . . ومن المحقق أن هناك أشياء كثيرة طيبة تختفى وسط الأعشاب والحشائش ويغلفى عليها تكاثرها الكثيف السريع فيخفى تحته نموها البطيء الذى لا يجد العناية الكافية لكى يؤتى ثماره . . ومع ذلك فقد رايت الدلائل على تربة غنية قد تغل ثمارا وغيرة لو أتاحت لها ظروف أكثر ملاءمة . . واحسب أن مستر هينكليف لم يسيء معاملته بدنيا ، والفضل في ذلك يرجع إلى طبيعة الفتى الذى شعب لا يعرف الخوف ، والتي كانت بذلك لا تتبجح الفرصة للإغراء بمثل هذا النوع من الاضطهاد . . فلم يكن على شيء من الخجل والاستكاثة التي كان يمكن لهينكليف أن يجد فيها دافعا لسوء معاملته له . . وهكذا يبدو أنه إنما كرس حقه وضغيفته ليجعل منه بهيبا جاهلا فظ الخلق . . فلم يلغن شيئا من مبادئ القراءة والكتابة ، ولم يزرجر يوما عن خلة سيئة طالما لم تكن تسبب لسجانه ضيقا أو غضبا ، ولم تقد قدماه خطوة واحدة في طريق الفضيلة ، ولا صين خلقه بنصيحة واحدة عن مهاوى الرذيلة . . وكان لجوزيف - غيبا سمعت - نصيب وغير في دماره ، إذ كان تحيزه له - وهو تحيز ناجم عن ضيق عقله - يدفعه إلى ثلغه وتذليله مذكأن صبيبا صغيرا ، لأنه كان يعده رأس العائلة العريقة القديمة . . وبينما كان لا يفكّ يتهم كاثرين إيرنشو وهينكليف - عندما

كانا صغيرين حديثين - بإثارة السيد واستنفاد صبره ، دفعه بذلك إلى البحث في الخمر عن السلوى والعزاء مما كان يسميه « أساليبيها الشريرة » ، فإنه صار الآن يلقي عبء اخطاء هيرتون كلها على عاتق الغاصب الذى سلب أملاكه . . فإذا انطلق الصبي في السباب لم يحاول تهذيبه ، وكذلك لم يحاول تقويمه معها كان مسلكه مليئا بالذنوب والاطغاء . . ويظهر أن جوزيف كان راضيا كل الرضى وهو يراه ينحدر إلى أسوأ مدى . . فقد سمح بدمار الصبي ، وبترك روحه تهيم في وديان الضلال ، لا شيء إلا لاعتقاده بأن هينكليف هو الذى سوف يكفر عن ذلك كله . . وكان يعتقد أن هيرتون يجب أن يحفظ دماء أسرته العريقة في ذرية ينبجها ، فكان يجد في هذه الفكرة عزاء ما يعده عزاء . . وكان جوزيف لا يفئا يسب فيه ، قطرة بعد قطرة ، كبرياء الاعتزاز باسم عائلته وسلالته . . وكان يود - لو وجد الجراءة على ذلك - أن ينهى فيه الحقد والكراهية نحو مالك « مرتفعات ويدرنج » الحالى . . ولكن غزعه ورهبته من ذلك المالك كانا قد بلغتا مرتبة الفزع من الشياطين والأرواح الشريرة ! . . فكان يقصر مشاعره حياله على الغمز والتلميح في غمغة خافتة ، وعلى الوعيد بالويل والثبور . . في سره . . ولست أزعم أنني أعلم عن يقين مجرى الأمور في « مرتفعات ويدرنج » في تلك الأيام ، وإنما أروى ما كنت أسمعه ، لأننى لم أكن أرى هنا إلا أقل القليل . . وكان القرويون يؤكدون أن مستر هينكليف رجل شحيح يسوم مستأجره العذاب ويقسو عليهم . . غير أنني

اشهد ، والحق يقال ، أن المنزل من الداخل استعاد مظاهره القديمة من النظافة وتوفر وسائل الراحة ، تحت إدارة النساء اللواتي استخدمنه ، وأن مشاهد العريضة والشغب التي كانت تمثل أيام هندلي لم يعد لها وجود بين جدرانها الآن .. فقد كان السيد من الحزن والكآبة بحيث عزف عن مخالطة الناس وتشدان صحبتهم ، خيارهم وشرارهم معا .. وما زال كذلك حتى الآن ..

ومها يكن من أمر فان ذلك لا شأن له بمجرى قصتي .. ولتعد إلى مس كائي ، فقد رفضت قبول هدية الصلح ، وهي الجرو الرضيع ، وطلبت أن يؤتى لها بكلبيها « شارلي وفينكس » ، فجاءا يعرجان ، وقد تدلى رأسها .. وعندئذ بدانا في رحلة العودة إلى المنزل ، على أسوأ ما تكون الرحلات ، وكل واحدة منا تحبل مهابا وأساها .. ولم أفلح في أن استخلص من سيدنى الصغيرة كيف قضت يومها ، سوى ذلك الشيء الذي حدثته ، وهو أن كعبتها كانت في ذلك اليوم « مسخور بنستون » .. وأنها وصلت بغير حصاد حتى باب (مرتفعات ويدرنج) ، عندما تصادف أندفاع هيرتون وفي صحبته رفقة من الكلاب لم تلبث أن هاجمت قافلتهما .. وكانت المعركة حامية الوطيس حتى استطاع سادة الفريقين التفريق بينهما .. وكان هذا الحادث سببا للتعارف بينهما ، فقد أطلعت كاثرين هيرتون على شخصيتها ، وأخبرته بما اعتزمته من الذهاب إلى الللال ، ثم سألته أن يرشدها إلى الطريق ، وأخيرا استدرجته إلى مصاحبته .. وقد كشف لها عن أسرار « كهف

الجنيات » وعشرات غيره من الأماكن العجيبة .. ولكنها ، وقد كانت غاضبة بنى ، لم تر أن تمن على بوصف ما شاهدته من الأشياء المسلية الغريبة .. ومع ذلك استطعت أن اتبين أن رقيقها ودليلها كان موضع رضاها حتى آذت شعوره بمخاطبته كأحد الخدم ، وحتى آذت خادمة هينكليف شعورها بما زعمته من أنه ابن خالها ! .. ثم جاءت تلك الألفاظ الشنيعة التي وجهها إليها فملأت قلبها حقا والمأ ! .. وهي التي كانت تسمع دائما اللفاظ « حبيبتى » و « عزيزتى » و « ملكتى » و « ملاكى » بمخاطبها بها كل إنسان في « الجرانج » ، فوجه إليها الآن السباب الشائن من شخص غريب ! .. انها لم تكن تفهم لذلك سببا .. وقد بذلت جهدا شاقا لآمال منها وعدا باخفاء أحزانتها عن والدها ، وشرحت لها كيف أنه لا يرتاح إلى أى مخلوق ممن يسكنون « المرتفعات » ، وهم يكون مبلغ أسفه وأساها لو عرف انها كانت هناك .. ولكن النقطة التي ألححت فيها كثيرا ، هي تلك الحقيقة الواقعة هي انها لو أفشيت له اهمالى لأوامره ، فربما بلغ به الغضب إلى حد يضطررنى إلى ترك المنزل .. ومن ثم تكن كائى لتقوى على احتمال هذه النتيجة الاليمية ، ومن ثم وعدتنى بكتمان الأمر ، إكراما لى ، وحافظت على هذا الوعد .. فقد كانت ، على أية حال ، قناة رقيقة الشعور حلوة السمائل .

الفصل التاسع عشر

ثم وامتنى خطاب مجلل بالسواد ، يعلن موعد عودة سيدي .
فقد ماتت ايرابيللا ، وكتب لى السيد طالبا تحضير ثياب الحداد
لابنته ، واعداد حجرة خاصة ، وغيرها من وسائل الراحة ،
لابن اخته الصغير .. وقد جنت كاثرين مرحسا من التفكير فى
قرب استقبالها لابيها عائدا من رحلته ، واستسلمت إلى
تصورات حماسية لما ترجوه من مزايا لا عدد لها لابن عمها
« الحقيقى » .. ثم حلت تلك الامسية التى كنا نتوقع وصولها
فيها .. وكانت كاثرين منذ الصباح الباكر منهكة فى ترتيب
اشيائها الخاصة الصغيرة .. أما الآن ، وقد ارتدت ثوبها
الاسود الجديد - ويا للطفلة المسكينة !.. إن موت عمها لم
يغير نفسها بحزن واضح المعالم - فقد اضطرتنى بمضايقاتها
الكثيرة المستمرة ، إلى السير معها حتى نهاية أرضنا لتكون فى
استقبالها ..

ومضت تثرثر ونحن نتبشى الهوى فوق المرتفعات
والمنخفضات المكسوة بالعشب الندى تحت ظلال الأشجار :

— أن لپنتون لا يصغرنى إلا بسعة شهور .. فما أجل أن
يكون رفيقى فى اللعب !.. وكانت عمى ايرابيللا قد بعثت
إلى أبى بخصلة من شعره الجميل ، فإذا به لا يقل نعومة عن
شعرى وإن كان يفوقه فى خفته وشقرته .. وقد احتفظت
بها فى عناية داخل صندوق صغير من الزجاج ، وكثيرا ما كنت

افكر أنه سوف يكون أمرا بهيجا لو أتيت لى أن أرى صاحبها
عيانا !.. آه !.. اننى سعيدة حقا !.. فما هو أبى العزيز ،
أبى المحبوب يوشك على المجرى !.. تعالى يا ايلين .. دعينا
نجر إلى البوابة .. تعالى نجر معا ..

وأخذت تغدو ، ثم تعود ثانية ثم تجرى لتعود من جديد
عدة مرات ، قبل أن تسعثنى خطواتى المشددة الكثيلة ببلوغ
البوابة .. وهناك جلست فوق العشب الأخضر على جانب
الممر ، وحاولت جعلها تنزع بالصبر فى الانتظار .. ولكن ذلك
كان محالا .. فلم تستقر فى جلستها دقيقة واحدة ..
وكانت لاتنى تهفت بهى :

— ما اشد بطئها فى الحضور !.. آه !.. اننى أرى
سحابة من الغبار فى الطريق .. فلعلمها قادمان !.. ولكن
لا .. متى يصلان إلى هنا إذن ؟ .. الا نمضى فى الطريق
قليلًا يا ايلين ؟.. نصف ميل مثلا !.. مجرد نصف ميل فقط ؟
.. الا تولى نعم .. دعينا نمض حتى تلك الخيمة من الشجر
عند منعطف الطريق !

ولكنى رفضت فى إصرار .. وأخيرا انتهى انتظارها ، فقد
ظهرت عربة السفر وهى قادمة تغدو فى الطريق .. وصاحت
مس كائى ومدت ذراعيها إلى الأمام ، عندما رأت وجه أبيها
يطل من النافذة .. وهبط أبوها من العربة وهو لا يقل عنها
لهفة وشوقا ، فمضت فترة طويلة قبل أن يفكر أحدهما فى
شئ غير شخصيهما .. وانتهزت فرصة استغراقهما فى

العناق والقبليات ، فضيت اختلس النظر إلى لينتون الصغير ، وكان نائبا في ركن المقعد ، يندثرا بمعطف سبيك ذي أطراف من الفراء ، كما لو كنا في صميم الشتاء .. فوجدته غلاما شاحب الوجه ، رقيق الجسم ، تحسبه فتاة لما يبدو في مظهره من ضعف أنثوى .. وكان الشبه بينه وبين سيدي من القوة بحيث تخاله أخاه الأصغر .. ولكن كان في مظهره من الوهن والضعف والمرض ما لم يكن لادجار لينتون قط .. ورائي سيدي انظر إلى الغلام ، فنصحتي - بعد أن صافحتي - بأن أغلق باب العربة وأن أدعه نائبا لأن الرحلة أتمته .. وكانت كائي تتوق إلي أن تلقى عليه نظرة ، ولكن والدها طلب إليها أن ترافقه ، ومشيا سويا في الحديقة ، بينما أسرعت أسبقهما لأخبر الخدم بمقدم السيد ..

ووقفا عند أسفل الدرج الأمامي ، حيث قال مسرر لينتون مخاطبا ابنته :

- والآن يا عزيزتي .. ان ابن عمك ليس في مثل قوتك أو مرحك ، ولا تنسى أنه فقد والدته منذ عهد قصير .. فلا تنتظري منه أن يشاركك اللعب والجري من أول يوم .. كما أرجو ألا تتظلي عليه بالكلام ، وأن تدعيه هادئا هذا المساء على الأقل ..

فاجابت كاترين :

- سمعا وطاعة يا أبتاه ! .. ولكني أريد أن أراه ، فانه لم يغل من العربة مرة واحدة !

ووقفت العربة أمام الدرج فأوقظ النائم وحمل إلى الأرض حيث وقف إلى جوار خاله ، الذي وضع يده الصغيرة في يد ابنته ، قائلا :

- هذه ابنة خلك كائي ، يا لينتون .. وقد أولعت بك من قبل أن تراك ، فلا تحزنها بالبكاء الليلة ، وحاول أن تبسّم الآن فقد انتهت الرحلة الشاقة ، ولم يبق إلا أن تنال قسطك من الراحة وأن ترح كما تشاء ..

فتراجع الغلام نافرا من مصافحة كاترين ، ورفع يده ليسح عباراته التي بدأت تتلأأ بين أهدابه ، ثم قال :

- دعني أذهب إلى الفراش إذن ..

فهمست قائلة له ، بينما كنت أقوده نحو باب المنزل :

- تعال .. تعال ، أيها الغلام الطيب .. انك بذلك تدفعها إلى البكاء مثلك .. انظر كيف تبدو حزينة من أجلك !

ولست أدري هل كان اكتشافها بسببه أم من أجله ، ولكن الواقع أن ابنة خاله كان يخيم على أساريرها من الحزن والكآبة مظهرها كان يبدو في محيا ، عند ما رجعت ثانية إلى جانب والدها .. ودفن ثلاثتهم إلى المنزل ، وارتقوا الدرج إلى قاعة المكتبة ، حيث كان الشاي معدا لهم .. ومضيت ألزع قبعة لينتون ومعطفه ، ثم أجلسته فوق أحد المقاعد بجوار المائدة ، ولكنه ما كاد يجلس حتى بدأ في النحيب من جديد .. فسألته السيد عن سبب بكائه ، فأجاب وهو يشرق بدموعه :

— اننى لا استطيع الجلوس على المقعد .

فقال خاله في حلم واثارة :

— اذهب إلى الأريكة إذن ، وسوف تحمل إليك ايلين

الشاي ..

وشعرت بان السيد قد لقي عناء شديدا طوال رحلته ،
بسبب ربيبه الطويل المشاكس ، وانه قد تحمله في صبر وحلم
لا ينفذان ..

وراح ليلتون يجرح قلبيه المتألمتين حتى بلغ الأريكة ،
ناستلقى فوقها ، بينما حملت كائى قدحها ومقعداً منخفضاً ،
وانت تجلس بجواره .. ولبثت صابئة في يادى الامر ،
ولكن ذلك لم يطل كثيرا ، فقد استقر عزمها على أن تجعل
من ابن عبتها الصغير ملهاة لها ، كما ارادت أن يكون بالنسبة
إليها .. فبدأت تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ،
وتقدم له الشاي في طبق فنجانها كأنه طفل صغير ، فسره
ذلك كثيرا ، لانه في الواقع لم يكن أكثر من طفل غريب ، وأخذ
يجحف عينيه من الدموع ، وقد أضاء محياه بابتسامة خائفة !

فقال لى السيد بعد أن نزل برفقيهما لحظة :

— اوه ! .. سوف يطيع له العيش هنا كثيرا ، إذا استطعنا
أن نحفظ به هنا يا ايلين .. فان صحبة طفلة في سنه لن تلبث
أن تنفث فيه روحا جديدة ، وسوف تساعده رقيبته في
الاستزادة من الصحة والقوة ، على اكتسابها سريعا ..

فقلت في نفسى : أجل .. إذا استطعنا أن نحفظ به هنا !



أبدأت تربت على خصلات شعره ، وتقبل وجنته ،

وتقدم له الشاي في طبق فنجانها كأنه طفل صغير ..

.. فقد اكتنفتني موجة من الريبة والتوجس الاليم ، من أنه لم يكن ثمة في ذلك غير أمل ضئيل .. ورحت افكر كيف يمكن لهذا الغلام اللطيل الهزيل أن يعيش في « مرتفعات وينرنج » ؟ .. واية رفقة تلك التي ستجمع بينه وبين ابيه وهيرتون ، واية تروس تلك التي سوف يتلفاها عنهما ؟

ومن المؤلم أن شكوكنا سرعان ما تحققت ، بل بأسرع مما كنت أتوقع .. كنت قد أخذت الصغيرين إلى الطابق العلوى ، بعد أن انتهيا من تناول الشاي ، وانتظرت بجانب لينتون حتى استغرق في النوم — إذ لم يشأ أن يفارقه حتى ينام — ثم نزلت إلى الطابق الأرضي حيث وقفت إلى جوار المائدة في البهو اشعل شمعة لحجرة نوم مستر ادجار ، عندما قدمت خادمة من المطبخ لتقول لى إن جوزيف ، خادم مستر هينكليف ، بالباب يطلب التحدث إلى السيد .. فسرت في بدنى رعدة عنيبة ، وقلت :

— سوف أسأله أولا عما يرغبه ، فاتها ساعة غير ملائمة لإزعاج الناس ، وفي اللحظة التي يعودون فيها من رحلة طويلة .. ولست أظن السيد على استعداد لأن يراه ..

وكان جوزيف قد عبر المطبخ ، بينما كنت انطق بهذا القول ، ودف إلى البهو .. كان متسربلا في رداء الأعياد والأحاديث ، وقد اكتسى وجهه الهضيم سمة من المشاكسة والتظاهر بالتتوى .. وكان يمسك قبعته بيد ، وعماءه بالبسد الأخرى ، وتد راح ينظف حذاءه في مهنحة الأرجل ..

فقلت له ببرود :

— طلب مساؤك يا جوزيف .. أى أمر أتى بك إلى هنا الليلة ؟

فاجاب وهو يزيخى بيده جانبا في ازدياء :

— إنه مستر لينتون الذى أريد أن اتحدث إليه ..

— أن مستر لينتون على وشك الذهاب إلى الفراش ، ماذا لم يكن ما تريد قوله له شيئا هاما ، فأننى على يقين من أنه غير مستعد لسامعه الآن ..

ثم تابعت كلامى قائلا :

— وخير لك أن تجلس ، وتعد إلى برسالتك ..

فراح يجبل أنظاره في الأبواب المغلقة المتجاورة ، ثم قال :

— أيها حجرته ؟

فأدرت أنه مصر على رفض وساطتى ، وهكذا سعدت في نونور بالغ إلى المكتبة ، وأعلنت للسيد مقدم ذلك الزائر الذى يحضر في وقت غير ملائم للزيارة ، فاصحة له بأن يرفض مقابلته ويستقبله إلى اليوم التالي .. ولكن قبل أن يتسع الوقت أمام مستر لينتون ليفوضنى في أداء ذلك ، كان جوزيف قد سعد في أعقابى ، واندفع إلى داخل الحجرة حيث وقف عند طرف المائدة القصى ، واضمأ كلتا قبضتيه

فوق قمة عصاه ، ثم اندفع يقول بصوت جهورى ، كأنما كان يتوتع معارضة أو رفضا لمطالبه :

— لقد أرسلنى هيثكليف لأخذ غلامه ، ولن أعود بدونه !

فاخذ ادجار لينتون إلى الصمت لحظة ، وقد خيمت على أساريره سحابة من الحزن البالغ .. إنه من جانبه خليق بأن يشفق على الغلام ويرثى لحاله ، فوق أنه ذكر آمال أيزابيلا ومخاوفها وتمنياتها المثلثة لولدها ، عندما استودعته إياه وعهدت به إلى عنايته ورعايته ، فاستبد به حزن مرير لمجرد التفكير في التخلي عنه ، وراح ينقب في أعماق فكره وقلبه عن طريقة يتجنب بها الاستسلام لطلب هيثكليف .. ولكن التريفة لم تسعفه بأية خطة تستهدف هذه الغاية ، كما أنه لو كشف عن أية رغبة في الاحتفاظ بالغلام ، فإن ذلك سوف يزيد أباه تشبها واستمساكا به .. ولم يبق أمامه إلا أن يسلمه لأبيه .. ولكنه ، مهما يكن من أمر ، لن يرضى ببيقائه من النوم في هذه الساعة ..

وعندئذ قال في هدوء :

— أخبر مستر هيثكليف أن ابنه سوف يأتى إلى « مرتفعات ويدرنج » غدا .. فإنه في فراشه الآن ، وفي حالة من الإعياء لا تسمح له بقطع هذه المسافة الطويلة .. ويمكنك أن تخبره

أيضا ان والدة لينتون كانت تود أن يبقى في رعابتي ، إذ أن صحته الآن ضعيفة وتحتاج للمزيد من العناية ..

فصاح جوزيف وهو يدق الأرض بعصاه ، ويقول بلهجة أمره :

— كلا .. إن ذلك لا يعنى شيئا بالنسبة له .. فإن هيثكليف لا يقيم وزنا للأمر ، ولا لك ! .. ولكنه سوف يسترد ابنه ، ولا بد لى من أخذه الآن !

فقال مستر لينتون في حزم وهرامة :

— لن تأخذة الليلة .. والآن ، انزل حالا ، واذهب إلى سيدك فاعد على مسامحة ما قلته لك .. خذيه يائلى إلى تحت .. اذهب !

ثم أمسك بفراع العجوز الشائر ودفعه إلى خارج الحجرة ، وأغلق الباب دونه .. فصاح جوزيف وهو ينسحب في بطء وتمهل :

— حسنا جدا .. سوف يحضر بنفسه غدا .. وعليك أن تطرده هو الآخر ، إذا جرؤت !

الفصل العشرون

راى مستر لينتون ، تجنبا لخاطر تنفيذ هذا الوعيد ، أن يكلفنى بأخذ الصبي إلى دار أبيه ، فى الصباح الباكر ، على مهر كاثرين الصغير ، ثم أضاف قائلا :

— ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء أكان حسنا أم سيئا ، فانه يجب عليك ألا تذكرى لابنتى كلمة واحدة عن المكان الذى دُعب إليه .. لأنها لا يمكن أن تتصل به من الآن فصاعدا ، ومن الخير لها أن نظل جاهلة بوجوده فى مكان قريب ، لنسلا بمستبد بها القلق ، وتتوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. تولى لها نقط إن أباه قد بعث فى طلبه نجاة ، فاضطر إلى مراقبتنا ..

وقد أظهر لينتون الصغير نيمعا ونفورا من إيقافه من فراشه فى الساعة الخامسة ، وأبدى دهشة البالغة عندما أخبرته بوجود الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكنى هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هينكليف ، الذى اشتدت رغبته فى رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يبرأخ الغلام من رحلته الطويلة ..

نصاح الغلام فى حيرة غريبة ودهشة بالغة :

— أبى ؟ .. أبى أنا ؟ .. إن أبى لم تذكر لى قط أن لى أبى ! .. وأين يقيم هذا الأب ؟ .. اننى انفصل البقاء مع خالى ..

— إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه الغلال تماما .. والمكان لا يبعد كثيرا عن هنا بحيث يمكنك أن تاتى سيرا على الأقدام عند ما تستكمل مسحتك وتستعيد قواك .. ثم أنك يجب أن تسر للذهاب إلى دارك ورؤية أبىك .. وعليك أن تحاول أن تحبه ، كما كنت تحب أمك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فستغنى لينتون :

— ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل ؟ .. ولماذا لم تكن أبى تعيش معه كسائر الناس ؟ ..

— كانت أعماله تستلزم بقاءه فى الشمال ، على حين كانت صحة والدتك تقتضى إقامتها فى الجنوب .
نعاد الغلام يسأل فى إلحاح :

— ولماذا لم تحدثنى أبى عنه إذن ؟ .. لقد كانت تحدثنى كثيرا عن خالى فتعلمت أن أبى من زمن ملوول .. فكيف يمكن أن أحب أبى ، وأنا لا أعرفه ؟ ..
فقلت :

— أوه ! .. إن الأطفال جميعا يحبون والديهم .. ولعل والدتك خشيت أن ترغب فى الذهاب إلى أبىك والإقامة معه إذا كثرت من التحدث عنه أمامك . ولكن لنسرح الآن ، فإن الركوب مبكرا فى مثل هذا الصباح المشرق الجميل خير من النوم ساعة أخرى ..

— وهل هى ذاهبة معنا ؟ .. تلك الفتاة الصغيرة التى رايتها أمس ..

الفصل العشرون

راى مستر لينتون ، تجنبنا لخطر تنفيذ هذا الوعيد ، أن يكلفنى بأخذ الصبي إلى دار أبيه ، فى الصباح الباكر ، على مبر كاثرين الصغير ، ثم أضاف قائلاً :

— ما دام أمر هذا الغلام قد خرج من يدنا الآن ، ولم يعد لنا سلطان على مصيره ومستقبله ، سواء اكان حسناً أم سيئاً ، فانه يجب عليك الا تذكري لابنتى كلمة واحدة عن المكان الذى ذهب إليه .. لأنها لا يمكن أن تتصل به من الآن فمساعداً ، وعن الخير لها أن نظل جاهلة بوجوده فى مكان قريب ، لئلا يستبد بها القلق ، وتنوق إلى زيارة « المرتفعات » لرؤيته .. تولى لها فقط إن أباه قد بعث فى طلبه فجأة ، فاضطر إلى غرقنا ..

وتد اظهر لينتون الصغير تمنعا ونفورا من إيقافه من فراشه فى الساعة الخامسة ، وأبدى دهشته البالغة عند ما أخبرته بوجود الاستعداد لرحلة جديدة .. ولكنى هونت عليه الأمر بأن قلت له إنه ذاهب لقضاء بعض الوقت مع أبيه ، مستر هينكليف ، الذى اشتدت رغبته فى رؤيته بحيث لم يطق تأجيل هذه السعادة حتى يرتاح الغلام من رحلته الطويلة ..

فصاح الغلام فى حيرة غريبة ودهشة بالغة :

— أبى ؟ .. أبى انا ؟ .. إن أمى لم تذكر لى قط أن لى أباً ! .. وأين يقيم هذا الأب ؟ .. اننى افضل البقاء مع خالى ..

— إنه يقيم على مسافة قريبة من « الجرانج » .. وراء هذه التلال تماماً .. والمكان لا يبعد كثيراً عن هنا بحيث يمكنك أن تأتى سراً على الأقدام عند ما تستكمل صحنك وتستعيد توك .. ثم أنك يجب أن تسر للذهاب إلى دارك ورؤية أبك .. وعليك أن تحاول أن تحبه ، كما كنت تحب أمك ، وعندئذ سوف تجد منه كل حب وشغف بك ..

فسألنى لينتون :

— ولكن لماذا لم أسمع عنه من قبل ؟ .. ولماذا لم تكن أمى تعيش معه كسائر الناس ؟ ..

— كانت أعماله تستلزم بقاءه فى الشمال ، على حين كانت ساحة والدك تقتضى إقامتها فى الجنوب .

فعاد الغلام يسأل فى إلحاح :

— ولماذا لم تحدثنى أمى عنه إذن ؟ .. لقد كانت تحدثنى كثيراً عن خالى فتعلمت أن أحبه من زمن طويل .. فكيف يمكن أن أحب أبى ، وأنا لا أعرفه ؟ ..

فقلت :

— اوه ! .. ان الأطفال جميعاً يحبون والديهم .. ولعل والدك خشيت أن ترغب فى الذهاب إلى أبك والإقامة معه إذا كثرت من التحدث عنه أمامك . ولكن لنسرع الآن ، فان الركوب مبكراً فى مثل هذا الصباح المشرق الجبل خير من النوم ساعة أخرى ..

— وهل هى ذاهبة معنا ؟ .. تلك الفتاة الصغيرة التى رايتها أمس ..

فأجبتة : كلا .. إنها لن تذهب الآن ..

فأردف يسألني : وهل يذهب خالي معنا ؟ ..

قلت : كلا .. سوف تذهب إلى هناك في رفقتي ..

فعاد يستلقي في فراشه ويدس رأسه في الوسادة ، وتسد
استغرق في التفكير وعلا القطوب أساريه ، وما لبث أن
انخرط في البكاء قائلا :

— اننى لن أذهب من غير خالى .. فما أدراى إلى أين
تريدن أن تأخذينى !

وحاولت إقناعه بأن إظهاره النور من لغاه أبية أمر غير
كريم .. ومع ذلك ظل يقاوم ، في عناد وإصرار ، محاولتى
تهينته للخروج ، حتى اضطرت إلى الاستعانة بالسيد
للإطفاء وملاينته حتى ينهض من الفراش .. وأخيرا قام الغلام
المسكين ، بعد أن بذلنا له الوعود والتأكيدات — الزائفة طبعاً —
بأن غيابه لن يطول ، وأن مستر ادجار وكاى سوف يزورانه
هناك ، وغير ذلك من الوعود « الزائفة » الأخرى التى كنت
أخترعها وأرددها على مسامعه بين وقت وآخر أثناء الطريق
.. وقد أثر فيه الهواء النقي المنعش المحمل بعبير الزهور
البرية ، وأشعة الشمس المشرقة ، والخيب الرقيق للهبر
« ميني » ، باشاعة الأمل والهدوء في نفسه وأحلالها محل
الاضطراب والقتوط .. فلم تمض لحظات على مسيرنا حتى
بدأ يعطرنى بالأسئلة عن بيته الجديد ، وعن قاطنيه ، في
اهتمام وحبوية متزايدن .

فقد استدار ليلقى نظرة أخيرة على الوادى الخمسبب الذى
كان يتصاعد منه ضباب رقيق فيتجمع في سحابة أثسبه
بالقطن المندوف عند حافة القبة الزرقاء ، وما لبث أن سألنى :
— هل « مرتفعات ويذرنج » مكان بهيج مثل « ثرشكروس
جرائج » ؟ ..

فأجبتة :

— إنه غير محاط بالأشجار الكثيفة مثله ، كما انه ليس في
سعته وفسحته .. غير أنك هناك تستطيع أن ترى جبال
الريف حولك على مدى بعيد .. ثم إن الهواء هناك سوف
يساعد على تقدم صحتك ، إذ هو أكثر جفافا وسذوبة ..
ولعلك ، في بادئ الأمر ، تجد المبنى عتيقا قاتما ، مع أنه
منزل محترم يعد ثانى اثنين هما أفضل منازل هذه المنطقة ..
وسوف تستمتع بجولات لطيفة بين الأحرش ، كما أن هيرتون
ايرنشو — وهو ابن خال مس كاى ، وبالتالي يعد قريبا لك —
سوف يريك أجمل المواقع وأروع المناظر .. وسيكون في
وسعك أن تحمل كتابا ، عند ما يكون الجو جميلا ملائما ،
فتتخذ من العشب الأخضر ركنا للدرس والاستمتاع بالقراءة
.. كما أن خالك قد يصحبك في نزهة على الأقدام ، فانه كثيرا
ما يخرج للمشى فوق الللال ..

— وما شكل أبى ؟ .. أهو شاب كخالى ، وق وسامته
وظرفه ؟ ..

— إنه في مثل سنه ، ولكنه أسود الشعر والعينين ، وأكثر
منه عبوسا وصرامة .. وهو أطول نامة ، وأعظم هامة ..

ولعلك لا تجده ، في بادئ الأمر ، رقيقا عطوفا ، لأنه ليس من طبعه أن يكشف عن عواطفه .. ولكن عليك أن تكون معه صريحا ودودا .. ومن الطبيعي أن يزداد حبا لك وولعا بك أكثر من أي عم أو خال ، لأنك ابنته ..

غمغم لينتون :

— أسود الشعر والعينين .. اننى لا أستطيع أن أتصوره .. وعلى ذلك غائى لا أشبهه ، اليس كذلك ؟ ..

— لا تشبهه كثيرا ..

ولكنى قلت في نفسى وأنا أنظر إليه : « بل انك لا تشبهه البتة » .. بينما رحمت أتأمل بشرته الناصعة البياض وجسده النحيل ، وعينيه الواسعتين الناعمتين ، اللتين تشبهان عيني أمه ، إلا أنهما لا يشع منهما أى أثر لروحها الوثابة المتلاثلة ، فيها عدا لحظات خاملة تومضان ليها من أثر المرض الذى ينهكه ..

وتنبهت على صوته وهو يغمغم :

— اليس من العجيب أنه لم يحضر قط لرؤية أمى أو رؤيتى ؟ .. نهل رأتى من قبل ؟ .. إن كان قد فعل ، فلا بد أننى كنت طفلا صغيرا ، لأننى لا أذكر أقل شىء عنه !

فأجبت :

— لا تنس يا سيد لينتون أن ثلاثمائة ميل مسافة عظيمة ، كما أن عشر سنوات تبدو مختلفة في طولها في نظر شخص

كبير عما هى في نظرك أنت .. ولعل مستر هيثكليف كان يعترم الذهاب إليكما من صيف لآخر ، ولكنه لم يجد الفرصة المواتية قط ، حتى غات الأوان الآن .. وأرجو ألا تزعجه بالأسئلة في هذا الأمر ، فإن ذلك سوف يضايقه ، دون جدوى أو فائدة ..

وشغل الغلام بالاستغراق في أفكاره وتأملاته بقية رحلتنا ، حتى وقف بنا المهر أمام بوابة الحديقة عند المزل الربيعى .. ورحت أراقبه خفية لأتبين في أساريره المشاعر التى تخلق بها نفسه ، ثمأيته يتألم الواجبة المنقوشة ، والنوافذ ذات الحواف المنخفضة ، وخمائل عنب الذهب المنثارة ، وأشجار الحور المثالة على سوتها ، في اهتمام بالغ رصين ، ثم يهز رأسه ! .. كانت مشاعره الخاصة تفيض استهجانا للفتنار الخارجى لمقره الجديد ، ولكنه كان من اللباقة بحيث أرجأ تنزهه وشكواه ، لعله يجد في الداخل ما يعوضه عن هذا القبح الذى أثار استنزازه ..

وقبل أن يترجل عن مهرة ، مضيت وفتحت الباب .. كانت الساعة وقتئذ قد بلغت السادسة والنصف ، وكانت الأسرة قد فرغت لتوها من تناول طعام الإفطار ، وأخذت الخادم في إزالة بقايا المائدة وتنظيفها .. وكان جوزيف يقف بجوار مقعد سيده ويتحدث إليه عن جواد أعرج ، على حين كان هيرتون يستعد للذهاب إلى حقل الدريس ..

فلما وقعت أنظار مستر هيثكليف على ، هتف قائلا :

— اهلا بك يا نللى !.. لقد كنت أخشى أن اضطر للذهاب
بنفسي إلى « الجرانج » لأخذ ما أملكه .. ولكنى أراك أحضرته
إلى هنا ، اليس كذلك ؟ .. دعينا نر ما يمكن أن نصنعه به !

ثم نهض من مجلسه ، ومشى إلى الباب بخطواته الواسعة ،
يتبعه جوزيف وهيرتون وقد تملكها الفضول وحب الاستطلاع
.. فأجال لبتون المسكين عينيه المرعاعيتين في الوجوه الثلاثة
التي كانت تتطلع إليه ..

وبدا جوزيف قائلا ، بعد أن تفحصه في صرامة وإيمان :

— يقينا أنه بادللك أيها السيد ، وأرسل لك ابنه هو !

أما هينكليف فقد ظل يحدج ابنه بنظرات متفرسة حتى
أصابته الغلام نوبة من الاضطراب والارتباك ، وعندئذ أطلق
ضحكة ساخرة عالية وهتف يقول :

— ما شاء الله ! .. ما أبهى هذا الجمال وما أروع ! ..
وما أحلاه من « شيء » ساحر فتان ! .. أترينهم كانوا
يطعمونه القواقع واللبن الرائب يا نللى ؟ .. آه ! .. ليحق
الشيطان روحى ! .. ولكن ذلك أسوأ مما توقعت بكثير ..
ويعلم الشيطان أنني لم أكن مغرقا في الأمل والخيال !

تطلبت إلى الطفل الحائر المرتعد أن يترجل عن مجره ، وأن
يدخل البيت .. ولم يكن المنكود قد فهم تماما ما يعنيه حديث
أبيه ، أو هل كان هو المقصود به أم غيره .. والواقع أنه لم
يكن واثقا بعد أن ذلك الغريب المتجهم الذي يفيض لسانه
بالسخرية اللاذعة هو أبوه .. ولكنه تعلق بى وقد ازدادت

رعدته وارتعاشه .. فلما جلس مستر هينكليف وصاح به :
« تعال هنا » أخفى وجهه في ذراعى وانخرط في البكاء ..

نمد هينكليف يده وجذبه حتى أوقفه بين ركبتيه ، ثم
أمسك بذقنه ورفع رأسه عاليا وهو يقول :

— صه .. صه ! .. دعك من هذا الهراء .. إننا لن نؤذيك
يا لبتون .. اليس هذا أسك ؟ .. انك ابن أمك بأكملك !
.. فأين نصيبى فيك أيها الكتكوت البكاء !

ونزع قلنسوة الغلام ، ودفع إلى الخلف غدائره الشسقاء
الكثيفة ، وراح يتحسس ذراعيه النحيلتين وأصابعه الصغيرة
.. وكف لبتون عن البكاء أثناء هذا الفحص الدقيق ، ووقع
عينيه الواسعتين الزرقاوين يفحص بهما فاحصه !

وبعد أن اقتنع هينكليف بأن أطراف الصبي كانت جيبما
سواء في الرخاوة والضعف ، سأله قائلا :

— هل تعرفنى ؟

فأجابه لبتون وفي عينيه نظرة خوف جسوفاء : كلا ..

— لعلك سمعت عنى إذن ؟ ..

فأجابه ثانية : كلا ..

— اتقول كلا ؟ .. ما أتمتع ذلك من أمك ! .. ألم توقظ فيك

قط مشاعر الاحترام نحو أبيك ! .. دعنى أخبك إذن أنك
ابنى .. وأن أمك كانت غابرة شريرة إذ تركتك جاهلا حقيقته
الأب الذى أتجيبك ! .. والآن لا ترع ولا تجفل منى ، ولا تدع

وجهك يحمر هكذا .. ولو ان ذلك يعد شيئا عظيما ان نرى ان الدماء التي تجرى في عروقك ليست بيضاء هي الأخرى .. وكن صبيا طيبا ، اكن لك خير الآباء ..
ثم التفت نحوى قائلا :

— وانت يا نللى .. إذا كنت متعبة فيمكنك ان تجلسي .. وإلا نعودى إلى بيتك ! .. واحسبك سوف تروين كل ما تريته وتسمعيه هنا لصاحب « الجرانج » اللثامه الحميم .. كما ان هذا « الشيء » لن يستقر أو يهدأ ما دمت تحومين حوله .. فأجبتني :

— حسنا .. ولكنى أرجو ان تكون رغيقا بالصبرى يا مستر هيثكليف ، وإلا فإنك لن تستطيع الإبقاء عليه طويلا .. وأذكر انه كل ما لك من قرابة في هذا العالم ، بل كل ما سوف يكون لك ..
فقال ضاحكا :

— لا تخشى عليه شيئا ، فسوف أكون رغيقا به غاية الرقى .. ولكن لا ينبغي لأحد غيرى أن يكون رغيقا به أو مشغقا عليه .. فأبى غيور على احتكار عواطفه لنفسى ! .. وسوف أبدا الرقى به من الآن ! .. اذهب يا جوزيف واحضر طعما لها لإفطاره .. وأنت يا هيرتون ، أيها العجل الشيطاني ، امض إلى عمك !

فلما خرج كل منهما لشأنه ، استطرد يقول :

— نعم يا نللى .. فإن ابنى هو المالك المرتقب لأملاككم .. ولست أود ان يموت قبل أن أكون واثقا من أننى وارثه ! ..

وغضلا عن ذلك فإنه ابنى ، وأريد أن اتمتع بلذة النصر عندها أرى عقبى يصبح الملك الوحيد لضياعهم وأملاكهم ، وعندى أرى ابنى يستخدم أبناءهم ليحرثوا أرض آبائهم وهم فيها أجراء يطلقون أجورهم من يده .. إن ذلك هو الاعتبار الوحيد الذى يجعلنى أطيق هذا الجرو .. إننى أحترقه لتفاحة شخصه ، وأمته للذكريات البنيضة التي يثرها في نفسى .. ولكن هذا الاعتبار الذى ذكرتك لك كاف كل الكتافية ، وهو معى في أمان ، وسيفال من الرعاية ما لا يقل عما بنفسه سيدك على ابنته .. لقد أعددت له حجرة في الطابق العلوى ، وفرشتها بأثاث جميل .. كما عينت له مدرسا ، سوف يحضر ثلاث مرات كل أسبوع من مسافة عشرين ميلا ، ليعلمه كل ما ينبغي ان يتعلمه .. وقد أمرت هيرتون أن يطيع أمره .. والواقع اننى رتبت كل شيء بحيث يظل محتفظا بروح السيادة والسمو على كل من يعيش معه .. ولو أننى أشعر بالأسف العميق إذ وجدته لا يستحق كل هذا العناء .. وإذا كنت قد تمنت شيئا من السعادة في هذه الدنيا ، فهو ان أجد ابنى شيئا ذا قيمة خليقا بالإعجاب والتقدير والزهو .. وها أنذا أجد الخيبة المريرة والفشل الذريع مع هذا التمس الكالح الوجه الذى لا يكف عن الأنين والنواح !

وفىما كان يتحدث إلى ، عاد جوزيف يحمل طبقا من عصيدة اللبن ، وضعه أمام ليتنون الذى ظل يتمايل أمام الطعام التقليدى للمنزل ، وينظر إليه شزرا ، ثم يقول إنه لا يستطيع ان يأكله ! .. ورايت الخادم الشيخ يشاطر سيده

سخريته بالغلام على نطاق واسع ، ولو انه كان مرغما على الاحتفاظ بشعوره في اعماق قلبه ، لان هيثكليف كان جادا في ارقام اتباعه على احترام الغلام واعتباره سيدا ..

فحمل جوزيف في وجه لينتون ، وقال وهو يخفض من صوته خشية ان تسمعه :

— لا تستطيع ان تأكله ؟ .. ولكن السيد هيرتون لم يكن يأكل شيئا سواه قط عندما كان صبيا صغيرا .. وافلسن ان ما يصلح له يصلح لك تماما مثله ..

فاجابه لينتون في لهجة آمرة قاسية :

— إنتى لن آكله .. خذه من هنا ..

فاختطف جوزيف الطبق في حلق واحضره إليسا ، حيث دفع به تحت أنف هيثكليف قائلا :

— هل في هذا الطعام شيء يعيبه ؟ ..

— ما الذى يمكن ان يعيبه ؟ ..

— لست أدري .. ولكن ذلك الصبى الرقيق الاثيق يقول إنه لا يستطيع ان يأكله !! .. واحصيه على حق ، فقد كانت أمه مثله تماما لا تستطيع طعامنا !
فاجابه السيد فاضيا :

— إياك ان تذكر أمه امي .. اذهب فأحضر له من الطعام ما يوافقه ويستطيع ان يأكله ، وهذا كل شيء .. ما هو طعامه المعتاد يا نللى ؟ ..



عاد جوزيف يحمل طبقا من عصيدة اللين ، وضعه أمام لينتون الذى ظل يحمل أمام الطعام التقليدى للمنزل ..

فما ترحت أن يأتوا له بلين ساخن أو قدح من الشاي ،
وسرعان ما تلقت مديرة المنزل التعليمات اللازمة لإعداد شيء
من ذلك .. فسررت ، وقلت في نفسي أن إنائية أبيه سوف
تساهم في تهيئة وسائل الراحة له ، لأنه يرى تكوينه الضعيف
وحاجته إلى أن يعامل في رفق بالغ .. ولسوف ينعزى مستر
ادجار عندما أخبره بالتحول الذي طرأ على خلق هينكليف ..

وإذ لم يعد لي عذر في النوانى والبقاء أكثر من ذلك ، فقد
تسللت خارجة ، بينما كان لينتون مشغولاً ، يرد في حياء
ملاطفات أحد الكلاب .. ولكنه كان من التيقظ والانتباه
بحيث لم يمكن خداعه .. عما كدت أغلق الباب ، حتى سمعته
يصيح ويردد في فزع هذه الكلمات :

— لا تتركينى ! .. لا أريد البقاء هنا ! .. لا أريد البقاء
هنا ..

وعندئذ سمعت صرير المزلاج وهو يرتفع ويهبط ليومس
الباب ، وادركت أنهم يحولون بينه وبين الخروج ، فأسرعت
أمتطى ظهر المهر ، وأستحثته على العدو .

وعلى هذا التحو انتهت مدة حراستى القصيرة للبيت
الصغير ..

الفصل الحادى والعشرون

كانت مهتمة مع كاثي الصغيرة شاقة مؤلمة في ذلك اليوم
.. فقد استيقظت من النوم وهى تفيض مرحاً وسروراً ،
وتلطف إلى لقاء ابن عمها .. وما أن بلغتها أنباء رحيله حتى
راحت تحرف الدمع المرير ، وتنتحب في نسيج اليه ، بحيث
اضطر ادجار نفسه إلى تهدئتها بالتأكيد لها بأنه سوف يعود
ثانية ، وإن كان قد احتاط غاردف قائلاً : « أن استطعت إليه
سبيلاً » ، ولم يكن ثمة أمل في ذلك .. وقد أفلح هذا
الوعد في تهدئة روحها قليلاً ، ولكن الزمن كان اعظم قدرة
وأبعد اثراً .. فعلى الرغم من أنها كانت لا تفقا ، بين الحين
والحين ، تسائل أباها عن موعد عودة لينتون ، فبأنها قبل أن
يقدر لها أن تراه مرة ثانية ، كانت ملامحه قد اختلطت في
ذاكرتها وجللتها غلالة من النسيان ، بحيث لم تعرفه عندما
رأته !

وكانت كلما قابلت مديرة منزل « مرتفعات وبذرنج » عند
زيارتى لقرية « جيبرتون » لقضاء مهمة فيها ، سألتها عن حال
السيد الصغير وصحته ، إذ كان يعيش في عزلة مثل كاثارين
نفسها ، فلا يراه أحد ولا يرى أحداً .. فكانت أستشف منها أنه
ما يزال على ضعف صحته ، وأنه يرغب كثير النكد والمشاكسة
.. وقد ذكرت لى أنه يبدو أن مستر هينكليف يزداد له مع
الأيام كراهية ومقتاً ، وإن كان يجهد في إخفاء ذلك .. فقد
كان شديد النفور من سماع صوته ، ولا يطبق جلوسه معه
في حجرة واحدة أكثر من بضع دقائق ، وقلما كنا يتبادلان

من الحديث أكثر من كهات معدودات .. فقد كان لينتون يستذكر دروسه ويقضى أمسياته في حجرة صغيرة يطلقون عليها اسم « البهو » تجوزا ، أو يمضى يومه كله راقداً في فراشه إذ لم تكن تفرقة نوبات السعال أو البرد أو الأوجاع أو الآلام من نوع ما .. وأضافت المرأة قائلة :

— وما رأيت في حياتي مخلوقاً رعبداً خائر القلب ، أو مغرطاً في الحرص على نفسه بمثل هذا الصبي .. فإنه سوف يموت حتماً إذا تركت النافذة مفتوحة قليلاً عند حلول المساء .. وإذا مسته نومة من نسمات الليل العليلية فإنها سلاح قاتل فتاك ! .. ولا بد من أن توعد له المدفأة في أشد أيام الصيف حرا .. ودخان الطباقي في غليون جوزيف غاز سام سوف يقضى عليه ! .. وهو يمر على أن تكون لديه دواما أنواع مختلفة من الحلوى والقطاير .. أما اللبن فلا يقطع عنه .. اللبن دائما أبداً .. وهو في ذلك لا يعبأ البتة بما يصيبنا من برد الشتاء القارس عندما يغتال نصيبنا منه .. وترينه دائما يجلس في مقعده بجوار المدفأة ، ملتصقا بمعمله ذى الفراء ، وإلى جانبه بعض الفطائر وقدح من الماء أو غيره من السوائل يضعه على رف المدفأة لينظر ساخنا غيرشف منه جرعة بعد أخرى .. وإذا أشفق عليه هيرتون وأنى لبسليه قليلا — وهيرتون طيب القلب ، وإن كان جافا خشنا — فإنها سرعان ما يفرقان وأحدهما بسب ويلمن والثاني ينشج بالبكاء والنحيب ! .. وفي يقيني أن السيد كان خليقا بأن يمر كثيرا لو أن هيرتون ظل يضربه حتى يحيله جثة هابدة ، لولا أنه ابنه . وكذلك أعتقد أنه خليق بأن

يطرده لو عرف نصف ما يفضيه الصبي على نفسه من رعاية وحيلة وتدليل ! .. ولكنه قلما يتعرض لخطر الإغراء بذلك ، فإنه لا يدخل « البهو » قط ، وإذا أظهر لينتون شيئا من هذه الأساليب في حجرة الجلوس حيث يقعد ، فإنه يطرده من الحجرة ويأمره بالمصعود إلى الطابق العلوى على الفور ..

وقد حدثت من هذا الحديث أن حرمان هينكليف الصغير من العطف والحنان كلية قد جعله أنانيا سيء الخلق حتى ولو لم يكن كذلك أصلا .. وهكذا تضائل اهتمامى به ، ولو أننى شعرت بنوع من الأسى لمصيره ، ووددت لو أنه ترك معنا .. وكان مستمر ادجار يشجعنى على الحصول على المزيد من المعلومات عنه ، واحسب أنه كان يفكر فيه كثيرا ، ولا يتأخر عن المجازفة في سبيل رؤيته .. وقد طلب إلى مرة أن أسأل مدبرة المنزل إن كان يأتى إلى القرية أحيانا ؟ .. فعملت منها أنه لم يذهب للقرية إلا مرتين ، راكبا جوادا ، وفي صحبة والده .. وفي كل من المرتين كان يدعى أنه منهوك القوى ثلاثة أيام أو أربعة بعدها ..

وقد تركت تلك المرأة خدمة المنزل — إذا صدقت ذاكرتى — بعد عامين من مجيئه ، وخلفتها أخرى لم أكن أعرفها ، ما تزال هناك حتى الآن ..

ومرت الأيام « بالجرائح » على نهجها المسابق البهيج ، حتى بلغت مس كاتى السادسة عشرة من عمرها .. ولم تكن نحفتى بعيد ميلادها على الإطلاق ، لأنه كان يوافق ذكرى وفاة سيدتى الراحلة .. وكان والدها قد اتخذ لنفسه عادة

لا تتغير ، هي أن ينفرد بنفسه ذلك اليوم في المكتبة ، ثم يسير عند الغسق إلى فناء كنيسة جيروتون حيث يطيل زيارته لقبر زوجته حتى منتصف الليل .. وهكذا كانت كاترين تترك لتحتفل بعيد ميلادها بنفسها ، وبوسائلها الخاصة ..

وفي العشرين من مارس من ذلك العام ، كان اليوم من أيام الربيع الجميلة المشرقة .. فما أن بدا والدها اعتكافه حتى نزلت سيدتي الصغيرة ترتدى ثياب الخروج ، قائلة إنها استأذنت أباه لتقوم بجولة عند أطراف البراري والأحراش معي ، فأذن لها مستر لينتون بذلك ، بشرط أن نذهب إلى مسافة قريبة وأن نعود بعد ساعة ، وأردفت كاترين صائحة :

— أسرعى إذن يا ايلين .. إني أعرف أين أريد الذهب .. حيث يقيم سرب من طيور الأحراش ، أود أن أرى إن كانت قد أقامت أعشاشها بعد ..

فأجبتها :

— لا بد أن يكون ذلك على مسافة بعيدة وارتفاع عال .. فالطيور لا تعشش عند أطراف البراري ..
— كلا .. إنها ليست بمسافة بعيدة ، وقد ذهبت بالقرب منها مع أبي ..

فوضعت قلنسوتى واندفعت معها إلى الخارج ، دون أن أمر الأمر اهتماما أو أفكر فيه مرة ثانية .. وكانت تقفز أمامي فستبقني ، ثم تعود إلى جانبي ، ثم تجرى أمامي من جديد كأنها كلب صيد صغير يرافق صاحبه .. ولقد تملكنتي

— في بادئ الأمر — نشوة من الطرب عندما سمعت أصوات القنابر وهي تصدح من قرب ومن بعد ، واستمتعت بأشعة الشمس الدافئة اللذيذة ، وعندما رحت أرتب طفلي المدللة وبهجتي الغالية ، بفدائرها الذهبية السابحة في الهواء خلفها ، ووجنتيها المتوردتين المتالقبتين ، كأنها في نعومتها وصفائها ونضارتها وردتان بريتان مفتحتان ، وعينيها اللتين تشعمان بهاء وبرحا ولا تظللها سحب المتاعب والأحزان .. كانت في تلك الأيام مخلوقة سعيدة ، وملاكها طاهرا .. وليتها استطاعت ، وقتئذ ، أن نتقن بما كانت فيه !

وما لبثت أن قلت :

— حسنا .. أين طيورك البرية يا بس كاترين ؟ .. كان ينبغي أن تكون عندها الآن ، فقد بعدنا عن بساتين « الجرانج » كثيرا ..

وكانت تجيبني باستمرار :

— آه ! .. إنها غير بعيدة من هنا .. هي على بعد قليل يا ايلين .. تسلقى تلك الرابية ، وأعبري ذلك الجسر ، وما أن تصلى إلى الجانب الآخر حتى تجديني عند الطيور !

وكم من رابية تسلقتها وكم من جسر عبرته ، حتى بدأت أخيرا أحس بالتمتع والإجهاد ، فقلت لها إننا يجب أن نتوقف ونعود أدراجنا .. وكانت قد سبقتنني بمسافة طويلة ، فطلقت أصيح منادية إياها ، ولكنها لم تسمعني ، أو لم تكترث لندائي ، إذ ظلت تقفز هنا وهناك ، حتى اضطرت

إلى تعقبها .. وأخيرا اختفت عن ناظرى داخل تجويف بين التلال ، وقبل أن أراها ثابتة كانت اقرب إلى « مرتفعات وبذرنج » بهيلين عنها إلى منزلها .. وتبينت شخصين يسكان بها ، كان أحدهما - فيها اعتقدت - مستر هيثكليف نفسه .. كانت كائى قد ضبلت مطبسة بسرقة الطيور ، أو على الأمل بالعبث فى أعشاشها ، فإن المرتفعات كانت ضمن أملاك هيثكليف ، وكان من حقه أن يعاقب من يسطو عليها .. فلما بلغت مكاتهم ، وأنا أجر قدمى المكدودتين ، رأيتها ترفع يديها مؤكدة ما تنطق به ، وهى تقول :

— إننى لم آخذ شيئا ، ولم أجد شيئا .. ولم يكن فى نيتى أن آخذها لو وجدتها .. ولكن أبى أخبرنى بوجود الكثير منها هنا فوق التلال ، فوددت أن أرى البيض ..

فمرقتى هيثكليف بانظاره وهو يبتسم ابتسامة شريرة تم عن معرفته من تكون الفتاة ، وبالتالى عن نواياه الخبيثة نحوها ، ثم سأل عن عساه يكون « أبوها » .. فأجابته :

— إنه مستر لينتون صاحب « ثرشكروس جرانج » .. وقد أدركت أنك لم تعرفنى وإلا ما خاطبتنى بهذه اللهجة ! فقال فى سخرية :

— اتحسبين إذن أن أباك على القدر رفيع المائة مونور الاحترام ؟ ..

فراحت كائيرين تحدد فيه بانظارها فى دهشة واستغراب ، قائلة :

— ومن تكون أنت ؟ .. ثم إننى رأيت هذا الرجل من قبل ، فهل هو أبوك ؟ ..

وأشارت إلى هيرتون ، الذى كان ثانى الاثنتين ، والذى لم يكن قد اكتسب إلا زيادة فى الحجم والقوة فضلا عن عامين من عمره ، وإن كان يبدو على ما عهدته فيه من خشونة وجلافة ..

فأسرعت اقاطعها قائلة :

— سوف يطول قيابنا ثلاث ساعات ، يا مس كائى ، لا ساعة واحدة .. ولا بد لنا حقا من العودة إلى المنزل الآن ..

فأجابها هيثكليف وهو يزيحنى جانباً :

— كلا .. إن هذا الرجل ليس أبى .. ولكن لى أبنا رأيتك أنت من قبل أيضا .. ومع أن مربيك فى عجلة ، إلا اننى أرى من الخير لك ولها أن ترتاحا قليلا .. فهل لك أن تدورى حول هذه الدغلة ، وتسيرى إلى منزلى ؟ .. إنكما إذا ارتحتما قليلا فستعودان إلى داركما فى وقت مبكر عما تفعلان لو سرتما الآن .. ثم إنك سوف تلقين منا كل ترحاب ..

فهمست إلى كائيرين انه لا ينبغي إطلاقا أن تلبنى هذه الدعوة ، وأن تلقى فى كلامى بأن هذه الزيارة أمر لا يمكن حدوثه ، فإذا بها تسألنى بصوت عال :

— لماذا ؟ .. لقد تعبت من الجرى ، والعشب هنا ندى لا أستطيع الجلوس فوقه ، فعدعينا نذهب يا ايلين .. ثم إنه يقول إننى رأيت ابنة .. ولكنى أحسبه مخطئا فى ظننه .. وفى وسعى أن أجدس أين يقيم .. فى ذلك المنزل الريفى

الذى زرته أثناء عودتى من « سخور ينستون » ذلك اليوم .. الست تقيم هناك ؟ ..

فاجاب هيثكليف :

— بلى .. وأنت يا نللى ، امسكى لسانك ، فإن زيارتها لنا سوف تكون مبعث سرور لها .. تقدم امامنا يا هيرتون مع الانسة ، اما أنت يا نللى فسوف تسيرين معى ..

فصحت ، وقد أخذت أحاول التلصص من قبضسته على ذراعى :

— كلا .. إنها لن تذهب إلى مثل هذا المكان !

ولكنها كانت وقتئذ توشك ان تصل إلى الدرج الخارجى للمنزل ، بعد ان راحت تركض بأقصى سرعتها حول ادغال الاحراش .. ولكن المعين لرافقتها لم يستمر فى مهمته ، فقد أسرع بالابتعاد عند جانب الطريق واختفى عن الأنظار ..

فاستطردت قائلة :

— إن ما تفعله يا مستر هيثكليف خطأ بالغ الخطورة .. فأنت تعرف أنك لا تضمهر خيرا .. سوف ترى الفتاة لينتون ، وسوف تعود لتروى كل شيء لابيهما بمجرد وصولنا ، وبذلك ينصب اللوم كله فوق راسى ..

— إننى أريدها على أن ترى لينتون ، فإنه بسدو أحسن حالا هذه الأيام ، وهو قلما يكون فى حالة تصلح لأن يراه احد .. وسوف نقتنعا الآن بأن تبقى أمر هذه الزيارة فى طى الكتمان .. فأين الضرر فى ذلك ؟ ..

— الضرر فى ذلك هو أن والدها سوف يحق على إذا تبين اننى سمحت لها بدخول منزلك .. كما اننى مقتنعة تماما بأن لك غرضا خبيثا فى تشجيعها على ذلك ..

— بل إن غرضى شريف على قدر المستطاع ، وسأخبرك بكل تفاصيله فى حراحة .. فانا أريد ان تتوثق المسلة بين ابن العمه وبينت الخال ، وان يتحابا ثم يربط الزواج بينهما .. وإنى فى ذلك أسدى يدا كريمة إلى سيدك نفسه .. فإن ابنته الصغيرة لا أمل لها ولا مستقبل فى وراثته ، فإذا عملت بما يطابق رغباتى فإن ذلك يكسبها الحق فى مشاركة لينتون ميراث خاله ..

— إذا مات لينتون — وهو أمر قريب الاحتمال لان حياته غير مضمونة — فإن كاترين ستكون الوارثة ..

— كلا .. إنها لن تكون الوارثة .. غليس فى الوصية نص يضمن لها ذلك .. وإنما سوف تنتقل أملاكه إلى .. ولكى نضع حدا لهذا الجدل العقيم ، أقول لك إننى أريد أن يتزوجا وقد استقر عزمى على تنفيذ إرادتى ..

فقلت له حائقة :

— أما أنا فقد استقر عزمى على الا تقرب كائى منزلك معى مرة أخرى ..

فأمرنى بأن ألزم الصمت ، إذ كنا قد وصلنا إلى البوابة حيث وقفت مس كائى فى انتظارنا .. ثم سبقنا فى المبر ليفتح لنا باب المنزل .. وكانت سيدتى الصغيرة لا تقا ترمقه بالنظرة تلو النظرة ، كأنها لا تستطيع ان تستقر على رأى قاطع فى حقيقة أمره .. وكان كلما التفت عيناه بعينها ،

ابتسم في وجهها ، وكلما تحدث إليها رقق من صوته في خطاياها .. وقد بلغت بى البلاهة ان تصورت ان ذكرى امها قد تلين قلبه وتحول دون رغبته في إيذائها ..

وكان لينتون يقف بجوار المدفأة ، وقد عاد من نزهته بين الحقول ، إذ كان لا يزال مرتديا قميصه وكان يطلب إلى جوزيف ان يأتيه بحذاء جاف .. وكان قد ازداد طولاً بالنسبة لسنة ، فما زالت تنقصه بضعة أشهر ليبلغ السادسة عشرة .. أما ملاحظه فقد احتفظت بجمالها ، وازدادت عيناه تألقاً ، وبشرته توردا عما أذكره عنها .. ولو انه كان تألقاً وقتياً اكتسبه من الهواء العليل والشمس الساطعة ..

وتحول ماستر هينكليف نحو كاتى ، سائلاً :

— من هذا ؟ .. هل تعرفينه ؟ ..

فراحت تنقل أظفارها بين الواحد والآخر في تشكك ، قبل ان تجيب :

— اهو ابنك ؟ ..

— نعم .. نعم ولكن هل هذه أول مرة ترينه فيها ؟ .. فكرى قليلاً .. آه ! .. إن ذاكرتك ضعيفة خائفة .. وأنت ، الا تذكر ابنة خالك التى اعتدت ان « تهبوسنا » برغبتك في رؤيتها يا لينتون ؟ ..

فما إن سمعت الاسم حتى اضطربت بالفرحة الطاشية والدهشة البالغة وصاحت قائلة :

— ماذا ؟ .. لينتون ؟ .. اهذا لينتون الصغير ؟ .. ولكنه يلوقتنى طولاً الآن ! .. هل أنت لينتون حقاً ؟ ..

فتقدم الفتى نحوها مؤكدا انه يعينه .. فراحت تقبله في حرارة بينما كانا يتبادلان نظرات العجب مما أحدثته الزمن من تغيير في مظهر كل منهما .. كانت كاترين تسد بلغت غاية طولها ، وغدت ملفوفة العود في غير بدانة ، رخصة البدن في قوة فولاذية ، تشع بالصحة والحيوية الدافئة .. أما لينتون فكانت نظراته وحركاته واهنة ضعيفة ، وجسمه مغرط النحول ، ولكن كان في مسلكه ومظهره رشاقة تطف من هذه العيوب ، وتجعله يبدو مقبولاً .

ويعد ان مرغت من تبادل آيات الود العديدة مع ابن عمتها ، مضت نحو ماستر هينكليف الذى كان يقف بجانب الباب ، مقسماً انتباهه بين داخل البيت وخارجه ، متظاهراً بالنظر إلى الخارج وهو في الحقيقة يرقب من في الداخل فحسب .. فهمت على اطراف اصابعها لتقبله وهى تهتف قائلة :

— انك زوج عمى إذن ؟ .. والله لقد احببتك ، برغم عبوسك وتقطيعك في بادىء الامر ! .. ولكن لماذا لا تحضر لزيارة « الجرائج » مع لينتون ؟ .. اليس من العجيب ان تكون جيراناً متلاصقين كل هذه السنين ثم لا تزورنا قط ؟ .. لماذا بالله فعلت ذلك ؟ ..

فاجاب :

— لقد زرت « الجرائج » مرة أو مرتين ، اكثر مما ينبغي ، قبل مولدك .. ولكن رويدك .. يا لعنة ! .. إذا كان لديك الكثير من القبلات ، فوفريها وامنحها للينتون .. فهتكت تضيعينها عبثاً فوق وجهى !

وتركته كاثرين ، وطارت إلى لتهاجمنى بقبلائها المسرفة
وهى تصيح :

— وانتي يا ايلين .. ايتها الخبيثة الشريرة ! .. كم جاعدت
في معنى من الدخول ! .. ولكنى سوف اسير إلى هنا كل
صباح في المستقبل .. هل تسمح لي بذلك يا عماء ؟ .. وهل
احضر ابى معى احيانا ؟ .. هلا يسرك أن ترانا ؟ ..

فاجاب « العم » وهو لا يكاد يستطيع إخفاء الغطوب
الذى علا وجهه ، والفاتج من نفوره من كلا الزائرين :

— آه .. طبعا .. طبعا ..

وما لبث أن واجه السيدة الشابة ، مستطردا :

— ولكن مهلا .. لقد فكرت في الأمر ، ووجدت من الخير
أن اخبرك بالحقيقة .. فإن مسرر لينتون قائم على ، إذ
تشاجرنا مرة في حياتنا ، في ضراوة وقسوة .. ولو ذكرت
له شيئا من قدومك إلى هنا فسوف يعترض بشدة على
زيارتك لنا .. ولذلك أرى أنه لا يجب أن تخبره بهذه
الزيارة ، إلا إذا كنت تلبية الحرص على رؤية ابن عمك في
المستقبل .. إن لك أن تحضري كلما شئت ، ولكن لا تذكرى
له ذلك ..

فسالته في استخذاء : ولماذا تشاجرتما ؟ ..

— كان يرى أننى من الفقر بحيث لا أصلح زوجا كذا
لاخته .. ثم حزن لنورى بها ، واعتبر ذلك إهانة لكبريائه ،
لا يمكن أن يغفرها لى البتة ..

فقالت الفتاة :

— هذا خطأ منه ، وسوف أخيره بذلك يوما من الأيام ..
ولكنى ولينتون لا شأن لنا ولا دخل بمنار عاتكنا .. وما دبت
لن احضر إلى هنا ثانية ، فعليه أن يأتى إلى « الجرائح » ..
فغمغم ابن عمها :

— أن المسامة بعيدة لا استطيع سيرها .. وسوف يقتلنى
المشى أربعة اميال حتما .. كلا .. تعالى أنت إلى هنا يا مس
كاثرين ، بين أن وآخر .. لا كل صباح كما قلت ، بل بسرة
أو اثنتين كل اسبوع !

فصوب هيتكليف نحو ابنه نظرة تفيض بالمرارة والازدراء ،
وهمس يقول لى :

— اغلب ظنى ، يا ايلين ، ان جهودى سوف تذهب هباء ..
فإن « مس كاثرين » ، كما يدعوها هذا الغلام القانع ، سوف
تفطن سريعا إلى حقيقة تيمته ، فتطرحه وراء ظهرها ، أو
تبعث به إلى الشيطان ! .. آه لو كان هيرتون محطه ! ..
اتعلمين أننى كثيرا ما اشتييت لو كان هيرتون ابنى برغم ما هو
فيه من ضعة الآن .. لقد كنت خليقا بأن احب الفتى لو لم
يكن ابن هندلى ! .. ولكنى احسبه بمنجاة من جهها : ..
وسوف أدفع به لمنافسة هذا المخلوق الحقير ، إلا إذا رفض
هذا عن نفسه خموله .. والواقع أننا لا نقدر أنه سوف
يعيش حتى يبلغ الثالثة عشرة .. آه .. لعنة الله على هذا
المخلوق القانع الهزيل ! .. إنه منعمك في تجفيف قدميه ،
ولا يلقى إليها بالا أو اهتماما ! .. لينتون !

فاجاب الصبي : نعم يا ابتاه ..

— اليس لديك ما تصحب ابنة خالك لرؤيته خارج الدار ؟
.. ولو بعض الأرناب او أمشاش ابن عرس ؟ ! .. خذها
يا بنى إلى الحديقة ، قبل أن تستبدل حذاءك ، واصحبها إلى
الاسطبل لترىها جوادك ..

فتبتم لينتوون مخاطبسا كائى فى ثبرات نتم عن نفسوره من
التحرك من مكانه :

— الا تفضلين الجلوس هنا ؟ ..

فتطلعت الفتاة نحو الباب فى نظرات متشوقة ، وبدأ
عليها التلطف إلى الحركة والنشاط ، ثم اجابت فى استحياء :

— لست ادرى حقا !

وظل تابعا فى مقعده لا يفارقه ، بل لقد ازداد انكاشا
والتصاقا بالدفاة .. وعندئذ نهض هينكليف ومضى إلى المطبخ
فاجتازه إلى النساء ، وسمعناه ينادى هيرتون ، وسمعنا
هيرتون يلبى النداء ، وما لبث الاثنان أن دخلا إلى الخجرة ..
وكان الشاب يفتسل كما بدأ فى توهج وجنته وشسعره
الندى ..

فلما رآته مس كائى فكرت ما سمعته من مدبرة المنزل ذات
يوم ، فصاحت قائلة :

— آه ! .. دعنى أوجه إليك سؤالاً يا عماء .. أهذا ابن
خالى حقا ؟ ..

— نعم .. إنه ابن خالك .. أفلا تحبينه ؟ ..

فبدت الحيرة فى أسارير كاترين ، فاستطرد قائلاً :

— الا تجدينه شاباً لطيفاً ؟ ..

فوقلت الفتاة الشقية على اطراف أصابعها وهمست فى
أذن هينكليف بكلمات انطلق على اثرها مقهقها .. فأربد وجه
هيرتون ويان عليه الحرج ، فادركت أنه شديد الحساسية
لكل ما ينم عن الاستهانة بأمره ، وأن لديه فكرة مبسطة عن
مسألة شأنه بالنسبة لهم .. ولكن سيده ، أو حاميه ، يسد
عبوسه بأن قال موضحاً :

— سوف تكون المفضل لديها بيننا يا هيرتون ، فهى تقول
إنك .. ترى ماذا قالت ؟ .. حسناً .. إنه شيء شديد
الاطراء لك .. فإذهب معها ، وطف بها أنحاء المزرعة ، واسلك
سبيل السيد المهذب ، فلا تنطق أمامها بكلمات غير لائقة ،
ولا تحلق فى وجه الأنسة عندما تكون غير منتبهة إليك ،
وأغضض من بصرك عندما تنظر إليك .. وإذا تحدثت
إليها فانطق بكلماتك فى ببطء ووضوح ، ولا ترفع يديك فى
جيبوك .. هيا .. اذهب معها الآن ، وكن معها مضيئاً رقيقاً
على قدر ما تستطيع من لطف ورقة !

ثم أخذ يرقبها وهما يبران أمام النافذة ، فإذا هيرتون
أبرنشو، قد أشاح بوجهه تماماً عن رفيقته ، وقد بدأ كأنها
يدرس المناظر الممتدة أمامه ، والمألوفة لديه ، فى اهتمام
شخص غريب يراها للمرة الأولى ، أو استغراق غنان يرى
فيها ما يشوقه ..

وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفى ، في نظرات تنم عن الإعجاب به إلى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه إلى البحث عن الأشياء التي تثير فضولها وتسليتها ، وهي تتواكب من مكان لآخر ، وتترنم ببعض الألحان تعويضا لها عما يموزها من حديث بسبب همت رقيقها ..

ومضى هيتكليف يقول لى :

— لقد ربطت لسائنه ، فلا يجزؤ على النطق بكلمة واحدة .. هل تذكرينى يا نللى عندما كنت فى مثل سنه .. لا .. بل اصفر منه ببضع سنين ؟ .. وهل ظهرت قط بمثل هذا الغباء ، او هذا « التمتع » كما يسميه جوزيف ..

— بل اسوا منه .. لانك كنت اكثر تجهبا وعموسا !

فتابع كلامه ، كأنها يحدث نفسه ، او ينطق بما يجول بخاطره :

— إتنى أجد فيه ما يسرنى ويشغنى غليلى ، ويرضى كل ما علقته عليه من آمال ! .. ولو انه ولد ابله او معنوها لما شعرت بنصف ما استمتع به الآن من سرور ورضى .. ولكنه ليس معنوها .. وفى وسعنى ان أرشى لكل ما يخالجه من مشاعر واحاسيس ، لأننى انا نفسى عاتبتها يوما من الأيام .. واتى اعلم كل ما يكابده الآن تبالا .. ولكنها ، مع ذلك ، مجرد بداية لما سوف يكابده ويعانيه فيها بعد .. ولن يكون فى قدرته قط ان ينتشل نفسه من اعماق الجهالة والجلالة التي تردى فيها .. فقد استطعت ان اظفر به بأسرع مما



وراحت كاثرين ترمقه من طرف خفى ، في نظرات تنم عن الإعجاب به الى حد ما ، ثم ما لبثت أن انصرفت عنه ..

ظفر بي والده الوغد ، وان ارمى به إلى اخط مما رماي ..
 فإنه بتيه فخرا بجلافته وغطاظنته .. وقد علمته كيف يسخر
 ويزدرى كل ما ليس حيوانيا ، وان يعده سخفا وشعفا ..
 افلا تظنين ان هندلي كان يمكن ان يفخر كثيرا بابنته ، لو اتيح له
 ان يراه الآن ؟ .. الا يفخر بابنته مثلما افخر انا بابني هذا ؟
 .. ولكن هناك فرقا شاسعا بينهما .. فاحدهما ذهب خالص
 ولكنه يستخدم كبعض حجارة الطريق .. والثاني مسبيح
 رخيص ولكنه يستل ليحاكي آتية من اللبنة ! .. ان ابني
 خلو من اى شىء ذى قيمة ، ومع ذلك فاننى استحق الثناء
 إذ اجعله يمشى إلى ابعد ما يمكن لشىء ثانه مثله ان يبلغه ..
 اما ابنته هو فان له ميزات وصفات من الطراز الاول ، ولكنها
 ضائعة .. وقد تيرت وطيرت في التراب حتى غدت اسوا
 من عندها .. فاننا ليس لدى ما اسف عليه .. ايا هو فإني
 خليق بان يكون اشد اسفا واسى من اى إنسان عرفته ..
 واحسن ما في الأمر ان هيرتون مولع بي ولما شديدا .. ولعلك
 تعترفين باننى في ذلك قد بزرت هندلي وتفوقت عليه ..
 فلو ان الوغد الميت استطاع ان يقوم من قبره ويأتى ليناقتسنى
 الحساب على ما فعلته بولده ، لاطلج صدرى برؤية ذلك الولد
 نفسه يهاجمه حتى يرده إلى قبره ، وقد احقته انه جرؤ على
 الاعتداء على الصديق الأوحيد الذى له في هذه الدنيا !

واطلق هينكليف ضحكة شيطانية إعجابيا بهذه الفكرة ! ..
 ولم أحر جوابا ، لاننى رايت انه لم يكن ينتظر الجواب ..
 وفي الوقت نفسه كان رفيقنا الصغير - الذى كان يجلس
 بعيدا عنا بحيث لم يسمع ما قاله أبوه - قد بدأ يتلمل في
 مقعده ويظهر علامات القلق .. ولعل ذلك كان ندبا منه
 إذ حرم نفسه من متعة اصطحاب كاثرين خشية ان يناله
 بعض التعب .. ولاحظ أبوه نظراته القلقة الهائمة من خلال
 النافذة ، ويده المترددة وهي تمتد نحو قبعته وترتد عنها ،
 فصاح به في حرارة مصطنعة :

— قم ايها الولد الكسول ، والحق بهما .. إنهما الآن عند
 ركن المنزل ، بجوار خلايا النحل !

فاستجمع لينتون همته الخائفة ، وغادر مكانه بجوار المدفأة
 .. وكان الباب مفتوحا ، ونبها كان يجتازه إلى الخارج
 سمعت صوت كاثرين تسأل رفيقها المستوحش عن تلك
 الكتابة المنقوشة فوق الباب .. فراح هيرتون يحلق بانظاره
 إلى النقوش ، وهو يحك رأسه في بلاهة تفوق بلاهة مخرجي
 الملاعب .. وما لبث ان اجاب :

— إنها كتابة لعينة ، ولا استطيع قراءتها !

فصاحت كاثرين :

— لا تستطيع أن تقرأها ؟ .. إننى أقرؤها بسهولة ، فإنها
كتابة إنجليزية .. ولكنى أريد أن أعرف سبب وجودها فوق
الباب .

وعندئذ تفهقه لينتون طريا ، وكان ذلك أول مظهر يبيده
من مظاهر السرور والانتشراح ، ثم قال لابنة خاله :

— إنه لا يعرف الحروف الأبجدية ! .. فهل يمكنك أن
تصدقى وجود مثل هذا الجهل الفاحش ؟ ..

فسألته مس كاشى فى جد واهتمام :

— هل هو شخص طبيعى مكتمل العقل كما ينبغي أن
يكون ؟ .. أم أنه غر ساذج به شذوذ ؟ .. لقد بقيت عليه
سؤالين منذ قليل فكان يبدو فى كل مرة من الغيباء بحيث
حسبته لا يفهمنى .. أما أنا فأتى لا أستطيع فهمه حقا !

فأبعت لينتون يشحك من جديد ، وهو يرمى هيرتون
بنظرات الشماتة والتشفى ، وكان من المؤكد أن الفتى فى تلك
اللحظة لم يكن يبدو مجردا من ملكة الفهم ..

ومضى لينتون يقول :

— ليس به من شئ سوى البلادة والكسل ، اليس كذلك
يا إيرنشو ؟ .. إن ابنة الخال تحسبك أبه أو غيبيا ، وهكذا

تلقى عواقب سخريتك بما تسميه : « تعليم الكتب » .. ثم
هل لاحظت يا كثيرين طريقة نطقه المروعة ، على غرار العوام
من أهل يوركشاير ؟ ..

لمزجر هيرتون قائلا ، وهو أسرع بديهته فى إجابة ريفته
الدائم :

— وما الفائدة منها بحق الشيطان ؟ ..

وكان يهم بالضى فى زمجرته شأوا بعيدا ، لولا أن الشابين
أصابتهما نوبة من المرح الصاخب ، فانتجرا فى قهقهة
متواصلة ، وقد طربت آتسى الطائشة إذ تبينت أنها تستطيع
أن تجعل من لهجته الغريبة الريفية موضعا للمرح والتسلية .
وقال لينتون وهو يضحك ضحكة ناعمة خبيثة :

— وما فائدة « الشيطان » فى هذه العبارة ؟ .. لقد أترك
أبى بالا تفوه بأية كلمات غير لائقة ، وما أنت لا تستطيع أن
تفصح نمك دون أن تلوك واحدة منها ! .. هيا .. حاول أن
تسلك بمسلك السادة المهذبين ..

مصاح الشاب الريفى حانقا :

— لو لم تكن أترب إلى الفناة منك إلى الفتى لتضيت عليك
فى التو واللحظة ، أيها المخلوق التافه الهزيل !

ثم أسرع بالابتعاد عنها وقد اشتعل وجهه بنيران الغضب والمذلة معا ، فقد كان يشعر بعمق الإهانة التي أصابته ، وبمعجزه عن الأخذ بثأره ..

وكان مستر هينكليف قد سمع هذا الحوار ، كما سمعته ، فابتسم مقتبعا إذ رآه ينصرف عنها ، ولكنه أعقب ذلك بنظرة غريبة تفيض بالتفوق والكرهية ، حدرج بها ابنه ورغيقته الثرثارين ، اللذين مضيا في حديثهما عند مدخل البيت ، وقد وجد الفتى ما ينعشه ويثير حيويته في الحديث عن أخلاء هيرتون ونقائمه ، ورواية الأقاويص عن تصرفاته ، كما استطابت الفتاة أقواله البذيئة الحقود دون أن تنتبه إلى ما تتم عليه من سوء العلوية .. وعندئذ بدأت اكره لينتون ، أكثر مما كنت أرش له ، وعذرت أباه في احتقاره واستتصغار شأنه ..

ومكثنا هناك حتى العصر ، إذ لم يمكثي أن انتزع مس كائني قبل ذلك .. ولكن من حسن الحظ أن سيدي لم يكن قد غادر حجرته ، فظل جاهلا غيبتنا الطويلة .. وكنت انظف على اطلاع الأنسة الشابة على حقبقة أخلاق الناس الذين غادرنا بيوتهم ، ولكنها كانت قد وضعت في رأسها أنني متحايلة عليهم ، فصاحت قائلة :

— أه ! .. انك تتحازين إلى جانب أبي يا أيلين .. ولقد

تبينت الآن مقدار تحيزك ، وإلا لما خدعنتي كل هذه السنين بزعمك لي أن لينتون يقيم في مكان بعيد جدا .. إنني شديدة الغضب منك حقا ، غير أن سروري اليوم يطفئ على غضبي فيحول دون انفجاره ! .. ولكن عليك أن تمسكي لسانك عن زوج عمي ! .. إنه عمي ! .. فاذكري ذلك جيدا وحذار أن تنسبه ! .. أما أبي فسوف اعاقبه على شجاره معي !

وانطلقت في الحديث على هذه النغمة حتى اضطرت إلى التخلي عن كل محاولة لإقناعها بخطئها .. ولم تذكر شيئا عن الزيارة في تلك الليلة ، لا شيء إلا لأنها لم تر مستر لينتون .. ولكن في اليوم التالي المتضح السر كله ، لمسرح كريبى وغشى !

ومع ذلك غرّب ضارة نافعة ! .. فلم يكن الأمر من السوء كما تصورت .. إذ فكرت في أن مستر لينتون اقتدر متى على حمل مسؤولية التوجيه والتحذير ، وأقوى منى تأثيرا عليها .. غير أنه كان كثير التردد والتهيب في إقناعها بالأسباب القوية التي تبرر رغبتة في قطع كل صلة لها بأهل « مرتفات ويدرتج » ، كما كانت كاثرين لا تقنعها سوى المبررات القوية لكل قيد يفرض على حريتها أو يحد من رغباتها المدللة !

فما كادت تحببه تحية الصباح ، في اليوم التالي ، جتى هفتت قائلة :

— هل بوسعك ، يا ابناه ، أن تحدد من رأيت بالأمس في
مزهتي بين الأحرار ؟ .. آه ! .. أراك جعلت يا ابني ! .. وقد
خانتك الحذر الآن ، اليس كذلك ؟ .. حسنا ، لقد رأيت ..
ولكن أصغ إلى وسوف تسمع مني كيف كشفت أمرك ، وأمر
إيلين — حليفك — التي كانت ، مع ذلك ، تتظاهر بالاشفاق
على ، عندما كنت أعزل النفس بالأمل ويستبد بي القلق نحو
عودة لينتون إلينا ثانية !

ثم مضت تروي القصة الامينة الكاملة لرحلتها وما انتهت
إليه .. أما السيد ، فعلى الرغم من أنه كان يرمقني بنظرات
التأنيب أكثر من مرة ، إلا أنه لم يقل شيئا حتى فرغت من
قصتها ، وعندئذ جذبها إليه وسألها إن كانت تعرف لماذا
أخفى عنها وجود لينتون في جوارنا القريب ؟ .. وإن كانت
تظن ذلك لمجرد أنه يابئ عليها متعة بريئة لا ضرر ولا حرج
من استئمانها بها ؟ .. فأجبتها :

— لقد كان ذلك لأني تكره مستر هينكليف ..

— إذن فأنت تعتقدين أنني من الاتانية بحيث أهتم
بمشاعري أكثر من اهتمامي بمشاعرك يا كائني ؟ .. كلا .. لم
يكن ذلك لأنني أكره مستر هينكليف .. بل لأن مستر
هينكليف هو الذي يكرهني ، ولأنه أقرب الناس إلي الإبالسة
والشياطين ، يجد لذته في الإساءة إلي من يبعضهم وتدميرهم

تدميرا عند أول فرصة يتيحونها له .. وكنت أعرف أنه ما من
سبيل أمامك إلى توثيق عرى الود مع ابن عمك دون أن
تتصلى به وتلقيه .. وكنت أعرف كذلك أنه سوف يبغضك
لأنك ابنتي .. وهكذا اتخذت وسائل الحيلة حتى لا ترى
لينتون ثانية ، لمصلحتك أنت ، لا لى سبب آخر .. وكان
في نيتي أن أشرح الأمر كله يوما من الأيام عندما تكبرين ،
ويؤسفني أنني توائمت في ذلك ..

مغالت كثيرين ، وهي لا تبدو مقنعة تماما :

— ولكن مستر هينكليف كان ودودا في ترحيبه بي
يا ابناه ! .. ولم يبد أي اعتراض على لقاء أحدا بالآخر أو
رؤيته له .. بل قال إن بوسعي الحضور إلي منزله كلما
طلب لي ، على الا أخبرك بذلك ، لأنك كنت قد تشاجرت معه ،
ولن تغفر له زواجه من عمتي أيزابيلا .. أما أنت فلا تسمح
لي بذلك .. فأنت وحدك الملوم الآن يا ابني ! .. إنه ، على الأقل ،
راض عن توطيد صداقتنا ، أنا ولينتون .. أما أنت فتقف
في سبيلها !

وإذ رأى السيد أنها لا تريد أن تصدق ما يتصف به زوج
عمتها من خلق شرير ، راح يروي لها في إيجاز مسلكه مع
أيزابيلا ، ووسائل الغدر التي تبك بها « مرتفعات ويدرتهج » !
ولم يكن يطبق المضي في هذا الحديث طويلا ، لأنه على الرغم

من ثمة ما ذكره عنه ، إلا أنه كان يحس نحو عدوه القديم بذلك
الروع نفسه وتلك اليغضاء ذاتها اللذين كانا يملآن قلبه منذ
وفاة مسز لينتون .. كان لا يفتأ يردد في فكره تلك العبارة
المريرة : « كان يمكن أن تظل على قيد الحياة حتى الآن ،
لولا ما فعله بها » فكان هيثكليف يبدو في عينيه قاتلا سفاكا
.. ولكن من كائى - التى لم تعرف من أنواع الشرور سوى
اناعيلها الصغيرة التافهة ، من العميان أو المسف أو الانفعال ،
التاجحة عن طبعها الحامى ، وطيشها المسيانى ، والتى كانت
تندم عليها يوم حدوثها - ذهلت واستبدت بها الدهشة من
هذا « القلب الأسود » الذى يستطيع أن يجتر الحقد
والضغينة ، وينطوى على نية الانتقام كل هذه السنين ،
ويتابع تدبير الخطط فى صبر وعزم دون أن يلم به شبح من
تأنيب الضمير ! .. وبدت من التائر والنسيق بهذا المظهر
الجديد من مظاهر الطبيعة البشرية - وهو شيء لم يسبق
لها أن ترات عنه فى دراساتها ، أو خطر ببالها حتى الآن -
بحيث فضل مستر أديجار أن يكف عن متابعة الكلام فى هذا
الموضوع ، فاكنتى بأن ينهى الحديث بقوله :

- سوف تعرفين فيما بعد ، يا عزيزتى ، لماذا أود أن
تتجنبى منزل هذا الرجل وعائلته .. أما الآن ، فعودى إلى
مشاغلك وملاهيك السابقة ، ولا تفكرى فيهم بعد ذلك قط ..

فقبلت كاترين أباهما ، وعكنت على دروسها فى هدوء زهاء
ساعتين كعادتها ، ثم صحبتها فى جولة بين الحقول .. ومضى
اليوم كله كما تمضى سائر الأيام .. غير أننى عنسما أوت
إلى جسرتها فى المساء ، ولحقت بها لاساعدها فى إسدال
ثيابها ، وجدها راكعة بجوار الفراش وقد انخرطت فى
البكاء ..
متعجبت من ذلك ، وهنتت بها قائلة :

- واهالك من طفلة بلهاء ! .. لو أنك ذقت شيئا من
الأحزان الحقيقية ، لخلجت من إراقة دبعة واحدة سدى
لمثل هذه المعارضة التافهة لرغباتك ! .. فاحدى الله ،
يا مس كاترين ، على أن حياتك خلو من أى حزن جوهرى ،
أو ظل لمثل هذا الحزن .. وفكرى لحظة لو أن السيد ، وأنا ،
تضينا نجينا ، ووجدت نفسك وحيدة فى هذا العالم ،
كيف يكون شعورك عندئذ ؟ .. قارنى بين ظروفك الحالية
ومثل هذا المصاب الجلل ، واحدى الله على ما أولاك من
اصدقاء يحبون لك الخير ويسهرون على سعادتك ، بدلا من
إراقة عبراتك فى اشتهاه المزيد من الاصدقاء !

فأجابت :

- إننى لا أبكى من أجل نفسى يا ايلين ، وإنما من أجله هو

.. لقد كان يتوقع أن يرانى ثانية غدا ، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل شديدة .. وسوف يطول انتظاره عينا ..

— هراء ! .. مهل تحسبته يفكر فيك بمثل تفكير فيه ؟ .. اليس لديه رقيق هو هيرتون ؟ .. انك لا تجددين واحدا في المائة من الناس بيكى فقد قريب له لم يره اكثر من مرتين في امسيتين متباعدين ! .. وسوف يدرك ليهتون حقيقة الامر ولا يشغل نفسه بالتفكير فيك بعد ذلك ..

فاستوت قائلة ، وهي تقول :

— ولكن هل لى ان اكتب إليه رقعة صغيرة ابين له فيها السبب في عدم حضوري ، وارسل له معها هذه الكتب التى وعدته بإعارتها له ؟ .. إن كتبه ليست في مثل طرافة كتبى ، وكان يتلف على الحصول عليها عندما حدثته عن جمالها وما فيها من بهجة وتسلية .. هل يمكننى ان اكتب إليه يا ايلين ؟ ..

فاجبتها في حزم :

— محال ان يحدث ذلك .. ولن يحدث قط .. تكتبين إليه ، فيكتب إليك ، ثم لا يقف الأمر بعد ذلك عند حد ؟ .. كلا يامس كاثرين .. ان هذه الصلة يجب ان تقطع نهائيا ، نهكذا يتوقع أبوك منك ، وسوف اعمل على تنفيذ مشيئته ..

فبدأت تلح من جديد ، وقد اكتست أسرارها بطابع التوسل والرجاء :

— ولكن يمكن لرسالة صغيرة واحدة ان ..

غير انى قاطعتها في صرامة :

— صه ! .. إننا لن نعود إلى الحديث عن رسالتك الصغيرة .. هيا إلى الفراش !

عندئذ رمقتنى بنظرة تقطر سما ، حتى لقد بلغ من أثرها في نفسى اننى لم اقبل في يادى الأمر على تقبيلها كعادتى كل مساء ، واكتفيت بإحكام الغطاء فوقها ، ثم اغلقت عليها الباب وقد ركبى هم عظيم .. ولكنى ترددت في منتصف الطريق ، ونذبت على مسلكى ، فعدت إليها في هدوء .. ويا للبهجة ! .. كانت الانسة تقف بجوار المنضدة وأمامها قطعة من الورق الأبيض ، وفي يدها قلم من الرصاص أسرعرت بإخفائه عند دخولى ، وهى تشعر بذنبها .. وعندئذ بادرتبا قائلة :

— انك لن تجدى من يخجل هذه الرسالة يا كاثرين ، لو استطعت كتابتها .. ولكنى الآن سوف اطفى الشمعة وادعك في الظلام ..

وعندما مددت يدى بقصبة الإطفاء لأخمد ضوء الشمعة

المعلقة ، تلقت لطمة شديدة على يدي ، وسمعتها ترمجر
في سخط « ايها الشريرة ! » .. ولكني لم التقي إلى الأمر
بالا ، وغادرت الحجرة في سكون .. وعندئذ اوصدت المزلاج
في صنف شديد ، وقد تملكها نوبة من نوبات الفزع
والمشاكسة المألوفة منها ..

ومع ذلك فقد اتيت رسالتها وبعثت بها إلى المرسل إليه
مع غلام لبان كان يحضر من القرية إلى « الجرائح » .. ولكني
لم اعلم ذلك إلا بعد انقضاء بعض الوقت .. فقد مرت
الأسابيع ، واستعادت كائي مرحها وانشراحها ، وإن كانت قد
غدت مولعة ، إلى حد عجب بالتسلل إلى الأركان والافتراء
بنفسها .. وكنت إذا اقتربت منها فجأة ، وهي مستغرقة
في القراءة ، أجدها تجفل وتضم الكتاب إلى صدرها كأنها
تحاول إخفاءه ، وغالبا ما كنت ألمح أطراف أوراق منفصلة
تطل من بين صفحات الكتاب .. بل لقد اتخذت لنفسها عادة
جديدة ، وهي التبكير في مغادرة حجرتها والنزول إلى المطبخ
حيث تظل تحوم حوله كأنها تنتظر وصول شيء لا أدري كنهه ..

وكان لها في إحدى خزائن المكتبة درج صغير تظل تعبت
بمحتوياته ساعات طويلة وتحرض كل الحرص على أخذ
مفتاحه معها كلما انصرفت عنه .. فحدث ذات يوم ، بيننا
كانت منهكة في التنقيب في درجها ، أن حانت مني نظرة

إلى الدرج ، فإذا بلعبها التي كانت تملؤه قد اختفت وحلت
محلها بضعة من الأوراق المطوية .. فثار فضولي ، بل
وشكوكي ، وعولت على أن التقي نظرة على كتوزها الخفية ..
وهكذا ما كادت هي والسيد ياويان إلى حجرتيها ذات ليلة ،
حتى رحلت أبحث بين مفاتيحي حتى وجدت منها واحدا
يفتح قفل ذلك الدرج ، ففتحته وأمرغت محتوياته جميعا
في مبدعي ، ثم أخذتها إلى حجرتي لأحصيها على مهل ،
وفي مأمن من المفاجأة .. ومع أنني كنت أرتاب في الأمر
إلى حد ما ، فقد كانت دهشتي بالغة إذ تبينت في تلك
القصاصات مجموعة من الرسائل - لأبد أنها كانت يومية
تقريبا - من لينتون هيثكليف ، كان معظمها ردودا على رسائل
بعثت بها إليه .. وكانت الرسائل الأولى متضعبة يبدو فيها
التعثر ، ولكنها ما لبثت أن تحولت تدريجيا إلى رسائل غرام
غزيرة العاطفة ، مليئة بالسذاجة التي تهرها سن كاتبها ،
وإن كان بعضها ، مع ذلك ، يحوى لمسات رائعة أيقنت أنه
استعارها من مصدر أوفر خبرة وحسنا ! .. وراعتني أن
الفيت بعضها خليطا بالغ الغرابة من الحرارة والصراحة ،
يبدأ بالمشاعر القوية وينتهي بالعاطفة المشبوبة ، في ذلك
النوع من الكلمات التي قد يستخدمها طالب حدث في مناجاة
حبيبة روحانية من حوريات السماء ! .. ولست أدري إن
كانت هذه الرسائل قد اشبعت كائي وأرضت بشاعرها ،

ولكنها كانت في نظري من سقط المناع ! .. ويعد أن تلبت فيها حتى اكتفيت ، جمعتهما في مسديل أخيفته عنسدى ، ثم عدت فاوصدت الدرج على خواء ..

ونزلت سيدتى الصغيرة مبكرة ، على عاداتها ، وأخذت تحوم حول المطبخ ، فترحت أرقبها من طرف خفى حتى رأيتها تذهب إلى الباب ، في اللحظة التي قدم فيها غلام مسفر معين .. وبينما كانت الخادمة تملأ له قدر اللبن ، رأيت كائى ندس شيئا في جيب ستوته ، وتلتقط شيئا آخر من الجيب نفسه ، في حركة سريعة خفية .. فتسللت ودرت حول المنزل إلى الحديقة ، وتربصت للرسول ، الذى راح يدافع في نضال المسهيت عن وديعته ، حتى انسكب اللبن على الأرض أثناء صراعه معى ، ولكنى افلحت أخيرا في انتزاع الرسالة منه ، وانذرت به سوء العاقبة إذا لم يعضى إلى منزله قدما لا يلوى على شيء .. ثم انزويت بجوار الجدار ورحت أقرأ رسالة مس كائى الغرامية في إيمان ، فوجدتها أشد بساطة واعظم بلاغة من رسائل ابن عمها .. كانت رسالة رائعة ، والحق يقال ، على رغم الحماسة التي كانت تنضج بها .. فهززت رأسى وكررت عائدة إلى المنزل أقلب وجوه الرأى في هذا الأمر ..

وكان اليوم مطرا ، فلم تستطع كائى القيام بنزهتها المعتادة

في البستان .. وهكذا ما كادت تفرغ من دروس الصباح ، حتى لجأت إلى الدرج المعهود تنشد فيه تسليتها .. وكان أبوها جالسا إلى جوار المائدة منهبكا في القراءة ، أما أنا فقد تعمدت الاستغفال برتق أهداب سقائر النافذة ، ورحت أرقب حركاتها بعين لا تغفل ..

وما من طائر عاد إلى عشه ليجده خاويا وقد عانت غيبه يد عدو أثيرم ، بعد أن كان قد تركه مليئا بأفراخ صغار تشيع فيه البهجة بزقزقتها الصداحة ، بمستطيع أن يعبر عن اليأس القائل والحزن المرير ، في صرخانه وخفقات أجنحته ، بأكثر مما فعلت كائى بثلك الشبهة الواحدة التي انطلقت من صدرها ، وذلك التحول الفجائى الذى اعترى أساريرها السعيدة فبدلها تبديلا هائلا مروعا ..

فرجع مستر ليتنون رأسه وهتف بها قائلا :

— ماذا حدث يا حبيبتى ؟ .. هل جرحت نفسك ؟ ..

فتحقتت من لهجته ونظرتة أنه لم يكن مكتشف ذخيرتها ، فقالت لاهنة :

— كلا يا أبى .. لا شيء .. ايلين ! .. ايلين ! .. تعالى

معى إلى الطابق العلوى فإنى مريضة !

لملبت دعوتها وصحبها إلى خارج المكتبة ، فما كدنا نبلغ
البهو العلوى وتوصد الباب خلفنا حتى هوت على ركبتيها ،
وهفت قائلة :

— اواه يا ايلين ! .. انت التي اخذتها ! .. اه .. رديها
إلى ، ولن افعل ذلك مرة أخرى .. لن افعل ذلك ابدا ..
ولكن لا تخبرى أبى .. انك لم تخبرى أبى يا ايلين ؟ ..
تولى انك لم تخبريه بالأمر ؟ .. لقد كنت مغرطة في الحياقة ،
ولكنى لن افعل ذلك بعد الآن قط !

فخاطبتها في رصانة وحزم وطلبت إليها أن تنهض قائمة ،
ثم قلت :

— إذن فقد مضيت في هذا الأمر شأوا بعيدا والخفاء ،
كما يسدو الآن يا مس كاثرين ! .. لقد كان الاجدر بك أن
تخلى منها ، فلا تطلبها ثانية ! .. غيالها من حزمة لطيفة
بن الغفاهات تلك التي تقضين ساعات فراغك في دراستها
وحفظها ! .. ولماذا ؟ .. إنها خليقة بأن تطبع وتنشر ! ..
وماذا تحسبين السيد يرى فيها عندما أنثرها تحت ناظريه ؟
.. إننى لم اطلمعه عليها بعد ، ولكنى لا اخالك نظنين لحظة
لأننى سوف احفظ أسرارك المخحكة هذه ! .. يا للعار ! ..
لابد أنك انت التي خطوت الخطوة الأولى في تبادل هذه

السخافات ، فأتى موقنة من أن الفتى ليس خليقا بالتفكير في
مبادئك بها !

فراحت تنسج بالبكاء وقد اشحقت قلبها ، وهى تقول :

— إننى لم افعل .. لم افعل شيئا من ذلك .. ولم افكر
بوما واحدا في حبه قبل أن ..

فقاطعتها صائحة بكل ما وسعنى من الاستنكار والازدراء :

— حبه ؟ .. ما شاء الله ! .. اتقولين « حبه » ؟ .. وهل
سمع احد بشيء كهذا ؟ .. ان في وسعنى ان اجاريك فأتحدث
عن حب الطحان الذى يحضر مرة كل عام ليشتري منا الغلال !
.. ما أجمله من حب ، حقا ! .. انك لم تقضى من حياتك
في المرتين اللتين رأيت فيها لبيتون أكثر من أربع ساعات !
.. فكيف تتكلمين عن الحب إذن ؟ .. هذه هى تغاهاتك
الصبيانية ، وسوف اذهب بها إلى المكتبة ، وسارى ما الذى
يقوله أبوك عن مثل هذا الحب !

فوثبت على يدي لتنتزع منى كنزها اللين ، ولكنى رفعته
إلى ما فوق رأسى ، وعندئذ بدأت في نميض من التوسلات
التي انطلقت من فمها في حرارة ولهفة ، راجية منى أن أحرق
الرسائل او افعل بها أى شيء إلا أن اطلع أباها عليها .. وإذا
كنت في الحقيقة أميل إلى زجرها وتعنيفها بمثل مبلى إلى
الضحك منها (لأننى كنت أقدر أن الأمر كله لا يعدو نزق
الفتيات الصغار وغرورهن) فقد تظاهرت بالتفكير في الأمر
برهة ، ثم سألتها قائلة :

— إذا رضيت بحرقها ، فهل تعديتني وعدا حسادقا بالأنا
تبعثني إليه أو تتلقى منه رسائل أو كتباً — لأنني أرى أنك قد
أرسلت إليه بعض الكتب — أو خصلات شعر أو خواتم أو
لعبا ؟ ..

فصاحت كالثورين وقد طفغت الكبرياء على خجلها :

— إننا لا نتبادل اللعب !

— أو أى شيء آخر يا سيدتى العزيزة إذن .. وسوف
أذهب إلى إيبك الآن ما لم تبذلي لى هذا الوعد نوا ..
مهلت قائلة وهى تتشبه بثوبى :

— إننى أعدك يا إيلين .. فهيا ضعيها فى الفار .. هيا ..
هيا ..

ولكننى عندما شرعت فى افسساح مكان بين قطع اللحم
بمحرارك النار ، كانت التشحية أكثر من أن تطبق الفتاة احتمال
آلامها ، فراحنت تتوسل إلى بان أبقى على واحدة أو اثنتين
من الرسائل ، قائلة وقد تمزق قلبها :

— واحدة أو اثنتين فقط يا إيلين ، من أجل خاطر لينتون !
ولكننى مضيت فى مهتى الأليمة ، ففتحت ركن المنديل
وبدأت أسقط الرسائل فى النار واحدة بعد الأخرى ، والسنة
اللهب تعلق فى المدفأة أتواسا ..

فصرخت كالثورين ودفعت يدها وسط النيران فأخرجت
بعض الأوراق التى لم تجهز النار عليها واحترقت أطرافها
فحسب ، غير ميالية بما يصيب أصابعها من تحريق ، وهى
تصيح بى :

— سوف احتفظ بواحدة أيتها القاسية الشريرة !

فأعدت الرسائل الباقية فى يدى إلى المنديل ، وهيمت
بأن أخطو نحو الباب قائلة :

— حسنا جدا .. ما زال لدى ما أريه لأبيك ..

عندئذ امرغت فى الموقد ما كانت تطوى عليه يدها من
أوراق مسودة الأطراف ، وراحت تستحثنى على إنهاء هذه
المذبحة سريما .. فلما مرغت من هذه المهمة جعلت أحرك
الرماد لأجهز عليه .. ثم غطيته بلاء مجرفة من كتل الفحم ..
أما هى فقد انسحبت إلى حجرتها الخاصة وقد أطمقت
شفتيها دون أن تنفس بكلمة واحدة ، وبدا عليها الشعور بما
نالها من إهانة مادحة ..

ونزلت لأخبر السيد أن ما أصاب الأنسة من توقع قد
زال تماما ، وأننى رأيت من الخير لها أن ترقد فى فراشها
قليلًا ..

ولم تنزل للغداء .. ولكنها ظهرت ثانية وقت تناول الشاي ،
فإذا بها شديدة الامتناع وقد أحمرت جفونها .. إلا أنها
كانت محتفظة بهدونها الظاهرى إلى حد يثير الإعجاب ..
وفى صباح اليوم التالى تولبت أجابة على الرسالة برقمة
صغيرة قلت فيها :

« المرجو من السيد هينكليف الا يبعث بشيء من الرسائل
إلى مس لينتون بعد الآن ، لأنها لن تتسلمها .. »

ومن ذلك الوقت أصبح صدى اللبان يأتى بجيوب خاوية ..

الفصل الثاني والعشرون

مر عيد القديس ميخائيل ، واخذ الصيف يستحث خطاه
 راحلا ، والخريف يقبل مبكرا . . ولكن الحصاد كان متأخرا
 في ذلك العام ، وبقيت قلة من حقولنا لم يتم حصادها بعد
 . . وكان مستر لينتون وابنته يخرجان كثيرا للرجول بين عمال
 الحصاد ، فكانتا يبتيان معهم ، في مراحل الحصاد الأخيرة ،
 حتى الفسق . . وكان الجو في تلك الأيام رطباً شديداً
 البرودة ، حتى أصيب سيدي بيرد بشديد سكن رئتيه وأبى
 الرحيل منها ، كضيف ثقيل ، واضطره إلى ملازمة الدار
 طيلة الشتاء لم يبرحها خلاله قط . .

أما كاثي المسكينة ، التي تملك الروح قلبها من مغامرتها
 الصغيرة ، فقد ازدادت حزناً ووجوما منذ أن اضطرت إلى
 التخلي عن الاستمرار فيها ، فكان أبوها يلح عليها في الإقلال
 من القراءة ، والإكثار من الخروج للزهرة . . وإذ كانت قد
 حرمت رفقتها ، فقد وجدت لزاماً على أن أعوضها عن هذا
 الحرمان - على قدر الإمكان - بصحبتى لها . . ولكن هيهات
 أن أسد الفراغ الذى خلفه ، فلم يكن فى وسعى أن أمرغ من
 مشاغلى اليومية الكثيرة إلا ساعتين أو ثلاثاً أكرسها لمرافقتها
 . . ومع ذلك كان من الجلى أنها كانت أقل ارتباطاً إلى رفقتى
 عنها إلى صحبة أبيها . .

ويعد ظهر يوم من أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر - وكان
 يوماً مطيراً ، للعشب فيه وللممرات خفيف ووسوسة ،

بمئتها أوراق الشجر الجافة الندية ، وللسماء الزرقاء
 الباردة فيه اثقعة من السحب الكثيفة كأنها سفن عظيمة
 تشق عباب السماء مصعدة من الأفق الغربى ، ومندرة بحمولة
 من المطر الغزير - رجوت سيدتى الصغيرة أن تعادل عن
 جولتها ، لثقتى من عطول الأمطار كالسيول ، ولكنها رفضت
 وأمعنت في الرغض . . فخرجت معها على مضض ، بعد أن
 تصرلت بمعطف كبير وحملت مظلتى ، وصحبتها في السير
 حتى نهاية الحديقة ، وهى نزهة جافة منكلفة كانت تقوم بها
 عادة إذا انحرف مزاجها ، وكانت تبدو كذلك كلما اشتدت
 العلة بمستر أدمج وسامت حاله عن المعتاد . . وما كان ليبيوح
 لنا بذلك قط ، وإنما هو أمر نحدسه - كاثي وأنا - كلما طال
 صمته ولاحت الكآبة والانتقباض في أساريه . . ومضت
 تسير فى خطى حزينتة متمهلة ، لا تجرى ولا تقفز كعادتها ،
 برغم أن الرياح الباردة كانت خفيفة بأن تغربها بالعدو والتوتب
 . . وكفت أرقمها من طرف خفى ، فالأحظ بين الحين والآخر
 أنها ترفع يدها لتصيح شيئاً عن وجنتها . . فخرجت أتطلع
 حولى باحثة عن شيء أغربها به لأسرى عنها وأخرجها من لجة
 تفكيرها الحزين . . وكان على أحد جانبي الطريق مرتفع وعمر
 نتائرت فيه بضعة من اشجار البندق والبلوك الضامرة وقد
 تعرى شطر من جذورها ، وأخذت تترنج غير مستقرة في
 مواضعها . . وكانت التربة في ذلك المرتفع من الرخاوة بحيث
 لم تحتمل اشجار البلوط ، فانحنى معظمها ، تحت دفع
 الرياح الشديدة ، ومال على الأرض في وضع افقى . . وكانت
 مس كثرين ، فى أيام الصيف ، تجد متعة فى تسلق جذوع

هذه الأشجار ، والجلوس بين أغصانها ، نتأرجح على ارتفاع عشرين قدما من الأرض .. وكنت أبتهج كلما رأيت خلفها ورشاققتها ومرحها الصبياني ولهوها المنبعث عن قلب خال من الهبوم ، إلا أنني ، في الوقت نفسه ، كنت أجد من الأوفق أن أوجه لها اللوم كلما ضبطلتها على هذا الارتفاع ، فكنت أفعل ذلك في لهجة تدرك منها أنه ليس ثمة ما يضطرها إلى الهبوط ! .. كانت نظل منذ تناول الغداء حتى ساعة الشاي مضطجعة في أرجوحتها التي يهزها النسيم ، لا تفعل شيئا سوى الترنم بالأغاني القديمة - أهزيج الطفولة التي كنت أهددها بها - أو مراقبة الطيور في أعشاشها ومشاهدة الأب والأم صاحبي العش وهما يطعمان أفراخها ويفريانها على الطيران ، أو تستكن في استرخاء ، مطبقة الجفون ، يتداولها التفكير وأحلام اليقظة ، ملأى بمعادة تقصر الكلمات عن وصلها ..

وأشرت إلى نجوة صغيرة بين جذور شجرة بلتوية ، وصحت قائلة :

- انظري يا آنسة ! .. إن الشتاء لم يحل هنا بعد .. فهذه زهرة صغيرة فوق المرتفع هناك ، هي آخر براعم زهور الليمك التي كانت تكسو السطح كله في شهر يوليو بغلالة زرقاء رائعة الجمال .. فهل لك أن تتسلفي الهضبة ، وتقلطنها ، لترىها لأبيك ؟

مراحت كائني تحديق النظر طويلا في الزهرة الوحيدة التي كانت تهتز في مئواها الأرضي ، قبل أن تجيب أخيرا :

- كلا .. لن أمسها ؟ .. ولكنها تبدو حزينة مكتئبة ..
الا ترىنها كذلك يا ايلين ؟

- نعم .. فهي أشبه بك طهارة وتحولا .. أما ترى وجنتيك الشاحبتين كأنهما خالبتان من الدماء ؟ .. هاتني يدك في يدي ودعينا نجر معا ، فإتلك اليوم من الاعياء بحيث أحسبني قادرة على مجاراتك !

فلم ترد على ان قالت : كلا ..

واستمرت تمشي على مهل ، وهي تنظكأ هنا وهناك لتأكل قطعة من الططب ، أو خصلة من العشب الجاف ، أو ثمرة من الفطر يشع لونها البرتقالي الفاتح بين أكوام أوراق الشجر الجافة السمراء .. وكانت ترنع بدعا ، بين الحين والآخر ، إلى وجهها ، وهي تشيح به بعيدا عن انظارى .. فدوت منها ، وأحطت كتبها بساعدى ، وسألته قائلة :

كاثرين .. لماذا تكبين يا حبيبتي ؟ .. ما يتبعنى لك ان تبكى لأن أباك أصيب بالبرد .. واحدى الله انه لم يمرض بها هو أسوا من ذلك ..

عندئذ أطلقت لدموعها العنان ، ولم تعد تعتمد إلى إخفائها عنى ، وقد أختنق صوتها وأنفاسها بنشيج متتابع ، وهي تجيبنى :

- آه ! .. سوف يصبح مرضه أسوا بكثير .. وماذا ترىنى ماعلة إذا ذهب أبى ، وذهبت أنت ، وخلفتهائى وحدى في

العالم ؟ . . إننى لا أستطيع أن أنسى كلماتك يا ايلين ، فإيتها
لا تكف عن الرنين فى أذنى . . فكيف تتبدل حياتى ، وكف
يصبح العالم موحشا مخيفا أمامى ، عندما يحين أجل أبى ،
وتدركك المنية أنت الأخرى !

فأجبتها :

— لكل أجل كتاب ! . . ومن يدري ، فقد تموتين قبلنا !
. . من الخطأ أن يتعجل المرء السوء قبل وقوعه ! . . فدعينا
نرجو أن تنفضى أعوام وأعوام قبل أن يذهب أحدنا . . إن
السيد ما زال شابا ، وأنا لم أتجاوز الخامسة والأربعين
وما زلت قوية سليمة ، كما أن والدنى عاشت حتى الثمانين ،
وظلت محتفظة بمرحها ونشاطها إلى النهاية ! . . وإذا غرضنا
أن مستر لينتون عاش حتى يبلغ الستين من عمره ، فإن
الأعوام الباقية أكثر من التى انقضت من عمرك يا آنسة ،
ومن السخف أن تحزننى على مصيبة لن تحل إلا بعد عشرين
عاما أو تزيد !

فتطلعت إلى فى نظرات يمشى فيها الأمل على استحياء ،
كانها تنشد فى كلماتى المزيد من الطمأنينة والعزاء ، وغفمت
تقول :

— ولكن عمى ايزابيلا كانت أصغر من أبى . .

— إن عمك ايزابيلا لم تجد من يعنى بتهدئتها مثلك
ومثلى . . ولم تلق من أسباب المساعدة ، مثلما يلقي السيد ،
كما لم يكن لديها ما يثير فيها حب الحياة والرغبة فى العيش

. . إن كل ما يلزمك ، يا عزيزتى ، هو أن تحصنى رعاية
أبيك ، وأن تشيعى المرح والبهجة فى نفسه بأن يراك دائما
مرحة مبتهجة ، وأن تتجنبى إثارة القلق فى نفسه من أية
ناحية . . فاذكري ذلك ياكاشى ولا تنسياه ! . . ولا أخفى عنك
أنك تد تقظينه بمطبخك واندفاعك فى عاطفة حبقاء خيالية
نحو ابن شخص يسره أن يرى أبك موسدا فى قبره ، أو إذا
أظهرت له أنك تزويين حزنا وأسى بسبب غراق رأى من صالحك
أن يفرضه عليك . .

فأجابت قائلة :

— إننى لا احزن لشيء على وجه الأرض إلا لمرض أبى . .
ولا أبلى بأى شيء بجانب أبى . . ولن أفعل شيئا البتة
— مطلقا — لن أفعل شيئا أو أقول كلمة واحدة تضايقه ،
ما دمت محتفظة بجميع حواسى . . إننى أحبه أكثر من نفسى
يا ايلين . . وقد عرفت ذلك مما أفعله كل ليلة من الصلاة
والدعاء بأن أعيش بعده ، لأننى أوشر أن أتعذب وأشقى
لفقدته ، على أن يشقى ويتعذب إذا توفانى الله قبله . .
أفلا يدل ذلك على أننى أحبه أكثر من حبنى لنفسى !

— ما أجمل هذه الكلمات ! . . ولكن الأعمال أيضا يجب
أن تثبت شعورك هذا . . وأرجو أن تذكرى ، عندما تحصن
صحتك ، تلك القرارات التى اتخذتها فى ساعات الخوف
والتوجس . .

وكنا ، أثناء حديثنا ، قد اقتربنا من باب موصل يؤدي إلى الطريق خارج الحديقة .. وكانت السيدة الشابة قد استعدت مرحبا وإسرافها نانية ، فمسلقت الجدار وجلست على قمة السور ، وأخذت تميل إلى الخارج لتلتقط بعض الثمار النابئة وسط زهور اشجار الورد البري القرمزية ، التي تنظّل جانب الطريق .. كانت الثمار السفلى قد اخفت ، أما العليا فلم يكن يستطيع الاقتراب منها ، غير العليور وحدها ، إلا من يتخذ موضع كائي الحالي .. وبينما كانت تميل لتجذبها نحوها سقطت قبعتها في الطريق ، فاقترحت ان تهبط زاحفة من فوق السور لتستعيدها ، نظرا لأن الباب كان موصدا .. ورجوتها ان تكون حذرة حتى لا تقع ، وسرعان ما اخفت عن الأنظار في خفة وسرعة .. ولكن العودة لم تكن بمثل هذه السهولة ، إذ كان الجدار أملس مصقولا ، جيد الطلاء ، خلوا من أي نتوء أو متكا ، كما ان ثروع شجيرات الورد الرخوة ، وأغصان شجيرات العليق الشاردة ، كانت لا تقوى على أداء اية معونة عند تسلق الجدار .. أما انا فلم انتبه إلى ذلك ، لغفلتي وحمقى ، حتى سمعتها تضحك قائلة :

— سوف تضطرين إلى إحضار المفتاح يا ايلين ، أو اضطر إلى الانطلاق عدوا حتى كوخ الحارس .. فليس في استطاعتي تسلق السور من هنا ..

— ابقى حيث أنت .. ان في جيبي ربطة مفاتيح لعل فيها ما يفتح هذا الباب ، وإلا ذهبت لإحضار المفتاح ..

وأخذت كاثرين تتسلى بالغناء والرقص أمام الباب ريثما مضيت أجرب المفاتيح واحدا بعد الآخر ، ولكني بلغت آخرها دون أن أجد بينها ما يطابق قفل الباب .. فاعدت عليها رغبتى بأن تبقى مكانها ، وكنت على وشك ان اهرع نحو الدار بأسرع ما في طائفتي عندما بلغ مسامعي صوت جعلني أجمد في مكاني ، وكان ذلك وقع حوافر جواد يقترب مسرعا .. وتوقفت كائي عن الرقص كذلك ، فسألته بصوت خفيض :

— من هذا ؟

وإذا برليقتي تهسس في لهفة بالغة :

— ايلين .. ليك تستطيعين فتح الباب سريرا !

عندئذ انبعث صوت عبيق (هو صوت راكب الجواد) بصيح قائلا :

— مهلا يا مس لينتون ! .. شد ما يسرني ان الفاك .. ولكن لا تتعجلي الدخول ، فإن هناك أيضا أود ان أسالك عنه وتجيبيني عليه ..

مأجابه قائلة :

— إنى لن أخاطبك يا مستر هينكليف ، فإن أبي يقول إنك رجل شرير ثمته وتمقتني معا ! .. وقد أيدت ايلين ذلك ..

مقال هبتكليف (وكان هو نفسه القادم) :

— لا شأن لذلك بالفرض الذى احدثك من أحله .. إننى لا أبعث ابنى ، على الأقل .. والأمر الذى أود أن أستمرى انتباهك إليه إنما يخصه هو .. نعم .. يحق لك أن يحمر وجهك خجلا ! .. ألم تكونى ، منذ شهرين أو ثلاثة ، تكتبين إلى لينتون كل يوم ؟ .. أكنت تتخذين من الحب بلهاة ومسلاة إذن ؟ .. إنك ، كلاهما ، تستحقان الجلد بالسياط جزاء وفاءك ، وخصوصا أنت ، لأنك أكبر سنا ، وأبلد شعورا ، كما وضع فيها بعد ! .. ولكنى حصلت على خطابانك ، وسوف أبعث بها إلى أبوك إذا لم تعبرى كلامى أذنا واعية ، أو أهديت استهانة بما أقول .. إننى أحسبك ملكت هذه اللعبة ، فانصرفت عنها .. ليس كذلك ؟ .. حسنا .. إنك عندما طرحتها منك ، طرحت لينتون معها فى هوة من اليأس والقنوط ! .. لقد كان جادا ، لا لاهيا ولا عابثا ، فأجبك حقا .. والحقيقة الواقعة ، كوجودى على قيد الحياة أمامك . أنه على وشك الموت من أجلك ، وقد سحق قلبه — حقا لا مجازا — غدرك وتقلب أهوائك .. ومع أن هيرتون ظل طوال الأسابيع الستة الأخيرة يهازحه ويلاعبه ليسرى عنه ، وعلى الرغم من أننى اتخذت نحوه تدابير أكثر صرامة ، وحاولت أن أخيفه وأروعه ليدع حقه وغفلته ، فإنه يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وسوف

يغيبه الثرى قبل الصيف المقبل ، إلا إذا انتقذته وأمدت إليه الحياة !

نصحت من وراء الباب قائلة :

— كيف يمكن لك أن تكذب على الطفلة المسكينة بهذه الجراءة ؟ .. امض لشانك بالله عليك ! .. فلست أدري كيف تخلق عن عمد هذه الترهات الخسيسة ! .. سوف أحطم القفل بجرى ، يا مس كائى ، فلا تصدقى كلمة من هذا الهراء الخبيث .. وقد أدركت بنفسك أن من المستحيل أن يموت أحد غراما بشخص غريب عنه ..

فغمغم الشقى الذى انكشف أمره ، قائلا :

— لم أكن أعلم أن هناك جواسيس يسترقون السمع ! .. أهذه أنت يا مسز دين العظيمة ؟ .. إننى أجبك ، ولكنى لا أحب نفاقك يا ذات الوجبين !

ثم استعطرد يقول بصوت عال :

— وكيف يمكن لك « أنت » أن تكذبى على « الطفلة المسكينة » بهذه الجراءة ، فتؤكدى لها أننى أبغضها ، وتخرعنى لها من قصص الغيلان ما يخيفها منى وينفرها من بينى ؟ .. اسمعى يا بنيتى العزيزة ، يا كاترين لينتون ، وهذا الاسم بالذات يبعث الدماء حارة فى عروقتى (سوف أغيب عن منزلى طوال

هذا الأسبوع .. غاذهبي لترى بنفسك اننى لم أخبرك إلا مسدقا .. اذهبى يا عزيزتى ! .. بل عليك أن تتخلى والدك فى مكائى ، ولينتون فى مكائك ، ثم فكرى بعد ذلك كيف تكون نظرتك إلى حبيبك الجحود ، إذا أبى أن يخلو خطوة واحدة لمواساتك ، بينما أبوك نفسه يرجوه ويستعمله ! .. ولا تقمى فى هذا الخطأ نفسه لا لشيء سوى الغباء والحمق .. إننى أقسم لك بخلاص روحى ، إنه يسير نحو القبر سيرا حثيثا ، وليس من يستطيع إنقاذه سواك ..

وتهاوى القفل تحت طرقاتى فاندفعت خارجة ، بينما كان هينكليف يتابع كلامه لها ، وهو يحدجنى بنظرة صارمة ، قائلا :
— أقسم لك إن لينتون مشرف على الموت حقا ، وإن الحزن والحصرة سوف يعجلان بنهايته المحتومة ! .. وانت يا نللى ، إذا كنت مصرة على منعها من الذهاب ، فامضى إلى هناك بنفسك لتريه بعينيك .. إننى لن أرجع من رحلتى إلا فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل ، ولا أحسب أن سيدك نفسه يطاوعه قلبه على منعها من زيارة ابن عمها !
فقلت لكاثرين : « تعالى معى » .

وكنت قد أمسكت بذراعها وأنا لا أكاد أجراها إلى الداخل جرا ، بعد أن رأيتها تتلصقا مترددة ، وتتطلع إلى وجه محدثها بعينين يملؤها القلق والاتشمال ، بينما كانت أسارىره

الجادة من الصرامة بحيث تخفى خداعه ولؤمه .. وما لبث أن دفع بجواده إلى جانبها ، ومال فوقه نحوها ، قائلا :

— إننى اعترف لك يا مس كاثرين بأن صبرى قد نفذ من لينتون وحالته ، كما شاق به هيرتون وجوزيف ذرعا ، واعترف لك أيضا بأنه يعيش فى وسط سمته الفظائفة والخسونة .. وأنه يذوى سريعا لحرمانه من العلف والحب .. لذلك فإن كلمة رقيقة منك سوف تكون خير دواء له .. فلا تلقى بالا إلى تحذيرات مسز دين القاسية ، بل كونى رقيقة كريمة ، واسعى إلى رؤيته .. فإنك تتراءى له فى أحلامه بالليل والنهار ، وهو لا يتخلى عن عقيدته بأنك تكرهينه بعد أن امتنعت عن زيارته والكتابة إليه ..

فأغلقت الباب ودرجت وراءه حجرا ليدعنه بعد أن تحطم قفله ، ثم نشرت مظلتى وجذبت وديعتى تحتها ، إذ بدأ المطر يساقط علينا من بين فروع الأشجار الشجبة الأنين ، نذيرة لنا بالآ نوانى فى الخارج حتى لا تفاجئنا سيوله المنهرة .. وكان إسراعنا وتلفنا على العودة للدار بمنعنا من التعليق على هذا اللقاء غير المتوقع مع هينكليف ، ولكننى تكهنت ، بإلهام من غريزتى ، بأن قلب كاثرين كان ملبدا بغيوم الظلمات الكثيفة .. وكان الحزن والأسى يطبعان أسارىرها بطابع غريب

بدلها تبديلا ، حتى لقد أنكرتها .. وكان من الجلى أنها صدقت كل كلمة وكل حرف مما سمعته ..

ووجدنا السيد قد أوى إلى حجرته قبل عودتنا ، فنسلت كائى إليها لتسأل عن حالته ، فالفته مستغرما في النوم ، وعندئذ عادت لتطلب منى أن اجلس معها في المكتبة .. وتناولنا الشاى معا ، فلما نرفنا منه اسلقت على البساط ، وطلبت منى الا اتكلم ، زاعمة انها متعبة مرهقة .. فاخذت كتابا ونظاشرت بالقراءة .. وما أن حسبتهى مستغرقة فيها ، حتى بدات بكاءها الصامت الذى يبدو انه أصبح الآن مسلاتها المفضلة ! .. وتركتها تسرى عن نفسها برهة ، ثم اندفعت في عقاب طويل ، محاولة تسفيه اقوال مستر هينكليف ومزاعمه عن ابنه ، والسخرية منها ، كأنها حسبت انها ستوافقنى .. ولكن والأسفاه ! .. فلم تكن لى تلك المهارة وذلاقة اللسان الخليفة بأن تزيل عن نفسها الأثر الذى احدثته روايته .. وكان ذلك ما يرمى إليه تماما ..

وأجابتهى أخيرا :

— ربما كنت على حق يا نللى ، ولكنى لن أحس بالراحة قط حتى اعرف الحقيقة ولا بد لى من ان أخبر لينتون بأنه لم يكن لى ذنب فى امتناعى عن الكتابة إليه ، وأن اقنعه باننى لن اتغير عن عهده قط ..

فما جدوى الغضب والاحتجاج إزاء سذاجتها الحقاء ، وسلامة نيتها البلاء ؟ ..

لقد افترقنا تلك الليلة على غير وعاق .. ولكن اليوم التالى شهدهنى على الطريق إلى « مرتفعات ويذرنج » ، مهرولة بجانب مهر سيدتى العنيدة .. فلم يكن فى وسعى أن أطيق رؤيتها حزينة ، وأن أحتمل مرأى وجهها الشاحب وعينيها المقروحتين بالبكاء .. ورضخت لرغبتها ، وقد تراوحنى أمل واه بأن يثبت لها لينتون نفسه ، عند استقباله لنا ، مبلغ ما فى الرواية من كذب وبهتان ..

www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^

مع تحيات منتدى ليلاس

منتدى ليلاس

منتدى ليلاس

منتدى ليلاس

46

كتابي



إميلي برونتي

مرتفعات ويذرنج

الجزء الثالث



www.liilas.com/vb3

^ RAYAHEEN ^

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

الطبع والنشر والتوزيع

شارع الأمير سلطان رقم 10 - الرياض - 11461

إميلي برونتي



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شيء تقريباً : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقتسرن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « أن برونتى » من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرخج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهم بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل أو التدرن الرئوى - فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به « إميلي » فى سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) . . ثم ماتت به « أن » فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجور القائم الذى تتسم به رواياتهن جميعاً . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بالانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و براونيل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلي ، وأخيراً « أن » . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو ستة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «أن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات ألقى الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية - هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين إير) باسم «لوود» .

هلمى مراد



الجزء الثالث

مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلي برونتي»

ملخص الجزئين الاول والثاني

عندما توفي « ايرنشو » - صاحب دار « مرتفعات ويدرنج » - خلف وراءه ولدا متلافا ، هو « هندلى » ، وابنة عتيده ، خشنة متمردة ، هي « كاثرين » ، و . . ولدا من اصل مجهول ، التقطه من رحلة له إلى (ليفربول) ، ويغاب على الظن انه عجري ، هو « هيثكليف » ، وقد جمع العنف والخشونة بين كاثرين وهيثكليف ، ولكن « هندلى » حرص على التفرقة بينهما ، وعلى محاولة ترويض كاثرين وإذلال هيثكليف ! . . ولم تلبث الفتاة ان تعرفت إلى « ادجار لينتون » - ابن صاحب الضيعة القريبة « الجرانج » - فبهرها منه جمال شكله ، ورقة طباعه ، ولم تلبث ان تزوجت منه بالرغم من انها كانت تزدرى ضعفه ونعموته بالنسبة لغلظة « هيثكليف » وخشونته . .

ونقم هيثكليف عليها هذا الزواج ، كما حقد على أخيها إمعانه في إذلاله ، فلم يلبث أن اختفى من (مرتفعات ويدرنج) ، ليظهر بعد سنوات وقد أصاب قسما من الفنى جعل « هندلى » يستضيفه في داره . . واستغل الخبيث تردى ابن ولى نعمته في المقامرة ، وإدمانه الشراب ، قراح يعمل على تحطيمه ، وعلى إخضاعه لسلطانه - بفضل ما كان يقرضه من مال يقامر به - وعلى إفساد ابنه « هيرتون » عليه ، وتنشئته على ما نشأ هو عليه من خشونة ، وضراوة ، وجهل

هو أقرب إلى الأمية . . وفي الوقت ذاته ، راح هيثكليف يسعى لإرضاء حقه على غريمه الذى ظفر بكاثرين - « ادجار لينتون » - متوسلا بقوة تأثيره عليها . . وهكذا تسبب في أزمة عصفت بما كان بين الزوجين من وئام . . ثم استغل الهوى الصبيانى الذى تملك أخت ادجار - « ايزابيلا » - نحوه فعمل على تنميته ، بغية مصاهرة غريمه الارستقراطى ، ورغبة في أن يرث أملاكه بعده ! . . وإذا اكتشفت كاثرين الأمر ، عنفت في تانيب هيثكليف ، وطرده « ادجار » .

وأثار تدخل ادجار ثائرة كاثرين ، فتصنعت الإصابة بنوبة صرع . ثم جن جنونها إذ لم يأبه زوجها بها ، فأصابها نوع من الخيل والهذيان ، وعرضت نفسها للبرد القاسى ، فأصيبت بحمى عنيفة . . وفي غمرة المرض الفتاك ، ولوعة ادجار على زوجته ، أغرى هيثكليف « ايزابيلا » بالفرار معه ، وتزوجها - من غير حب - ثم عاد بها إلى مرتفعات ويدرنج ، حيث راح يسومها العذاب ، إمعانا في الانتقام من أخيها !

ولم يكتف الوغد بذلك ، بل حرص على أن يتسلل إلى (الجرانج) ، وأن يلقي كاثرين ، يتنازعه الحب لها ، والحقدها عليها لأنها احتقرته وتزوجت غريمه الفنى . . وعلى أثر مشهد عنيف بينهما أثناء مرضها ، أغمى على كاثرين ! . . وفي المساء ذاته ، وضعت طفلة ، حملت نفس اسمها « كاثرين » ، ثم ماتت ! . . وكانت الصدمة قاسية على « ادجار » فاعتزل الناس أجمعين ، وكرس حياته لطفلته . . ولم تزد هذه

الصدمة هيثكليف إلا إمعانا في حقدته عليه ، وفي بطشه
بإزايلا حتى اضطرت المسكينة إلى الفرار منه إلى ركن
معمور من لندن ، حيث وضعت طفلا أسمته « لينتون » .
ثم مات « هندلى » من تأثير إمرأته في الخمر ، فاستولى
الوغد الوضيع على مرتفعات ويدرنج ، وعلى « هيرتون »
- ابن غريمه - لينشئه جلفا ، فظا ، عنيفا مثله . .

وكانت « كاترين » الصغيرة قد كبرت ، في رعاية أبيها
ومربيته مسز « ايلين دين » - راوية القصة - دون أن
ترى العالم خارج أسوار دارها - « الجرانج » إلا في صحبة
أبيها . . وعندما بلغت الثالثة عشرة ، تلقى أبوها من أخته
« إزايلا » رسالة تستحلفه فيها أن يخف إلى جوارها وهي
تحتضر ، فسافر . . وفي غيابه ، شقت « كاتى » عصا الطاعة
على مربيته ، وانطلقت إلى جوارها على غير هدى ، فإذا
القدر يسوقها إلى (المرتفعات) ، حيث أبدى لها هيثكليف
تلطفاً جعلها تخدع في حقيقته . . وحيث استهجن هوان
حال « هيرتون » وفضالته ، دون أن تدري أنه ابن خالها !
واقبل « لينتون » مع خاله - الذى اعتزم أن يكفله -
فإذا به ضعيف ، هباب ، حائر ، كثير البكاء . . على أنه كان
جميلاً برغم ذلك ، وقد اجتذب « كاتى » بحاله هذه . ولكن
أباه « هيثكليف » لم يكد يعلم بوصوله ، حتى أصر على أنه

أولى بكفالته ، واستطاع أن يأخذه من خاله . . وكانما كان
هذا طعماً لاستدراج « كاتى » إلى مرتفعات ويدرنج ،
ولتحويل عطفها على الفتى إلى حب . . فلما فطنت المربية ،
حالت بين الفتاة وبين مراسلة « لينتون » أو زيارة مرتفعات
ويدرنج . وساعدها على ذلك أن « ادجار » كان قد أصيب
بمرض خطير ، يخشى منه عليه إذا هو عرف الأمر .

ولكن هيثكليف فاجأ الفتاة يوماً - وهي مع مربيته خارج
الدار - وأنبأها بأن حزن « لينتون » لانقطاع صلته بها قد
أسلمه إلى مرض يوشك أن يقضى عليه . . وهدد ، وأنذر
. . ثم قال أنه سيفيق عن داره أسبوعاً ، وفي وسع الفتاة
أن تتأكد خلال ذلك من صدق قوله . .

وفي الصباح التالى ، انطلقت الفتاة مع مربيته إلى مرتفعات
ويدرنج ، لترى ما إذا كان لينتون مريضاً حقاً !

والآن تستطيع أن تستأنف القصة :

الفصل الثالث والعشرون

أسفرت الليلة المطيرة عن صباح تحجب ضيائه غلالة من الضباب الرطيب ، كان بعضه من ندف الثلج السابحة في الهواء ، وبعضه الآخر من رذاذ خفيف من قطرات المطر المعلقة في الفضاء .. وكانت جداول الماء تنساب من أعلى التلال ، في قرقرة خافتة ، فتقطع طريقنا بين وقت وآخر .. وأصاب البلل قدمي ، فزاد من حنقي وضيق صدري ، وجعلني في تلك الحالة من السخبط التي تلازمنا عندما نقدم على صنع شيء لا تهش له نفوسنا ..

وجعلت دخولنا إلى « المرتفعات » عن طريق المطبخ ، حتى أستوثق من غياب مستر هيثكليف حقا ، إذ كنت قليلة الثقة بما يقوله ويؤكد .. ووجدت جوزيف ، وقد بدا كأنه ينعم وحده بجنة لا يشاركه فيها أحد ، جالسا بجوار موقد احتدم أواره ، وعلى المائدة القريبة منه قدح مثل الدلو مليء بالجمعة ، رصت حوله قطع كبيرة من فطير الشوفان المقدد ، وقد وضع غليونه الأسود القصير في ركن فمه .. وهرعت كائرين إلى الموقد تستدفيء بئاره المستمرة ، بينما كنت أسأله إن كان السيد داخل الدار .. ولقد ظل سؤالي بلا جواب فترة طويلة ، حتى خلت أن العجوز قد أصابه الصمم ، فأعدت عليه السؤال بصوت أشد ارتفاعا ..

فانبعث يزمجر ، أو بالأحرى أنه كان يصرخ من انفه :

— كلا .. كلا .. وما عليكم إلا أن تعودا من حيث أتيتما !

وكدت أهم بالرد عليه عندما صاح صوت حائق من الحجرة الداخلية :

— جوزيف ! .. كم مرة ينبغى لي أن أناديك ؟ .. لم يبق في المدفأة إلا جمرات قليلة يكسوها الرماد الآن .. جوزيف ! .. تعال في الحال !

ولكن انفاس الغليون القوية المتلاحقة ، وتلك النظرة الساهمة نحو الموقد ، كانت تنبئ بأنه لا يمير هذا النداء أذنا صاغية .. وكانت مديرة المنزل وهيرتون مختفيين عن الأنظار ، ولعل الأولى خرجت في جولة لتبتضع ، وانصرف الثاني إلى عمله في الحقول .. وهرفنا صوت لينتون ، فدخلنا إليه .. وكان عندما سمع وقع خطانا ، قد حسبنا خادمه الذي يهمله ولا يعنى به ، فصاح قائلا :

— آه ! .. كم أتمنى أن تهلك جوعا في سجن سحيق ! فلما تبين خطأه ، سكت فجأة ، بينما اندفعت بنت خاله نحوه كالطير الحبيس يطلق من عقاله .. فرفع رأسه عن مسند المقعد الكبير الذي كان مضطجعا فيه ، وقال :

— أهذه أنت يا مس لينتون ؟ .. كلا .. كلا .. لا تقليني ، فإن ذلك يقطع انفاسي ويجعلني الهث كالمخنوق !

فلما أفاق قليلا مما غشيه من عناق كائرين ، التي وقفت جانبا وقد بدت عليها خيبة الأمل ، استطرده يقول :

— يا إلهي ! .. لقد قال لي أبي انك قد تحضرين لزيارتي ، وها قد صح حدسه .. هل لك أن تتكرمي بإغلاق الداب ؟ ..

لقد تركته مفتوحا وراءك ، كما أن هؤلاء .. هؤلاء المناكيد لا يريدون إحضار الفحم للمدفأة! .. آه! .. ما أشد البرد الآن!

فأخذت أحرك الرماد وأحضرت بنفسى ملء دلو من فحم غديت به النار .. فراح العليل يشكو ويتذمر من تطاير بعض الرماد عليه ، ولكنه لم يلبث أن فاجأته نوبة من السعال الأليم أسكتته .. وكان يبدو سقيما محموما مما جعلنى أغضى عن سوء خلقه ..

فلما انتهى سعاله ، وانفجرت أساريره ، غمغمت كائرين قائلة :

— حسنا يا لينتون .. هل سرتك رؤيتى ؟ .. وهل بوسمى ان اكون ذات نفع لك ؟

— لماذا لم تحضرى قبل الآن ؟ .. كان الأولى بك ان تأتى بنفسك بدلا من الكتابة لى ، فان تلك الخطابات الطويلة أرهقتنى إرهافا مروعا ! .. وكنت أفضل لو تحدثت إليك بدلا من تديبجها .. أما الآن فلم أعد أحتمل الكلام ولا أى شىء آخر ! .. ترى اين زيللا ؟

ثم التفت نحوى ، واستطرد يقول :

— هل لك أن تذهبى إلى المطبخ لترى اين هى ؟

ولم اكن قد تلقيت منه لفتة أو كلمة شكر على خدمتى الاخرى بتزويد المدفأة بالفحم ، وإذ كنت غير راغبة فى الذهاب إلى هنا وإلى هناك تنفيذا لمشيئته ، فقد اكتفيت بأن أجبته :

« ما من أحد هناك سوى جوزيف »

فأشاح بوجهه عنى ، وهو يقول فى ضيق وتبرم :

— أريد جرعة من الماء .. وقد اعتادت زيللا أن تهيم على وجهها إلى جيمرتون منذ ان غاب أبى ، وتركنى أعانى هذا الشقاء .. لقد اضطررت إلى النزول إلى هنا ، فقد اصروا على تجاهل ندائى كلما بقيت فى الطابق العلوى ..

وإذ رأيت كائرين قد صدت فى محاولاتها الودية للتقرب إليه ، سألته :

— هل تجد من أيبك رعاية كافية يا سيد لينتون ؟

— رعاية كافية ؟ .. انه على الاقل ، يجعل الآخرين يولوننى شيئا من الرعاية فى حضوره .. ولكن يا لهم من أوغاد اشقياء ! .. هل تعرفين يا مس لينتون ان ذلك الوحش هيرتون يضحك منى ساخرا ؟ .. إننى أكرهه .. بل إننى فى الواقع أكرههم جميعا .. فإنهم ثلة من المخلوقات البغيضة المقوتة !

وبدأت كائى تبحث فى الحجرة عن بعض الماء لتسفيهه ، حتى عثرت على إبريق فوق الخوان ، فملأت منه كوبا وأحضرتها إليه .. ولكنه طلب إليها ان تصيف إليه ماء ملعقة من النبيذ من زجاجة موضوعة فوق المائدة .. ثم جرع رشفة صغيرة ، بدأ بعدها أشد راحة وأكثر هدوءا ، وقال انها رحيمة رقيقة الشعور ..

وسرها ان تلمح على شفطيه إشراق فجر ابتسامه ، فعادت تكرر سؤالها الأول :

- وهل أنت مسرور لرؤيتي ؟

- نعم .. اننى كذلك حقا .. فان سماع صوت كصوتك امر جديد على .. ولكن امتناعك عن الحضور سبب لى كثيرا من اللوم والإيلام ، فقد أقسم أبى إننى المسئول عن ذلك ، وكان يصفنى باننى «شئ تافه خائر النفس يدعو إلى الرثاء» ! .. ويقول أنك تحتقريننى ، وانه لو كان فى محلى لكان قد أصبح الآن سيد « الجرانج » أكثر من أيبك .. ولكنك لا تحتقريننى ، اليس كذلك يا مس .. فقطعته سيدتى الصغيرة قائلة :

- بودى أن تقول كاترين أو كاتى .. أنا أحتقرك ؟ .. كلا .. كلا .. أنك أحب الناس إلى نفسى بعد أبى وإيلين ! .. ومع ذلك فانى لا أحب مستر هيثكليف ، ولن أجرؤ على الحضور إلى هنا بعد عودته .. فهل سيفيب أياها عديدة ؟ - لن يطول غيابه كثيرا .. ولكنه يكثر من الذهاب إلى البرارى منذ أن بدأ موسم الصيد ، وسيكون فى وسعك أن تقضى معى ساعة أو اثنتين فى غيبته .. قولى أنك ستفعلين ، واحسبنى لن أكون نكدا مشاكسا معك ، لأنك لا تثيرين غضبى ، بل تبدين دائما راغبة فى مساعدتى .. هل ستحضرين ؟

فأجابت وهى تربت على شعره الطويل الناعم :

- نعم .. إذا استطعت فقط أن انال موافقة أبى .. عندئذ سوف أقضى نصف وقتى معك يا لينتون الجميل .. شد ما وددت لو أنك كنت أخى !

فأجاب فى لهجة مرحة طروب :

- فى تلك الحالة سوف تحبيننى كما تحبين أباك .. ولكن أبى يقول أنك سوف تحبيننى أكثر منه ومن أى إنسان فى العالم ، إذا ما كنت زوجتى .. لذلك أفضل لو كنت زوجة لى !

فقالت فى رصانة :

- كلا .. لن أحب احدا قط أكثر مما أحب أبى ! .. ثم ان الناس يكرهون زوجاتهم أحيانا ، ولكنهم لا يكرهون إخوتهم وأخواتهم .. ولو كنت أخى لأقمت معنا ، ولاحبك أبى وتعلق بك مثلما يحبنى ويتعلق بى ..

فأنكر لينتون ان الناس يكرهون زوجاتهم قط ، ولكن كائى عادت تؤكد أنهم يفعلون ، وتدققت الحكمة من فمها عندما ضربت مثلا لذلك كراهية أبيه نفسه لعمتها .. وحاولت أن تدخل لأكبح زمام لسانها الطائش ، ولكنى لم أفلح فى ذلك حتى كانت قد أخرجت من جوفها كل ما تعرفه .. فصاح لينتون ، وقد استبد به الضيق ، يؤكد أن قصتها كاذبة ..

فقالت كاترين فى صراحة أشبه بالقحة :

- لقد أخبرنى أبى بذلك .. وأبى لا يكذب قط ..

فصاح لينتون :

- إن أبى يزدرى أباك ويحتقره ، ويسميه المنفل الخسيس !

فردت عليه كاثرين :

- إن أباك رجل شرير ، وانت أشد شرا منه إذ تردد ما يقوله .. ولا بد انه بلغ غاية الشر حتى دفع عمى ايزابيل إلى هجره كما فعلت !

- إنها لم تهجره .. فلا تعارضيني !

فصرخت سيدتى الصغيرة :

- بل هجرته فعلا ..

عندئذ قال لينتون :

- حسنا .. سوف أخبرك أنت بشيء يهمك .. لقد كانت أمك تكره أباك ، فما رأيك ؟

فشبهت كاثرين ، وأخرسها الغضب عن النطق إلا بكلمة :
« أوه ! .. » فاستطرد يقول :

- وكانت تحب أبى !

فتلاحقت أنفاسها وتورد وجهها بحمرة الغضب والانفعال ، ثم صاحت :

- أيها الكاذب الصغير ، إننى أكرهك الآن !

ولكن لينتون غاص في مقعده ، وأسند رأسه إلى ظهر المقعد وراح يرمق غريمته في الجدل - وكانت تقف خلفه - مستمتعا بما يبدو عليها من انفعال وغضب . وما لبث ان راح يكرر فى لهجة منغومة :

- كانت تحبه ! .. كانت تحبه !

فتدخلت قائلة :

- صه يا سيد لينتون ! .. هذه ايضا رواية أبيك . فيما اظن ..

- إنها ليست روايته .. وعليك ان تمسكى لسانك ! ..
كانت تحبه ! .. كانت تحبه يا كاثرين ! .. كانت تحبه ! ..
كانت تحبه !

فطاش صواب كاثرين ، ودفعت المقعد دفعة قوية جعلت لينتون يهوى على أحد ذراعيه ، وما لبث ان أصابته نوبة من السعال الخانق وضعت حدا لزهوه وانتصاره .. ودامت النوبة طويلا حتى اقلقتنى ، اما ابنة خاله ، فقد راحت تبكى بكل قوتها ، وقد أذهلها ما أقدمت عليه من أذى ، ولو أنها لم تقل شيئا تعتذر به عما اقترفته .. وأمسكت به بين ذراعى حتى زالت عنه نوبة السعال ، وعندئذ دفعنى بعيدا ، وأحنى رأسه فوق صدره حيث لبث صامتا بلا حراك .. وكفكفت كاثرين عبراتها ، هى الأخرى ، وجلست ناحية ، وهى تنظر إلى النار فى وجوم ..

وانقضت دقائق عشر على هذا النحو ، فقطعت الصمت الذى يرين فوقنا ، لأسأله :

- كيف حالك الآن يا سيد هيثكليف ؟

- ليتهأ تحس بما أحس به ، هذه المخلوقة القاسية الحقود ! .. ان هيرتون لا يمسنى بأصبعه قط ، ولم يضربنى مرة واحدة فى حياته .. ثم اننى كنت أحسن حالا اليوم ، وها هى ذى قد ..

واختنق صوته في نسيج حار ، فلم يتم عبارته .. بينما أخذت كائرين تعض شفتها حتى تحول دون انفجارها بأكية من جديد ..

وظل يئن ويتوجع ، كشخص يعانى ألما مروعة ، أكثر من ربع ساعة .. وكان من الجلى أنه كان يفعل ذلك عن عمد ليزيد من كرب ابنة خاله وضيقها ، إذ كان كلما لمح عبرة تنساب من عينيها في صمت ، زاد من انغام الالم المتجددة في صوته الباكي !

ونفذ احتمالها أخيرا ، فما لبثت أن قالت :

— إننى آسفة لما الحقته بك من اذى يا لينتون .. ولكنى — أنا — ما كنت لاثالم من مثل هذه الدفعة اليسيرة ، وما خطر ببالي أنها سوف تؤلمك .. ولكنها لم تؤذك كثيرا ، اليس كذلك يا لينتون ؟ .. قل انك لم تتألم منها كثيرا ، ولا تدعنى أعود إلى منزلى وأنا أفكر في أننى قد آذيتك .. اجب .. كلمنى !

— لا أستطيع أن اكلمك ! .. لقد آذيتنى إلى درجة سوف تجعلنى اقضى الليل مسهدا مختنقا من هذا السعال اللعين .. ولو أنك أصبت به لعرفت ما هو .. ولكنك سوف تستفرقين في نوم هادى مريح ، بينما أتألم وحدى ، وليس يقربى أحد .. ترى كيف تحبين أن تقضى هذه الليالى المروعة ، لو أصابك ما أصابنى ؟!

فقلت له :

— ما دمت قد اعتدت على قضاء هذه الليالى الفظيعة ،

فان الأنسة ليست هى التى تفسد راحتك ، ولن يتغير عليك شيء لو لم تكن قد حضرت .. ومهما يكن من أمر يا سيد لينتون ، فأنها لن ترعجك مرة أخرى ، وأرجو لك المزيد من الراحة والهدوء بعد ذهابنا ..

ولكن كائرين مالت فوقه وهى تسأله فى حزن وأسى :

— هل يجب أن أذهب ؟ .. هل تريد أن أذهب يا لينتون ؟ فأجابها فى سخط :

— انك لا تستطيعين تغيير ما أحدثته ! .. إلا إذا زدته سوءا بمضايقاتك لى حتى تصيبينى بالحمى !

فرددت سؤالها من جديد : حسنا .. هل يجب أن أذهب إذن ؟

فقال وهو يرتد إلى الوراء نافرا :

— دعينى وحدى على الأقل ، فانى لا أطيق كلامك !

فتلكأت لحظة ، وهى تقاوم طويلا إلحاحى عليها بالانصراف .. فلما وجدته لا ينظر إليها ولا يكلمها ، بدأت تسيير متمهلة نحو الباب ، وبدأت أسير فى أعقابها .. ولكن ردتنا عن المضى فى طريقنا صرخة مفاجئة ، فقد انزلق لينتون من مقعده وهوى إلى الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة ، حيث راح يتلوى ، لا من الالم ، وإنما لمجرد المشاكسة المنبعثة من طفل عريق فى الشغب ، يعمل بكل ما فى وسعه على مضايقة الغير ومعاندته .. وقد استطعت أن اتبين حقيقة ميوله من مسلكه ، وادركت للتو أن من الجنون بذل أية محاولة للتسرية عنه أو

تسليته وإدخال السرور على نفسه .. ولكن رفيقتي لم تكن على هذا الرأي ، فقد عادت إليه في عجلة ولهفة وفزع ، وجثت على الأرض بجانبه ، وهي تذرّف الدمع السخين وتدله وتهديء من روعه ، حتى هدأ أخيرا بعد أن انقلعت انفاسه من كثرة الصراخ ، وليس من تأنيب ضميره لإزعاجه إياها! .. فتدخلت قائلة :

— سوف أحمله إلى الأريكة ، حيث يمكنه أن يتلوى ويتقلب كيفما يروق له ، إذ ليس في وسعنا أن نبقى لرعايته وحراسته .. وأرجو يا مس كاثي أن تكوني قد اقتنعت الآن بأنك لست الشخص الذي يفيد وجوده ، وأن حالته الصحية ليس مرجعها إلى تعلقه بك .. ها قد وضعتك فوق الأريكة ، فتعالى ننصرف! .. وما إن يدرك أن ليس هنا من يبالي بهرائه ، حتى يخلد إلى السكون راضيا مسرورا ..

ولكنها احضرت وسادة وضعتها تحت رأسه ، وعرضت عليه بعض الماء ، غير أنه رفض الماء وراح يتململ فوق الوسادة كأنها كأنها حجر أو كتلة من الخشب ، فحاولت أن تجعلها أكثر راحة له ، ولكنه قال :

— انها لا تريحني ، فهي ليست مرتفعة كما يجب .. فأحضرت كائرين وسادة أخرى وضعتها فوق الأولى .. ولكن ذلك المخلوق المثير غمغم قائلا :

— انها أعلى مما ينبغي!

فسألته في يأس :



فقد انزلق لينون من مقعده وهوى الى الأرض فوق البلاط المحط بالدفأة ..

— وكيف تريد أن أسويها إذن؟

فدار حول نفسه حتى رفع رأسه واتخذ له متكا فوق كنف كاثرين التي كانت منحنية بجانب الأريكة .. فقلت :

— كلا .. ان هذا المسند لا يصلح لك يا سيد هيثكليف ،
وعليك ان تقنع بالوسادة ، فقد أضاعت الأنسة عليك من وقتها ما فيه الكفاية حتى الآن ، ولن نستطيع البقاء خمس دقائق اخرى ..

فقاطعتني كاثي قائلة :

— كلا .. كلا .. بل نستطيع البقاء ! .. انه الآن طيب صبور ، وقد بدأ يفهم اني كنت خليقة بان احس بشقاء عظيم ، أكثر مما سوف يعانیه ، لو اعتقدت ان زيارتي له هي التي زادتة سوءا ، وانني بذلك لن أجرؤ على معاودة الزيارة .. قل الحقيقة يا لينتون ، لانني لن أحضر ثانية إذا كنت قد آذيتك !

فاجاب :

— بل يجب عليك أن تأتي ، لتساعدني على شفائي .. يجب ان تأتي لانك آذيتني ، وانت تعرفين إلى أي حد بلغ إبدأؤك هذا .. فلم اكن مريضا عند قدومك بالقدر الذي بلغته الآن ، ليس كذلك ؟

فقلت له :

— بل انت الذي أسأت إلى صحتك بإهمالك في النكاه والصراخ والانفعال ..

وقالت ابنة خاله :

— إنني لم أفعل شيئا على الاطلاق ! .. ولكننا ، على اية حال ، سوف نفدو اصدقاء الآن ، فهل تريدني حقا ؟ .. هل تود ان تراني بين الحين والآخر ؟

فاجاب في صبر نافذ :

— قلت لك انني اود ذلك ! .. والآن تعالي اجلسي على الأريكة ، ودعيني أتوسد ركبتيك .. فهكذا كانت تفعل امي امسيات برمتها ! .. اجلسي ساكنة ولا تتكلمي قط .. ولكن في وسعك ان تغني ، إذا كنت تعرفين الغناء .. أو لعلك تسمعيني ملحمة طويلة مسلية ، من تلك الملاحم التي وعدت بان تعلميني إياها ، أو تقصين على قصة جميلة .. ولكنني افضل الملحمة .. هيا .. ابدئي !

فاخذت كاثرين تنشد له أطول ملحمة استطاعت ان تذكرها .. وطابت نفسها لهذه المهمة . وطلب لينتون ملحمة غيرها ، ثم اخرى بعدها ، برغم اعتراضاتي المتكررة .. وظلا على هذه الحال حتى دقت الساعة الثانية عشرة ، وسمعنا صوت هيرتون في الغناء وهو يعود لتناول الغداء .. ونهضت كاثرين متكرهة ، فأمسك لينتون الشاب بطرف رداثها وهو يقول :

— الا تأتين إلى هنا في الغد يا كاثرين ؟

فتوليت الإجابة ، وقلت :

— كلا .. لا في الغد ولا بعده !

ويبدو أنها ، برغم ذلك ، قد طمأنته بإجابة مختلفة ، إذ رأيت وجهه يتهلل فرحا وهى تنحنى فوقه وتهمس فى أذنه ..
فلما غادرنا المنزل ، بدأت أقول :

— إنك لن تحضرى غدا يا أنسة ، فأذكرى ذلك جيدا ..
ولا أظنك تحلمين بشئ كهذا ، اليس كذلك ؟

ولكنها لم ترد على الإبتسام ، فاستطردت قائلة :

— آه .. سوف آخذ حذرى تماما .. سوف أصلح ذلك القفل ، ولن تجدى طريقا أخرى تهربين منها ..

فقهقهت مسرورة ، وقالت :

— سوف أتسلق السور ! .. فان « الجرائح » ليس سجننا يا ايلين ، وأنت لست سجانتي .. فضلا عن ذلك فأنى أشرفت على السابعة عشرة ، وأصبحت امرأة ! .. وأنى واثقة من شغاف لينتون سريعا ، إذا ما أتيح له أن أقوم على العناية به ورعايته .. ثم اننى ، كما تعرفين ، أكبر منه سنا ، وأكثر تعقلا ، وأقل تدللا وصغارا ، اليس كذلك ؟ ..
ولن يلبث حتى يستجيب لتوجيهاتى ، مع قليل من الملاينة والملاطفة من جانبى .. فإنه يغدو فتى جميلا رقيقا عندما يكون فى أطيب حالاته .. وسوف أجعل منه طفلى المدلل ، لو أصبح لى .. اننا لن نتشاجر قط بعد أن يعتاد احدنا الآخر .. أليس كذلك ؟ .. ألا تحبينه يا ايلين ؟

نصحت قائلة :

— أحبه ؟ .. انه اسوا مضغة رأيتها تناضل الأسقام لتبلغ سن المراهقة ، خلقا وطباعا .. ومن حسن الحظ انه لن يبلغ العشرين قط ، كما تكن مستر هيكليف .. بل إننى لأشك حقا فى بقاءه حيا إلى الربيع القادم .. وما أقلها من خسارة سوف تصيب أسرته بموته عندما يحين أجله ! .. لقد كان من حسن طالعنا أن أباه قد أخذه ، فلو بقى معنا لظل يزداد انانية ونكدا ، كلما زده عطفنا ورفقا ! .. وكم يسرنى انه لن تتاح لك أية فرصة لتتخذى منه زوجا لك يا مس كائى !
فقطبت رفيقتى أساريرها فى وجوم وهى تسمع هذا الحديث .. فان كلامى عن موته بهذه البساطة وقلة الاكتراث قد جرح شعورها .. ومالبت ان قالت ، بعد فترة من التفكير والتأمل :

— إنه اصغر منى ، وهو بذلك خليق بأن يعيش أكثر منى .. وسوف يعيش ! .. بل لا بد ان يعمر مثلى على الأقل ! ..
وهو الآن من القوة بمثل ما كان عند قدومه إلى الشمال اول مرة .. إننى واثقة ان علته ليست إلا بردا خفيفا ، كالذى أصاب والدى .. وأنت تقولين إن أبى سوف يشفى قريبا ، فلماذا لا يشفى هو كذلك ؟

نصحت بها حاتقة :

— حسنا .. حسنا .. لاحاجة بنا لأن نشغل نفسينا بهذا

الأمر .. فأصغى إلى يا آنسة ، وتدبرى قولى جيدا ، إذ
أنى سوف أحافظ على كلمتى .. انك إذا حاولت الذهاب
إلى « مرتفعات ويذرنج » ثانية ، سواء معى أو بدونى ،
فسوف أخبر مستر لينتون .. ومالم يسمح لك ، فان كل
صلة بينك وبين ابن عمك يجب الا تتجدد قط ..

فغمضت كائى فى تجهم :

- لقد تجددت فعلا ..

- إذن يجب الا تستهر ..

فكان جوابها : « سوف نرى ! » ، ثم اطلقت العنان لمهرها
فانطلق يعدو بها ، تاركة إياى أسير مكدودة فى المؤخرة !

وبلغنا المنزل قبل موعد غدائنا .. وكان السيد قد حسبنا
نقوم بجولة فى البستان ، فلم يسألنا تفسيرا لنبيتنا الطويلة ..

وما كدت ادخل المنزل حتى أسرعت أستبدل حذائى
وجواربى المبللة ، ولكن بقائى بها مدة طويلة فى « المرتفعات »
كان قد أحدث اثره السيئ .. ففى صباح اليوم التالى لم
استطع القيام ، ولزمت الفراش ثلاثة أسابيع كاملة عجزت
خلالها عن الاضطلاع بواجباتى فى المنزل .. ولم أكن قد
عانيت مثل هذا المرض قبل ذلك ، كما أننى - والحمد الله -
لم أصب بهئله منذ ذلك الحين ..

وكان مسلك سيدتى الصغيرة اشبه بالملائكة ، وهى تاتى
لخدمتى والعناية بى والترفيه عنى فى وحدتى .. وكان

اعتكافى هذه المدة محطما لروحي المعنوية إلى حد بعيد ، فليس
أشد إيلاما ، لشخص اعتاد الحركة والنشاط ، من اضطرابه
إلى التزام السكون والجمود .. ولكن ذلك ، والحق يقال ،
كان سببا تافها للتدمر والشكوى .. فان كائرين كانت لا تكاد
تفادر حجرة أبيها ، حتى تهرع إلى جوار فراشى .. كان يومها
مقسما بيننا كلينا ، لا تقطع منه لحظة لمتعتها الخاصة .. بل
لقد أهملت وجبات طعامها ، ودروسها ، ولعبها .. كانت أشد
المرضات ولعا بواجباتها وتعلقا بها .. ولا ريب أنها كانت
تضم صدرها على قلب كبير ، استطاعت أن تهينى منه الكثير ،
مع حبها العظيم لأبيها .. وقد قلت إن أيامها كانت مقسمة
بيننا ، ولكن السيد كان يعتكف مبكرا ، كما أننى لم أكن أحتاج
لشئ عادة بعد الساعة السادسة .. وهكذا كانت الأمسيات
ملكا خالصا لها .. يا للطفلة المسكينة ! .. إننى ما فكرت قط
فيما كانت تشغل به نفسها فى تلك الأمسيات بعد تناول
الشاي .. ومع أننى لاحظت كثيرا ، عند ما كانت تاتى إلى
حجرتى لتتنمى لى ليلة طيبة ، توردا نضيرا فى وجنتيها ،
واحمرارا قانيا فى أصابعها النحيلة ، إلا أننى كنت أعزو ذلك
إلى توهج النار فى المدفأة ، بدلا من أن أفكر فى احتمال
حدوثه من رحلة على الجواد فى برد اليرارى القارس !

الفصل الرابع والعشرون

في ختام الأسابيع الثلاثة ، استطعت أن أغادر حجرتي وأتمشى في أنحاء المنزل .. فلما أتيح لي الجلوس في المساء لأول مرة بعد مرضي ، رجوت كاثرين أن تقرا لي لأن عيني كانتا كليتين ، اضعفهما المرض .. وكنا جالستين في المكتبة ، بعد أن أوى السيد إلى فراشه ، فخيّل لي أن رضى كاثرين كان مشوبا بشيء من التردد أو التكره ، وعزوت ذلك إلى أن كتبني من النوع الذي لا تروق لها مطالعته ، فطلبت اليها أن تتولى بنفسها اختيار ما تقرؤه ، فانتقت أحد كتبها المفضلة ومضت تقرا لي زهاء ساعة كاملة ، ثم بدأت بعد ذلك تقطع القراءة لتطرنى بالأسئلة :

— الست متعبة يا ايلين ؟ .. اليس الأفضل أن تخلدى إلى فراشك الآن ؟ .. هل يعاودك المرض من طول السهر يا ايلين ؟
فكنت في كل مرة أجيبها : كلا .. يا عزيزتى .. لست أشعر بأى تعب قط ..

فلما رأنتى لا أتحرك من مكاني ، لجأت إلى محاولة أخرى تظهر بها نفورها من هذه المهمة ، فانقلب الأمر إلى التثاؤب والتمطى ، حتى ضاق ذرعها فقالت :

— لقد تعبت يا ايلين ..

— دعى القراءة إذن ، ولننتكلم سويا ..

ولكن ذلك كان لديها أسوأ من القراءة ، فراحت تتلملم

وتتنهد ، وتنظر إلى ساعتها حتى بلغت الساعة الشامنة ، فنهضت لتذهب إلى حجرتها .. وحدست من نظراتها المتبرمة الثقيلة ، ومن فرك عينيها طويلا ، أن النعاس قد أنهكها تماما ولم تعد تقوى على مغالبتها .. وفي الليلة التالية كانت أضيق صدرا وأكثر تبرا .. وفي الليلة الثالثة من ملازمتها لي شكت من صداع أصابها ، وتركتني مبكرة .. وخيل لي أن مسلكها يبدو غريبا ، فلما طال مكثي وحيدة فترة طويلة ، رأيت أن أذهب إليها لاستفسر منها إن كانت قد تحسنت ولاسألها أن تأتي لتضطجع على الأريكة بدلا من بقائها في الظلام في الطابق العلوى وحدها .. ولكني لم أجد أثرا لكاثرين في الطابق العلوى ولا في غيره من أرجاء البيت .. وأكد لي الخدم جميعا أنهم لم يروها .. فرحت أنصت مليا عند باب مستر لينتون ، ولكن الصمت كان يسود الحجرة فلم اسمع فيها صوتا أو حسا .. وأخيرا عدت إلى حجرتها ، وأطفات شمعتي ، وجلست أنتظر في فراغ النافذة ..

كان القمر يغمر الحديقة بضياؤه المثلث ، والأرض قد اكتست بغلالة رقيقة من ندف الثلج المتساقطة ، فخطر لي أنها قد تكون فكرت في القيام بجولة في الحديقة تنعشها وتخفف من صداعها .. وما لبثت أن لمحت فجأة شبحا يسير في حذر بجوار سياج الحديقة الداخلى ، حسبته بادئ الأمر سيدتى الصغيرة ، ولكنه ما إن برز إلى الضياء حتى تبينت فيه أحد السياس .. وظل واقفا فترة طويلة يتطلع إلى طريق العريات الخارجى في اهتمام ، وإذا به يندفع بفتة في خطى

حشيثة ، كأنما اكتشف شيئا يرقبه ، ثم مالبت أن ظهر بعد قليل وهو يسحب وراءه مهر الأنسة ، وهى تسير إلى جانبه بعد أن ترجلت عنه فى التو واللحظة .. ومضى الرجل بوجدته فى حذر وتلصص نحو الأسطبل ، بينما تسللت كائى إلى المنزل من نافذة مفتوحة فى حجرة الجلوس ، وتسلفت الدرج فى خفة وسكون إلى حيث كنت فى انتظارها فى الطابق العلوى ! .. وأغلقت باب الحجرة خلفها فى رفق ، ثم نزعته حذاءيها اللذين كساهما الطلج ، وخلعت قبعتها ، وشرعت تتقدم ، دون أن تحس بتجسسى عليها ، لتضع معطفها جانبا ، وعندئذ نهضت بفتة وبرزت من مكمنى !

وعقلت المفاجأة لسانها من الفزع لحظة ، وبدا ارتباعها فى الشبهة التى انبعثت منها ، وجمدت فى مكانها بلا حراك .. وكنت شديدة التأثر بما بدا منها من رفق وعناية بى أثناء مرضى القريب ، فبدات أقول لها دون أن تنطوى كلماتى على شيء من التأنيب أو اللوم ..

- إلى أين ذهبت على ظهر جوادك فى مثل هذه الساعة يا عزيزتى الأنسة كائرين ؟ .. ولماذا حاولت خداعى باختلاق الأكاذيب ؟ .. أين كنت ؟ .. تكلمى !

فتعشرت الكلمات فى فمها وهى تقول :

- لقد ذهبت أنتزه عند نهاية البستان ! ولم أخلق أية أكاذيب !

- ألم تذهبنى إلى أى مكان آخر ؟ ..

فلم تزدد على أن غمغمت قائلة : « كلا .. »

فقلت فى أسى وقد تهدج صوتى بالبكاء :

- أواه ياكائرين ! .. انت تعلمين أنك قد أتيت خطأ كبيرا ، والا ما اندفعت إلى الكذب على .. وان ذلك ليحزننى كثيرا .. ولقد كان الأولى لى أن يدوم مرضى ثلاثة أشهر ، من أن اسمعك تختلقين الكذب عمدا ..

فاندفعت إلى الامام ، وهى تنفجر باكية ، وأحاطت عنقى بذراعها ، قائلة :

- حسنا يا ايلين .. لقد كنت أخشى أن تغضبنى منى ، فعدينى الا تغضبنى ، وسوف تعرفين الحقيقة بحذافيرها ، لأننى أكره إخفاءها عنك ..

فجلسنا على مقعد بجوار النافذة ، وأكدت لها أننى لن أوئبها مهما يكن سرها ، ولو أننى بالطبع كنت قد حدثته .. فبدات تقول :

- لقد كنت فى « مرتفعات ويدرنج » يا ايلين ، ولم أتخلف عن الذهاب إلى هناك يوما واحدا منذ مرضك ، إلا ثلاث مرات قبله ، ومرتين بعد أن شفيت وغادرت حجرتك .. كنت أمتح « مايكل » الكتب والصور ليعد لى « ميني » كل مساء ، وليعيده إلى الأسطبل بعد عودتى .. ولكن لا توجهى إليه لوما أو تأنيبا هو الآخر .. وكنت أصل إلى المرتفعات فى السادسة والنصف ، وأظل بها عادة حتى الثامنة ، فأعود مسرعة أركض بجوادى ركضا .. ولم يكن ذهابى إلى هناك بحثا عن التسلية والترفيه لنفسى ، بل لقد كنت كثيرا ما اقضى وقتى هناك

مهمومة مكروية !.. كنت لا أحس بالسعادة إلا بين الحين والحين ، لعلها لم تكن تعدو مرة في الأسبوع !.. وفي بادئ الأمر ، كنت أتوقع أن القى عناء شديدا في إقناعك بالسماح لى بالوفاء بوعدى للينتون ، إذ كنت قد وعدته ، عند انصرافنا ، بزيارته في اليوم التالي .. ولكنى نجوت من هذا العناء عندما لزمتم فراشك في الطابق العلوى في الغداة .. وبينما كان مايكل يثبت قفل باب الحديقة بعد إصلاحه ، عصر ذلك اليوم ، أخذت منه المفتاح وأخبرته كيف يتوق ابن عمتى إلى زيارتى له ، لأنه مريض لا يستطيع الحضور إلى « الجرانج » ، وكيف أتوقع من والدى معارضة شديدة للدهابى .. ثم مضيت فى مساومته حول إعداد المهر لى .. وكان شغوفا بالقراءة ، ويفكر فى ترك خدمتنا قريبا ليتزوج .. وهكذا عرض على أن يقوم بكل ما أطلبه منه إذا امرته كتبنا من المكتبة .. ولكنى فضلت أن أعطيه من كتبى الخاصة ، فكان رضاه وسروره بها يفوق كل حد ..

وفى الزيارة الثانية ، بدا لى لينتون نشيطا فى خير حالاته ، وأعدت لنا زيللا (مدبرة منزلهم) حجرة نظيفة ونارا تتلظى فى المدفأة ، ثم أخبرتنا بأن جوزيف خرج ليشترك فى صلاة جامعة ، وأن هيرتون صحب كلابه إلى الخارج - وسمعت فيما بعد أنه كان يسرق الطيور من غابتنا - ومن ثم يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا .. وأحضرت لنا بعض التبيذ الدافئ وكمك الزنجبيل ، وأبدت نحونا عظفا وطيبة بالفين .. وجلس لينتون فى المقعد الكبير ذى الوسادتين ، بينما اخترت لجلوسى

مقعدا هزازا صغيرا بجوار المدفأة ، ومضينا نضحك وتبادل احاديث المرح والسرور . ولم يعوزنا شيء من فنون الحديث ، ورحنا نرسم خطط ما سوف نفعله فى الصيف والاماكن التى سنذهب إليها .. وما بى من حاجة إلى ترديد ذلك على مسامعك لأنك ستسمينه سخفا ولغوا ..

ومع ذلك كدنا نتشاجر ذات مرة .. فقد قال أن أمتع وأبهج طريقة لقضاء يوم حار من أيام شهر يوليو ، هى أن يرقد المرء من الصباح حتى المساء فوق تل مغطى بالعشب وسط البرارى ، والنحل يطن جوله وسط اكمام الزهور ، سعيدا هائنا ، والقنابر تحلق فوق رأسه تصدح بأنغامها الشجية ، بينما السماء الزرقاء والشمس الساطعة تملآن الفضاء حوله إشراقا وضياء لا تفسده السحب .. تلك كانت فكرته المثالية عن سعادة لا تطاولها سعادة الجنان .. أما قصارى السعادة فى رأى فكانت التآرجح بين اغصان شجرة خضراء ، لاوراقها خفيف لا ينتهى .. تهب عليها ريح غربية ، وترفرف فوقها سحب بيضاء سريعة متتابعة ، وتتدفق الأنغام حولها من كل جانب ، لا من القنابر فحسب ، بل من كل أنواع الطيور الصداحة ، وتترامى البرارى من بعد وهى تتكسر وديانا وأخايدى باردة معتمة ، تخللها قباب عظيمة من الحشائش الطويلة التى تهتدل تحت أنامل النسيم أمواج بعد أمواج ، ويمتلئ الفضاء حولها بخشخشة الشجر وخرير جداول الماء ، والدنيا كلها من حولى يقظى ترقص فى وحشية على انغام من الطرب والسرور .. كان كل ما يريد هو أن يرقد

في نشوة من الهدوء والدعة ، وكانت كل أمنيته أن اتللا وأرقص في عيد عظيم من أعياد الدنيا .. قلت له إن عالمه ليس إلا عالما مسجى بين الحياة والموت ، فقال لي إن عالمي ليس إلا عالما ثملا مخمورا ! .. قلت إنني في عالمه لا ألبت أن يدركني النعاس ، فقال إنه في عالمي لا يلبث أن يضحى مقطوع الأنفاس ! .. ثم أخذته نوبة من القحة وسلطنة اللسان ، وتكنى رحت الأينه حتى اتفقنا في النهاية على أن يجرب كلانا كلا العالمين ، عندما يحين موعد الطقس الملائم ، وعندئذ تبادلنا القبلات وعدنا بصدقين ..

وبعد أن ظللت جالسة في سكون زهاء ساعة ، تطلعت حولي إلى الحجرة العظيمة بأرضيتها العارية الجميلة ، وفكرت في روعة اللعب فيها إذا رفعنا المائدة .. فطلبت إلى لينتون أن يدعو زيللا لمساعدتنا ، ولتلعب معنا لعبة (الاستغماية) ، فتحاول أن تمسك بنا وهي معصوبة العينين ، كما اعتدت أن تلعب معنا يا إيلين .. فلم تطب له هذه اللعبة ، وزعم أن ليس فيها متعة أو تسلية .. ولكنه رضى أن يلعب معي بالكرة . ووجدنا كرتين في الصوان وسط كومة من اللعب القديمة و (النحل) والمضارب والسهام المريشة .. وكان على إحدى الكرتين حرف «ك» وعلى الأخرى حرف «هـ» ، فرغبت في اخذ الأولى لعلمي أن الحرف المنقوش عليها يرمز إلى «كاثرين» ، وأن الأخرى قد ترمز إلى اسمه هو أي « هيشكليف » ، ولكن حشو كرته كان يبرز من ثقب فيها ، فلم ترق في نظره ! .. وظللت أغلبه باستمرار ، فتملكه الغضب من جديد ، وأخذ

يسعل ، ثم عاد إلى مقعده .. ومع ذلك ، فقد عاد إلى مرحه وانبساطه في تلك الليلة بغير عناء ، مأخوذاً بسحر أغنيتين أو ثلاث من أغنياتك الجميلة يا إيلين .. وعندما اضطرت إلى الانصراف ، راح يرجوني ويتوسل إلي بأن أعود إليه في المساء التالي ، فوعده بذلك .. وعاد بي « ميني » إلى الدار في خفة الهواء وسرعة الريح ! .. وقضيت ليلتي حتى الصباح أحلم « بمرتفعات ويدرنج » وبابن عمتي اللطيف المحبوب !

ولازمني الاكتئاب في اليوم التالي لسببين : أولهما أن المرض اشتد عليك ، والثاني لأنني كنت أود أن يعرف أبي بالأمر ، وبوافق على رحلاتي هذه .. فلما فرغت من تناول الشاي ، كان القمر قد اشرق بضياؤه الساحر الجميل ، وسرعان ما تبدد اكتسابي عندما ركبت ذاهبة إلى هناك .. كنت أمني نفسي بقضاء أمسية سعيدة أخرى ، ولكن الذي زاد من ابتهاجي هو أن لينتون كان سيقضى بدوره أمسية سعيدة .. ودخلت بالجواد إلى حديقة المنزل ، وهممت بأن أدور حوله إلى الباب الخلفي ، عندما قابلني ذلك الشخص هيرتون ، وأمسك بعنان جوادى ، وطلب إلى أن أدخل من الباب الأمامي .. وراح يربت على عنق « ميني » ويقول انه جواد جميل أصيل ، وكان يبدو كأنما يسعى وراء دفعي إلى تبادل الحديث معه .. ولكني لم أقل له أكثر من أن يترك الجواد وشأنه ، حتى لا يركله .. فأجاب بلهجته السوقية وهو يفحص سيقان الجواد بانظاره في ابتسام : « لو فعل ذلك قلن يحدث اذى كبيرا » .. وكنت أكاد أميل إلى جعل الجواد يجرب فيه

ذلك .. ومهما يكن من أمر فانه مضى امامى ليفتح الباب ، وما ان وضع يده على المزلاج حتى تطلع إلى النقوش التي تعلقه (١) ، وقال في مزيج ابله من الارتباك والزهو معا :

— استطيع الآن ان اقرأ هذه الكتابة يا مس كاثرين !
فهفت قائلة :

— ما شاء الله ! .. ما ايدع ذلك ! .. اسمعنا إذن من فضلك .. لقد ازددت ذكاء وحذقا كما يبدو !

فأخذ يتهجى الحروف ، ويتمشدد بالمقاطع ، حتى قرأ « هيرتون ايرنشو » .. ولكنه ما لبث ان سكت فجأة .. فلما طال صمته قلت استحثه مشجعة :

— والأرقام ؟

— لا استطيع قراءتها بعد !

فقهقهت ضاحكة في جلد ، وصحت به :

— آه يا بليد !

فراح الغبى يحملق في وجهي وقد حامت حول شفثيه تكسيرة واسعة ، وتجمعت حول عينيه جهامة وعبوس ، كأنما أخذته الحيرة فيما إذا كان يجدر به ان يشاركني المرح ، وفيما إذا كانت كلماتي تنم عن مجرد ملاحظة ودية ، أم أنها — كما كانت في الحقيقة — تنم عن الازدراء والاحتقار ..

(١) يذكر القارىء ان الباب الرئيسى تعلقه نقوش تقرأ « هيرتون

ايرنشو » وتحت هذا الاسم نقتت سنة بناء الدار « ١٥٠٠ » .

وحسنت شكوكه ، بأن استعدت فجأة رسالتي ، وسألته ان يمضى لشأنه لأننى قدمت لزيارة لينتون ، لا لرؤيته هو .. فرايت وجهه ، في ضوء القمر ، تعلقه حمرة قانية . وأبعد يده عن المزلاج ، ثم انصرف متواريا عن أنظاري وهو صورة مجسمة للزهو المهيض .. وأحسبه قد خال نفسه سيدا مهذبا مصقولا مثل لينتون لمجرد انه عرف كيف يتهجى اسمه ! .. فخاب امله إذ وجدنى لا أقدر له هذه المنزلة ..

قالت مسز دين تتابع حديثها : فقاطعتها قائلة :

— مهلا يا عزيزتى مس كاثرين .. اننى لن الومك او اؤتبك . ولكنى لا احب مسلكك هذا .. فلو انك ذكرت ان هيرتون هو ابن خالك مثلما كان السيد هيشكليف ابن عمك ، لادركت مبلغ تجنبك الصواب بمسلكك وتصرفك على هذا النحو .. وعلى الأقل فان طموحه إلى مجاراة لينتون وتطلعه إلى ان يكون مهذبا مصقولا مثله ، أمر كان يستحق منك الاعجاب والاطراء .. ولعله لم يرد تعلم القراءة لمجرد رغبته في التفاخر ، فلست أشك في انه خجل عندما غيرته بجهله ، فأراد ان يداوى هذا الجهل ، ويستجلب غيظتك ورضائك .. لذلك فان السخرية من جهوده المتواضعة إنما تنم عن سوء الادب ! .. ولو انك ربيت في مثل ظروفه ، فهلا كنت نشأت أقل تهديبا وأكثر همجية ؟ .. لقد كان وهو طفل صغير لا يقل عنك نشاطا وذكاء ، وانه ليؤلمنى ويؤذى شعورى ان يلقي الآن مثل هذا الازدراء والاحتقار ، لا لسبب إلا لظلم ذلك السافل هيشكليف له ، وسقيه إياه كؤوس الهوان والمذلة ..

فدهشت لحماستى وغيرتى ، وصاحت قائلة :

- حسنا يا ايلين .. لا احسبك سوف تبكين من أجله ! ..
اصبرى حتى تسمى إذا كان قد حفظ الحروف الأبجدية
مرضاة لى ، وإذا كان ذلك الوحش يستحق المعاملة فى أدب
ورقة ! .. لقد دخلت إلى حجرة الجلوس ، فوجدت لينتون
راقدا فوق الأريكة ، وقد هم بالنهوض للاقائى وهو يقول :

- إننى مريض الليلة يا حبيبتى كاثرين ، فعليك ان تتولى
الحديث كله ، وتدمينى أصفى إليك فحسب .. تعالى
واجلسى بجانبى ! .. لقد كنت واثقا من أنك ستغين بوعدك ،
وسوف تعدينى الليلة أيضا بالحضور غدا ..

وكننت قد أدركت أننى لا ينبغى لى أن اضايته أو اعانده ،
لأنه كان سقيما .. فرحت اتحدث إليه فى رفق وهدهوء ،
لا أوجه إليه أى سؤال ، متجنبه كل ماقد يثيره .. وكننت قد
أخذت له معنى بضعة من أجمل كتبى ، فطلب إلى ان أقرأ له
قليلا فى أحدها ، وكننت على وشك أن البى رغبته ، عند ما
دفع ايرنشو الباب فى عنف ، وقد جمع بين سموم الحقد
والنية السيئة المبيتة ، فتقدم نحونا مباشرة ، وأمسك بذراع
لينتون وجذبه فطوح به من فوق الأريكة وهو يقول فى صوت
مدغوم من شدة الغضب والانفعال ، وقد انتفخت أوداجه وبدا
ثائرا شديد الهياج :

- هيا اذهب إلى حجرتك ! .. وعليك أن تأخذها إلى
هناك مادامت تحضر لرؤيتك .. أنك لن تحرمنى من الجلوس
هنا ، فاذهب إلى الشيطان أنت وهى !

وانطلق يرمينا بأقذع السباب ، ولم يدع للينتون الفرصة
لإجابته ، بل سحبته إلى باب المطبخ ودفعه إليه ، ثم رفع
قبضته فى وجهى بينما كنت أتبع لينتون ، حتى ظننت أنه
يتوق إلى ان يصرعنى أرضا ! .. وتملكنى الفزع لحظة ،
فسقط احد الكتب من يدي ، وعندئذ ركله بقدمه ورأى وهو
يوصد خلفنا باب المطبخ .. وفى تلك اللحظة سمحت ضحكة
خبيثة مجلجلة تنبعث من جانب الموقد ، فاستدرت ورايت
ذلك الشيخ البغيض جوزيف واقفا يفرك يديه المقددتين ، وهو
يهتز طربا ويقول :

- كنت واثقا من انه سيطرذكما .. فهو قى عظيم ،
سرت فى عروقه روح أجداده العظيمة .. إنه يعلم ، مثلما
أعلم ، منذ الذى كان يجب أن يكون السيد هنا .. ها .. ها
ها ! .. لقد أفرعكما تماما .. ها .. ها .. ها !

ولم ابد اكترائا لسخرية الوغد العجوز ، وسألت ابن عمتى :

- أين يجب ان نذهب الآن ؟

ولكن لينتون كان شديد الامتناع يرتعد غضبا وانفعالا ..
وصدقيني يا ايلين انه لم يكن جميلا وقتئذ .. كلا .. بل كان
بيدو لى مخيفا مفرعا .. لأنه وجهه النحيل وعينيه الواسعتين
كانت جميعا تنقلص فى غضب جنونى مغلول .. فأمسك
بمقبض الباب وراح يهزه بكل ما وسعته قوته ، وكان موصدا
من الداخل ، وهو يصيح بصوت حاد :

- إذا لم تفتح لى الباب فسوف أقتلك ! .. إذا لم تفتح

لى الباب فسوف أقتلك ! .. أيها الشيطان .. أيها الشيطان !
.. سوف أقتلك ! .. سوف أقتلك !

فجلجلت قهقهة جوزيف الساخرة من جديد ، وراح يقول :

- من شابه أباه ! .. انه أبوه تماما ! .. لقد جمعنا السلالتين حولنا .. واحد هنا وواحد هناك ! .. لا تخش شيئا يا هيرتون ، يا بنى ، ولا تخف منه فانه لا يستطيع أن ينالك ..

وامسكت بيدى لينتون وحاولت أن أجذبه بعيدا عن الباب ولكنه كان يصرخ صراخا مقيتا جعلنى لا أجرؤ على المضي فى محاولتى .. وأخيرا اختنقت صيحاته فى نوبة مروعة من فجريت إلى الغناء وقد غشيت نفسى من الرعب ، وناديت السعال ، وما لبث أن تدفق الدم من فمه وسقط على الأرض زيللا بأعلى صوت استطعته .. وسرعان ما سمعتنى ، وكانت تحلب الأبقار تحت مظلة وراء صومعة الغلال ، فتركت ما فى يدها وهرعت إلى تسألنى عما هنالك .. وكنت مبهورة الأنفاس لا أستطيع النطق وشرح الامر ، فاكفيت بأن جذبته نحو المطبخ ، ورحت أنظر حولى باحثة عن لينتون ، فإذا بإيرنشو قد ترك حجرة الاستقبال واتى ليرى آثار الشر الذى أحدثه ، فرأيته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ويصعد به الدرج إلى الطابق العلوى .. فصعدت ورائه مع زيللا ، ولكنه أوقفنى عند قمة الدرج ، وقال اننى لا ينبغي أن أدخل الحجرة ورائهم ، وإنما يجب أن أعود إلى منزلى .. فصحت فيه : انه



فرايته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ليصعد به الدرج الى الطابق العلوى ..

قتل لينتون ، وأن لا بد لي من الدخول .. وعندئذ أوصد جوزيف باب الحجرة وقال انه لا يخلق بي أن أرتكب مثل هذه حماقة ، وسألني إن كنت أود أن أكون مجنونة مثل لينتون ؟ .. فظلت واقفة أبكى حتى ظهرت زيللا ثانية ، وأكدت لي انه حري بأن يتحسن قليلا ، لو كف عن ذلك الصراخ وتاك الجلبة التي يحدثها ، ثم أخذتني ، وهي تكاد تحملني حملا ، إلى حجرة الجلوس ..

وصدقتني يا ايلين اننى كدت أقطع شعر رأسي ، ومضيت أبكى وانتحب حتى غشيت عيني ولم أعد أبصر شيئا .. وكان ذلك الوغد الذي تعطفين عليه بهذا القدر يقف تجاهي ، ويبيح لنفسه بين آن وآخر أن يطلب إلى السكون ، ولا يفئا ينفي مسئوليته عما حدث .. وأخيرا انتابه الفزع من تأكيدي له بأنني سأخبر أبي بما حدث ، وأنه سوف يلقي في السجن ثم يشنق ، فأجهش بالبكاء هو نفسه ، ثم انفلت مسرعا إلى الخارج ليخفي انفعاله واستخذه .. ومع ذلك فلم اتخلص منه تماما تلك الليلة .. فعندما انتهى الأمر بإرغامي على الرحيل ، وابتعدت عن المنزل نحو ثلاثمائة ياردة ، انبعث فجأة امامي من الظلام على أحد جانبي الطريق ، وأمسك بزمام جوادي « مينى » وهو يقول لي :

- إننى شديد الحزن يا مس كاثرين .. ولكن ، في الوقت نفسه ، كان من المؤلم لي .. فعاجلته بضربة من سوطي أصابته بقطع دام في وجهه ، وجعلتني أظنه ربما قتلني بسببها .. ولكنه ترك عنان الجواد ،

وانطلق يهدر بالفاظ السباب كالرعد القاصف ، فاطلقت المنان للجواد وعدت إلى المنزل وقد أوشكت أن أفقد حواسي .. ولم اذهب إلى حجرتك لاننى لك ليلة طيبة ، كما لم اذهب إلى « مرتفعات ويدرنج » في الليلة التالية .. كنت شديدة الاشتياق إلى الذهاب ، ولكنى كنت مهتاجة الاعصاب إلى درجة غريبة .. كنت احيانا أتوجس سرا وأخشى ان اسمع بموت لينتون ، وكنت احيانا أرتجف فرعا لمجرد التفكير في الالتقاء بهيرتون .. وعاودتني شجاعتي في اليوم الثالث ، أو الأحرى ان تقولي اننى لم اطق الصبر على مزيد من الحيرة والشك ، فتسللت ماضية إلى هناك مرة أخرى .. ذهبت في الخامسة ، ماشية على قدمي ، وقد خيل إلى اننى استطيع تدبير الأمر بحيث أتسلل إلى المنزل ، ثم إلى حجرة لينتون ، دون ان يرانى احد .. ولكن الكلاب كشفت امرى وأذاعت نبا مقدمي ، فاستقبلتني زيللا قائلة : « ان الفتى يتحسن على نحو بديع » . ثم قادتني إلى حجرة صغيرة أنيقة مفروشة بالسجاد ، امتلا قلبي بسرور صامت عندما شهدت فيها لينتون راقدًا فوق أريكة صغيرة ، يطالع كتابا من كتبي .. ولكنه لم يشأ ان يخاطبني او ينظر إلى خلال ساعة كاملة يا ايلين ! .. كان وقتئذ في حالة تعسة من الشراسة وسوء الخلق .. والذي زاد من دهشتي وعقل لساني عن الكلام ، انه عندما فتح فمه لم يفعل إلا لينطق بتلك الفرية المروعة ، وهي اننى كنت السبب في ذلك الشجار ، وان هيرتون لا لوم عليه ولا تثريب ! .. وإذ وجدتني عاجزة عن الإجابة حتى

لا انفجر باكية ، فقد نهضت ومشيت خارجة من الحجرة .. فأرسل خلفي ذلك النداء الخافت : « كاثرين ! .. ولكن لم يكن في حسبانته وتقديره أن يكون ردى عليه ما فعلته ، إذ ضربت بندانته عرض الحائط ولم التفت إليه ، وانصرف لتوى ..

وكان اليوم التالي هو المرة الثانية التي بقيت فيها في المنزل ، وقد كان يستقر في عزمي ألا أزوره بعد ذلك قط .. ولكنني لقيت من الشقاء في الذهاب إلى الفراش والنهوض عنه دون أن أسمع عنه شيئاً قط ، ما جعل عزمي يتبدد في الهواء حتى قبل أن يستقر تماماً .. لقد بدأ لي مرة أن من الخطأ القيام بتلك الرحلة ثانية ، أما الآن فقد بدا لي أن الخطأ كل الخطأ إنما هو في الامتناع عنها .. وحضر إلى ما يكل السائس ليسألني هل يسرج « ميني » ، فأجبت بالإيجاب ، وكنت أعد نفسي والمهر يحملني فوق التلال ، قائمة بواجب لا مناص لي من أدائه .. وقد اضطرت إلى المرور أمام النوافذ الامامية في طريقي إلى الفناء ، إذ لم يكن ثمة جدوى من إخفاء حضوري .

ورأتني زيللا أسير نحو البهو ، فقالت : « إن السيد الصغير في حجرة الجلوس .. »

ومضيت إلى تلك الحجرة ، فإذا أبردشو هناك كذلك . ولكنه غادرها على الفور .. وكان لينتون يجلس في المقعد الكبير مغمض العينين ، شبه نائم .. فسرت نحو المدفأة ، ثم بدأت أقول في لهجة رصينة ، عنيت بأن يبدو فيها صدق ما أقوله إلى حد ما :

« هذا آخر لقاء بيننا يا لينتون ، ما دمت لا تميل إلى ، وما دمت تظن أنني لا أحضر إلا بقصد الإساءة إليك . وتزعم أنني أعمل ذلك في كل مرة .. فليقل كل منا لآخر «وداعاً» ، وعليك أن تخبر مستر هيثكليف بانك لا تضرر أية رغبة في رؤيتي ، وإن عليه أن يكف عن اختلاق المزيد من الأكاذيب عن هذا الأمر ..

فأجاب :

« اجلسي يا كاثرين ، واخلمي قبعتك .. انك تلقين من السعادة أكثر مما القاه ، ولذلك ينبغي لك أن تكوني أفضل مني واحسن خلقاً .. إن أبي ينسب إلى من العيوب ، ويظهر نحوي من الازدراء ما يكفي لأن يجعل من الطبيعي أن يملكني الشك في نفسي ! .. إنني أشك فيما إذا لم أكن تافها حقيراً بالقدر الذي لا يفتأ يعنني به ؟ .. وعندئذ أشعر بالحنق والمرارة ، فأمتت الناس جميعاً .. إنني أكاد أكون دائماً تافها حقيراً ، سييء الخلق ، خبيث النفس .. وفي وسعك ، إذا شئت ، أن تقول لي وداعاً .. فأنت بذلك سوف تتخلصين من شيء يزعجك وتضيقين به .. ولكنني لا أريد منك يا كاثرين إلا أن تكوني عادلة معي .. وصدقيني أنني أود لو أنني كنت في مثل رقتك ، وحنانك ، وطيبتك .. أود ذلك بكل قواي وعن رضى واختيار ، دون أن أجاريك في سعادتك وصحتك .. وصدقيني أن طيبتك معي ورفقك بي قد جعلني أحبك حباً عميقاً ، أكثر مما لو كنت قد نلت حبك عن جدارة

واستحقاق .. ومع اننى لا استطيع ، وليس فى قدرتى ، ان أخفى عنك طبيعتى المشاكسة ، فاننى أشعر بالأسف من ذلك ، وأندم عليه .. وسوف أظل أسفا نادما حتى اللفظ أنفاسى الأخيرة !

أحسست بأنه يقول الحقيقة ، وأحسست بأننى يجب ان أصفح عنه .. ومع انه سوف يتشاجر معى ، فى اللحظة التالية ، فان من واجبى أن أمنحه المزيد من الصفح والتسامح .. وعقد الصلح بيننا ، ولكن بمداد من الدموع ظللنا نذرفه معا بقية الوقت الذى مكثته ، وإن لم يكن كله دمع الحزن والأسف ! .. ومع ذلك فقد أسفت لأن لىنتون كانت له هذه الطبيعة العووجة .. فانه لن يريح أصدقائه قط ، لا ولن يريح نفسه !

وكنت أذهب معه إلى البهو دائما ، منذ تلك الليلة ، لان أباه عاد من رحلته فى اليوم التالى .. وفى تلك المدة كلها ، لم تقض من الأمسيات السعيدة المرحمة المليئة بالأمل إلا ثلاثا ! .. اما باقى زيارتى فكانت جميعها كثيفة مليئة بالهموم ، بين أنانيتى ومشاكسته حيناً ، وبين أوجاعه وأسقامه أحيانا .. ولكننى تعلمت أن أحتمل الأولى بمثل الصبر والابانة اللذين أحتمل بهما الثانية .. وكان مستر هيثكليف يتجنبنى عامدا ، فلم أراه طوال هذه المدة إلا مرة واحدة .. فقد ذهبت يوم الأحد الماضى مبكرة من عادتى ، فسمعتة يسلق لىنتون بالسنة حداد على مسلكه معى فى الليلة السابقة وهو شىء لا أدرى كيف عرفه ، إلا أن يكون يسترق السمع

علينا .. كان مسلك لىنتون ، فى الحقيقة والواقع ، مشيراً يبعث على الحنق والسخط .. ولكن ، مهما يكن من امر ، فذلك امر لا يخص احدا سواى .. وهذا ما قلته لمستر هيثكليف عندما اقتحمت الحجرة وقطعت عليه محاضرتة القاسية .. وعندئذ انفجر مقهقها ، ثم غادر الحجرة وهو يبدى سروره لأننى نظرت إلى الامر هذه النظرة .. ومنذ تلك الليلة طلبت إلى لىنتون أن يجعل تدمره وسخطه المرير همسا !

وها أنت قد علمت كل شىء الآن يا ايلين .. ولن يمكن منعى من الذهاب إلى « مرتفعات ويدرنج » إلا على انقراض سعادة شخصين ، فى حين أنك لو وقفت موقفا سلبيا ولم تفضى لأبى بهذا السر ، فان ذهابى لن يضير احدا او يسىء إليه .. إنك لن تخبريه ، اليس كذلك ؟ .. ولو فعلت لكان عملك قاسيا خلوا من الرحمة !

فأجبتهما :

— إن الامر يحتاج إلى دراسة وتفكير يا مس كاترين ، وسوف أقطع برأى فيه غدا .. اما الآن ، فسوف أتركك لتستريحى ، وأذهب لأمعن الفكر فيه ..

وقد فكرت فيه حقا ، ولكن بصوت مسموع امام سيدى .. فما كدت أعادر حجرتها حتى مضيت إليه قدما ورويت له القصة بحذافيرها ، لم اغفل منها سوى احاديث الفتاة مع

ابن عمته ، وسوى ذكر هيرتون ، فلم يجر اسمه على لساني بكلمة .. واستبد القلق والكرب بمسرت لينتون ، أكثر مما أظهره امامي .. وفي الصباح علمت كاثرين بخيانتى لها وإفشاء سرها ، وعلمت كذلك بأن زيارتها الخفية لابن عمته قد قضى عليها نهائيا .. وعيشا راحت تبكى وتحتج على هذا القرار ، وتتوسل إلى ابيها ان يشفق على لينتون ، فكان كل ما نالته منه لتهدئتها ان وعدها بأن يكتب إلى لينتون ويصرح له بالحضور إلى « الجرانج » كلما شاء ، ولكن عليه ان يفهم بجلاء انه ما من سبيل لذهاب كاثرين إلى « مرتفعات ويدرنج » بعد ذلك .. ولعله لو علم حقيقة حالة ابن اخته النفسية والصحية ، لوجد من الملائم ان يضمن عليها حتى بهذه الترضية اليسيرة ..



الفصل الخامس والعشرون

قالت مسز دين تتابع رواية القصة :

وقعت هذه الحوادث ، ياسيدى ، فى الشتاء الماضى ، فلم يكد يمر عليها عام بأكمله .. وما خطر لى على بال ، فى الشتاء الماضى ، اننى سوف اجلس بعد انقضاء اثنى عشر شهرا ، إلى شخص غريب عن الأسرة لأسليه بقصص افرادها .. ومع ذلك فمن يدري إلى متى ستظل غريبا عنها ؟ .. انك من الشباب وصغر السن بحيث لا يخلق بك ان تظل دائما تعيش وحدك فى عزلة وانطواء .. ثم انه ليخيل إلى ، على وجه ما ، انه ما من احد يرى كاثرين كينتون ويستطيع ان يقاوم حبا فى نفسه ! .. أنت تبتمس الآن ، ولكن لماذا يبدو عليك الاهتمام والحيوية كلما اتكلم عنها ؟ .. ولماذا طلبت إلى أن اعلق صورتها فوق المدفأة فى حجرتك ؟ .. ولماذا ؟

فصحت بها مقاطعا :

— كفى يا صديقتى الطيبة ! .. قد يكون من المحتمل جدا اننى سوف اقع فى حبا ، ولكن هل يمكن أن تحببى هى ؟ .. اننى أشك فى ذلك إلى حد بعيد يجعلنى لا أجرؤ على المخاطرة بهدوتى وسكينتى جريا وراء الاغراء .. ثم اننى لست من هذه الديار .. اننى من العالم الزاخر بالعمل وبالناس ، ولا بد لى من العودة إلى أحضانها .. فهيا امضى فى حديثك ، واخبرينى هل اطاعت كاثرين أوامر والدها ؟

فاستلتم مديرة المنزل تقول :

- نعم .. فان حبها له كان لا يزال أقوى عاطفة تغمر قلبها .. وقد تحدث إليها أبوها في غير غضب او انفعال .. بذلك الحنان العميق لشخص يوشك أن يترك كثره وسط المخاطر والأعداء ، حيث تظل كلماته الخالدة هي المعين الوحيد الذي يمكن أن يخلفه لها .. ومع ذلك فقد سألني بعد أيام قليلة :

- شد ما أود أن يكتب لنا ابن أختي أو يزورنا ، يا ايلين ! .. ولكن أخبريني برأيك فيه ، بصراحة وإخلاص .. هل تحسنت حالته ؟ .. أو هل هناك أمل في تحسنها عندما يتقدم رجلا ؟

- إنه مفرط في الرقة والضعف يا سيدي ، ولا أظنه يعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال ! .. ولسكني أستطيع أن أؤكد لك شيئاً واحداً ، هو أنه لا يشبه أباه في شيء .. ولو شاء سوء الطالع أن تتزوج مس كاترين منه ، فلن يتمرد عليها أو يخرج عن طاعتها إلا إذا كانت شديدة التسامح معه إلى حد البلادة ! .. وعلى أية حال ، فان أمامك ، يا سيدي ، فسحة من الوقت لتزداد معرفة به ولتري إن كان يصلح زوجاً لها ، فما زالت أمامه أعوام أربعة - أو تزيد - حتى يبلغ سن الزواج ..

فتنهذ اذجار ، ومشى إلى النافذة متثاقلاً ، ثم راح يتطلع بأنظاره ناحية كنيسة « جيمرتون » .. وكنا وقتئذ بعد ظهر أحد الأيام التي ينتشر فيها الضباب ، ولكن شمس فبراير كانت ترسل ضياء خافتاً بالقدر الذي استطعنا معه أن نميز

شجرتي الشربين الباسقتين في فناء الكنيسة ، والقبور المتناثرة المتباعدة ..

وما لبث أن راح يقول في صوت خفيض، كأنه يناجي نفسه :

- لقد كنت كثيراً ما ابتهل إلى الله أن يعجل بما لا بد من وقوعه ، ولكني بدأت الآن أخشاه وأنقر من مقدمه ! .. وكانت ذكرى الساعة التي هبطت فيها من ذلك التل البعيد عريسا يوم زفافي ، أقل حلاوة وعذوبة من تفكيرى في توقع حلمى إليه عاجلاً ، بعد شهور قليلة - أو ربما أسابيع - لأوضع داخل جوفه الموحش .. اننى كنت سعيداً كل السعادة ، يا ايلين ، مع صغيرتى كاتى ، فقد كانت خلال ليالى الشتاء وإيام الصيف أملاً زاخراً بالحياة يتوآب إلى جانبي .. كانت سعادتى بها لا تعادلها إلا سعادتى في الاستغراق في التأمل وحدى بين هذه الأحجار ، تحت تلك الكنيسة العتيقة ، أو راقداً - خلال ليالى يوليه الطويلة - بين الحشائش النامية فوق قبر أمها ، وكلى لهفة وحنين إلى الساعة التي أوضع فيها داخل هذا القبر بدورى .. فماذا أستطيع أن أفعل من أجل كاتى ؟ .. وكيف ينبغي أن أتركها ؟ .. إننى ما كنت لأبالي لحظة واحدة بأن ليشنن هو ابن هيثكليف ، ولا بأنه سوف يأخذها منى ، لو علمت أنه قادر على تعزيتها عن فقدى وتهوين المصاب عليها .. وما كنت لأبالي كذلك بأن هيثكليف قد حقق كل أهدافه وألمح حتى في سلبى آخر ما لدى من أسباب السعادة .. أما أن يكون ليشنن شخصاً تافهاً غير جدير بها - مجرد أداة ضعيفة في يد أبيه - فعندئذ لا أستطيع

على الأمر سكوتا ، ولا أسمح بأن أتركها له .. ومهما يكن تصرفي من القسوة في تحطيم روحها المرحة الشيطنة ، فلا بد من أن اثابر على جعلها حزينه مكتئبة اثناء حياتي ، وان أخلفها وحيدة عند مماتي .. آه ! .. يا للعزيرة الغالية ! .. انى لافضل ان أسلمها بين يدي الله ، وأوسدها الثرى قبلى !

فاجبته قائلة :

— دع الله يتولاها برعايته يا سيدى .. وإذا قدر لنا أن نفقدك يوما — لاسمح الله — فاننى بعنايته ورحمته سوف اكون لها الصديقة والناصحة حتى النهاية .. ان مس كاثرين فتاة طيبة ، لا أخاف عليها الوقوع فى الزلل عن عمد .. وان اولئك الذين يؤدون واجبهم يلقون دائما خيرا الجزاء اخيرا ..

وتقدم بنا الربيع ، ولكن سيدى لم يستكمل قواه ولم يستعد صحته ، مع أنه عاود القيام بجولاته فى الحديقة مع ابنته .. وكان ذلك فى حد ذاته فى رأيها — لقله خبرتها — دايلا على نقاهته .. وكثيرا ما كانت وجنتاه تتوردان بحمرة قانية ، وعيناه تلتتمعان فى بريق خاطف ، فأيقنت من تمام شفائه !

وفى عيد ميلادها السابع عشر ، لم يقم بزيارة المقبرة كعادته .. كان اليوم مطيرا ، فقلت له فى ملاحظة عابرة :

— لا ريب أنك لن تخرج الليلة ياسيدى ؟

— كلا .. سوف أؤجل زيارتى هذا العام قليلا ..

وكتب ثانية إلى لينتون معبرا عن رغبته الشديدة فى رؤيته .. ولو كان الفتى العليل فى حالة تسمح له بالحضور ،

لسمح له ابوه بالمجئ .. لا شك فى ذلك ولا ريب .. ولكن الذى حدث هو أنه — بناء على تعليمات ابنيه طبعاً — كتب إلى خاله خطابا يوحى بان مستر هيثكليف يعارض فى زيارته « للجرائج » ، ويقول فيه ان ذكرى خاله الشفوق ما زالت تبعث السرور فى نفسه ، وبوده ان يلقاه فى إحدى جولاته ، يوما من الأيام ، ليسمد برؤيته ، وليتوسل إليه بنفسه كي لا يظل وابنة خاله مفترقين طويلا ، هذه الفرقة القاطعة ..

كان هذا الشطر من الخطاب بسيطا ساذجا ، وهو — على الأرجح — من إنشائه .. ولكن مستر هيثكليف كان يعلم أنه أفصح لسانا من ابنه فى الدفاع عن صحبته لكاثرين ، فقد مضى الخطاب يقول : « لست أرجو ان تسمح لها بزيارتى هنا .. ولكن هل قدر على ان احرم رؤيتها إلى الأبد ، لان والدى يمنعنى من الذهاب إلى منزلها ، وأنت تمنعها من زيارة بيتى ؟ .. فهلا صحبتها ، بين آن وآخر ، إلى طريق « المرتفعات » فتتيح لنا بذلك فرصة تبادل فيها كلمات قليلة فى حضورك ؟ .. اننا لم نقترب ذنبا نستحق عليه هذا الفراق ! .. وأنت نفسك لست غاضبا منى ، وليس لديك — كما تقول — ما يثير حقدك على وكراهيتك لى ! .. فاكتب لى ، يا خالى العزيز ، رقعة رحيمة غدا ، واسمح لى بأن القاكما فى اى مكان تختاره « ثرشكروس جرائج » .. وفى يقينى ان لقاء ببنك وبنينى سوف يقنعك باننى لست على شئ من اخلاق أبى ! .. بل إنه هو نفسه يؤكد اننى ابن اختك اكثر من ان اكون ابنه ! .. ومع ان لى اخطأى التى تجعلنى غير جدير بكاثرين فانها قد صفحت عنها .. وعليك ان تصفح عنها

بدورك ، من أجل خاطرها !.. وقد سألتني عن صحتي ..
 انها احسن حالا الآن .. ولكنني طالما بقيت محروما من الأمل ،
 مقضيا على بالوحدة التعسة ، او بمعاشرة اولئك الذين لم
 يحبوني ، ولن يحبوني قط ، فمن أين لي أن أكون سعيدا ،
 أو تتقدم صحتي بخطى حثيثة ؟ »

وعلى الرغم من حب ادجار للفلام وراثته له ، فانه لم
 يستطع تلبية هذا الرجاء ، لانه لم يكن قادرا على الخروج
 في صحبة كاثرين .. فكتب إليه أنهم ربما استطاعوا اللقاء في
 الصيف ، ولكنه يود منه في الوقت نفسه أن يستمر في
 الكتابة إليه بين الحين والآخر ، ووعده بأن يقدم له ، في
 خطاباته ، كل ما في وسعه من النصح أو راحة البال ، لعلمه
 بمركزه العسير وسط عائلته .. وقد استجاب لينتون لرغبة
 خاله .. ولو انه كان حرا غير مقيد في كتابته ، لكان من الأرجح
 أن يفسد كل شيء بملء خطاباته بالشكوى والنحيب !..
 ولكن اباه كان يرقبه بعين لا تغفل ، وكان يصر - بطبيعة
 الحال - على أن يرى كل كلمة يكتبها سيدي إليه أو يكتبها
 لينتون لخاله .. وهكذا فانه بدلا من أن يحشو خطاباته بالامه
 وهمومه الشخصية العجيبة ، وهي التي لا تفتأ تتخذ في أفكاره
 أعلى منزلة ، فقد راح يردد نغمة واحدة لا يحول عنها ، هي
 ذلك الحكم القاسي بأن يظل محروما من صديقتيه وحببته ..
 وكان يلح في رفق إلى واجب مستر لينتون بالسماح له بلقاء
 قريب ، والا خشي أن يكون قاصدا خدامه بالوعود المعسولة
 الجوفاء !

وكانت كاثي خير حليف له في الدار ، فاستطاع كلاهما
 أخيرا أن يقتنعا سيدي بالسماح لهما بنزهة يقومان بها معا
 مرة كل اسبوع ، راكبين أو ماشيين ، في حراستي ، وفي
 البراري القريبة من الجرانج .. فقد حل شهر يونيه وهو
 ما يزال يدوي ويزداد ضعفا .. وكان يدخر في كل عام شطرا
 كبيرا من دخله لتكون منه ثروة لسيدتي الصغيرة ، ولكنه
 كان ، مع ذلك ، يحس رغبة طبيعية في أن تستعيد منزل
 اجدادها ، أو على الأقل تعود إليه عما قريب .. وكان يعتقد
 أن املها الوحيد في تحقيق ذلك إنما هو بزواجها من وريثه ..
 فلم تكن لديه أية فكرة عن سير الفتى نحو النهاية بخطى
 حثيثة ، بل بأسرع مما كان يسير هو .. وما من أحد كانت
 لديه هذه الفكرة ، كما اعتقد .. فلم يدع الطبيب لزيارة
 « المرتفعات » قط ، ولم يكن بيننا من يرى هيثكليف الشاب
 حتى ينبىء بحالته .. أما انا فقد بدأت ، من جانبي ، أعد
 تشاؤمي السابق كاذبا ، وتصورت أنه ، ولا ريب ، أصبح
 الآن يفيض صحة وانشراحا ، لكثرة ما ذكره عن الركوب
 والنزهة بين البراري ، وما بدا من تلهفه على متابعة آماله
 نحو هدفه المنشود .. فلم اتصور البتة أن والدا يمكن أن
 يعامل ولده المحتضر بمثل ذلك الطغيان الرهيب وتلك القسوة
 الشريرة التي علمت فيما بعد ان مستر هيثكليف كان يعامله
 بها ، ليرغمه على هذه اللهفة المصطنعة .. وكان يضاعف
 جهوده وقسوته ، كلما بدت له خططه الجشعة ، وطعمه
 المجرد من الشعور ، يهددهما الموت بالفشل والانهار !

الفصل السادس والعشرون

كان الصيف قد جاوز عنفوانه ، عندما وافق اذجار - كارها - على تحقيق رجائهما ، فخرجت وكائرين راكبتين جوادينا في اول رحلة لها للقاء ابن عمتها .. وكان يوما شديدا الجهامة احتبس فيه الهواء ، وغامت الشمس ، غير أن السحب المرقطة الرقيقة لم تكن تنذر بالمطر .. وكان موعدنا عند علامة الارشاد الحجرية في مفترق الطرق ، ولكننا عندما وصلنا إلى هناك وجدنا غلاما من الرعاة في انتظارنا ، وقد وفد رسولا ليقول لنا :

— إن السيد لينتون موجود الآن على ذلك الجانب الآخر ناحية « المرتفعات » ، وسيكون عظيم الامتنان لكما إذا تقدمتما قليلا ..

فغممتم قائلة :

— إذن فقد نسي السيد لينتون أول شرط من شروط خاله وأوامره .. لقد طلب إلينا أن نبقى في حدود ارض « الجرانج » وها نحن نوشك على اجتيازها لأول وهلة ..

فاجابت رفيقتي :

— حسنا .. سوف ندير رؤوس الجياد عندما نصل إلى لينتون ، وسوف نجعل نزهتنا بذلك صوب المنزل !

فلما بلغنا مكانه ، وكان لا يكاد يبعد عن باب داره بأكثر من ربع ميل ، لم نجد معه جوادا ، فاضطررنا إلى الترحل ،

وتركنا جوادينا يرعيان الكلا .. وكان راقدا فوق العشب ينتظر اقترابنا ، ولم ينهض من مضجعه حتى أصبحنا على بعد بضعة ياردات منه ، وعندئذ مشى نحونا في ضعف واسترخاء ، وكان يبدو شديد الشحوب بحيث لم املك إلا ان اصيح في عجب :

— ما هذا يا سيد هيشكليف ؟ .. انك لست في حالة تسمح لك بالتجول بين البراري هذا الصباح .. شد ما تبدو مريضا !

وكانت كائرين ترمقه في دهشة وأسى .. وبدلت صيحة الفرح التي كانت توشك على ان تنطلق من شفيتها ، إلى صيحة قلق وانزعاج ، والتهنئة التي كانت توشك على ان توجهها إليه لهذا اللقاء الذي طال ارتقابه ، إلى سؤال وجهته إليه في لهفة وقلق عما إذا كان يجد نفسه أكثر سوءا من المعتاد .. فغمغم قائلا :

— كلا .. بل أحسن كثيرا ..

وكان لاهث الأنفاس ، كثير الارتعاش ، وظل ممسكا بيدها كأنما كان بحاجة إلى الاستناد إليها ، بينما كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان ترمقانه بنظرات شاردة ، في خجل وإعياء .. وكانت التجاويف التي كانت تحيط بهما قد احوالت تلك النظرة الواهنة — التي كانت لها ذات يوم — إلى نظرة ضالة شاحبة ..

وعادت بنت خاله تقول في إلحاح :

— ولكنك ازدددت سوءا عما كنت عندما رأيتك آخر مرة ، وازددت هزالا ، و ..

فقاطعها في عجلة :

- إننى متعب .. والجو اليوم حار لا يسمح لنا بالمشي ،
فدعينا نجلس هنا .. ثم اننى أشعر بالمرض فى الصباح ،
ويقول أبى ان ذلك يرجع إلى سرعة نموى !

فجلست كائى دون أن يبدو عليها الاقتناع بما يقول ، اما
هو فقد اضطجع بجانبها .. وأرادت أن تجاهد فى سبيل
إشاعة جو من المرح حولهما ، فقالت :

- إن هذه تشبه الجنة التى تشدها .. فهل تذكر
اليومين اللذين اتفقنا على أن نقضيهما فى المكان وعلى النحو
الذى يراه كل منا أكثر بهجة وسرورا ؟ .. إن هذه هى
جنتك أنت بلا جدال ، لولا السحب التى تحجب وجه
السماء ، ولو انها رقيقة لينة .. وذلك أفضل من وهج
الشمس الساطعة .. ولكنك ، إذا استطعت ، سوف تتركب
معى فى الأسبوع القادم إلى حدائق « الجرانج » لترى
جنتى أنا ..

ولم يبد على ليتهاون ما يدل على تذكره شيئا مما كانت
تحدث عنه ، وكان من الواضح أنه يلقي عناء عظيما فى
احتمال أى نوع من الحوار ومتابعته .. كان عدم اهتمامه
بالموضوعات التى طرفها ، وعجزه عن المساهمة بدوره فى
الترويج عنها ، من الواضح بحيث لم تستطع إخفاء امتعاضها
وضيقها . فلقد أصاب شخصه ومسلكه تبدل شامل غريب
غير واضح المعالم .. كانت المشاكسة التى تطمع فى الملاينة

إلى حد التبدليل قد تركت مكانها فيه إلى نوع من البلادة
والجمود وتراخى الشعور .. أصبح فيه القليل من ذلك
الخلق المشاغب لطفل يعمد الاثارة والإغظة حتى يلاطفه
الناس ويتملقوه ، والكثير من تلك الكآبة والهموم المكبوتة التى
تلازم شخصا عيلا لا يرجى له شفاء فيرفض العزاء والترويح ،
ويعد طرب الآخرين ومرحهم إهانة له .. وقد تبينت كاترين
- كما تبينت - أنه يعتبر احتمال له لصحبتنا عذابا وعقابا ،
لا فضلا وعطفا ، فلم تتوان عن اقتراح الرحيل فى الحال ..
وعلى غير ما كنا نتوقع ، أثار هذا الاقتراح ليتهاون من
غيبوبته ، ودفع به إلى حالة غريبة من الانفعال ، وراح يتطاع
نحو « مرتفعات ويلدنج » فى ذعر و هلع ، وهو يتوسل إلى
كاترين أن تبقى معه ولو نصف ساعة آخر .. فقالت :

- ولكنى أظن انك سوف تكون أكثر راحة فى منزلك عنك
فى الجلوس هنا .. ثم اننى لا أستطيع تسليتك اليوم ، كما
أرى ، بقصصى وأناشيدى وحديثى .. فقد ازدادت عنى عقلا
ورزانة خلال هذه الشهور الستة ولم تعد تتذوق لهوى
ومرحى .. اما إذا كان فى استطاعتى أن أرفه عنك ، فإنى
مستعدة للبقاء عن طيب خاطر ..
فأجاب :

- بل امكثى حتى تنالى شيئا من الراحة .. ولا تظنى أو
تقولى يا كاترين اننى فى حالة بالغة السوء .. فالجو الثقيل
والحرارة الشديدة هما اللذان يجعلانى ابدو متبلدا الحس
خاملا .. ثم اننى مشيت قبل مقدمك قدرا يفوق طاقتى ..
فهل لك ان تخبرى خالى بانى فى صحة لا بأس بها ؟

فقال سيدتى الصغيرة متعجبة من إصراره على تأكيد ما يبدو للعيان كذبا صراحا :

- سوف أخبره بأنك الذى تقول ذلك يا لينتون .. فانى لا أستطيع أن أشهد بأنك كذلك حقا ..

فاستطرد يقول متجاهلا نظراتها المتحيرة :

- وتعالى إلى هنا يوم الخميس القادم ثانية .. وقدمى لخالى شكرى وامتنانى على سماحه لك بالحضور .. شكرى الخالص العميق يا كاترين .. و .. وإذا حدث أن قابلت والدى وسألك عنى ، فلا توحى إليه بأننى كنت معك صامتا بليد الفهم .. ولا تظهرى امامه كئيبة منكسرة خاطر ، كما تلوحين الآن .. انه سوف يغضب غضبا شديدا ..

فصاحت كاترين وقد حسبت أنها ستكون هدف هذا الغضب :

- إننى لا أبالى بغضبه قط ..

فقال ابن عمته ، مرتعدا :

- ولكنى أبالى به كثيرا .. فلا تثيريه ضدى يا كاترين ، لانه شديد القسوة والصرامة ..

فتدخلت مسائلة :

- أهو قاس معك يا سيد هيثكليف ؟ .. هل أضجرته الرحمة وبسّم التسامح ، فانقلبت كراهيته السلبية إلى إيجابية ؟

فنظر إلى لينتون ، ولكنه لم يجب .. ولبثت كاترين جالسة بجانبه عشر دقائق أخرى ، كانت رأسه خلالها تسقط فوق صدره كشخص غلبه النعاس ، لا يتكلم ولا ينطق إلا بانين مكتوم من الألم او الاجهاد ، حتى ملت كاترين تلك الجلسة فقامت تنشد العزاء فى البحث عن حبات التوت البرى ، وتشركنى معها فى ثمار بحثها ، دون أن تعرض شيئا منها عليه ، لانها رأت بنفسها ان اية محاولة لتنبهه لن تجدى إلا فى إضجاره وإغضابه !

واخيرا همست فى اذنى قائلة :

- هل اتقضى نصف الساعة يا ايلين ؟ .. اننى لا ادرى لماذا ينبغي أن نبقى بعد ذلك ، فهو مستغرق فى النوم ، كما ان أبى يتعجل عودتنا إلى الدار ..

- حسنا .. لا يجب أن نتركه نائما ، فاصبرى حتى يستيقظ ، ودعى عنك هذه العجلة .. لقد كنت تحرقين شوقا إلى الخروج للقاءه ، وهانئذى أرى اشتياقك لرؤية لينتون المسكين قد تبخر وتبدد سريعا !

فاجابت كاترين :

- ولكن لماذا طلب أن يرانى ؟ .. لقد كان فى طباعه السابقة من سوء الخلق والمشاكسة أحب إلى نفسى منه فى الحالة الغريبة التى عدا عليها الآن .. ان الامر ليبدو كما لو كان إلحاحه فى لقائى مهمة ارغم على أدائها خوفا من تفرغ ابيه وانتهاره إياه .. ولكن لا يمكن أن احضر لمجرد إدخال السرور

على قلب مستر هيثكليف الأب مهما تكن لديه من بواعث لإرغامه لينتون على مكابدة هذا العذاب .. واني ، وإن كنت مسرورة لتحسن صحته ، إلا اننى حزينة لانه غدا اقل ظرفا ، بل اقل العطافا نحوى إلى حد بعيد ..

فقلت :

— هل ترين إذن انه احسن صحة ؟

— نعم .. لانه كان دائما يولى آلامه واوجاعه اعظم اهتمام ، كما تعلمين .. انه ليس في صحة طيبة كما طلب إلى ان اقول لابي ، ولكنه احسن حالا فيما يبدو ..

— هذا ما اختلف عنك فيه يا مس كاثي .. فاني اراه اسوأ بكثير ..

وفي تلك اللحظة ، افاق لينتون من نعاسه مذعورا مشدوها ، يسأل في لهفة هل نادى أحد باسمه ، فقالت كاثرين :

— كلا ، ما لم تكن سمعته في الحلم ! .. ولكنى لا استطيع ان اتصور كيف يمكنك ان تغفو خارج منزلك ، ونحن ما زلنا في الصباح ..

فقال لاهنا ، وهو يتطلع إلى قمة التل المتجهمة فوقنا :
— ظننتنى سمعت صوت ابي .. هل أنت واثقة من ان احدا لم يتكلم ؟

فاجابته ابنة خاله :

— واثقة تماما .. وكل ما في الامر اننى كنت اجادل ايلين في شأن صحتك .. فهل ازددت قوة حقا عما كنت عند

افتراقنا في الشتاء يا لينتون ؟ .. إذا كان الأمر كذلك ، فاني واثقة من ان شيئا واحدا لم يزدد قوة ، وهو تقديرك لى ! .. تكلم .. هل أنت احسن حالا حقا ؟

فتدفقت الدموع من عينيه وهو يتمتم :

— نعم .. نعم .. إننى كذلك ..

وكأنما كان لا يزال مأخوذا برهبة ذلك الصوت الخيالى ، إذ راحت انظاره الحائرة تجوب الأتحاء نحونا ليكتشف مكان المنادى .. وعندئذ نهضت كاثرين قائلة :

— كفانا هذا اليوم ، ولنفترق الآن .. غير انى لا اخفى عليك ان لقاءنا قد احزننى وخيب آمالى .. ولكن لن اقول ذلك لأحد سواك ، دون ان يكون ذلك لخوفى من مستر هيثكليف !

فغمغم لينتون مرعوبا :

— صه ! .. اسكتى بحق السماء ، فانه قادم !

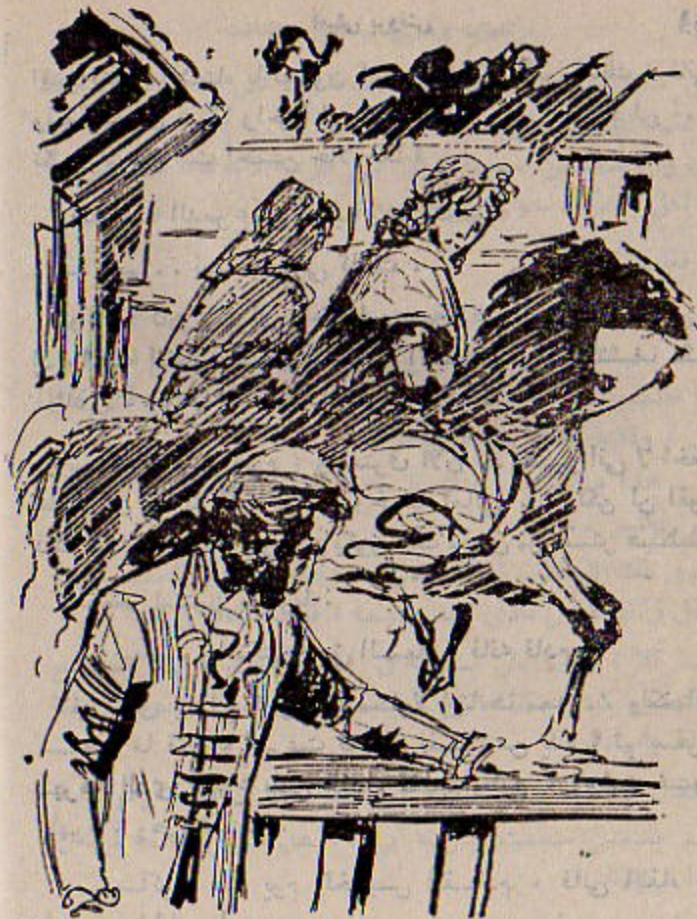
ثم تعلق بذراع كاثرين ، محاولا إيقاعها معه .. ولكنها إذ سمعت ما قاله ، اسرعت تخلص نفسها من يده ، ثم صفرت لمهرها الذى اسرع يلبى النداء ككلب مطيع ، ووثبت فوق ظهره ، وهى تصيح :

— ساكون هنا يوم الخميس القادم ، فالى اللقاء .. اسرعى يا ايلين !

وهكذا خلفناه وهو لا يكاد يحسن برحيلنا ، إذ كان مستغرفا في التوجس من اقتراب ابيه ..

وقبل أن نصل إلى المنزل ، كان سخط كاترين قد لان حتى غدا شعورا امتزجت فيه الحسرة بالأسف والرتاء ، وأخذت تتراوحها شكوك غامضة قلقة نحو ظروف لينتون الحالية ، سواء الجسمانية أو العائلية .. ولقد شاركتها هذه الشكوك ، ولو أنني أشرت عليها بكتمان الأمر ، والتريث حتى تهيبء لنا رحلتنا القادمة أسباب الحكم على الأمور ..

وسألنا سيدى بيانا عن رحلتنا ، فنقلت إليه كاترين شكر ابن اخته وامتنانه ، ومست حوادث باقى الرحلة مسارتين . . كذلك اجبت على اسئلته بردود غامضة ، فلم اكن اعرف ما يجب ان اخفيه ، وما يجب ان اكشف عنه الحجاب !



ثم صفت لجرها الذى أسرع يلبي النداء ككلب مطيع ، ووثبت فوق ظهره ..

الفصل السابع والعشرون

انصرفت ايام سبعة ، كان كل منها يترك اثرا المرورد بالتبدل السريع الذى طرا على حالة اذجار لينتون .. واصبحت الساعات تتسابق الآن فى غزواتها لصحته ، بعد ان ذلت الشهور الماضية تنسج خيوطها على مهل للقضاء عليه .. وكنا نمنى انفسنا بان تظل كاثرين جاهلة لحالة ابيها ، ولكن روحها الحساسة ابت ان تظل سادرة فى خداعها لنفسها ، فادركت حقيقة الامر فى اعماقها ، وانشغل بالها بذلك الاحتمال المروع الذى اخذ يستكمل تحوله إلى حقيقة واقعة .. فلما اقتبل يوم الخميس ، لم يطاوعها قلبها على ذكر شئ عن نزهتها المرتقبة ، ولكنى توليت ذكر الامر امام سيدى ، فاذن لى بان ارغمها على الخروج ، لان غرفة سيدى ومكتبته التى كان يمكث بها فترة يسيرة كل يوم - الفترة اليسيرة التى يحتمل فيها مشقة الجلوس - كانتا قد اصبحتا دنياها بأسرها .. كانت تحقد على كل لحظة تحرمها من الانحاء فوق وسادته او الجلوس إلى جانبه .. وعلا وجهها الشحوب والامتقاع من الحزن ومن السهر على راحته .. حتى لقد سر سيدى بالسماح لها بالذهاب إلى ما كان يعنى نفسه بان يكون تغييرا سعيدا للمناظر المحيطة بها ، والوسط الذى تعيش فيه ، وقد وجد الراحة والعزاء فى الأمل الذى راوده من أنه لن يتركها وحيدة تماما بعد مماته ..

وكانت لديه فكرة ثابتة ، استطعت ان استشفها من الملاحظات العديدة التى افلتت من لسانه ، وهى انه ما دام

ابن اخته يشبهه جسما وشكلا فلا شك فى انه يشبهه روحا وعقلا ، إذ كانت خطابات لينتون الصغير لا توحى بشئ ، أو بأقل القليل ، عن خلقه المييب ! .. اما انا فقد احجمت ، فى ضعف مفتفر ، عن مكاشفته بالحقيقة ، وساءلت نفسى : اية جدوى يمكن أن تكون فى إزعاج ساعاته الاخيرة بمعلومات ليست له القوة أو الفرصة على ان يتخذ لها موقفا ايجابيا ..

وأرجأنا نزهتنا إلى بعد الظهر .. وكان يوما ذهبيا من ايام شهر أغسطس ، وكل نسمة تهب فيه من ناحية التلال مليئة بالحياة حتى ليخيل إليك ان أى امرئ يستنشقا ويكون مشرفا على الموت ، فسوف تبعث فيه الحياة من جديد .. وكان وجه كاثرين اشبه بالمنظر الذى يمتد امامنا ! .. تتتابع عليه الظلال والشمس المشرقة ، فى سرعة وعجلة .. ولكن الظلال كانت اطول أمدا ، على حين كان الاشراق عابرا عجولا ، وكان قلبها الصغير المسكين لا يفتأ نادما على تلك اللحظات العابرة التى يتناسى فيها همومه ومشاغله ..

وجدنا لينتون يرقب مجيئنا فى نفس البقعة التى اختارها اول مرة .. فترجلت سيدتى عن مهرها ، وقالت لى انها عازمة على البقاء فترة وجيزة ، ومن الأفضل ان اظل راكبة وان امسك بمقود جوادها .. ولكنى ابيت ذلك ، فما كنت لاخاطر بترك وديعتى تغيب عن انظارى لحظة واحدة .. وهكذا رحنا نرقى المرتفع العشوشب معا ، حيث تلقانا السيد هيشكليف بمزيد من اللهفة والانتعاش هذه المرة .. ولكنها لم تكن لهفة السرور ، أو لهفة الشوق ، وإنما كانت تبدو اشبه بالفزع والذعر ..

وابندرنا قائلا ، وهو ينطق في صعوبة :

- لقد تأخرت كثيرا ! .. وظننت أنك لن تأتي .. ألم يشتد المرض على أبيك ؟

فصاحت كاثرين ، وهي تطبق فمها على عبارات التحية التي كانت تهم بها :

- لماذا ، بربك ، لا تكون صادقا صريحا ؟ .. ولماذا لا تقول مباشرة أنك لا تريدني ؟ .. ان أمرك عجيب يا لينتون ، فهذه هي المرة الثانية التي تأتي بي فيها إلى هنا عن عمد ، لا لسبب إلا لجلب الألم والأسى إلينا معا ..

فارتجف لينتون ونظر إليها نظرة طويلة ، فيها ضراعة وفيها حياء .. ولكن صبر ابنة خاله لم يكن ليتسع لاحتمال مسلكه الغامض ، فقالت :

- إن والدي مريض جدا .. فلماذا انتزعتنى من جوار فراشه ؟ .. ولم لم تبعث إلى لتحلنى من وعدى ، عندما كنت تتمنى ان أتك به ؟ .. هيا .. أريد تفسيراً لكل ذلك الآن .. فان اللعب واللهو والعبث أشياء لم يعد لها مكان في فكري ، ولم يعد في وسعى الآن ان أرى رياءك في خضوع ومدلة ..

فغمغم قائلا :

- ريبائى ؟ .. أين ريبائى هذا ؟ .. بحق السماء يا كاثرين ، لا تدعى الغضب يملكك هكذا ! .. لك ان تحتقرينى كيفما تشائين ، فاني تعس جبان حقير .. وانى استحق المزيد من

التقريع والتأنيب ، ولكنى أتفه من ان أثير غضبك .. أمقتى والدى وأبغضيه ، وأبقى لى الاحتقار والازدراء !

فصاحت كاثرين في غضب وانفعال :

- هراء ! .. وانت غلام معتوه ابله ! .. انظرى .. انه يرتعد كما لو كنت انوى حقا ان امسه ! .. كلا يالينتون ، لا حاجة بك إلى ان تتعجل الاحتقار ، فان اى امرىء يحتفظ لك به تحت أمرك عند الطلب ! .. انهض ، فسوف اعود إلى منزلى .. لقد كان من الجنون حقا اجتذابك من جوار الموقد ، زعما بأننا .. ولكن ما الذى زعمناه ؟ .. دع طرف ثوبى ! .. وإذا كنت قد رثيت لك واشفقت عليك لبكائك وما يبدو عليك من آثار الفرع الرهيب ، فان الأخلق بك ان تترفع عن شفتى هذه ! .. قولى له يا ايلين كم فى مسلكه هذا من هوان شائن ! .. انهض ، ولا تنزل بنفسك إلى مرتبة الزواحف الخسيسة ! .. لا .. لا تفعل هذا !

فقد ارتمى لينتون بهيكله المنهار الاعصاب على الارض ، وراح يتمرغ تحت قدميها ، والدموع تخضل وجهه الشاحب الذى ارتسمت عليه معالم الألم الفظيع .. كان يبدو كأن فرعا مروعا بهز جسمه هذا ..

وبين شهقاته ونحيبه ، راح يقول :

- آه ! .. اننى ما عدت أحتمل ذلك ! .. كاثرين ! .. كاثرين ! .. اننى خائن أيضا ، ولست أجرؤ على إخبارك ! .. ولكن لو تركتنى ، فسيكون مصيرى القتل .. ان حياتى بين

يديك يا عزيزتي كاثرين ، وقد قلت أنك تحبينى .. فإذا كنت كذلك حقاً ، فإن الأمر لن يضرك فى شيء .. أنك لن تدعى إذن ، يا كاثرين الجميلة ، الشفوقة ، الطيبة ؟ .. ومن يدري فلعلك توافقين .. وعندئذ يتركنى أبى حتى أموت معك !

وإذ رأت سيدتى الصغيرة ما يقاسيه من عذاب فظيع ، انحنت ترفعه من الأرض ، وقد تغلب شعور العطف والتسامح القديم على غضبها وحنقها .. وازداد تأثرها وقلقها ، فقالت تسأله :

— أوافق على أى شيء ؟ .. على البقاء ؟ .. قل لى ما الذى تقصده من هذا الكلام الغريب ، وسوف أبقى معك بعض الوقت .. ولكن مسلكك يناقض أقوالك ، فتحيرنى وتبلبل أفكارى .. فاهداً وكن صريحاً ، واعترف لى للتو بما يثقل قلبك .. أنك لا تؤد الإساءة إلى يا لينتون ، اليس كذلك ؟ .. ولن تدع أى عدو يؤذنى إذا كان فى وسعك أن تمنعه ، اليس كذلك ؟ .. اعتقد أنك قد تكون رعديداً جباناً فى نفسك ، ولكنك لن تكون من الندالة بحيث تخون خير صديقة لك ..

فراح يعصر أصابعه الرخوة وهو يقول لاهثاً :

— ولكن أبى قد توعدنى بشر مستطير ، وأنى أخشاه .. أخشاه بفزع عظيم .. فلا أجرؤ على أن أقول شيئاً ..
فقالت كاثرين فى حنان ساخر :

— آه .. حسناً .. اكتم سرك إذن ! .. أما أنا فلدت على شيء من الجبن .. أنج أنت بنفسك ، فانى غير خائفة !

فأثارت نخوتها دموعه ، وراح يبكى فى ضراوة ، ويفظى يديها المسكتين به بقبلاته وعبراته معا .. ومع ذلك لم يستطع أن يستجمع شجاعته ليفشى ما يكتمه ..

وبينما كنت أفكر فيما عسى أن يكون ذلك السر ، وأقرر فى نفسى أن كاثرين لا ينبغى أن تقالم فى سبيله أو فى سبيل أحد غيره ، دون أن أحرك ساكناً ، إذا بى أسمع حفيفاً بين الهيش ، فتطلعت إلى يمينى ، وإذا مستر هيثكليف يوشك أن يهبط فوق رؤوسنا قادماً من « المرتفعات » .. ولم يلق نظره واحدة على رفيقى ، مع أنهما كانا قريبين منه إلى حد يجعل نحيب لينتون واضحاً مسموعاً فى أذنيه ، وإنما نادانى فى نبرات ودودة لا أحسبه خاطب بها أحداً من الناس فى حياته قط .. وفى ذلك الاخلاص الذى لم أملك نفسى من التشكك فيه ، قال :

— ما أجمل أن أراك بالقرب من منزلى يا نللى ! .. كيف حالك فى « الجرانج » ؟

ثم خفض من صوته ، واستطرد يقول :

— ولكن طمئنى .. لقد شاع أن ادجار لينتون على فراش الموت ، أفلا يكون ذلك مبالغة فى خطورة مرضه ؟

— كلا .. ذلك صحيح تماماً ، فإن سيدى فى الاحتضار .. وسيكون موته أمراً محزناً لنا جميعاً ، وإن كان نعمة عليه ورحمة له ..

— إلى متى يطول احتضاره ، فى رأيك ؟

- ومن أين لي ان ادري ؟

فتطلع ناحية الصغيرين اللذين جمدا حراكهما تحت نظراته
- لان لينتون كان يبدو كأنها لا يستطيع ان يجروا على ان
يحرك اصبعها او يرفع راسا ، كما ان كائرين لم تستطع الحراك
لانه كان مستندا إليها متعلقا بها - ثم استطرد يقول لي :

- لان هذا الغلام يبدو مصمما على هزيمتي ! .. وكم اكون
شاكرا لخاله لو استحث خطاه وقضى نجه قبله ! .. ولكن
هل كان الجرو يلعب لعبته هذه منذ امد طويل ؟ .. لقد لفتته
« بعض » الدروس عن البكاء والولولة .. فهل كان بشوشا
فرحا مع مس لينتون عادة ؟

- بشوشا فرحا ؟ .. كلا .. بل كان يشكو آلامه ومتأهيه
.. وعندما رأته ، وجدته خليقا ان يكون راقدا في فراشه ،
بين يدي الطبيب ، بدلا من ان يهيم على وجهه فوق التلال
مع حبيبته !

فغمغم هيثكليف :

- سوف يكون كذلك بعد يوم او اثنين .. اما الآن ..

ثم استطرد بصوت عال :

- انهض يا لينتون ! .. انهض حالا ، ولا تزحف على
الأرض هناك .. قم سريعا في هذه اللحظة !

فان لينتون كان قد عاد إلى الانبطاح على الأرض وقد
أصابته نوبة أخرى من الفزع اليأس أحسب ان سببها نظرة

أبيه نحوه ، فلم يكن ثمة سبب آخر لهذه المذلة .. وفام
بمحاولات عديدة لإطاعة أبيه ، ولكن قواه القليلة الباقية كانت
قد تلاشت تماما ، فسقط على الأرض ثانية وهو يتأوه متألما
.. فتقدم مستر هيثكليف نحوه ، ورفع حتى أسنده إلى
دغلة كثيفة من الهيش ، وهو يقول في شراسة رادعة :

- لقد بدأت أغضب منك الآن ! .. وإذا كنت لا تسيطر
على روحك الخائنة هذه .. آه ! .. لعنة الله عليك ..
انهض حالا !

فأجاب الغلام في انفاس لاهثة متلاحقة :

- سأقوم يا ابتاه .. فقط دعني وحدي وإلا غشي على
.. لقد فعلت كل ما طلبت مني ان افعله .. انني واثق من
ذلك .. وسوف تخبرك كائرين انني .. انني كنت معها
مرحا طروبا ! .. آه ! .. ابني بجانبى يا كائرين .. أعطيني
يدك !

فقال أبوه :

- خذ يدي أنا ، وقف على قدميك .. والآن ؟ .. سوف
تقدم لك ذراعها .. حسنا .. انظر إليها هي .. لعلك
تتصورين يا مس لينتون اننى الشيطان نفسه ، إذ أثير مثل
هذا الفزع .. هلا تكرمت بالسير معه حتى المنزل ؟ .. سوف
يرتعد خوفا إذا لمسته !

فهمست كائرين قائلة :

- ولكنى لا أستطيع الذهاب معك إلى « مرتفعات ويدرنج »

يا عزيزى لينتون .. لقد حرم على أبى ذلك .. انه لن يؤذيك ، فلماذا كل هذا الخوف ؟

- لا أستطيع أبدا أن أدخل هذا المنزل ثانية .. بل ليس لى ان أدخله بدونك !

فصاح أبوه :

- صه .. إننا سوف نحترم تمسك كاثرين بطاعتها لابيها .. خديه أنت إلى المنزل يا نللى ، وسوف اعمل بنصيحتك وأحضر له الطبيب دون إهمال ..

- حسنا تفعل .. ولكنى يجب أن أبقى مع سيدتى .. فليست العناية بابنك من شأنى !

- إنك شديدة الصلابة ، كعهدى بك .. ولكنك ستضطريننى إلى ان اقرص الغلام ، واجعله يملأ الدنيا صراخا ، قبل ان يحرك شفقتك وإحسانك !

واقرب منه ثانية ، ومد يده نحوه كأنما يريد أن يمسك بذلك المخلوق الهش الخائر .. ولكن لينتون ارتد إلى الوراء مجفلا ، وتعلق بانسة خاله ، وراح يتوسل إليها أن تصحبه إلى المنزل ، فى إلحاح جنونى لا يحتمل إباء .. وبرغم أننى كنت غير موافقة ، فاننى لم أستطع منعها من الذهاب .. وكيف كان يمكنها أن ترفض مصاحبته حقا ؟ .. اننا لم يكن فى وسعنا ، ولا فى متناول يدنا ، أن ندرك كنه ذلك الرعب الذى يملؤه .. وإنما كنا نراه امامنا ضعيفا متخاذلا تحت قبضة

هذا الفزع الرهيب ، ولا شك أن أية زيادة عليه كانت كفيلة بإصابته بالجنون ..

فلما بلغنا باب المنزل ، صحبت كاثرين العليل إلى الداخل ، على حين وقفت أنتظرها ريثما تقوده إلى مقعد او أريكة ، متوقعة ان تخرج على التو ، وإذا مستر هيثكليف يدفعنى إلى الامام ، هاتفا :

- إن بيتى ليس موبوءا بالطاعون يا نللى ! .. ثم اننى أريد ان اكون كريما مضيافا اليوم .. هيا اجلسى .. واسمحي لى بأن اغلق الباب !

ولكنه لم يفلته فحسب ، وإنما اوصده بالمفتاح .. فأجفلت ، وهممت بالقيام ، ولكنه اضاف مستطردا :

- سوف تتناولان الشاى معى قبل عودتكما ، فاننى وحدى اليوم ، إذ خرج هيرتون ببعض المشاية إلى السوق ، كما ذهبت زيللا وجوزيف فى إجازة للراحة والفسحة ! .. وبرغم أننى اعتدت هذه الوحدة ، إلا أننى افضل كثيرا أن أستمتع بصحبة لطيفة ، بين آن وآخر ، إذا تيسرت لى .. خدى مقعدك واجلسى بجانبه يا مس لينتون .. اننى أقدم لك ما لدى .. وما لدى الآن لا يكاد يستحق شرف قبولك ، ولكن لا حيلة لى فى الأمر ، فهو (الحاضر) ، وليس لى ما أقدمه لك غيره ! .. ما لها تحملق فى وجهى ! .. من العجيب أنى ينتابنى شعور وحشى حيال كل شىء يبدو خائفا منى ! ..

ولو كنت قد ولدت في مكان آخر حيث القوانين اقل وطأة ،
والاذواق اقل تانقا ، لسليت نفسى بتقطيع اوصال هذين
الاثنين حيين تقطيعا بطينا ، ولجعلت من ذلك تسلية المساء !
ثم زفر بانفاسه ، ولطم المائدة بقبضة يده ، وهو ينغمم
ساخطا :

- يا للجحيم ! .. شدا ما اكرههما !

فصاحت كاثرين ، التى لم يكن فى وسعها ان تسمع الشطر
الاخير من كلامه :

- اننى لا اخشاك ولا اخافك !

ثم خطلت متقدمة نحوه ، وعيناها السوداءوان تومضان
بالغضب والعزم القوى ، وقالت :

- اعطنى ذلك المفتاح .. سوف آخذه بنفسى ! .. اننى
لن اذوق هنا طعاما او شرابا ولو هلكت جوعا وظما ..

وكان هيثكليف يضع المفتاح فى يده الممدودة فوق المائدة
.. فرفع نظاره يتطلع إليها ، وقد اذهلته جرأتها ، او لعل
صوتها ونظرتها قد ذكراه بالمرأة التى ورثتها عنها ..
واختلقت المفتاح ، وكادت تفلح فى إخراجها من بين أصابعه
المنفرجة ، عندما أخرجته ففلتها من ذوله ، وردته إلى
الحاضر ، فاستعاد المفتاح سريعا ، وقال :

- اسمعى يا كاثرين لينتون .. اذهبى بعيدا ، وإلا صرعتك
ارضا ! .. وإن كان ذلك يصيب مسز دين بالجنون !

ولكنها لم تعبا بوعيده ، وامسكت ثانية بيده المطبقة على
المفتاح ، وهى لا تفتأ تردد :

- سوف نخرج .. سوف نخرج حتما ..

وراحت تبذل قصارى جهدها فى إلانة عضلاته الفولاذية ،
فلما فشلت أظفارها فى إحداث أى اثر فيها ، بدأت تستخدم
أسنانها الحادة استخداما بارعا .. وعندئذ رمقنى هيثكليف
بنظرة جعلتنى اجمد فى مكاني ، لا أقوى على التدخل ، لحظة
.. وكانت كاثرين منحنية فوق يده ، منهكة فى أعمال
أسنانها فى أصابعه ، فلم تنتبه إلى التبدل الذى اعترى وجهه ،
عندما فتح أصابعه فجأة ، وتركها تأخذ المفتاح من بينها ،
ولكنها قبل أن تستولى عليه تماما ، امسك بها بيده المتحررة
ثم جذبها فوق ركبته ، وانهاهال عليها بيده الأخرى بلطيمات
عنيفة مروعة فوق جانب رأسها ، وكل منها خليقة بأن
تصرعها ارضا لو كانت تستطيع السقوط ..

واندفعت نحوه نائرة ، إذ رأيت هذا البطش الشيطانى ،
وبدأت أصيح به : أيها النذل .. أيها الوحش ..

ولكن أحرصتنى وكرة شديدة تلقيتها فى صدرى ، وقطعت
انفاسى على رغم ما لى من قوة وصحة .. واجتمع على الألم
والغضب فترنحت مرتدة إلى الخلف ، وقد دارت بى الأرض ،
حتى سقطت وقد أوشكت أن يصيبنى الاختناق او ينفجر
شريان فى رأسى !

وانتهى المشهد فى دقيقتين .. فرأيت كاثرين ، بعد أن
أطلق سراحها ، تضع كلتا يديها فوق صدغيها ، وهى تبدو

كما لو كانت غير واثقة مما إذا كانت أذناها في مكانيهما أو انزعتا! .. كانت المسكينة ترتعد كقصبية في مهب الريح ، وتستند إلى المائدة في ذهول ودهشة بالفين ..

وانحنى الوغد ليلتقط المفتاح الذى كان قد سقط على الأرض ، وهو يقول :

- إننى اعرف كيف أؤدب الأطفال العصاة ، كما رأيت ..
والآن اذهبى إلى لينتون ، وخذى راحتك فى البكاء كيفما شئت .. سوف أكون أباك غدا - الأب الوحيد الذى سيبقى لك بعد أيام قليلة - وسوف تنالين منى الكثير مما رأيت ..
انك لست ضعيفة ، وفى وسعك أن تحتلمى المزيد ، وستنالين جرعة منه كل يوم لو لمحت فى عينيك شيطان القحمة مرة أخرى ..

وجرت كائى - لا نحو لينتون - ولكن نحوى ، فركمت أمامى واراحت وجنتها الملهبة فى حجرى ، وهى تنشج نشيجا عاليا .. أما ابن عمته فقد كمن فى ركن الأريكة ، هادئا كالجرذ ، يهنىء نفسه بالسلامة .. بل يخيل إلى أنه كان سعيدا بأن التأديب حل بشخص آخر سواه !

ونهض مستر هيثكليف ، إذ رأنا جميعا واجمين مبهوتين ، فتولى بنفسه عمل الشاى فى خفة وسرعة .. وكانت الأقداح والاطباق مرصوفة على المائدة منذ البداية ، فعلاها وناولنى قدحا منها ، وهو يقول :

- اطردى عنك الحقد والغضب ، وهيا قدمى الشاى

« لدوعتك ودلوعتى » ! .. انه ليس مسموما ، وإن كان من صنع يدى ! .. أما انا فذهاب للبحث عن جواديكما ..

وكان اول ما طرأ على فكرنا ، اثر انصرافه . ان ندير لنفسينا طريقا للخروج من أى منفذ ، ولو قسرا .. فأسرعنا نجرب باب المطبخ ولكننا وجدناه موصدا من الخارج .. ونظرنا إلى النوافذ ولكنها كانت اضيق من ان تتسع للمرور حتى لجسم كائى التحيل .. فلما رأيت اننا سجينتان ما لنا من خلاص ، صحت بالغلام :

- إنك تعلم ، يا سيد لينتون ، ما يسمى ابوك الشيطانى وراءه ، وسوف نخبرنا به على الفور وإلا أهبت صدغيك كما فعل بابنة خالك ..

فقالت كائين :

- نعم يا لينتون .. يجب ان نخبرنا .. فقد كان من اجلك ان حضرت إلى هنا ، ومن الجحود الشرير ان ترفض مصارحتنا بالحقيقة ..

فاجاب مرتاعا :

- اعطينى اولا قليلا من الشاى ، لانى ظمان ، وعندئذ سوف أخبرك بكل شيء .. ابعدى عنى يا ممسز دين ، غانى لا احب وقفنك فوق راسى ! .. وانت يا كائين ، لقد تركت دموعك تسقط فى قدحى .. اننى لن اشربه ، فاعطينى قدحا آخر !

فدفعت إليه كاثرين قدحا غيره ، وجففت دموعها ووجهها .. وشعرت بالاشمزاز من مسلك ذلك التعس الصغير ، منذ ان امن على نفسه ، وفارقه الفرع مما عساه يصيبه ! .. كان الذعر الذى اظهره فوق البرارى ، قد سكن وهذا بمجرد دخوله « مرتفعات ويدرنج » .. وحذست من ذلك انه كان قد اندر بان يحل به افطع العقاب إذا فشل في إيقاعنا في الشرك واقتيادنا إلى داخل المنزل .. فلما تم له ذلك ، لم يعد لديه ثمت سبب مباشر للخوف !

واستطرد يقول ، بعد ان رشف قليلا من الشاي :

— إن أبى يريد أن يعقد زواجنا .. وهو يعلم أن أبك ان يوافق على زواجنا الآن .. ولكنه يخشى أن أموت إذا أرجانا الأمر .. ولذلك فسوف نتزوج في الصباح ، وستبقين هنا هذه الليلة .. فاذا نفذت رغبته ، فسوف تعودين إلى منزلك في اليوم التالى ، وستأخذيننى معك ..

فهيئفت قائلة :

— تأخذك أنت معها أيها المتقلب المنافق الحقير ؟ .. أنت تتزوج .. لماذا ؟ .. إن الرجل قد أصابه الجنون ، او يعتقد أننا بلهاء جميعا ! .. هل تتصور ان هذه السيدة الشابة الجميلة ، التى تفيض بالصحة والنضارة وطيبة القلب ، يمكن أن تتزوج من قرد صغير مشرف على الهلاك مثلك ؟ .. وهل تراك تتعلق بفكرة ان هناك أبة فتاة - ودعك من مس كاثرين لينتون - يمكن أن ترضى بك زوجا ؟ .. انك تستحق الجلد بالسياط على إحضارك إيانا إلى هنا ، بأخاديعك الخسيسة

النواحة ! .. لا تظهر الآن بهذه البلاهة بعد ما فعلت ! .. والله اننى لأود الآن أن اظل اهزك في عنف ، جزاء خيانتك الحقيرة ، وخذعتك السخيفة !

والواقع اننى أمسكت به وهزته هزة يسيرة ، ولكنها كانت كافية لإثارة سعاله ، ثم لجأ إلى معينه العادى من الأذين والبكاء ، مما جعل كاثرين تنتهرنى ..

وراحت تلتفت حولها في تمهل وإمعان ، وهى تقول :

— كلا .. لن نبقى هنا الليلة ! .. سوف أخرج من هنا يا إيلين ، ولو حرقت هذا الباب ..

وكانت تهم بتنفيذ وعيدها في الحال ، عندما جفل لينتون فزعا على شخصه العزيز ثائية ، وتعلق بها بين ذراعيه الضعيفتين ، قائلا في عويل :

— الا تريدان أن ترضى بى ، فتنقدينى ؟ .. الا تريدان أن أذهب معك إلى « الجرانج » ؟ .. أو اه يا عزيزتى كاثرين .. لا ينبغى لك أن تذهبى وتركينى الآن ! .. بل يجب أن تطيعى أبى .. يجب أن تطيعيه حتما ..

فأجابته :

— بل يجب ان اطيع أبى ، وانقذه من عذاب الانتظار الأليم .. أقصى الليلة كلها هنا ؟ .. وماذا عساه يظن ؟ .. انه سوف يقلق لقبائنا وتشتد كربيته .. ولا بد لى من ان أحطم أى متفد أو احرقه حتى أخرج من هنا .. اسكت واهدا ! .. فلست

معرضا لآى خطر ..! أما إذا حاولت تمنى يا لينتون .. اننى احب أبى اكثر مما احبك ..

وكان الفرع الميت الذى ينتابه من غضب مستر هيثكليف ، قد أعاد إلى الغلام فصاحته وذلاقتة المنبعثتين بن جنبه وخوره ، حتى كادت كائرين تنشغل به عن موقفها .. ومع ذلك ظلت تصر على وجوب عودتها لمنزلها ، ولجأت إلى التوسل والاستعطاف بدورها ، محاولة إقناعه بأن يقهر آلامه وينسى انانيته .. وفيما كانا منهمكين فى هذا الجدال دخل سجاننا ثانية ، وهو يقول :

- لقد شرد جوادكما ، ولم أجدهما ، و .. ما هذا يا لينتون ؟ .. هل عدت إلى البكاء ثانية ؟ .. ما الذى كانت تفعله بك ؟ .. هيا .. هيا .. كيفيك ذلك الآن ، فإذهب إلى فراشك .. انك بعد شهر أو اثنين يا بنى ، سوف تكون قادرا على ان تكيل لها الصاع صاعين وتثار لنفسك من طفيلاتها الحالى ، بيد مليئة بالقوة ! .. انك الآن تفوى وتضعف من حينك إلى الحب الخالص ، اليس كذلك ؟ .. ولا شيء سواه فى هذا العالم يقض مضجعم ويهدم صحتك .. ولكنها سوف تكون لك ! .. اذهب إلى فراشك الآن ، ويجب أن تخلع ثيابك بنفسك ، فان زيللا لن تكون هنا الليلة .. صه ! .. كف عن هذه الضجة ! .. انك متى ذهبت إلى حجرتك فاننى لن أقرب منك ، ولا حاجة بك إلى الخوف منى .. وعلى فكرة ، فانك أجدت التصرف اليوم ، وسوف يكون من شأنى تدبير مابقى ..

وكان ينطق بهذه الكلمات وهو يمسك بالباب منفرجا لمرور

ابنه .. أما لينتون فقد كان فى مروره يشبه تماما ما يفعله كلب صغير يشك فى أن الواقف بالباب يضم له شرا ويرتقب فرصة مروره ليطبق الباب عليه فيهمصره هصرا .. وأوصد الباب من جديد ، واقترب هيثكليف من المدفأة ، حيث كنت وسيدتى نقف صامتتين .. فطلعت كائرين نحوه ، ثم رفعت يدها إلى وجنتها فى حركة غريزية ، إذ كان وقوفه فى جوارها يحيى شعورا اليما فى نفسها .. وان أى شخص غيره لخليق بأن ينظر إلى هذه الحركة الصبيانية فى إشفاق وتأثر ، ولكنه كثر فى وجهها ، وتمتم قائلا :

- آه ! .. ألم تقولى انك لا تخافينى ؟ .. انك إذن تخفين شجاعتك وراء قناع ماهر ، لانك تبدين شديدة الفرع !

- إننى خائفة الآن فعلا .. لأننى إذا بقيت هنا فسيشقى والدى لفيابى .. وكيف يمكن لى أن أحتمل شقاه وعذابه ، بينما هو .. بينما هو .. آه ! .. دعنى أرجع إلى منزلى يا مستر هيثكليف ، وأعدك بأننى سوف أتزوج من لينتون ، لان والدى يود ان أتزوج منه ، كما اننى احبه .. لماذا تريد أن ترغمنى على ما سأفعله عن طيب خاطر ومن تلقاء نفسى ؟ ..

فصرخت قائلة :

- دعيه يجرؤ على إرغامك ! .. إن فى هذا البلد قانونا ، والحمد لله ، ولو اننا فى مكان ناء عن العمران .. سوف أبلغ عنه ولو كان ابنى ، فهذه جريمة خطيرة لا يسرى عليها قانون العقو !

فضاح الوغد :

- آخرسى .. ولتذهب صيحاتك هذه إلى الشيطان !!
إياك أن تتكلمى بعد ذلك !

ثم استطرد يقول لكاثرين :

- إننى يا مس ليتنون سوف أجد متعة عظيمة فى التفكير
بان والدك سوف يشقى بسببى .. بل سيطيير النوم من عيني
رضى وارتيحا .. وما كان فى وسعك أن تجدى وسيلة أضمن
لبقائك تحت سقف منزلى خلال الأربع والعشرين ساعة
القادمة ، خيرا من قولك لى بأن شقاء والدك وعذابه سيتبعان
ذلك !! أما عن وعدك بالزواج من ليتنون ، فأننى ساعنى
بالوفاء به ، لانك لن تبرحى هذا المكان حتى ينجز هذا الوعد !

فصاحت كاثرين وهى تبكى بحرارة :

- أرسل ايلين إذن لتخبر أبى باننى مسالمة ، أو اعقد
زواجى الآن !! يا لآبى المسكين !! سوف يظن أننا فقدنا
يا ايلين !! فماذا نفعل الآن ؟!!

فأجاب هيثكليف :

- لن يظن شيئا من ذلك !! وإنما سيظن أنكما مالتما
خدمته المتواصلة ، فذهبتما بعيدان تنشدان شيئا من المتعة !
.. وليس فى وسعك أن تنكرى أنك دخلت منزلى بملء
اختيارك ، احتفارا لأوامره التى تحرم عليك دخوله !! ومن
الطبعى حقا ، أن تنشد فتاة فى مثل سنك ، بعض المتعة
والترفيه ، وأن تسأم خدمة رجل مريض ، ليس إلا والدها !

.. لقد انتهت أسعد أيامه ، يا كاثرين ، يوم بدأت أيامك فى
الحياة .. واحسبه كان يلعنك لقدومك إلى العالم (أما أنا
فقد لعنتك حقا) ، فلا بأس بأن يلعنك وهو يفساده !!
.. وسأشاركه هذه اللعنة .. اننى اكركه !! .. ومالى لا أفعل ؟!!
ابكى وامعنى فى البكاء ما شئت ، فسوف يكون البكاء تسليتك
العظمى بعد الآن ، كما يبدو لى !! إلا إذا كان ليتنون عوضا
كافيا لآية خسارة أخرى !! .. ويبدو أن والدك الملهم كان يراه
كذلك ، فان خطباته المليئة بالنصائح والعزاء كانت تسلينى
كثيرا .. وفى خطابه الأخير ، كان يوصى « جوهرتى » بأن
يعنى « بجوهرتة » ، وأن يكون رفيقا بها عندما يتالها !! ..
العناية والرفق .. إنها وصايا خليقة بالآباء حقا !! .. ولكن
ليتنون فى حاجة إلى كل رصيده من العناية والرفق ليسبغها
على نفسه .. وفى وسع ليتنون أن يؤدى دور الطافية الصغير ،
فيجيد أداءه !! .. انه خليق بأن ينهض بتعذيب أى عدد من
القطط لو نزع استنانها وقلمت مخالبا !! .. وسوف يكون
فى وسعك أن تقصى على خاله أروع القصص عن رفيقه
وشقيقته ، عندما تعودين إلى منزلك ثانية !

فقلت :

- الآن لم تقل إلا صدقا !! .. أتمم كلامك ، واشرح خلق
ولدك ، واطهرنا على ما فيه من شبه بخلقك .. وأرجو عندئذ
أن تفكر مس كائى مرتين قبل أن تتزوج من الوحش الميت !

فاجابنى :

- إننى لا أبالى كثيرا بالحديث عن مزاياه الحبيبة الآن ،

لأنها إما أن تقبله ، أو تبقى سجينة هنا ، وأنت معها ، حتى يموت سيدك .. وفي وسمى أن أحجزكما هنا ، في خفاء ، لا يعلم أحد عنكما شيئا .. فإذا شككت في ذلك فما عليك إلا أن تشجعيها على سحب كلمتها ، وعندئذ تتاح لك الفرصة كي تحكمني بنفسك ..

فقال كاثارين :

- إننى لن أسحب كلمتى .. سوف أتزوج منه هذه الساعة ، إذا سمحت لى بالعودة إلى « ثرشكروس جرانج » بعد ذلك .. أنك رجل قاس ، يا مستر هيثكليف ، ولكنك لست شيطانا رجيمًا ! .. ولن ترضى بتدمير سعادتى إلى غير رجعة ، ل مجرد شفاء حقدك ، وبدافع من الشر فحسب ! .. ولو أن أبى ظن أننى تركته عن عمد ، ثم مات قبل عودتى ، فهل أطيع الحياة بعد ذلك ؟ .. لقد كففت عن البكاء ، ولكنى سوف اجثو هنا ، عند قدميك ، ولن أقوم ثانية ، أو احوّل عيني عن وجهك ، حتى تنظر إلى .. كلا .. لا تدر وجهك عنى .. انظر إلى ! .. أنك لن ترى شيئا يثيرك أو يعضبك .. فأنا لا أبغضك .. ولست غاضبة لأنك لطمتنى .. ألم تحب احدا قط في حياتك كلها يا عماء ؟ .. أبدا ؟ .. آه ! .. يجب أن تنظر إلى مرة واحدة .. اننى تعسة شقية ، إلى حد لا يسمع معه إلا أن تأسف لحالى وترثى لى !

فصاح هيثكليف وهو يدفعها عنه في وحشية رهيبة :

- أبعدى أصابعك الشبيهة بأصابع السحالى ، وامشى بعيدا وإلا ركلتك بقدمى ! .. اننى أفضل أن تحتضننى أفعى



فصاح هيثكليف وهو يدفعها عنه في وحشية رهيبة
- أبعدى أصابعك الشبيهة بأصابع السحالى ..

عن أن تقرّبيني ! .. وكيف خيل إليك ، بحق الشيطان أنك
قادرة على خداعي وتملّقي ؟ .. اننى أمقتك .. أمقتك !

وكان يهز كتفيه في استخفاف ، وينفض جسمه كأنما
أصابته قشعريرة الاشمزاز حقا ، ويرتد بمقعده إلى الوراء
نافرا .. ونهضت من مجلسي ، وفتحت فمي لأبدأ سيلا
جديدا من السباب ، عندما أحرصنى قبل أن أفوه بكلمة ،
منذرا باننى سوف أسجن في إحدى الغرف وحدى إذا نطقت
بحرف واحد !

وكان الظلام قد بدا يتكاثر عندما سمعنا أصواتا تتكلم
عند بوابة الحديقة ، فأسرع مضيفنا إلى الخارج لا يلوى على
شئ .. كان يحتفظ بقدرته على التفكير ، أما نحن فقد شرد
فكرنا .. وطال الحديث دقيقتين أو ثلاثا ، عاد على أثرها
بمفرده ..

وكنت أقول لكثيرين :

— لقد ظننته ابن خالك هيرتون .. وليته يعود الآن ، فمن
يدرى لعله ينحاز إلى جانبنا ..

فقال هيثكليف ، وقد سمع ما قلته :

— إنهم ثلاثة من الخدم حضروا من الجرائج للبحث عنكما
.. وكان ينبغي أن تفتحي النافذة وتناديهم ! .. ولكنى أقسم

ان هذه الطفلة قد سرها أنك لم تفعلنى .. انها سعيدة
لإرغامها على البقاء ، ولا شك لدى في ذلك ..

فلما علمنا بالفرصة التى أضفناها ، أطلقنا العنان لآحزاننا ،
ووجدنا ، كلانا ، في البكاء بنفسنا الآلامنا الحبيسة .. وظل
صامتا بلا حراك لا يعترض على نحيبنا حتى بلغت الساعة
التاسعة .. وعندئذ أمرنا أن نصعد إلى حجرة زيللا بالطابق
العلوى ، عن طريق المطبخ .. فهمست لرفيقتى أن تطيعه ،
فربما استطعنا ان نحاول الخروج من نافذتها ، أو التسلسل
إلى إحدى العليات والهرب من كوتها .. ولكن النافذة كانت
ضيقة كنوافذ الدور الأرضى ، كما ان الباب المؤدى إلى العليات
كان بعيدا عن متناولنا ، لان الحجرة أوصدت علينا من
الخارج كما حدث في الحجرة السفلى ..

ولم ترقد واحدة منا .. أما كثيرين فقد أخذت موقفها
بجوار النافذة ، وظلت تحرق النظر منها وترقب الصباح في
لهفة .. وكان جوابها الوحيد على محاولاتي المتعددة باقناعها
بأن تستريح قليلا ، تنهدا عميقا حسب صدرها قد انشق
منه .. وأما أنا فقد جلست على احد المقاعد ، وجعلت أتأرجح
فيه إلى الامام وإلى الخلف ، ورحت أنحى باللوم العنيف على
نفسى ، لما فرط منى من الإخلال بواجبي مرات عديدة . وبدأ
لى عندئذ ان كل ما أصاب مخدومي من شقاء ومتاعب ، إنما
كان مبعثه تقصيرى هذا .. وانى أعلم الآن أن الامر لم يكن

كذلك حقا ، ولكن ذلك هو ما سيطر على خيالي في تلك الليلة المشؤومة حتى لقد خيل إلى أن هيثكليف نفسه كان أقل جريرة مني !

وحضر إلينا هيثكليف في الساعة السابعة ، فسأل إن كانت مس لينتون قد استيقظت ، فانطلقت تعدو نحو الباب وهي تجيب : « نعم .. نعم ! »

وعندئذ فتح الباب ، وجذبها إلى الخارج وهو يقول : « تعالي إذن ! »

فنهضت لاتبعا ، ولكنه أوصد الباب دوني ، ولما طلبت إليه أن يطلق سراحى ، اجاب :

— صبرا .. صبرا .. سوف ارسل لك طعام الإفطار بعد لحظة !

ولكنى رحت اطرق الباب في عنف ، واحرك المزلاج الداخلى فى صخب .. وسألته كاثرين عن سبب استمرار حبسى ، فأجاب بان على ان احتمل ذلك ساعة اخرى .. ثم تركانى وانصرفا معا ..

وصبرت على السجن ساعتين او ثلاثا ، واخيرا سمعت وقع خطوات ، لم تكن خطوات هيثكليف ، ثم صوتا يقول : — لقد أحضرت لك شيئا من الطعام .. افتحى الباب ..

فأطمت فى لهفة ، وعندئذ رأيت هيرتون محملا بطعام يكفى لغذائى يوما كاملا . ودفع بالصفحة بين يدى قائلا : « خذى ! .. » .

فبدأت أقول :

— ابق معى دقيقة واحدة ..

ولكنه صاح فى وجهى : « كلا ! » .

ثم تراجع إلى الورا ، وهو يوصد الباب من الخارج ، غير مكترث للتوسلات التى تدفقت من فمى كى ابقيه معى قليلا ..

وظللت حبيسة اليوم بأسره ، والليلة التالية ، ثم ليلة اخرى ، فثالثة .. خمس ليال واربعة ايام قضيتها فى سجنى ، لا ارى احدا غير هيرتون ، مرة واحدة فى كل صباح .. وكان مثال السجن الامين ، متجهما صارم الاسارير ، يصيبه الخرس والصرم امام اية محاولة منى لإثارة الشعور بالعدالة أو الرحمة فى نفسه ..

الفصل الثامن والعشرون

في صباح اليوم الخامس ، أو بالأحرى بعد الظهر ، سمعت خطوات مختلفة عن خطى هيرتون تقترب من زنزانتي .. خطى اخف وقما واقصر مدى .. وفي هذه المرة دخل القادم الحجرية ولم يكتف بالوقوف خارجها .. كانت « زيللا » مديرة المنزل ، مندثرة بشملتها القرمزية ، ومغلبية رأسها بقلنسوة حريرية سوداء ، وقد علقت في ذراعها سلة من أعصان الصفصاف .. وما كادت ترانى حتى هتفت تقول :

- آه يا إلهي !.. مسز دين !.. أهذه أنت حقا ؟.. حسنا !.. إن الناس يتحدثون عنك في « جيمرتون » ، وظللت اعتقد أنك غرقت في مستنقع « الجواد الأسود » ، والأنسة معك ، حتى أخبرني السيد بأنهم عثروا عليك وأنه أسكنك هنا !.. ولكن .. لابد أن تكوني قد ارتقيت جزيرة وسط المستنقع ، فلم تفرقي !.. وكم من الزمن لبثت في هذه الورطة ؟.. هل السيد هو الذى انتقذك يا مستر دين ؟.. ولكن عجا !.. اراك لم يصبك الهزال والنحول !.. ويبدو أنك لم تقاسى كثيرا ، اليس كذلك ؟

فأجبتها :

- إن سيدك وغد عريق !.. ولكنه سوف يدفع الثمن غالبا .. انه لم يكن في حاجة إلى اختلاق هذه الرواية ، فلن يلبث الناس حتى يعرفوا كذبها ..

- ماذا تعنين ؟. انها ليست روايته ، بل هي حديث الناس في القرية .. فهم جميعا يقولون أنك فقدت في المستنقع .. وعندما عدت من أجازتي ، ذهبت إلى إيرنشو ، وقلت له : « لقد وقعت اشياء عجيبة منذ ذهابي يا مستر هيرتون !.. وانه لمصير محزن لتلك الفتاة اللطيفة ، ومسز دين الطيبة ! » .. فراح يحملق في وجهي حتى ظننته لم يسمع شيئا عن الامر ، وهكذا أخبرته بما تقول الشائعات .. وكان السيد يصفى إلى ، فما لبث أن ابتسم وقال : « إن كائناتنا قد سقطتا في المستنقع يا زيللا ، فانهما خارجة الآن !.. ان نللي دين تقيم في حجرتك هذه اللحظة ، وفي وسعك أن تطلبى إليها الرحيل ، عندما تصعدين إليها .. هاك المفتاح !.. كانت رأسها مليئة بالوحل والماء الأسن ، وأرادت أن تجرى عائدة إلى منزلها ، وقد أصابها الخبال ، ولكنى أرغمتها على البقاء هنا حتى تستعيد حواسها الضائعة !.. والآن يمكنك أن تطلبى إليها الذهاب إلى « الجرانج » على الغور ، إذا كانت قادرة على السير ، وأن تبلغهم رسالة منى ، هي أن السيدة الشابة سوف تلحق بها في الوقت المناسب لحضور جنازة السيد ! »

فهمتفت في أنفاس لاهثة :

- آه !.. زيللا !.. زيللا !.. ان مستر ادجار لم يمت اليس كذلك ؟..

- كلا .. كلا .. اجلسي واهدئي أيتها السيدة الطيبة ! .. انك ما زلت مريضة إذن ؟.. كلا .. انه لم يمت وفي رأى

الدكتور كينيث انه قد يعيش يوما آخر .. لقد قابلته في الطريق وسالته عنه ..

ولكني ، بدلا من ان اجلس ، اختطفت ثيابي الخارجية ، وهبطت السلم على عجل ، إذ وجدت الطريق خاليا .. فلما ولجت حجرة الجلوس ، رحلت اطلع حولي باحثا عن شخص أسأله عن كاترين .. وكان المكان مليئا بأشعة الشمس الدافئة ، والباب مفتوحا على مصراعيه .. ولكني لم ار احدا هناك ، او هكذا خيل إلي في بادئ الأمر ، لأنني عندما استدرت مترددة بين الرحيل من فوري ، او العودة للبحث عن سيدتي ، استرعى انتباهي سعال خفيف ينبعث من ناحية المدفأة .. كان لينتون مضطجعا فوق الأريكة ، وحده في الحجرة كلها ، يمتص عصا من (السكر نبات) ، ويتبع حركاتي بعينين خاملتين .. فسألته في صرامة وشدة : « أين مس كاترين ؟ » .. وقد خيل إلي أنني إذا افزعته ، وهو بمفرده ، فسوف يبوح لي بمعلوماته على الفور .. ولكنه ظل يمتص حلواه في براءة ، دون أن يجيب ، حتى قلت :

— هل رحلت ؟

عندئذ اجابني قائلا :

— كلا .. انها في الطابق العلوي ، ولن ترحل من هنا ..

إننا لن نسمح لها بذلك !

فصحت به :

— لن نسمح لها ايها الابن الصغير ! .. ارشدني إلى

حجرتها في الحال وإلا جعلتك تصرخ صراخا حادا !

— بل إن أبي هو الذي سيجعلك تصرخين إذا ذهبت إلى هناك .. وهو يقول أنني لا يجب أن اكون ليئا مع كاترين ، فهي زوجتي ، ومن العار أن ترغب في هجرى ! .. ويقول ايضا انها تمقتني ، وتتمنى أن أموت ، حتى تراث اموالي .. ولكنها لن تنالها ! .. ولن تعود إلى منزلها ! .. لن تعود أبدا ! .. وفي وسعها ان تبكي وان تمرض ما شاء لها البكاء والمرض ! وعاد إلى شغلته السابقة في امتصاص حلواه ، وقد اقلق جفونه كأنما ينوي أن يستسلم للنعاس .. وعندئذ عمدت إلى الملاينة ، فقلت :

— هل نسيت يا سيد لينتون رفق كاترين بك في الشتاء الماضي ، عندما كنت تؤكد لها أنك تحبها ، وعندما كانت تحضر لك الكتب ، وتشدو لك بالأغاني ، وتأتي - أكثر من مرة - وسط العواصف والثلوج لشارك ؟ .. لقد كانت تبكي في مرارة ، عندما يفوتها الحضور يوما واحدا ، لأن ذلك سوف يضايقك .. وقد شعرت ، في ذلك الوقت ، انها كانت مثال الطيبة والحنو معك ، ومع ذلك فأنت تصدق الآن أكاذيب والدك التي يلقي بها إليك ، برغم علمك بأنه يكرهكما معا ، وتنفاز إلى جانبه ضدها .. يا له من عرفان بالجميل ، يا سيد لينتون ! .. اليس كذلك ؟

فتدلى ركن فمه ، وأخرج الحلوى من بين شفثيه ، بينما تابعت القول :

— هل تراها حضرت إلى « مرتفعات ويدرنج » لأنها تمقتك ؟ .. وهلا فكرت في الأمر بنفسك ؟ .. أما عن اموالك ،

فانها لا تعلم انك سوف تقتنى شيئا .. ثم تقول انها مريضة ، ومع ذلك تركها وحدها في الطابق العلوى من منزل غريب عليها .. أنت الذى طالما شعرت بقسوة الاهمال .. كان فى وسعك أن ترثى للامك ومتاعبك ، وكأنت هى ترثى لهما كذلك .. أما الآن فانك لا ترثى للامها ولا تريد أن تأخذك الشفقة عليها ! .. اننى أذرف الدموع يا سيد هيثكليف كما ترى - أنا العجوز المتهالكة التى لا تزيد عن مجرد خادم - بينما تدخر أنت كل عيرة من دموعك لتذرفها على نفسك ، بعد أن تظاهرت بكل هذا الحب نحوها ، وكان الأولى بك أن تعيدها عبادة ، ثم ترقد هنا هادئا ناعم البال ! .. آه ! .. يا لك من غلام أنانى حجرى الفؤاد !

فاجاب ساخطا :

- إننى لا أستطيع البقاء معها ، وإلا ما بقيت وحدى .. ولكنها لا تفنأ تبكى حتى لا أستطيع الاحتمال .. وهى لا تكف ولا تستريح من البكاء ، مهما هددتها باستدعاء والدى .. بل لقد دعوته مرة ، فأنذرها بأنه سوف يكتم أنفاسها ، إذا لم تخلد إلى السكون .. ولكنها بدأت من جديد ، بمجرد انصرافه من الغرفة ، تنن وتنتحب الليل بطوله ، برغم أنى ضقت بها ذرعا فصحت بها أن تسكت حتى أستطيع النوم !

ورأيت ذلك المخلوق النعس عاجزا عن الاشفاق على ابنة خاله ، والرثاء لعذابها الفكرى ، فسألته :

- هل مستر هيثكليف خارج الدار ؟

- إنه فى الفناء ، يتحدث إلى الدكتور كينيث .. وهو يقول ان خالى يعانى سكرات الموت حقيقة هذه المرة ! .. وذلك يسرنى كثيرا لأننى سوف أصبح سيد « الجرانج » بعده ! .. لقد كانت كاترين تشدق دائما بالحديث عنه كأنه « منزاها » .. كلا .. انه ليس ملكها .. انه ملكى أنا .. ويقول أبى ان كل شيء تقتنيه قد أصبح لى .. كتبها اللطيفة جميعا صارت كتبى .. لقد عرضت على أن تهبنى كتبها ، وطيورها الجميلة ، ومهرها « ميني » ، إذا احضرت لها مفتاح الحجره وتركها تخرج من الدار .. ولكنى أخبرتها بأنه لم يعد لها ما تهبه او تمنحه ، لأن كل ما لها أصبح ملكى ! .. وعندئذ انخرطت فى البكاء ، ثم أمسكت بصورة صغيرة تعلقها فى عنقها ، وقالت إن هذه لن تكون لى قط .. ورأيت صورتين ، فى إطار ذهبى انيق ، إحداهما لامها ، والثانية لخالى ، عندما كانا فى مقتبل العمر .. لقد حدث ذلك بالأمس فقط ، فقلت لها انهما ايضا قد أصبحتا ملكى ، وحاولت أن انتزعهما منها .. ولكن الخبيثة لم تمكنى من أخذهما ، ودفعتنى دفعة آذنتى .. فصحت مستنجدا ، وذلك يفزعها كثيرا ، فلما سمعت وقع أقدام أبى ، حطمت مفاصل الرصيعة وقسمتها اثنتين ، ثم أعطتنى صورة أمها وحاولت إخفاء الصورة الأخرى .. ولكن أبى سأل عن جلية الخبر ، فشرحته له .. وعندئذ أخذ منى الصورة التى كانت معى ، وأمرها بأن تسلم الأخرى لى .. ولكنها ابت ، فضربها - هو - حتى القى بها على الأرض ، وانتزع الصورة من السلسلة وسحقها تحت قدمه ..

فقلت له ، وأنا أكبت مشاعري ، حتى أستدرجه إلى الكلام :

- وهل سرك أن تراها تضرب أمامك ؟

- لقد أغمضت جفوني !.. واني أغمض جفوني دائما كلما رأيت أبي يضرب كلبا أو حصانا ، لأنه يفعل ذلك في شدة وغضب !.. ومع ذلك فاني سررت في بادئ الأمر ، ورأيتها تستحق العقاب لأنها دفعتني بيدها .. ولكنها ، بعد أن انصرف أبي ، أخذتني إلى النافذة ، وأرتني قطعاً طويلاً في شدقتها من الداخل ، تجاه أسنانها ، كما أرتني فمها المليء بالدماء .. وأخذت تجمع اشتات الصورة الممزقة ، ثم مضت فجلست ووجهها إلى الحائط ، ولم تخاطبني بكلمة واحدة منذ تلك اللحظة !.. وخيل إلي ، في بعض الأحيان ، أنها لا تستطيع النطق من آلام فمها .. وما كنت أحب أن أفكر في ذلك ، ولكنها مخلوقة شريرة لأنها لا تكف عن البكاء باستمرار .. وهي تبدو من الشحوب والضراوة بحيث أصبحت أخافها وأخشاها !

- وهل في وسعك أن تحصل على مفتاح الحجرة كلما أردت ؟

- نعم .. عندما أصعد إلى الطابق العلوي .. ولكنني لا أستطيع الصعود الآن ..

- في أية حجرة هي ؟

نصاح في وجهي :

- آه ! .. لن أخبرك بمكانها قط .. إنه سرنا الذي لن يعرفه أحد ، حتى هيرتون وزيللا لن يعرفاه !.. والآن اذهبني عني ، فقد اتعبتني .. اغربني عن وجهي !
ثم أدار وجهه نحو مسند الأريكة ، وأغمض عينيه من جديد ..

وفضلت أن أرحل بغير إهمال ، دون أن أنشد لقاء مستر هيثكليف ، فاحضر نجدة من « الجرانج » لإنقاذ سيدتي الشابة .. فلما وصلت إلى هناك كانت دهشة زملائي الخدم لرؤيتي بالغة ، وكذلك فرحتهم بعودتي .. وعندما سمعوا أن سيدتهم الصغيرة بخير ، كاد اثنان أو ثلاثة منهم أن ينطلقوا مسرعين ليصيحوا بالنبا السعيد أمام حجرة مستر أديجار ، ولكنني سبقتهم لحمل الخبر إليه بنفسى .. وشد ما ارتعت لما وجدته من تبدل حالته ، وما أصابه من تغيير ، حتى في هذه الأيام القلائل !.. كان يرقد في انتظار الموت ، أشبه بصورة من الحزن والاستسلام .. وكم كان يبدو في ربيع الشباب عندئذ .. فعلى الرغم من أنه كان في التاسعة والثلاثين من عمره ، إلا أن المرء كان يخاله أصغر من ذلك بعشر سنين على الأقل .. وكان يفكر في كاثارين ، لأنه غمغم هاتفا باسمها ، فلمست يده في رفق ، وهمست قائلة :

- كاثارين قادمة إليك أيها السيد العزيز .. أنها على قيد الحياة ، وفي حالة طيبة ، وأرجو أن تكون هنا الليلة ..

وسرت الرعدة في بدنى عندما شهدت اول آثار هذا النبا عليه .. فقد قام في فراشه نصف قيام ، وراح يتلفت حواليه في لهفة ولوعة ، ثم هوى في فراشه مغمشيا عليه .. وما ان افاق من غشيته حتى رويت له زيارتنا الإجبارية «للمرتفات» ، وسجننا هناك .. قلت له إن هيثكليف أرغمنى على الدخول عنوة ، وهو ما لم يكن صحيحا كل الصحة .. ولم أتكلم إلا القليل ضد لينتون ، كذلك لم اصف له مسلك ابيه الوحشى .. فقد كانت نيتى الا اضيف المزيد من المرارة - لو استطعت ان احول دون ذلك - إلى كاسه الطافحة ..

واستشف سيدى ان هدف عدوه - او احد اهدافه - كان يرمى إلى ضمان اموالها الخاصة لابنه ، فضلا عن الضيعة ، او بالأحرى ضمانها لنفسه ! .. اما لماذا تعجل الأمر ، ولم يصبر حتى وفاته ، فقد كان لغزا استعصى على سيدى حله .. لأنه كان يجهل انه وابن اخته يوشكان ان يفارقا الدنيا معا ، كأنهما على ميعاد ! .. ومهما يكن من أمر فقد رأى من الافضل ان يغير وصيته ، وبدلا من ان يترك ثروة كاثربن الخاصة تحت تصرفها المطلق ، فقد عزم على ان يضعها بين ايدى وكلاء يشرفون على استغلالها ، ويعطون كاثربن ريعها ما دامت على قيد الحياة ، ثم لابنائها من بعدها إذا رزقت بأولاد .. وبهذه الطريقة لا تتوول إلى مستر هيثكليف إذا مات ابنه لينتون ..

وما ان تلقيت أوامره ، حتى أرسلت رجلا لإحضار المحامى . كما اوفدت أربعة غيره ، مزودين بالأسلحة الكافية ، ليطلبوا

سيدتى الصغيرة من سجانها .. وطالت غيبة الفريقين إلى وقت متأخر ، وكان الخادم الاول هو السابق في العودة ، فقال ان مستر جرين المحامى لم يكن بمنزله عندما وصل إليه ، فاضطر إلى البقاء ساعتين في انتظار عودته .. وان مستر جرين اخبره بأن لديه مهمة صغيرة في القرية يتعين عليه اداؤها ولكنه سوف يكون في « ثرشكروس جرانج » قبل الصباح .. كذلك عاد الرجال الاربعة وخدمهم ، قائلين إن كاثربن مريضة ، بل شديدة المرض إلى حد لا يسمح لها بالخروج ، وان مستر هيثكليف لم يسمح لهم برؤيتها .. وقد اهلت اللوم والتسايب على رؤوس أوئسك الحمقى لتصديقهم هذه الرواية الكاذبة التى لم اكن أستطيع ثقلها إلى السيد ..

وصممت على ان آخذ فرقة كاملة إلى « المرتفات » عند الفجر ، فاثير عاصفة صاحبة ، ما لم تسلم لنا الأسيرة في هدوء .. فقد نذرت لله ان يراها والدها قبل موته ، ثم نذرت مرة ثانية - لو أدى الأمر - ان اقتل ذلك الشيطان على عتبة داره وهو يحاول منعها !

ومن حسن الحظ اننى كفيت مؤونة الرحلة والمتاعب ! .. لقد نزلت إلى الطابق الارضى في الساعة الثالثة لأحضر إيريكا من الماء ، وكنت أحمله في يدي وأجتاز الردهة عندما سمعت على الباب الامامى طرقة حادة ووعثنى وجملتنى أقفر مجفلة .. ولكننى قلت اطمئن نفسى : « أه ! .. ! » انه جرين .. لا أحد يأتى الآن سوى جرين » .. ثم مضيت في طريقي عازمة على

ان أرسل شخصا آخر ليفتح الباب .. ولكن الطرق تكرر في إلحاح ، دون ان يكون حادا او عاليا .. فوضعت الإبريق على حافة سياج الدرج ، وأسرعت أفتح الباب بنفسى .. وكان قمر الخريف مشرقا يسطع بضياءه في الخارج .. ولم أجد المحامى امامى .. بل كانت سيدتى الصغيرة المحبوبة هى التى اندفعت تحيط عنقى بذراعيها وهى تنتحب هاتفة :

- ايلين .. ايلين .. اما يزال أبى على قيد الحياة ؟

فصحت :

- نعم .. نعم يا ملاكى ، انه حى يرزق .. شكرا لله إذ اعادك إلينا سليمة ثانية ..

وكانت تريد ان تهرع إلى الطابق العلوى ، حيث حجرة مستر لينتون ، وهى على حالها من الأنفاس المبهورة .. ولكنى أرغمتها على الجلوس وسقيتها جرعة من الماء ، وغسلت وجهها المتعب ، وتغالييت فى تجفيفه بمرولتى حتى بعثت فيه طيفا من التورد .. وقلت لها بعد ذلك اننى يجب ان اذهب إليه اولا فأخبره بوصولها .. وتوسلت إليها ان تقول له انيا سوف تكون سعيدة مع هيثكليف الصغير .. فحملت فى وجهى مشدوهة ، ولكنها سرعان ما أدركت لماذا نصحت ايا بالكذب ، وأكدت لى انيا لن تشكو من شيء ..

ولم يكن فى طاقتى ان أحتمل مشهد اللقاء بينهما ، فوقفت خارج باب الحجرة زهاء ربع ساعة ، ثم غابته ضعفى

وتسللت قريبا من الفراش .. ومع ذلك رأيت كل شيء هادئا يحوطه الجلال .. كان ياس كاثرين صامتا كقرحة أبيها .. كانت تسنده ، وفى اساريرها مسحة من الهدوء الظاهرى .. وكان يثبت انظاره فوق محياها ، وقد اتسعت عيناه سرورا ونشوة ..

وقد لفظ أنفاسه الأخيرة ، يا مستر لوكوود ، فى سلام ودعة .. قبل وجنتها ، ثم غمغم يقول :

- إننى ذاهب إليها .. وسوف تأتئين إلينا انت الأخرى ، يا طفلى المحبوبة !

وعندئذ سكن جسده ، فلم يتحرك او ينطق بعدها ، ولكن بقيت فى عينيه تلك النظرة الداهلة الوضاعة ، حتى توقف نبضه فى خفاء ، وفاضت روحه فى سكينه وسلام .. فلم يكن أحد ليستطيع ان يتبين اللحظة التى مات فيها على وجه التحديد ، إذ انقضى كل شيء دون ان يعانى عذاب النزاع الأخير !

وسواء اكانت كاثرين قد استنفدت كل ما لديها من دموع ، أم كان حزنها من العمق بحيث حال دون انسكابها ، فقد جلست متحجرة العينين حتى مطلع الشمس .. وظلت جالسة حتى الظهر ، وكان بודהا لو تبقى مستغرقة فى احزانها بجوار فراش الموت ، لولا أن الححث عليها فى أن تقوم لتثال قسلا

من الراحة .. وحسنا فعلت ، إذ افلحت في إخراجها من
الغرفة ، فما كاد يحين موعد الغداء حتى ظهر المحامي ، بعد
أن ذهب إلى « مرتفعات ويندنج » ليتلقى التعليمات فيما
يكون عليه مسلكه .. لقد باع الشقى نفسه إلى مستر
هيشكليف ، وكان ذلك سبب توائيه عن تلبية دعوة سيدي
له .. ومن حسن الحظ أن شيئا من الأمور الدنيوية لم يطرا
على فكر السيد ، فيزعجه ، بعد سعادته بمقدم ابنته ..

وأخذ مستر جرين على عاتقه أن يأمر وينهى في كل شيء
وكل إنسان في المنزل ! .. وانذر الخدم جميعا ، ما عداى ،
بالفصل من الخدمة .. وكان بوده أن يذهب بسلطته المفوضة
إلى حد الإلحاح في عدم دفن ادجار لينتون بجوار زوجته ،
بل في المعبد بين أسرته .. ولكن وصية سيدي كانت قائمة
لتحول دون ذلك ، فضلا عن احتجاجي الصاحب على أي
إخلال بما تضمنته .. أما كاثارين ، مسز لينتون هيشكليف
الآن ، فقد سمح لها بالبقاء في « الجرانج » حتى يفارقه جثمان
أبيها ، الذي أعدت الترتيبات لتشيع جنازته على عجل ..

وعلمت منها أن شدة حزنها ولوعتها قد حفزت لينتون إلى
المجازفة بإخلاء سبيلها ! .. كانت قد سمعت جدال الرجال
الذين بعثت بهم ، عند باب المنزل ، وأدركت ما يرمى إليه
هيشكليف بجوابه لهم ، فدفعها ذلك إلى حالة من اليأس
الجنوني .. وكان لينتون قد نقل إلى البهو الصغير في الطابق



وعندئذ سكن جسده ، فلم يتحرك أو ينطق بمسدها ، ولكن بقيت
في عينيه تلك النظرة الذاهلة الوضاعة ..

العلوى على اثر انصرافى ، فتملكه الفرع إذ رآها على هذه الحال ، حتى حدا به إلى البحث عن المفتاح وإحضاره قبل ان يصعد والده .. وكان من الدهاء بحيث راح يوصد القفل ويفتحه مرة بعد مرة ، إلى ان تركه مفتوحا في النهاية .. فلما حان موعد نومه ، توسل إلى ابيه ان يسمح له بالنوم مع هيرتون ، فأجيب إلى رغبته لأول مرة .. وتسلت كاثرين قبل انبلاج الصبح ، ولكنها لم تجرؤ على الخروج من الباب الرئيسى خشية ان تثير الكلاب الجائعة في الردهة ضجة تفضحها ، وإنما راحت ترتاد الحجرات الخالية واحدة بعد الأخرى تفحص نوافذها .. فلما بلغت حجرة أمها أخيرا ، استطاعت لحسن الحظ ان تخرج من نافذتها بسهولة ، وأن تهبط إلى الأرض مستعينة بشجرة الشربين الملاصقة للنافذة .. وقد لقي شريكها جزاءه لمساعدتها على الفرار ، برغم كل ما احتال به من حجج واهية !

الفصل التاسع والعشرون

جلست مع السيدة الصغيرة في المكتبة ، مساء يوم تشييع الجنائز ، مستفرقتين في التفكير ، في حزن واسى - يصحبهما اليأس عند كاثرين - في الخسارة الفادحة التى ألمت بئسا ، متخبطتين في تكهناتنا عن المستقبل القاتم العبوس ..

وقد اتفق رأينا على أن خير مصير يمكن أن ينتظر كاثرين ، هو احتمال السماح لها بمتابعة إقامتها في « الجرانج » ، وعلى الأقل اثناء حياة لينتون ، على ان يسمح له بالانضمام إليها هناك ، وان ابقى معها في وظيفتى كمديرة للمنزل ..

ولكن هذا الوضع كان يبدو املا بعيد التصديق ، لما فيه من راحة لنا وملاءمة لرغباتنا .. ومع ذلك كنت ما ازال ارجو واؤمل .. وبدأت ابدى ابتهاجى للاحتفاظ بمنزلى ، ووظيفتى ، وفوق كل شيء بسيدتى الصغيرة المحبوبة ، عندما قدم أحد الخدم - من الذين انذروا بالفصل ، وإن لم يكن قد غادر المنزل بعد - مندفعا نحونا ، معلنا أن « الشيطان هيثكليف » يمرر الفناء مقبلا نحو المنزل ، ويسألنا إن كان ينبغي أن يفلق الباب في وجهه ؟

ولو كنا من الجنون بحيث نأمره باتخاذ هذا الاجراء ، لما اتسع لنا الوقت لذلك .. فان هيثكليف لم يعن بالشكليات كالطرق على الباب ، أو إرسال من يستأذن له علينا .. فقد كان سيد الدار ، ومن ثم أضفى على نفسه ميزات سيد الدار

من شق طريقه فيها قدما ، ودون أن يلقى بأية كلمة .. وقد هداه صوت الخادم إلى المكتبة ، فدخل علينا وطرده الرجل ثم أغلق الباب !

كانت عين الحجر التي استقبل فيها ، ضيفا ، منذ ثمانية عشر عاما .. وكان القمر نفسه يسترق الخطى من خلال النافذة .. بل إن المنظر الخارجى ، وقد أضفى الخريف عليه طابعه ، كان أشبه بمثيله في تلك الليلة البعيدة .. ولم تكن قد أوقدنا الشموع بعد ، غير أن الحجر كلها كانت واضحة المعالم .. حتى الصور المعلقة على الجدران .. صورة رأس مسز لينتون الجميل ، ورأس زوجها الذى يشع رقة وبهاء .. وتقدم هيثكليف نحو المدفأة .. حتى هو لم يغيره الزمن إلا قليلا .. كان الرجل نفسه ، وإن ازداد وجهه شحوبا وصرامة ، وازداد جسمه بدانة نوعا ما .. ذلك كل ما تغير فيه ..

فلما رآته كاثرين ، نهضت واقفة واندفعت تهم بالخروج ، ولكنه أمسك بذراعها وقال :

— قفى ! .. لا فرار لك بعد الآن ! .. وإلى أين تريدان الذهاب ؟ .. لقد أتيت لأخذك إلى منزلك ، وأرجو أن تكوني بعد ذلك ابنة مطيعة تقدرين واجباتك ، ولا تشجعين ابني على مزيد من العصيان ! .. لقد حرت كيف أعاقبه عندما كشفت دوره في خطة فرارك ، فهو أرق من نسيج العنكبوت ، وقرصة واحدة قد تقضى عليه ! .. ولكنك سترين من شكله

انه قد تلقى ما يستحقه .. فقد حملته إلى الطابق الأرضى ذات مساء ، وكان ذلك أول أمس ، واجلسته في مقعده ، ولم امسه بيدي بعد ذلك قط ! .. ولكنى أخرجت هيرتون من الحجر ، وبقينا فيها وحدنا .. وبعد ساعتين ناديت جوزيف ليحمله إلى حجرة ثانية .. ومنذ ذلك الحين أصبح حضوري أشد إرهابا له من الأشباح المخوفة ! .. واحسبه يرانى كثيرا ، وإن لم أكن قريبا منه ، فقد أخبرنى هيرتون أنه يستيقظ اثناء الليل ، ويظل يصرخ ساعة بأسرها ، ويناديك لتحميمه منى ! .. وسواء أكنت تحبين زوجك الغالى ، أم لا تحبينه ، فلا بد لك من الحضور إلى البيت ، لأنه الآن من شأنك ، وإنى اتنازل لك عن كل ما يهمنى فيه !

فتدخلت لأقول له في ضراعة :

— لماذا لا تدع كاثرين تستمر في الإقامة هنا وترسل السيد لينتون ليعيش معها ؟ .. أنك لن تشعر بفقدتهما ما دمت تكره كليهما .. انهما لن يكونا إلا تنغيصا يوميا لقلبك الذى لا يشبه قلوب البشر في شيء ..

فأجاب :

— إننى أبحث عن مستأجر « للجرائج » .. ثم انى أريد اولادى حولى لأطمئن عليهم .. فضلا عن ذلك فإن هذه الفتاة مدينة لى بخدمتها لقاء طعامها ! .. ولن أدعها تعيش في رفاهية وكسل بعد موت لينتون ! .. هيا اسرعى واستعدى للذهاب معى الآن ، ولا تلجئينى إلى إرغامك على ذلك ؟

فقلت كاترين :

- سوف اذهب ، فان لينتون هو كل ما ينبغي ان احبه في هذا العالم .. ومع انك بذلت كل ما في وسعك لتفرده مني ، وتغفري منه ، فانك لا تستطيع الآن ان تجعل احدا منا يمقت الآخر .. وانا اتحداك ان تسيء اليه عندما اكون معه ، واتحداك ان تستطيع إخافتي !

فأجاب هيثكليف :

- يا لك من بطلة متباهية .. ولكني لا احبك إلى الحد الذي يجعلني اسيء إليه بسببك .. انك أنت التي ستجنين ثمرة العذاب كله .. ولست أنا الذي سأجعله بغيضا إليك ، وإنما هو شعوره الطيب وروحه الحلوة .. انه يشعر بمرارة الصفراء لفرارك ، وما تبع ذلك من عواقب .. ولا تنتظري منه الثناء على وفائك النيل ، فقد سمعته يرسم صورة بهيجة لما يود ان يفعله بك ، لو اوتى مثل ما لي من قوة وبطش .. وها أنت تترين ان النية موجودة لديه ، وان ضعفه بالذات هو الذي سوف يجعله يشجذ ذهنه لاستنباط بديل عن القوة والعنف ..

فقلت كاترين :

- إنني اعرف سوء ظويته ، فهو ابنك ! .. ولكن يسرنى انني اطيع منه قلبا ، حتى اصفح عن سوء نيته ! .. واعرف ايضا انه يحبني ، ولذلك فأنى احبه .. أما أنت يا مستر هيثكليف فلا تجد إنسانا يحبك .. ومهما سببت لنسا من

شقاء ، فاننا نجد العزاء والسلوى ، ونشعر بحلاوة الانتقام كلما فكرنا في أن قسوتك تنبعث من شقائك الذي يفوق شقاءنا .. انك شقي تعس ! .. الست كذلك حقا ؟ .. انك وحيد كالشيطان ، حقود مثله ! .. لن تجد انسانا يحبك ، او يبكي يوم ممالكك .. وما كنت لآتمنى ان اكون في مكانك ..

كانت كاترين تتكلم في شماعة مخيفة .. كانت تبدو كأنما قررت أن تتقمص روح الأسرة التي ستعيش بينها ، وتلتمس السرور من احزان اعدائها ..

فقال حموها :

- ستندمين حالا على أنك على قيد الوجود ، إذا لبثت واقفة هنا دقيقة اخرى .. اذهبي أيتها الشريرة ، وأحضري متاعك !

فانسحبت في ازدراء وتشامخ .. وبدأت أرجوه أثناء غيابها أن يمنحني مكان زيللا في « المرتفعات » ، على أن اتنازل لها عن مركزي هنا .. ولكنه لم يقبل في ذلك جدالا أو نقاشا ، بل أمرني بالسكوت .. وعندئذ ، وللمرة الأولى ، اتاح لنفسه ان يلقي لمحة على أرجاء الحجرة ، ونظرة إلى الصور .. وبعد ان تأمل صورة مسز لينتون قليلا ، انبعث يقول :

- سوف يكون لي هذا المنزل ، لا لأنني في حاجة إليه ، وإنما ..

ثم تحول بغتة إلى المدفأة ، وعلى وجهه ما اسميه ابتسامة لأنني لا اجد كلمة افضل اصفه بها ، واستطرد يقول :

- سوف احذئك عما فعلته بالأمس .. لقد جعلت اللحد الذى كان يحفر قبر لينتون يزيل التراب عن غطاء تابوتها ، ثم فتحته ! .. وقد خيل إلى لحظة أننى أود البقاء هناك أبدا ! عندما رايت وجهها - وهو ما يزال إلى الآن نفس الوجه ! - حتى لقي الرجل عناء في زحزحتى ، بعد أن قال ان هبوب الهواء عليه سوف يفسده .. وعندئذ نزع المسامير من احد جانبي التابوت ، ثم اعدت الغطاء فوقه .. ولم يكن ذلك الجانب ناحية لينتون ، لعنة الله عليه ! .. ليتهم لحموا تابوته بالرصاص ! .. ثم رشوت اللحد أن يزيح تابوتها جانبا ، عندما اوضع هناك بدورى ، وينزلنى بينهما ! .. وسوف اعمل على تنفيذ ذلك ، حتى إذا ما اتى شبح لينتون ألينا لم يعرف أيهما تابوتى وأيها تابوتها !

فهمت قائلة :

- إنك ممعن في الشر يا مستر هيثكليف .. ألم تخجل من إزعاج الموتى ؟

- إننى لم أزعج احدا يا نللى ! .. وإنما جلبت على نفسى شيئا من الراحة ! .. وسوف ازداد راحة وهدوءا الآن ، وستجدين في هذا ضمنا أقوى لبقائى تحت اطاق الثرى عندما اذهب إلى هناك .. أتزعمين أننى أزعجتها ؟ .. كلا .. إنما هى التى كانت تزعجنى وتقض مضجعى ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، خلال ثمانية عشر عاما متواصلة بلا انقطاع ، وبغير رحمة أو شفقة ، حتى الامس ! .. بالأمس فقط هدأت

واسترحت .. واشتهيت أن انام نومتى الأخيرة بجوار هذه النائمة ، وقد كف قلبى عن الخفقان ، وتجمد خدى ملاصقا لخدها !

- ولو كان بدننا قد تحلل إلى تراب ، أو ما هو أسوأ من التراب ، فما الذى كنت تشتيه عندئذ ؟

- أن اتحلل معها ، فأكون بذلك اسعد حالا .. هل تظنيننى أخشى أى تبدل من هذا النوع ؟ .. لقد توقعت مثل هذا التحول عندما رفعت غطاء التابوت .. ولكنى ازددت سرورا بأن التحلل لن يبدأ حتى اشاطرها مصيرها ! .. فضلا عن أننى لو لم ألق أمسى ذلك الاحساس المحدد بأسارىها الجامدة ، لما فارقت أبدا ذلك الشعور الغريب .. لقد بدا على نحو عجيب .. فأنت تعلمين أننى كدت أجن بعد موتها ، وكنت أبتهل إليها بلا انقطاع ، من الفجر إلى الفجر ، بأن تعيد لى روحها ! .. كنت قوى الإيمان بالأشباح ، شديد الاعتقاد بأنها تستطيع أن توجد بيننا ، بل وتفعل ذلك فعلا .. وفى اليوم الذى دفنت فيه كاترين ، انهمر الثلج على غير العادة .. وذهبت فى المساء إلى فناء الكنيسة ، وكانت ليلة باردة كئيبه ، كليالى الشتاء .. كان المكان مقفرا موحشا ، فلم أخش مجيء زوجها الأبله لأنه ما كان ليترك جحره ليجول خارجه فى هذه الساعة المتأخرة ! .. ولم أخش قدوم غيره ، فما من احد لديه ما يدفعه إلى الحضور إلى هناك .. فلما الفيت نفسى وحدى ، وكنت اعلم أن ستة اقدم من التراب الرخو هى الحاجز الوحيد بينى وبينها ، قلت لنفسى :

« سوف آخذها بين ذراعى ثانية !.. ولو وجدت جسدها باردا فساقول ان هذه الريح الشمالية هى التى تبعث القشعريرة فى أوصالى ! .. وإذا وجدتها ساكنة بلا حراك ، فانه النوم العميق ، ولا شئ غيره !.. »

« ثم أحضرت معولا من مخزن الكنيسة ، وأخذت أحفر التراب بكل قواى .. وارطم المول بفضاء الصندوق ، فألقيت بالمول بعيدا ، وأكملت الحفر بأصابعى ! .. وبدا الخشب يقطع حول المسامير بينما كنت أحاول نزعها ، وأوشكت أن أبلغ غايتى ، عندما خيل إلى بفتة اننى أسمع تنهدا كالانين ينبعث من شخص ما ينحنى فوقى ، عند حافة القبر !.. فقلت لنفسى : « لو استطعت فقط أن انزع هذا الغطاء ، فليت ذلك الشخص يهيل التراب فوقى فيدفننا معا ! .. » وأقبلت على مهمتى فى يأس المستميت ، فإذا بانين آخر ينبعث ملاصقا لأذنى .. وخيل إلى اننى أحس بالانفاس الدافئة تهب على وجهى ، وتزيح لفحات الهواء القارس .. كنت أعلم انه ما من مخلوق من لحم ودم يقف بجانبى !.. ولكن أرايت إذ تشعرين عن يقين باقترابك من جسم مادى فى الظلام ، دون أن يمكنك تمييزه ؟.. هكذا شعرت عن يقين بوجود كائى هناك ، لا فى القبر تحتى ، وإنما فوق الأرض معى ! .. وعندئذ تدفق من قلبى شعور فجائى براحة عميقة غمرت أوصالى جميعا ، وتخليت من فورى عن عملى الشنيع ، وشعرت بالعزاء يملؤنى ، عزاء صامت بريح .. كنت أشعر بوجودها معى ، وكان هذا الشعور يلزمنى بينما

كنت أردد القبر من جديد ، ويقود خطواتى فى عودتى إلى المنزل .. لك أن تضحكنى ، إذا شئت ، ولكنى كنت واثقا من اننى سوف أراها هناك ..

« كنت واثقا من انها معى ، فلم املك إلا ان اتحدث إليها .. فلما بلغت « المرتفعات » اندفعت إلى الباب ملهوبا ، فإذا به موصد من الخارج .. وأذكر أن ذلك الوغد هيندلى ايرنشو وزوجتى الحمقاء هما اللذان قصدا منعى من الدخول .. وأذكر كذلك اننى تمهلت ريشما اشبعت هيندلى ضربا وركلا حتى تقطعت أنفاسه ، ثم أسرع إلى الطابق العلوى ، إلى حجرتى وحجرتها ، فأخذت أتطلع حولى فى لهفة وحنق .. كنت أشعر بها إلى جانبى .. حتى لقد كدت أراها .. ومع ذلك لم أستطع أن أراها !.. ولا بد أن يكون العرق قد انبثق من مسامى دما قانيا ، من لوعة حنينى إليها ، ومن حرارة ضراعتى وتوسلاتى بأن تجود على بنظرة أو لمحة إليها .. ولكنى لم أنل واحدة !.. أظهرت نفسها - كما كانت كثيرا وهى على قيد الحياة - شيطانا رجيمًا معى .. ومنذ ذلك الحين أصبحت لعبة هذا العذاب الذى يفوق احتمال البشر ، يشتد حينًا ويلين حينًا آخر .. كنت أعيش فى جحيم من توتر أعصابى على هذا النحو ، ولولا انها متينة كالأوتار لتخاذلت منذ زمن بعيد ، ولاضحت فى مثل رخاوة أعصاب لينتون !.. وعندما كنت أجلس فى حجرة الجلوس مع هيرتون ، كان يخيل إلى اننى لو خرجت لالتقيت بها .. وعندما كنت أسير وسط البرارى ، كنت أحسبني سألقاها

راجعة إلى المنزل ! .. كنت كلما غادرت الدار ، تعجلت عودتي إليها ، ليقيني أنها لا بد أن تكون في مكان ما في « المرتفعات » .. وعندما نمت في حجرتها ، وجدتنى أغلب على أمرى وأخرج منها إلى غير رجعة .. لم يقر لى قرار أو يهنا لى مضجع هناك .. فما أن أغمض عيني ، حتى كنت أحس بها إما خارج النافذة ، أو تزيج حواجز خزانة الفراش ، أو داخلة إلى الحجره .. بل كنت أحس بها تريح رأسها الحبيب على الوسادة بجانب رأسى ، مثلما كانت تفعل وهى طفلة .. فكنت أفتح عيني لأراها .. وهكذا رحلت أفتحهما وأغمضهما مائة مرة فى ليلة واحدة ، فكنت لا ألقى إلا الحسرة وخيبة الأمل .. كانت لى عذابا مقيما ! .. وكثيرا ما كان أنينى ينبعث عاليا حتى لا أشك فى أن ذلك الوغد العجوز جوزيف اعتقد أن ضميرى قد انقلب فى صدرى عدوا ضاريا ! .. أما الآن ، بعد أن رأيتها ، فقد سكن روعى وارتحت قليلا .. كان وسيلة غريبة لقتلى والقضاء على - لا بوصة بعد بوصة ، بل بمثل قلامة الظفر أو حد الشفرة - أن تظل تخادعنى وتلوح لى بطيف أمل كالسراب ، خلال ثمانية عشر عاما ! »

وسكت مستر هيثكليف ، وأخذ يجفف جبينه .. كان شعره ملتصقا به ، وقد بلله العرق .. وكانت عيناه مركزتين على جمرات النار المتقدة فى المدفأة .. أما حاجباه فلم يكونا معقودين كمادته ، بل كانا مرتفعين نحو صدغيه ، مما خفف من جهامة محياه - وإن كانا يضيفان عليه مسحة غريبة من الانشغال والقلق ، ومظهرا اليمام من التوتر العقلى والاستغراق

فى موضوع واحد .. كان فى الواقع لا يكاد يخاطبني بحديثه ، فلزمت الصمت ولم أرد عليه .. وكنت لا أحب أن أسمعه يتكلم ..

وبعد لحظة وجيزة ، عاد إلى تأمله للصورة ، ثم أنزلها وأسندها إلى ظهر الأريكة ، ليسهل عليه تأملها فى أمان .. وبينما كان مستغرقا فى هذه المهمة ، دخلت كاترين وأعلنت أنها على استعداد للذهاب لا تنتظر إلا اسراج مهرها ..

فقال هيثكليف لى وهو يشير إلى الصورة :

- أرسلى هذه لى غدا ..

ثم أردف قائلا لكاترين :

- يمكنك أن تستغنى عن المهر ، فانها أمسية جميلة .. ثم أنك لن تحتاجى إلى جياذ فى « مرتفعات ويدرنج » ، لأن أى رحلة تخرجين فيها ، ان تستخدمى فيها غير قدميك .. هيا بنا !

فهمغمت سيدتى العزيزة الصغيرة :

- وداعا يا ايلين !

ثم مالت فوقى تقبلنى ، فأحسست بشفتيها باردتين كالثلج .. وأردفت قائلة :

- لا تنسى ان تاتى لزيارتى يا ايلين !

فصاح والدها الجديد :

— إياك أن تفعل شيئا كهذا يا مسز دين ! .. وعندما أريد أن أتحدث إليك فسوف أحضر إلى هنا ! .. فلست أحب أن تتجسسى في منزلي !

وأشار إليها أن تتقدمه ، فاطاعته بعد أن تلغنت إلى الخلف لتلقى نظرة الوداع على الحجرة ، نظرة قطعت نياط قلبي .. ورحت ارقبهما من النافذة وهما يعبران الحديقة ، فرايت هيثكليف يتأبط ذراع كاترين برغم معارضتها لذلك في البداية ، ثم يسوقها في خطى سريعة واسعة نحو المر المؤدى إلى الطريق ، والذي ما لبثت أشجاره أن أخفتها عن ناظري .

الفصل الثلاثون

قمت بزيارة « المرتفعات » ولكنى لم أر سيدتى منذ رحيلها عن منزلها .. فقد أمسك جوزيف الباب عندما ذهبت إلى هناك لأسأل عنها ولم يسمح لى باجتياز العتبة .. قال ان مسز لينتون معتكفة في حجرتها ، وأن السيد ليس في المنزل .. ولولا ان زيللا أخبرتنى عن الحال التى يعيشون عليها ، لظلمت أجهل من منهم قد مات ومن ما يزال على قيد الحياة .. وتعتقد زيللا أن كاترين متعجرفة متعالية ، وحدثت من حديثها أنها لا تحبها .. فقد طلبت إليها سيدتى الصغيرة أن تساعدها في شئونها الخاصة ، عند أول عهدها بالدار ، ولكن مستر هيثكليف أمر الخادم بأن تعنى بعملها فحسب ، وأن تدع زوجة ابنه تنهض بشئونها بنفسها .. وأذمنت زيللا لأمره راضية فرحة ، إذ هى امرأة ضيقة الأفق شديدة الأثرة .. ولكن كاترين أظهرت غضبا كفضب الاطفال لهذا الاهمال ، وقابلته باحتقار زيللا وازدراؤها ، وسلكتها ضمن اعدائها ، كأنما أساءت إليها اساءة لا تفتقر .. وقد كان لى مع زيللا حديث طويل منذ نحو ستة اسابيع ، قبل مقدمك ، عندما اجتمعنا ذات يوم فوق البرارى ، وهالك ما أخبرتنى به ..

« كان أول ما فعلته مسز لينتون عند وصولها إلى المرتفعات ان انطلقت مهرة إلى الطابق العلوى ، دون أن تعنى حتى بالقاء السلام على او على جوزيف ، ثم حبست نفسها في حجرة لينتون وظلت بها حتى الصباح .. وعندئذ ، بينما كان السيد

وايرنشو يتناولان طعام الافطار ، دخلت عليهما حجرة الجلوس
وسألت ، وهي ترتعد ، ان كان من الممكن استدعاء الطبيب ،
فان ابن عمتها قد اشتد عليه المرض ..

فاجابها هيثكلييف :

— اننا نعرف ذلك .. ولكن حياته لا تساوى مليما ، وان
انفق عليه مليما واحدا ..

فقلت : ولكنى لا ادرى ماذا افعل ، وإذا لم الق مساعدة
من احد فسوف يموت سريعا .

فصاح بها السيد :

— اخرجى من الحجرة ، ولا تدعيني اسمع كلمة اخرى عنه
ابدا .. ان احدا هنا لا يبالي بما يصيبه .. فان كنت مهتمة
به فاسهرى عليه وتولى تمريره ، وان كنت لا يهيك امره
فاوصدى عليه باب حجرته واتركه وشأنه !

« وعندئذ بدأت ترهقنى بأمره ، فقلت لها انى رايت من
العناء ما يكفينى مع هذا المخلوق النكد ، وان لكل منا مهمتها
وعملها الآن ، ومهمتها هى ان تسهر عليه وتخدمه ، فقد
امرنى مستر هيثكلييف بان اترك هذا العمل لها ..

اما كيف كانا يعيشان معا ، فهذا ما لا اعرفه .. ولكن
يخيل إلى انه جعل حياته جحيما ، وكان لا يكف عن العويل
والأنين بالليل وبالنهار ، وبذلك حرمها الراحة إلا اقل القليل
.. وذلك شئ يتبينه المرء من وجهها الشاحب المتقع ، ومن

عينيهما الثقلتين المكدودتين .. وكانت احيانا تاتى إلى المطبخ
شاردة اللب ، وتبدو كأنها تلهف على طلب المعونة .. ولكنى
لم اكن لاعصى اوامر السيد .. فلست اجرؤ قط على عصيان
اوامره يا مسز دين ! .. ومع اننى كنت ارى من الخطأ عدم
دعوة الدكتور كينيث لفحص المريض ، ولكن لم يكن من شأنى
ان انصح بذلك أو اتذمر منه ، فقد أبيت دائما ان اتدخل فى
هذه الأمور .. وحدث مرة أو مرتين ، ان كنت أفتح باب
حجرتى ثانية — بعد ان تاوى إلى مخادعنا — فأجدها جالسة
تبكى فى مرارة فوق قمة الدرج ، وعندئذ أسرع باغلاق باب
الحجرة ثانية ، خشية ان يدفعنى تاثرى إلى التدخل ..
كنت وقتئذ اشفق عليها وارثى لحالها ، ولكنى ما رغبت فى
ان أفقد مركزى كما تعلمين ..

واخيرا ، امت إلى حجرتى ذات ليلة فى جراحة ، وكادت
تفقدنى عقلى من الخوف عندما قالت :

— اخبرى مستر هيثكلييف بان ابنه يحتضر .. فانا واثقة
من ذلك هذه المرة .. هيا انهضى واذهبى إليه !

وما ان نطقت بهذه الكلمات حتى اختفت عن انظارى ..
واقول لك الحق اننى لم اتحرك من فراشى زهاء ربع ساعة
قضيته ارهف السمع وارتعذ من الخوف .. ولكنى لم اسمع
شيئا .. كان المنزل يخيم عليه صمت عميق .. فقلت لنفسى :
« لقد اخطات ، ولا بد انه افاق من النوبة التى غشيتها ! ..
لذلك لا حاجة بى إلى إزعاجهم » .. وغلبنى النعاس ، ولكن
نومى قطعه ثانية رنين الجرس وهو يدوى حادا رهيبا — وهو

الجرس الوحيد الذى بالمنزل ، وقد وضع فى حجرة لينتون خصيصا له - وسمعت السيد يناديني لأرى ما هناك ، ولانذرهم بأنه لا يود ان تتكرر هذه الضجة ثانية ..

وعندئذ ابلغته رسالة كاثرين ، فراح يسب ويلعن ، وما لبث ان خرج بعد دقائق قليلة ، وفى يده شمعة موقدة ، ثم تقدم إلى حجرتهما .. فتبعته .. كانت كاثرين تجلس بجوار الفراش ، وبداها مطبقتان فوق ركبتيها .. ومضى حموها نحو الفراش ، ورفع الشمعة امام وجه لينتون ، وتطلع إليه ، ثم تحسسه .. وبعد ذلك تحول نحوها قائلا :

- بماذا تحسین الآن يا كاثرين ؟

فلم تنبس ببنت شفة ، فعاد يقول :

- بماذا تحسین الآن ؟

وعندئذ اجابته :

- انه أصبح بمنجاة منك ، وغدوت حرة ! .. وكان ينبغي ان اكون راضية ، ولكن ..

ثم اردفت فى مرارة لا تستطيع كتمانها :

- ولكنك تركتني اكافح الموت طويلا ، حتى لم اعد احس او ارى سوى الموت .. اننى احس كأننى انا الميتة !

والواقع انها كانت تبدو اشبه بذلك ، فأحضرت إليها شيئا من النبيذ .. وكان هيرتون وجوزيف ، اللذان ايقظهما رنين

الجرس ووقع اقدامنا ، ثم سمعا كلامنا من خارج الحجرة ، قد دخلا علينا .. كان جوزيف ، فيما اعتقد ، مسرورا للتخلص من الفتى .. اما هيرتون فكان يبدو منزعجا قليلا ، وان كان اهتمامه بالحملقة فى وجه كاثرين ، أكثر من تفكيره فى لينتون .. ولكن السيد أمره بالعودة إلى فراشه ثانية ، لاننا فى غير حاجة إلى معونته .. وبعد ذلك أمر جوزيف بنقل الجثة إلى حجرته ، وطلب إلى ان اعود إلى غرفتى .. وهكذا تركنا مسر لينتون وحدها ..

« وأرسلنى فى الصباح لأخبرها بأنها يجب ان تنزل كى تتناول افطارها .. ولكنها كانت قد خلعت ثيابها وبدا عليها كأنما تهم بالذهاب إلى الفراش ، فقالت لى انها مريضة لا تستطيع النزول ، وهو شيء لم يأخذنى العجب منه .. فلما ابلغت ذلك لمستر هيثكليف اجابنى قائلا :

- حسنا .. دعها كذلك إلى ما بعد تشييع الجنازة ، وعليك ان تذهبى إليها بين الحين والآخر لتحملى إليها ما يلزمها .. ولكن أخبرينى بمجرد ان تريها تحسنت .. » . وقد مكثت كائى معتكفة فى حجرتها اسبوعين ، حسبما ذكرت زيللا ، التى كانت تزورها مرتين كل يوم ، وأرادت ان تتودد إليها ، ولكن محاولاتها من مظاهر العطف المتزايد كانت تصد على الفور فى كبرياء وترفع ..

وصعد إليها هيثكليف مرة ليطلعها على وصية لينتون .. وكان قد اوصى بكل ما كان يملكه ، وما كانت تملكه هى ، من

أموال منقولة ، إلى أبيه . . فقد أرغم المسكين ، أو أغرى ، على ذلك خلال الأسبوع الذي غابته في منزلها عند موت أبيها . . أما الأرض والعقار فلم يستطع ادخالهما في الوصية لأنه كان ما يزال قاصرا لا يمكنه التصرف فيهما . . وعلى كل حال فان مستر هيثكليف طالب بآبائته وإرثه وإرث زوجته ابنة فيهما ، وعين مشرفا على نصيبها في التركة . . ومهما يكن من أمر فان كاترين لم تكن تستطيع التعرض له في حيازته لممتلكاتها ، إذ كانت مجردة من الأصدقاء والنقود . .

ومضت زيللا تقول لى : « لم يكن احد يقرب باب حجرتها قط - عدا المرة التي صعد إليها فيها مستر هيثكليف - سوى . . كذلك لم يكن احد يسأل عنها البتة . . وكانت المناسبة الاولى التي نزلت فيها إلى حجرة الجلوس ، بعد ظهر يوم احد ، وكنت قد حملت إليها طعام الغداء ، فوجدتها تبكى وتقول انها لم تعد تحتمل البقاء في البرد . . فأخبرتها بأن السيد يزعم الذهاب إلى « ثرشكروس جرانج » ، وأن وجود إيرنشو ووجودى لا يجب أن يحول دون نزولها . . وهكذا ما كادت تسمع حوافر جواد هيثكليف ينطلق به خارجا ، حتى ظهرت في حجرة الجلوس ، مجلطة بالسواد ، وقد أزاحت غداثها الذهبية وراء أذنيها في بساطة كأنها واحدة من المتدينات المتزمتات . . فلم يكن في وسعها أن ترخى غداثها كعادتها . . وكنت وجوزيف نذهب عادة إلى الهيكل في أيام الاحاد . . (قالت مسز دين مفسرة ان الكنيسة الآن بغير قس ، ولذلك يستخدمون مكان العماد في جيمرتون هيكل للصلاة) . . وكان جوزيف قد ذهب يومئذ ، فرأيت من

الأوفق أن امكث بالمنزل . . فان الأفضل دائما أن يظل الشباب تحت اشراف شخص اكبر سنا . . كما ان هيرتون ، مع حيائه وخجله ، ليس مثالا للمسلك الرقيق . . وقد أفهمته ان ابنة عمته قد تحضر لتجلس معنا ، وأنها اعتادت دائما أن ترى يوم الأحد مبجلا . . ونصحت له بأن يدع العبت ببناذقه وغيرها من مشاغله المنزلية ، مدة مكثها معنا . . وما كاد يسمع ذلك النبأ حتى تورد وجهه وراح ينظر إلى ثيابه ويديه ، وسرعان ما اختفت آثار الشحم والبارود في دقيقة واحدة . . ففهمت أنه ينوى الجلوس في صحبتها ، وحدثت من مسلكه انه يريد أن يكون لطيف المعشر ، حسن المظهر . . وعندئذ ضحكت ضحكة رنانة لا أجرؤ على مثلها في وجود السيد ، ثم عرضت عليه أن اساعده في إصلاح شأنه - إذا أراد - بعد أن رحلت أمازحه وأضحك من ارتباكك . . فبدا عليه الغضب وزمجر ساخطا لعنا !

واستطردت زيللا تقول ، وقد رأت عدم ارتياحى لمسلكتها :
- لملك يا مسز دين ترين سيدتك الصغيرة من الرقة والثقافة بحيث لا تليق بمستر هيرتون ! . . ولملك على حق ! . . ولكنى شد ما وددت ان اطامن من كبريائها قليلا . . ثم ما الذى ستنفعها به ثقافتها ورقتها الآن ؟ . . انها فقيرة مثلك ومثلى . . بل اجزم انها أشد فقرا ؟ . . فانت تدخرين مرتبك ، وبدات انا اأحدو حدوك !

وسمح هيرتون لزيللا بأن تساعده في إصلاح هندامه ، فراحت تطريه وتتملقه لتجعله رضى الخلق مبسوط المزاج . .

وهكذا ما إن أتت كاترين ، حتى كان قد نسي إهاناتها السابقة له ، وأقبل عليها يحاول أن يبدو لطيفا معها ، حسبما روت لى مدبرة المنزل إذ قالت :

- دخلت السيدة الصغيرة ترتعد من البرد كأنها قطعة من الجليد ، وترفع رأسها شامخة كأنها إحدى الأميرات .. ونهضت من مجلسي ، وعرضت عليها مقعدى الكبير ذا المسندين .. كلا .. لقد أشاحت بوجهها ، وشمخت بأنفها استنكارا لتلطفى ! .. ونهض أيرنشو كذلك ، وطلب إليها أن تأتي إلى الأريكة فتجلس ملاصقة للمدفاة ، قائلا انه واثق من انها تكاد تموت من البرد !

فاجابته وهى تضغط على الكلمة الاخيرة بكل ما وسعها من ازدياء :

- لقد ظلت شهرا او اكثر اكاد اموت من البرد !

« ثم أحضرت لنفسها مقعدا وجلست بعيدا عنا كلينا .. وظلت تجلس ساكنة حتى سرى الدفء فى بدنها ، وعندئذ بدأت تجيل انظارها حولها ، فاكتشفت عددا من الكتب فوق رف الصوان ، فاستوت قائمة على قدميها ثانية ، وحاولت أن تمد ذراعها لتحضرها ، ولكن الكتب كانت مرتفعة عن متناولها .. وبعد أن لبث ابن خالها يرقب محاولاتها برهة ، استجمع شجاعته أخيرا ونهض لمساعدتها .. فأمسكت بثوبها وتلقت فيه أول مجموعة من الكتب وصلت إليها يده ..

« كان ذلك تقديما باهرا من الفتى ! .. ومع انها لم تشكره ،

إلا انه كان يشعر بأنه قد جوزى خير الجزاء بقبولها مساعدته .. ووافته الجراة ليقف خلفها وهى تقلب فى الكتب ، ثم تمادى إلى درجة الانحناء ليشير إلى ما يثير اهتمامه فى بعض الصور القديمة التى تتضمنها .. ولم تروعه تلك الطريقة الوقحة التى كانت تجذب بها الصفحة من تحت أصبعه ، بل كان يكتفى بأن يتعد قليلا إلى الخلف ، ثم يتطلع إليها بدلا من الكتاب ! .. واستمرت تقرا ، أو تبحث عن شئ تقرأه .. وبدأ اهتمامه يتركز تدريجيا فى دراسة غداثها الحريرية الكثيفة ، فلم يكن يستطيع رؤية وجهها ، كما أنها كانت لا تستطيع أن تراه ! .. ولعله لم يكن منتبها تماما لما أقدم عليه ، وإنما كان مثله مثل طفل يجتذبه لهب الشمعة ، عندما تحول من مجرد النظر إلى اللمس .. فقد مد يده وربت على إحدى غداثها فى رفق بالغ كأنه يداعب عصفورا .. وكأنما طعنها بسكين فى عنقها ! .. فقد استدارت إلى الخلف نائرة ، وهى تصيح به فى نبرات تفيض ازدياء واشمئزازا :

- امش من هنا حالا ! .. كيف تجرؤ على أن تلمسنى ؟ .. ولماذا تقف هنا ؟ .. اننى لا اطيعك البتة ! .. وسوف أعود إلى حجرتى ثانية ، إذا اقتربت منى بعد ذلك !

« فتراجع مستر هيرتون ، وقد اكتسى وجهه طابعا من البلاهة ، ثم جلس على الأريكة فى هدوء وسكون ، بينما استمرت تقلب صفحات كتبها أكثر من نصف ساعة .. وأخيرا قام هيرتون ودنا منى ليهمس فى أذنى :

- اسألها ان تقرا لنسا يا زيللا ، فقد جمدت اطرافى من

الجلوس ساكنا لا افعل شيئا .. ثم اننى احب .. اعنى
يمكن ان احب سماع صوتها .. ولكن لا تقولى اننى طلبت
ذلك ، بل اجعلى السؤال من تلقاء نفسك ..

فقلت فى الحال :

— ان مستر هيرتون يود لو قرأت لنا قليلا يا سيدتى ..
وسوف يقدر لك هذا العطف ، ويشكرك عليه كثيرا ..

فقطبت حاجبيها ، ثم رفعت رأسها ، لتجيب :

— ان مستر هيرتون ، وسائر عصابتمك جميعا ، سوف
تحسنون صنعا لو أدركتم اننى ارفض كل زعم لكم بهذا
العطف الذى تجدون من النفاق ما يكفى لإظهاره نحوى ..
اننى احتقركم ، ولن يكون لدى ما اقله لاي واحد منكم ..
فعندما كنت على استعداد لان اهب حياتى لقاء كلمة عطف
واحدة ، او مجرد رؤية وجه واحد منكم ، ظللتكم جميعا بعيدا
عنى ، وتجنبتمونى ! .. ولكنى لن اشكو إليكم ! .. وما دفعنى
إلى النزول إلى هنا سوى البرد ، لا الرغبة فى التسلية ولا فى
الاستمتاع بصحبتكم !

فغمغم ايرنشو :

— ما الذى كان فى وسمى ان افعله ؟ .. وكيف يمكن ان
الام .. ؟

فقاطعت مسر هيثكليف :

— أوه ! .. اننى أستهينك مما كنت أقول .. فما شعرت
البتة بأنى فى حاجة إلى مثل اهتمامك !



وكانها طعمها بسكين فى عنقها ! .. فقد استدارت الى الخلف لائرة ، وهى
نصيح به فى نبرات تفيض ازدياء واشجوازا ..

قال :

- ولكنى عرضت أكثر من مرة ، وسالت مستر هيثكليف ان يسمح لى بأن أركعك ..
وكانما كان يزيد قحتها وسلطتها ضراما ، إذ اجابته
مقاطعة :

- اصمت ! .. خير لى ان اغادر الدار ، او اذهب إلى اى
مكان ، من أن يطرق صوتك الكريه مسامى !

فغمغم هيرتون قائلا انه من ناحيته يرى ان تذهب إلى
الجحيم ! .. ثم نهض وتناول بندقيته المعلقة ، وحرر نفسه
من تقاليد يوم الاحد ، فلم يعد يتقيد بها بعد ذلك ! .. ثم
مضى يتحدث إلى فى انطلاق وتحرر ، وسرعان ما رات من
الأوفق أن تنسحب إلى وحدتها وعزلتها .. ولكن اشتداد
الصقيع بعد ذلك أرغمها ، برغم كبريائها ، على التنازل وارتضاء
رفقتنا يوما بعد يوم .. اما أنا فقد عنيت بأن اجنب نفسى
الازدراء والاحتقار لقاء ما أبديته نحوها من طيب الشمازل ،
فاصبحت منذ ذلك الحين فى مثل جمودها وتصلبها ..
والواقع أنها لا تلقى بيننا من يحبها او يودها .. فهى لا تستحق
حبا او ودا .. لأن اقل كلمة يقولها احدنا لها ، تجعلها تتلوى
فى وجهه دون أن توقر أحدا ! .. بل انها لا تتورع عن أن تثور
فى وجه السيد نفسه على نحو يجعله ينهال عليها لظما وصفعا
.. وكلما ازداد إيذاؤه لها ، كلما ازداد حقدها وكثرت
السبوم التى تنفثها .. «

ولقد صممت ، فى بادىء الأمر ، عندما سمعت حديث
زيللا هذا ، على أن اترك وظيفتى وأستاجر كوخا ، واحضر
كاثرين لتعيش معى فيه .. ولكن مستر هيثكليف لن يوافق
على ذلك إلا مثلما يرضى بأن يسكن هيرتون منزلا مستقلا ! ..
ولست أرى علاجا لحالتها الآن ، إلا إذا استطاعت الزواج
ثانية ، وهو شئ ليس فى قدرتى أن أحققه !

* * *

وهكذا انتهت قصة مسز دين عن هيثكليف وأسرته ..
اما انا ، فعلى الرغم من تكهن الطبيب ، فقد بدأت استعيد
قواى فى خطى حثيثة .. ومع اننا ما نزال فى الاسبوع الثانى
من شهر يناير ، فقد عزمتم على الخروج بعد يوم أو اثنين ،
فأمطلى جوادا ، وأذهب إلى « مرتفعات ويدرنج » لأخبر
المالك بأننى اعتزم قضاء الشهور الستة القادمة فى لندن ،
وأن له ، إذا شاء ، أن يبحث عن مستاجر آخر « للجرانج »
بعد شهر أكتوبر .. فلن اقضى شتاء آخر فى هذه المنطقة
مهما أعطيت !!

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

كان الامس يوما مشرق الضياء ، ساكن الريح ، قارس البرد .. وقد ذهبت إلى « المرتفعات » كما اتويت ، ورجتني مدبرة منزلى ان احمل رقعة صغيرة منها إلى سيدتها الشابة ، فلم ارفض رجاءها ، لأن المرأة الطيبة لم تكن تدرك ما فى رجائها هذا من غرابة وشذوذ ..

ووجدت باب المنزل الخارجى مفتوحا ، ولكن البوابة المنيعة كانت موصدة ، كما وجدت في زيارتى السابقة .. فطرقت فوقها بيدي ، ودعوت هيرتون ايرنشو من حيث كان يعمل بين أحواض الحديقة ، فرغ السلسلة التي كانت موصدة بها ، ودخلت .. وقد وجدت الفتى وسيما لطيفا ، بقدر ما تكون الوسامة والرقة الريفية .. وقد اعرته انتباهها خاصا هذه المرة ، ولكنه يومئذ كان يفعل كل ما فى وسعه ليظهر أقل القليل من ميزاته !

وسألته ان كان مستر هيثكليف موجودا ، فأجابنى : « كلا .. ولكنه سيحضر فى موعد الغداء » وكانت الساعمة قد بلغت الحادية عشرة وقتئذ ، فأعلنت عزمى على الدخول وانتظاره .. وما كدت أقول ذلك حتى رمى بأدواته ، وصحبنى إلى الداخل ، لا ليبقى فى رفقتى بديلا لمضيغى ، بل ليقوم بمهمة كلب الحراسة ..

دخلنا إلى حجرة الجلوس معا .. وكانت كاثرين هناك ، تشغل وقتها فيما يجدى ، إذ كانت تعد بعض الخضر للوجبة

المقبلة .. وكانت تبدو أكثر تجهما وأقل بشاشة مما رأيتها اول مرة .. بل انها لم ترفع عينيها لتنظر إلى ، واستمرت فى عملها بنفس الاغفال لمظاهر اللياقة المتعارف عليها ، الذى لمستته منها من قبل .. فلم ترد انحاءتى وتحيتى ، وتجاهلتني تماما .. فقلت لنفسى :

— انها لا تبدو لطيفة ودودة كما حاولت ان تقنعنى مسز دين ! .. انها آية من آيات الجمال حقا ، ولكنها ليست ملاكا !

وطلب إليها ايرنشو فى جفاء ان تأخذ اشياءها إلى المطبخ ، فدفعتها بعيدا عنها وهى تجيبه فى سرعة : « خذها بنفسك ! » .. ثم قامت فذهبت إلى النافذة وجلست على مقعد صغير ، وراحت تحفر أشكالا لبعض الطيور والحيوانات فى قشور ثمار « اللفت » التي كانت فى حجرها .. فدنوت منها ، متظاهرا بالرغبة فى مشاهدة الحديقة ثم اسقطت رقعة مسز دين فوق ركبتيها فى براعة وحذق ، كما خيل إلى وقتئذ ، فى غفلة من هيرتون .. ولكنها التت بها بعيدا وهى تسألنى بصوت مرتفع :

— ما هذه ؟

فسأنى ان كشفت بهذه الحماقة عن حسن صنيعى ، وخشيت ان يظن ان الرسالة منى ، فقلت :

— انه خطاب من رفيقة قديمة لك ، هى مدبرة المنزل فى « الجرائح » ..

وما أن سمعت ذلك حتى همت بالتقاطه وقد نممرها
الفرح ، لولا أن هيرتون كان أسبق منها إليه ، فأخذه ووضع
في جيب صدرته ، قائلا ان مستر هيثكليف يجب ان يراه
اولا .. وعند ذلك اشاحت بوجهها عنا في صمت ، ورايتها
تخرج مندليها خلسة وترفعه إلى عينها .. اما ابن خالها
فبعد ان راح يناضل مشاعره الرقيقة في بادىء الامر ، أخرج
الخطاب من جيبه وطوح به إلى الأرض بجوارها ، بقدر
ما وسعه من خشونة وفظاظة .. والتقطته كاثرين ومضت
تطالعه في لهفة وتشوق ، ثم اخذت تلقى على قليلا من الأسئلة
المعقولة والتافهة عن سكان منزلها السابق .. وظلت لحظة
تحديق بانظارها ناحية التلال ، وما لبثت ان غمغمت تناجي
نفسها :

- ليتنى أستطيع ان أركب مهري « ميني » هناك ! ..
وشد ما أتوق إلى تسلق الشجر هناك ! .. آواه ! .. اننى
متعبة .. لقد تجمدت اطرافي يا هيرتون !
ثم استندت رأسها الجميل إلى قاعدة النافذة وهى تخفى
تنهدا بالتشاؤم ، ثم استغرقت في شرودها الحزين ، غير
مكرثة ، او منتبهة ، ان كنا نراها ..

وبعد ان جلست صامتا بعض الوقت ، خاطبتها
قائلا :

- الا تدرين يا مسز هيثكليف اننى عرفتك من قبل ؟ ..
وان اواصر المعرفة قد توثقت بيننا حتى لا جد من الغريب الا
تأتى فتحدثنى إلى ؟ .. ان مدبرة منزلى لا تكلم عن الحديث

عنك وامتداحك لحظة واحدة ، وسوف يسوؤها كثيرا ان
اعود إليها صفر اليدين من اية أبناء عنك او منك ، اللهم إلا
انك تلقيت خطابها فلم تقولى شيئا !

فبدا عليها الاستغراب من حديثى ، وسالتنى :

- هل تحبك ايلين ؟

فاجبت مترددا .

- نعم .. كثيرا ..

- يجب ان تخبرها اذن اننى كنت أود الرد على خطابها
لولا اننى لا أملك شيئا من وسائل الكتابة ، وليس عندى كتاب
واحد أستطيع ان انزع منه ورقة لاكتب عليها ..

فهتفت متعجبا :

- لا كتب عندك ؟ .. وكيف بالله تطيقين العيش هنا
بدونها ، لو كان لى ان اسأل هذا السؤال ؟ .. اننى برغم
ما لدى من مكتبة عظيمة ، ينتابنى السأم كثيرا فى « الجرانج »
.. اما إذا حرمتنى كتبى ، فاننى يتملكنى اليأس المرير !

فقالت كاثرين :

- لقد كنت اقرا فيها دائما ، عندما كانت عندى .. ولكن
مستر هيثكليف لا يقرأ شيئا قط ، ولذلك وضع فى ذهنه ان
يدمر كتبى جميعا .. وها قد مضت اسابيع برمتها لم تقع
لى نظرة واحدة على كتاب .. ولكن حدث مرة ان رحمت اكتب
فى ذخيرة جوزيف من كتب الدين ، وركبه من ذلك هم عظيم
.. كما حدث مرة ، يا هيرتون ، ان وقعت على مكتبة خفية

في حجرتك ، بعض الكتب اللاتينية واليونانية ، وبعض القصص وديوان شعر ، وكلها اصدقاء قدماء لى ، فأحضرت الأخير إلى هنا .. وقد كنت تجمعها ، كطائر العتق الذى يجمع الملاحق الفضية لمجرد جبه للسرقة ! .. فانها عديمة الجدوى لك .. أو لعلك كنت تخفيها بتلك الروح الخبيثة ، وهى انك ما دمت عاجزا عن الاستمتاع بها ، فلن يستمتع بها غيرك ! .. وربما كان حسدك هذا هو الذى دفع مستر هيثكليف إلى حرمانى من ذخائرى ؟ .. ولكن معظمها قد سطر فى ذهنى ، وطبع على صفحة قلبى ، ولن تستطيع أن تحرمنى من هذا أو ذاك !

فندا وجه هيرتون أرجوانيا وهو يسمع ابنة عمته تفسى سره وتكشف عن مجموعته الخاصة من كتب الادب ، وأخذ يتمتم متلثمًا بالفاظ حانقة حاول بها أن ينكر اتهاماتها ، فتقدمت لنجدته ، قائلاً :

- ان مستر هيرتون شديد الرغبة فى زيادة حصيلته من العلم والمعرفة .. وهو لم يكن يحسدك على ما بلغت من ثقافة ، وإنما كان يغبطك .. وسوف يغدو طالبا نابها فى سنوات قليلة ..

فقال كاثرين :

- وهو يريد منى ان اغرق فى لغة الجهل اثناء ذلك ! .. نعم ، لقد سمعته يحاول الهجاء والمطالعة وحده ، وكم من أخطاء عجيبة وقع فيها ! .. ليتك تعيد قراءة « مطاردة

الصيد » كما كنت تفعل بالأمس ! .. لقد كانت مهزلة وأى مهزلة ! .. لقد سمعتك تقرؤها ، وسمعتك تبحث فى القاموس عن الكلمات الصعبة ثم تسب وتلعن لانك لا تستطيع ان تقرا شرحها !

ولا ريب ان الشاب كان يراه أمرا بالغ السوء أن يسخر احد منه لجهله ، ثم يسخر منه بعد ذلك لمحاولته التخلص من هذا الجهل ! .. وقد شعرت بمثل شعوره ، وتذكرت ما روته لى مسز دين عن محاولته الأولى فى إثارة ظلمة الجهل التى كان يعيش فيها حبيسا ، فقلت :

- ولكننا جميعا يا مسز هيثكليف بدأنا بمثل هذه البداية .. كلنا كنا نتعثر ونترنح على عتبة المعرفة .. ومع ذلك فلو كان مدرسونا قد سخروا منا بدلا من أن يساعدونا ، لازداد تعثرنا وترنحنا ، ولما بلغنا ما بلغناه ..

فاجابت :

- آه ! .. اننى لا أريد أن احد من تحصيله ، ولكنى لا أرى له حقا فى الاستيلاء على ما أملكه ، ثم يجعله يبدو سخيفا فى نظرى بأخطائه القبيحة وسوء نطقه القطيع .. ان هذه الكتب ، سواء أكانت نثراً أم شعرا ، تفترن فى ذهنى بذكريات أخرى .. وانى اكره ان يحط من قدرها ويدنسها عندما يلوكها فى فمه ! .. وفضلا عن ذلك كله فقد اختار أحب القطع إلى نفسى ، تلك التى أحب ان ارددها أكثر من غيرها ، كأنما يصدر فى ذلك عن عمد ناشئ من خبث طويته ..

فأخذ صدر هيرتون يعلو ويهبط في صمت لحظة طويلة ..
كان يعتمل في نفسه شعور قاس من الهوان والحنق معا ، لم
يكن في طاقته أن يكبحه .. فرايت من حسن اللياقة أن اجنبه
الخرج ، ومن ثمت نهضت ومضيت نحو الباب ووقفت في
مدخل الحجرة ألقب النظر في المنظر الخارجى الممتد أمامى
.. فإذا به يتبعنى ، ويفادر الحجرة .. وما لبث أن عاد بعد
زمن يسير ، يحمل بين يديه عدداً من الكتب والمجلدات القى
بها في حجر كائرين وهو يصيح :

- خذها ! .. فما عدت أريد أن اسمع عنها أو أقرأها أو
أفكر فيها بعد الآن !

- ولكنى لن آخذها .. سوف أقرن بينها وبينك ،
فأبغضها !

ومع ذلك فقد تناولت أحدها ، وكانت تبدو عليه كثرة
الاستعمال والتقليب ، وراحت تقرا فيه بنغمة متعثرة
كمتدىء يتعلم الهجاء .. ثم انطلقت ضاحكة ، وطوحت
بالكتاب وهى تستطرد ، فى إثارة واستغزاز ، قائلة : « اسمع
هذه أيضا ! » .. ثم بدأت تلقى شعرا من ملحمة قديمة بالنغمة
واللهجة نفسها !

عندئذ لم تعد مشاعره تحتل المزيد من العذاب ، فسمعت
- والحق اننى لم أستهجن ما فعله - يضع حدا لانطلاق
لسانها الخبيث بحركة من يده ! .. لقد فعلت الشقية كل
ما فى وسعها لإيذاء مشاعر ابن خالها ، وهى مشاعر إن كانت

لم تلق نصيبها من التهذيب ، إلا أنها كانت شديدة الحساسية
.. فكان الرد البدنى هو الوسيلة الوحيدة التى يملكها لتصفية
الحساب ، وسداد الدين للمعتدى ! .. وبعد ذلك جمع الكتب
وقذف بها فى وسط النيران .. وقد قرأت فى أسارىه مبلغ
ما يعاينيه من ألم إذ يقدم هذه الضحية على مذبح الحقد
والغيظ ! .. وخيل إلى ، بينما كانت النار تلتهمها ، أنه
يستعيد ذكرى ما وفرت له من سرور وانبساط ، ونشوة
النصر والمتعة المتزايدة اللتين استمدهما من هذه الكتب ..
بل لقد خيل إلى اننى أستطيع أن احس الباعث له على هذه
الدراسات التى كان يقوم بها فى الخفاء ! .. لقد كان قائما
بعمله اليومى ، ومتعه الحيوانية البدائية ، حتى عبرت كائرين
طريقه .. فكان خزيه من ازدرائها ، وأمله فى رضائها ، هما
اللذان استحشاها فى بادئ الأمر على أن ينشد التقدم والارتقاء
.. وبدلا من أن تحميه محاولاته نحو السمو بنفسه من
الخزى ، أو تنيله الرضاء ، وجدها تنقلب إلى عكس النتيجة
التي كان يرجوها ..

فصاحت كائرين وهى تلعق شفثها الدامية ، وتنظر إلى
الكتب المحترقة بعينين تفيضان حنقا وغيظا :

- نعم .. فهذا كل ما يستطيع جلف مثلك أن يجنيه من
فائدة منها !

وعندئذ أجابها فى ضراوة :

- خير لك أن تمسكى لسانك الآن !

ثم غلب عليه الانفعال فمنعه من الاسترسال فى الكلام ،

وأسرع نحو الباب ، فتنحيت قليلا حتى يستطيع المرور .. ولكن قبل أن يجتاز الدرجة الحجرية ، التقى به مستر هيثكليف وكان قادما من المر ، فوضع يده فوق كتفه ، قائلا :

— ماذا تريد أن تفعل الآن يا بنى ؟

فأجاب هيرتون :

— لا شيء .. لا شيء !

ثم تخلص منه ، وابتعد مسرعا لينشد في الوحدة متنفسا عن حزنه وغضبه .. فاتبعه هيثكليف بأنظاره لحظة ، ثم تنهد وغمغم يقول لنفسه ، دون أن يشعر بوجودى خلفه :

— لو كذبت نفسى لكنت بالغ الشدوذ ! .. ولكنى عندما أبحث عن شبه أبيه في وجهه ، أجد ملامح عمته تزداد وضوحا يوما بعد يوم ! .. كيف أصبح يشبهها إلى هذا الحد ، بحق الشيطان ؟ .. اننى لا أكاد أحتمل أن أراه !

ثم غص من أنظاره ، ومضى إلى داخل الحجرة مهموما مكتئبا .. كانت ترتسم في محياه لمحة من القلق والاضطراب لم ألاحظها عليه قط من قبل .. بل لقد بدا في نظرى أشد نحولا وهزالا .. وكانت زوجة ابنه قد فرت هاربة إلى المطبخ ، على أثر رؤيته من خلال النافذة .. وهكذا بقيت في الحجرة وحدى .

وتقدمت نحوه محييا ، فأجاب :

— يسرنى أن أراك قد شفيت وغادرت المنزل ثانية يا مستر لوكوود ! .. وهو شعور ينبعث بعضه عن الانائية ! ..

فلا اظننى قادرا الآن على تعويض خسارتنا فيك في هذه البقعة الموحشة ! .. ولقد تملكنى العجب أكثر من مرة فيما جاء بك إلى هنا ..

فكان جوابى : « احسبها كانت نزوة خاسرة يا سيدى ! .. ام لعلها نزوة خاسرة هي تلك التى تحثنى الآن على الرحيل .. فسوف أرحل إلى لندن ، في الاسبوع القادم ، ولابد لى من أن اندرك باننى لا أحس ميلا أو استعدادا للاحتفاظ « بشرشكروس جرانج » بعد السنة التى اتفقت معك على استئجاره خلالها .. وأعتقد أننى لن أقيم فيه بعد الآن ! .. » .

— حقا ؟ .. أحسبك قد تعبت من هذا النفى عن العالم ، أليس كذلك ؟ .. ولكن إذا كنت قد أتيت لتطلب اعفاءك من سداد إيجار مكان لا تنوى أن تشغله ، فان رحلتك إلى هنا لا طائل وراءها ! .. فانى لا أتساهل البتة في اقتضاء حقوقى من أى انسان !

فصحت به ، وقد أثارنى قوله كثيرا :

— اننى ما أتيت لأطلب شيئا من ذلك .. ولو أردت باقى الإيجار الآن ، فانى على استعداد لسداده ..

ثم أخرجت دفتر الشيكات من جيبى ، ولكنه قال في برود : — كلا .. كلا .. فسوف تترك وراءك ما يكفى لسداد دينك ، إذا لم تحضر بنفسك لدفعه .. اما الآن فلست في عجلة من الأمر ! .. اجلس يا مستر لوكوود ، وتناول غداءك معنا ، فلا بأس من الترحيب بضيف يأمن المرء من تكرار زيارته ! .. كاثرين ! .. اعدى المائدة ! .. أين انت ؟

ظهرت كاثرين ثانية ، تحمل مجموعة من الشوك
والسكاكين .. وعندئذ غمغم هيثكليف يقول لها على حدة :
- يمكنك أن تتناولي غداءك مع جوزيف ، وابقى في المطبخ
حتى ينصرف !

وأطاعت تعليماته في دقة بالغة .. ولملها لم تجد ما يفريها
بمخالفته .. أو لعل معيشتها بين المهرجين وأعداء البشر قد
جعلتها لا تستطيع أن تقدر من هم أرقى منهم عندما تلتقى
بهم ..

وكان غداء كئيبا نوعا ما ، بين مستر هيثكليف في عبوسه
وتجهمه ، وبين هيرتون في صمته الأبكم . وما لبثت أن
ودعتها مستأذنا في الانصراف مبكرا .. وكنت أود أن أخرج
من باب المطبخ ، عسى أن القى نظرة أخيرة على كاثرين ،
وأغبط جوزيف العجوز .. ولكن هيرتون كان قد تلقى الأمر
باحضار جوادى أمام الباب الرئيسى ، وشيعنى مضيق
بنفسه إلى الباب ، وهكذا لم تسنح لى الفرصة لتحقيق
رغبتى ..

وبينما كنت أنطلق في الطريق نحو منزلى كنت أقول
لنفسى :

- يا لها من حياة كئيبة تلك التى تمضى في هذه الدار ! ..
وما كان أروعه من ادراك مسز لينتون هيثكليف لشيء أكثر
شاعرية وخيالا مما في القصص الخرافية ، لو أننى وهى عقدنا
أواصر المحبة بيننا ، كما تمننت مربيته الطيبة ، ثم ارتحلنا
معا إلى جو المدينة المثير النابض بالحياة !

الفصل الثانى والثلاثون

سنة ١٨٠٢

دعيت في شهر سبتمبر الحالى إلى ارتياد البرارى في
ضيعة صديق لى يقيم في الشمال ، وكنت في طريقى إليه
عندما وجدت نفسى ، على غير انتظار ، على بعد خمسة عشر
ميلا من قرية « جيمرتون » .. وكان صاحب نزل ريفى
على الطريق يحمل دلوا من الماء لينعش به جيادى ، عندما
مرت به عربة محملة بالشوفان الأخضر الحديث الحصاد :
فصاح به :

- هذه من جيمرتون ، ها ؟ .. انهم دائما يتأخرون في
الحصاد ثلاثة اسابيع عن غيرهم من الناس !

وكانت ذكرى اقامتى في تلك الناحية قد غشيتها غلالة
رقيقة حاملة ، فانبعثت قائلا :

- جيمرتون ؟ .. اننى أعرفها .. كم تبعد عن هذا المكان ؟
فأجاب الفندقى :

- بيننا وبينها خمسة عشر ميلا ، وطريق شديد الوعورة !

فتملكتنى رغبة مفاجئة في زيارة « ثرشكروس جرانج » ..
وكان النهار يوشك أن ينتصف ، وقد رت اننى أستطيع قضاء
الليلة تحت سقف منزلى ، كما كنت سأقضيها في نزل ريفى
صغير .. فضلا عن ذلك ففى وسعى أن أستفنى عن يوم

بسهولة ، لأرتب أموري مع صاحب المنزل ، وبذلك أوفر على نفسي مشقة الحضور إلى هذه الأنحاء مرة أخرى .. فانتظرت ريثما ارتحت قليلا ، وأمرت خادمي بأن يستفسر عن الطريق إلى القرية ، وما لبثنا أن وصلنا إليها بعد ثلاث ساعات لقيت فيها دوابنا عناء عظيما ..

تركت خادمي في القرية ، وتقدمت وحدي أهبط الوادي .. كانت الكنيسة القائمة تبدو أشد قتامة ، والمقبرة الموحشة تلوح أكثر وحشة .. ولمحت شاة من شياه البراري ترعى الكلا القصير فوق القبور .. كان الجو جميلا دافئا ، بل أشد دفئا مما يحتمله المسافر ، ولكن الحرارة لم تحل دون استمتاعى بالمناظر الساحرة فوقى وتحتى .. ولو كنت قد رايتها قرب أغسطس لكان من المحقق أن يدفعنى الاغراء إلى قضاء شهر بين ربوعها المنعزلة الموحشة .. فما من شيء أشد فظاعة في الشتاء ، وأشد سحرا وسموا في الصيف ، من تلك الوهاد المحصورة بين التلال ، وتلك المرتفعات المتناثرة المغطاة بالعشب والكلا ..

وبلغت « الجرانج » قبيل الغروب ، فطرقت الباب ، ولكن الخدم كانوا ممتكفين في الجزء الخلفى من المنزل ، كما أدركت من ذلك الشريط الأزرق الرفيع الذى كان يتلوى في الغضاء منبعثا من مدخنة المطبخ ، فلم يسمعى أحد ، ومضيت بجوادي نحو الغناء .. فرأيت تحت مظلة الباب بنتا في التاسعة أو العاشرة من عمرها جالسة تحبك صوفنا ، كما شهدت امرأة عجوزا متكئة على درج الباب ، ومستغرقة في تدخين غليونها .. فسألتها :

— هل مسز دين فى الداخل ؟

فاجابت :

— مسز دين ؟ .. كلا .. انها لا تقيم هنا .. بل هناك فى « المرتفعات » ..

— وهل أنت مدبرة المنزل إذن ؟

— نعم .. أنا التى أراعه الآن ..

— حسنا .. اننى مستر لوكوود ، السيد ! .. ترى هل أجد اية حجرة لإيوائى ؟ .. اننى أريد قضاء الليلة هنا ..

فصاحت فى دهشة ، وفى تلك اللهجة الريفية الغريبة :

— السيد ؟ .. ماذا ؟ .. من كان يعرف بمقدمك ؟ .. كان يجب أن تبعث بكلمة .. فان المكان كله لا توجد به حجرة جافة او مفروشة .. ولا واحدة !

ثم اقلت بغليونها ، واندفعت إلى الداخل ، والبتت فى اعقابها .. فتبعتهما وسرعان ما أدركت صدق ما قالتها ، كما تبينت أننى كدت أخرجها عن صوابها بظهورى المفاجيء ، فطلبت إليها أن تهدأ قليلا وأخبرتها بأننى سوف أخرج للنزهة وعليها أن تحاول فى تلك الفترة اعداد ركن فى حجرة الجلوس لا تناول عشائى فيه ، وان تعد لى حجرة انام فيها .. قلت لها اننى لا أريد أن تكنس المكان او تمسحه ، فكل ما احتاج إليه نار مشبوبة ، وفراش جاف نظيف .. وكان يبدو عليها أنها راغبة فى بدل غاية جهدها لإرضائى ، برغم أنها دفعت فرشاة الكنس فى الموقد خطأ بدلا من محرالك النار ،

واخطات في تناول أدوات عديدة أخرى مما تحتاجه في مهمتها .. ولكنني انسحبت ، معتمدا على نشاطها في ان اجد عند عودتي مقاما مريحا .. وكانت « مرتفعات ويدرنج » هدف نزهتي المزمعة ، ولكنني ما كدت أخلف الفناء ورأى ، حتى خطرت لي فكرة ، فعدت لاسألها :

- هل كلهم بخير في « المرتفعات » ؟

فأجابتنى وهي تهوول حاملة دلوا مليئا بالفحم :

- نعم .. حسبيما نعرف !

وكنت اود ان اسألها عن سبب رحيل مسز دين عن « الجرانج » ، ولكن كان من المحال ان أعوقها وهي في غمرة تلك الأزمة التي تمر بها ، فاستدردت وتركت لها المكان ..

فلما غادرت حدود البستان ، وبدات أرقى الطريق الحجري الجانبى المتفرع إلى منزل مستر هيثكليف ، مضيت أسير على مهل ، مع وهج الشمس الفسارية خلفي ، وجلال قمر مشرق أمامي ، الأولى تسير نحو الأتول ، والثاني يبدأ في التائق والسطوع .. وقبل ان يصبح المنزل على مرمى النظر مني ، كان كل ما بقى من النهار ضياء كهرماني خال من شعاع الشمس ، يمتد على طول الأفق الغربى .. ولكن كان في وسمى ان أرى كل حصة في المر ، وكل نصل من نصال العشب ، على ضوء ذلك القمر البهى .. ولم أجد نفسي مضطرا إلى تسلق البوابة ، أو الطرق عليها ، فدفعها بيدي حتى استجابت لي .. فقلقت في نفسي ان هناك



ولم اجد نفسي مضطرا الى تسلق البوابة ، أو الطرق عليها ،
فما كدت أدفعها بيدي حتى استجابت لي ..

تقدما باهرا! .. وما لبثت ان تبينت تقدما آخر اكتشفته
خياشيمي ، فقد كان صبير الريحان والزهور المتسلقة يسبح
في الهواء منبعثا من بين اشجار الفاكهة في الحديقة ..

وكانت الابواب والنوافذ كلها مفتوحة .. ومع ذلك ، فكما
هي الحال عادة في مناطق الفحم ، كانت تضيء المدفأة نار
رائعة شديدة الوهج ، ان ارتاحت العين لمرآها فان حرارتها
مما لا يطاق .. ولكن «مرتفعات ويدرنج» منزل ذو سعة ،
يستطيع قاطنوه ان يجدوا فسحة من المكان لبيتعدوا عن
لظاها .. وعلى ذلك فان الاثنين اللذين كانا بحجرة الجلوس
وقتئذ ، اتخذوا لنفسيهما مجلسا غير بعيد عن النافذة ..
كنت استطيع ان اراهما واسمعهما يتكلمان ، قبل ان ادخل
إليهما .. وهكذا تريت قليلا ورحت انظر اليهما مرة واصفى
لهما مرة اخرى ، وقد ثار في نفسي شعور غريب امتزج فيه
الفضول والغيرة معا !

سمعت صوتا رخيما كالأجراس الفضية ، يشدو قائلا :
- مضاد .. هذه هي المرة الثالثة التي اعلمك فيها كيف
تنطق بالكلمة ، ايها القبي ! .. ولن أقولها لك مرة اخرى ،
فانتبه جيدا وإلا جذبتك من شعرك !

فأجابها صوت آخر ، في نبرات عميقة ذات عدوية :

- مضاد ، إذن .. والآن قبليني إذ احسنت النطق !

- كلا .. اقرأ القطعة صحيحة أولا دون ان تأتي غلظة

واحدة ..

فبدأ المتكلم الرجل يقرأ بصوت مسموع .. كان شابا
في مقتبل العمر ، يرتدى ثيابا أنيقة ، ويجلس إلى منضدة
وامامه كتاب مفتوح .. وكانت أساريره الوسيمة تتالق بشرا
وسرورا ، وعيناه لا تكفان عن الشرود ، في صبر نافذ ، من
الكتاب إلى يد صغيرة بيضاء كانت موضوعة فوق كتفه ،
ولا تفتأ تعيده إلى الوعى بلطمة رقيقة على وجنته كلما لاحظت
صاحبته شرود نظراته وعدم انتباهه ! .. كانت صاحبة تلك
اليد تنقف خلفه ، وغداثرها الذهبية اللامعة تمتزج بين لحظة
وأخرى بخصلات شعره الأسمر ، كلما مالت فوقه لتشرف
على دراسته .. أما وجهها .. آه ! .. لقد كان سعيدا إذ
كان لا يمكنه ان يرى وجهها في جلسته هذه ، وإلا لما استطاع
الشبث فوق مقعده كما يفعل الآن .. أما انا فكنت اراه ..
وكنت اعرض على شفتي حائقا ، إذ أضعت الفرصة التي كان
يمكن ان تتاح لي لو أنني قمت بعمل إيجابي بدلا من الاكتفاء
بالتحديق في جمالها الباسم ..

وانتهى الدرس ، دون أن يخلو من أخطاء أخرى .. ولكن
التلميذ طالب بجائزته ، فتلقي خمس قبلات على الأقل ،
ردها في سخاء وحرارة ! .. وما لبثا أن سارا نحو الباب ،
وادركت من حديثهما انهما يوشكان على الخروج في نزهة
بين الأحراش والبراري .. وبدأ لي أن هيرتون إيرنشو سوف
يدعو على من صميم قلبه ، ان لم يكن بلسانه ، بالتردى في
اعمق هوة من الجحيم ، لو أظهرت شخصي التعس بجواره
وقتئذ ! .. وشعرت بحقارتى وخبثي ، فأسرعت بالاختفاء
وراء ركن المنزل ، ثم مضيت أبحث عن ملجأ لي في المطبخ ..

وقد وجدت بابها مفتوحا هو الآخر ، وعند الباب جلست صديقتي القديمة نللى دين مشغولة بالحياكة وهى تسلى نفسها بالغناء .. ولكن أنشودتها كانت تقاطع من الداخل بالفاظ خشنة تم عن الازدراء والتذمر ، فى نبرات أبصد ما تكون عن الانغام الموسيقية !

كان شاغل المطبخ يقول ردا على حديث لنللى لم اسمعه :
- اننى لأفضل ان اسمع الشتائم تنصب فى اذنى من الصباح حتى المساء ، ولا اصفى لمجونك ايتها الشمطاء المتصابية ! .. يا للعار ! .. انه عار صارخ إذا استطيع ان أفتح الكتاب المقدس ، بينما ترفعين عقيرتك بتمجيد الشيطان والتفاخر بكل شرورك التى لم يولد مثلها على الأرض قط .. آه ! .. انك أفعى خبيثة ، وتلك الفتاة أفعى خبيثة اخرى ، وهذا الغلام المسكين سوف يضع بينكما !
ثم اردف يقول فى انين :

- يا للغلام المسكين ! .. لقد قيدته بسحرهما .. اننى واثق من ذلك ! .. آه .. يا الهى ! .. اقض فيهما قضاءك الحق ، فلم يعد بين حكامنا قانون ولا عدالة !
فردت عليه المرأة قائلة :

- كلا .. وإلا لكننا الآن جالستين بين كسل الخشب المشتعلة ! .. ولكن صه ايها العجوز المخرف ، واقرأ كتابك المقدس كأتى شخص تقى ، ولا تلق بالك إلى .. اننى اترنم بلحن جميل هو أنشودة « عرس الحورية أتى » ، الذى يتحول إلى لحن راقص ..

وكانت مسز دين على وشك البدء من جديد ، عندما تقدمت نحوها .. وعرفتنى على الفور ، فوثبت قائمة ، وهى تهتف :

- لك الله يا مستر لوكوود ! .. كيف خطر لك أن تعود بهذه الطريقة ؟ .. ان كل شيء مفلق فى « ثرشكروس جرانج » ، وكان يجب عليك ان تندرنا بمجيئك !

فأجبت :

- لقد رتبت الأمر لراحتى هناك ، طوال الفترة التى سامكتها .. فسوف أرحل ثانية غدا .. ولكن خبرينى كيف انتقلت إلى هنا يا مسز دين ؟

- لقد تركت زيللا الخدمة ، فطلب إلى مستر هيثكليف الحضور ، على اثر رحيلك إلى لندن ، على ان أبقى هنا حتى تعود .. ولكن أرجوك أن تدخل اولا .. هل أتيت من « جيمرتون » هذا المساء ؟

- بل من « الجرانج » .. فقد أردت ان أنهى عملى مع سيدك ، ريثما يعدون لى مكانا للمبيت هناك ، لأننى لا أحسبني أجد فرصة أخرى لذلك فى القريب العاجل ..

وقادتنى نللى إلى حجرة الجلوس ، وهى تقول :

- أى عمل تريد انهاءه يا سيدى ؟ .. لقد خرج الآن ، ولن يعود فى الحال ..

- مسألة الإيجار ..

- آه! .. إذن عليك أن تسوى الأمر مع مسز هيشكليف ،
أو بالأحرى معى .. فانها لم تتعلم بعد كيف تدبر شئونها ،
وأنا التى اتولى ذلك نيابة عنها ، فليس ثمت من يقوم بذلك
غيرى !

فبدت على الدهشة البالغة ، وعند ذلك أردفت تقول :
- آه! .. أرى أنك لم تسمع بموت هيشكليف !

فهتفت مشدوها :

- هل مات هيشكليف ؟ .. منذ متى ؟

- منذ ثلاثة شهور .. ولكن اجلس أولا ، ودعنى احمل
قبعتك إلى المشجب ، وسوف أخبرك بكل شيء عن هذا الأمر
.. ولكن مهلا .. أنك لم تأكل شيئا ، اليس كذلك ؟

- لست أريد شيئا الآن ، فقد أمرت باعداد العشاء فى
منزلى .. ولكن اجلسى أنت أيضا .. اننى ما تصورت وفاته
قط! .. فدعيني اسمع كيف حدث ذلك .. لقد قلت أنك
لا تتوقعين عودتهما فى القريب ، فهل تعنين الفتى والفتاة ؟

- نعم .. واننى اضطر إلى تأنيبهما كل ليلة لجهولتهما
المتأخرة ، ولكنهما لا يكثران بى! .. ولكن خذ على الأقل
قدحا من جعتك القديمة ، وسوف فيدك لانك تبدو متعبا ..

ثم أسرع لتحضره قبل أن أستطيع الاعتذار عنه .
وعندئذ سمعت جوزيف يسألها : « اليست فضيحة صارخة
أن يكون لها عشاق وهى فى هذا الشطر من حياتها ؟ .. ثم

لا تكتفى بذلك ، بل تقدم لهم الشراب من قبو السيد! .. انه
لا يطبق عار البقاء ساكنا ليرى ذلك كله » ..

ولكنها لم تنتظر لترد عليه ، بل عادت بعد لحظة تحمل
قدحا فضا يحفه الحبيب ، اثبتت على محتوياته الشاء
الحמיד فى شهية وحمية! .. وبعد ذلك زودتنى بالبقية
الباقية من قصة هيشكليف .. فقد كانت نهايته « غريبة »
على حد تعبيرها ..

قالت مسز دين :

استدعيت إلى « مرتفات ويدرنج » بعد اسبوعين من
رحيلك عنا ، فأطعت مسرورة من أجل كاترين .. إلا أن
أول حديث تبادلته معها ، أحنزنى وأكربنى ، إذ وجدتها قد
تغيرت كثيرا منذ فراقنا .. ولم يوضح لى مستر هيشكليف
الأسباب التى حدثت به إلى تغيير رايه بشأن حضورى إلى
هنا .. فلم يقل لى إلا انه فى حاجة إلى ، وأنه تعب من رؤية
كاترين ، واننى يجب أن أتخذ من البهو الصغير حجرة
لجلوسى ، وآخذها معى .. ويكفيه أن يضطر إلى رؤيتها مرة
او مرتين كل يوم .. وكانت تبدو مسرورة للنظام الجديد ،
كما اننى من جانبى توليت تدريجيا تهريب عدد كبير من
الكتب وغيرها من الأشياء التى كانت تتسلى بها فى « الجراج » ،
واخذت امنى النفس بالعيش فى راحة محتملة .. ولكن هذا
الوهم لم يدم طويلا .. فبعد أن كانت كاترين راضية ،
ما لبثت بعد فترة قصيرة أن غدت سريعة الغضب شديدة

القلق لا يقر لها قرار .. فقد كانت أولا ، ممنوعة من الخروج من الحديقة ، فكانت شديدة السخط على نحو محزن ، من بقائها حبيسة في حدودها الضيقة بينما الربيع يدنو حثيثا .. من ناحية أخرى ، فان انشغالي بمهامي المنزلية ، كان كثيرا ما يرغمني على تركها ، فكانت تشكو ما تعانيه من الوحدة .. كانت تفضل الشجار مع جوزيف في المطبخ ، على بقائها في عزلتها الهادئة ! .. وكنت لا أعبأ بمناوشاتهما ، ولكن هيرتون كان كثيرا ما يضطر إلى الالتجاء إلى المطبخ أيضا ، عندما يريد السيد ان ينفرد بنفسه في حجرة الجلوس .. ومع أنها كانت ، في بادئ الأمر ، اما أن تترك المطبخ عند اقترابه ، أو تساعدني في مشاغلي في هدوء ، متجاهلة رؤيته ومتجنبه مخاطبته - ومع انه كان دائما شديد العيوس والصمت بقدر ما يسهه - فانها لم تلبث ، بعد فترة من الزمن ، أن غيرت مسلكها واصبحت تعجز عن ان تتركه وشأنه .. فكانت تتحدث عنه ، وتعلق على غبائه وكسله ، وتفضي بداهشتها وعجبها من احتمالها تلك الحياة التي يحيها ، وكيف يستطيع الجلوس امسية طويلة يحملق في نار المدفأة وهوم من النعاس ! .. وقد قالت مرة :

- انه اشبه بالكلب ، اليس كذلك يا ايلين ؟ .. أو بحصان عربية الخضراء ؟ .. انه يقوم بعمله ، وياكل طعامه ، وينام نوما طويلا .. لا بد ان يكون عقله خاويا موحشا ! .. هل تحلم قط يا هيرتون ؟ .. وإذا كنت تحلم في نومك ، فعن أي شيء يجرى حلمك ؟ .. آه ! .. ولكنك لا تستطيع ان تخاطبني !

ثم نظرت إليه ، ولكنه لم يفتح فمه او ينظر ثانية .. فاستطردت تقول :

- ربما كان يحلم الآن ! .. فقد تقوست كتفه فجأة ، كما تفعل كلبتنا « جونو » ! .. اساليه يا ايلين !
فقلت :

- ان مستر هيرتون سوف يسأل السيد ان يبعث بك إلى حجرتك فورا إذا لم تحسني الأدب !

فانني لم أره يقوس كتفه فقط ، بل رأيت يشد قبضة يده ، كأنه يجد به ميلا إلى استخدامها !

وفي مناسبة أخرى صاحت تقول :

- انني أعرف لماذا لا يتكلم هيرتون قط عندما اكون في المطبخ .. انه يخشى ان اضحك عليه ! .. ما رايك يا ايلين ؟ لقد حدث مرة أن بدا يعلم نفسه القراءة ، ولانني ضحكت منه ، احرق الكتب وتخلي عن مشروعه .. ألم يكن أحق في ذلك ؟

فقلت لها :

- او لم تكوني انت شقية شريرة ؟ .. اجيبي على سؤالي هذا !

- ربما كنت كذلك .. ولكنني لم اتوقع أن يكون على هذا الغياء .. اسمع يا هيرتون ، لو أعطيتك كتابا الآن ، فهل تأخذه ؟ .. سوف أحاول ..

ثم تناولت كتابا كانت تطالع فيه فوضعتة فوق يده ،
ولكنه قذف به بعيدا وغغم يقول انها إذا لم تتخل عن عبثها
فسوف يدق عنقها !

ولكنها قالت :

- حسنا .. سوف أضعه هنا ، في درج المائدة .. أما
انا فسأذهب لنام ..

ثم همست تطلب منى أن أرقبه لأرى إن كان يقرب الكتاب ،
وغادرت الحجرة .. ولكنه لم يرض أن يدنو منه ، فلما أنبأتها
بذلك في الصباح ، انتابها كرب عظيم .. ورايت انها حزينة
لإصراره على عبوسه وكسله .. كان ضميرها يؤنبها إذ جعلته
يفزع من مجرد التفكير في اصلاح امره ، وكان لفعالها الحمقاء
أثرها الحاسم في ذلك .. ولكن ذكاءها كان يعمل ويكد في
علاج ما أفسدته .. كنت كلما اشتغلت بكى الثياب ، أو
تابعت غيره من المهام المنزلية التى لا تحتاج للمشى والتنقل ،
والتي لا يمكننى القيام بها فى البهو ، رأيتها تعمد إلى كتاب
من كتبها البهيجة ، وتروح تقرا لى فيه بصوت عال ..
وكانت ، عندما يكون هيرتون هناك ، تقف عادة عند جزء
مشوق من الكتاب ، ثم تتركه موضوما فوق المنضدة أو
غيرها .. فعلت ذلك وكررت مرارا ، ولكنه كان أشد عنادا
من البفل ، وبدلا من أن يلتقط الطعم الذى القته له ، كان فى
الليالى الممطرة ينصرف إلى التدخين مع جوزيف ، فيجلس
كل منهما إلى أحد جانبي المدفاة ، أشبه بالإنسان الآلى ..
وكان الأكبر سعيدا بصممه الذى يجعله لا يفهم شيئا من

الهراء الشنيع الذى تقوله كاترين ، كما كان يطيب له أن
يسمى مطالعتها وحديثها ، بينما كان الأصغر يبذل قصارى
جهده فى التظاهر بعدم الاكتراث .. أما فى الليالى الصحو ،
الجميلة فكان هيرتون يخرج إلى الصيد ، وتظل كاترين تنتهد
وتتشاءب وتلح على فى أن أتحدث إليها ، ثم تنطلق إلى صحن
الدار أو الحديقة ، فى اللحظة التى أهم فيها بالكلام .. وكان
آخر ما لجأت إليه ، أن راحت تبكى وتقول إنها سئمت
العيش ، وأن حياتها هباء فى هباء ..

وكان مستر هيثكليف يزداد يوما بعد يوم عزوفا عن
معاشرة أحد ، حتى أبعد هيرتون نهائيا عن حجرة الجلوس ..
وعلى أثر حادث أصابه فى بداية مارس ، أصبح الفتى قطعة
ثابتة فى المطبخ ، لأيام عديدة .. كانت بندقيته قد انفجرت
بينما كان يجوب التلال وحده ، فمزقت شظية منها ذراعه
وقعد قدرا عظيما من دمائه قبل أن يستطيع الوصول إلى
المنزل .. وكانت نتيجة ذلك أن قضى عليه ، برغم أنه ، بأن
يخلد إلى الهدوء والسكون ، بجوار المدفاة ، حتى استعاد
قواه .. وكان مما يوافق كاترين ويرضيها أن تجده دائما
هناك ، حتى لقد ازدادت كراهية لحجرتها فى الطابق العلوى
أكثر منها فى أى وقت مضى ، وكانت ترغمنى على أن أجد
عملا فى المطبخ ، حتى ترافقنى إليه ..

وفى يوم الاثنين - الموافق لعيد الفصح - ذهب جوزيف
إلى سوق (جيمرتون) ببعض الماشية .. وكنت مشغولة
فى المساء بترتيب بعض المقارن فى المطبخ ، وقد جلس ايرنشو

واجبا مهموما كعادته ، في ركن المدفأة ، بينما مضت سيدتي الصغيرة تتلهى برسم الصور على زجاج النافذة ، أو تستبدل ملهاتها هذه بالغناء الخافت ، أو الصيحات الهامسة ، وباستراق النظر في سخط وتبرم نحو ابن خالها الذي كان منصرفا إلى التدخين في ثبات ، وهو لا يحول أنظاره عن الموقد !

فلما أبدت لها اننى لا أستطيع ان اسمح لها بالاستمرار في الوقوف امام النافذة وحجب الضوء عني ، انتقلت إلى جوار المدفأة .. ولم اكن القى بالا إلى أفعالها قبل ذلك ، ولكنى سمعتها وقتئذ تبدأ قائلة :

- لقد تبينت يا هيرتون اننى أريد .. انه يسرنى .. اننى أود كثيرا أن تكون ابن خالى الآن ، لولا أنك غدوت دائم التجهم لى والخشونة معى ..

فلم يجبها هيرتون بكلمة ، فاستطردت تقول في الحاح :
- هيرتون .. هيرتون .. هيرتون .. هل تسمعنى ؟
فزجر في فظاظة لا تبشر بالخير :
- اغربى عن وجهى !

فقربت يدها في حذر وجذبت الغليون من فمه ، وهى تقول :

- دعنى آخذ هذا الغليون ..

وقبل أن يتسع له الوقت ليحاول استعادته ، كان الغليون قد تحطم والقى به وسط النيران المتأججة .. فانطلق يسبه ويلعن ، ثم اخرج غليوناً آخر ، فصاحت :

- انتظر ! .. يجب ان تصفى إلى اولا ، ولن أستطيع الكلام وهذه السحب من الدخان تطفو في وجهى !

فصرخ في وجهها ، في ضراوة وشراسة :

- هل لك أن تذهبى إلى الشيطان ، وتدعيني وشائى ؟
ولكنها مضت في إلحاحها ، فقالت :

- كلا .. لن اذهب إلى الشيطان ، ولن ادعك وشأنك ..
اننى لا ادرى ما الذى يمكن ان افعله لأجعلك تتحدث معى .. فانت قد عقدت العزم على الا تفهمنى .. اننى عندما انعتك بالبلاهة ، فليست اعنى شيئا البتة .. لست اعنى اننى احتقرك وازدريك .. فهديء من روعك ، وأولنى شيئا من الاهتمام يا هيرتون ! .. انك ابن خالى ، ويجب ان تعترف بوجودى ..

- بل لن يكون لى شأن بك ، ولا بكبريائك الدنيئة ، وأفاعيلك الهائذة اللعينة ! .. انه لاولى لى ان اذهب إلى الجحيم ، روحا وجسدا ، قبل ان أتبعك بنظرة جانبية مرة أخرى ! .. اغربى عن وجهى الآن .. حالا !

فعبست كاثرين ، وانسحبت إلى مقعد النافذة وهى تعض على شفتها ، وتترنم بنغمة غريبة تحاول أن تخفى وراءها رغبة متزايدة نحو البكاء ..

فتدخلت بينهما قائلة :

- يجب أن تكون صديقا لابنة عمك يا مستر هيرتون ، ما دامت قد ندمت على شقاوتها معك .. انك سوف تلقى

من صداقتها خيرا عظيما .. سوف تصبح رجلا آخر لو
اتخذتها لك رفيقا ..

فصاح :

- رفيقا؟ .. بينما هي تمقتني ولا تراني اهلا لان امسح
حذاءها؟ .. كلا .. كلا .. لن أرضى بالازدراء في سبيل
كسب رضاها ، ولو جعلتني صحبتها ملكا متوجا !

فلم تقو كاثرين على اخفاء حزنها ، وانبعثت تبكى وهي
تقول :

- لست انا التي اكرهك ، بل انت الذي تكرهني ! ..
انك تمقتني مثلما يمقتني مستر هيشكيليف ، بل اكثر !

- انت كاذبة لعينة ! .. لماذا ، إذن ، كان يثور ضدى
غاضبا ، اكثر من مائة مرة ، عندما كنت انحاز لك وادافع
عك؟ .. وذلك بينما كنت تسخرين منى وتحقريننى و ..
عودى إلى مضايقتك لى ، وسوف اذهب إليه واقول انك
أزعجتنى حتى أخرجتنى من المطبخ !

فقال كاثرين وهي تجفف عينيها :

- لم اكن اعرف انك دافعت عنى .. ثم اننى كنت تسة
شقية أشعر بالمرارة من الناس جميعا .. ولكنى الآن
أشكرك ، وأرجو أن تصفح عنى .. فما الذى يمكن أن اصنعه
غير ذلك ؟

ثم عادت إلى المدفاة ، ومدت إليه يدها فى اخلاص ..
اما هو فقد احتقن وجهه ، وازداد تجهما ، حتى أصبح

كسحابة رعديّة توشك أن تنفجر ، وظل يشدد الضغط على
قبضتيه وقد تعلق انظاره بالأرض .. ولا بد أن تكون
كاثرين قد تبينت ، بغريزتها ، أن ما دفعه إلى هذا المسلك
الفظ لا يعدو أن يكون صلابة فى الاعتزاز بالنفس والعتاد ،
لا كرها ولا بغضا .. لانها بعد أن لبثت مترددة برهة ،
انحنت فوقه وطبعت على وجنته قبلة رقيقة ! .. وكانما
حسبت الخبيثة الصغيرة اننى لم ارها ، إذ عادت إلى مكانها
السابق بجوار النافذة ، فى رصانة وبراءة ! .. ولكنى هزرت
راسى مؤنبة ، فتورد وجهها وهمست تقول لى :

- حسنا .. ماذا كان ينبغى ان أفعل يا ايلين ؟ .. لقد
رفض أن يصادفنى ، ورفض أن ينظر إلى ، وكان لا بد لى
من أن أريه ، بطريقة ما ، اننى اميل إليه ، واننى أريد أن
تكون صديقين !

ولست أدرى إن كانت القبلة قد اقنعت هيرتون اخيرا ! ..
ولكنه حرص على اخفاء وجهه ، لحظة طويلة ، حتى لا يراه
أحد ! .. فلما رفعه ، كان يبدو فى حيرة يرئى لها ، لا يدرى
إلى أين يوجه انظاره !

وانشغلت كاثرين فى تغليف كتاب انيق بورق ابيض نظيف
.. وبعد أن ربطته بقطعة من الشريط ، وكتبت عليه « إلى
مستر هيرتون ايرنشو » ، رغبت إلى فى أن اكون سفيرة لها ،
وأن احمل الهدية إلى المرسله إليه .. وقالت :

- وتخبريه يا ايلين ، انه إذا قبله فسوف احضر وأعلمه

كيف يقرؤه قراءة صحيحة .. أما إذا رفض قبوله ، فسوف
أصعد إلى حجرتي ولن أضايقه بعد ذلك قط !

فحملت الكتاب ، وأعدت الرسالة على مسامعه ، بينما
كانت مخدومتى ترتبني في لهفة وقلق .. إلا أن هيرتون لم
يفتح أصابعه المنقبضة ، ولذلك وضعت الكتاب فوق ركبته
.. ولكنه لم يقذف به أرضا كذلك !.. فعدت إلى عملي ،
بينما توسدت كائرين ذراعها فوق المائدة ، حتى سمعت
خفيف ورق الغلاف وهو ينزع في رفق ، وعندئذ تسلمت
إلى حيث كان ابن خالها ، فجلست إلى جانبه في هدوء ..
فرايته يرتعد ، ووجهه يضطرم نارا ، وقد فارقت خشونته
وظاظته إلى غير رجعة .. ولكنه لم يستطع ، في بادئ الأمر ،
أن يستجمع شجاعته ، وينطق بحرف واحد ردا على نظراتها
المتسائلة ، وغمغمتها المتوسلة ، وهي تقول له :

- قل انك صفحت عنى يا هيرتون .. قلها !.. انك
تضفى على سعادة بالغة لو قلت هذه الكلمة الصغيرة ..
فانبعثت منه تمتمة غير مفهومة .. ومضت كائرين تضيف
في تساؤل :

- وهل ستصبح صديقى ؟

- كلا .. فسوف تخجلين منى كل يوم من أيام حياتك ،
وكلما ازداد شعورك بالخجل والعار ، ازدادت معرفة بى ،
وهذا امر لا أطيق احتماله ..

فعلت وجهها ابتسامة أحلى من العسل ، وزحفت إلى
جانبه ملتصقة به وهي تقول :

- إذن فلن تكون صديقى ؟

ولم أعد اسمع كلاما مفهوما بعد ذلك !.. فلما تلفت
ناحيتهما ثانية ، رأيت وجهين منحنيين معا فوق إحدى
صفحات الهدية المقبولة ، يشع منهما الضياء والبهاء بحيث
لم يعد لدى شك في أن المعاهدة قد أبرمت بين الطرفين ،
وإن العدوين قد انقلبا حليفين متحابين !

كان الكتاب الذى يدرسه ملبسا بالصور الثمينة ..
وكانت هذه وجلستهما معا قد سحرتهما بحيث ظلا بلا حراك
حتى عاد جوزيف إلى المنزل .. يا للرجل المسكين !.. لقد
وقف ذاهلا مشدوها ، وهو يرى كائرين تجلس على أريكة
واحدة مع هيرتون إيرنشو ، وتسند يدها إلى كتفه !.. كان
حائرا كيف يطبق فتاه المدلل الاقتراب منها إلى هذا الحد ؟
.. وكان اثر ذلك كله في نفسه من العمق بحيث لم يبد أى
تعليق ليلتئذ .. وإنما وجد شعوره متنفسا في تلك التنهدات
العميقة التى راح يطلقها وهو ينشر كتابه المقدس الكبير فوق
المائدة ، ويضع فوقه أوراقا مالية قدره كان يخرجها من
حافظته ، وهى ثمرة الصفقات التى قام بها يومئذ .. وأخيرا
نادى إليه هيرتون ، قائلا :

- خذ هذه إلى السيد ، يا غلام ، وابق معه هناك .. اننى
سوف أصعد إلى حجرتي !.. وهذا الحجر لم يعد صالحا
أو لائقا بنا ، ولا بد لنا من أن نهجره ونبحث عن مكان غيره !

فقلت :

- تعالى يا كاترين .. فلا بد لنا من ان « نهجره » نحن كذلك .. لقد انتهيت من الكى ، فهل انت على استعداد للانصراف ؟

فنهضت على كره وهى تقول :

- الساعة لم تبلغ الثامنة بعد !.. سوف اترك هذا الكتاب فوق رف المدفأة با هيرتون ، وساحضر غيره فى الصباح ..

فقال جوزيف :

- اى كتاب تتركينه هنا سوف آخذه إلى حجرة الجلوس ، وستكون معجزة لو وجدته ثانية .. فافعلى ما يحلو لك إذن ! فالدرته كاترين بان مكتبته سوف تدفع الثمن غالبا إذا ما فقد شيء من كتبها ، ثم انطلقت ترقى الدرج مترنمة بلحن جميل ، بعد ان منحت هيرتون ابتسامة وضاءة وهى تمر به ..

ونمت الالفة التى نشأت بينهما على هذا النحو ، نموا سريعا ، وان صادفتها لحظات من الفتور الوقتى .. فلم يكن آيرنشو لينال الثقافة والتهديب بكلمة أو رغبة .. كما ان سيدتى الصغيرة لم تكن فيلسوفة ، او مثال الصبر والحلم !..

ولكن تفكيرهما كان يتجه إلى هدف واحد : فأحدهما يحب ، ويود ان يضىفى تقديره على من يحب ، والثانى يحب ، ويشتهى ان يكون موضع تقدير محبوبه - فتكاتفا فى النهاية على بلوغه ..

وهكذا ترى يا مستر لوكوود ان استعماله قلب كاترين كانت امرا ميسورا .. ولكنى مسرورة الآن لانك لم تحاول ذلك .. ان اقصى آمالى ان ارى هذين الاثنين زوجين .. ولن احسد احدا ليلة زفافهما ، فلن تكون فى انجلترا كلها امرأة اعظم سعادة منى !

الفصل الثالث والثلاثون

كان إيرنشو - غداة ذلك اليوم - لا يزال غير قادر على متابعة أعماله العادية ، ومن ثمت كان باقيا في المنزل ولن يبرحه .. وسرعان ما تبينت أن حجز وديعتي بجانبى ، كما كنت أفعل فيما مضى ، سوف يكون أمرا غير عملي ، فقد نزلت قبلى ، وأسرت إلى الحديقة حيث كانت قد رأت ابن خالها يؤدى عملا بسيطا هناك .. فلما ذهبت لأطلب إليهما الدخول لتناول طعام الافطار ، وجدت أنها قد أفرته بتنظيف قطعة كبيرة من الأرض من اشجار العنب البناتى وعنب الديق ، وكانا وقتئذ منممكنين معا في غرس بعض النباتات التى استجلبت شتلاتها من « الجرانج » ..

وتملكنى الفرع من ذلك الدمار الذى أصاب الحديقة في نصف ساعة ، لا أكثر .. فقد كانت اشجار العنب البناتى الاسود قررة عين جوزيف ، فاذا كاثرين تركز اختيارها لحوض الزهور التى غرستها ، وسط هذه الاشجار ..

فصحت مرتاعة :

- ويلاه ! .. سوف يأخذ جوزيف السيد ليرى هذا ، عندما يكتشفه ! .. ثم أى عذر يمكنكما أن تبدياه لإطلاق أيديكما في الحديقة بمثل هذه الجراة ؟ .. سوف نرى انفجارا رائعا بسبب ذلك ، وستريان بنفسيكما ! .. واننى لأعجب يا مستر هيرتون ، كيف لم تبق لديك ذرة من العقل حتى تقوم بهذا الانقلاب بناء على طلبها !

فاجاب إيرنشو وقد بدا حائرا :

- لقد نسيت انها اشجار جوزيف ، ولكننى سأخبره باننى الذى اقتلعتها ..

وكنا نتناول طعامنا دائما برفقة مستر هيثكليف .. فكنت اقوم بدور سيدة الدار ، في تقديم الشاي وتوزيع الطعام ، ولذلك كان وجودى على المائدة ضروريا ، لا غنى عنه .. وكانت كاثرين عادة تجلس إلى جانبى ، ولكنها يومئذ تسالت قريبا من هيرتون ، وما لبثت أن رأيتها لا تتستر في إظهار صداقتها أكثر منها في إظهار العداة !

وكنت قد همست لها ، اثناء دخولنا الحجرة معا :

- أرجو الا تكثرى من الحديث واللغات مع ابن خالك ، فان ذلك سوف يفضب مستر هيثكليف حتما ، ويجعله يثور في وجهيكما معا ..

فاجابتنى : « لن أفعل شيئا من ذلك ! » .

ولكنها ، في اللحظة التالية ، كانت تلتصق به ، وبدأت تعابه وتلقى بزهور الاقحوان في طبق الشريد أمامه ..

ولم يجرؤ وقتئذ على أن يخاطبها بكلمة .. بل كاد لا يجرؤ على النظر إليها .. ومع ذلك ظلت ممعنة في عبثها حتى كادت تستثير الضحك منه مرة أو اثنتين .. فعبست في وجهها ، وعندئذ القت على السيد نظرة سريعة لترى إن كان يلحظها .. ولكنه كان مشغول الفكر بأشياء أخرى غير رفقاء الطعام ، كما بدا جليا في محياه .. فلزمت كاثرين الرصانة لحظة ،

وهي تنفوس فيه بنظرات ثاقبة ، وهيبة عميقة ..
وما لبثت ان عادت إلى مجونها .. واخيرا افلتت من هيرتون
ضحكة مكتومة .. فاجفل مستر هيثكليف بغتة ، وراح
يتصفح وجوهنا بنظرة سريعة .. وقابلت كاترين نظراته
بنظرتها العادية المليئة بالسخط ، بل بالتحدي ، التي كان
يكرها منها .. فصاح بها :

- من حسن حظك انك بعيدة عن متناول يدي .. أي
شيطان يمتلك حتى تحملقي في وجهي دائما بهاتين العينين
الجهنميتين ؟ .. اخفضي عينيك ! .. وإياك ان تذكريني
بوجودك مرة أخرى .. لقد ظننتك برئت من الضحك !

فغمغم هيرتون :

- لقد كنت أنا ..

فسأله السيد :

ماذا تقول ؟

فأرخى هيرتون انظاره إلى طعامه ، ولم يكرر اعترافه
ثانية .. فظل مستر هيثكليف يرمقه بأنظاره لحظة ، ثم عاد
إلى متابعة افطاره صامتا ، وإلى استئناف الامعان في التفكير ،
بعد ان قطعت هذه الواقعة .. وكنا قد أوشكنا على الفراغ
من الطعام ، وقد تعقل الفتى والفتاة فجلسا هادئين متباعدين ،
حتى توقعت ان هذه الجلسة لن تشوبها سائبة بعد ذلك ،
عندما ظهر جوزيف في الباب ، وقد بدا في شفته المرتعشة ،
وعينيه الثائرتين ، أن العدوان الذي وقع على خمائله الثمينة



ولكنها ، في اللحظة التالية ، كانت تلصق به ، وبدأت تعالجه وتلقى بزهور
الإتحوان في طبق الثريد أمامه ..

قد كشف امره .. ولا بد انه قد رأى كائى وابن خالهما واقفين عند تلك البقعة قبل ان يذهب لفحصها ، لانه كان يتكلم وفكاه يصطكان كفكى بقرة تجتر طعامها ، فيجعلان من العسير فهم ما يقوله عندما بدا :

- يجب ان آخذ اجرى ، ويجب ان أرخل من هنا .. لقد كنت أود ان اموت في المكان الذى خدمته ستين عاما ، وظننت ان يوسعى ان آخذ كتبى وكل ما لدى من اشياء اخرى ، إلى العلية الصغيرة ، فاترك لهما المطبخ يمرحان فيه كما يريدان ، وانشد الهدوء والسكينة في مكان آخر .. كان من العسير ان اتخلى عن مدقاتى وجلستى بجانبها ، ولكنى ظننت اننى استطيع ان افعل ذلك .. اما الآن فقد أخذت منى حديقتى ، وهذا شيء لا استطيع ان احتمله ايها السيد .. اننى اقولها لك من كل قلبى .. انك قد تحنى رأسك تحت النير ، اما انا فلست معتادا عليه ، ورجل عجوز مثلى لا يعتاد سريعا على النظم الحديثة .. انى افضل ان اكسب لقمتى وحسائى من فأس ومطرقة اشتغل بهما على قارعة الطريق !

فقاطعته هيشكليف قائلا :

- مهلا .. مهلا ايها الغبى ! .. اوقف هذا الطوفان حالا ! .. ما الذى يثير شجونك ؟ .. ولكنى لن اُتدخل فى اى شجار بينك وبين نللى ، فلو قدفت بك إلى داخل الموقد لما اُكترثت !

- انها ليست نللى ! .. فما كنت لاشكو من نللى ، ولو انها اصبحت الآن خبيثة هي الأخرى .. شكرا لله ! .. فهى لا ترضى بان تسلب أحدا روحه ! .. فلم تكن قط رقيقة الشعور مثلما هي الآن ، ولكن ماذا تستطيع ان تفعل وسط الشرور التى تحيط بها ! .. انها « ملكتك » الخسيسة الشريفة التى سحرت فتانا بعينها الجريئتين ، ووسائلها الدنيئة ، حتى جعلته .. لا .. ان قلبى يتمزق ! .. جعلته ينسى كل ما فعلته له ، وما صنعت به ، فيذهب ليزيل أكبر اشجار العنب البناتى فى الحديقة !

ثم انخرط فى البكاء كالنساء ، وقد غلبه احساسه بمرارة الاهانة التى لحقت به ، ووجود ايرنشو والحالة الخطيرة التى بلغها !

فقال مستر هيشكليف :

- هل ذلك الابله ثمل ؟ .. اهو انت الذى تشكو منه يا هيرتون ؟

فاجاب الفتى :

- لقد نزعتم شجرتين او ثلاثا ، ولكنى سوف اعيدتهما ثانية ..

فساله السيد :

- ولماذا نزعتهما ؟

عندئذ رأت كاترين من الحكمة أن تمد لسانها ! .. فصاحت :

— لقد اردنا ان نزرع بعض الزهور هناك .. وانا المسئولة الوحيدة عن ذلك ، لاننى طلبت اليه ان يفعله ..

فقال حموها في دهشة بالغة :

— من الذى اذنك ، بحق الشيطان ، ان تسمى شيئا في هذا المكان ؟

ثم تحول إلى هيرتون ، وادرف :

— ومن الذى امرك بأن تطيعها ؟

فلم ينبس الاخير بكلمة ، وتولت ابنة عمته الإجابة فقالت :

— ما ينبغي لك ان تحقد علينا من اجل بضع ياردات من الارض اجد فيها زينة لى ، بعد ان استوليت على كل ارضى !

— ارضك ؟ .. متى كانت لك ارض ايتها الحفيرة الوحشة ؟

فاستطردت تقول وهي تقابل نظراته النارية في ثبات وتفضم قطعة من الكمك بقيت من افطارها : « وتقودى ! »

فصاح بها :

— اخرسى ! .. اذهبى من هنا ..

فتابعت التعمسة الطائشة كلامها :

— وارض هيرتون وماله ! .. لقد اصبحت وهيرتون

صديقين ، وسوف اخبره بكل شىء عنك !

وجمد السيد في مكانه مشدوها لحظة ، وقد امتقع وجهه :

وما لبث ان نهض من مكانه ، دون ان يرخى نظاره عنها طيلة

هذا الوقت ، وبدت في وجهه لمحة من الحقد الميت .. ولكنها عاجلته قائلة :

— إذا ضربتنى ، فسوف يضربك هيرتون ! .. وخير لك ان تعود إلى مجلسك إذن ! ..

فانفجر هيثكليف كالرعد القاصف :

— إذا لم يخرجك هيرتون من الحجرة الآن فسوف اضربه حتى اقضى عليه .. أنت ايتها الساحرة اللعينة ! .. اتجرؤين على التفاخر باثارتة ضدى ؟ .. اخرجها من هنا .. الا تسمع ؟ .. القها في المطبخ ! .. اننى سوف اقلها ، يا ايلين دين ، إذا تركتها تقع تحت نظرى ثانية !

فحاول هيرتون اقناعها بالخروج همسا ، ولكن هيثكليف صاح به في وحشية :

— جرها إلى الخارج ! .. اسحبها على الارض ! .. هل انت واقف لتكلمها ؟

ثم دنا منها لينفذ امره بنفسه .. فقالت كاترين :

— انه لن يطيعك بعد الآن ، ايها الرجل الشرير ! .. وسوف ييمتلك عاجلا مثلما أمتلك !

فغمغم الشاب مؤنبا :

— صه ! .. صه ! .. إننى لا اقبل ان اسمعك تخاطبيني على هذا النحو ! .. هيا بنا ..

فصاحت به : ولكنك لن تدعه يضربنى !

فهمس لها في لهفة: « تعالی إذن ! »
ولكن فات الأوان .. فقد أمسك بها هيثكليف ، ثم قال
لايرنشو :

- والآن ، اخرج انت ! .. فهذه الساحرة اللعينة قد
أثارتني هذه المرة وأنا لا احتمل الإثارة ، وسوف أجعلها تندم
على ذلك طيلة حياتها ..

وكان قد دس يده في شعرها وقبض على ناصيتها ، فحاول
هيرتون ان يخلص غداثرها من قبضته ، وهو يتوسل إليه الا
يؤذيها هذه المرة .. وكانت عينا هيثكليف السوداوان تومضان
شررا ، وقد بدا عليه انه يهم بتمزيق كاثرين اربا .. واشتد
بى الانفعال والهلع حتى عرمت على المخاطرة بانقاذها ، عندما
رايت أصابعه تلين فجأة ، ورايته ينقل قبضته من رأسها
إلى ذراعها ، وهو يحدق في وجهها في امعان غريب .. وما لبث
ان وضع يده فوق عينيها ، ووقف لحظة وقد بدا عليه انه
يستعيد سيطرته على نفسه ، ثم تحول ثانية إلى كاثرين
قائلا في هدوء مفتعل :

- يجب ان تتعلمي كيف تتحاشين اثاره انفعالي ، وإلا
قتلتك حقا يوما من الأيام ! .. اذهبي الآن مع مسز دين ،
وابقى معها ، وأقصرى قحتك وسلطنة لسانك على أذنيها ! ..
اما هيرتون ايرنشو ، فلو رايته يصفى إليك ويعمل بوحيك ،
فسوف أبعث به ليجث عن لقمته حيث يستطيع ان يجدها ! ..
ان حبك سوف يجعل منه طريدا متسولا .. والآن ، خذيها
يا نللي ، واتركوني جميعا .. دعوني ! .. دعوني ! ..

فأخذت سيدتى الصغيرة إلى الخارج ، وكانت فرحتها
بالخلاص من يده قد غلبت رغبتها في المقاومة .. وتبعنا
الآخر ، وبقي مستر هيثكليف وحده في الحجرة حتى موعد
الغداء .. وكنت قد نصحت لكاثرين ان تتناول غداها في
الطابق العلوى ، ولكنه ما ان رأى مقعدها خاليا حتى أرسلنى
لاستدعائها .. ولم يخاطب احدا منا بكلمة ، ولم يتناول من
الطعام إلا قليلا ، ثم انصرف على الأثر ، قائلا انه لن يعود إلا
في المساء ..

وقد اقام الصديقان في حجرة الجلوس اثناء غيبته ، حيث
سمعت هيرتون يصد ابنة عمته في عبوس ، عندما همت بأن
تدلى بأسرار مسلك حميها نحو والد الشاب ، إذ قال لها انه
لن يحتمل كلمة للحط من قدر هيثكليف .. فلو كان الشيطان
نفسه ، فان ذلك لا يعنى شيئا البتة ! .. وسوف يقف إلى
جانبه .. وأضاف انه يفضل ان تعاود إهانتها له ، كما اعتادت
من قبل ، على ان تتحول بها إلى مستر هيثكليف .. فازدادت
كاثرين عنادا عندما سمعت ذلك ، ولكنه وجد الوسيلة
الناجعة لجعلها تمسك لسانها ، بأن سألها كيف يكون
شعورها إذا سمعته يقول سوفا عن والدها ؟ .. وعندئذ
أدركت كاثرين ان ايرنشو كان يعد كرامة السيد من كرامته
هو ، وانه كان متعلقا به بصلات أقوى من أن يستطيع العقل
تخظيمها .. كانت تربطه به سلاسل صهرتها العادة وقساها
طول الفثرة بحيث يكون من القسوة أن تحاول فكها ..
وقد أظهرت كاثرين ، منذ ذلك الحين ، من طيبة القلب
ما جعلها تتجنب كل شكوى أو تدمر ، بل وكل كلمة تنم على

كراهيتها لمستر هيثكليف ونفورها منه .. واعترفت لى بعد ذلك بأسفها على أن حاولت أفساد العلاقة بينه وبين هيرتون .. والحق أننى لا اعتقد أنها همست بحرف واحد فى مسامع هذا الأخير ضد مضطهدها بعد ذلك ..

فلما انتهى ذلك الخلاف الطفيف بينهما ، ارتدا صديقين ثانية ، وانهمكا بعد ذلك فى مشاغلها العديدة ، كتلميذ ومعلمته .. وأتيت لأجلس معهما ، بعد أن فرغت من عملى ، فشعرت بالراحة والسكينة عندما كنت أرقبهما ، بحيث غفلت عن انقضاء الوقت سريعا .. وأنت تعلم ، يا مستر لوكوود ، أنهما كلاهما يعدان طفلين لى إلى حد ما .. وقد ظلت طويلا فخورة بأحدهما ، وانى واثقة الآن من أن الآخر سوف ينال من نفسى تلك المنزلة نفسها .. ان طبيعته الآمنة المتوثبة الذكية قد نفضت عنها سريعا سحب الجهل والانحطاط التى نشأ فيها ، وكان مديح كاترين الصادق المخلص خير حافز له على المثابرة .. وكأنما أضفى تالق ذهنه تألقا جديدا على محياه ، وأضاف إليه حيوية وثابة ونبلا أصيلا .. حتى كدت لا اتصور انه ذلك المخلوق نفسه الذى رأيته يوم اكتشفت سيدتى الصغيرة فى « مرتفعات ويدرنج » ، بعد رحلتها إلى صخور « بنستون كراجز » .. وفيما كنا يعملان ، وأنا أرمقهما فى اعجاب ، كان الغسق يقترب فى خطى حبشة ، ويأتى معه بالسيد .. وكان مقدمه علينا بغتة ، وعلى غير انتظار ، إذ دخل من الباب الأمامى ، وألقى على ثلاثتنا نظيرة شاملة قبل ان نستطيع ان نرفع رؤوسنا وننظر إليه .. فقلت

فى نفسى : « حسنا .. ما من منظر أكثر بهجة وأقل ضرا كهذا الذى يشملنا ، ومن العار حقا ان يفكر فى انتهارهما .. » كان وهج النار الأحمر يتألق على الرأسين الجميلتين ، ويكشف عن وجهين يفيضان بلهفة الطفولة واهتمامها .. فمع انه فى الثالثة والعشرين ، وهى فى الثامنة عشرة ، إلا ان كلا منهما كان لديه الكثير من الأشياء الجديدة عليه فى الأحاسيس والعلم بحيث لا يكابد او يظهر تلك الميول المنبعثة عن نضج واع خال من الأوهام ..

ورفعا عيونهما معا لتلتقى بنظرات مستر هيثكليف .. ولعلك لم تلاحظ قط ان عيونهما متشابهة تماما ، وأنها نفسها عينا كاترين ايرنشو .. فليس لكاترين الحالية أى شبه بها غير ذلك ، إلا فى جبهتها العريضة ، وفى تقوس انفها بما يجعلها تبدو متعجرفة متعالية ، سواء أرادت ذلك أم لم ترده .. أما هيرتون ، فان شبهه بعينه أبعد مدى .. شبه اعتاد ان يبدو غريبا دائما .. أما فى تلك اللحظة خاصة فكان مذهلا إلى حد بعيد ، لان حواسه كانت متوفزة ، وملكاته العقلية قد نشطت نشاطا غير عادى .. وأحسب ان هذا الشبه قد غل يدى مستر هيثكليف وأضعفه ! .. فقد سار إلى المدفأة فى انفعال واضح ، ثم ما لبث ان سكن وهذا عندما نظر إلى الفتى .. او لعل انفعاله قد تغيرت بواعثه ومظاهره ، لأنه كان ما يزال باديا فى محياه بعد .. وتناول الكتاب من يد هيرتون ، وألقى نظرة على الصفحة المفتوحة ، ثم أعاده إليه دون أن يقوه بأية ملاحظة .. كل ما فعله هو ان أشار إلى

كاثرين بالانصراف !.. اما رفيقها فقد تلكأ قليلا قبل ان يمضي في أثرها ، وكنت على وشك ان أتبعهما ، عندما أشار إلى ان أبقى جالسة مكاني ..

وبعد ان تحدث لحظة عن المنظر الذي شهده للتو ، بدأ يقول :

- انها نهاية تافهة ، اليس كذلك ؟.. اليست خاتمة سخيصة لكل ما بذلت من جهود عنيفة ؟.. لقد جئت بالروافع والمطارق لاهدم هذين البيتين واخر بهما ، ورحت ادرب نفسي لآكون قادرا على العمل مثل هرقل ، حتى إذا ما استعددت لكل شيء ، وأصبح في يدي ، إذا بالرغبة في رفع حجر واحد من احد السقوفين تتلاشى كان لم تكن !.. ان اعدائي القدماء لم يهزموني .. وقد تكون هذه الآونة هي اللحظة الملائمة لكي أثار لنفسي من ذريتهم .. وفي وسعي ان أفعل ذلك .. بل ما من احد يستطيع أن يحول دونه .. ولكن أين الفائدة في ذلك ؟.. اننى لم اعد أبالي بان أضرب ضربتى .. وليس في وسعي ان أجشم نفسي مشقة رفع يدي .. لكم يبدو ذلك كما لو كنت قد ظلت أعمل واكد طول هذا الوقت اكى اقدم عرضا رائعا للشهامة والبرورة !.. ولكن ذلك أبعد ما يكون عن حالتي .. انما الحقيقة هي اننى فقدت القدرة على الاستمتاع بتدميرهما ، واننى أصبحت أضن بنفسى عن التدمير والتخريب بغير ثمرة ..

ان هناك تبلا غريبيا في طريقه إلى يا نللى .. وانا الآن أجتاز ظله .. لقد فقدت كل اهتمام بحياتى اليومية العادية ،

بحيث اصبحت لا اكاد اذكر طعامى وشرابى .. ان هذين الاثنين اللذين غادرا الحجرة الآن هما وحدهما اللذان يحتفظان بمظهر مادى محدد أمامى .. وهذا المظهر سبب لى لما يظل يتزايد حتى يبلغ مبلغ العذاب .. اما هى ، فلست اود ان أتكلم عنها ، ولا أريد ان أفكر فيها ، ولكنى أتمنى من كل قلبى لو انها كانت مختفية عن أنظارى ، فان وجودها لا يثير فى نفسى إلا مشاعر تبعث على الجنون .. ولكنه هو ، يحرك مشاعرى على نحو يختلف عن ذلك تماما ، ولو استطعت - دون ان ابدو مجنونا - لما كنت اراه بعد ذلك قط ..

ولاحت على شفثيه ابتسامة مقتصبة باهتة ، وهو يستطرد قائلا :

- وربما ظننتنى مشرفا على الجنون لو حاولت ان أصف لك آلاف الصور عن ذكريات الماضى وافكاره التى يوقظها او يجسدها أمامى .. ولكنى أعلم أنك لن تتحدثى بما سوف اقله لك ، كما ان عقلى طال عليه الأمد فى عزلته وانطوائه على نفسه ، حتى اشتاق أخيرا إلى ان يشرك معه غيره ..

منذ خمس دقائق كان هيرتون أمامى صورة لشبابى تجسدت أمامى ، ولم يكن بالنسبة لى كائنا بشريا !.. كنت اراه وأحس به بطرق مختلفة ، حتى أصبح من المحال أن ابداه الكلام بطريقة معقولة !.. فان شبهه المروع بكاثرين (١)

(١) يقصد كاثرين رفيقة صباح وام كاثرين الشابة .

باديء ذى بدء ، يجعله مقترنا بها إلى حد مخيف .. ومع ذلك فهذا الذى قد تحسبته أقوى الأسباب لشل خيالى ، انما هو فى الواقع اقلها شانا ! .. وإلا فأى شىء حولى لا يقترن بها ؟ .. وأى شىء حولى لا يذكرنى بها ؟ .. اننى لا أستطيع ان أنظر إلى ارض هذه الحجرة دون ان أرى ملامحها مصورة فى كل مربع منها ! .. اراها فى كل سحابة ، وفى كل شجرة .. اراها تملأ الهواء بالليل ، والمحبا فى كل شىء بالنهار .. تحيط بى صورتها أينما كنت .. ان وجوه الرجال والنساء العاديين - بل اسارىرى نفسها - تهزأ منى وتسخر بى بما تبديه من شبه بها ! .. ان الدنيا بأسرها مجموعة مخيفة من التقارير تثبت انها لا تزال موجودة ، واننى قد فقدتها ! .. حسنا .. لقد كانت صورة هيرتون شبح غرامى الخالد ، ومحاولاتى الضارية للتعلم بحقوقى .. وهوانى ، وكبريائى ، وسعادتى ، وعذابى !

ولكن من الجنون ان اردد هذه الخواطر على مسامعك .. كل ما فى الامر انها سوف تجعلك تدرकिन لماذا كنت لا ارى فى صحبته خيرا ، برغم نفورى من البقاء بمفردى دائما .. بل انها تزيد فى عمق الالم الدائم الذى اكابده ! .. وتساهم فى جعلى غير مكترث لعلاقته بابنة عمته .. فالواقع اننى لم اعد قادرا على ان اوليهما اى اهتمام .. »

- ولكن ما الذى تعنيه بان تغييرا ما سوف يحل بك يا مستر هيثكليف ؟

قلت ذلك وقد اقلقتنى حالته ، برغم انه لم يكن فيما ارى معرضا لخطر الجنون أو الموت ، كان فى عنفوان قوته وصحته .. اما عن حالته العقلية ، فانه كان منذ طفولته يجد متعته فى الاستغراق فى الافكار السوداء ، والتعلق باوهام عجيبة ! .. وربما كان مصابا بذلك النوع من الجنون الذى يتركز فى شىء واحد .. فى موضوع معبودته الراحلة ! .. ولكن قسواه العقلية ، فى غير ذلك من الأمور جميعا ، لم تكن تقل سلامة عن قواى ..

فأجاب :

- اننى لن أعرفه إلا عند مقدمه .. كل ما هنالك اننى أحس به فى غموض ..
- الا تحس بأعراض المرض ؟
- كلا يا نللى . ليس بى شىء من ذلك ..
- الا تكون ، إذن ، خائفا من الموت ؟

- خائفا ؟ .. كلا .. فما بى خوف من الموت ، ولا انا اتوقعه ، ولا أرجوه واتمناه .. ولماذا ينبغي ان تساورنى هذه المخاوف ؟ .. اننى مع تكوينى القوى ، ونظام معيشتى المعتدل ، وعدم تعرضى للمخاطر فى أعمالى ، كل ذلك ينبغي معه - بل يحتمل أن يحدث فعلا - ان اظل فوق سطح الأرض حتى لا تبقى فى رأسى شعرة سوداء ! .. ومع ذلك فلا ارانى قادرا على الاستمرار على هذه الحال .. ان على الآن ان اذكر نفسى بان اتنفس ، واكاد اذكر قلبى بان ينبض ! .. ان الامر معى يشبه زميركا صلبا ثنى إلى الخلف ..

فلو قمت بأقل عمل لا يدفنى إليه عزم ممين ، فانما اساق إلى ذلك سوفا .. ولو انتبهت إلى شيء ، حتى أو ميت ، لا يقترن عندي بفكرة عامة فانما افعل ذلك برغم انفى .. لم تبق لى إلا رغبة وحيدة يتلفه كيانى كله وحواسى كلها شوفا إلى بلوغها .. وقد ظلت تتوق إليها وتلطف عليها طويلا ، وفى غير تردد أو احجام ، بحيث أصبحت مقتنعا باننى سوف ابلغها ، وفى أقرب وقت ، لانها فغرت فاها ، والتقت وجودى كله ! .. ان تعجلى وقوعها قد ابتلعنى وأطبق قمه على .. ولا تظنى ان هذا الاعتراف قد اراحنى ، أو ازاح ما يثقل كاهلى ، وإنما هو تفسير لأشياء اخرى فى مسلكى وتصرفاتى كانت غامضة مبهمة .. آه يا إلهى ! .. لقد طال الصراع ، فليته يبلغ نهايته !

وبدا يدرع الحجرة ذهابا وجيئة ، ويتمتم بأشياء رهيبة غير مفهومة ، حتى ملت إلى الاعتقاد ، مثلما قال أن جوزيف قد اعتقده ، بأن الضمير قد أحال قلبه إلى جحيم دنبوى ! .. وعجبت كثيرا كيف يمكن ان ينتهى ذلك كله .. فعلى الرغم من انه قلما كشف فى الماضى عن حالته العقلية ، ولو فى نظراته ، فليست أشك فى ان هذه هى طبيعته العادية .. وهو نفسه الذى يؤكدها ، لانه ما من إنسان كان يستطيع ان يتكهن بالحقيقة ، من مظهره العام .. وانت نفسك ، يا مستر لوكوود ، لم تدرك شيئا عن حقيقته عندما رأته ، وقد كان فى الفترة التى اتحدث عنها لا يختلف فى شيء عما كان وقتئذ ، إلا انه كان اكثر ولعا بالوحدة ، وأقل كلاما مع الناس .

الفصل الرابع والثلاثون

ظل مستر هيثكليف عدة أيام بعد تلك الامسية يتجنب لقاءنا فى أوقات الطعام .. على أنه لم يكن يرضى بأن يستبعد هيرتون وكاتى من محضره بصورة ظاهرة .. كان ينفر من الخضوع لمشاعره والاستكانة لاحاسيسه ، فاختر ان يغيب ساعة الطعام .. وكان يبدو ان وجبة واحدة يتناولها فى الاربع والعشرين ساعة كافية لتقييم اوده ..

وبعد ان اوت العائلة كلها إلى الفراش ذات ليلة ، سمعته يهبط الدرج ، ويفادر البيت من الباب الامامى .. ولم اسمعه يعود إلى الدار ، ثم تبينت فى الصباح انه ما يزال فى الخارج .. كنا وقتئذ فى شهر ابريل ، وكان الجو صحوا دافئا ، وأشجار التفاح القصيرة عند الجدار الجنوبى مليئة بالأزهار والبراعم .. فلما فرغنا من طعام الافطار ، الحت على كاثارين فى أن احضر شغلى ومقعدى ، واجلس تحت اشجار الشربين فى الطرف الاقصى من المنزل ، ثم اغرت هيرتون - الذى كان قد شفى تماما من اصابته - بأن يحفر ويسوى حديقتهما الصغيرة ، التى نقلت إلى ذلك الركن على اثر شكوى جوزيف وبسببها .. وكنت انعم فى مجلسى بعبير زهور الربيع حولى ، والزرقة الجميلة الهادئة فوق راسى ، عندما رجعت سيدتى الصغيرة - وكانت قد ذهبت لتحضر بعض جذور عنب الدير من خمالها بالقرب من البوابة ليفرساها حول احواض الزهور - تحمل القليل منها ، واخبرتنا ان مستر هيثكليف عاد إلى الدار ، ثم اضافت وقد علت الحيرة اساربرها :

- وقد كلمنى !

فسألها هيرتون :

- وماذا قال لك ؟

- طلب إلى أن أبتعد عنه بأسرع ما يمكنى ! .. ولكنه كان يبدو مختلفا كل الاختلاف عن مظهره المعتاد بحيث وقفت لحظة أحقد النظر في وجهه ..

- وكيف ؟

- انه يكاد يكون مرحا وضاء الحيا .. كلا .. ان ذلك لا يكفى لوصفه .. كان شديد الانفعال ، يطفح وجهه بشرا وسرورا ضاريا ..

فقلت متظاهرة بعدم الاكتراث :

- ان النزاهات الليلية تسليه كثيرا إذن ..

ولكنى في الحقيقة كنت أشد منها دهشة ، وتلهفت على التحقق من صدق ما قالته .. فان رؤية السيد مرحا مسرورا ليست من المشاهد العادية التى يراها المرء كل يوم .. وانتحلت عذرا لقيامى ، ثم مضيت إلى الداخل .. وكان مستر هيشكليف يقف في فتحة الباب ، شاحب الوجه ، يرتعد بدنه رعدة واضحة .. ولكن من المحقق ان عينيه كانتا تشعان ببريق غريب يفيض سرورا ، ويبدل شكل وجهه تبديلا ..

فقلت :

- ألا تريد بعض الطعام لإفطارك ؟

وكنت أريد ان اكتشف أين قضى ليلته ، ولكنى لم أرد سؤاله مباشرة ، فأردفت أقول :

- لابد ان تكون جائعا الآن بعد ان ظللت تجول في الخارج الليل بطوله ..

فأشاح بوجهه وقال في شيء من الازدراء كأنما حدثس محاولتى في استكناه سبب مرجه وانطلاقه :

- كلا .. لست جائعا !

فشعرت بالحيرة والارتباك ، ولم أدر ما إذا كانت الفرضة سانحة لالقى عليه قليلا من النصيح والارشاد ، فقلت :

- لا اظن من الصواب ان تقضى الليل هائما على وجهك في الخارج ، بدلا من أن تقضيه في الفراش ، فان ذلك ليس من الحكمة في شيء ، في هذا الفصل الشديد الرطوبة .. وفي ظنى أنك سوف تصاب ببرد أو حمى ، فان بك شيئا ما الآن !

- ليس بى الا ما أطيق احتمالاه ، وبسرور عظيم ، على أن تتركينى وشأنى .. امضى إلى الداخل ، ولا تضايقينى !

قاطعته .. ولاحظت اثناء مرورى بجانبه ان أنفاسه كانت سريعة متلاحقة كأنفاس القطط .. فقلت لنفسى :

- نعم .. سوف تصيبه نوبة من المرض .. ولكنى لا افهم ما الذى كان يفعله ..

وفي ظهر ذلك اليوم ، جلس معنا على مائدة الغداء ، وتلقى من يدي طبقا مليئا بالطعام ، كأنما يريد ان يعوض ما فاته في صومه الماضي .. ولم يفته ان يشير إلى حديثي معه في الصباح ، فقال :

- ليس بى برد او حمى يا نللى .. وسوف ترين اننى على استعداد لالتهام الطعام الذى قدمته لى !

وتناول شوكتة وسكينته ، وهم بان يبدأ طعامه ، عندما بدا كأنما غاضت شهيته فجأة ، فوضعها أمامه على المائدة ثانية ، وراح يتطلع نحو النافذة فى لهفة ، وما لبث ان نهض وانطلق إلى الخارج .. وراياه يذرع الحديقة ذهابا ورجوعا بينما رحنا نتم طعامنا ، وعندئذ قال ايرنشو انه سوف يذهب ويسأله عن سبب عدم رغبته فى الطعام ، فقد ظن اننا كدرناه بطريقة ما ..

فلما رجع صاحبت كاترين تسأله :

- حسنا .. هل هو قادم ؟

- كلا .. ولكنه ليس جائعا .. وهو يبدو وقد غمره سرور نادر الوقوع حقا .. غير انه ضاق بى ذرعا عندما خاطبته مرتين ، فطلب إلى ان اتركه والحق بك ، وأبدى عجبته كيف يمكننى ان انشد صحبة اى انسان غيرك !

ووضعت طبقه فوق حاجز المدفأة ليظل ساخنا .. وقد عاد إلى الحجرة بعد ساعة او ساعتين عند ما كانت خالية منا .. ولكنه لم يبد اكثر هدوءا وسكينة .. كانت تبدو

تحت حاجبيه الاسودين تلك النظرة الغريبة نفسها التى تفيض بهجة وسرورا ، وهى نظرة غريبة شاذة حقا .. ثم ذلك اللون الشاحب نفسه ، كان وجهه قد خلا من الدماء .. كان فمه منفرجا ، واسنانه بادية للعيان ، فى نوع من الابتسام الغريب ! .. وكان بدنه كله يرتجف ، لا كما يرتجف المرء من البرد او الضعف ، بل كما يرتجج وتر مشدود إلى أقصى احتماله .. كان ما به هزات قوية ، أكثر منها رعدة عادية .. وقلت لنفسى اننى سوف أسأله عما دهاه .. ومن غيرى اخلق بسؤاله ؟ .. فهتفت قائلة :

- هل تلقيت اية انباء سارة يا مستر هيثكليف ، فانك تبدو منتعشا إلى حد غير مالوف ؟

- ومن أين تأتي انباء السارة ؟ .. إننى منتعش بسبب الجوع ، ولكنى ، فيما يبدو ، لا ينبغي ان أكل شيئا .. - ان طعامك هنا على المدفأة ، فلماذا لا تتناوله ؟

فغمغم فى عجلة :

- لست أريده الآن ، وسوف أنتظر حتى العشاء .. ثم اننى أرجوك يا نللى للمرة الأخيرة ، ان تندرى هيرتون والآخرى بان يبعدا عن طريقى .. اننى لا أريد ان يززعجنى أحد ، وأريد ان تكون لى هذه الحجرة وحدى .. فسألته :

- هل من سبب جديد لهذا الابعاد ؟ .. خبرنى لماذا تبدو غريبا إلى هذا الحد يا مستر هيثكليف ؟ .. واين كنت

في الليلة الماضية؟ .. اننى لا ألقى عليك هذه السؤال لمجرد الفضول وحب الاستطلاع ، ولكن ..

فقاطعنى ضاحكا :

— بل انك تلقين هذا السؤال بأشد ما يكون الفضول وحب الاستطلاع .. ومع ذلك فسوف اجيب عنه .. لقد كنت في الليلة الماضية على اعتبار الجحيم ! .. اما اليوم فاننى على مرمى البصر من جنتى ! .. ان عيني مركبتان عليهما ، ولا يبعدنني عنها غير ثلاثة اقدام ! .. والآن ، خبيرك ان تنصرفي ، ولن ترى او تسمى شيئا يفرعك ، ولو امتنعت عن التجسس والتلصص !

فانصرفت خارجة ، بعد ان نظفت الأرض والمائدة ، وانا أشد ما أكون حيرة واضطرابا ..

ولم يفارق حجرة الجلوس ثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، كما لم يتطفل احد على وحدته وعزلته .. حتى إذا ما بلغت الساعة الثامنة ، قدرت ان من الأفضل ان أحمل إليه عشاءه وشمعة موقدة ، برغم انه لم يدعى .. فرأيته مستندا إلى حافة نافذة مفتوحة ، ولكنه لم يكن ينظر إلى الخارج ، بل كان يدير وجهه نحو داخل الحجرة المظلمة .. وكانت النار في المدفأة قد تحولت إلى رماد ، وامتلات الحجرة بهواء تلك الامسية التي تحفل سماؤها بالسحب ، ذلك الهواء البارد المشبع بالرطوبة .. وكان الجو ساكنا بحيث لم نكن نميز همسات المياه في قناة « جيمرثون » فحسب ، بل كنا نسمع قرقرتها وخربرها فوق الحصى وخلال الأحجار الكبيرة التي

تعترض سبيلها .. فصحت في سخط إذ رايت الموقد موحشا كئيبا ، وبدأت أغلق النوافذ واحدة بعد الأخرى ، حتى بلغت النافذة التي يجلس بجوارها ، فقلت :

— هل يجب ان أغلق هذه ايضا ؟

وكنت ارمى إلى ان انبهه حتى ينهض من مكانه ، لانه لم يكن يريد ان يتحرك قط .. وعندئذ ومض ضوء الشمعة فوق اساريره ..

اواه يامستر لوكوود ! .. اننى لا استطيع ان أعبرك عن الانتفاضة الفظيعة التي هزت كياني هذا من ذلك المنظر الذي وقعت عليه أنظاري في تلك اللحظة القصيرة ! .. هاتان العينان السوداوان العميقتان ! .. وهذه الابتسامة ! .. وذلك الشحوب الذي يشبه صفرة الموتى ! .. انه لم يكن يبدو امامي مستر هيثكليف ، وإنما كان ماردا من الجن ! .. وفي غمرة الفزع الذي ألم بى ، تركت الشمعة تميل على الجدار فانطقات وتركتنى في الظلام ..

وعندئذ اجاب بصوته المؤلف :

— نعم .. اغلقها .. ولكن حسبك هذا التخبط ! .. لماذا امسكت بالشمعة في وضع أفقى ؟ .. أسرعى ، واحضرى غيرها ..

فهرعت خارجة في فزع أحقق ، وقلت لجوزيف :

— ان السيد يريد ان تحمل إليه ضوءا وتشعل النار في المدفأة ..

فانى لم اجد الجراة على الذهاب إلى هناك مرة اخرى وقتئذ ..

وحمل جوزيف بعض الجمر في المجرفة، ومضى إلى الداخل .. ولكنه عاد بها على الفور ، وفي يده الاخرى صفحة الطعام ، قائلا إن مستر هيثكليف قام ليذهب إلى فراشه ، وانه لا يريد شيئا من الطعام حتى الصباح .. وسمعناه للتو يصعد الدرج ، ولكنه لم يذهب إلى حجرته العادية ، بل تحول نحو تلك الحجرة الاخرى التي تحوى الفراش ذا الخزانة الخشبية .. وكانت نافذتها ، كما اخبرتك من قبل ، عريضة تكفى لمروور أى شخص منها ، فطرا على فكرى انه يدبر رحلة اخرى من رحلات منتصف الليل ، لا يريد ان نشك في امرها او نعرفها ..

قلت لنفسى : « ايكون غولا أم من مصاصى الدماء ؟ » .. فقد سبق ان قرأت عن مثل هذه الشياطين الفظيعة المتجسدة ..

ولكنى ما لبثت أن ركزت تفكيرى في تذكر كيف تعهدته في طفولته ، واشرفت عليه وهو ينمو إلى طور الشباب ، وكيف لازمته خلال حياته كلها تقريبا ، فبدأ اى من السخف ان استسلم لمثل هذا الشعور بالفزع ! .. ولكن الوسواس والخرافات عادت تهمس لى ، بينما كان النعاس يقود خطاى نحو اللاشعورية : « ولكن من اين اى ذلك الشيء الأسمر ، الذى آواه رجل طيب - ذات يوم - فحاق به وبأسرته الدمار ؟ .. » وبدأت ، فيما يشبه الحلم ، أكد ذهنى في تخيل من يصلح لان

يكون والده ، او والدته ! .. ثم رحت استميد تأملات اليقظة ، واستعرض حياته كلها مرة اخرى ، مع اختلافات قاتمة .. واخيرا صورت موته وجزائزته التى لا اذكر عنها إلا ما انتابنا من الضيق عندما أردنا ان نملى العبارة التى تكتب على قبره ، وكيف استشرت حفار القبور في ذلك .. لم يكن له اسم ، ولم تكن نعرف عمره ، فاضطررنا إلى ان نقتع بكلمة واحدة هى « هيثكليف » .. وقد صح حلمى في ذلك ، لان هذا ما حدث فعلا .. ولو دخلت إلى المقبرة لما قرأت على شاهد قبره إلا هذه الكلمة ، وتاريخ موته ..

واعاد لى بزوغ الفجر هدوئى واتزانى ، فنهضت وخرجت إلى الحديقة ، بمجرد ان اصبحت الرؤية ممكنة ، لاتحقق مما إذا كانت هناك آثار أقدام تحت نافذته .. ولكنى لم اجد شيئا منها .. فقلت لنفسى : « لقد بقى في المنزل ، وسوف يكون بخير اليوم » .. وأعددت طعام الافطار لاهل المنزل جميعا ، كعادتى كل يوم ، ولكنى طلبت إلى هيرتون وكاثارين ان يتناولوا افطارهما قبل ان ينزل السيد ، لانه تاخر في النوم .. ففضلا ان يتناولاه في الحديقة تحت الاشجار ، وزودتهما بمائدة صغيرة حتى يجلسا في راحة ..

فلما عدت إلى المنزل وجدت مستر هيثكليف في الطابق السفلى .. كان يتحدث مع جوزيف عن بعض شئون الزراعة ، ويصدر اوامر واضحة دقيقة في الأمر الذى كانا يبحثانه .. ولكنه كان يتكلم في عجلة ، ويدبر رأسه جانبا باستمرار ، وفي محياه طابع ذلك الانفعال نفسه ، بل لقد

ازداد مغالة فيه .. فلما غادر جوزيف الحجرة ، اتخذ مجلسه في المكان الذي يفصله عادة ، وعندئذ وضعت امامه قدحا كبيرا من القهوة .. فأدناه إليه ، ثم مد ذراعيه فوق المائدة ، ونظر إلى الجدار المقابل وهو يتفردس - كما حسبت - في قسم معين منه ، إلى الأعلى وإلى الأسفل ، بعينين قلقتين لامعتين ، وفي اهتمام ولهفة بحيث كف عن التنفس أكثر من نصف دقيقة !

فدفعت إلى يده قطعة من الخبز ، قائلة :

- هيا .. خذ هذه فكلها ، واشرب قهوتك وهي ساخنة ، فقد انتظرت الإفطار ما يقرب من الساعة ..

ولكنه لم ينتبه إلى .. ومع ذلك كان يتسهم باستمرار .. ووددت لو أنى أراه يصير على أسنانه ويكشر عن أظنانه ، فذلك خير من هذه الابتسامة .. وعندئذ صحت :

- مستر هيثكليف ! .. سيدى ! .. بحق السماء لا تحمق بأنظارك هكذا كأنك ترى مشهدا خارقا للطبيعة ..
فاجاب :

- وبحق السماء لا تصرخي هكذا عاليا ! .. انظري حواليك وخبريني هل نحن وحدنا ؟

- طبعا ! .. إننا وحدنا طبعا !

ومع ذلك فاننى اطعته بحركة غير إرادية ، كما لو كنت غير واثقة تماما .. وعندئذ أزاح أوانى الإفطار بحركة من يده وأفسح بينها مكانا امامه ، ثم مال إلى الامام ليمعن النظر في مزيد من الراحة واليسر ..

وفي تلك اللحظة تبينت انه لم يكن ينظر إلى الجدار .. لاننى عندما ركزت انتباهى فيه وحده ، كان يبدو تماما كأنما يحديق النظر في شيء يبعد عنه بنحو ياردينين .. ومهما يكن من امر ذلك الشيء ، فانه كان فيما يظهر ، ينقل إليه السرور والالام معا ، بأقصى ما فى كليهما من سحر .. أو على الأقل هذا ما كانت توحى به تعبيرات وجهه التى تنبض بالعذاب واللوعة والنشوة معا ! .. ولم يكن ذلك الشيء الذى يتخيله ثابتا .. فقد كانت كلتا عينيه تتبعانه فى مشابرة لا تكل ، وكانتا حتى وهو يتحدث إلى ، لا تتحولان عنه ولا تطرفان .. وعشا كنت اذكره بزهد الطويل عن الطعام .. فكلما استجاب لضراعتى مرة ، وتحرك ليمس شيئا منه ، ومد يده ليتناول قطعة من الخبز ، كانت أصابعه تنقبض وتنقلص قبل أن يصل إليها ، وتظل كذلك معدودة فوق المائدة ، غافلة عن هدفها ..

وظللت جالسة ، مثالا للصبر والناة ، أحاول بين وقت وآخر أن أثير انتباهه ، وأنتزعه من تأملاته التى تستغرقه كله ، حتى ضاق بى ذرعا ، ونهض متمللا ليسألنى لماذا لا اسمح له بأن يتناول طعامه على مهل ؟ .. ثم ليقول لى أن لا حاجة بى إلى الانتظار معه فى المرة القادمة ، بل على أن أعد المائدة وأنصرف .. وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى غادر المنزل ، ومضى يسير فى ممر الحديقة متلكتا ، حتى اختفى عن الأنظار وهو يجتاز البوابة ..

ومضت بى الساعات تزحف فى قلق وانشفال ، وحلت ليلة اخرى .. ومكثت ساهرة ، فلم اذهب إلى حجرتى

لأنال قسطنطين من الراحة إلا في وقت متأخر .. وعندئذ لم يطرق النوم عيني .. أما هو فقد عاد بعد منتصف الليل ، ولكنه بدلا من أن يأوى إلى حجرته ، أوصد على نفسه باب الحجره السفلى .. فرحت أنصت وأرهف السمع واتامل في الفراش ، وأخيرا قمت فارتديت ثيابي وهبطت إلى الطابق الأرضي .. فقد كان من المضحى أن أظلم راقدة أرهق مخي بمشاكل من الشكوك والأوهام .. وتبينت خطوات مستر هيشكليف وهو يذرع الحجره في قلق واضطراب ، كأنما كان يقيس البلاط .. وكان كثيرا ما يخرق السكون بتنهيد عميق أشبه بالانين .. وكان كذلك يتمم بكلمات متقطعة لم أستطع أن أميز منها إلا اسم كاترين مقررنا بالفاظ وحشية تنم على الاعتزاز والتدليل أو الألم .. وكان ينطق بها كأنما يخاطب شخصا حاضرا أمامه ، في صوت خافت ولهفة مضطربة ، كأنما يعصرها من أعماق قلبه .. ولم أجد الجراة على اقتحام الحجره مباشرة ، ولكنني كنت أود أن أنتزعه من أحلامه ، فمضيت إلى المطبخ ونفست عن صدري بتقليب نيران المدفأة وإزالة رمادها .. وقد جذبته ذلك بأسرع مما توقعت ، فقد فتحت الباب على الفور ، وقال :

- تعالی إلى هنا يا نللي ، وأحضري معك ضوءا ! .. هل نحن في الصباح الآن ؟

- انها تدق الرابعة .. اترید شمعة لتصعد بها إلى حجرتك ؟ .. كان ينبغي أن تشعل واحدة من نار الموقد ..

- كلا .. لست أريد أن أصعد إلى حجرتي .. ادخلي ، واشعلي لي نارا ، وافعلي أي شيء هنا في الحجره ..

- ولكن يجب أن أنفخ على الفحم المتقد أولا قبل أن أستطيع احضار شيء منه إلى هناك ..

ثم حملت مقعدا ، واخذت المنفاخ وجلست أمام النار .. أما هو فكان في هذه الأثناء يهيم على وجهه ذهابا وجيئة وفي حالة تقرب من الدهول .. وكانت تنهداته الثقيلة تتتابع واحدة في إثر الأخرى بحيث لا تكاد تترك بينها فراغا للتنفيس .. وما لبث أن قال :

- عندما يطلع النهار سوف أبعث في طلب جرين .. فاني أريد أن أستوضحه بعض الأمور القانونية بينما أنا قادر على التفكير في مثل هذه الأمور ، وبينما أستطيع التصرف في هدوء .. انني لم اكتب وصيتي بعد ، ولم أقرر حتى الآن كيف اترك ثروتى .. وشد ما وددت لو أننى أستطيع محوها من على ظهر الأرض ! فتدخلت قائلة :

- انني ما كنت لاقول ذلك يا مستر هيشكليف .. دع امر وصيتك فترة أخرى ، فما زال أمامك ما يكفي من الوقت للتفكير عن ممالك الكثيره ! .. وما توقعت البتة أن تنهار أعصابك إلى هذا الحد .. نعم ، فانها الآن قد بلغت غاية الانهيار .. ويكاد يكون ذلك كله راجعا إلى غلطتك ، فان الطريقة التي قضيت بها الأيام الثلاثة الاخيرة خليقة بأن تصرع الجبابرة .. فهلا تناولت بعض الطعام ، ونلت شيئا من الراحة ؟ .. يكفيك أن تنظر إلى نفسك في المرآة لترى مبلغ

حاجتك إلى كليهما .. لقد برزت عظام وجنتيك ، وأصبحت عيناك في لون الدماء ، أشبه بشخص يوشك على الموت جوعا ويوشك على فقد بصره سهدا ..

فأجاب :

- انها ليست غلطى اننى لا استطيع أن أكل أو استريح ، وثقى أن ذلك ليس خطة موضوعة أرمى بها إلى هدف معين .. فسوف أكل واستريح عندما أجد ذلك في قدرتى .. ولكنك كمن يأمر رجلا يصارع الأمواج بأن يرتاح وهو على قيد ذراع من الشاطئ ..! يجب أن ابلغه أولا ، ثم استريح بعدئذ .. حسنا .. دعينا من مستر جرين الآن ..! اما التكفير عن جورى وعسفى ، فانى لم أقترف جورا أو عسفا ، وليس لدى ما أندم عليه أو أكفر عنه ..! اننى سفيد غاية السعادة ، ومع ذلك فاننى لست سعيدا إلى الحد الذى يكفينى ..! ان هناء روحى هو الذى يقتل جسدى ، ولكنه مع ذلك لا يشبع روحى نفسها !

فصحت به :

- سعيد يا سيدى ؟.. ما أغربها من سعادة ..! ولكنك إذا رضيت بأن تستمع لى بغير غضب ، فربما استطعت أن اسدى إليك نصيحة تجعلك أعظم سعادة ..

فسالنى :

- ما هى ؟.. هايتها ..

- انك تعلم تماما يا مستر هيثكليف انك منذ ان كنت فى الثالثة عشرة من عمرك ، كنت تعيش حياة ملؤها الاثرة ، مجردة من التقى والتدين ، بل لعلك لم تمسك فى يدك كتابا مقدسا طوال هذه المدة .. ولا بد ان تكون قد نسيت ما فيه ، وربما لا تجد الآن فسحة من الوقت لدراسته بنفسك .. فهل يضيرك ان تبعث فى طلب احد رجال الدين - من اى مذهب ، فان ذلك ليس بذى بال - ليشرح لك اوامره ونواهيه ، ويريك إلى اى حد شردت بعيدا عن احكامه ، وكيف اصبحت بذلك غير خليق بجنة السماء ، ما لم يحدث تغيير فى نفسك قبل ان تموت ؟

- ان شكرى لك يا نللى يحجب غضبى منك .. لانك ذكرتنى بالطريقة التى اريد ان ادفن بها ..! اريد ان يحمل جثمانى إلى المقبرة فى المساء ، ويمكن لك ولهيرتون أن تصحبانى إليها ، إذا شئتما ..! وعليك أن تحرصى ، بصفة خاصة ، على إطاعة حفار القبور لتعليماتى بشأن التابوتين ..! وما من حاجة لحضور احد رجال الدين ، أو الصلاة على قبرى ..! فانى اقول لك اننى اوشكت على بلوغ جنتى ..! اما جنة الآخرين فلا اقيم لها وزنا ولا أشتهيها !

فقلت وقد فجعنى كفره وعدم أكثراته :

- وهب انك ثابت على صومك وعنادك ، مما أدى إلى موتك ، ورفضوا ان يدفنوك فى فناء الكنيسة ؟.. فكيف ترضى عن ذلك ؟

— أنهم لن يفعلوا ذلك !.. ولو فعلوه ، فيجب ان تتولى نقلى خفية !.. اما إذا اهتمت ذلك ، فسوف يثبت لك ، عمليا ، أن الموتى لا يتلاشون نهائيا !

وما كاد يسمع أفراد العائلة الآخرين وقد دبّت حركتهم في البيت ، حتى انسحب إلى عرينه .. وعندئذ تنفست الصعداء !.. ولكنه أتى إلى المطبخ ثانية بعد الظهر ، بينما كان جوزيف وهيرتون غائبين في عملهما ، وطلب منى ، وهو يرمقني بنظرات وحشية ، أن اذهب لأجلس معه في حجرة الجلوس .. كان يريد أى شخص معه .. ولكنى أبيت ، وأفهمته صراحة أن حديثه ومسلكه الغريبين قد أفرغاني ، وأنه ليس بى من رغبة ، أو أعصاب ، لاكون رفيقته وحدنا ..

فاطلق ضحكته البشعة ، وقال :

— أحسبك تظنيننى شيطانا .. شيئا فظيعا لا يليق لأن يعيش تحت سقف بيت محترم ..

ثم تحول إلى كائرين ، التى كانت معى ، والتى احتمت خلفى عند اقترابه ، واستطرد يقول فيما يشبه التهكم :

— هل لك ان تأتى ، يا دجاجتى !.. انتى لن أوذيك .. كلا ؟.. لقد جعلت نفسى فى نظرك أسوا من الشيطان إذن ! .. حسنا .. ان هناك واحدة لا تنفر من صحبتى .. يا إلهى !.. انها خالية من الرحمة ، لا تلين !.. يا للجنة !.. ان ذلك مما لا يطيقه إنسان من لحم ودم ، حتى انا !

ولم يعد ينشد رفقة أحد بعد ذلك ، وعند الفسق أوى إلى حجرته .. وكنا نسمعه اثناء الليلة بطولها ، وحتى الصباح المتأخر ، لا يكف عن الانين او يكلم نفسه .. فاستبد القلق بهيرتون ، وأراد أن يدخل عليه حجرته ، ولكنى طلبت إليه أن يذهب لإحضار الطبيب كينيث ، ليدخل إليه ويفحصه .. فلما أتى الطبيب ، رحب أتوسل إليه أن يسمح لنا بالدخول ، وحاولت فتح الباب ، فوجدته موصدا .. وعندئذ انطلق هيثكليف يسبنا ويلعننا ويقول انه احسن حالا ، ويريد ان ندعه وشأنه .. وهكذا عاد الطبيب من حيث أتى ..

وكانت الليلة التالية غزيرة المطر .. والواقع انه ظل ينهمر حتى مطلع الفجر .. فلما مضيت أقوم بجولتى حول المنزل كعادتى كل صباح ، وجدت نافذة حجرة السيد مفتوحة ، والهواء يطوح مصاريعها ، والمطر يتدفق إلى الداخل .. فقلت لنفسى انه لا يمكن أن يكون فى فراشه .. فان هذه السيول خليقة بأن تفرقه حتى تبلل عظامه .. ولا بد أن يكون قد استيقظ من نومه ، او انه غادر المنزل .. ولكنى لن اثير ضجة او جلبة ، بل سوف اذهب فى جراءة لأرى الحقيقة بنفسى ..

وافلحت فى الدخول إلى الحجرة بمعونة مفتاح آخر ، ثم أسرعت لأزيع الألواح الخشبية لخزانة الفراش ، لأن الحجرة نفسها كانت خالية ، فدفعتها جانبا فى هجلة وهفة ، واسترقت النظر إلى داخلها ..

كان مستر هينكليف هناك ، راقدا على ظهره .. والتقت عيناه بعيني فاذا فيهما نظرة ثاقبة ضارية .. فاجلقت .. وعندئذ بدا كأنه يتنسم .. ولم يكن في وسعي أن أحسبه ميتا ، ولكن المطر كان يغمر وجهه وعنقه ، وكانت أفطية الغراش تقطر ماء ، وكان هو جامدا بلا حراك ! .. وكان مصراع النافذة ، والهواء يطوحه هنا وهناك ، قد كشط جلد إحدى يديه ، وكانت مستقرة على إفريز النافذة ، ولكني لم أر اثرا للدماء حول الجلد الممزق ، فلما لمستہ بأصابعي ، لم يعد ثمة مجال للشك .. كان ميتا ، متيبسا !

فتفتحت مصراعي النافذة وثبتتهما ، ورحت أمشط شعره الأسود الطويل إلى الخلف ، لأزيحه عن جبهته .. ثم حاولت أن أغمض عينيه لأطفئ - أن استطعت - تلك النظرة الثاقبة المخيفة التي تنم عن الرضى والابتهاج ، وكأنها تنبض بالحياة ، قبل أن يراها أحد غيري .. ولكنها لم تلتن تحت أصابعي ، ولم تستجب لي ، بل كانت تبدو كأنها تهزأ بمحاولاتي ! .. بل إن شفثيه المنفرجتين ، وأسنانه الحادة البيضاء ، كانت كأنها تهزأ بي هي الأخرى .. وعندئذ تملكنتي نوبة أخرى من الخور والجزع ، فصحت استنجد بجوزيف ..

وصعد جوزيف الدرج في جلبة وضوضاء ، وهو يجسر قدميه جرا .. ولكنه رفض في أصرار أن يكون له به شأن أو يمد إليه يدا ، وصاح :

- لقد خطف الشيطان روحه ، فليتول أمر جيفته ايضا ! ..
فما يعنيني ذلك في شيء .. اف ! .. انه يبدو شريرا حتى في موته !

وكشر العجوز الاثيم عن تواجده في سخرية واستهزاء ، وظننته بهم بأن يطوف حول الفراش راقصا ، ولكنه ما لبث أن استعاد سكينته ، وجشا على ركبتيه ، ورفع يديه إلى السماء ، ثم راح يتلو صلوات الشكر لله على استعادة سيد الدار الشرعى حقوقه الضائعة ، وتراثه التليد ..

أما انا فقد روعتنى وثلت حواسي تلك الحادثة الرهيبة .. غير أن ذاكرتى لم تملك إلا أن تعود إلى الأيام الخوالي في نوع من الحزن المعض .. ولكن هيرتون المسكين ، وكان أكثرنا استهدافا للظلم ، كان الوحيد الذي عانى الما حقيقيا .. فقد قضى الليل بطوله جالسا إلى جوار الجثة ، يبكي في جزع مرير .. وكان يضغط على يده ، ويقبل ذلك الوجه الوحشى الساخر الذي كان كل انسان غيره يجفل من مرآه ، ويندبه بذلك الحزن القوى الذى ينبع بطبيعة الحال من قلب كريم ، مهما كان قاسيا كالصلب المطروق ..

وچار الطبيب كينيث في تقرير سبب موت السيد .. وأخفيت تلك الحقيقة الواقعة وهي أنه لبث أربعة أيام لم يدق خلالها شيئا ، خشية أن يقودنا ذلك إلى متاعب لا داعى لها .. ولكني كنت مقتنعة أن صيامه كان نتيجة لمرضه الغريب ، لا سببا له ..

وقد قمنا بدفنه ، لدهشة اهل الجيرة جميعا واستنكارهم ، حسب مشيئته .. فلم يحضر دفنه سوى ، وسوى هيرتون ، وحفار القبور ، وستة رجال كانوا يحملون النعش .. وقد مضى الرجال الستة لشأنهم بعد أن انزلوا التابوت في القبر ،

ولكننا بقينا حتى اهبل عليه التراب .. وكانت الدموع تغمر وجه هيرتون عندما راح يخلع جذور العشب ويفرسها فوق قبره - وهي الآن يانعة خضراء كتلك التي تغطى القبرين الآخرين - وشد ما أرجو أن يكون ساكنه ينام نوما عميقا كساكنيهما ..

ولكنك إذا سألت الريفيين فسوف يقسمون على الكتاب المقدس انه يسير على قدميه !.. فهناك من يتحدثون عن لقاءهم به بالقرب من الكنيسة ، او فوق البراري ، بل حتى في هذا المنزل !.. سوف تقول انها خرافة سخيفة ، وكذلك أقول انا .. ومع ذلك فان ذلك الشيخ الجالس بجوار المدفأة يؤكد انه رأى الاثنين معا يتطلعان من نافذة حجرته في كل ليلة ممطرة منذ وفاته !

ثم اننى وقع لى أمر غريب منذ شهر تقريبا .. كنت ذاهبة إلى « الجرانج » ذات مساء - وكانت أمسية مظلمة تنذر بالرعد والمطر - فما أن بلغت منحني الطريق القادم من « المرتفعات » حتى قابلت صبيا صغيرا أمامه شاة وحملان .. كان يبكي بكاء مروعا ، فحسبت الحملين يشاكسانه ولا يستجيبان لقيادته .. فسألته :

- ماذا هناك ايها الرجل الصغير ؟

فغمغم يقول وهو ينظر باكيا :

- هناك هينكليف وامرأة معه ، تحت تلك الاكمة .. ولست اجرؤ على المرور بهما ..

ونظرت ، فلم ار شيئا .. ولكن لا هو ، ولا الخراف ، رضى أن يتحرك خطوة واحدة إلى الامام .. فأمرته بأن يسلك طريقا آخر أسفل ذلك الطريق .. والأرجح انه كان يتصور وجود الأشباح من كثرة تفكيره فيها ، وهو يقطع البرارى وحده ، من كثرة ذلك الهراء الذى يسمع والديه ورفاقه يرددونه .. ومع ذلك فائنى ، الآن ، لا احب الخروج في الليل !.. ولا احب ان أترك وحدى في هذا المنزل الكئيب !.. ان الامر ليس بيدى ، ولا حيلة لى فيه !.. وسوف اسعد كثيرا عندما يتركان هذا المنزل ويذهبان للاقامة في « الجرانج »

فقلت :

- هل ينويان الذهاب إلى الجرانج اذن ؟

فأجابت مسردين :

- نعم ، بمجرد زواجهما في اول العام الجديد ..

- ومن الذى سيقم هنا اذن ؟

- سوف يبقى جوزيف للعناية بالمنزل ، وربمابقى معه احد الفلمان ليكون رفيقا له .. وسوف يعيشان في المطبخ وتوصد باقى حجرات المنزل ..

فغمغمت قائلا :

- نعم .. ليمرح فيه اى عدد من الأشباح تطيب له الإقامة به !

ولكن تल्ली هزت رأسها قائلة :

- كلا يامسز لوكوود !.. اننى اعتقد ان الموتى يرقدون

في سلام !.. ولكن ليس من الصواب ان يتحدث المرء عنهم في طيش ورمونة !

وفي تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة في دفعة قوية .. فقد كان الصاحبان عائدين من جولتهما .. فقلت مزمجرا ، بينما كنت ارقب من خلال النافذة اقترابهما :

- ولكن هذين لا يخافان شيئا .. انهما - معا - خليقان بأن يواجها الشيطان وعصبته جفيعا !

وفيما كانا يخطوان إلى سلم الباب ، ثم يتمهلان ليلقيا نظرة اخيرة على القمر الساطع - او على الاصح لينظر كل منهما إلى الآخر - شعرت بدافع لا يقاوم يستحشني ثانية على تجنب لقائهما .. فدست شيئا للذكرى في يد مسز دين ، وتسلمت - غير عابىء باحتجاجها على فظاظتى - إلى المطبخ بينما كانا يهمان بالدخول من باب حجرة الاستقبال .. ولعل ذلك كان خليقا بأن يؤيد رأى جوزيف في امر مغامرات زميلته مسز دين ، لولا انه لحسن الحظ قد عرف اننى شخص فاضل محترم ، من ذلك الرنين الجميل لقطعة الذهب التى القيتها عند قدميه ..

.....

ولقد طال مسيرى نحو منزلى ، بسبب تحولى نحو الطريق إلى الكنيسة .. فلما بلغت مكانها ، ووقفت تحت جدرانها ، تبينت أن الخراب قد تقدم بها شأوا بعيدا فى السبعة الشهور الماضية .. فكم من نافذة كانت تبدو فجوة سوداء

خالية من الزجاج ، وكم من احجار برزت من مواضعها ، والواح انقلبت من اماكنها فى الاسقف ، لتصبح وشيكا فريسة سهلة لعواصف الخريف المقبلة ..

وبحثت ، وسرعان ما عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر ملاصقة للبرارى .. كان اوسطها داكن اللون يعلو فوقه العشب حتى يوشك أن يغطيه كله .. أما شاهد قبر ادجار لينتون فان الطحالب والحشائش كانت تزحف عند اعتابه .. بينما كان شاهد قبر هيشكلييف ما يزال عاريا مجردا ..

تلكأت حولها ، تحت تلك السماء الصافية ، ورحت ارقب الفراشات وهى ترفرف بأجنحتها بين الهيش والحشائش ، واصفى إلى همسات الريح الرقيقة وأنفاسها بين العشب ، واعجب كيف يمكن لآى امرىء أن يتصور نومة قلقة مضطربة لأولئك الذين ينامون فى هذه الأرض الهادئة الساجية ..

((تمت))

في سلام ..! ولكن ليس من الصواب ان يتحدث المرء عنهم في طيش ورعونة!

وفي تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة في دفعة قوية .. فقد كان الصاحبان عالدين من جولتهما .. فقلت مزمجرا ، بينما كنت ارقب من خلال النافذة اقترابهما :

- ولكن هذين لا يخافان شيئا .. انهما - معا - خليقان بأن يواجها الشيطان وعصيته جميعا !

وفيما كانا يخطوان إلى سلم الباب ، ثم يتملان ليلقيا نظرة اخيرة على القمر الساطع - او على الاصح لينظر كل منهما إلى الآخر - شمعت بدافع لا يقاوم يستحني ثانية على تجنب لقاؤهما .. فدست شيئا للذكرى في يد مسز دين ، وتسلفت - غير عابىء باحتجاجها على فظاظتي - إلى المطبخ بينما كانا يهمان بالدخول من باب حجرة الاستقبال .. ولعل ذلك كان خليقا بأن يؤيد رأى جوزيف في امر مغامرات زميلته مسز دين ، لولا انه لحسن الحظ قد عرف اننى شخص فاضل محترم ، من ذلك الرنين الجميل لقطعة الذهب التي القيتها عند قدميه ..

.....

ولقد طال مسيرى نحو منزلى ، بسبب تحولى نحو الطريق إلى الكنيسة .. فلما بلغت مكانها ، ووقفت تحت جدرانها ، تبينت ان الخراب قد تقدم بها شأوا بعيدا في السبعة الشهور الماضية .. فكم من نافذة كانت تبدو فجوة سوداء

خالية من الزجاج ، وكم من أحجار برزت من مواضعها ، والواح انقلت من اماكنها في الاسقف ، لتصبح وشيكا فريسة سهلة لعواصف الخريف المقبلة ..

وبحثت ، وسرعان ما عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر ملاصقة للبرارى .. كان أوسطها داكن اللون يعلو فوقه العشب حتى يوشك أن يغطيه كله .. أما شاهد قبر ادجار لينتون فان الطحالب والحشائش كانت تزحف عند أعتابه .. بينما كان شاهد قبر هيثكليف ما يزال عاريا مجردا ..

تلكأت حولها ، تحت تلك السماء الصافية ، ورحت ارقب الفراشات وهي ترفرف بأجنحتها بين الهيش والحشائش ، واصغى إلى همسات الريح الرقيقة وأنفاسها بين العشب ، واعجب كيف يمكن لاي امرىء ان يتصور نومة قلقة مضطربة لأولئك الذين ينامون في هذه الأرض الهادئة الساجية ..

((تمت))

www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^

مع تحيات منتدى ليلاس